التاريخ القويم

لمكة وبيت الله الكريم

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الأول

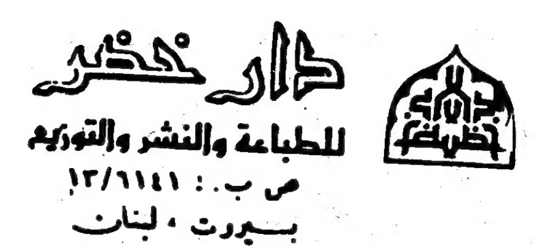
طبع على نفقة

معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

يطلب من مكتبة النهضة الحديثة
مكة المكرمة هاتف ٥٧٤٤٥٩٥





مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن لمكة المكرمة في نفوس المسلمين مكانة بارزة ، فإليها تتجه أفئدة الناس، ويقصدونها للحج والعمرة بشكل دقيق ومرسوم وفق مواقيت معيّنة ومحدّدة لأداء شعائر مفروضة .

وقد سعى كثير من علماء المسلمين إلى التأليف في تاريخ البلد الأمين ، وممن ألف في تاريخ مكة المكرمة الشيخ محمد طاهر الكردي المكي - رحمه الله - الذي ألف كتاباً أسماه : «**التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**» وقد ضمنه مباحث ومسائل شتى ومواضيع مهمة وتراجم لأهم الشخصيات والعلماء بمكة مؤيداً ذلك بصور فوتوغرافية ورسومات ولوحات من خطه ، حيث كان - رحمه الله - خطاطاً .

وقد يسر الله لي إعادة طبع هذا الكتاب محبة وإجلالاً لمكة المكرمة، وذلك بعد نفاذ طبعته الأولى التي طبعت عام ١٣٨٥هـ .

وقد رأيت أنه من الأفضل والأيسر إعادة صف هذا الكتاب ليكون قطعه من المقاس المعتاد بدلاً من القطع الكبير الذي كانت عليه الطبعة الأولى.

وقد جمعت صور ورسومات ولوحات هذا الكتاب في ملحق خاص بآخر الكتاب مشيراً إلى أماكنها بثنايا الكتاب، كما ذيلت هذا الكتاب بكشافين مهمين أحدهما للاعلام والثاني للأماكن .

وأحمد الله كثيراً وأثني عليه أن وفقني إلى إتمام هذا العمل الذي أرجو أن ينفعنا به ويتقبل منا صالح الأعمال ، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

د. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش

غرة رمضان ١٤٢٠هـ

التعريف بالمؤلف

إعداد الأستاذ الدكتور : عبدالوهاب أبو سليمان
عضو هيئة كبار العلماء

(١) الشيخ محمد طاهر الكردي

بقلم الأديب السعودي الكبير الأستاذ محمد علي مغربي[(١)]

قصير القامة معتدل الجسم ، ناتئ الجبهة تشوب بياضه صفرة خفيفة ، تزين وجهه لحية سوداء حليق شعر العارضين ، في عينيه حول خفيف تستره نظارة للقراءة، يرتدي الجبة الحجازية ويعتمّ بعمامة تستر الرأس والأذنين وهو بهذا يتخذ سيماء العلماء المكيين .

ولد بمكة المكرمة في عام ١٣٢١ للهجرة وتلقّى تعليمه بمدرسة الفلاح بمكة وتخرج منها في عام ١٣٣٩هـ وسافر بصحبة والده الشيخ عبدالقادر الكردي إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر الشريف ويقول الشيخ طاهر في ترجمته التي كتبها عن نفسه فاشتغل هناك بالعلوم الدينية والعربية كما اشتغل بتعلم الخطوط العربية بأنواعها وما يتعلق بها من الرسم والزخرفة والتذهيب بعد أن التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، ولما عاد من القاهرة اشتغل بتعليم الخط العربي بالمدارس ولذلك يعرف بالخطاط . انتهى ما كتبه الشيخ طاهر عن نفسه نقلاً عن كتابه "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" .

عرفت الشيخ طاهر الكردي في النصف الثاني من الخمسينات بمكة المكرمة ، وكان صديقاً حميماً لعمي الشيخ عبدالله مغربي -رحمه الله- وكنت أعرف أنه اشتهر بجمال الخط، وكان يحضر إلى متجر عمي وإلى داره بصورة يومية تقريباً ، كما كان يصاحبه إلى الحج كل عام ، وكان مظهر الشيخ طاهر متزمتاً متوقراً ولكنه إذا خلا بأصحابه تحول إلى شخص آخر كثير الدعابة والمرح .

---

(١) استخلصت هذه الترجمة من كتابه الجليل أعلام الحجاز ، (جدة : دار العلم للطباعة والنشر ، عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ، ج ٢ ، ص٣١٥ .

وكان الشيخ طاهر قد عاد من القاهرة بعد أن أكمل دراسته في الأزهر الشريف ولكنه لم يعمل فقد كانت الأعمال شحيحة والوظائف محدودة والركود يسود الحالة الاقتصادية .

مصحف مكة المكرمة

وفي أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات حضر الشيخ محمد طاهر الكردي إلى مكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بالطائف وطلب مقابلة الشيخ محمد سرور ليتحدث إليه في أمر ما، فطلبت منه الانتظار قليلاً حتى حضر الشيخ فقدمته إليه، وقلت فيما قلته أنه بارع في الخط براعة فائقة .

قال الشيخ طاهر للشيخ محمد سرور : إني عزمت على كتابة القرآن الكريم بخط يدي ، وأريد أن أقدم هذا المصحف إذا انتهيت منه إلى جلالة الملك عبدالعزيز .

قال الشيخ محمد سرور : إنها فكرة حسنة ولكن لي رأياً في الموضوع أقوله لك . إنك لو قدمت هذا المصحف المخطوط بعد إتمامه إلى جلالة الملك عبدالعزيز فسيكون له الوقع الحسن لدى جلالته وسيكافئك عليه مكافأة حسنة ، ولكن الفكرة أن هذا المصحف سيبقى مخطوطاً في خزانة الملك عبدالعزيز أمداً طويلاً ، ولديك هنا شركة تأسست حديثاً لتقوم بشئون الطباعة والنشر وأشار الشيخ محمد سرور إلى كاتب هذه الترجمة ، فلماذا لا تتفق مع هذه الشركة على شراء هذا المصحف الذي تنوي كتابته لتقوم هذه الشركة بطبعه ونشره بين الناس؟ .

وأبديت موافقتي على الفكرة كما أبدى الشيخ طاهر -رحمه الله- ترحيبه بها وواعدته الاجتماع في داري بعد الغروب .

وكنت أنا والمرحوم الصديق عبدالله باحمدين قد اشترينا مطبعة الشركة العربية للطبع والنشر وموجودات الشركة من الورق وما إليه بعد أن تعرضت للخسارة شهوراً عديدة ، وبحثت الموضوع مع المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين واتفق الرأي على أن كتابة المصحف ستكون بداية لعمل عظيم فهو أول مصحف يكتب في مكة المكرمة ، ويطبع فيها وينشر فيها ، حيث نزل القرآن أول ما نزل في مهبط الوحي في مكة المكرمة .

وحضر الشيخ طاهر إليَّ بعد الغروب وتمّ الاتفاق بينه وبيني على كتابة المصحف الشريف ، وكان الاختلاف الوحيد بيننا هو أنه حدّد المدة اللازمة لإتمام كتابة المصحف في حدود عامين ، وكنت أنا متعجلاً أرغب إتمام هذا العمل خلال عام واحد ، ولما رأى الشيخ طاهر -رحمه الله- إلحاحي قال لي إن هذا عمل بالغ الدقة ، وإنني لا أستطيع الإقدام عليه إلا وأنا في حالة نفسية متهيئة له التهيأ الكامل ثم أردف قد أبدأ بالكتابة وأستمر فيها أياماً أو أسابيع ولكن قد يطرأ ما يمنعني عن الإمساك بالقلم أياماً وأسابيع أخرى ، فدعني أتصرف بما يمليه عليَّ مزاجي ولا تنس أن الخط عمل فني ، مثل الرسم ، والشعر والكتابة ، والفنان لا يقدم على ممارسة فنه إلا إذا تهيأت له الأسباب النفسية أولاً ، وكنت أعرف أن ما يقوله الأستاذ طاهر صحيح كل الصحة فوافقت عليه .

هذا وقد طلب الشيخ طاهر ورقاً معيناً وأقلاماً وأحباراً معينة ، وكان الزمان زمن حرب ولكن الله تعالى يسر الأمر فوجدنا كل ما طلبه في مكة المكرمة .

وبدأ العمل واتفقنا أن يكون المصحف موافقاً للرسم العثماني ، ومضت الشهور وكنت كلما رأيت الشيخ طاهر سألته ماذا فعل؟ فيجيب أنه مستمر في عمله ، وكان قد أحضر لي بعض الصفحات من أوائل ما كتب وأطلعني عليها ، ثم عاد بعد أسابيع وأطلعني على نفس هذه الصفحات وقد كتبت مرة أخرى بخط أحسن وقال: إن هذا هو الفارق بالنسبة لمزاج الخطاط حينما يكتب .

ولا أريد الإطالة على القارئ فقد انتهى الشيخ طاهر من كتابة القرآن الكريم بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام ، وقبل الانتهاء كنا قد تقدمنا إلى الحكومة نطلب تأليف لجنة لتصحيح المصحف الذي قام بكتابته الشيخ طاهر -رحمه الله- فألفت الحكومة لجنة كبيرة مكونة من الشيخ عبدالظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام في ذلك الوقت والشيخ صالح حجازي شيخ القراء بمكة المكرمة ، والمرحومين السيد محمد شطا والسيد إبراهيم النوري من وزارة المعارف ، وقد باشرت اللجنة عملها ، وللتاريخ فإن الشخص الوحيد من بين أعضاء هذه اللجنة الذي تفرّغ للمراجعة والتصحيح وأعطى هذا العمل جهده وكامل اهتمامه هو المرحوم السيد إبراهيم النوري من وزراة المعارف ، وحينما عرضنا عليه مكافأة مقابل هذا الجهد اعتذر عن قبولها فاعتبرناه مساهماً في الشركة التي تألفت لهذا الغرض بنسبة معينة وقد ألفنا شركة خاصة لطبع القرآن ونشره في مكة المكرمة أسميناها شركة مصحف

مكة المكرمة واستوردنا لها مطبعة خاصة من أمريكا ولا تـزال الشـركة تحمـل هـذا الاسم حتى اليوم .

أوشك العمل في كتابة المصحف على الانتهاء كما أوشك التصحيح أن ينتهي وذات يوم اتصل بي المرحوم الشيخ عبدا لله باحمدين تلفونيـاً وطلـب مـني الحضـور إلى مكة المكرمة حيث يجري عرض المصحف على صاحب السمو الملكـي الأمير فيصل النائب العام لجلالة الملك المعظم لأوّل مرة ، وذهبنـا لمقابلـة سموه في قصـره بالمعابدة في ظاهر مكة وتقدم السيد إبراهيـم النـوري -رحمـه ا لله- بتقديـم نسـخة المصحف إلى سمو الأمير فيصل وكان المرحـوم عبـدا لله بـاحمدين وأنـا نقـف معـه ، وأبـدى سموه إعجابـه وقـال: إنـه عمـل عظيـم ، ثـم اقـترح سموه أن يعـرض هـذا المصحف على جلالة المغفور له الملك عبدالعزيـز وقـال: إنـني سـأتحدث إلى رئيس الحرس الملكي وأظن أن اسمه كـان إبراهيـم جـودت ليدخلكـم علـى جلالـة الملـك عبدالعزيز .

عدت إلى جدة وبعد عدة أيام أبلغـني المرحـوم الشـيخ عبـدا لله بـاحمدين أنهـم دعوا على عجل للحضور إلى القصر وأنهم عرضـوا المصحـف علـى جلالـة الملـك عبدالعزيز فسرّ جلالته به كثيراً ، وأثنى على القائمين بالأمر ، ونفح كلاً منهم مبلغاً من المال تعبيراً عن تقدير جلالته .

كانت الحرب العالميـة الثانيـة تقـترب مـن نهايتهـا ، وكنـت مضطـراً لظـروف صحية عائلية أن أسـافر إلى مصر وأبقـى بهـا بضعـة شـهور ، وكنـت حريصـاً أن أصطحب المصحف معي لعمل إكليشيهات له من النحاس والزنك توطئـة لطبعـه ، ولم يكن عمل الإكليشيهات متوفراً في البـلاد في ذلـك الزمـان ، وضعـت المسـودة المخطوطة للمصحف في حقيبة خاصة حملتها معي إلى مصر ، وكان لا بد من أخذ رخصة من الأزهر الشريف بطبع المصحف ليكون معتمداً في جميع البلاد الإسلامية في ذلك الوقت .

اتصلت في مصر بصديقنـا الأسـتاذ صـادق سـعيد بازرعـة وأسـرته مـن كبـار التجار الحضارمة الذين أقاموا السنوات الطوال في مصر وأصبحـوا مصريـين بحكـم الإقامة الطويلة لآبائهم وبحكم الميلاد لهم ولأبنائهم وكانت الأسرة تعمـل في تجـارة الصابون والبن والبهـارات الـتي يستوردونها مـن فلسـطين وعـدن وإفريقيـا والهنـد وكانت لهم وكالة كبيرة في الجمّالية كما كانوا يتمتعون بسـمعة عاليـة في الوسـط

التجاري في مصر . قال صديقنا الأستاذ صادق بازرعة: هذه المسألة لا يصلح لها إلا السيد محمد عرفة شيخ المسجد الحسيني ، كان ذلك في رمضان وجامع سيدنا الحسين قريب من وكالة بازرعة فذهبنا وأدينا صلاة العصر وشرحنا الموضوع للسيد محمد عرفة ، وكان يحضر للحج وكنت أراه في مكة المكرمة ، وهو رجل يجمع بين وقار العلم وحدّة الذكاء وكانت صلاته بطبقات المجتمع المختلفة قوية ومتينة ، فتجد في غرفته الملحقة بالجامع الحسيني العِلْية من الناس من الباشوات والبكوات إلى عامة الناس وأوساطهم ، استدعى السيد محمد عرفة ابنه وكان موظفاً بوزارة الأوقاف وقال له: أريدك أن تحضر لي غداً الشيخ محمد علي الضباع شيخ المقارئ المصرية ليصلي العصر هنا ، والتفت إليَّ قائلاً وستصلي العصر معنا هنا ياحاج . . فشكرته واجتمعنا في صلاة العصر في اليوم الثاني ، الشيخ الضباع وأنا وصادق سعيد بازرعة ، وأخبر السيد عرفة الشيخ الضباع بالغرض الذي دعاه من أجله ، وأوصاه بنا خيراً ، واتفقنا مع الشيخ الضباع على الأجر الخاص بالتصحيح كما جرى الاتفاق مع المصنع الذي يعمل الإكليشيهات حيث ترسل الصفحات التي يتم تصحيحها من الشيخ الضباع إلى المصنع فإذا تم عمل الزنكات طبعت عليها نماذج وأرسلت للشيخ مرة أخرى ليعيد تصحيحها ، وتستمر هذه العملية إلى أن يتم عليها التصحيح النهائي للمصحف مع إتمام صنع الإكليشيهات ، ثم تصدر الرخصة من مشيخة المقارئ المصرية بالطبع . مكثت بضعة شهور في مصر وأنا أتردد أسبوعياً وبعض الأحيان في كل ثلاثة أيام على الشيخ الضباع في بيته بالجيزة وعلى المصنع الذي يصنع الإكليشيهات في شارع عبدالعزيز وكان صاحب المصنع أرمنياً شهيراً بصناعة الحفر وقد جعلنا الاكليشيهات بحجمين أحدهما المقاس المتوسط العادي والثاني المقاس الصغير وتم التصحيح النهائي أخيراً بعد أن كادت إطارات السيارة الصغيرة الهيلمان التي تقلني إلى الجيزة وتعيدني منها كادت إطاراتها تذوب من كثرة الغدوّ والرواح ، وكانت السيارات كما كانت الإطارات عزيزة في أيام الحرب العالمية الثانية وغالية الأثمان . انتهت الإكليشيهات وبدأت أفكر في الطريقة التي يمكن بها تصديرها من القاهرة إلى الحجاز وكانت القيود على التصدير بالغة الشدة وأدركت أنني لو اتبعت الطرق المعتادة لتعبت بالغ التعب دون نتائج مفيدة .

وفي ذلك الوقت بالذات وصل جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز في زيارته الرسمية إلى مصر وكان بصحبته معالي الشيخ عبدا لله السليمان وزير المالية الأسبق ،

وكذلك المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ورأيت أن الله تعالى قد هيأ الأسباب بهذه الزيارة الملكية لتصدير إكليشيهات المصحف دون عناء شرحت الأمر لمعالي الشيخ محمد سرور -رحمه الله- فقال لي: اكتب ما تريد من الكتب بالتوصية على هذا الأمر وهاتها لتوقيعها ، كان الشيخ محمد سرور الصبان تربطه صلة صداقة عظيمة بالسياسي المصري المعروف إبراهيم عبدالهادي باشا وكان وزيراً من أبرز وزراء الوفد في ذلك العهد ، وكتبت الكتاب المطلوب لإبراهيم باشا بلسان الشيخ محمد سرور أشرح له الوضعية ، كما كتبت كتاباً آخر بنفس المعنى إلى مكرم عبيد باشا وزير المالية ، وكان هو الوزير المختص الذي تتبعه الجمارك والتراخيص الخاصة بالتصدير ، وذهبت أولاً إلى إبراهيم عبدالهادي باشا وأخذ سكرتيره الرسالة ودخل بها إلى الوزير .

وعاد ليتصل أمامي تلفونياً بسكرتير وزير المالية وكان اسمه الأستاذ حسن الأعور ويوصيه بلسان الباشا بالاهتمام بالأمر ، وقابلت الأستاذ حسن الأعور في وزارة المالية وسلمته كتاب الشيخ محمد سرور ، فعاد ليتصل أمامي بصندوق النقد الذي كان يقع في ميدان الأوبرا ويبلغهم توصية مكرم باشا وزير المالية بعمل كل التسهيلات لتصدير الإكليشيهات الخاصة بالقرآن الكريم .

حصلت على الترخيص المطلوب في مدى ثلاثة أيام ولو لم يهيء الله الأسباب بزيارة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز وحضور معالي الشيخ محمد سرور لربما استغرق الحصول على الترخيص الشهور الطوال .

إنه القرآن الكريم ، وإنه تيسير الله تعالى للقائمين على نشره بين الناس ، وحينما كنت أفكر في إجراءات التصدير خطر لي أن أختصر الوقت ، وضعت الإكليشيهات في حقيبة خاصة وأرسلت هذه الحقيبة ضمن حقائب الشيخ محمد سرور الذي كان من القائمين على ترتيب شؤون الرحلة الملكية إلى مصر ، ووصلت الحقيبة إلى مكة بسلام وأصبحت الإكليشيهات جاهزة للطبع ، وكان المرحوم عبدالله باحمدين قد سافر إلى أمريكا وتعاقد لشركة المصحف على شراء المطبعة الأولى التي سيطبع عليها القرآن الكريم في مكة المكرمة .

ووصلت المطبعة ، وحدث أن السيد إبراهيم النوري -رحمه الله- أحيل إلى المعاش بناء على طلبه فوجدنا أنه أصلح الناس للقيام على إدارة شركة مصحف

مكة المكرمة وهو الذي بذل جهداً مشكوراً في تصحيح النسخة الخطية التي كتبها الشيخ طاهر كردي.

وهكذا سلمت مقاليد الشركة إلى السيد إبراهيم النوري -رحمه الله- بعد أن تم تأسيس الشركة بصورة قانونية، وكانت باكورة أعمالها طبع القرآن الكريم ونشره لأول مره في مكة المكرمة بعد أن تمت كتابته فيها، وهذه السابقة التاريخية العظيمة هي التي اختص بها الله الشيخ محمد طاهر الكردي لأنه كان الخطاط الذي كتب القرآن الكريم في مكة المكرمة وهيأ الله تعالى لهذه النسخة التي كتبها أن تطبع في مكة المكرمة وتنتشر منها لا في مكة وحدها ولا في المملكة العربية السعودية فحسب، وإنما في سائر بلاد الإسلام، فمصحف مكة المكرمة أصبح يطلب في جميع البلاد الإسلامية من إندونيسيا وباكستان والشرق الأقصى كله، إلى إفريقيا كلها.

إن الشيخ طاهر كردي رجل محظوظ فالمصاحف التي كتبت في مكة المكرمة كثيرة وبعضها محفوظ في مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكثير منها أجمل خطاً من المصحف الذي كتبه الشيخ طاهر الكردي ولكن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب.. وقد هيأ الله للمصحف الذي خطّه الشيخ طاهر الكردي أسباب الذيوع والانتشار فتأسست له شركة خاصة قام أصحابها على إعداده للنشر واتخذوا الأسباب الكفيلة بهذا النشر حتى تم لهم الأمر بعد الجهد والنصب.

ولقد مضى على تأسيس شركة مصحف مكة المكرمة ما يقرب من أربعين عاماً وهي توالي نشر الكتاب الكريم من مكة المكرمة وتستورد له المطابع الواحدة تلو الأخرى مسايرة تطور الطباعة في العصر الحديث، ولعلي لا أذيع سراً حينما أذكر أن شركة مصحف مكة المكرمة، لم تكتف بالمصحف الذي كتبه الشيخ طاهر الكردي وإنما عمدت إلى طبع مصاحف أخرى بخط أجمل كثيراً من خط الشيخ طاهر -رحمه الله- كما استكتبت خطاطاً شهيراً بجمال الخط وإتقانه لكتابة مصحف لها، ولكن المصحف الذي كتبه الشيخ طاهر لا يزال يحتل مكانة في قلوب الناس، ويكفي أن نذكر أن شركة مصحف مكة قد قامت بطبع كمية من المصحف الذي كتبه الشيخ طاهر في حجم كبير جداً وجلدته تجليداً فاخراً وكانت هذه الطبعة ولا تزال تقدم هدية لجميع الملوك والرؤساء وكبار الزوار المسلمين

القادمين إلى المملكة كما أنه يقدّم من ضمن الهدايا الممتازة لكبار المسئولين السعوديين في زيارتهم للبلاد الإسلامية .

طاهر كردي الخطاط

وما دمنا بصدد الحديث عن حسن كتابة الشيخ طاهر الكردي وجودة خطه فلا بد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته الكثيرة الجوانب فالرجل كان ممن تلقوا تعليمهم في الأزهر الشريف ، ثم التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية وتتلمذ على كبار الخطاطين فيها ، حتى أتقن الخط بأنواعه المختلفة وحينما عاد إلى المملكة كان مدرساً للخط بمدارسها ، بل الأستاذ الأول للخط فيها ، وله كراريس مطبوعة كما يظهر ذلك من ثبت مولفاته التي كانت توزع على التلاميذ من ضمن الكتب المدرسية لينسجوا على منوالها في تعلمهم لفن الخط ، ولقد بلغ من إتقان الشيخ طاهر لفنون الخط أنه كان يكتب بعض قصار السور مثل سورة الإخلاص على حبة من الأرز وقد أهداني بعض هذه الحبات من الأرز المكتوب عليها بعض قصار السور ، وقد فقدت ضمن ما فقد من أوراقي ولكن صديقنا الشيخ محمد نور جمجوم رجل الأعمال المعروف لا يزال يحتفظ بحبة من الأرز بكتابة طاهر الكردي -رحمه الله- وقد أطلعني عليها في هذه الأيام ولعل عمرها يزيد عن الأربعين عاماً .

وللشيخ طاهر -رحمه الله- لوحات فنية من كتاباته ولحسن الخط أنه صورها في كتابه الكبير "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" ، والذي سنتحدث عنه بعد وأكتفي هنا بذكر ما نشر من مؤلفاته في فن الخط نقلاً عن ثبت مؤلفاته المنشورة في كتابه "أدبيات الشاي والقهوة":

١- تاريخ الخط العربي وآدابه .
٢- الهندسة المدرسية- ويقول الشيخ طاهر إنه كان مقرراً في مدارس المملكة .
٣- رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف والحركات .
٤- كراسة الحرمين في تعليم خط الرقعة (سبعة أجزاء) .
٥- حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة .
٦- مجموعة الحرمين في تعليم النسخ (جزء واحد) .
٧- لوحة فنية جميلة فيها صور الكعبة المشرفة لأشهر بناياتها .

٨- لوحات في الخطوط العربية .

٩- نفحة الحرمين في تعليم النسخ والثلث .

وإذا تأملنا في أسماء هذه المؤلفات وجدنا أن الرجل عالم خط إذا صح هذا التعبير .

تاريخ الخط العربي وآدابه

وسنتحدث هنا قليلاً عن كتابه "تاريخ الخط العربي وآدابه" وهو أهم مؤلفات الشيخ طاهر الكردي في فن الخط وقد طبع الطبعة الأولى في شهر محرم من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وألف ثم أعادت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون طبعة مرة أخرى في هذا العام ١٤٠٢هـ وحسناً فعلت فإن الكتاب يكاد أن يكون موسوعة عن الخط العربي وكل ما يتعلق به .

تحدّث فيه المؤلف عن نشأة الخط وتطوره مدعماً ذلك بالصور والمراجع التي استقى منها المعلومات التي توصل إليها ، ومن أطرف ما أورده المؤلف في هذا الشأن أن التعبير بالكتابة بدأ بطريقة التصوير قبل الكتابة بالحروف المعروفة وكانت الكتابة الصورية تقوم على الرمز ويقوم المؤلف في شرح ذلك، ومثال الكتابة الصورية أنك إذا أردت تدوين واقعة حرب مثلاً فترسم أرضاً ذات أغراس وإلى جانبها صور النقود وما أشبه ذلك وهذا ما جرى عليه أكثر الأمم التي كانت قديماً في مصر وأشور وغيرها ، ولما اتسعت عمارتهم اصطلحوا على بعض الرسوم للدلالة على معان كلية ليس لها صورة في الخارج .

وقد أثبت المؤلف صور هذه الرسومات التي اصطلح عليها[1] وقد تحدث المؤلف عن الخطوط في اللغات الهندية وما تفرّع عنها من الخط الآرامي والسنسكريتي والسرياني كما تحدث عن الخط الهيروغلوفي موضحاً كل ما يكتبه في هذا المجال بصور لهذه الخطوط وترجمة للحروف والكلمات إلى اللغة العربية .

كما تحدث عن الخط الأشوري والكلداني وأول المكتشفين لهذه الخطوط وأثبت صوراً للصخور التي تحمل هذه الخطوط من المسند الآرامي وأنواع الخطوط المختلفة .

(١) انظر صفحة ٣٠ تاريخ الخط العربي وآدابه.

كما وضع سلسلة تبين تطور الخط العربي من بدء ظهوره حتى وصوله إلينا بشكله الحاضر وهو يبدأ كالآتي:

الخط المصري- الفينيقي- الآرامي- المسند- الصفوي- الثمودي- اللحياني- الحميري- الكندي- النبطي- الحيري- الأنباري- الحجازي[1] .

ثم يتحدث المؤلف عن اللغات التي تكتب في الوقت الحاضر بالخط العربي وقد عدّد اثنتي عشرة لغة تندرج كلها تحت اسم اللغات التركية وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الهندية وأربع لغات تندرج تحت اسم اللغات الفارسية، وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الإفريقية .

ولا شك أن بعض هذه اللغات التي أشار إليها المؤلف وخاصة في تركيا الحديثة قد غيروا كتابتهم إلى الحروف اللاتينية منذ عهد مصطفى كمال بعد انتهاء دولة الخلافة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وإعلان الجمهورية التركية الأولى ولكن يبقى بعد ذلك أنّ عدد من يكتبون بالحروف العربية في العالم كبير .

وقد قدّر المؤلف في كتابه المطبوع قبل ما يقرب من نصف قرنٍ عدد من يكتبون من غير العرب بالحروف العربية بأكثر من مائتين وخمسين مليوناً من البشر فليت شعري ما هو مقدار من يكتبون بها في الوقت الحاضر من العرب وغيرهم، إن التعداد يصل فيما أظن إلى خمسمائة مليون من البشر .

ثم تحدث المؤلف عن كتابة الرسائل في عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه وأورد أسماء كتابه ونقش خاتمه الذي كانت تختم به رسائله كما تحدث بمثل ذلك عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من خلفاء المسلمين، وتحدث كذلك عن المشهورين من الخطاطين في أيام الأمويين والعباسيين ثم تحدث عن بدء ظهور التشكيل في الخط وتطوره، كما تحدث عن المواد التي كانت تستعمل في الكتابة من الجلد والقراطيس وأنواع الأقلام وأسمائها، وأنواع الخطوط المعروفة من النسخ والرقعة والثلث الكوفي والديواني وما إلى ذلك، وأثبت نماذج جميلة لكل هذه الخطوط بعضها بقلم المؤلف والكثير منها بقلم الخطاطين المشهورين الذين ينسب إليهم هذا الفن .

---

(١) انظر صفحة ٤٨ تاريخ الخط العربي وآدابه.

ثم تحدث المؤلف عمن اشتهر بالكتابة على الحبوب والبيض ولقد ذكرت أن الشيخ طاهر الكردي كان ممن يتقن الكتابة على الحبوب في صدر هذا البحث ، ثم تحدث عن الآثار والكتابات التي عليها والنقود والعملات التي ظهرت في عهود الخلفاء الراشدين وما تلاهم وأورد صوراً فوتوغرافية للنقود في عهد الخلفاء الراشدين وعهد صلاح الدين وعهد هارون الرشيد وفي عهد الدولة الفاطمية ، كما أورد جداول بأسماء الخطاطين المشهورين مرتبة على الحروف الهجائية .

ومن أمتع فصول الكتابة الفصل الخاص بتراجم السلاطين الخطاطين وقد ذكر من بينهم الخليفة المستظهر با لله والخليفة المسترشد با لله وهما من خلفاء الدولة العباسية ثم سلاطين آل عثمان ثم سلاطين المسلمين الآخرين في شتى بقاع العالم الإسلامي ، وأردف ذلك بتراجم الوزراء والباشوات من الخطاطين ثم بتراجم العلماء الخطاطين .

ثم تحدث عن النساء اللواتي اشتهرن بجودة الخط وإتقانه . وذكر فيما ذكره أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبدا لله العدوية التي تعلمت الكتابة من معاوية ويزيد ابنا أبي سفيان ، رضوان ا لله تعالى عليهم أجمعين .

كما أورد المؤلف تراجم للخطاطين القدماء والمحدثين وسجلاً بأسمائهم والكتاب مزين بكثير من لوحات الخطوط الجميلة للخطاطين المختلفين وهو يقع في أكثر من خمسمائة وخمسين صفحة وتزيد تعداد اللوحات والصور المثبتة فيه على مائة وخمسين لوحة وصورة .

إنه ليس كتاباً عن الخط العربي وآدابه ولكنه يكاد أن يكون موسوعة تختص بالخط والكتابة وما يتفرّع عنهما وهو عمل عظيم جاء نتيجة لجهود متواصلة وأبحاث تتصف بالدأب والمثابرة وهو مرجع من أهم المراجع في هذا الفن العظيم .

طاهر كردي المؤلف

نعود لنتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته المتعددة الجوانب فلقد كان الرجل مؤلفاً مكثراً وقد أثبت في كتابه "أدبيات الشاي والقهوة" أسماء اثنين وعشرين كتاباً مطبوعاً عدا الكتب المخطوطة وأهمها التفسير المكي وهو في أربع مجلدات وغيرها مما لم يذكر شيئاً عنه ، وقد أوردنا أسماء مؤلفاته الخاصة بالخط

ونثبت هنا أسماء المؤلفات الأخرى التي وردت في هذا الثبت وهي المؤلفات المطبوعة:

١- تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه .
٢- إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة .
٣- مقام إبراهيم عليه السلام .
٤- منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة المشرفة .
٥- تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالد والأولاد .
٦- دعاء عرفة .
٧- تعليق مختصر على تاريخ مكة للقطبي .
٨- صورة حجر مقام إبراهيم عليه السلام .
٩- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم .
١٠- النسب الطاهر الشريف .
١١- الأدعية المختارة .
١٢- تبرك الصحابة بآثار رسول الله ﷺ .
١٣-أدبيات الشاي والقهوة .

ولقد ذكر الشيخ طاهر أن مؤلفاته تبلغ اثنين وأربعين مؤلفاً طبع نصفها تقريباً ونستطيع أن نقسم هذه المؤلفات حسب أسمائها إلى الأقسام الآتية:

أ) كتب تاريخية وهي الصفة الغالبة على المؤلف .

ب) كتب دينية .

ج) كتب فنية وهي التي تتعلق بالخط وفنونه .

د) كتب أدبية طريفة .

ولقد تحدثنا عن الخط وما يتعلق به بما يكفي للتعريف بشخصية الشيخ طاهر -رحمه الله- في هذه الناحية .

طاهر كردي المؤرخ

ونتحدث الآن عن طاهر كردي المؤرخ فإن المستعرض لأسماء كتبه يجد أن المؤلفات التاريخية هي الصفة الغالبة على الرجل ، ولعل تعمّقه في هذه الناحية هو

الذي ساعده على تأليف الكتب الدينية وطالما أن أهـم كتبه الدينيـة وهـو التفسير المكي لم يظهر إلى النور بعد فإن الحديث عن هذه الناحية مـن شـخصية المؤلـف لا يعتبر كاملاً وحسبنا الإشارة إليها .

لقد تفضل الصديق أحمد مجاهد فبعث إليَّ الأربعة أجزاء التي ظهرت على نفقته من أهم كتب الشيخ طاهر التاريخية وهو كتابه المسمى:

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم

والكتاب موسوعة ضخمة عن مكة المكرمة وهـو في أربعـة أجزاء كـل جـزء يزيد عن الثلاثمائة صفحة من القطـع الكبـير الـذي يسـاوي ضعفـي حجـم الكتـب الكبيرة المعتادة ، وهو يحتوي على صور كثيرة كما تتسـم المعلومـات الـتي أوردهـا المؤلف عن كل المواضع التي عالجها بالشمول والإحاطة مسـتعيناً في ذلـك بمـا ورد في مؤلفـات المؤرخـين السـابقين الذيـن ذكـر أسمـاءهم وتراجمهـم وتحـدث عنهـم ومدعماً ما يصل إليه من آراء بالكتب الكثيرة التي رجع إليهـا والـتي ذكـر أسمـاءهـا ومواضع الاستشهاد منها .

وأهم من هذا وذاك أن المؤلف أتيح له ما لم يتح لغيره من المؤلفين فلقـد عـاصر الإصلاح الذي تم للكعبة المعظمة في عام ١٣٧٧هـ كمـا عـاصر التوسـعة العظيمـة للمسجد الحرام في العهد السعودي والتي بدأت في عام ١٣٧٥هـ ولم يكن المؤلـف معاصراً لهذه الأحداث التاريخية فحسب فما أكثر من عاصرها وإنما كان عضواً في اللجـان الرسميـة الـتي تـألفت لهـذه الإصلاحـات وذلـك لسـابق اهتمامـة بالمبـاحث التاريخية المتعلقة بالمسجد الحرام فلقد ألّف قبل هذه الأحداث كتاباً عن تاريخ مقـام إبراهيم -عليه السلام- وحصل على إذن بفتح مقام إبراهيم ليطلع بنفسه على المقام من الداخل وألّف رسالة وافية في صفة المقام وذرعه وأقوال المؤرخين عنه وموضعـه وكل ما يتعلق به .

هـذه الاهتمامـات للمؤلـف كمـا ذكرنـا هيـأت الفرصـة لاختيـاره عضـواً في الهيئات الرسمية الخاصة أولاً بإصلاح الخراب الذي حدث في الكعبـة المشـرفة كمـا ذكرنا ثم في الهيئة التي ألفت للتوسعة العظيمة للمسجد الحرام فيما بعد ، وقد أتـاح له هذا الاختيار أن يطلع على الكثير من المعلومـات الدقيقـة الـتي لم تتـح لغـيره مـن المؤرخين ، فهو يقدّم لنا وصفاً دقيقـاً للآثـار الدينيـة والمعماريـة في المسـجد الحـرام

مزودة بالمقاسات الدقيقة والصور الشمسية وذلك بعد استعراض المراحل التاريخية التي مر بها الأثر المذكور إذا صح هذا التعبير ، بل إننا نجده بالنسبة لمقام الخليل إبراهيم على سبيل المثال يقدّم لنا وصفاً يومياً دقيقاً للكيفية التي سار عليها العمل في نقل المقام من موضعه السابق إلى الموضع الحالي بعد أن وضع في الصندوق الزجاجي الحالي ويتحدث عن الموضوع بتفصيل يشمل جميع التطورات التي صاحبت الفكرة من بدء تنفيذها إلى حين إتمامها .

إن كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم هو موسوعة تاريخية وهامة لمكة المكرمة وللمسجد الحرام بما حواه من الكعبة المعظمة ومقام إبراهيم وكل ما يتعلق بالمسجد الحرام وأماكن المناسك وهو يضم كل ما أورده المؤرخين السابقون ثم يضيف إليه الجديد في عصر المؤلف وهو بهذه المثابة مرجع شامل عظيم القيمة لمن أراد التحقيق والبحث .

وبعد فإن الكتاب كما ذكرت يحتل مكانة قيمة بين الكتب التي تؤرخ للبلد الكريم وللبيت الحرام وهو مرجع هام لهذه الآثار المقدسة وتطوراتها التاريخية وهو يمتاز بالإحاطة والشمول والدقة المبنية على المشاهدة والبحث وهو جهد مشكور للمؤلف -رحمه الله تعالى- يسلكه في عداد المؤرخين لآثار مكة المكرمة والبيت الحرام فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء .

مؤلفاته الأخرى

إن الشيخ طاهر كردي رجل متعدد الجوانب وقد تحدثنا عن أهم جوانبه في هذه الصفحات ولقد اطلعت على كتاب مطبوع له اسمه "أدبيات الشاي والقهوة" وعجبت كيف يتفرغ الرجل للتأليف في هذه الأمور فالكتاب يذكر تاريخ الشاي والقهوة وما قيل فيهما من الشعر وكيف يصنع الشاي وأدواته وما إلى ذلك ، ولا شك أن جمع هذه الطرائف فيه كثير من الجهد ولكن الشيخ طاهر الكردي هو الشيخ طاهر الكردي الذي استطاع أن يعبر عن جانب آخر من جوانب شخصيته الاجتماعية التي ذكرتها في صدر هذه الصفحات .

وهناك ناحية أخرى في الرجل هي الناحية الشعرية فكتابه التاريخ القويم يتضمّن أرجوزة نظمها في تاريخ بناء الكعبة المعظمة وأراجيز أخرى في مواضيع تتعلق بكتابه هذا ، وإذا كان لا بد من التعليق عليها فأقول أن هذه الأراجيز تشبه

أراجيز المتون التي كنا نحفظها كأرجوزة ابن مالك في النحو والخريدة في التوحيد ، والتي كانت تفرض علينا في المدارس وهي كلام منظوم لا يمتّ إلى الشعر بأدنى صلة والشيخ طاهر –رحمه الله– إنما يعبر عن ناحية أخرى من نواحي شخصيته المتعددة الجوانب كما سبق أن ذكرنا ، فلنأخذه كما أراد الله له أن يكون ، هناك الكتب الدينية التي ألفها الشيخ طاهر الكردي وأهمها كما ذكرت هو كتاب التفسير المكي في أربعة أجزاء وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً ولم يتح لي الاطلاع عليه ولهذا لا أستطيع الحديث عنه ، وحبذا لو عنيت بالبحث عنه وعن مؤلفات الشيخ طاهر الأخرى إحدى الجهات المعنية في بلادنا بنشر الكتب كالنوادي الأدبية وغيرها وعهدت إلى المختصين بالموضوعات التي تعالجها هذه المؤلفات بدراستها ونشر ما يستحق النشر منها إفادة للناس وإحياء لذكرى الرجل الذي قضى حياته منكباً على التأليف .

بقية التاريخ القويم

لقد ذكرت أنني اطلعت على أربعة أجزاء من كتابه القيم الجامع "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" والذي تحدثت عنه بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة والكتاب كما يظهر لم يتم ولقد ذكر المؤلف أن الجزء الخامس يتحدث عن الحج وهذا الجزء لم يطبع بعد ولست أدري إن كان لدى صديقنا الشيخ أحمد مجاهد الذي طبع الأجزاء الأربعة على نفقته جزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء ، لست أدري إن كان هذا الجزء الخامس وربما غيره مما يكمل به الكتاب موجوداً لدى صديقنا الشيخ أحمد مجاهد وهو يعتزم إصدار هذه البقية إكمالاً للمكرمة العظيمة التي قام بها أم أن هذه الكتب لا تزال ضمن مخطوطات الشيخ طاهر –رحمه الله– وعلى أي حال فإن نشر ما بقي من كتاب التاريخ القويم فيه من الفائدة ما يكمل العمل الطيب الذي بدأ به الرجل والذي يعتبر مع كتابته للمصحف الكريم من أجّل الأعمال التي أداها والتي تسلكه في عداد الأعلام من الرجال .

وقد توفي الشيخ طاهر الكردي في ليلة الاثنين بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني من عام ١٤٠٠هـ بمستشفى بخش بجدة ، ونقل في اليوم التالي إلى مكة المكرمة ، رحمه الله

وأحسن جزاءه لقاء ما بذل من الجهد في كتابة كتابه الكريم والعناية بتاريخ البلد الأمين وبيت الله الحرام إنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

(٢) رسالة إلى الراحل الشيخ محمد طاهر الكردي

بقلم الأديب السعودي الكبير الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي[١]

لم أضع اسمك مسبوقاً بألقاب . . فلا زلت أذكر احتجاجك عليَّ ، واعتراضك بشدة وحزم على بعض ما كنت أحرص على أن أنعتك به من نعوت وألقاب ، كلما كتبت إليك ، معتقداً في قرارة نفسي صحة إضفائها عليك . . لأنك أهل لها فعلاً . .

لم أفعل الآن . . احتراماً لذلك الشعور الذي كنت أحرص عليه تجاهك ، وأنت تدب مع من نسميهم الأحياء على هذه (البسيطة) . . ولقد كنت قبل أن أخطّ هذه الرسالة . . أعدّ نفسي لأكتب شيئاً آخر ، أردته أنت لي و لم أرده -أنا- لنفسي . . كنت بسبيل أن أكتب الكلمة التي أتقمّص فيها شخصيتك لأتحدث بالنيابة عنك ، إلى أولئك الذين فكروا جدّياً أن يحتفلوا بتكريمك وكان اسمك أول الأسماء العديدة التي ازدحمت على ذاكرتهم . . فاختاروا أن يبدأوا بك ، لأنك تجمع في شخصيتك المتواضعة سمة الفنان ، وسمة العالم ، وسمة الأديب ، وهي سمات قلّما تجتمع في رجل . فحسبوا أنهم إذ يبدأون بك إنما يكرّمون في شخصك ، شخصيات متعددة تتميز كل منها بميزة خاصة . . وكنت أنا أوشك أن أكتب كلمتك . . في حفل تكريمك الذي كان معتزماً . . أدير في نفسي . . كيف يا ترى يسعني أن أعبّر عن أحاسيسك في مناسبة كتلك . ولا أقول (كهذه) ؟ فكيف أروض قلمي ، لكي يلتزم حدود ما أخذت نفسك به من تواضع جم ، ومن نكران كبير للذات . إلا من ذلك الاعتداد الذي يحرص عليه الفنانون . . ويأباه العلماء؟ فلقد كنت تجمع في نفسك بين طموح الفنان ، وبين تواضع العلماء . . وهو صراع بين طرفي نقيض التأما في ذاتك . . ثم اصطلحا بحكم المعاشرة والمزامنة وانحناء السنين . . أما لو تركتني آخذ من الاختيار ما أريد ، لكنت أفضّل أن أتكلم معرّفاً بك . أو محاولاً أن أعرّف بك بل بالحري متحدثاً من خلال علاقتي بك منذ عرفتك في أوائل الستينات الهجرية . . .

---

(١) (مقال بجريدة الرياض العدد ٤٥١٤ في ٦/٦/١٤٠٠هـ- صفحة ١٢)

كان بودي –حقاً– أن أفعل ذلك، وأنت حي، تعبيراً عن عمق مودتي، وصادق صحبتي ولكن الله تعالى أراد أن لا أفعل ذلك إلا بعد أن تطوى صحيفتك من دنيانا الفانية.. إلى العالم الآخر.

أذكر جيداً آخر رسائلك إليَّ وأنت تستعجل الأيام، وتضيف قائمة أحبابك الذين تحرص على مشاركتهم بالحضور في حفل تكريمك – تضيف أسماء جديدة يمليها عليك وفاؤك المعهود، كلما تذكرت منهم أحداً وتستعجل أيضاً – العمل على نشر مؤلفاتك لتراها ماثلة بين أيدي القراء، لتكون عاملاً في إسعادك تقر به عينك. وتقول لي في إحدى رسائلك تلك: (قبل أن أموت). وبرغم أن الموت أكبر ما نواجه من حقائق الحياة الدنيا، إلا أن البشر اعتادوا أن يغفلوه من حياتهم.. أو تراهم ينسون هذه الحقيقة العظمى، أو أنهم يتناسونها، كنت –من جانبي– أشعر بشعورك، وأحس عمق أحاسيسك.. ولكن الأيام – كعادتها – كانت تجري مهرولة متسارعة متتابعة. لنصل من خلالها جميعاً ذات يوم إلى ذلك الشاطئ العجيب المجهول.

لا عليك أحسب أن الإخوة، الذين اهتموا بالإعداد لتكريمك.. سيلتمسون الوسائل لتكريم ذكراك. كما اعتاد الناس أن يفعلوا كلما فقدوا علماً من أعلامهم، فاتهم أن يدخلوا السعادة إلى قلبه بتكريمه وهو حي.. ولم أكن لأرشح نفسي للحديث عنك لولا أنني عرفتك عن كثب، ووقفت على بعض أمرك ولا أقول كله... فإن تعارفنا لم يزد عمره عن ثلاثين عاماً بينما أعرف من أصدقائك الأحياء من هم أكثر صحبة وأعمق معرفة وألصق بك. وإنني لآمل أن يتفضلوا بالكتابة عنك، ليجتمع من تاريخ حياتك ما هو جدير أن يظل في ذاكرة التاريخ. وإن لك من أمجادك ما هو حري أن تعيه حقاً ذاكرة التاريخ. وإنني لأعلم علم اليقين أنهم جميعاً يكنّون لك الحب كله والإعزاز كله.. والإعجاب كله..

أحاول أن أستذكر لقاءنا الأول.. أو الذي أجزم أنه التعارف الأول.. كان ذلك في مبنى المدرسة العزيزية الابتدائية بمكة المكرمة فقد عدت أنا إليها مدرساً بها بعد غيبة سنوات ثلاث كنت قبلها طالباً فيها فقد كنت أنت بها مدرس الخط. أما أنا فقد كنت، مدرس الرياضيات.. ولم نكد نتعارف حتى اتصلت بيننا أسباب المودة التي ظلت عامرة ووثيقة حتى الأيام الأخيرة.

وعبر هذه السنوات الطويلة ، عرفت جوانب من حياتك هي التي أحاول أن أستذكر الآن أطرافاً منها . كنت يا صديقي إبانها تشارف الأربعين . . ناضر المنظر أنيق الملبس ، تعتمر عمة حجازية كان يحتفظ بمثلها بعض من كان من جيلك . أميل إلى القصر لطيف المعشر ، فكه الحديث حلو النادرة ، يجمع على حبك تلامذتك وزملاؤك تعامل الجميع - كلهم - أصدقاء حميمون .

كانوا -جميعهم- مع حبهم لك ، يتّقون غضبك ، فقد كنت متى غضبت ، تبدو كالبركان يتقي الناس حممه ولكن البركان متى همد أعطى الخصب والنضارة والنماء . وكذلك أنت ، فسرعان ما تهمد ثائرتك ، ويذهب غضبك خاصة إذا اعتذر الطرف الآخر عن خطأه أو ما ينبغي عليه أن يعترف به من خطأ ، مهما كان الأمر وإلا فالقطيعة . وكان أولئك الذين عرفوا حقيقة قلبك الأبيض . . يعرفون كيف يحتفظون بصداقتهم لك ليظل ما بينك وبينهم من بيت الودّ عامراً . لا تزعزعه الرياح ، أو صخب البراكين . وإذا فاء إليك حلمك بالغت في الكرم ، واللطف ، وأغدقت من برك ما يزيل سخط الساخطين . . .

كنت آنذاك تعيش أعزب لم تتزوج بعد ، فقد كنت شديد الحذر من الزواج تخشى أن يضطرب به ما تعودت من هدوء وركون إلى الكتب والفن . . أعني فن الخط . . الذي أولعت به وكنت تسكن في دار مستقلة ، في مصعد جبل هندي (قعيقعان) في الطريق إلى القلعة . . وكنت تدعو إلى هذه الدار من تصطفي من أصدقائك وأودائك . . وقلّما كان يمر عليك يوم دون أن تدعو أحداً . . على ما تيسر من طعامك غداء أو عشاء . وكانت شهرتك في إجادة الطبخ مستفيضة . . حتى ليروي الرواة ، أنك طبخت في دارك بالطائف مرة طبخة لذيذة دعوت إليها نفراً من كبار رجال مديرية المعارف أيام كانت مديرية . فأكلوا واستزادوك ثم استزادوك لطعامتها وجودتها . . ثم اتضح بعد أن امتلأت الحقائب أنها كانت أكلة برسيم أخضر . . وكانت نادرة طريفة من نوادرك ، ظل الوسط التعليمي في مكة المكرمة يضحك منها أياماً تلو أيام .

ولقد كنت أحظى بشيء من دعواتك المنزلية غير البرسيمية . وكنت أشهد عن كثب ما تعانيه في وحدتك ، إلا من خادم أسود صغير يرعى بعض شؤونك ويؤمن لك حاجيات السوق . . وكنت أرتاح إلى غذائيك . . غذاء الجسم من طعامك الشهي اللذيذ . . وغذاء الفكر فيما تحدثني عن فنك وعلمك ومؤلفاتك .

ولقد شهدت مولد بعض أعمالك الفنية والعلمية . وكان أعظمها في نظري من ناحية فنّك الأول أعني الخط كتابة المصحف الشريف (مصحف مكة) فقد كنت تطلعني على النماذج الأولى منه وعلى التصحيحات والتصويبات التي كان يهتم بها كل من الأستاذ السيد إبراهيم النوري -رحمه الله- والأستاذ السيد محمد شطا -شافاه الله- وغيرهما ممن كان يهتم بهذا الأمر الجليل . . الذي هيأ الله له الإنجاز في حياتك .

شهدت ما كتبت من كراريس الخط وبعض تشكيلاتك الفنية وأطلعتني على بعض لوحاتك البارعة في الخط ومنها ما يعتمد على خداع البصر والحركة . . واهتمامك بالكتابة ، على البيضة والرزة الأمر الذي كان يتطلب دقة متناهية وبراعة بالغة . . ولم تكن تعوزك الدقة ولا البراعة ولا الإبداع .

كان كتابك في تاريخ الخط العربي من مفاخرك ، وكنت به شديد الاعتزاز ولك الحق في ذلك لأولويته وجمال لوحاته ولاهتمام دار الهلال منذ زمن بعيد بطبعه وإخراجه والحفاوة به .

كما كنت تعد كتابك في "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" من الأولويات في هذا الميدان في العربية إلا كتاب "نولدكيه" المستشرق وكنت تعترف بريادته ولكن ريادتك لهذا الجانب كانت ريادة المختصّ المطّلع المتضلّع من لغته وتراثه المتخصص في فنه .

وقد اطلعت على شيء من نظمك ونثرك وكنت تركز فيهما على الحكمة والزهد . . فقد كنت وثيق الصلة بالله عميق الإيمان إن لم أر من حياتك إلا ما يدل على حب نقاء السريرة والسيرة .

ولا زلت أذكر كيف فاجأتني بعد أن عدت من إحدى زياراتك للمدينة المنورة . . فوجدت في حياتك بعض الاختلاف . . وإذا بك تعلمني أنك قد تزوجت من المدينة وأتيت بعروسك إلى دارك . هكذا في هدوء كبير . . كما هي عادتك . ثم أخذت الحياة الزوجية تحرّك رويداً رويداً إلى شواغلها ، فإذا أنت أب لعبد الرحمن ولعدد من البنات ، أصهر بهن إليك عدداً من خيرة الناس .

وباعدت ظروف الحياة بيننا ، فانتقلت أنا إلى جدة ثم إلى الرياض . . وتباعدت الزيارات ولكنها ظلت . وظلت الرسائل تتصل . تقاعدت عن عملك بوزارة المعارف ثم تخليت عن صلتك بلجنة بناء الحرم المكي وكانت لك فيها آراء

وجهود . . كان بعضها محل الارتياح والترحيب ثم أقعدك المرض لفترة كنت بعدها وإن تم لك فيها الشفاء على وهن وضعف ولكنك حمدت الله كثيراً أن استعدت قدرتك على الكلام والمشي والحركة وإن كان ذلك على وهن شديد . حجبت عن الناس إلا من زائرين قليلين وحال بينك وبين الخروج من صومعتك إلا لأمر شديد شديد . . حتى لقد اشترطت علي . . . بعد أن فاتحتك في حرص الرئاسة العامة لرعاية الشباب على إقامة حفل تكريم لك عن طريق جمعية الثقافة والفنون - اشترطت أن لا تحضر إلا ساعة أو بعض ساعة من حفلة الافتتاح . . معتذراً بأن ذلك يتطلب منك جهداً غير يسير . وحتى هذه الساعة التي كنا نتطلع إليها في شوق ، لم تتح لنا فكان الأجل أسبق . أذكر المرات القليلة التي قدر لي أن أراك فيها بعد علتك . . وقد شهدت مدى وهنك ولكن المرض لم يغيّر من خلقك شيئاً ولا من لطفك وبشاشة استقبالك .

وبعد ، فإن من حقك على التاريخ أن يذكرك عالماً درس في الأزهر (في الرواق العباسي كما حدثني) وفناناً خطاطاً ، من مدرسة الفنون بالقاهرة ، ومعنيّ بالتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاتك فيه ، وأديباً شاعراً ، تكتب في طرائف الأدب وتنظم في الحكمة وتجارب الدهر .

ولقد كانت لك اهتمامات تدخل في باب الاختراعات ولا يبعد عن الخاطر تفكيرك في حل مشكلة ازدحام المطاف ، بمطاف علوي ، (دور ثان) يجري تركيبه أيام الموسم ، ثم يزال ليعاد استعماله كلما حلّ موسم جديد . . وقد جعلت لهذا الأمر تصميماً بارعاً اطلع عليه - فيما أعلم - بعض المسئولين . . ولك في هذا الباب أكثر من بادرة ، منها بلورة مقام إبراهيم . . وأحسب أن الحديث معك وعنك يطول بي ، لو أردت أن أستعرض تلك الجوانب الكثيرة التي أعلمها من خلالك الخيّرة - وكلها خيرة - ولكني أجتزئ اليوم من الحديث ما أستطيعه عسى أن أتحدث عنك في يوم آخر قريب ، حديثاً مستفيضاً .

وسلام عليك في جنات واسعة إن شاء الله ، وفي نعيم مقيم مع الصالحين والصديقين .

(٣) محمد طاهر الكردي المكي الخطاط

بقلم الأستاذ الأديب يوسف ذنون[١]

شهدت ربوع الحجاز تطور حركة الخط العربي في المراحل المبكرة قبل النضوج والانتشار الذي تحقق بعد ظهور الإسلام وقد عرف الأقدمون الأساليب المكية والمدنية، وشخصوا بعض الظواهر التي تميزها فكانت شهادة حية عاشت في المكاتبات والخطوط التي أعقبتها، بالرغم من التحوّل الذي طرأ على ميدان التطورات التي حصلت في الخط وانتقاله إلى بلاد الشام ثم العراق وبعده إلى البلاد الأخرى.

ولم يتخلّف الحجاز عن مواكبة هذه التطورات والمشاركة الفردية فيها بفاعلية ملفتة للنظر، فنرى مباركاً المكي يفرض نفسه في القرن الثالث الهجري كعلم فرد يذكره دارسو النقوش بأساليبه المبتكرة، كما يبرز عبدالرحمن بن حرمي المكي في القرن السادس الهجري ليعطي طريقة ابن البوّاب نموذجها الحجازي.

وأما ما تلى ذلك من قرون فإن كتب الإخباريين لم تغفل البارزين من خطّاطي الحجاز، وقد تتبع بعضاً منهم مستقيم زاده في كتابه "تحفة الخطاطين" نذكر منهم على سبيل المثال الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المكي في القرن السابع الهجري وأحمد بن محمد بن سليمان بن حمائل المكي في القرن الثامن الهجري، وشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن صدقة المكي في القرن التاسع الهجري ومحمد بن إسماعيل المكي في القرن الثاني عشر الهجري.

ويبرز في هذا العصر الخطاط محمد طاهر الكردي المكي ليؤكد أن الحجاز بقدسيته الإسلامية شكّل نقطة تجمّع لمختلف الأفراد من الشعوب المسلمة، ولذلك من الأمور الطبيعية أن نرى بعض الأشخاص فيه، عندهم أكثر من انتساب ومنهم الخطاطون مثل الخطاط أحمد النابلسي المكي (ت١٠١٤هـ) والمترجم له أبو عبدالرحمن محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردي المكي الخطاط، الذي يشكّل تواصلاً حضارياً بين الحجاز والعراق يعيد إلى الأذهان الصلة الخطية بينهما قبل الإسلام بانتقال الكتابة من الحيرة والأنبار واستمرارها بعده مما يؤكد عمق

---

(١) (مقال بجريدة العراق في ١٩٨١/٣/٢م)

العلاقات وتواترها على مرّ العصور ، وما الخط إلا أحد المظاهر الحضارية المتأصلة في النفوس والوجدان .

وحينما تتواصل المسيرة وتتهيأ الأداة وتتحكّم القدوة الصالحة وتتحفز الاستعدادات الفنية بأصالة واقتدار ، تتحرّك النفوس الطموحة لتجسد ذلك نماذج تظهر وكأنها شعلة من الحيوية والنشاط ، فترفد المجال بدفق غزير من النتاجات المنوّعة على الأصعدة المختلفة في الاتجاهات المتعلقة بالخط -على كثرتها- باعتباره عنصراً فاعلاً في صلب الحياة الحضارية لهذه الأمة ، يبرز بخصوصية في اللغة والفن والتاريخ والآثار .

ومن هذا المنطلق يقيم المرحوم العلامة محمد طاهر الكردي المكي الخطاط الذي يشكّل لبنة وهّاجة في صرح الثقافة والفن والآداب والتاريخ في السعودية وفي العراق وقد تخطّى ذلك إلى آفاق أرحب ، فكان له فضل الريادة ولا نستطيع بهذه العجالة تغطية فضل الرجل الذي كان غزيراً في إنتاجاته إلى أن داهمه مرض عضال عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) أقعده عن نشاطاته المختلفة حتى وفاته في ٢٣ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ (آذار ١٩٨٠م) إلا من تحركات محدودة في المتابعات الثقافية واللقاءات الشخصية وبعض المراجعات لمؤلفاته وخاصة في تاريخ الخط .

إن ما سنعرضه هنا -للقارئ الكريم- من جوانب حياته الجمّة النشاط لا يتجاوز التعريف بمشاركاته في المجالات المختلفة بالقدر الذي يسمح به المقام والتركيز على نشاطاته في مجال الخط استقيناها من ثنايا بعض مؤلفاته والمراسلات المتبادلة بيننا نتيجة العلاقة الحميمة التي ربطتني به خلال العقد الأخير من حياته .

ولد الشيخ محمد طاهر سنة١٣٢١هـ (١٩٠٣م) في وسط ديني فقد كان أبوه عبدالقادر بن محمود الكردي قد ترك أربيل في شمال العراق ليسكن في مكة المكرمة ويجاور فيها ، وتلك سنّة درج عليها الناس منذ القديم ، تقرباً إلى الله واجتهاداً في العبادة ، وقد اهتم الوالد بتربية ولده بشكل يحقّق طموحه الديني ، فرعاه بحنان ، خاصة بعد أن فقد والدته أوائل سنة ١٣٣٤هـ .

نشأ الطفل النجيب في مكة المكرمة ودخل مدرسة الفلاح فيها وقد تخرج منها سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) عندها صحبه والده إلى مصر وأدخله الأزهر لمواصلة طلب العلم سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) وهكذا استمر اهتمام الوالد به

ورعايته له حتى وفاته في ٩ رجب ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) عن عمر بلغ تسعين سنة ودفن في الطائف .

تبلورت شخصية المترجم أثناء تواجده في مصر ، فواصل دراسته في الأزهر واستغل أوقات الفترة المسائية لتعلّم الخط العربي بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية سنة افتتاحها ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) وقد قضى فيها ست سنوات . أربع منها للدراسة الخط تخرج منها سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) وسنتان في قسم التخصّص والتذهيب ، وقد كان أساتذتها من أساطين الخط في تركية ومصر وعلى رأسهم الشيخ عبدالعزيز الرفاعي التركي ومحمد إبراهيم الأفندي والشيخ علي بدري والشيخ محمد غريب العربي والأستاذ محمد رضوان من المصريين .

وتعتبر هذه المدرسة من الركائز الأساسية التي بعثت الحياة في فنون الخط والزخرفة في البلاد العربية في أوائل هذا القرن ، بعد أن أصابها ركود في القرون السابقة ، وقد استفاد المرحوم محمد طاهر من هذه الدراسة فائدة جعلت منه الخطاط الأول في الحجاز حينما عاد إليها سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) .

في الحجاز دخل المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة موظفاً ، ولكنه لم يبق فيها طويلاً فطلبته مدرسة الفلاح بجدة أول عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) لتدريس مادة الخط العربي ، فاستمر فيها أربع سنوات بلورت خلالها مسيرته الحياتية نحو الخط والتأليف فدفعته هو لحسّه وتطلعاته وقلق الفن الأبدي للعودة إلى مصر سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) لطبع نتاجاته في الخط وخاصة "كراسة الحرمين في خط الرقعة" بأجزائها السبعة ، والعمل على تأليف كتاب عن الخط أتمّه في سنوات ثلاث قضاها في القاهرة والإسكندرية ، فكان كتاب "تاريخ الخط العربي وآدابه" وقد صدر في مصر سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) ويعتبر من الكتب الفريدة في حينها في مادته الخاصة والمترجمة عن المصادر التركية .

إن السنين التي تلت كانت مفعمة بالنشاط في مجال الخط والزخرفة والتذهيب والرسم والنظم والتأليف والتنقل . فقدم إلى العراق في منتصف سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) فمر ببغداد والتقى بخطّاطيها ، وقد دوّن ذلك في متن إجازته للخطاط محمد صالح الشيخ علي الموصلي (١٨٩٤هـ - ١٩٧٥م) المؤرخة في صفر ١٣٦٦هـ والساكن آنذاك في بغداد ، وقد كتبها في الحجاز بعد عودته وأرسلها بريدياً .

إن نشاطه الواضح قد أكسبه تجارب واسعة وخبراً جمة وشهرة مميزة ومكانة في بلده أهلّته لكي ينتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لتوسعة وعمارة المسجد الحرام التي بدأت العمل سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) وصار أيضاً رئيس قسم التأليف والآثار التاريخية لمكتب مشروع التوسعة وقد استمر فيها حتى إحالته على التقاعد حسب رغبته لكي يتفرغ لإتمام مؤلفاته التي تربو على الأربعين مؤلفاً بين مطبوع ومخطوط ، وقد قررت الحكومة السعودية طبع جميع مؤلفاته سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) فأحالتها إلى لجنة خاصة لدراستها ولكنها لم تطبع لكثرتها وقد عوّض عن ذلك بمكافأة نقدية ، وقد تأثر من ذلك وانتابه شعور بالإحباط ، خاصة وأنه لم يكن في عمر ولا حالة صحية تمكنه من الاهتمام بها ، وأن نشاطه المعتاد قد تحدد فترك مواصلة الخط بشكل نهائي وأهدى جميع أدواته ومواده إلى أصدقائه في مصر ، انقطع بعدها للعبادة وبعض المراجعات لما ألفه وخاصة كتابه تاريخ الخط الذي توفرت له مادة جديدة فيه ، ولقاءات الخطاطين الذين يفدون حجّاجاً أو معتمرين إلى مكة المكرمة من كافة أرجاء العالم الإسلامي ومحبّيه ممن جذبتهم كتاباته ، يتبادل معهم الخطوط والمعلومات والهدايا .

وهكذا عاش سنواته الأخيرة في دفء العلاقات الحميمة مع الأفراد الذين تعرف عليهم واستمرت صلته بهم بإخلاص ومحبة متبادلة عن طريق اللقاءات في المناسبات ومواصلة ذلك بالمراسلات ، وقد كانت طيبته وبساطته المحببة ووفاؤه النادر وطبيعته الودودة ونوازعه الخيّرة تعطي الديمومة لهذه العلاقات حتى وفاته .

وقد جرى اقتراح بإقامة حفل تكريمي له قبيل وفاته عن طريق الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون باعتباره أول مفكر سعودي وأول خطاط في المملكة وأنه قام بتأليف عدد كبير من الكتب في مختلف ألوان الأدب والفنون ، وهذه لا شك التفاتة كريمة ، وإن جاءت متأخرة ، فقد كان - رحمه الله - متعدد الآفاق متنوّع الاتجاهات ، وقد ترك في الخط نتاجات تخلده ، في مقدمتها خطه المصحف الكريم الذي أطلق عليه "مصحف مكة المكرمة" وهو أول مصحف طبع في مكة المشرفة ، وكتب بيده كثيراً على حبوب القمح والرز كتابات دقيقة من سور القرآن الكريم وبعض الأشعار ، وكذلك رسم خريطة مفصّلة للأقطار العربية بحجم طابع البريد وقد أهدى من كل ذلك للمتاحف ودور الكتب في مختلف الأقطار . وأصدر كراريس لتعليم الخط بدأ بإعدادها حينما كان يدرس هذه المادة في مدرسة الفلاح

بجدة وهي "كراسة الحرمين في تعليم خط الرقعة" في سبعة أجزاء، "نفحة الحرمين في تعليم خطّي النسخ والثلث"، "مجموعة الحرمين في تعليم خط النسخ" واشتغل بإعداد اللوحات الخطية الفنية منها "تحفة الحرمين في بدائع الخطوط العربية" و "لوحة أخرى في الخطوط العربية" وجميعها مطبوعة.

أما آثاره في تاريخ الخط والدفاع عنه فقد طبع منها "تاريخ الخط العربي وآدابه" و "حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة" و "رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف والحركات".

ولم يقتصر نشاطه التأليفي على الخط وتاريخه بل طرق مجالات أخرى كالتاريخ والآثار فطبع له "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" في خمسة أجزاء و "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام"، و "منظومة في أشهر بنايات الكعبة المعظمة" و "تعليق مختصر على تاريخ مكة للقطبي" و "النسب الطاهر الشريف" و "تبرك الصحابة بآثار رسول الله ﷺ" و "رسالة انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى" و " كتاب عيش رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام" و "صورة حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام".

وفي التفسير صدر له "التفسير المكي" في أربعة مجلدات و "زهرة التفاسير" في ثلاثة أجزاء، وفي العلوم القرآنية صدر له "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" ومعه "رسالة حفظ التنزيل من التغيير والتبديل".

وفي أغراض مختلفة طبعت له عدة كتب تلقي الضوء على جوانب لشخصية متعددة المواهب والاهتمامات تحتاج وقفة متأنية للتعريف بها وهي: "بدائع الشعر ولطائف الفن"، "تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد" و "الأحاديث النبوية في الآداب الدينية والتربية الإسلامية" و "ثلاث رسائل في المناسك ودعاء عرفة والأدعية المكية" و "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" و "دعاء عرفة و "الأدعية المختارة" و "أدبيات الشاي والقهوة" و"الهندسة المدرسية" و "استحالة الإقامة في القمر والكواكب" و "لوحة فنية" فيها صور الكعبة المشرفة لأشهر بناياتها، و "لوحة قدمي سيدنا إبراهيم عليه السلام".

وقد طبع بعضها أكثر من طبعة مثل "تاريخ القرآن" و "أدبيات الشاي والقهوة" و "تبرّك الصحابة بآثار رسول الله ﷺ" وتداخل البعض منها في أكثر من كتاب.

وعلى الرغم من كثرة ما طبع من نتاجاته - كما مر - إلا أنه لا زالت هناك مجموعة من النتاجات لا زالت مخطوطة وهي:

"مختصر المصباح والمختار في اللغة" "المقارنة بين خط المصحف العثماني واصطلاحنا في الإملاء" "الاستحسان في وضع علامات الترقيم في القرآن" "حسن البساط في ديوان محمد طاهر الكردي الخطاط" "منظومة في التعاريف الفقهية" "عجائب ما رواه التاريخ" "تراجم من له قوة الحافظة" "الموعظة الحسنة في عدم اليأس وفي الصبر والتفويض" "المحفوظات الأدبية المختارة" "البحث والتحقيق في معرفة معنى الصديق" و "الشوق والرغبة في معرفة ما حصل في الكعبة في العهد السعودي".

إن مؤلفاته المتقدمة قد ثبتها في الصفحات الأخيرة من الطبعة الثانية في كتاب " تبرّك الصحافة" وهو آخر كتاب طبع له سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) وقد كان الشيخ محمد طاهر يؤمل أن يعيد طبع كتبه أو إعادة بعضها مع ما هو مخطوط ولكن ذلك لم يتحقق.

ترجم الشيخ لنفسه في كتابه "تاريخ الخط العربي وآدابه" وفي الجزء الأول أيضاً من كتابه "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" ومع ذلك فإن جوانب كثيرة من حياته لم تتضح، وترجم له حبيب الله فضائلي في كتابه "أطلس خط" (١٩٧١م) ص٣٨٢ والأستاذ فوزي سالم عفيفي - الذي صحبه فترة من الزمن وكانت صلته به وثيقة - في كتابه "نشأة وتطوير الكتابة الخطية العربية" ١٩٨٠م ص٢٧٧، وكتب عنه الشاعر الخطاط وليد الأعظمي في نشرة المصلحة (حزيران ١٩٦٣م) وغيرها، وقد حاول السيد إبراهيم باجلان التعريف به من خلال كتابه "تاريخ الخط العربي وآدابه" في جريدة "العراق" في العددين ١٣٥١ و ١٣٦٨ لسنة ١٩٨٠م.

يضاف إلى ذلك كتابات أخرى من بعض معارفه لم تطبع، ومع ذلك فإن مجال الكتابة عنه لا زال بحاجة إلى مزيد من تسليط الضوء على جوانب نشاطاته المتعددة، وخاصة من تلامذته ومحبيه ومن اتصل بهم وهم كثير - لا يسع المقام لذكر من أعرفه منهم - فقد كان بيته - رحمه الله - في محلة السليمانية في مكة المكرمة محفلاً لمعارفه من الخطاطين والمثقفين من مختلف أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي.

(٤) مؤرخ مكة الكبير وكاتب مُصحفها إلى رحمة الله

بقلم الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان[1]

في الساعة الثالثة والنصف صباحاً، التوقيت الزوالي من يوم الاثنين الموافق ٢٣ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٨٠م - انتقل المؤرخ الكبير العلامة الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي إلى رحمة الله، بعد مرض أسلمه الفراش لمدة عشرين يوماً.

وبوفاته تفقد البلد رائداً من رواد التعليم والفكر في العصر الحاضر، الذي قامت على أكتافهم، وبجهودهم، النهضة العلمية الحديثة في المملكة العربية السعودية، فخرجوا أفواجاً وأجيالاً، من المتعلمين، أصبحت بأيديهم قيادة البلاد.

وقد كان الفقيد -رحمه الله تعالى- إلى جانب اشتغاله بالتعليم ذا اهتمامات وتخصصات متعددة، أبرزها وأهمها: اهتمامه بتاريخ مكة المكرمة، وتحقيق كل ما يتصل بها من آثار وأولى الحرم المكي من إنتاجه العلمي والفكري عناية خاصة - ندر أن يكون لها مثيل - فوثق كل ما يتصل به من دراسات، سواء بطريق الرواية، أو الصورة الفوتوغرافية.

ولم يغب عنه الاهتمام والتوثيق التاريخي لمكة المكرمة حتى في أحرج الظروف والأوقات.

وبعد أن نخر مرض السكر عظامه الذي تمكّن منه ما يقارب العشرين عاماً، فأصاب جسمه بشلل نصفي، كان -رحمه الله- يطلب من أولاده تدوين ما يحدث -مما يروى له أو يقرأ- حتى الأمور البسيطة، بحاسة المؤرخ، وفحص الخبير.

عاصر حادث الحرم، وما فعلته الفئة الخارجة، في بداية عامنا هذا، وكان يتمنى أن تساعده قواه على تدوينه، ويأمل - وقد أصبح عاجزاً - أن تهتم الحكومة السنية بإصدار كتاب مفصّل، توضح فيه كافة الجوانب، والملابسات، والأحداث لهذا الحادث الذي يعدّ من بين الأحداث التاريخية المعدودة فيما يتصل

---

(١) (مقال بجريدة المدينة المنورة العدد ٤٨٦٨ في ١٠/٥/١٤٠٠هـ - صفحة ٩)

بالمسجد الحرام ، فيكون وثيقة تاريخية صادقة أمينة ، تقف عليها الأجيال ، بدلاً من الروايات المتعددة والإشاعات الرائجة التي قد لا يكون لها جانب من الصدق .

وكتابه "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" موسوعة تاريخية واجتماعية وأدبية عن مكة المكرمة ، جمع فيه معارف شتى ، يقع في ستة أجزاء ، طبع منه أربعة أجزاء ، على نفقة السيد أحمد هاشم مجاهد ، وكيل وزارة الحج والأوقاف سابقاً ، والجزءان الآخران يقوم مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ، بدراسته ، لإعداده للطبع .

وهذه المدوّنة التاريخية ، بالطريقة التي سلكها المؤلف -رحمه الله- هي مادة علمية جيدة ، أرّخ فيها ما أغفله التاريخ ، وهي صالحة لأن يستخرج منها رسائل علمية متعددة الجوانب ، خصوصاً في النواحي الاجتماعية ، في هذا البلد الكريم .

ذكر في تقديم الكتاب هذه العبارة :

"هذا الكتاب أعظم تاريخ ظهر إلى اليوم ، في الوجود ، لبلد الله الأمين ، مكة المكرمة ، وبيته المطهر الشريف ، ولكل ما له تعلّق بالمشاعر العظام وغيرها ، منذ عهد إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- إلى اليوم ، وهو كتاب مزيّن بالخرائط المهمة ، والصور الفوتوغرافية ، والرسوم اللطيفة ، للأماكن المقدسة ، والمواضع الأثرية ، والرجال البارزين ، والعلماء المؤرخين ، وتراجم كل منهم ، وفيه من المباحث والمسائل ما لم يذكر في أي تاريخ ، وفيه من مسائل الحج ، والمواضيع المتنوعة الشيّقة . . . وفيه من التحقيقات والتدقيقات . . ولم نترك شيئاً من المسائل إلا ما يتعلق بالحروب والفتن التي وقعت فيما مضى من الأزمان ، وسيصبح هذا الكتاب -إن شاء الله- قاموس التواريخ ، يرجع إليه العلماء والفضلاء ، في كل ما يتعلق ببلد الله الأمين وبيته المقدّس ، وجوهرة عزيزة فاخرة ، فالحمد لله على إتمامه ، والشكر له على إنعامه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم" .

وقد زخر كتابه بنماذج فنية رائعة لبعض الأشكال ، والخطوط ، وصور بعض العلماء والأعيان والحكّام المعاصرين .

ومن آثار اهتمامه الخاص بالحرم المكي الشريف قيامه برسم سطح حجر مقام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وفيه أثر القدمين .

يتحدث الدكتور عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش في بحثه "الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي - حياته ومؤلفاته" عن أعماله في مجال الخط العربي، والزخرفة الإسلامية، عن رسمه سطح حجر المقام.

لوحة فنية نادرة لمقام إبراهيم -عليه السلام- ومقاس اللوحة الأصلية هو ٢٢،٥×٢٢،٦١سم، وهذا العمل لم يسبق لأحد أن قام به، في العالم الإسلامي قاطبة، وعلى مرّ عصور التاريخ الإسلامي المجيد، ويظهر لنا من هذه اللوحة الدقة، وحسن التصميم، مما يدل على براعة الشيخ محمد طاهر الكردي، وحسن اختياره. ولقد طبعت هذه اللوحة في عام ١٣٨٢هـ الموافق ١٩٦٢م.

وأخرج رسوماً خاصة لأشكال بناية الكعبة المشرفة، على مر العصور، ومنظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة، وألف كتاباً في مناسك الحج بعنوان "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة".

فكانت مكة المكرمة بلدة تعيش في روحه ودمه، وكان من بين الذين شاركوا في وضع الحجر الأساسي لتوسعة الحرم الشريف، وكان أحد المسئولين عنها، كما كان له شرف وضع الإطار الفضي للحجر الأسود، والإشراف والمشاركة في ترميم الكعبة، وتحديد سقفها في التسعينات.

كما كان من أبرز اهتماماته العلمية فن الخط والزخرفة الإسلامية، فله -في هذا المجال- آثار هامة متعددة، توّجها بكتابته للقرآن الكريم، ويعتبر هذا الأثر مفخرة البلاد، ولقي انتشاراً وإقبالاً، وأطلق عليه "مصحف مكة" وهو يشهد له بالدقة والكفاءة العالية، في هذا المجال، حتى أصبحت نسخ هذا المصحف نادرة، بل معدومة من الأسواق.

ومن أهم ما قام به، في هذا المجال، كتاب "تاريخ الخط العربي وآدابه" وهو كتاب ذو قيمة علمية كبيرة جمعه من أهم المصادر، وحلاّه بأنواع الخطوط العربية، وضم فيه تراجم أشهر الخطاطين.

وليس هذا مجال عرض أعماله العلمية، وإنما أحيل القارئ الكريم إلى البحث العلمي الذي قام بدراسة أعماله عميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة الدكتور عبداللطيف بن دهيش.

أما حياته العلمية والوظيفية، فقد ولد -رحمه الله- عام ١٣٢١هـ الموافق ١٩٠٣م بمكة المكرمة، وتخرّج من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ثم سافر إلى مصر سنة ١٣٤٠هـ، لطلب العلم بالأزهر الشريف، ثم التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، في سنة افتتاحها، عام ١٣٤١هـ.

ويتحدث الفقيد - رحمه الله - عن تعلمه فن الخط بقوله: "ولم يخطر ببالي أن أكون يوماً ما معدوداً في مصاف الخطاطين، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، فأخذت في المدرسة المذكورة خط الثلث، والنسخ، والرقعة، وجلي... وكذلك أخذت الخطوط المذكورة مع الخط الفارسي، والخط الديواني، وفن التذهيب، والرسم، والزخرفة..."

ثم عاد إلى البلاد فعيّن موظفاً بالمحكمة الشرعية الكبرى عام ١٣٤٨هـ، وفي بداية عام ١٣٤٩هـ انتقل إلى حقل التعليم، فعيّن مدرساً بمدرسة الفلاح بجدة.

وفي سنة ١٣٥٣هـ سافر إلى مصر، ثانياً، فأقام بالقاهرة عاماً كاملاً، وبالإسكندرية عاماً آخر، وكانت فترة حافلة بالنشاط العلمي والتأليف والاتصال بالعلماء.

وفي سنة ١٣٥٥هـ عاد إلى المملكة، وعمل بمدرسة الفلاح بجدة، لفترة قصيرة، ثم اختارته مديرية المعارف - آنذاك - للتدريس بمدارسها، فدرس في المدرسة السعودية، أولاً، ثم العزيزية الابتدائية، ثانياً.

وعندما قامت مديرية المعارف بافتتاح مدرسة لتحسين الخط وتعليم الآلة الكاتبة - عين مديراً لها - وعلاوة على ذلك فإنه كان يعمل خطاطاً بمديرية المعارف، ثم اختير مستشاراً في الجهاز الإداري لمشروع توسعة الحرم المكي الشريف، فكان نعم المعين، لمعرفته بتاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف.

وفي عام ١٣٨٣هـ أصيب بمرض ألزمه الفراش، فأثّر على حواسه، وظلّ معه سنين، ثم منَّ الله عليه بالشفاء منه، ولكن مع اعتلال وملازمة للعلاج، وكان مصاباً بمرض السكر الذي لازمه حتى الموت.

ولم ينقطع المرحوم عن القراءة والتأليف، خلال فترة مرضه، ما استطاع وقد فقد بصر إحدى عينيه -عاماً- قبل وفاته.

اشتهر -رحمه الله- بعفة النفس، والاعتزاز وكرم الطبع والسخاء، مع حدة في الطبع.

غادر الفقيد الحياة، وقد عاشها عيشة الزاهدين المتقشفين، مثله مثل جيله من علماء هذه البلاد الذين انصرفوا عن الدنيا، رغم الفرص الكثيرة التي أتيحت لهم، فتركوا الحياة، ولم يملكوا شبراً من أرض.

ويذكر في هذا بقول الشاعر:

كم عالم يسكن بيتاً بالكرى وجاهل له قصور وقرى

رحمهم الله رحمة الأبرار، وعوّض عنهم من يخلفهم من أبناء هذه البلاد، ويملأ مراكزهم العلمية، يقتفون آثارهم، ويخلدون ذكراهم، ويحملون رسالتهم في أمانة ووفاء.

(٥) ملحق التراث

يشاطر العالم الإسلامي في مصابه بالخطاط المكي محمد طاهر الكردي - كاتب مصحف مكة المكرمة(١)

كان علَماً من علماء العهد الماضي، ورائداً من رواد العلم، وحملة القرآن الكريم، وداعياً من دعاة الشريعة والحق والخير، قضى حياته -راضياً مطمئناً- في النفع، والتثقيف، ونشر العلم، وبذل وقته وجهده وماله -بلا نصب ولا تعب- قارئاً مستقرئاً، كاتباً مستكتباً، لا يريد مالاً وجاهاً ولا رياء ولا سمعة، كفاء ما يقرأ، أو يكتب، أو ينشر من العلم والتقوى والقدوة الصالحة، وإنما يبتغي وجه الله تعالى، ويطلب أن ينفع الله بما يعمل، ويكتبه به من العلماء المخلصين المقبولين، ويحشره مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ولم يزل على هذه الحال مورداً عذباً للظامئين من طلبة العلم، ومعيناً لا ينضب بعلمه الغزير وسلوكه القويم، ونبراساً لشباب هذا الجيل الصاعد وما يليه في الصمود على الحق، والجلد في طلب العلم، والصبر على مشكلات الحياة وصحة العزيمة على فعل الخير، وإسداء النفع للآخرين، حتى لقي وجه الله تعالى،

---

(١) (مقال نشر بجريدة المدينة في الخميس ٣ من شهر جمادى الأولى ١٤٠٠هـ - العدد ٤٨٦١ - ص٩)

في جدة ، مساء يوم الأحد ، قبل الفائت ، ودفن – في مكة المكرمة – بعد صلاة العصر من اليوم التالي .

إنه المرحوم الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط ، كاتب مصحف مكة المكرمة ، والخطاط بمديرية المعارف العامة بمكة المكرمة – سابقاً – والشاعر المبدع صانع المنظومة المشهورة للكعبة الشريفة ، ووصفها ، في مائة وتسعة وثلاثين بيتاً ، والمؤلف الفذّ صاحب التصانيف الكثيرة في فنون متعددة ، من أظهرها فن الخط ، ورسم القرآن الكريم ، وتاريخه ، وحكمه ، وجمعه ، وكتابته ، وترتيب آياته ، وسوره ، وضبطه وتصحيحه ، وهي فنون دقيقة فتح الله –سبحانه وتعالى– بها عليه ، بعدما تجرد لكتابة المصحف الشريف ، فكانت هذه الفنون جميعها –بحقّ– من بركة هذه الكتابة .

من أعماله المشهورة – رحمه الله – أن وفقه الله تعالى لكتابة القرآن الكريم ، بخط يده ، كاملاً ، كتبه على وفاق رسم المصحف العثماني ، نقلاً عن المصحف الذي طبعته الحكومة المصرية ، سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وأربعين للهجرة ، تحت إشراف مشيخة الأزهر ومشيخة المقارئ العمومية .

وقد انتهى – رحمه الله – من كتابة هذا المصحف الشريف ، في ختام عام ألف وثلاثمائة واثنين وستين للهجرة ، فتألفت لجنة من العلماء ، في المملكة ، للعناية بتصحيحه ، وهم السيد أحمد حامد التيجي ، والشيخ عبدالظاهر أبو السمح ، والسيد محمد أحمد شطا ، والسيد إبراهيم سليمان النوري ، والشيخ علي محمد الضباع ، فطبع باسم "مصحف مكة المكرمة" ، فكان أول مصحف يكتب ، في مكة المكرمة ، في العصر الحديث ، وأول مصحف يطبع – أيضاً – في مكة المكرمة ، أوائل سنة ١٣٦٩هـ .

ومن مؤلفاته :

تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه ، وهو يبحث في التعريف بالقرآن الكريم ، وما يتضمنه من الإعجاز والشمول في الأحكام والآيات ، وفي جمعه ، وكتابته ، وترتيب آياته وسوره ، وضبطه ، وتصحيحه ، وفي غرائب رسم كلماته ، وحكم اتباع رسمه ، وسبب نقط حروفه وتشكيلها ، وهل رسمه توقيفي أم لا ؟ وقد طبع هذا الكتاب طبعتين ، في شركة مصطفى البابي الحلبي للطباعة في مصر ، غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ وصيف عام ١٣٧٢هـ .

مقام إبراهيم - عليه السلام - ويتناول بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة: بناء إبراهيم الخليل - عليه السلام - وبناء قريش، وبناء عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما - وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، مزداناً بصور مبتكرة للكعبة المشرفة، في هذه البناءات الأربعة وفق ما ورد في كتب التاريخ المعتمدة.

وقد طبع الكتاب، في القاهرة، طبعة واحدة، سنة ١٣٦٧هـ.

منظومة في بناء الكعبة المشرفة، وهي منظومة لطيفة في وصف بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة: بناء إبراهيم الخليل - عليه السلام - وبناء قريش، وبناء عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما - وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وضعها المؤلف لاعتقاده بأن النفوس المهذبة تستحلي سماع الشعر وإنشاد القريض، وأن الطلاب الأذكياء ترسخ - في عقولهم - الأبيات الشعرية أكثر من النثريات، وبخاصة ما كان منها سهل الوزن لطيف المعنى.

وقد نشر المؤلف هذه المنظومة مرتين، مرة في الهند أوائل سنة ١٣٦٧هـ، ومرة في القاهرة سنة ١٣٧١هـ.

حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة، وهو تأليف مستقل في الخط وأدوات الكتابة، يأتي على أنواع الخط، وأشكاله، وما ورد فيها من أقوال للسلف الصالح، وفي وصفها، وذكر محاسنها، نثراً وشعراً، ويأتي على أدوات الكتابة المختلفة، ظهورها، وتطورها وما جاء فيها، من شعر ونثر، في أقوال السابقين. وقد طبع الكتاب في مصر، سنة ١٣٧٠هـ.

مجموعة الحرمين - كراسات في تعليم خط النسخ، كان المرحوم الشيخ محمد طاهر الكردي قد وضعها للناشئين والراغبين في تعلم الخط النسخي، استجابة لرغبة المعارف العامة بمكة المكرمة.

وقد طبعت هذه الكراسات في مصر، غير مرة.

وله -رحمه الله- عدد آخر من المؤلفات المخطوطة، التي ما تزال رهن مخاطرها في انتظار دورها في الطبع والنشر، منها:

الموعظة الحسنة في عدم اليأس والصبر والتفويض.

إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة.

تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد.

ومن شعره ، قوله :

كم عاقل فاضل تلقاه مضطرباً ... وجاهل خامل تلقى به طربا
هذا له الحظ في الدنيا وذاك له ... عز من الله في أخراه قد وجبا

وقوله :

لقد استراح من الحياة وكدّها ... ومن الهموم ورؤية الأهوال
من مات أو من جن أو متبتل ... لزم القناعة صادق الأحوال

وقوله :

دع الأمر تحت القضا والقدر ... فما ينفع العقل لا والحذر
فمن رام سخطاً على ما جرى ... فذاك الكفور وشرّ البشر
ومن سلّم الأمر نال المنى ... وما يبتغيه ونال الظفر
فصبراً جميلاً على ما قضاه ... الإله عساه يزيل الضرر
ولا تتركن الدعاء والطلب ... فإن اللطيف به قد أمر
ولا تركبن بحار الهوى ... فإن المعاصي قرين الخطر

وقوله:

زدني بفرط الابتلاء تصبراً ... والطف بما قدرته فيما جرى
يا من له عنّت الوجوه جميعها ... رحماك فالعبد الذليل تحيّرا
إن لم يكن لم منك لطف شامل ... أو فضل إحسان عليَّ مكررا
فمن الذي أرجو لكشف بليتي ... أو من إليه أميل من بين الورى
والكل مفتقر إليك وسائل ... من فيض جودك نقطة أن تقطرا
لا أرتجي أحداً سواك وأنت لي ... نعم الملاذ ومن رجاك استبشرا
إني سألتك والهموم تراكمت ... والدهر عاند والزمان تنكّرا
حاشا تخيب من رجاك مؤملاً ... مهما جنى أو كان فيك مقصّرا

وله -رحمه الله- في باب النثر ، حكم وأمثال مبتكرة ، منها:

- حركات المرء تدل على عقله .
- حفظ المعروف من المروءة .
- لا تهدِ شيئاً لمن لا يقدره .

- تقدير الأعمال يزيد نشاط العمّال .
- مراعاة إحساس الأصدقاء تقوي حبل الصداقة .
- العزيز إذا افتقر هان .
- دوام العزلة يميت النشاط والهمة .
- الاعتراف بالإحسان من كمال الإنسان .
- إذا افتقر العاقل تعرض للزلل .
- الاستبداد والقسوة يورثان البلادة والجفوة .
- هضم الحقوق موجب للعقوق .
- لا ينهض المرء بفقره .
- الكريم إذا ضاقت به الأحوال لم يختلط بالناس .
- المال أساس النجاح .
- المال يستر العيوب .
- الكريم بلا مال كالشجاع بلا سلاح .
- الأحمق واللئيم يضيع معهما المعروف .
- كثرة الخضوع نفاق .
- لا يشقى من حالفه الحظ .
- لا تحتقر ضعيف اليوم فقد يصبح غداً عظيماً .
- لا تتودد إلى من لا يعتبرك
- الفوضى عاقبتها الفشل .
- الصبور إذا انتقم بطش .
- الانهماك في العمل يؤدي إلى الملل .
- من احترم غيره فقد احترم نفسه .
- الوظائف تكيف الرجال ، والرجال تنهض بها .

فلله هذه النفس العالية ، وفضائلها الجليلة ، و لله هذا التكوين الموسوعي المحبّب في ثقافة الرجل ، و لله هذه الهمّـة الأدبيـة ، والجلـد العجيـب في خدمـة كتـاب الله الكريم ، ولغته ، فرحمه الله تعالى ، رحمة واسعة ، وتغمّده بفضله وإحسانه .

تقديم الكتاب

هذا الكتاب هو تاريخ لبلـد ا لله الأمـين مكـة المكرمـة وبيتـه المطهـر الشـريف ولكل ما له تعلق بالمشاعر العظام وغيرهـا منـذ عهـد إبراهيـم الخليـل عليـه الصـلاة والسلام إلى اليـوم ، وهـو كتـاب مزيـن بـالخرائط والصـور الفوتوغرافيـة والرسـوم للأماكن المقدسة والرجال البارزين والعلماء المؤرخين وتراجم كل منهـم وفيـه مـن المباحث والمسائل ما لم يذكر في أي تاريخ وفيه من مسائل الحج والمواضيع المتنوعـة الشيقة ما يجذب الفؤاد . والحاصل أن هذا الكتاب يحتوى على المسائل التي وقعـت فيما مضى من الأزمان وهو قاموس التواريخ يرجع إليه العلماء والفضلاء في كل ما يتعلق ببلد ا لله الأمين وبيته المقدس ، إنه لـدرة ثمينـة نـادرة فـالحمد لله على إتمامـه والشكر له على إنعامه وصلى ا لله على سـيدنا محمـد وعلـى آلـه وصحبـه وسـلم . ورحم ا لله تعالى من يقول:

فـالبلد الأمـين أعـني "مكـة"	أم القـرى وقـد يقـال "بكّـة"
أجـدر مـا يخـدم مـن بـلاد	لأنهـا شـريفة التـلاد
قـد اعتنـى بهـا كثـير النـاس	مـن خلفـا ومـن ملـوك النـاس
وكيـف لا ومـن أتاهـا أمنـا	ومـن أقـام مخلصـاً لـه الهنـا

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم والحليم الكريم. ربنا ورب السموات والأرض ورب العرش العظيم، القائل في كتابه المبين: ﴿والتين والزيتون ۞ وطور سينين ۞ وهذا البلد الأمين﴾ - يقسم الله تعالى عز وجل ببعض الأشياء المخلوقة القيمة، ومن ضمنها هذا البلد الأمين، والمراد به مكة المكرمة شرفها الله تعالى وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها آمين، لما فيها من بيت الله الحرام، ومن الآيات البينات والمشاعر العظام.

والصلاة والسلام المباركان العاطران الدائمان إلى يوم الدين، على شفيع الأمة ونبي الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، سيدنا ونبينا "محمد" خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي سعدت الحجاز كلها بوطء أقدامه الشريفة عليها في سهولها وجبالها وبراريها، واستأنست دوابها ووحوشها إلى شفقته وإحسانه ومراعاته، واطمأن أهلها وسكانها إلى لطفه وحلمه وحكمه وعدله ووفائه ودعائه، واستظلوا بظل فضله وكرمه وعظيم أخلاقه، وعلى آله وأمته وأصحابه الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم من الخلق وزكاهم وطهرهم ورضي عنهم ووفقهم لاتباع الحق.

أما بعد، فيقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط عفا الله تعالى عنه وغفر له ولوالديه وللمسلمين آمين - اعلم أن التاريخ علم عظيم الفائدة كبير النفع، يطلع الإنسان على أحوال السابقين، من الأمم والأفراد المعتبرين، فيقف على حقائق الحوادث والأمور، ويزداد فهماً وعلماً كلما تأمل فيما بين السطور، وإلى هذا المعنى يشير بعض العلماء بقوله:

وبعد فالتاريخ علم شرفُهْ	عالية بين الأنام غرفُهْ
وفيه ما فيه من المنافع	حتى لقد قال الإمام الشافعي
في خبر قد صح عنه نقله	من حفظ التاريخ زاد عقله

وهو كلام ظاهر لا شك في صحته وسره غير خفي

فالتاريخ هو ترجمان العصور، ولسان الدهور، فالأمة التي لا تاريخ لها لا قيمة لها، ولا شك أن خير أجناس الأمم العرب، وأفضل العرب عرب الحجاز، وأفضل الحجاز الحرمين الشريفين، لأن فيهما وفي أطرافهما قريش، فليس على وجه الأرض بلدة مستقلة بدين واحد، إلا مكة والمدينة، فمنهما انتشر الإسلام وإليهما يأرز الإيمان، فمكة محل ميلاد النبي ﷺ والمدينة موضع مثواه، وهما يمتازان على جميع البلدان والأقطار بما سنذكره إن شاء الله، ولا شك أن لهما من التاريخ المجيد ما هو حافل بكل طارف وتليد، وما من مسلم إلا وهو يفضلهما معترف وعارف، فكم ألّف في تاريخ هاتين البلدتين الطاهرتين من العلماء الأجلاء كتباً وأسفاراً، وكم وضعوا في فضلهما ومكانتهما مؤلفات شتى حازت قبولاً وإكباراً، من سابق الأعوام والأزمان، إلى هذا العصر والأوان.

ولقد كان من أجل نعم الله عليّ، وكل نعمائه عظيمة وجليلة، أن وفقني سبحانه وتعالى لتأليف تاريخ قيم ثمين لهذه البلدة الطاهرة مهبط الوحي الأمين، مكة المكرمة شرفها الله تعالى وحماها، بعد أن جعلني من أهلها وأدخلني في حماها، وقد سميت هذا التاريخ المبارك "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" وقد ابتدأت في تأليف هذا التاريخ من شهر شعبان سنة ١٣٧٥ خمس وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وهي السنة التي ابتدأوا فيها بتوسعة المسجد الحرام في زماننا هذا وهي التوسعة السعودية.

ومن عجيب الأمور والإشارات، ما كنت أراه في المنام مراراً عديدة، وذلك قبل تأليفي لهذا التاريخ بأكثر من عشر سنوات، بأني دخلت الكعبة المشرفة، أو طفت بها، أو وقفت أمام نفس حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو أنني أنظر إلى ما في الكعبة من كتابات ونقوش، أو أراني أنزل إلى جوفها تحت الأرض، وأحياناً أرى أنني بعد طوافي بالكعبة أرجع إلى ما بين زمزم والمقام أتأمل الكعبة وما حولها، وليلة أرى على الكعبة المعظمة كسوة جديدة ظريفة من داخلها وخارجها، وأرى بابها قد جدد بالذهب والفضة وقد زيد في عرضها كثيراً.

وهكذا كانت رؤياي في مدة السنوات المذكورة عن المسجد الحرام وعن الكعبة المشرفة والمطاف وزمزم والمقام على هيئات مختلفة وصور وأشكال متنوعة، وكنت أتأولها خيراً وآخذ منها الفأل الحسن برضاء الله تعالى وتوفيقاته المتوالية،

وبالفعل فقد وفقني الله تعالى لتأليف كتابي المطبوع بمصر المسمى "مقام إبراهيم عليه السلام" وذلك سنة (١٣٦٧) سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، وأعتقد أنه هو الكتاب الأول الذي ألف عن المقام الكريم الذي هو أمام الكعبة المعظمة .

ولم يكن يطرأ ببالي قط أنني أشتغل بتأليف تاريخ عن مكة المشرفة وخدمة بيت الله المطهر ، وإذا هجس بقلبي ذلك كنت أستبعد وقوعه لما في ذلك من المشقة الكبرى والتعب العظيم ؛ لأنه ليس من السهل وضع تاريخ مفصل عن هذه البلدة المقدسة الطاهرة العريقة في المجد والشرف والخير والبركة .

فلما مضت ثمان سنوات على تأليفي كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" إذا بنا نسمع أن حكومتنا السعودية قد عزمت على توسعة المسجد الحرام بمكة المشرفة ، وإذا أنا قد انتخبت رسمياً أن أكون عضواً في اللجنة التنفيذية لتوسعة وعمارة المسجد الحرام ، فقلت الحمد لله وعلى بركة الله ولا بد أن يكون لي في هذا الأمر شأن يذكر ، فلما كان في شهر شعبان (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين ، شرح الله تعالى صدري لتأليف تاريخ عظيم من بلد الله الأمين (مكة المكرمة) وعن بيته المطهر (الكعبة الغراء) وعن المشاعر العظام وعن طرق الحج ومسالكه ، وكلما مر يوم من شعبان ازدادت رغبتي في الاشتغال بوضع التاريخ ، وإذا بي أجدني في يوم من الأيام أخذت في أسباب التأليف ، وسألت الله تعالى العون والإمداد في هذا العمل المجيد ، وتوكلت على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، فكتبت أول ما كتبت من التاريخ مبحثاً عن كسوة الكعبة الداخلية والخارجية بإسهاب وترتيب مبتكر ، فكنت موفقاً و لله الحمد إلى أقصى حد ، وقد أتممت هذا المبحث بعد ثلاثة أشهر وهي: شعبان ، ورمضان ، وشوال . ولقد سررت جداً بإتمامه كما ينبغي وإن تعبت في ذلك تعباً عظيماً لا يعرفه إلا من مارس التأليف ، كما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

فالتأليف أمر لا يستهان به ، ورب قائل يقول: ما سبب بدئك بالكتابة عن مبحث الكسوة ؟ فأقول: ليس له سبب علمي ولا سبب فني وإنما هكذا جاء مبحث الكسوة من ابتداء الأمر فمشيت فيه حتى أتممته ، ولقد جرت عادتي في تأليف الكتب ، أنني أكتب مباحث الكتاب وفصوله وأبوابه ، حتى إذا ما انتهيت منه أرتبها ترتيباً حسناً ، فالمؤلف يجب عليه أن يتبع الفتوحات الإلهية ، وأن ينتهز

فرصة انشراح صدره لأي مسألة من المسائل وأي مبحث من المباحث ، وبهذا الترتيب لا يضيع عليه شيء من مسائل الكتاب ؛ لأنه حريص على تدوين ما يفتح الله به عليه أولاً فأولا ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ومما يجب أن أقر وأعترف به إيماناً بتوحيد الله الحليم العظيم رب العرش العظيم ، هو أن تأليفي لهذا الكتاب لم يكن إلا بمحض فضل الله تعالى وإرادته لا بحولي ولا بقوتي ولا بإرادتي ، فإنه تعالى إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ، وأعان عباده على الأمور التي أراد إظهارها ، تنفيذاً لمشيئته الأزلية ، وتحقيقاً لقضائه وقدره لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وتحدثاً بنعمة الله تعالى عليّ أقول: إنني صنت كتابي هذا من كل مسألة ليست لها صحة ، ومن كل حادثة فيها شك أو ريب ، وأنني ابتعدت عن ذكر الأمور الخرافية والدجل كل البعد ، كما أنني التزمت ذكر الحوادث بدون مبالغة ولا تزييف ، فإن ذلك مما ينفي الثقة من المؤلف ويذهب من بهاء الكتاب وقيمته ، وقد أعانني الله على كل ذلك بفضله ومنته .

ولقد جعلت في هذا الكتاب من الخرائط والرسوم والصور ، ما يوضح مبهمات المسائل والأمور ، ويضفي عليه حسن المنظر والجمال وإنها لجديرة بالعناية وحسن الالتفات ، حيث لا يوجد في تاريخ من الصور والرسوم ما في هذا التاريخ العظيم منها والحمد لله على التوفيق .

ولقد وضعت في الكتاب أيضاً كثيراً من الاقتراحات التي تتناسب مع بعض المباحث وتتفق مع مكانة هذه البلدة الطاهرة ، رجاء العمل بها إن شاء الله تعالى .

أما مصادر كتابي هذا ، فمتعددة ، فقد نقلت من الكتب المعتمدة في شتى العلوم والفنون ، ككتب التفسير ، والحديث ، والتاريخ ، والأدب ، وغير ذلك ، وإذا نقلت شيئاً نسبته إلى الكتاب الذي نقلته منه بصريح القول والعبارة ، فهذا العمل أفضل وأسلم كما هو عادة العلماء من قديم الزمان . ولم أنس ولله الحمد وضع ترجمة كل من له تعلق بتاريخ مكة في كتابي هذا ، عند ذكر اسمه في المناسبات القوية التاريخية .

فكتابي هذا قد استوعب ما وقفت عليه من تاريخ مكة ، فقد جمعت فيه كل المسائل والأبحاث القيمة المتعلقة بها ، ما عدا ذكر الحروب التي وقعت بمكة ، شرفها الله تعالى وحفظها من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، في العصور السابقة إلى

أن استولى عليها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى في عصرنا الحاضر سنة (١٣٤٣هـ) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين ، فانتشر الأمن والأمان فيها وفي جميع المملكة ، بما لم يكن في سالف الأزمان ، و لله الحمد والشكر .

والسبب الذي من أجله تركت ذكر حوادث الحروب بمكة ، هو أن ذلك يعرضني إلى ذكر مساوئ من سبقني بالإيمان من أموات المسلمين وهم قد قدموا إلى ما عملوا ، وقد قال ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم» .

وأيضاً لا بد إذا ذكرت ما وقع بين فلان وفلان أن أقع في غيبتهم ، والغيبة حرام للأحياء والأموات قال الله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ .

ثم إن ذكر الحروب من اختصاص المؤرخين السياسيين ، وأنا لا أعرف في السياسة شيئاً منذ الصغر ، فالحمد لله الذي عافاني منها لأشتغل بما هو أنفع وأصلح لمثلي ، ففي الصحيحين : «كل ميسر لما خلق له» . وفي المثل : للتين قوم وللجميز أقوام . فالسياسة مطلوبة بل واجبة لكن على طبقة خاصة ، وهي طبقة الملوك والوزراء والأمراء ، الذين بيدهم الحل والعقد ، ليوجهوا العباد إلى طريق الخير والسداد ، ويجنبوا البلاد ويلات الحروب والفساد ، ففي الصحيحين : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

إن من ينظر في تاريخ مكة للإمام الأزرقي رحمه الله تعالى وغفر لنا وله وهو يعد أعظم تاريخ مهم لمكة المشرفة في صدر الإسلام ، فالإمام الأزرقي توفي إما في أواخر القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث للهجرة ، إن من ينظر في تاريخه يجده تاريخاً مهما محترما محررا في مباحثه ، وما ذكر فيه من قياس أطوال بعض الأماكن مهم جداً كقياس ما بين الكعبة والصفا أو ما بين الصفا والمروة أو ما بين الكعبة وعرفات ، وغير ذلك من الأماكن والمشاعر العظام ، وكل ذلك مبين بالأذرع بياناً تاماً وافياً ، ولا ندري كيف تمكن الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى وأثابه على أعماله العظيمة من تحرير كل ذلك ، والذي نعتقده أن جميع أهل هذه البلدة الطاهرة من أميرها وعلمائها وأفرادها العوام والخواص كانوا يقومون بخدمته ويساعدونه في جميع ما يطلب .

هذا وقد تحملنا الكثير من التعب والمشاق في إبراز هذا التاريخ ونرجو من الله الكبير أعظم المساعدة والمعونة ، فالحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وعظمته .

وختام القول: أنني أحمد الله عز وجل على توفيقاته المتوالية، ونعمائه المتتالية، وتوجيه قلبي للاشتغال بالعلوم النافعة مع ما أنا عليه من الغفلة، والتقصير في طاعة الله الملك الديان.

والله أسأل وهو أكرم مسؤول، أن لا يحرمني من الأجر والثواب، فيما تركته بعدي من التآليف النافعة وبالأخص كتابتي لمصحف مكة المكرمة الذي اشتهر وعم في الآفاق، تحقيقاً لقول نبيه ورسوله محمد ﷺ المروي في صحيح مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل لي في الدارين اسماً طاهراً، وذكراً مباركاً حسناً، وعملاً متقبلاً، فالإنسان تاريخ نفسه، فإنه يموت ويفنى ويبقى ذكره وآثاره، وقصصه وأخباره، وما أحلى قول الشاعر:

إن المآثر في الورى ذرية ... يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها
فترى الكريم كشمعة من عنبر ... ضاعت فإن طفئت تضوَّع نشرها
إملأ الدنيا بما تستطيع من ... عمل يبقى إذا العمر ذهب
إنما الأعمال تاريخ الفتى ... تقرأ الأجيال فيه ما كتب

وقول الآخر:

ما تنسج الأيدي يبيد وإنما ... يبقى لنا ما تنسج الأقلام

وقال بعضهم:

ليس للإنسان إلا ما سعى ... وجزاء المرء من جنس العمل

وإني بحمد الله تعالى قد اشتغلت بالتأليف في مختلف العلوم والفنون، منذ أربعين سنة حتى بلغت مؤلفاتي نحو أربعين كتاباً أجلّها وأعظمها كتابتي لمصحف مكة المكرمة وهو مطبوع منتشر، وتاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه وهو مطبوع أيضاً، والتفسير المكي وسيطبع قريباً إن شاء الله تعالى، وغير ذلك من المؤلفات التي سنبينها في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وإنه ليحق لي أن أتمثل بقول الشاعر:

صرفت زماناً في فنون جمعتها ... وأفرغت جهدي والجنون فنون
فلما تجلى الأمر وانكشف الغطا ... تبين لي أن الفنون جنون

هذا وقد اعتنى كثير من العلماء الفضلاء بوضع تاريخ لمكة المكرمة منذ العصور الأولى إلى زماننا هذا كالشيخ سلامة والشيخ الغازي والأستاذ أحمد السباعي ، ومن المتقدمين الإمام الأزرقي والإمام الفاكهي والعلامة الفاسي والعلامة القطبي وغيرهم رحمهم الله تعالى جميعاً ، كما سنذكر أسماء المؤلفات بعد هذه الخطبة ، فالحمد لله الذي ألحقني بهم ووفقني لخدمة هذه البلاد المقدسة ، وإلى هذا نشير بقولنا:

فالبلد الأمين أعني "مكة" أم القرى وقد يقال "بكّة"

أحدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفة التلاد

قد اعتنى بها كثير الناس من خلفا ومن ملوك الناس

وكيف لا ومن أتاها أمِنا ومن أقام مخلصاً له الهنا

ولقد سافرت إلى مصر من مكة المشرفة مراراً عديدة ، وتسجيلاً لإحدى هذه الزيارات لمصر أضع صورتي المأخوذة هناك عام ١٣٦٧هـ للذكرى والاعتبار وطلباً لدعاء إخواني المسلمين بالمغفرة والرحمة في الحياة وبعد الممات وهي هنا تحت صورة والدي.

هذا وإن من الواجب على الإنسان أن يشكر من أسدى إليه معروفاً وأن يكافئه ويدعو له بخير ، وأولى الناس بالشكر والدعاء أب الإنسان وأمه ، كما قال تعالى في كتابه العزيز في سورة لقمان: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ وقال عز شأنه في سورة الإسراء عن الوالدين ومعاملتهما بالإحسان: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.

فإني لا أنسى والديّ من الدعاء بالمغفرة والرحمة في كل وقت ، أما والدتي التي توفيت في أوائل عام (١٣٣٤) هجرية ودفنت بمكة بمقبرة المعلا وأنا دون البلوغ ، فإني لا أنسى حنانها ومحبتها وبالغ خدمتها ورعايتها ، فقد كانت من الصالحات وفضليات النساء حقاً. وأما والدي الشيخ عبد القادر الكردي الذي توفي في اليوم التاسع من شهر رجب عام (١٣٦٥) هجرية ودفن بالطائف بالمقبرة التي بجوار مسجد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقد بلغ التسعين عاماً وكان صالحاً في غاية الاستقامة ، فإني لا أنسى حسن تربيته ورعايته وعظيم عنايته بتعليمي ، فلقد أدخلني رحمه الله تعالى مدرسة الفلاح بمكة المشرفة منذ نعومة

أظفاري ، فلما تخرجت منها أخذني بنفسه في أول سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية إلى مصر وأدخلني الأزهر الشريف لأتعلم العلم فيه ، ثم تركني ورجع إلى مكة المكرمة بعد شهرين - فهناك تعلمت العلم والمعرفة وتربيت بين الرجال البارزين في العلم والصلاح - وإليك صورة والدي أضعها هنا تخليداً لذكره وتسجيلاً لأياديه البيضاء عليّ - وإني لا أنسى والدي ولا والدتي من الدعاء عقب الصلوات في كل يوم ، اللهم ارحمهما رحمة الأبرار ، وألحقني بهما على الإيمان الكامل بطهارة ونظافة وراحة تامة ، واجعل موتي في بلدك الأمين في أشرف الأوقات وأشرف الساعات آمين يا رب العالمين . وصلى الله وسلم على النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

انظر: صورة رقم ١ ، الشيخ عبد القادر الكردي المتوفي سنة ١٢٦٥هـ

انظر: صورة رقم ٢ ، لمؤلف الكتاب الشيخ محمد طاهر كردي الخطاط

ونختم كلامنا هذا بالدعاء الآتي: نسأل الله الحليم العظيم رب العرش العظيم أن يتقبل منا صالح الأعمال ، وأن يعاملنا بما هو أهله من الرحمة والإحسان والعفو والغفران ، وأن يحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، اللهم يا حليم يا عظيم يا رب العرش العظيم ، أمتعني بسمعي وبصري وعقلي وقوتي واحفظ عليّ إيماني وعقيدتي ، واحفظني في أهلي وأولادي ، واسترنا في الدارين بسترك الجميل ، وارزقنا رزقاً حلالاً واسعاً مع التوفيق في الإنفاق منه بدون طغيان ولا عصيان ، ولا تشمت بنا الأعداء ، وتوفني مسلماً وأنت عني راضٍ براحة تامة وطهارة ونظافة ، وتلقّني يوم ألقاك بالعفو والغفران ، والرحمة والإحسان فأنت العزيز الحكيم والكريم الرحيم ، وأنت على كل شيء قدير . اللهم صل على نبيك وعبدك وصفوتك من خلقك ، نبي الرحمة وشفيع الأمة سيدنا ومولانا "محمد" وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ، وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

كتبه

مؤلف هذا الكتاب

محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط

عفا الله عنه وغفر له ولوالديه

وللمسلمين آمين

بعض أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ مكة

المشرفة ووقفنا عليها

وربما هناك غيرها في بعض البلدان لم نطلع عليها

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ و ٢	تاريخ الكعبة المعظمة، وتاريخ عمارة المسجد الحرام. ومؤلفهما من أهل عصرنا، وهذان الكتابان مطبوعان.	كلاهما للشيخ حسين عبدالله باسلامة
٣	إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، وهو غير مطبوع.	للشيخ عبدالله الغازي
٤	تاريخ مكة، وهو كتاب مطبوع.	للأستاذ أحمد السباعي
٥	التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، وهو هذا الكتاب. قدمنا هذه المؤلفات لأن مؤلفيها كانوا في عصر واحد.	للشيخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط
٦	أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار وهو كتاب مطبوع ومؤلفه من أهل القرن الثاني أو الثالث.	للإمام أبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي
٧	شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام، وهو كتاب مطبوع.	للعلامة تقي الدين الفاسي
٨	الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف.	للعلامة ابن ظهيرة القرشي
٩	كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام وهو (التاريخ القطبي) وهو كتاب مطبوع.	للعلامة قطب الدين الحنفي
١٠	مرآة الحرمين، وهو كتاب	لإبراهيم رفعت باشا المصري

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
	مطبوع باللغة العربية.	
١١	مرآة الحرمين ، وهو كتاب مطبوع باللغة التركية.	لأيوب صبري باشا التركي
١٢	إتحاف الورى بأخبار أم القرى.	للعلامة نجم الدين عمر بن فهد
١٣	إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية ابن الحسن.	للشيخ محمد بن فضل الطبري
١٤	الإنعام على أعلام الأنام.	للشيخ حسن بن عبدالقادر الشيبي
١٥	إثارة الشجون لزيارة الحجون.	للعلامة الفيروز آبادي
١٦	إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام.	
١٧	إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام.	للشيخ محمد صالح الشيبي
١٨	بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى.	للعلامة الشيخ عبدالعزيز بن عمر بن فهد المكي
١٩	تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام.	للشيخ محمد بن أحمد الصباغ المكي
٢٠	خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام.	للعلامة السيد أحمد دحلان
٢١	درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة.	للشيخ عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزائري
٢٢	دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج.	لمحمد باشا صادق
٢٣	الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة.	للشيخ عبدالقادر ملا قلندر
٢٤	الرحلة الحجازية.	لمحمد سليم
٢٥	سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، وهو كتاب مطبوع.	للعلامة عبدالملك بن حسين العصامي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٦	منائح الكرم بأخبار مكة وولاية الحرم.	للعلامة الشيخ علي السنجاري
٢٧	القرى لقاصد أم القرى ، وهو كتاب مطبوع.	للعلامة الطبري
٢٨	نشر النور والزهور في تراجم أهل مكة المشرفة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.	للشيخ عبدالله بن أحمد أبي الخير
٢٩	نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس.	للشيخ خليفة ابن فرج البيضاوي
٣٠	كتاب الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف.	للأمير شكيب أرسلان
٣١	العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين	لابن عبد ربه
٣٢	تحفة اللطائف في فضائل الجد ابن عباس والطائف.	للعلامة محمد جار الدين بن فهد
٣٣	كتاب إهداء اللطائف من أخبار الطائف.	للشيخ حسن بن علي العجمي المكي
٣٤	كتاب نشر اللطائف في قطر الطائف.	للشيخ نور الدين علي بن محمد الشامي
٣٥	رسالة في فضائل ابن عباس والطائف.	للشيخ محمد بن عبدالكريم القنوي
٣٦	الجواهر المعدة في فضائل جدة.	للشيخ أحمد الحضراوي
٣٧	السلاح والعدة في تاريخ جدة.	للشيخ عبدالقادر أحمد الخطيب
٣٨	تاريخ جدة ، وهو مطبوع سنة ١٣٨٣.	للأستاذ عبدالقدوس الأنصاري

هذه بعض المؤلفات التي وقفنا عليها في تاريخ مكة المشرفة ، وهناك مؤلفات أخرى لها منتشرة في مكتبات العالم الإسلامي لم نقف عليها ، بل إن بعض البلاد الإفرنجية يعتني مستشرقوهم بالتآليف عن مكة المشرفة ، فإنه قد طبع تاريخ مكة في

أربع مجلدات في مدينة (ليسك) . فالناس من أقدم العصور يعتنون ببلـد ا لله الحرام أشد الاعتناء وهذا هو الواجب الديني نحو مكة المكرمة كما قلنا فيما تقدم :

أجـدر مـا يخـدم مـن بـلاد ... لأنهـا شـريفة التـلاد

قـد اعتنـى بهـا كثـير النـاس ... مـن خلفـا ومـن ملـوك النـاس

وقـد ذكرنـا هنـا بعـض المؤلفـات في تـاريخ جـدة وتـاريخ الطـائف زيـادة في الفائدة .

تراجم مؤرخي مكة المشرفة في عصرنا الحاضر

وكلهم من أهل مكة المكرمة

هنا يجب أن نذكر تراجم مؤرخي مكة المكرمة في عصرنا الحاضر ، وفاء بحقهم واحتراماً لذكرهم وتسجيلاً لعملهم المجيد الباقي ، راجين من الله الكبير المتعال أن يجزل لهم الثواب ، وأن يجعلهم من سعداء الدارين ، وأن يدخلهم الجنة بسلام آمنين ، بفضله ورحمته آمين ، ولنا مع جميعهم صحبة وصداقة ما عدا الشيخ حسين عبدالله باسلامة الذي اجتمعنا به مرة أو مرتين اجتماعاً خفيفاً قبل وفاته .

ولا بد أن نتشرف بذكر شيخ المؤرخين وأقدمهم استطراداً ، فإنه من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين هم خير القرون ، وهو الإمام الأزرقي صاحب تاريخ مكة ، عامله الله تعالى وإيانا بلطفه ورحمته ، فنقول وبالله التوفيق وهو نعم المولى ونعم المصير . وربما نذكر أيضاً بعض المؤرخين في أواخر الكتاب .

ترجمة الإمام الأزرقي المكي

من أهل القرن الثاني للهجرة وهو عربي صميم

كتب صاحب المعالي البحاثة المحقق الأستاذ رشدي الصالح ملحس رحمه الله تعالى في مقدمة تاريخ الأزرقي المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المشرفة في عام ١٣٥٣ من الهجرة -ترجمة وافية قيمة للإمام في بضعة أوراق- نلخصها فيما يأتي:

هو أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي الغساني المكي - ولد رحمه الله تعالى في مكة المكرمة في القرن الثاني ولم يعرف بالضبط تاريخ ولادته ، وقد اختلف في تاريخ وفاته ولا نريد إكثار الكلام بذكر روايات الاختلاف ، وإنما نجمل القول في أنه توفي في منتصف القرن الثالث للهجرة ، أي في سنة (٢٤٥) خمس وأربعين ومائتين تقريباً .

ويعد كتابه المذكور "أخبار مكة" من أهم ما ألّف في هذا الشأن ومن أقدم كتب التاريخ عن مكة المكرمة ، وكثير من المؤرخين يستند إلى كتابه المذكور ، وكان من عناية الأقدمين به أن بعضهم اختصره وبعضهم نظمه . فالإسفرائني

المكي أحد علماء القرن الثامن للهجرة اختصر تاريخ الأزرقي وسمى هذا المختصر "زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال" ويوجد من هذا المختصر ثلاث نسخ ، (إحداها) بمكتبة الحرم المكي (تاريخ رقم ٦٤-٢٣٤) وتقع في ١٩٦ ورقة (وثانيها) توجد في المتحف البريطاني بلندن (وثالثها) توجد في باريس .

واختصر تاريخ الأزرقي الكرماني المصري من علماء القرن التاسع ، وسمى هذا المختصر "تاريخ مكة المشرفة" وتوجد من هذا المختصر نسخة واحدة في برلين .

أما الذي نظم تاريخ الأزرقي "أخبار مكة" عبد الملك بن أحمد الأنصاري الأرمانتي المولود بأرمنت والمتوفى بقوص بمصر سنة (٧٢٢) .

وكان من فقهاء الشافعية ، شاعراً أديباً خفيف الروح ، وقد سمى منظومته هذه "نظم تاريخ مكة للأزرقي في أرجوزة" وهذه المنظومة مفقودة ، وحبذا لو عثرنا عليها .

أما تاريخ طبع الأزرقي "أخبار مكة" فقد طبع مرتين (الأولى) الطبعة الأوروبية طبعه المستشرق الألماني "فردينان وستنفيلد" في ليبسك بألمانيا . في عام ١٨٥٨ للميلاد (الموافق) لعام ١٢٧٥ للهجرة .

و (الثانية) الطبعة المكية . وذلك بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة في سنة "١٣٥٢" هجرية ، وقد صحح هذه الطبعة وعلق حواشيها ووضع فهارسها معالي الأستاذ رشدي ملحس المذكور ، والحقيقة أنه لقي عناء شديداً في تصحيحه وتهميشه لهذا الكتاب الفريد ، حتى أخرجه للأمة الإسلامية بهذا الثوب القشيب ، جزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله العاملين المخلصين .

وهنا نقطة دقيقة في فضل الإمام الأزرقي قلَّ من يتنبَّه لها ، يجب أن نذكرها بالإعجاب والدعاء له رحمه الله تعالى وألحقنا به على الإيمان الكامل غير فاتنين ولا مفتونين بفضله ورحمته . وهي:

إن الأزرقي يذكر الأماكن المهمة والمواضع المقدسة والمشاعر العظام ، يذكرها بدقة تامة مع تفاصيل قياساتها محررة مضبوطة - فهو يذكر ذرع الكعبة المشرفة من داخلها وخارجها ، وذرع ما فيها من الأسطوانات وذرع ما بين كل منها ، وصفة درجاتها الموصلة إلى سطحها ، وصفة المسامير التي بداخل الكعبة وعددها ، وعدد الرخامات المفروشة بأرض الكعبة ، وكم رخامة في كل جهة وكم رخامة

بين كل أسطوانة وأسطوانة ، وصفة باب الكعبة وعدد مساميرها الملبسة بالذهب وصفة كل ذلك ، وصفة شاذروان الكعبة وعدده ، وصفة حجر إسماعيل وذرعه ، وذرع طوق الحجر الأسود .

وكذلك ذرع مقام إبراهيم وصفته ، وذرع بئر زمزم وحجرتها ، وذرع المسجد الحرام وعدد أساطينه وصفة الأساطين ، وعدد طاقاته وصفتها وذرعها ، وعدد أبواب المسجد الحرام وصفتها وذرعها ، وعدد شرافاته وذرع جدرانه ، وعدد مناراته وصفتها ، وعدد قناديل المسجد الحرام والثريات التي فيه ، وذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا ، وذرع ما بين الصفا والمروة ، وصفة مسجد منى وذرعه وأبوابه ، وذرع منى والجمار ومأزمي منى إلى حد محسّر ، وذرع ما بين مزدلفة إلى منى ، وذرع مسجد مزدلفة وصفة أبوابه ، وذرع ما بين مزدلفة إلى عرفات ، ومأزمي عرفة ، ومسجد عرفة وأبوابه والحرم والموقف ، وعدد الأميال من المسجد الحرام إلى موقف الإمام بعرفة وذكر مواضعها . إلى غير ذلك مما يتعذر علينا استقصاؤه - هذا غير ما في تاريخه من الأمور والمسائل المهمة التي لا تعد ولا تحصى .

هذا وإن المتأمل في تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى ليقف حيران كيف قام بتحقيق هذه المسائل صغيرها وجليلها ، ومن أين أتى بكل هذه المعلومات القيمة التي نرجع إليها الآن وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام ولا تزال المرجع الأول والدليل الذي عليه المعول إلى قيام الساعة .

فهل كان مع الإمام الأزرقي لجنة من بضعة من العلماء يشاركونه التأليف - كلا- فلو كان كذلك لذكره الأزرقي بدون شك ، وكيف كان رحمه الله يأخذ قياسات الأماكن في أطراف مكة بل في أطراف الحرم ، ولئن خفّ عليه أخذ قياس الكعبة والمسجد الحرام ، فهل خفّ عليه أيضاً ذرع ما بين المسجد الحرام إلى منى فمزدلفة فعرفات وما بين كل ذلك من المساجد والأماكن ، وكيف كان يذرع هذه المسافات الطويلة و لم تكن في زمنه سيارات ولا أمتار مطبوعة منظمة ، ولا آلات مقربة للمسافات وآخذة للقياسات .

إن المتأمل في كل ذلك يقف حائراً معجباً داعياً له رحمه الله تعالى بالعفو والغفران ، والثواب على عمله والإحسان ، وأن يدخله الله تعالى فسيح جناته إنه بعباده لطيف خبير .

وختام الكلام نقول: إن تاريخ الإمام الأزرقي "أخبار مكة" كتاب كالقاموس المحيط فيه من الفوائد والمسائل المهمة ما لا يعد ولا يحصى ، وعليه يعتمد العلماء المحققون والمؤرخون الباحثون - فحبذا لو أن بعض الجهات العلمية وضعت جوائز سخية لمن يتقدم بتلخيصه وتهذيبه وحذف أسانيده ورواياته المتكررة في معنى واحد ، ثم تبويبه وترتيب فصوله وأبحاثه ، على أحدث طرق التأليف في عصرنا الحاضر ، وبذلك تكون الفائدة أعم والنفع شامل ، وتجتمع المسائل المتفرقة في مبحث واحد ، وتنضم الأمور المشتتة في باب واحد .

فنرجو الله تعالى أن يجعل في اقتراحنا هذا قبولاً في المستقبل القريب بفضله وتوفيقه آمين .

ترجمة حسين بن عبد الله باسلامة المكي الحضرمي

الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة الحضرمي المكي كان عضواً في مجلس الشورى بمكة المشرفة في العهد السعودي وتوفي بالطائف سنة (١٣٥٦) هجرية . كان عالماً فاضلاً نزيهاً ، له عدة مؤلفات ، منها كتاب تاريخ الكعبة المعظمة ، ومنها كتاب عمارة المسجد الحرام ، ومنها كتاب حياة سيد العرب ، ومنها كتاب الإسلام في نظر أعلام الغرب ، ومنها كتاب الجوهر اللماع جمع فيه حكم الإمام الشافعي . رحمه الله تعالى وأحسن مثواه وجعل الجنة مأوانا ومأواه آمين .

انظر: صورة رقم ٣ ، الشيخ حسين بن عبد الله باسلامه

ترجمة الشيخ عبدالله الغازي المكي

الشيخ عبدالله بن محمد الغازي الهندي المكي . هو عالم فاضل وصالح كامل ، وكان جارنا بمكة المشرفة ، وكان يسكن برباط محمد باشا الذي هدمته الحكومة السعودية ، وكان قد اتخذ بأسفل هذا الرباط أي عند بابه ودرجته دكاناً صغيراً يبيع فيه أدوات الكتابة من الورق والأقلام والحبر والكحل والصباغ ونحوها ، وكان هذا دأبه وحرفته قانعاً باليسير من الرزق ، وكان يعمل أميناً لمكتبة مدرسة الصولتية التي بحارة الباب ، إلى أن توفي رحمه الله تعالى بمكة في الخامس من شهر شعبان سنة (١٣٦٥) خمس وستين وثلاثمائة وألف هجرية ودفن بمقبرة المعلا رحمه الله تعالى ، وقد خلّف ثلاثة من الذكور هم الشيخ عبدالرحمن وهذا أكبرهم

وأصلحهم وأحسنهم ثم صالح ثم عبداللطيف ، ولقد توفي الأول والثاني ولهما ذرية ، والثالث الأخير على قيد الحياة حفظه الله تعالى ورحم الله من مات منهم ، ولقد كان والدهم أحسن الله مثواه دائم الاشتغال بالتأليف ليلاً ونهاراً كما شاهدناه بأنفسنا ، وللشيخ عبدالله غازي المذكور رحمه الله تعالى مؤلفات قيمة منها: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ، وهو أربع مجلدات ، ومنها مجموع الأفكار من أحاديث النبي المختار ، ومنها رسالة في ذم اللعب والملاهي المسماة "بكشف ما يجب من اللهو واللعب" ومنها رسالة في الفرائض ، ومنها كتاب في تراجم العلماء من المكيين وغيرهم من الذين ماتوا بمكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . ومنها رسالة ذيل الدرر ، وهي تتمة تراجم العلماء في قرنه ليكون ذيلاً للكتاب المتقدم ، إلى غير ذلك من المؤلفات النافعة .

رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه آمين ، ووفق بعض الفضلاء لطبع تاريخه القيم النادر ، فتاريخه مهم جداً لا يوجد مثله ، فنسأل الله أن يقيض من يطبعه وينشره بين المسلمين ؛ لأن كثرة التواريخ وكثرة تنوعها لمكة المكرمة دليل على شرفها العظيم ومكانتها السامية ، ورحم الله القائل :

واعلم بأن كثرة التاريخ لمكة شديدة الشموخ
دلالة أن لها من الشرف ما قد يجل وصفه لمن عرف

هذا ولقد سمعنا من الثقات أن الأمريكان المقيمين "بالظهران" بالظاء المعجمة بالمملكة العربية السعودية ، قد أخذوا لتاريخ الغازي صوراً فوتوغرافية لجميع التاريخ ، أخذوا لكل صحيفة صورة مصغرة بحجم علبة الكبريت ، وذلك بعد وفاة مؤلفه الشيخ عبدالله غازي رحمه الله تعالى ، وبعد استئذان أولاده الذين كانوا يشتغلون عندهم في الظهران وبعد إعطائهم مكافأة سخية .

كما سمعنا من الثقات أيضاً أن بعض من لا ضمير عندهم هنا ، استنسخوا تاريخ الغازي ثم حرَّفوا بعض مباحثه وعلقوا عليها ما يشتهون ، ولا يخفى أن هذا يسمى خيانة علمية لا تغتفر ، وهذه الخيانات العلمية تقع في كل عصر ، وقد رأينا من نبّه على هذه المسألة من كبار العلماء الأجلاء المتقدمين ، وحذروا العقلاء وألفتوا نظرهم إلى تمييز الخبيث من الطيب في مؤلفاتهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فالسرقات الشعرية والسرقات الأدبية أخف بكثير من السرقات العلمية والتاريخية ، نسأل الله تعالى الهداية والحفظ من الغواية آمين .

انظر: صورة رقم ٤، الشيخ عبد الله الغازي المكي

ترجمة الأستاذ أحمد السباعي المكي

صديقنا الأستاذ أحمد السباعي أديب كبير ومؤرخ شهير وإنه من أدباء عصره ونبغاء دهره، ولد حفظه الله تعالى عام (١٣٢٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وعشرين من الهجرة، ودرس وحفظ القرآن الكريم في عدة كتاتيب ومدارس بمكة شرفها الله تعالى ككتّاب الشيخ محمد الخياط التي كانت بالقبّان والمدرسة الخيرية الهاشمية التي كانت أمام باب السلام، وأخيراً المدرسة الراقية التي كانت بجبل هندي وقد تخرج منها.

ثم تعين أستاذاً لتحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة الخيرية، ثم تعين مديراً لمدرسة دار الفائزين بالمسيال، ثم اشتغل بوظيفة التدريس بعدة مدارس، وفي أثناء ذلك تعلق بالأدب فنشر عدة مقالات بالجرائد المحلية، وقد اشتغل محرراً بجريدة "صوت الحجاز" ثم أسندت إليه إدارتها، وشغل في صدر شبابه بعض الوظائف الشرفية، وأخيراً انتقل منها إلى وزارة المالية مفتشاً بها، وقد ترقى الآن إلى وظيفة ممثل مالي.

وقد أسس المذكور من بضع سنوات مطبعة تسمى "مطبعة الحرم" بمحلة أجياد، وقد أعطي امتيازاً بإخراج جريدة يومية في أول عام (١٣٧٦) باسم "جريدة الندوة" وقد صدر أول عدد منها في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ولا زالت تصدر وتؤدي رسالتها وواجباتها على أكمل وجه.

ولا يزال قلم الأستاذ السباعي يجول في ميادين العلم والأدب حتى أخرج لنا من المؤلفات المطبوعة ما يأتي:

١- تاريخ مكة - وهو كتاب قيّم ألّفه بأسلوبه الأدبي على نمط لم يسبقه إليه أحد، وذكر فيه أشهر بيوتات مكة، وقبائل العرب وبعض النواحي السياسية.

٢- المرشد إلى الحج والزيارة.

٣- سلسلة سلم القراءة - ستة أجزاء.

٤- مطوفون وحجاج "قصة".

٥- فلسفة الجن "قصة".

٦- أبو زامل "قصة" .
٧- فكرة "قصة" .
٨- صحيفة السوابق "قصة" .
٩- يوميات مجنون .
١٠- دعونا نمشي .

هذه نبذة صغيرة عن ترجمة الأستاذ السباعي ، نسأل الله تعالى لنا وله التوفيق لكل ما فيه الخير آمين .

وبعد أن ذكرنا ما تقدم عن صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي ، طلبنا منه أن يكتب لنا نبذة عن حياته العامرة بالأعمال ، فكتب لنا ما يأتي:

ولدت عام ١٣٢٣هـ بمكة ونشأت فيها ، ودرجت إلى أول (كتاب) في زقاق (الشيش) ، ثم التحقت بكتاب آخر في القبان ، ثم ثالث في باب الدريبة ، ورابع في جبل هندي ، وظلت معارفي في كل هذه الكتاتيب لا تتخطى (الألف باء) .

ولما أسس الشريف الحسين بن علي أول مدرسة بعد نهضته المعروفة سنة ١٣٣٤هـ وهي المدرسة الخيرية التحضيرية الهاشمية التحقت بها وظللت فيها إلى أن انتهيت من القسم التحضيري . ثم اختار لي والدي أن ألتحق بقسم حفاظ القرآن الكريم بنفس المدرسة ، فمكثت فيه نحو ٣ سنوات حفظت أثناءها القرآن كأجود ما يكون الحفظ على يد فضيلة الشيخ أحمد زهر الليالي ، والتحقت بعد ذلك بالمدرسة الراقية الهاشمية التي كان الحسين بن علي قد أسسها قبل ذلك بسنوات قليلة . وظللت فيها إلى أن توفي والدي سنة ١٣٣٧هـ ، فاضطررت إلى ترك الدراسة فيها قبل السنة النهائية ، واختلطت بأعمال السوق بحثاً عما يسد عوز عائلتي بعد وفاة والدي . وفي عام ١٣٣٨هـ اختارتني مديرية المعارف الهاشمية للتدريس في المدرسة الخيرية الهاشمية ، وسني لا يتجاوز آنذاك السابعة عشر عاماً ، ثم عينت فيها معلماً لصف الحفاظ وبقيت في مهنة التدريس أنتقل من مدرسة إلى أخرى نحو ١٣ سنة حيث أدركتني خلال هذه المدة هواية الأدب وأنا شاب كامل الاستواء ، فتعشقت القراءة في سائر ألوانها ونهلت من معارف الكتب ما لا يوفيه حصر . واستطعت أن أختلط بأكثر الأفكار جدة في الحياة وأداب على مناقشتها في فصول طوال كانت تنشرها صحف بلادي المحلية ، وقبل أن أترك الدراسة بنحو

عامين اشتغلت محرراً في جريدة (صوت الحجاز) تحت إدارة الشيخ محمد نصيف، وبانتقال الجريدة إلى الشركة العربية للطبع والنشر سنة ١٣٥٢هـ برئاسة الشيخ محمد سرور الصبان اختارني رئيس الشركة مديراً للجريدة. فتركت فن التدريس واشتغلت بالصحافة مديراً للجريدة ثم رئيساً لتحريرها وقد ظللت كذلك إلى نهاية عام ١٣٥٩.

وتقلبت في تضاعيف ذلك بين عدة وظائف خيرية فاشتغلت عضواً وسكرتيراً في عدة جمعيات من أهمها جمعية (تشجيع الطيران) وجمعية الإسعاف ثم عضواً في لجنة وضع المناهج بوزارة المعارف وعضواً في لجنة تنسيق مكتبة الحرم.

ثم زاولت أعمالاً تجارية نحو سنتين تركت بعدها التجارة إلى العمل الحكومي مرة أخرى كمفتش بوزارة المالية أول عام ١٣٦١هـ.

وعندما أسست الحكومة دار الإذاعة في جدة عام ١٣٦٨هـ ندبتني وزارة المالية بالاشتراك مع بعض الشباب لتأسيس الإذاعة بوظيفة سكرتير عام بالإذاعة، فزاولت العمل فيها أشهراً، ثم عدت إلى وزارة المالية لأفكر في تأسيس مطبعة لحسابي أسميتها مطبعة الحرم فأنشأتها عام ١٣٧٠هـ ولم تمض سنتان على نشأتها حتى رقيت إلى وظيفة ممثل مالي أحلت بعدها بشهور إلى التقاعد. وتقدمت بطلب إلى الجهات المختصة بمنحي امتياز إصدار جريدة يومية باسم (الندوة) وبذلك تبدل اسم مطبعة الحرم إلى مطبعة (الندوة).

وصدرت الندوة عام ١٣٧٧هـ مرتين في الأسبوع، ثم ثلاث مرات، وفيما أنا أفكر في إصدارها يومية: إذا بالحكومة تصدر قراراً بإدماج الصحف في بعضها البعض بحيث لا تصدر أكثر من جريدة واحدة في كل مدينة من مدن المملكة.

ودمجت جريدة الندوة بموجب هذا القرار في جريدة حراء لصاحبها محمد جمال، وأصبحتا تصدران في صحيفة واحدة أسميناها الندوة، وبعد مرور بضعة شهور بعت حصتي في الشركة الجديدة وأصبحت جريدة الندوة ملكاً للأستاذ صالح جمال.

ومضى على ذلك نحو سنة ونصف السنة استأذنت بعدها في إصدار مجلة باسم (قريش)، فصدرت الأوامر بالموافقة وظهر أول عدد منها في غرة جمادى الأول سنة ١٣٧٩هـ وظلت على ذلك حتى دخلت في سنتها الخامسة، ثم صدرت الأوامر بنقل امتيازات الصحف إلى مؤسسات أهلية وبذلك وقفت عن الصدور.

وقد زاولت التأليف المدرسي أول ما علقت التأليف . فكانت سلسلتي (سلم القراءة العربية) أول مؤلف وطني عرفته مدارس بلادنا . ثم أنشأت في التاريخ والأدب والقصة مؤلفات عديدة .

ثم بعد هذا كتب لنا حفظه الله تعالى أسماء مؤلفاته وهي التي ذكرناها ، نرجو الله تعالى لنا وله العفو والعافية والتوفيق لصالح الأعمال آمين .

انظر: صورة رقم ٥، الشيخ أحمد السباعي

ترجمة محمد طاهر الكردي المكي الخطاط

هو محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود الكردي المكي الخطاط ، من مكة المشرفة ، ولد سنة (١٣٢١هـ) ، وطبع هذا التاريخ سنة (١٣٨٥هـ) . تعلم في مدرسة الفلاح بمكة المشرفة منذ صغره بعد تأسيسها ببضع سنوات ، ولم يدخل في كتاتيب ولا مدارس أخرى غيرها ، وتخرج منها في عام (١٣٣٩) من الهجرة ، ثم في أول عام (١٣٤٠هـ) أخذه والده رحمه الله تعالى إلى القاهرة ليتعلم العلم في الأزهر الشريف ، فاشتغل هناك بالعوم الدينية والعربية ، ولم يتعلم شيئاً من اللغات الأجنبية قط ، كما اشتغل بتعلم الخطوط العربية بأنواعها وما يتعلق بها من الرسم والزخرفة والتذهيب ، وذلك بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية ، فلما رجع من مصر إلى مكة المشرفة اشتغل بتعليم الخط العربي بالمدارس ولذلك يعرف "بالخطاط" .

وبتوفيق العزيز الحكيم انقطع المذكور إلى الاشتغال بتأليف الكتب النافعة من مختلف العلوم والفنون ، فقد ألّف نحو أربعين كتاباً طبع منها نصفها تقريباً . أعظمها : التفسير المكي وهو في أربع مجلدات ، ثم التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم وهو في مجلدين ، ثم تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه ، ثم تاريخ الخط العربي وآدابه ، إلى غير ذلك . التي ذكرناها بآخر هذا الكتاب ، وإن أعظم شيء عمله المذكور هو كتابته لمصحف مكة المكرمة وطبعه بها ، إنه ليرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله عملاً مبروراً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبّل منا صالح الأعمال ، وأن يعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله بفضله ورحمته ، إنه كريم حليم وغفور رحيم ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت

مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، آمين يا رب العالمين ، يا حي يا قيوم (يا الله) .

ذكر أسماء مكة المكرمة

اعلم أن لمكة المشرفة أسماء كثيرة أكثر من ثلاثين اسماً ، وذلك بحسب الصفات المقتضية للتسمية كما قاله الإمام النووي ، ذكرها بالتفصيل العلامة ابن ظهيرة رحمه الله تعالى في كتابه "الجامع اللطيف" ، ولكن الشائع على الألسنة والمعروف منها أربعة :"مكة وبكة وأم القرى والبلد الأمين" ويسمي الهنود الأقدمون مكة مكشيشا أو موكشيشانا ، كما ذكره البتنوني في رحلته - وبالأسماء الأربعة الشهيرة ورد القرآن الكريم بها صريحاً . قال الله تعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ وقال عز شأنه: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ وقال جل وعلا: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ وقال جل جلاله: ﴿والتين والزيتون ۞ وطور سينين ۞ وهذا البلد الأمين﴾ . ولا يخفى أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى . قال الشاعر:

واعلم بأن كثرة الأسامي ... دلالة أن المسمّى سامي

ونحن لا نريد سرد وشرح جميع ما أطلق على مكة من الأسماء خوف التطويل ، ولكن نأتي بها مجموعة في سبعة أبيات نظمها القاضي أبو البقاء ابن الضياء الحنفي رحمه الله تعالى وهي :

لمكة أسماء ثلاثون عددت ... ومن بعد ذاك اثنان منها اسم بكة

صلاح وكوثى والحرام وقادس ... وحاطمة البلد العريش بقرية

ومعطشة أم القرى رحم ناسة ... وناسة رأس بفتح لهمزة

مقدسة والقادسة وناسة ... ورأس وتاج أم كوثى كبرّة

سبوحة عرش أم رحمان عرشنا ... كذا حرم البلد الأمين كبلدة

كذاك اسمها البلد الحرام لأمنها ... وبالمسجد الأسنى الحرام تسمّت

وما كثرة الأسماء إلا لفضلها ... حباها به الرحمن من أجل كعبة

ومن أراد زيادة البحث والوقوف على أسمائها فليراجع كتاب "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" أو غيره .

جدول بيان قياسات بعض جبال مكة وبعض أماكنها

اسم البلدة	درجة	دقيقة	ثانية
خط طول مكة المكرمة	٣٩	٤٩	٣٠
وخط عرض مكة المكرمة	٢١	٢٥	٠٠

قياسات بعض الأماكن بمكة

المكان	متر
ارتفاع محلة المعابدة بمكة المشرفة عن سطح البحر هو	٣١١
ارتفاع موقع باب جدة الذي بأول جرول عن سطح البحر	٢٧٨
ارتفاع جبل أبي قبيس	٤٢٠
ارتفاع جبل قعيقعان "أي جبل هندي"	٤٣٠
ارتفاع جبل حراء بأعلا مكة	٦٣٤
ارتفاع جبل ثور بأسفل مكة	٧٥٩
ارتفاع جبل ثقبة وهو جبل الرخم بأعلا مكة	٨٨٣
ارتفاع جبل الرحمة بعرفات الذي يقف عليه الحجاج	٣٤٠
ارتفاع جبل سعد وهو في شرق شمال عرفات	٨٣٦
المسافة بين الصفا والمروة "المسعى"	٣٧٥

أخذنا جميع هذه القياسات من المهندسين المصريين التابعين للجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام بمكة المشرفة سنة (١٣٧٧هـ) هذه الارتفاعات المذكورة هي بالنسبة لمنسوب البحر الأحمر بجدة "صفر" .

المسافات بين بعض المساجد

المسافة بين المسجد الحرام إلى مسجد الخيف بمنى	٩٠٠٠

المسافة من مسجد الخيف إلى مسجد مزدلفة	٥٠٠٠
المسافة من مسجد مزدلفة إلى مسجد نمرة	٧٠٠٠
المسافة من مسجد نمرة إلى مسجد الصخرات عند جبل الرحمة	٣٠٠٠
المسافة بين مسجد نمرة وجبل الرحمة بعرفات	١٧٥٠
المسافة من مكة إلى المدينة المنورة	٧٥٠٠
المسافة من مكة إلى المدينة المنورة	٥٠٠٠٠

وسنذكر إن شاء الله تعالى قياسات الكعبة المشرفة وما حولها، وقياسات مكة المكرمة وحيالها ونواحيها في محله.

مقدمة الكتاب

بلاد الحجاز

جاء في الكتاب الذي أخرجته وزارة التجارة السعودية عن "المملكة العربية السعودية" عن الحجاز ما نصه :

ولا يقل الحجاز أهمية عن نجد لما فيه من مدن مقدسة تهوي إليها أفئدة المسلمين خمس مرات في اليوم . وجلالة الملك أيده الله يقسم أوقاته بين الرياض والحجاز ، يقضي أشهراً من السنة في الرياض وأشهراً في الحجاز ، ويقع الحجاز من الجزيرة في ناحيتها الشمالية الغربية تقريباً ، وهو يمتد على شاطئ البحر الأحمر .

طبيعة الحجاز

يتكون الحجاز من عدة مناطق طبيعية يحاذي بعضها البعض :

١- المنطقة الساحلية بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامة) وتحفها شعاب مرجانية .

٢- منطقة جبلية عالية تأخذ في الانخفاض التدريجي حتى إلى ما بين جدة ومكة ، إذ لا يزيد ارتفاعها هنالك عن ألف قدم .

٣- منطقة نجدية (واقعة بين جبال) مرتفعة جداً في الشمال ومغطاة بالحمم من العويرض ، ولكنها تأخذ في الانخفاض في اتجاهها للجنوب فيصل ارتفاعها في غربي مكة والطائف إلى نحو ألف قدم .

٤- الأخدود الرئيسي ، الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحمم كما هو الحال في الخرمة والعويرض وخيبر (٦٠٠٠- ٧٠٠٠) قدم ولكنه لا يزال محتفظاً بارتفاع لا يقل عن خمسة آلاف قدم خلف مكة .

٥- المنطقة الأخيرة ، وهي على حافة المنحدر الشرقي في اتجاه قلب الجزيرة ، وفي قلب المنطقة الأولى والثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان: فالمويلح ، والوجه ، وأفلج ، وينبع ، ورابغ ، وجدة ، واقعة في المنطقة الأولى .

والعلا ، والمدينة ، ومكة ، واقعة في المنطقة الثالثة . ويوجد في الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك وهي على الأغلب واقعة على خط بين المنطقة الرابعة والخامسة .

ومنها : الحائط ، والحويط (فدك) ، وخيبر ، والحناكية ، والطائف ، ووادي فاطمة ، والصفراء .

جو الحجاز

إن كميات المطر التي تنزل في الحجاز قليلة وغير كافية ، ولهذا فإنه قاحل في كثير من المواقع إلا حيث توجد الواحات .

ودرجة الحرارة في أجزاء الحجاز المنخفضة أخف منها في تهامة اليمن ، ومتوسطها من (٢٦-٣٣) سنتيجراد ، والهواء رطب ونظراً لأن مكة منخفضة الارتفاع (٧٠٠-٨٥٠ قدماً) ومحاطة بمرتفعات صخرية جرداء فإنها شديدة الحر صيفاً ، بخلاف المدينة فإن درجة الحرارة لا تزيد عن (٣٢) وهي بلد صحي .

والطائف من حيث المُناخ أحسن بلاد الحجاز قاطبة فهو جاف الهواء ، والمرتفعات فيما وراء مكة والطائف جوها بارد .

الأقاليم الشمالية

ينحصر هذا القسم في شمال الحجاز ما بين خط العرض ٣٠°-٢٧° شمالاً وهو قسم جبلي ويمر به خط سكة الحديد الحجازية ، وفي القسم لا يوجد مدن في المحيطات الواقعة ضمنه ، فمن معان إلى دار الحمراء (٢٥٠ ميلاً تقريباً) لا يوجد إلا تبوك ، ومدائن صالح .

والساحل في هذا الجزء عبارة عن أرض منبسطة عرضها من ٧ أميال إلى ١٥ ميلاً ، وليس به مزروعات كما في حوافي الوديان ، وفي بعض الأماكن يوجد مياه جوفية يمكن أن تقوم عليها زراعات منظمة كما هو الحال في تبوك .

وأهم المدن والقرى : المويلح ، ومقنا ، وحقل ، وضبا ، وتبوك ، وذات الحاج .

المنطقة الوسطى

يقع هذا الجزء بين خطي عرض ٧° - ٢٤° شمالاً ويمتد مائتي ميل . وجميع الوديان ومجاري المياه في هذه المنطقة تنفذ إلى البحر الأحمر بواسطة منفذ واحد وهو وادي الحمض ، الذي يقع فمه إلى جنوب الوجه بثلاثين ميلاً ، وهذا الجزء غني بالثروة المعدنية والزراعية والحيوانية . وأهم المدن : الوجه ، وأملج ، وينبع البحر ، وينبع النخل ، والعلا ، وخيبر ، والحناكية ، والمدينة .

القسم الجنوبي

يمتد هذا القسم بين خطي عرض ٢٤ - ٢٠ شمالاً ، حيث تبتدئ حدود عسير من هذا الخط . وهذا القسم يحتوي على كثير من الوديان والواحات ، وتجود فيه زراعة الفاكهة والنخيل والحبوب . وهناك دلائل على وجود الثروة المعدنية في هذا القسم وأشهر مدنه : مكة ، وجدة ، والليث ، والطائف .

انظر: صورة رقم ٦ ، خريطة مكة المكرمة

أهم مدن الحجاز

(١) مكة المكرمة

جاء في الكتاب الذي أخرجته وزارة التجارة السعودية عن "المملكة العربية السعودية" عن أهم مدن الحجاز ما يأتي:

مكة المكرمة: عرفت مكة من القدم منذ أخذ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يضع قواعد البيت الحرام ، وفيها ولد الرسول الكريم محمد ، وفيها بدأت الدعوة إلى الحق والهدى . وكما كانت مكة معروفة منذ القدم بمكانتها الدينية فقد كانت لها إلى جانب ذلك مكانة تجارية عظيمة بما كان يجلب إليها من عروض التجارة من الشام ومن جهات بعيدة أخرى ، وبما كان يصدر عنها من التجارة إلى مختلف بقاع الأرض ، وبخاصة ما يحمله الحجاج من أسواقها من صنوف الحاجيات والبضائع والتحف المجلوبة . وتقع مكة في واد ضيق هو وادي إبراهيم ، وهذا الودي تحوطه جبال شاهقة حارة في الصيف معتدلة في الشتاء . وقد كانت مكة ، تمتاز عن مدن الجزيرة منذ القدم بأنها ذات اتصال بالخارج ، وكانت تتطور في

التجارة والعمران بتطور الزمن . وفي العهد السعودي الزاهر امتدت مكة خارج الجبال المحيطة بها ، وعملت حكومة صاحب الجلالة على إيصال الماء لكل محلة من محلات مكة . وازدهرت بالنهضة العمرانية والتجارية والعلمية ، وأصبحت كخلية النحل ، وأضيئت لأول مرة في تاريخها بالتيار الكهربائي ، ورصفت شوارعها ونسقت على جوانبها الأشجار ، وفيها مقر لكثير من الوزارات ، وفيها يقيم جلالة الملك المعظم حين تشريفه لمقاطعة الحجاز ، ولقد أصبح الوافدون على بيت الله الحرام من مختلف بقاع الأرض وأمصارها يلمسون التطور في مكة ويشاهدون النهضة العلمية والصحية: من مدارس كثيرة ومستشفيات ضخمة . على أن جلالة الملك سعود كان قد أصدر أمره الكريم إلى وزارة المالية برصد مبلغ ضخم لتوسعة الشوارع وإزالة الحوانيت بالمشعر الحرام وإيجاد كل ما من شأنه راحة حجاج بيت الله الحرام .

(٢) المدينة المنورة

هي المدينة الثانية في القداسة بالحجاز ، وبها قبر الرسول الكريم حيث هاجر إليها ﷺ لينشر الدين الإسلامي آمناً مطمئناً بين قوم يؤثرونه على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وكانت مقر الخلافة الإسلامية ومصدر السلطات الدينية والسياسية في الماضي ، وتكتنفها ستة أودية أشهرها : وادي العقيق وهو واد جميل ، هواؤه عذب ، وتربته خصبة ، وكانت به الدور والقصور العامرة والحدائق الغناء قديماً . وهواء المدينة بارد شديد البرودة في الشتاء ، وحار شديد الحرارة في الصيف ، ومعتدل في الخريف . وبها عيون كثيرة ، فأينما احتفرت نبع لك ماء ، والمدينة بلد النخيل من قديم ، وهي كذلك بلد زراعي ولا تزال حقول القمح والخضراوات والفواكه والشعير منتشرة بضواحيها .

وقد أفادت فائدة ملموسة من الخط الحديدي الذي ربط بينها وبين الشام قديماً ، فكثر سكانها وتطورت في النهضة ، ولكن هذه الجذوة انطفأت بعد انقطاع الخط الحديدي وبعد الحرب العظمى . إلا أن الملك سعود ، منذ أن أولى البلاد عنايته ، منح المدينة قسطاً عظيماً من حظ الرعاية ، فكان اهتمامه بنهضتها يستغرق وقته . وأول تباشير هذه الرعاية إعادة سكة الحديد ، وقد باشرت اللجان دراسة هذا الموضوع وواصلت العمل فيه ، وتأكيداً لمظاهر هذه العناية رصد جلالته مبلغ مليوني ريال كدفعة أولى لهذا المشروع الخطير . والخط الحديدي بلا شك شريان

الحياة بالنسبة للمدينة ، فيه تستطيع أن تقفز بسرعة إلى مصاف المدن الراقية . ومن المآثر الخالدة لجلالة الملك إعادة بناء المسجد النبوي وتوسعته ليجعله متفقاً مع ما له من الهيبة والجلال .

والمدينة غنية بالآثار الصناعية والعمرانية والكتابية ، ولا عجب فقد كانت ملتقى مدنيات ومجمع أقوام وفدوا إليها من آفاق الأرض تباعاً ، ولكل منهم مدينته وعمرانه وآثاره ، فقد كانت مهاجر بعض المصريين القدماء قبل التاريخ ، وكان بها العمالقة ، وباسم أحدهم سميت يثرب قديماً ، وجاء إليها بعدهم من اليمن بنو قيلة ونقلوا إليها حضارتهم ، فهي بلد الآثار في المملكة كما أنها كانت مركز الخلفاء الراشدين .

(٣) جدة

هي المدينة الثالثة بالحجاز ، وتقع على البحر الأحمر . وهي أكبر الموانئ السعودية بالحجاز .وهذا الميناء يستقبل مئات الألوف من الحجاج جواً وبحراً كل عام ، وقد تعهدها ساكن الجنان الملك عبد العزيز فأوصل إليها الماء من مئات الأميال بعد أن كان أهلها يعتمدون على مياه الآبار والصهاريج التي تملئ بماء المطر ، وعلى المياه المقطرة بواسطة الآلات . ولكن إيصال الماء من الوديان البعيدة بالمواسير والأساليب الحديثة جعلها تزدهر كثيراً ، فتكاثر سكانها وزادت حركتها التجارية وتمت وتعالت البنايات الشاهقة تشق الفضاء ، وأنشئ بها ميناء بحري يضاهي ميناء الدمام ، وهما يعدان من أكبر موانئ الشرق الأوسط ، كما أن ميناءها الجوي يعد من الموانئ المشهورة في الجزيرة العربية . وقامت بجدة نهضة صناعية عظيمة مختلفة الألوان ونهضة إنشائية كبيرة ، وبها مكاتب لمعظم الوزارات والإنشاءات . وقد تكلفت الحكومة السنية لإيجاد الميناء البحري كثيراً ، وليس أدل على ذلك من أنها صرفت في أعمال الردم مبالغ باهظة . ويبلغ طول الطريق المردوم ٥٥٠٠ قدم ، والمسافة الحديدية على جوانب الرصيف تبلغ ٢٢٤٣ قدماً ، وقد أصبحت جدة الآن غنية بالفنادق الكاملة الاستعداد لاستقبال الوافدين من مختلف الجهات . ومدينة جدة تضاء بالكهرباء وقد قامت بمشروعه شركة سعودية بأموال سعودية . وفي جدة تقوم دور السفارات والمفوضيات والقنصليات العربية والإسلامية والأجنبية – لهذا فهي تعتبر المركز الرسمي للتمثيل السياسي العربي .

كما أن جدة اليوم هي المدينة التالية لمكة في الحجاز ، من ناحية النشاط التجاري . لذلك تقوم فيها المراكز الرئيسية للبنوك والمؤسسات المالية والأجنبية والأهلية وتتفرع فروعها في المدن الأخرى . هذه هي جدة المدينة التي ينتظر لها مستقبل باهر في الصناعة والتجارة .

(٤) الطائف

الطائف مدينة تاريخية قديمة ، وكان يسكنها في الجاهلية ثقيف وهي مجموعة قبائل عربية ، والطائف مصيف الحجازيين لبرودة المناخ وجمال الهواء وكثرة الحدائق الغناء وتوفر المياه ، وهي ترتفع عن سطح البحر مقدار ألف وثمانمائة قدم ، وقد مر على الطائف كما مر على غيرها من المدن الحجازية ، الاهتمال والكتب فأنزل كيانها وأوشكت على العدم ، ولكنها اليوم أصبحت مدينة عامرة شامخة ، ويعود الفضل الأكبر في إصلاحها ورقيها إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ولي العهد . فقد اتخذها مصيفاً رسمياً له منذ تولى نيابة الحكم على الحجاز ، وقد أزهرت الطائف خلال هذين العامين في عهد الملك سعود ، فنطاق العمران قد اتسع فيها بشكل يلفت الأنظار كما أن وزارة الدفاع والطيران قد جعلت مقرها الرسمي بها ، وأحدثت فيها المستشفيات وغيرها ، ونتيجة لهذا نشطت الحركة التجارية وكثر عدد السكان فيها ، وقد أخذ في أسباب تعبيد الطريق بين الطائف ومكة ، ولا شك أنه متى تم ذلك ، فإن الطائف تصبح أزهر مما هي عليه الآن ، كما أن بلدية الطائف قد أتمت تنفيذ عدة مشروعات نافعة منها بناء مقر للبلدية وتخطيط الأراضي المحيطة بالمدينة وتوزيعها على الأهلين ، وأنشأت مذبحاً لذبح الماشية على أحدث النظم ، ووسعت الشارع العام إلى قروة ونزعت ملكيات بعض المباني لتوسعة الشوارع الرئيسية .

(٥) عسير

يطلق اسم عسير على الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز وشمال اليمن ، وتشمل سهلاً ساحلياً (تهامة) يحاذي البحر الأحمر على طول ٢٠٠ ميل وعرض ٤٥ ميلاً ، وهذه المنطقة مأهولة بالسكان في السهول الزراعية التي تغمرها السيول ، وتصل الصخور البركانية (الحرة) في بعض المواقع للبحر كالرقبة والجهمة وخور البرك .وجبال الجهة الشرقية من تهامة ، كما هو الحال بالحجاز ،

وعرة جداً وترتفع إلى علو أكثر من ٩٠٠٠ قدم، وليس في عسير طرق مطروقة والجبال إذ تميل برفق إلى الشرق فقد شكلت حاجزاً لمنع تفتت التربة مما يجعل الأرض صالحة للزراعة .

وعسير من أجمل بقاع المملكة ففيه من المناظر الطبيعية الجذابة ما يشبه بعض المواقع الطبيعية الخلابة الفاتنة في كل من قبرص وإيطاليا والقسم الجنوبي من اليمن، وإننا إذا أردنا أن نحكم بما نرى من خضرة وافرة وفائضة نستنتج أن معدل سقوط الأمطار فيها لا يقل عن ١٠ إلى ١٣ بوصة في السنة، وهذه النسبة العالية نسبياً قد تأيدت بالفعل، ويدل عليها نموذج بناء العاصمة (أبها) . وعلى بعد ٨٠ ميلاً من الشاطئ توجد سلسلة مرتفعات يبلغ ارتفاعها بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ قدم، ونجد بساتين ذات مساحات جيدة تقع محاذية للجبال وتمتد مخضرة إلى الأودية حتى تصل إلى نجران والربع الخالي . وتستمر هذه السلسلة في هبوطها حتى بيشة بالقرب من زاوية عسير الشمالية الشرقية .

ونظراً لما يصيب بلاد اليمن من المطر الموسمي في الخريف، ونظراً لقرب عسير منها فإن نصيبها من هذا المطر غير قليل، ولذا فإن وديانها الكثيرة الشاسعة تعتبر من الدرجة الأولى في الخصوبة، وأهم هذه الوديان وادي رانية ووادي بيشة، ووادي شهران ووادي عقيق، وأغلب الوديان الكبيرة تجري فيها المياه إما فوق سطحها أو قريباً منه .

تجري الوديان الرئيسية في اتجاه وادي الدواسر الواقع في جنوب نجد، والبلاد الداخلية في غاية الخصوبة وخصوصاً من تنومة إلى تنينة، وهي تضارع أحسن وأخصب البلاد العالية في اليمن، والمزروعات على اختلاف أنواعها من حبوب وبقول وفاكهة تجود في الوديان . والجزء المجاور لشاطئ البحر وإن كان رملياً فإنه أحسن بكثير من نظيره في الحجاز، ففي أجزاء كثيرة منه تنبت المزروعات ويعيش كثير من السكان عليها، وينزل المطر غير غزير في جنوبي تهامة، وتهامة الوسطى، في شهر فبراير، ومارس، وفي شهر يونية تنزل عليها أمطار غزيرة، أما في الشمال - سواء في الداخل أو في البلاد الساحلية - فإن المطر غير غزير فيها .

وأشهر مدن عسير : بيشة، وتربة، وأبها، ومحايل، وخميس مشيط، وأبو عريش، وصبيا، وجلي، وجيزان .

فضل الحجاز

قال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في الجزء الرابع صحيفة ٢٤٣ عند الكلام على فضل الحجاز وخواصه وعجائبه ما نصه: أما فضله ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدا لله الأنصاري رضي ا لله عنه عن النبي ﷺ قال: «غلظ القلوب والجفاء في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز».

قلت: وفي ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، وذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفات وأحوالاً تخصهم، وقد أخبر ﷺ عن أهل الحجاز بالرقة كما أخبر عن أهل المشرق بالغلظ والجفاء، وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مهبط الوحي ومنبع الرسالة وبه مكة والمدينة اللتين هما أشرف بلاد ا لله تعالى وأجل بقاع الأرض، ولكل منهما فضل يخصه يأتي الكلام عليه عند ذكره فيما بعد إن شاء ا لله تعالى.

ثم بعد أن ذكر القلقشندي خواص الحجاز ذكر حدوده وابتداء عمارته وتسميته حجازاً فقال ما نصه: أما حدوده فاعلم أن الحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها على خلاف في بعض ذلك يأتي ذكره في موضعه إن شاء ا لله تعالى، وهو بجملته من جزيرة العرب، وهي ما بين بحر القلزم أي البحر الأحمر وبحر الهند وبحر فارس والفرات وبعض بادية الشام.

قال المدائني: جزيرة العرب خمسة أقسام: تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن، وزاد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق وبادية الجزيرة فيما بين دجلة والفرات وبادية الشام، وفيها خلاف يطول ذكره.

ثم ذكر القلقشندي كلام الإمام النووي عن حدود جبل السراة الذي هو عبارة عن الحجاز لم نذكره لأن ما تقدم يغنى عنه وحتى لا يطول الكلام، وقد قال: سميت جزيرة العرب، "جزيرة" لانجزار الماء عنها حيث لم يمد عليها وإن كان مطيفاً بها.

قال القلقشندي: أما ابتداء عمارة الحجاز فإنه لما انبث أولاد سام بن نوح عليه السلام وهم العرب في أقطار هذه الجزيرة حين قسم نوح الأرض بين بنيه - نزل الحجاز منهم من العرب البادية طسم وجديس (ومنزلهم) اليمامة، ونزلت جرهم على القرب من مكة، فكان ذلك أول عمارة الحجاز بعد الطوفان، ثم بادت هذه

العرب وهلكوا عن آخرهم ، ودرست أخبارهم وانقطعت آثارهم . وعمّر الحجاز بعدهم جرهم الثانية ، وهم بنو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . ولما أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ولده إسماعيل بمكة كما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ كانت جرهم الثانية نازلين بالقرب من مكة فاتصلوا بإسماعيل عليه السلام ، وتزوج منهم وكثر ولده وتناسلوا ، فعمروا الحجاز إلى الآن . انتهى من صبح الأعشى .

جغرافية بلاد العرب

نحب أن ننقل هنا بعض ما يتعلق بتاريخ العرب من كتاب "تاريخ العرب وآدابهم" المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق بمصر القاهرة سنة (١٣١٠) من الهجرة الموافق لسنة (١٨٩٣) من الميلاد وهو تأليف إدوارد فانديك وقسطنطين فيليبيدس .

وربما يعجب البعض لاختيارنا النقل من هذا الكتاب بالذات وهو تأليف بعض أساتذة الإفرنج- فنقول : إن هذا الكتاب وقع في يدنا بالمصادفة ، فتصفحناه جيداً فلم نجد فيه ما يمس الدين الإسلامي قط ، كما لم نجد فيه أي شيء محرفا ، بل وجدناه كتاباً متين الأسلوب قوي الأدلة ، كل ما فيه صواب وكل مسائله محققة ، لذلك قررت نظارة المعارف العمومية المصرية تدريسه بالمدارس بعد أن التزمت طبعه على نفقتها .

نعم- وجدنا فيه غلطة غير مقصودة من المؤلفين المذكورين وهي قولهما بأول صحيفة (٤٩) "والحجر الأسود كان يعبد في الجاهلية" هذه الجملة غلط واضح ، والصحيح الذي لا شك فيه أن الحجر الأسود لم يعبد قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، كما أن الكعبة كذلك لم تعبد قط .

والقارئ في هذا الكتاب يخرج منه بفوائد كثيرة صحيحة ، وليس من المعقول والعدل أن نرمي بكتاب لمجرد أن مؤلفه غير مسلم ، ففي الأثر «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها» لهذا نحن ننقل من الكتاب لتحققنا من صحة ما جاء فيه – وعلى الله الاعتماد والتكلان ، فقد جاء في جغرافية بلاد العرب ما يأتي:

هذه البلاد شبه جزيرة ، وتتصل بقارة آسيا من الشمال ، يحدها شمالاً بلاد مصر وفلسطين وبادية الشام ووادي الفرات ، وجنوباً البحر الهندي ، وغرباً البحر الأحمر ، ومن الشمال الشرقي خليج فارس ، وهي محصورة بين الدرجة ١٢ والدقيقة ٤٥ والدرجة ٣٠ والدقيقة ٢٥ من العرض الشمالي ، وبين الدرجة ٣٢ والدقيقة ٣٠ والدرجة ٦٠ من الطول الشرقي من كرين وتش ، وطول الشط الشرقي من مصب نهر الفرات إلى رأس مسندم إلى رأس الحد ستمائة كيلو متر مربع ، ومن رأس الحد إلى باب المندب ألفان ومائتا كيلو متر ، ومن باب المندب

إلى السويس ألف وتسعمائة كيلو متر ، وطول الحد الشمالي الوهمي من السويس إلى مدينة البصرة ألف وخمسمائة كيلو متر ، فتكون إذاً مساحة جزيرة العرب مضمومة إليها شبه جزيرة طور سيناء ٥٥٨ ، ١٥٦ ، ٣ كيلو متراً مربعاً وذلك خمسة أضعاف مساحة مملكة فرنسا .

انظر: صورة رقم ٧، خريطة بلاد العرب

منظومة فريدة في علم الجغرافيا

هذا وبمناسبة ذكرنا جغرافية بلاد العرب ، أحببنا هنا إثبات منظومة فريدة لطيفة في علم الجغرافيا ، وهي من نظم بعض العلماء الفضلاء بمصر ، لكن زدنا عليها بعض الأبيات من نظمنا على وفق بحرها زيادة في الإيضاح وتكملة للفائدة العامة ، وذلك منذ سنوات مضت ، لكن نسينا أن نميز الأبيات الأصلية من الأبيات التي زدناها عليها ، والآن لا يمكننا تمييزها لمضي سنوات عديدة عليها ، والمقصود من إثبات هذه المنظومة في تاريخنا ، هو المحافظة على آثار المسلمين في شتى العلوم والفنون ، وهذه المنظومة فريدة طريفة قل أن يوجد مثلها . فرحم الله تعالى ناظمها وقارئها وسامعها آمين ، والله تعالى هو الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب - وإليك المنظومة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الإيمان ... والحمد لله على العرفان

يا أيها الإخوان والأصحاب ... والأصدقاء وكذا الطلاب

أهديكمو قلائد العقيان ... في علم تقويم لذي البلدان

فحده علم بسطح الأرض ... وما حوت من طولها والعرض

وما عليها من بلاد عامرة ... ومن جبال وبحار زاخرة

موضوعة السطح وما عليه ... من كل شيء ثابت عليه

واسمه التقويم للبلدان ... تعريب جغرافية يوناني

* * *

فالأرض قالوا إنها لدائرة ... عظيمة الجرم على شكل الكرة

دليلهم سياحة عديدة ... قد استمرت مدة مديدة

فرجعوا فيها لمبدأ السفر   فذا دليل عندهم قد استقر
ورؤية للأرض في وجه القمر   عند الخسوف مستديرة الأثر
ونظر الشخص إلى أعلى الشبح   من قبل أدناه دليل اتضح

* * *

والأرض قالوا إنها موصوفة   بحركات عندهم معروفة
يومية والليل والنهار   من هذه كل له انتشار
سنوية تدور حول الشمس   في كل عام مرة بالحلس
فصل الشتا منها مع الخريف   فصل الربيع ثم فصل الصيف
والشمس حقاً مثل أضعاف القمر   ومثل أضعاف الأراضي في الكبر

* * *

إن الجهات أربع أصلية   وأربع جزئية فرعية
فقابل الجنوب بالشمال   والغرب بالشرق على التوالي
وأربع فرعية معلومة   في غاية الضبط أتت منظومة
ما كان بين الشرق والشمال   يدعى شمال الشرق في ذا الحال
ثم شمال الغرب ما كان على   يسار غرب والشمال قد تلا
كذا الجنوب عندهم قسمان   مثل الشمال عند ذي الإتقان

* * *

جزء من القماش والأوراق   خريطة سموه باتفاق
مرسومة فيها البلاد والبحار   كذا الجبال والبوادي والقفار
شمالها ما كان من أعلاها   ثم الجنوب ما بها تناها
والشرق فيها عن يمين الناظر   والغرب فيها عن يسار الباصر

* * *

وقسموا ذي الكرة الأرضية   قسمين عندهم بذي الكيفية
ثلاثة الأرباع منها الماء   والربع يابس له انتهاء
وكل بحر في وجود مالح   وكل نهر مستساغ صالح
كبحر الأحمر ونهر النيل   يعرف بالأسفار والرحيل

* * *

جزيـرة هـي قطعـة أرضيـة   محاطـة باللجـة البحريـة
وعكسـها بحـيرة محاطـة   بالأرض فاعرف هذه الإحاطة
ثـم الخليـج وهـو جـزء مـائي   وداخـل في الأرض بانحنـاء
والأرخبيـل وهـو مجمـوع جـزر   في جهـة مـن الجهـات قـد كـثر
والجبـل الكثـير الارتفـاع   عن سطح أرض في قفار القاع
والتـل مـا كـان قليـل الرفعـة   مـن الـتراب وهـو يدعـى التلعـة
وعـدة الجبـال تدعـى سلسـلة   موصولـة ببعضهـا في المنزلـة
وما استوى في الأرض فهو السهل   مـن ارتفـاع وانخفـاض يخلـو
والنجـد والهضبـة سـهل مرتفـع   بغـير ذا التعريـف فيهـا ممتنـع
والمـرج أرض ذات زرع ونبـات   والقفر أرض ليس فيها من نبات
ثـم الـبراكين جبـال النـار   تقـذف بالدخـان والأحجـار

* * *

أمـا المحيطـات فخمـس ذكـروا   محيـط الهـادي وهـذا أكـبر
والأطلسـي وهـو الأطلانطيقـي   والثـالث الهنـدي بـالتحقيق
والرابـع المتجمـد الشـمالي   والخـامس المتجمـد الجنوبـي

* * *

وقسـموا القـارات أيضـاً خمسـا   فاحفظها حفظاً جيداً لا تنسى
أفريقيـا وآسـيا وأوروبـا   وأسـتراليا وقيـت الكربـا
وأمريكـا خـامس الأقسـام   فـاحفظ هـداك بـارئ الأنـام
مصـر بـلاد النـوب ثـم الحبـش   طرابلـس وتونـس مراكـش
وغيرهـا فهـذه إفريقيـا   والشـام والحجـاز هـذي آسـيا
ويمـن ونجـد والتهامـة   وغيرهـا فـافهم تكـن علامـة
أمـا أوروبـا فبـلاد إنكلـترا   كـذا فرنسـا وكـذا سويسـرا
ودانمـرك وكـذا بلجيكـا   وغيرهـا مفصـلاً يأتيكـا
وأمريكـا فبـلاد كنـدا   وهـي ولايـات تـرى متحـدا

منها البرازيل ومكسيك وكم قد ذكروا من البلاد بالقلم
أما أستراليا فتحتوى على عدة بلدان فلا تستجهلا

* * *

فهذه منظومة فريدة وهي على اختصارها مفيدة
فرحمة الله على ناظمها وأحسن الله إلى سامعها
نظمها من علماء الأزهر من معهد العلم القديم الأنور
اعرفه وقد نسيت اسمه لكنه مات وذاب جسمه
والطاهر الكردي قد زاد على أبياته شيئاً قليلاً للملا
حتى تكون هذه المنظومة كاملة مفيدة مختومة
فالحمد لله على التمام فإنه ذو الفضل والإنعام
ثم صلاة الله مع سلامه على النبي "محمد" وآله
ثم على أصحابه العظام والتابعين الأصفياء الكرام

تاريخ الاكتشاف الجغرافي لبلاد العرب

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً ما يأتي : إنه مع كون جزيرة العرب كانت فيما مر من الدهر معروفة عند الأمم الشرقية القديمة وعند الرومان واليونان إلا أن معرفتهم لها كانت بالاسم فقط ليس إلا . وقد أجمع أرباب البحث على أن كل خبر رواه الغربيون عن جزيرة العرب قبل القرن الثامن عشر ميلادية غير حري بالوثوق ولا بارز عن ظل الشبهة ، وهذا ما ألجأ أهل الجغرافية الحديثين منهم إلى البحث والتنقيب والرحلات المتتابعة حتى وقفوا على معرفة الكثير من أحوالها وشؤونها ، وجزموا بكثير منها على رويَّة لأنهم رأوا حقيقتها بالعيان ، غير أن هذا الفوز العظيم لم يكن وافياً بما كان يتوقع منه من النتائج الكبيرة فإنهم استوضحوا باكتشافاتهم أشياء وبقي من دون ما استوضحوه مشاكل جمة ومعميات شتى لم يهتدوا إلى جلائها وكشفها ، وقد قسم أهل التحقيق كلام الكتّاب شبه جزيرة العرب إلى ثلاث أقسام سموها عصوراً فقالوا العصر القديم أي عصر ما قبل الإسلام ، وعصر الإسلام ، والعصر الأوروبي .

العصر القديم

أي ما قبل الإسلام

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : إن أقدم ما سطر في صحائف التاريخ عن بلاد العرب هو ما ورد الإيماء إليه في برنامج الأمم المدرج في الفصل العاشر من سفر الخلائق ، ثم أتى على ذكرها استرابون الجغرافي في تأليفه وبلينيوس في جغرافيته ، وأول من ذكرها على حقيقتها بطليموس الفلكي المشهور ، وهو من أعلام القرن الثاني للميلاد في كتابه المعروف بالمجسطي ، قال : وتقسم بلاد العرب إلى ثلاث أقسام عربية : بطرا (بترا) نسبة إلى مدينة بطرا الكائنة في وادي موسى ، وهي التي كانت عاصمة مملكة أدوم ، وعربية البادية في الشمال ، والعربية السعيدة أي المخصبة بالجنوب . اهـ . وهذا القسم الأخير فيما قال بعض المحققين هو بلاد اليمن .

العصر الإسلامي

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : وفيه نبغ كثير من كتاب العرب ، فدوّنوا في أسفارهم الجغرافية معلومات نفيسة جداً عن بلاد العرب منبع الإسلام ، وأشهر كتاب الجغرافية منهم الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هجرية (سنة ٩٤٥) ميلادية ، وقدامة المتوفى سنة ٣٣٧ هجرية (سنة ٩٤٨) ميلادية ، وياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٧ هجرية (سنة ١٢٢٩) ميلادية ، وأخصهم في الذكر المقدسي الذي نبغ في أواخر القرن العاشر سنة ٣٧٥ هجرية (سنة ٩٨٥) ميلادية . وطبعت جغرافية الهمداني بالعربية في مدينة ليدن سنة ١٨٨٤ ميلادية ، ومما دونوه في كتبهم تقسيمهم بلاد العرب إلى خمسة أقسام وهي :

(اليمن) وفيه حضرموت ومهرت وعمان وشحر ونجران . وسمي باليمن؛ لوقوعه عن يمين الكعبة .

(الحجاز) وفيه مكة ويثرب وسمي حجازاً ؛ لأنه حاجز بين تهامة ونجد .

(وتهامة) وهي بين اليمن جنوباً والحجاز شمالاً .

(ونجد) وهي ما يتصل بالشام شمالاً والعراق شرقاً والحجاز غرباً واليمامة جنوباً . وهي أطيب أرض في بلاد العرب .

(واليمامة) وهي بين نجد واليمن . وتسمى العروض أيضاً ؛ لاعتراضها بين نجد واليمن ، ومن جبالها سيناء وحوريب ، حيث أنزل ا لله الشريعة على موسى الكليم وقاران وهارون ، وإلى جهة الشرق من هارون وادي موسى ، وهو موقع مدينة بطرا القديمة قصبة العربية الصخرية عند الرومان واليونان .

ومن أشهر مدن اليمن صنعاء عاصمة تلك البلاد قديماً ، ومقر والي الحكومة العثمانية حالياً -قيل إنها تشبه دمشق؛ لكثرة مياهها وأشجارها ، وهي معتدلة الهواء حسنة الأسواق واسعة التجارة ، وكانت فيما مر من الدهر عاصمة ملوك اليمن ولهم بها قصر عظيم يقال له غمدان ، وإلى الجنوب الشرقي من صنعاء موقع مدينة مأرب وبقربها وجد أهل البحث من الفرنسيس والإنكليز سنة ١٨٧٥ ميلادية الآثار المسطرة على الصخور بالخط المسند المعروف بالخط الحميري . من بلاد اليمن مدينة نجران ، وفيها كانت كعبة نجران وهي قبة عظيمة يقال إنها كانت تظلل ألف رجل ، وكان إذا نزل بها مستجير أجير ، أو خائف أمن ، أو جائع أشبع ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أعطي ما يريد ، وكانت هذه القبة لعبد المسيح بن دارس بن عدي مصنوعة من ثلاثمائة جلد ، وكان عبدالمسيح ينفق فيها كل سنة عشرة آلاف دينار ، وكانت العرب تسميها كعبة نجران لأنهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة ، وكانت هذه القبة بجانب نهر ، وإلى نجران ينسب قس بن ساعدة خطيب العرب المشهور .

ومن أشهر مدن الحجاز مكة ، وتسمى أم القرى . ولا يدخلها أحد من غير الإسلام لأن فيها المسجد الحرام الذي في وسطه الكعبة .

وفي نجد أرض العالية وجبل عكاد التي لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادي زمان الإسلام إلا في أهليه .

انظر: صورة رقم ٨ ، خريطة العالم الإسلامي

العصر الأوروبي

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي: إن أول من باشر البحث عن جزيرة العرب من الأوربيين هو نيبور المشهور رئيس الإرسالية الدانمركية ، وذلك في سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٦٣ ميلادية ، واقتفى أثر هذه الإرسالية ثلاثة وعشرون شخصاً من سياح الإفرنج على اختلاف أجناسهم ودولهم قصد الاكتشاف وذلك من سنة ١٨٠٧

إلى سنة ١٨٨٤ ميلادية ، ودوّنوا في رحلاتهم ما أمكنهم الوصول إليه والوقوف عليه ، وأول من ذهب من هؤلاء السياح إليها علي بك ، وهو رجل من الإسبانيول أتى بلاد مصر أولاً ودخل في دين الإسلام ، ومن ثم قدم إليها سنة ١٨٠٧ ميلادية ، وهذه أسماء باقي الجماعة الذين سافروا إلى جزيرة العرب مع تعيين تواريخ رحلاتهم :

ستسن الذي قتل سنة ١٨١١ ، وبورك هارت من سنة ١٨١٤ - ١٨١٦ ، والفرنساوي سادليه سنة ١٨١٩ ، وولستد سنة ١٨٣٠ ، وتامييزيه وفرنسل وأرنود سنة ١٨٤٣ ، وفون فريد سنة ١٨٤٣ ، ووالين سنة ١٨٤٥ و ١٨٤٨ ، وريتشرد برتن من سنة ١٨٥٣ إلى ١٨٥٤ ، وفي بلاد مدين سنة ٨٧٧ ، ومالتان سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٧١ ، ووبلتكرف سنة ١٨٦٢ ، وكوارامي سنة ١٨٦٤ ، وبلي سنة ١٨٦٥ ، ووتس ستاين سنة ١٨٦٠ ، وهالفي سنة ١٨٧٠ ، وماتنسوني من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨٠ ، وشارل داوتي من سنة ١٨٧٦ إلى ١٨٧٨ ، وكين سنة ١٨٧٧ ، وبلونت سنة ١٨٧٩ ، ولنفر الذي قتل سنة ١٨٨٢ ، وأويتنج سنة ١٨٨٣ ، وهوبر الذي قتل سنة ١٨٤٤ .

انتهى من كتاب "تاريخ العرب وآدابهم" المذكور .

تقسيم بلاد العرب من حيث الأخلاق والعادات

جاء في كتاب "تاريخ العرب وآدابهم" المتقدم ذكره ما يأتي:

وقد تقسم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام - من حيث الأخلاق والعوائد والأقدام والتهذيب واللغة والمعارف . وهم البدو ، والبدو المتحضرون ، والحضر .

أما البدو فهم أقوام رحالة يسكنون في بيوت من الشعر ، إذ لا يبنون لهم بيتاً ثابتاً بل يهيمون في كل واد حيث طاب لهم العيش ، ذاهبين ببيوتهم على ظهور مطاياهم ينصبونها حيث اعتمدوا الإقامة . وهم يعولون في معيشتهم على ماشيتهم التي يغذونها بما تنبته الأرض من كلأ الطبيعة ويغتذون بلحومها وألبانها ويتخذون ما زاد منها ومن صوفها وشعرها ووبرها لسد ما بقي من احتياجاتهم من مطعم وملبس ومسكن واكتساب درهم يستعينون به لدى الحاجة ، وأكثر ما يسكنون السهول يراقبون فيها سير الفصول ، فإذا اشتد بهم الحر طلبوا الأنهر ومجاري المياه والأراضي النضرة ، وإذا نزل الغيث وارتوت وأنبتت ربيعها توغلوا في القفار

مستصحبين ماشيتهم وبيوتهم ، وهم على كلتا الحالتين لا ينقطعون عن مخالطة الحضر لبيع ما لديهم وشراء ما احتاجوا إليه من مأكول وملبوس ، والبدو من أحرص الناس على ما ورثوه من العرف والعادات إذ ما فتئوا على فطرتهم بما اتصفوا به قبل الإسلام من الحسنات والسيئات ، وقد أصاب بورك هارك في وصفه البدو إذ قال : يمتاز البدو بحب الضيافة والكرم وحفظ الذمام ورعاية الغريب ، والشهامة والحماسة والذكاء وخفة الروح والقناعة ، وحب البدو للحرية يحمله على احتقار أهل الحضر فإنه بمعاملتهم قد تعلم منهم الخداع والمكر . اهـ .

ومع أن البدوي موصوف بخشونة الطباع والعناد ، فهو جامع لرقة الإحساس ودقة الإدراك ، ولا يزال بين البدو حتى الآن بقية يدينون بدين أسلافهم ، ويعبدون الحجارة والأشجار والأفلاك ، وملابس البدو خرقة شبيهة بالمنديل تعرف بالكوفية والعقال للرأس ، والقميص الطويل يشده بحبل على وسطه ، ولبس العباءة فوق الثوب ، أما البدويات فهن في البادية أكثر عدداً من الرجال ، وبالطبع ألين جانباً وأرأف طبعاً ، ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة ، وأخلاقهن بالجملة حسنة ، وخير ما يزينهن عزة النفس وأنفة الحمية وقيامهن مقام الرجال في أكثر الأعمال . وأخذ الثأر عند البدو مشهور من قبل الإسلام ، وهو لا يزال حتى الآن وكثيراً ما يكون السبب في العداوة بين قبيلة وأخرى بحيث يفضي بينهما الأمر إلى الحرب إلا إنه يعوض عن الدم بالدية في بعض الأحيان .

ومن البدو عدد ليس بقليل يتعاطون السلب والنهب ، وكثيراً ما يسلبون قوافل الحجاج أو يلزمونهم بدفع العوض ، ويستعملون في غزواتهم وحروبهم السيف والطير والرمح ، وأكثر اعتمادهم على الرماح ، وقد كثر الآن استعمال البنادق عندهم . أما الأحكام في البادية فموكولة إلى الشيوخ والأمراء وهي تمثل مبادئ الحكم الفطري ، فالقوة لمن غلب ، وتتبعها الثروة والنفوذ . يرضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع المعروف والعرف المشروع ، وليس لهم قوانين مكتوبة ومجالس معقودة ، ومع ذلك يقوم العرف أحياناً مقام القانون النافذ ، فيرجعون بالتقاضي إليه ، وإن اختلفوا في أمر أشكل عليهم رفعوا أمرهم إلى العرفاء ، والعريف عندهم بمنزلة القاضي يحكم بما عرفه بالاختبار مما جرى عليه العرب في كل زمان ، وهو مقام الفيصل أو الفاروق في العهد القديم وله عنده منزلة كبرى .

أما اللغة فهي في انحطاط عظيم عن ذي قبل ، وإن كان الكلام في عامة البدو أصح منه في سائر البلاد التي غلبت فيها اللغة العربية ، فاللفظ أضبط والكلام نقي من خليط الألفاظ الأعجمية .

القسم الثاني : البدو المتحضرون ، ويقال فيهم ما قيل عن البدو ، غير أن حظهم من سعة العيش أوفر ، فلا تحوجهم قلة المياه إلى الرحيل بل ينزلون على مجاري الأنهر الكبيرة ويقيمون في بيوتهم الشعرية أو أكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل والبردى ، يزرعون ما جاورهم من الأرض ، والذين قدم عهدهم بالزراعة كادوا يتحضرون وتحضر منهم كثيرون فيما مر من الأيام فتدرجوا من سكنى الخيام إلى الطرف المبنية من سعف النخل وغيره ، ومنها إلى بيوت الآجر .

القسم الثالث : الحضر ، وهم أهل الأمصار والمدن منهم ، ويصح فيهم الآن ما قاله عنهم ابن خلدون منذ سنين من أنهم قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعُدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة ، لما أخذتهم به عوائد السوء من التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً ، وبالجملة فهم أهل غدر ومكر وخديعة ونقض عهد . اهـ .

على أن هذا الوصف لا ينطبق على كل أهل المدن والأمصار ، فإن المسلم الورع منهم على غير ما ذكر ، فهو ذو صفات حميدة : منها أنه كثير الصدقات والزكاة ، مواظب على العمل ، عفيف النفس ، طاهر الذيل ، قائم بشعائر الدين .

تاريخ العرب قبل الإسلام

جاء في كتاب "تاريخ العرب وآدابهم" المتقدم ذكره ما يأتي:

العصر الأول – تاريخ العرب قبل الإسلام : لا تزال الأخبار عما تقادم من ذلك التاريخ مستترة وراء حجاب القدم ، إذ لا يكاد يوقف منها على حقيقة يوثق بها ولا سيما ما كان منها أبعد عهداً ، والمؤرخون من اليونان والرومان لم يوردوا من أخبارها إلا لمعة خفيفة عن المعاملات التجارية والحروب التي كانت بينهم وبين

العرب المجاورين لممالكهم، والبعض الآخر من المؤرخين ذكروا محاولة بعض الملوك الأجانب افتتاح البلاد العربية كغزوات ملوك آشور وحملة الإسكندر والبطالسة وانتيوخوس ملك سورية على النبطيين، وحملة العامل الروماني في مصر سنة ٢٤ قبل الميلاد على نجران ومأرب، وحملة القيصر تراجان.

أما ما جمعه مؤرخوا الإسلام من الأخبار المنقولة عن ما تقادم من تلك العصور فقد تطرق إليه الخلل، حتى أصبح من الصعب تمييز الوقائع الحقيقية من غيرها، وقد قسم أهل التاريخ العرب إلى فرقتين: بائدة وباقية. انتهى.

ثم فصل المؤلفان في كتابهما المذكور الفرقتين المذكورتين، ما أحببنا نقل ذلك حتى لا يطول بنا الكلام.

تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة

جاء في كتاب "تاريخ العرب وآدابهم" المتقدم ذكره ما يأتي:

وقد قسم النسابون أمة العرب إلى قسمين: العرب العاربة، والعرب المستعربة.

العرب العاربة

فالعرب العاربة: هم أولئك الأقوام الذين ينتهون بنسبهم إلى قحطان، أول جد العرب ورئيس ملوك اليمن الذي يقال عنه أنه أول من تكلم بالعربية من أهل هذه الطبقة، تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم، وبحسب الأنساب المسطورة شجراتها في كتب العرب، تنقسم ذرية قحطان إلى شطرين: أحدهما ابنه يعرب الذي أسس مملكة اليمن الأولى، وكان من أعظم ملوكها، وثانيهما ابنه جرهم الذي أسس مملكة الحجاز. ولعلّهما هدورام ويارح الذين ذكرهما موسى في جمله الثلاثة عشر رئيساً، الذين توالدت منهم العرب (انظر سفر الخلائق - الفصل العاشر والعدد ٢٦).

وانقسام أمة العرب إلى قبائل يشبه انقسام اليهود إلى أسباط، وقد حافظ العرب واليهود منذ القدم على هذا التقسيم والتمييز بين قبيلة وأخرى، وبين بطن وبطن، وهذا التقسيم كان السبب المانع لعدم إجماع الكلمة بين القبائل والعيال من

كل أمة منهم ، وقد ساعد هذا التمييز أهل البحث والتحقيق على معرفة أحوال تلك القبائل وشؤونهم .

أما ذرية يعرب فتكاثرت وانقسمت إلى بطون عديدة ، حتى أن سيل الإنكليزي والسيد أحمد خان قد جمعا أسماء ستين قبيلة من قبائل العرب العاربة الذين اشتهر منهم عدد غير قليل أيام الجاهلية ، ولا يزال العدد الكبير منهم محافظاً على أسمائه إلى يومنا هذا . اهـ .

العرب المستعربة

أما العرب المستعربة فهم من ولد عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل ، ولدوا لإسماعيل من زوجة ابنة المضاض ملك الحجاز ، وبين المضاض وجرهم تسعة جدود ، وقال مؤرخوا العرب: إن إسماعيل بن إبراهيم اتخذ الحجاز له وطناً ، وكانت مكة يوم ذاك قفراً ، وأن إبراهيم عندما أمره الله تعالى أن يذبح ابنه قرباناً قدم إسماعيل ، وكان المحل الذي أراد ذبحه فيه بالقرب من مكة . ومن أقوالهم أيضاً أنه عندما ألحت سارة على إبراهيم بطرد هاجر من منزلها أن هاجر ذهبت مع طفلها إسماعيل إلى الوادي الذي هو الآن مدينة مكة ، وأنه عندما عطشت هي وابنها أنبع الله لهما عين ماء سميت زمزم ، إلا أنهم لا يذكرون تزوجه بالمرأة المصرية التي ولدت له الاثني عشر ولداً الذين صاروا أمراء اثنتي عشرة قبيلة ، وتملكوا مدناً مختلفة في ما جاء في الفصل ٢٥ عدد ١٢ و ١٨ من سفر الخلائق ، مع أن عوائد العرب واليهود لا تمنع من أن يكون للرجل الواحد أكثر من زوجة واحدة ، وعدنان الجد الحادي والعشرون للنبي ﷺ هو من نسل إسماعيل ، فيكون إذاً نسب النبي ﷺ من إسماعيل إلى العرب المستعربة ، ومن زوجة إسماعيل التي بنت المضاض إلى العرب العاربة ، وأن انتساب النبي ﷺ إلى جده عدنان الذي هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، كان السبب لاعتناء مؤرخي العرب في حفظ أنساب المستعربة أكثر منه في حفظ أنساب العرب العاربة ، ولهذا عددوا في كتابتهم ١٦٠ قبيلة من قبائل العرب المستعربة . ومما ذكره مؤرخوا الإسلام أن بين بناء الكعبة وولادة النبي ٢٧٤٠ سنة .

وتعرف قبائل قحطان في الجنوب بالسبائيين والحميريين واليمنيين والكلبيين ، وتعرف قبائل الإسماعيليين في الشمال بالعدنانيين والمعديين والمضريين والقيسيين ، ومن هذه الطبقة المناذرة ملوك الحيرة والعراق وأمراء الحجاز . انتهى .

ثم قال المؤلفان في موضع آخر من الكتاب : تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة ، لا يدل على تمييز في الجنس والنسب ، بل هو دال على اختلاف المعيشة من حيث الحضارة والبداوة وما بينهما ، ومن أراد زيادة بيان عن مواطن قبائل العرب ومهاجراتهم ، فعليه مراجعة المعجم للبكري من صحيفة ١ إلى صحيفة ٥٨ ، وهذا الكتاب طبع سنة ١٨٦٩ في مدينة غوتنجن من أعمال ألمانيا. انتهى من الكتاب المذكور .

أول تسمية للبلاد العربية السعودية

كان من قديم الزمان بلاد الحجاز وحدها وبلاد نجد وحدها ، لم ترتبط بعضها إلا منذ أن استولى سلطان نجد الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود على الحجاز ، وذلك سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، فلما استتب الأمر لعبد العزيز المذكور نودي به ملكاً عاماً على البلاد الحجازية والبلاد النجدية ، فسمي من يومئذ (ملك الحجاز ونجد وملحقاتها) وكان يطبع هذا على الأوراق الرسمية ، وعلى العملة المتداولة بين الناس من العملة الفضية وأجزائها ومن القروش النيكل وأجزائها أيضاً .

ثم لما كان سنة (١٣٥٢هـ) أو قبلها بسنة أو بعدها بسنة صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز المذكور رحمه الله تعالى بتسمية البلاد الحجازية والبلاد النجدية باسم واحد ، فيطلق عليهما "المملكة العربية السعودية" ومنذ هذا الوقت صارت العملة تطبع بهذا الاسم وكذلك الأوراق الحكومية ، وإذا طبعت الخرائط الجغرافية بعد هذا التاريخ يضعون فيها اسم المملكة العربية السعودية ، فسبحان مدبر الأمور ومقلبها ، ومجري الرياح ومسيّرها ، بيده الأمر كله وإليه ترجعون ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وإليك صورة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي هو أول ملك لقب بالاسم المذكور .

فضل العرب على سائر الأجناس

الكلام على فضل العرب كثير نذكر هنا نبذة صغيرة للذكرى فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فنقول وبا لله تعالى التوفيق:

يطلق العرب على كل من يتكلم اللغة العربية بالطبيعة والسليقة وكان من نفس بلاد العرب، والعرب أجناس مختلفة فمنهم الحجازي والمصري والشامي واليمني والعراقي وغير ذلك. ومن نظر بعين الحقيقة والتأمل والإنصاف إلى عادات جميع أجناس البشر وأحوالهم وجد أحوال العرب وعاداتهم أحسن وأفضل من جميع الأجناس على الإطلاق في كل زمان ومكان - ولنذكر شيئاً مما ورد في حق العرب في القرآن الكريم وما ورد فيهم في الأحاديث النبوية الكريمة.

قال ا لله تعالى في كتابه العزيز في أول سورة يوسف: ﴿بسم ا لله الرحمن الرحيم ۞ الر تلك آيات الكتاب المبين ۞ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾. وقال في سورة الأحقاف: ﴿وهذا كتابٌ مصدقٌ لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾. وقال في أواخر سورة الشعراء: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذرين ۞ بلسان عربي مبين﴾. وقال ﷺ: «أُحبُّ العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي» رواه الطبراني والبيهقي وغيرهما. وقال أيضاً: «أحبوا قريشاً فإن من أحبهم أحبه ا لله تعالى» رواه الإمام مالك في الموطأ والإمام أحمد وغيرهما.

وقال أيضاً: «إن ا لله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم في صحيحه.

فمما تقدم من قول ا لله تبارك وتعالى، ومن قول رسوله ﷺ، يعلم فضل العرب على سائر أجناس البشر، ولا عبرة بمن يقول أننا وجدنا في بعض الأجناس؛ كالفرس والعجم والهند وجاوة وهولندا وإنغلترا وأمريكا وفرنسا مثلاً -أفراداً أحسن من العرب- نقول: لا عبرة بمثل هذا القول؛ لأن وجود أفراد في بعض الأجناس نادر والنادر لا حكم له، فمجموع الأمة العربية أفضل وأحسن من مجموع أية أمة من الأمم الأخرى، فا لله عز وجل قد خص الأمة العربية بفضائل كثير منها: الكرم والشجاعة والمروءة والإنسانية والشهامة وحسن الخلق ولطيف

الشمائل . فإن وجد شيء من ذلك في بقية الأمم الأخرى فإنما هو بنسبة معينة . فالأمة العربية يأخذون من حسن الشمائل وحميد الخصال بقسط وافر ، ولو وجدوا عناية ورعاية في مسائل التعليم بمختلف أنواعه لدانت لهم جميع الأمم ، فلديهم من العقل والذكاء وسرعة الخاطر والفهم ما يجعلهم في مقدمة جميع الأمم ولله الحمد ، وحيث إن الله تبارك وتعالى قد اختارهم وفضلهم على سائر الأمم فهنيئاً لهم هذه المنزلة الكبرى عند الله عز وجل .

مكانة العرب بين الأمم الإسلامية

ولقد ذكرت إحدى المجلات العربية عن فضل العرب نبذة لطيفة أحببنا ذكرها هنا وهذا نصها:

للعرب عند الله وعند الناس مكانة كبرى ، ذكر الله مكانتهم في القرآن في مواضع متعددة ومَنْ أصدق من الله قيلا: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ ويكفي العرب فخراً ومكانة أن جميع الرسالات السماوية نزلت في وطنهم ونبعت من أرضهم ، وجميع الأنبياء والرسل عاشوا وماتوا ودفنوا في أرضهم ، والكعبة وبيت المقدس وطور سيناء وبيت لحم في وطنهم ، والقرآن نزل بلغتهم ومحمد العظيم منهم ولغة أهل الجنة يوم القيامة بلغتهم ولسان الله يوم القيامة عربي . فيا لها من مفخرة ويا لها من مكانة . وليست هذه وحدها مفاخر العرب فقد كان لهم قبل الإسلام تاريخ فيه حضارة واسعة ، وفيه مجد وعظمة في جزيرة العرب وما يتصل بها من بابل وآشور وغيرهما .

وللعرب قبل الإسلام أخلاق ومكارم ومآثر ولكن تاريخ العرب الحق ، ومجدهم الأعظم ومكانتهم في الإنسانية وآثارهم الخالدة . . كل أولئك يبدأ مع الإسلام ويعظم بالإسلام ويدوم وينمو ويزداد عظمة وبهجة ما بقي في صحبة الإسلام وكفالته .

والإسلام دين إنساني عظيم ، جاء به خاتم النبيين الذي بُعث رحمة للعالمين وهو دين يكره الحدود ، حدود الأقوام وحدود الأوطان ، ويدعو إلى أخوة البشر كلهم وتعاون الأمم جميعاً ، لا يخص قبيلاً دون قبيل ، ولا يميز أمة على أمة . ولكن الله اختار لرسالته نبياً من العرب فأدوا أمانته وبلغوا رسالته وجاهدوا لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة في الشرق والغرب ، واحتملوا من النّصَب والعناء ، والاغتراب ولقوا

من السيوف والحتوف ، ما كانوا أكفاءه بل أكبر منه ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ .

حملوا هذه الرسالة العظيمة ما بين الصين في الشرق وفرنسا في الغرب وبلغوا في الشمال والجنوب بلاداً قاصية وفيافي نائية . ولم يعرف التاريخ لغير الإسلام ولم يشهد لغير العرب المسلمين هذه الهمة التي لا تحد وهذه العزيمة التي لا تقهر وهذا الجهاد الذي لا يفتر وهذا الإخلاص في الحق ، والاستشهاد في سبيله ، وما عرف العالم دعوة كالإسلام خلطت الأمم أمة واحدة ، وجعلت الأوطان وطناً واحداً ، ولا عرف كالعرب دعاة جمعوا الأمم في عدل الله وأخوة الحق ، لا يفرقون بين قبيل وقبيل ولا يميزون لوناً من لون ، بل شعارهم قول القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

خالطوا الأمم ، فخلطوا بعضها ببعض فجعلوها أمة واحدة تنتشر من أقصى الشرق إلى أقصى المغرب شعارها ﴿و لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ وإن في الإسلام والعروبة لمثلاً عالياً للمذاهب والأمم ، يرى فيهما البشر كيف يسير الحق القوي ، والمذهب القويم ، في حضانة أمة قوية قويمة مخلصة ، فتغير سير الزمان ، وتبدل مجرى التاريخ ، وتعلو على الحدود والقيود إلى المثل العليا التي لا تخص جيلاً ولا قبيلاً بل تعم الناس جميعاً .

حفظ المسلمون للعرب أنهم سبقوا إلى حمل الأمانة وأداء الرسالة ، فقرنوا ذكرهم بذكر الإسلام وعظموهم وأحبوهم واتخذوهم مثلاً عالياً وأسوة حسنة ، ومع كل هذه المكانة وكل هذا الفضل نرى فئة من الناس من المسلمين قد تنكروا لفضل العرب ومكانتهم . وهنا أنقل للقارئ الكريم رأي أحد أئمة الإسلام في فضل العرب وعظمتهم ليكون الدليل أقوى والحجة أعظم على هؤلاء الذين تنكروا للحقائق وتنكروا للعروبة ومكانتها بين الأمم الإسلامية . وهذا الإمام هو شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد جاء في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ما يلي بالحرف الواحد:

فإن الله تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا . ثم خص قريشاً على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة ، وغير ذلك من الخصائص ثم خص بني هاشم بتحريم الصدقة واستحقاق قسط من الفيء ، إلى غير ذلك من

الخصائص . فأعطى ا لله سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها . وا لله عليم حكيم ﴿ا لله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ و ﴿ا لله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وقد قال الناس في قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ وفي قوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ .

ومن الأحاديث التي تذكر في هذا المعنى: ما رويناه من طرق معروفة إلى محمد بن إسحاق الصنعاني ، حدثنا عبدا لله بن بكر السهمي حدثنا يزيد بن عوانة عن محمد بن ذكوان -خال حماد بن زيد- عن عمرو بن دينار ، عن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال: «إنا لقعود بفناء النبي ﷺ إذ مرت بنا امرأة . فقال بعض القوم : هذه ابنة رسول ا لله ﷺ فقال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن . فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ ، فجاء النبي ﷺ في وجهه الغضب فقال: ما بال أقوال تبلغني عن أقوام؟ إن ا لله خلق السموات سبعاً . فاختار العليا منها ، وأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق . فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار . فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم» .

وأيضاً في المسألة ما رواه الترمذي وغيره من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد ، عن قابوس ابن أبي ظبيان ، عن أبيه ، عن سلمان رضي ا لله عنه ، قال رسول ا لله ﷺ: «يا سلمان ! لا تبغضني فتفارق دينك . قلت : يا رسول ا لله! كيف أبغضك وبك هداني ا لله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضني» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب ، لا يعرف إلا من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد .

فقد جعل النبي ﷺ بغض العرب سبباً لفراق الدين . وجعل بغضهم مقتضياً لبغضه .

ويشبه أن يكون النبي ﷺ خاطب بهذا سلمان -وهو سابق الفرس ذو الفضائل المأثورة- تنبيهاً لغيره من سائر الفرس لما أعلمه ا لله من أن الشيطان قد يدعو النفوس إلى شيء من هذا كما أنه ﷺ لما قال: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من ا لله شيئاً . يا عباس عم رسول ا لله ، لا أغني عنك من ا لله شيئاً ، يا صفية عمة رسول ا لله ، لا أغني عنك من ا لله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»

كأن في هذا تنبيه لمن انتسب لهؤلاء الثلاثة : أن لا يغتروا بالنسب ويتركوا الكلم الطيب والعمل الصالح .

وهذا دليل أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر . أو سبب للكفر . ومقتضاه : أنهم أفضل من غيرهم وأن محبتهم سبب قوة الإيمان ؛ لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف : لم يكن ذلك سبباً لفراق الدين ولا لبغض الرسول بل كان يكون نوع عدوان . فلما جعله سبباً لفراق الدين وبغض الرسول : دل على أن بغضهم أعظم من بغض غيرهم . وذلك دليل على أنهم أفضل ؛ لأن الحب والبغض يتبع الفضل فمن كان بغضه أعظم : دل على أنه أفضل ودل حينئذ على أن محبته دين لأجل ما فيه من زيادة الفضل ، ولأن ذلك ضد البغض ومن كان بغضه سبباً للعذاب لخصوصه كان حبه سبباً للثواب وذلك دليل على الفضل .

وقد جاء ذلك مصرحاً به في حديث آخر رواه أبو طاهر السلفي في فضل العرب من حديث أبي بكر بن أبي داود ، حدثنا عيسى بن حماد زغبة ، حدثنا علي بن الحسن الشامي ، حدثنا خليد بن دعلج ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « حب أبي بكر وعمر من الإيمان وبغضهما من الكفر ، وحب العرب من الإيمان وبغضهم من الكفر » .

وقد احتج حرب الكرماني وغيره بهذا الحديث وذكروا لفظة: « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق وكفر » . انتهى ما ذكره ابن تيمية في كتابه وفيه كفاية وعظة لكل متعظ .

وذكر العلامة الكبير السيد محمود شكري الآلوسي في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) ما نصه:

روى أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شبة قال : كنا وقوفاً بالمربد موضع بالبصرة ، وكان المربد مألف الأشراف إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا به وبدأناه بالسلام . فرد علينا السلام ثم قال: لو ملتم إلى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلناه وملنا ، فلما استقر بنا المكان قال لنا : أي الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا : فارس . فقال : ليسوا بذلك ،

إنهم ملكوا كثيراً من الأرض . . ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئاً بقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم . قلنا : فالروم . قال أصحاب صنعة . قلنا : فالصين . قال : أصحاب طرفة . قلنا فالهند . قال: أصحاب فلسفة . فقلنا : السودان . قال : شر خلق الله . قلنا : الترك . قال : كلاب مختلسة . قلنا : الخزر قال : بقر سائمة قلنا : فقل . قال : العرب . قال فضحكنا قال : أما إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة ، فلا يفوتني حظي من المعرفة . إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيحسن ، ويقبّح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم . فقال سبحانه: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان ، أكبت للجنان .

هذا قليل من كثير من الأدلة على فضل العرب ومكانتهم بين الأمم الإسلامية . انتهى من المجلة المذكورة .

مناظرة بين النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب

جاء في جواهر الأدب المناظرة التي وقعت فيما بين النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان – في شأن العرب وهي مناظرة تظهر فضل العرب تستحق تسجيلها في تاريخنا هذا – وإليك نصها :

روى ابن القطامي عن الكلبي قال : قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم ، والهند ، والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم – فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثني فارس ولا غيرها .

فقال كسرى وأخذته عزة الملك : يا نعمان ، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يقدم عليّ من وفود الأمم – فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ،

وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ويقيم جاهلها- ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسيتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكاً يجمعها - والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم - ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها ، وصغر همتها ، محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطامع الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها . فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم (ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تشبه بعض أمور الناس) . يعني: اليمن .

ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من المذلة ، والقلة ، والفاقة ، والبؤس حتى تفتخروا ، وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : أصلح الله الملك . حق لأمة ، الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها ، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمنني من غضبه نطقت به .

قال كسرى : قل فأنت آمن .

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك : فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به ، من عقولها وأحلامها وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا ؟

قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر - إذ غيرها من الأمم ، إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأبا . حاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل في غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها : فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والنّاب ، عليها بلاغه في حموله ، وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها ، فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم : فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه ، وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم من الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس - ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها : فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغمه منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها : فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الإيماءة ، فهي ولت (أي عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه ، فلا يغلق رهنه ، ولا تخفر ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته ، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج .

وأما قولك: إن أفضل طعامهم من لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلّها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم ، فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم .

وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطث (أي الضرب الشديد بالرجل على الأرض) بالعسف .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جد الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على ملك متسّق ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً ، ولو ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، ويغضب للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهل لموضعك من الرئاسة في أهل إقليمك . ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن ظالم، وقيس بن مسعود البكريين، وإلى خالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل العامريين، وإلى عمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المري. فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم، وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات، تخوفت أن يكون لها غور، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله - فاقتص عليهم مقالات كسرى، وما رد عليه فقالوا: أيها الملك وفقك الله ما أحسن ما رددت، وأبلغ ما حججته، فمرنا بأمرك، وادعنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم، وليس شيء أحب مما سدد الله به أمركم، وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم -والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط، وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم: نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أن العرب على غير ما ظن، أو حدثته نفسه، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثير الأعوان، مترف معجب بنفسه، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل، وليكن أمر بين ذلك، تظهر به دماثة حلومكم، وفضل منزلتكم، وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام (أكثم بن صيفي) ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كلٍ رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكونن ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعناً، فإنه ملك مترف، وقادر متسلط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك، وأعطى كل رجل منهم حلة، وعممه عمامة، وختمه بياقوتة، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية، وفرس نجيبة.

وكتب معهم كتاباً هذا نصه:

أما بعد، فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم، وأجبته بما قد فهم مما أحببت أن يكون منه على علم، ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها، وحمت ما يليها بفضل قوتها، تبلغها من الأمور التي

يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة - وقد أفدت أيها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغمض لا عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمني بإكرامهم ، وتعجيل سراحهم وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم .

فخرج القوم في أهبتهم : حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم - فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرازبته ، ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء ، والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

فقام أكثم بن صيفي فقال : إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلا الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . . . (إلى آخر كلامه الذي لا نحب نقله وسرده خوف التطويل) .

ثم قام كل واحد من رفقائه التسعة فخطب أمام كسرى خطبة بليغة قيمة ، أظهرت ما للعرب من الفضل والكرم والبلاغة والفصاحة ، حتى أن كسرى تأثر من خطبة كل واحد منهم خطبها أمامه من شعر أو نثر .

فلما فرغوا من خطبهم وكلامهم - قال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، ثم أعظم صِلاتهم أجمعين وردهم إلى أقوامهم معظمين .

انتهى كل ذلك نقلاً عن كتاب جواهر الأدب للهاشمي . وكان بودّنا ذكر نص خطبة كل واحد منهم لكن ذلك يؤدي بنا إلى التطويل .

نبذة من سيرة النبي ﷺ

لما كان بلد الله الأمين (مكة المكرمة) محل ولادة خاتم النبيين، سيدنا ونبينا (محمد) صلاة الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، كان من الأفضل أن نتشرف بذكر نبذة من سيرته العطرة، ونبذة من هجرته المباركة إلى المدينة المنورة، ونبذة من كل ما يتعلق بسيرته ﷺ، للذكرى والعظة، والتفكر والاعتبار، نتشرف بذكر كل ذلك كالمقدمة تكون أمام المقصود، فرحم الله تعالى من يقول:

وإن أولى ما تحلى المسلم	بعد كتاب الله بل يحتّم
علم بأيام رسول الله	من لدن النشأ إلى التناهي
وحفظ ما يحق أن لا يُجهلا	من أمره وحاله مفصَّلا

وبعد الانتهاء من كل هذا إن شاء الله تعالى، نبدأ الكلام عن تاريخ بلد الله الحرام، ذلك البلد الأمين الذي أقسم الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز شأنه: ﴿لا أقسم بهذا البلد ۝ وأنت حل بهذا البلد﴾ وقال أيضاً تبارك وتعالى: ﴿والتين والزيتون ۝ وطور سينين ۝ وهذا البلد الأمين﴾ والله سبحانه وتعالى لا يقسم في كتابه الكريم إلا بأفضل الأشياء وأشرفها، ومكة المكرمة أشرف بقعة على وجه الأرض، وأفضل مكان تحت قبة السماء على الإطلاق، وكيف لا تكون كذلك، وفيها بيت الله الحرام، والمشاعر العظام، ولا يكون أداء فريضة الحج الذي هو خامس أركان الإسلام إلا فيها.

فمكة بلد الله الحرام، ومهبط الوحي والملائكة الكرام، ومأوى الأولياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنها لخليقة بكل رعاية، وجديرة بكل عناية، حساً ومعناً، فهنيئاً لمن عظم أمرها وأكرم أهلها، وأخلص لله ورسوله فيها. اللهم وفقنا لمرضاتك، وعاملنا بما أنت أهله، لا بما نحن أهله آمين يا رب العالمين يا الله.

لا ندري والله كيف نكتب عن ترجمة حياة سيدنا ومولانا "محمد" رسول الله ﷺ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ماذا نكتب عن سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين، ماذا يمكن لعاجز اللسان والقلم

أن يكتب عمن اختاره ا لله واصطفاه ، فأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، ماذا يمكن أن يكتب هذا العاجز عمن أراه ا لله تعالى ملكوت السموات والأرض ويجتمع به ملائكة ا لله المقربون ، ماذا يكتب هذا الضعيف العاجز عمن أسري به إلى السموات السبع ، بل إلى ما فوق ذلك وكلمه ربه .

الحقيقة أن المؤمن الصادق المتلئ حباً ومعرفة برسول ا لله ﷺ ليقف حيران في ناحية الكتابة عن هذا النبي العربي الأمي الذي تربى يتيماً ، وقام بالدعوة إلى ا لله تعالى وحده ، حتى تغلب على جاهلية العرب ، وقلب معتقداتهم الشركية إلى عبادة ا لله وحده لا شريك له ، وأضاء ما جاء به من الدين القويم ما بين المشرق والمغرب ، ولا يزال هذا الدين الحنيف قائماً إلى أن تقوم الساعة .

كيف لا يحتار الإنسان في الكتابة عمن ينزل عليه الوحي من السماء فلا ينطق عن الهوى ، فيستقي معلوماته عن الروح الأمين عليه السلام ، وماذا يكتب مثلنا أعمى القلب والبصر عمن تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وعمن يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، وعمن أطلعه ا لله تعالى على ملكوت السموات والأرض ، وعمن عُرج به إلى ما فوق السموات السبع حتى سمع صريف الأقلام ورأى من آيات ربه الكبرى ما رأى ، وإذا كنا نحن لا نعرف عن أنفسنا ولا نحيط بها علماً فكيف يمكننا أن نعرف رسول ا لله ﷺ فنكتب عنه – ورحم ا لله من قال :

روى السيوطي في كبرى الخصائص عن طه عن الروح عن ذي العرش سبحانه
لا يعرف ا لله إلا ا لله جل كما لا يعرف المصطفى إلاه عرفانه

وما أحلى هذا البيت:

إذا ا لله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

على أنه لا بد لنا أن نتشرف بذكر نبذة قصيرة عن حياته الشخصية المباركة ﷺ ، حيث إننا في صدد وضع تاريخ منقح عن البلدة التي أشرقت بولادته عليه الصلاة والسلام ، وهي بلد ا لله الأمين "مكة" ، وإن توسعنا في الحديث عما يتعلق به ﷺ فإنما يكون ذلك في ثلاثة مباحث:

(الأول): قصة الإسراء والمعراج ، (الثاني): قصة الهجرة إلى المدينة المنورة ، (الثالث): قصة فتح مكة .

فغير هذه المباحث الثلاثة لا نتوسع فيها، ولو أردنا استيفاء الكلام عن تاريخه ﷺ من جميع النواحي لاحتجنا إلى وضع مجلدات ضخمة، ورضي الله عن علمائنا الأعلام فقد أتوا بالكلام الشافي الوافي عن سيرة رسول الله ﷺ من جميع النواحي.

وهنا نتشرف بالبدء بجزء يسير عن ترجمته ﷺ، فنقول وبالله التوفيق ومنه تعالى نستمد العون في كل صغيرة وكبيرة ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾:

نسب رسول الله ﷺ

اعلم أن نبينا "محمداً" ﷺ ينتهي نسبه الشريف إلى خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو من ذريته بدون شك، ولقد أجمع العلماء إلى أن نسبه الشريف يقف إلى عدنان كما سيأتي بيانه، وما فوق عدنان لا يصح فيه طريق.

وأنه ﷺ لم يزل ينتقل من أصلاب آباء طاهرين إلى أرحام أمهات طاهرات، وكلهم من سادات العرب وكرام القوم، ولم يكن في نسبه ﷺ شيء من سفاح الجاهلية، فقد طهره الله عز شأنه من كل شائبة، كما هو اللائق بنسب سيد ولد آدم خاتم النبيين وإمام المتقين وشفيع الأمة يوم الدين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

روى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، ثم تخير القبائلِ فجعلني في خيرِ قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً». اهـ.

وإلى معنى الأحاديث المتقدمة أشار بعضهم بقوله:

محمد خير بني هاشم ... فمن تميم وبنو دارم
وهاشم خير قريش وما ... مثل قريش في بني آدم

ولبعضهم:

قريش خيار بني آدم ... وخير قريش بنو هاشم

وخير بني هاشم أحمد رسول الإله إلى العالم

ولبعضهم:

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوة الصفوة من بينهم محمد والنور وأبو القاسم

ومن لطيف ما يحكى : أن معاوية رضي الله عنه كان جالساً وعنده جماعة من الأشراف – فقال معاوية: "من أكرم الناس أباً وأماً ، وجداً وجدة ، وعماً وعمة ، وخالاً وخالة"؟ فقال النعمان بن العجلان الزرقي بعدما أخذ بيد الحسن فقال : هذا ، أبوه علي بن أبي طالب ، وأمه فاطمة ، وجده رسول الله ﷺ ، وجدته خديجة ، وعمه جعفر ، وعمته أم هانئ ابنة أبي طالب ، وخاله القاسم ، وخالته زينب – فهذا هو الشرف الذي لا يداني والفضل الذي لا يبارى – انتهى من صبح الأعشى .

فنسبه ﷺ من جهة أمه هو كما يأتي :

محمد بن آمنة الزهرية بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، فيجتمع نسب أبيه وأمه في كلاب .

وأما نسبه ﷺ من جهة أبيه فهو كما يأتي في هذا الجدول :

عدد	النسب الشريف	نبذة عن أحوال آبائه الكرام
١	محمد ﷺ	ولد عام الفيل ، وتوفي في ربيع من السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وعمره ثلاث وستون سنة .
٢	ابن عبدالله	تزوج عبدالله بآمنة بنت وهب أم النبي ﷺ وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل أقل – وتوفي عبدالله بعد أن حملت آمنة بالنبي ﷺ بشهرين ، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار ، ومن دقائق لطف الله عز وجل أن يكون اسم والد نبينا محمد ﷺ اسماً كريماً محبوباً ، مع ندرة التسمية به في ذلك الزمن الجاهلي وهو "عبدالله" حتى إذا انتسب ﷺ إلى أبيه كان انتساباً صحيحاً حساً ومعنى ، فلم يكن اسم أبيه عبدالعزى ، ولا عبد هبل ، ولا ابن كلاب ، ولا ابن مرة ، وأمثالها من أسماء الجاهلية ، حقاً إنه ﷺ

عدد	النسب الشريف	نبذة عن أحوال آبائه الكرام
		عبدا لله ورسوله .
٣	ابن عبدالمطلب	واسمه شيبة الحمد ، كان حسن الخلقة ، وكان سيد قريش وشريفها وحليمها وهو الذي حفر بئر زمزم ، وأخرج منها الغزالين الذهب والأسياف والدروع التي دفنتها فيها جرهم .
٤	ابن هاشم	واسمه عبدالعلاء ، كان يهشم الثريد لقومه في الجدب ويصنع الطعام للحاج ويملأ الأحواض بالمسجد بالماء لسقاية الحاج .
٥	ابن عبد مناف	واسمه المغيرة ، تولى ولاية مكة بعد أبيه قصيّ ، وورث منه شرف القيادة ودار الندوة والسقاية .
٦	ابن قصيّ	واسمه زيد ، ويقال له: مجمع لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها، وكان بيده أمر مكة وولاية البيت.
٧	ابن كلاب	واسمه حكيم ، وهو أول من أهدى إلى الكعبة سيفين محلايين بالذهب جعلهما في خزانتها .
٨	ابن مرّة	واسمه محشية وكنيته أبو يقظة ، ومرة منقول من وصف الحنظلة والعلقمة .
٩	ابن كعب	سمي كعباً لعلو قدره وارتفاع منزلته عند قريش ، وهو أول من قال: "أما بعد" كان بينه وبين مبعث النبي ﷺ خمسمائة وستون سنة ، كان يعظ قومه ويبشرهم بمبعث النبي ﷺ وأنه من ولده ، وكان العرب بعد موته يؤرخون بوفاته إلى عام الفيل .
١٠	ابن لؤي	ويكنى أبا كعب ، كان حليماً حكيماً ، نطق بالحكمة وهو صغير ، وكان التقدم في بنيه على قبائل قريش .
١١	ابن غالب	وكنيته أبو تيم .
١٢	ابن فهر	وكنيته أبو غالب ، وكان يسد حاجة المحتاج من ماله ، وكان بنوه يتفقدون الحاج في الموسم ويسألونهم عن حوائجهم فيرفدونهم ويسدون

عدد	النسب الشريف	نبذة عن أحوال آبائه الكرام
		عوزهم .
١٣	ابن مالك	ويكنى أبا الحارث ، سمي مالكاً لأنه ملك العرب في زمانه .
١٤	ابن النضر	واسمه قيس ويكنى أبا مخلد ، ولقب بالنضر لنضارته وحسنه وجماله .
١٥	ابن كنانة	سمي بكنانة ؛ لمحافظته على أسرار قومه ، وكان عظيم القدر ، تحج إليه العرب لعلمه وفضله ، وكان يبشر قومه بخروج نبي من مكة يدعى "أحمد" ﷺ .
١٦	ابن خزيمة	ويكنى أبا أسد ، خلّف من الولد خمسة ، ومن هؤلاء تفرعت بطون بأسمائهم .
١٧	ابن مدركة	واسمه عمرو ، سمي بمدركة لأنه أدرك كل عز وفخر كان في آبائه .
١٨	ابن إلياس	ويكنى أبا عمر ، كان أمره عظيماً عند العرب بعد أبيه ، فكانوا يدعونه بسيد عشيرته ، وكان فيهم مثل لقمان الحكيم في قومه ، وكانوا لا يقطعون أمراً دونه ، وهو أول من أهدى الْبُدْن إلى البيت الحرام .
١٩	ابن مضر	واسمه عمرو ، وكانت له الغلبة بالحجاز على سائر بني عدنان والرياسة بمكة المكرمة والحرم .
٢٠	ابن نزار	واسمه خلدان ، ويكنى أبو إياد ، وهو أول من اتكأ على العصا في الخطبة ، قيل هو أول من قال: "أما بعد" وهو صاحب الخطبة العظيمة التي رواها صاحب السيرة الشامية .
٢١	ابن معد	ويكنى أبا قضاعة ومنه بطون عدنان بأجمعها ، ولم يحارب أحداً إلا انتصر عليه .
٢٢	ابن عدنان	وإلى عدنان هذا ينتهي نسب النبي ﷺ كما رواه البخاري في صحيحه ، قيل كان عدنان في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ، والله تعالى أعلم ، فأنت ترى أن آبائه ﷺ من أشراف العرب

عدد	النسب الشريف	نبذة عن أحوال آبائه الكرام
		وساداتها ، وأمه من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً - اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك سيدنا "محمد" وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين ، وارض عنا معهم بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

[توحيد آبائه ﷺ]

واعلم ، أن آباءه ﷺ موحدون وناجون ؛ لأنهم كانوا يتعبدون على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا من أهل الفترة - جاء في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ما نصه : قال في شرح نظم عمود النسب : قال ابن حجر الهيثمي : إن الأحاديث مصرحة لفظاً ومعنى أن آبائه ﷺ غير الأنبياء وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر ، لأن الكافر لا يقال في حقه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس . وقد جاء في الحديث أن آباءه مختارون وأنهم كرام ، وأن أمهاته طاهرات ، وأيضاً فهم إلى إسماعيل من أهل الفترة ، وهم في حكم المسلمين بنص قوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ انتهى كلامه .

روى أبو نعيم : « لم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » .

جاء في كتاب الأرج أن القاضي أبا بكر بن العربي سئل عن رجل قال : إن أبوي النبي ﷺ في النار - فأجاب بأنه ملعون ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهينا﴾ . قال: ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبويه ﷺ في النار . انتهى كلامه .

ولقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

من يقل في النار والد النبي ... فهو لعين قاله ابن العربي

ومن يقل بالنار ربي يحرق ... أم النبي كافر يحرق

انتهى من شرح زاد المسلم .

وانظر ما جبل عليه ﷺ من مكارم الأخلاق، فقد جاء في الجزء الأول من تاريخ الخميس ما نصه: "ولما وصل عكرمة بن أبي جهل قريباً من مكة ليسلم، قال النبي ﷺ لأصحابه: يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً فلا تسبوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يلحق الميت". انتهى.

إذا علمت ما تقدم فهل يطيب قلب المؤمن الصادق المحب لرسول الله ﷺ، أن يقول إن أبوي النبي عليه الصلاة والسلام ماتا كافرين - كلا والله.

وإذا كان رجل سأل رسول الله ﷺ، أين أبي فقال: إن أبي وأباك في النار، كما في صحيح مسلم تواضعاً منه ﷺ، وجبراً لخاطر هذا الرجل السائل، فهل يليق بنا من باب الأدب على الأقل أن نقول نحن ذلك - كلا والله.

وإذا كان ﷺ، قال عن نفسه للرجل الذي دخل عليه فأخذته رعدة من هيبته: هوِّن عليك فإني لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة. فنطق الرجل بحاجته - فهل يليق بنا أن نقول نحن إن رسول الله ﷺ هو ابن آكلة القديد - كلا والله.

وإذا كان رسول الله ﷺ، قال في عمه أبي طالب الذي هو شقيق أبيه عبدالله: "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه" كما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.

وجاء فيهما أيضاً عن العباس رضي الله عنه، قيل لرسول الله ﷺ: «ما أغنيت عن عمك أبي طالب، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

والضحضاح بفتح الضاضين المعجمتين، قال ابن الأثير: هو ما رق من الماء على وجه الأرض قدر ما يبلغ الكعبين فاستعير للنار - اهـ.

فهل نقول بموجب هذين الحديثين: إن أبا طالب أحسن حالاً من أبوي النبي ﷺ، من حيث إن النار تبلغ إلى كعبيه بشفاعة النبي ﷺ له يوم القيامة مع أنه مات كافراً، فقد دعاه ﷺ في مرض موته إلى الإسلام فأبى. أما والد النبي ﷺ فقد مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وهو في السادسة من عمره، فكيف نحكم بكفرهما إذاً، والله تعالى أكرم من أن يجعل والدي رسوله المصطفى ﷺ في

النار ، وهو الذي قد خرج من بينهما فأرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وإذا قال الله تعالى له زيادة في إكرامه ورفعة في مقامه: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فمما لا شك فيه أن النبي ﷺ لا يرضى في الآخرة أن يتنعم بنفسه في الجنة وأبواه في النار .

هذا وإن اختلف العلماء في نجاة آبائه ﷺ ، فالقول الأصح السديد أنهم ناجون .

ونحن نرى أن الجدل والخوض في عدم نجاة أبويه ﷺ فيه من المجازفة والمخاطرة ما فيه ، والصمت والسكوت عن ذلك أحسن وأفضل ، وأسلم وأكمل ، تأدباً واحتراماً لمقام النبوة ، بل إن من يقرأ سير آبائه ﷺ في كتب التاريخ بإمعان وتدقيق ، ينكشف له أنهم من أشراف الناس وقاداتهم ، وأنهم أعرف بالله من غيرهم ، وكانوا يتعبدون على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يأمرون بمكارم الأخلاق ، ويتصفون بأفضل الصفات ، كما كانوا يعرفون أنه سيبعث منهم نبي يأمر بالمعروف ويدعو إلى عبادة الله تعالى .

وهذا عبد المطلب جد النبي ﷺ لما جاء أبرهة بفيله ليهدم الكعبة شرفها الله تعالى وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير ، ذهب إليه عبدالمطلب ليأمر برد إبله إليه ، فقال له أبرهة : لقد زهدتُ فيك ، جئتُ لأهدم بيتاً هو دينك ودين آبائك ، فلم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير ؟

فقال عبدالمطلب : أنا رب الإبل ، والبيت له رب يمنعه منك .

فلما رجع عبدالمطلب أمر قريشاً أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال ففعلوا ، ثم أتى عبدالمطلب إلى البيت الحرام وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا　　　يا رب فامنع منهمو حماكا
إن عدو البيت من عاداكا　　　فامنعهمو أن يخربوا قراكا

فانظر أيها القارئ الكريم بعين التحقيق والإنصاف إلى قول عبد المطلب الجد الأول للنبي ﷺ . أليس معرفته بالله واضحة في قوله كالشمس ؟ والنبي ﷺ لم يولد إلا بعد هذه الحادثة بنحو شهرين أو ثلاثة .

ترجمة عبد المطلب جد النبي ﷺ

عبد المطلب هو الجد الأول لرسول الله ﷺ فهو "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم"، فلعبد المطلب مناقب عظيمة ومآثر عديدة لا تنحصر في كتاب، ونحن هنا نأتي بترجمة مختصرة له فنقول:

عبدالمطلب اسمه شيبة الحمد، سمي بذلك؛ لأنه ولد في رأسه الشيب، وإنما سمي عبد المطلب لأن والده هاشم تزوج سلمى بنت عمر بالمدينة في بني عدي بن النجار، فولد له شيبة، فتركه عند أمه حتى صار غلاماً، فلما مات هاشم خرج أخوه "المطلب بن عبد مناف" إليه فأخذه من أمه فاحتمله وأردفه على بعير ودخل مكة فقالت قريش: هذا عبد ابتاعه المطلب فسمي بعد ذلك بعبد المطلب.

كان عبد المطلب جسيماً وسيماً أبيض فصيحاً، ما رآه أحد إلا أحبه، وكان قاضي العرب وسيد قريش وشريفها وحليمها، وكان يعبد الله تعالى على ملة إبراهيم عليه السلام، وكان إذا دخل شهر رمضان يصعد على جبل حراء ويتعبد فيه جميع الشهر، وأطعم المساكين، ولقد كان يحث الناس على مكارم الأخلاق، وقد حرّم الخمر ونكاح المحارم والزنا ووأد البنات وهو دفنهن أحياء، وكان يأمر أولاده بترك البغي والظلم.

وكان يقال له: الفياض؛ لجوده وكرمه، وكان يطعم الناس بالسهل والجبل، ويطعم الوحوش في رؤوس الجبال، وهو الذي حفر بئر زمزم وأخرجه بعد أن درس موضعه وعفى أثره، فهداه الله تعالى إلى مكانه كما تقدم بيان ذلك بالتفصيل في محله، وهو أول من جعل الحلية على الكعبة المشرفة حيث ضرب الأسياف والغزالين من الذهب التي استخرجها من بئر زمزم في الكعبة.

ولعبد المطلب مع أبرهة صاحب الفيل الذي جاء لهدم الكعبة قصة شهيرة، وكان أبرهة قد أصاب أموال قريش وغيرهم، وأخذ مائتي بعير لعبد المطلب، فلما ردها إليه إكراماً لِه انصرف عبد المطلب من عنده إلى قريش، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال، خوفاً عليهم من جيش أبرهة، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله تعالى عز وجل ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب إن المرء يمنـ ـع رحله فامنع رحالك

لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم عدواً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك
ولئن فعلت فإنه أمر يتم به فعالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها . وقال عبد المطلب ستة أبيات ، منها:

نحن أهل الله في بلدته لم يزل ذاك على عهد إبرهم
نعبد الله وفينا شيمة صلة القربى وإيفاء الذمم
إن للبيت لربا مانعاً من يُرده بآثام يصطلم

فلما أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكة وهدم الكعبة ، فمنعه الله عز شأنه وعظمت قدرته من ذلك ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ۞ ترميهم بحجارة من سجيل ۞ فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ .

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وعن أبيه قال : سمعت أبي يقول : كان عبد المطلب أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجها ، ما رآه قط شيء إلا أحبه . وكانت له مفرش في الحِجْر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس معه عليه أحد ، وكان الندي من قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام يدرج ليجلس على المفرش ، فجبذوه فبكى ، فقال عبد المطلب - وذلك بعد ما حجب بصره - ما لابني يبكي ؟

قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .

فقال عبدالمطلب : دعوا ابني فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط .

قال : وتوفي عبد المطلب والنبي ﷺ ابن ثمان سنين ، وكان خلف جنازته يبكي حتى دفن بالحجون . انتهى ، ملخصاً من الأزرقي .

وقد عاش عبد المطلب مائة وأربعين سنة . هذه ترجمة مختصرة لجد النبي ﷺ ، فلو توسعنا في ترجمته لطال بنا الكلام ، فإن كل أجداد رسول الله ﷺ لهم مناقب وميزات خصّهم الله تعالى بها لا توجد في غيرهم ، فكل من ينتمي إليه سعيد شريف .

وانظر أيضاً إلى قول أحد شعراء العرب وهو أبو الصلت الثقفي من أهل الجاهلية ، حيث يقول عن حادثة الفيل:

إن آيات ربنا بينات ... ما يماري فيهن إلا كفور

حبس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور

واضعاً حلقة الجران كما ... قطر صخر من كبكب محدور

وليكن هذا مسك الختام ، فمن لم يقتنع بما ذكرناه فليقل ما شاء ، فكل شاة معلقة برجلها .

جاء في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ما يأتي:

قال صاحب نظم عمود النسب ، مشيراً لمضمن الأحاديث في إسلام آبائه ﷺ ما يأتي:

خير الشعوب شعبه لآدم ... وقرنه خير قرون العالم

من مؤمنين متناكحينا ... خرج لا من متسافحينا

يُنقل من أصلاب طاهرين ... لطاهرات من لدن أبينا

وكيف لا والمشركون نجس ... ومن أذى نبينا مقدس

مِنْ ساجد لساجد تقلبا ... صلى عليه الله ما هب الصبا

وجعل الدين عمود نسبه ... كلمة باقية في عقبه

وفيه ربه له تقبلا ... دعاءه من كل بر سألا

كترك الأصنام وترك الموبقات ... وكل ما يزري بمنصب الثقات

وقال عبدالله حين استعصما ... ممن دعته إذ تبيع الأدما

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فاستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

والعذر بالفترة والإحياء ... فيؤمنوا ورد في الأنباء

ولعن الإله من آذاه ... في هذه الدار وفي أخراه

من عهد نوح ما خلت ذي الأرض ... إسلام سبعة لكيما تطمئن

نبذة يسيرة عن أحوال رسول الله ﷺ

من ولادته إلى وفاته

قدّمنا نسب نبينا "محمد" ﷺ الذي هو أشرف أنساب العالم وأقومها وأكملها بالإجماع ، وهنا نتشرف بذكر نبذة يسيرة عن أحوال رسول ا لله ﷺ منذ أن أشرقت الدنيا بولادته إلى أن ذهب إلى جوار ربه الكريم العلي الأعلى ، وكما قلنا سابقاً لا نريد الإطالة في ذلك ، فالسيرة النبوية العطرة مشهورة معروفة ، ولكننا نأتي بجملة مختصرة مفيدة تبصرةً للمبتدئ ، وتذكرة للقارئ فنقول وبا لله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم :

وفاة والده ﷺ

لما دخل عبدا لله بن عبد المطلب على زوجته آمنة بنت وهب ، حملت برسول ا لله ﷺ ، ثم توفي عبدا لله بعد الحمل بشهرين ، ودفن بالمدينة المنورة عند أخواله بني عدي بن النجار ، حيث كان قد ذهب بتجارة إلى الشام ، فلما رجع أدركته منيته بالمدينة .

تاريخ ولادته ﷺ

ولما تم حمله ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر قمرية ، جاءها المخاض ، فوضعته ﷺ في ثاني عشر ربيع الأول على المشهور ، وذلك عام الفيل .

جاء في كتاب نور اليقين أن محمود باشا الفلكي حقق ذلك فكان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من إبريل سنة (٥٧١) إحدى وسبعين وخمسمائة من الميلاد - وا لله تعالى أعلم .

وفي تاريخ الخميس تفصيل تام عن تاريخ ولادته ﷺ .

كانت ولادته ﷺ بمكة في دار أبي طالب بشعب بني هاشم ، وكانت قابلته الشفاء أم عبدالرحمن ابن عوف رضي ا لله عنه ، ولما ولدته أمه أرسلت لجده عبد المطلب تبشره بولادته ، فأقبل عبد المطلب مسروراً ، وأخذه ودخل به إلى الكعبة ، وقام يدعو ا لله تعالى ويشكره على ما أعطاه ، وسماه "محمد" .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أَمَ أبيه عبدالله ، وأول من أرضعته ثُوَيْبَة أَمَةُ عمّه أبي لهب .

وقد رأت أمه الكريمة الشريفة السعيدة به ﷺ كثيراً من البشائر وخوارق العادات خلال حمله ، وعند ولادته عليه الصلاة والسلام ، مذكورة في تاريخ الخميس ، وكل ذلك جائز غير مستغرب على من تشرّف الكون بوجوده ، وأشرقت الدنيا بنور وجهه ، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وجعله خاتم النبيين ، والذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهداهم إلى الطريق المستقيم بإذن ربه - صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

وإن شاء الله تعالى سيأتي في نهاية هذه الترجمة الشريفة مبحثان (الأول) في تحقيق ميلاده ﷺ ، (والثاني) مقالة أدبية ممتازة عن ولادته عليه الصلاة والسلام .

نجاة عبدالله أب النبي ﷺ من الذبح

لقد ذكرنا قصة عبد المطلب وإخراجه ماء زمزم بالتفصيل ، وهنا نذكرها موجزة مختصرة لنعرّج على ذكر عبدالله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ فنقول : كان عبد المطلب نذر لله تعالى حين أُمِرَ بحفر بئر زمزم في المنام ، لئن حفرها وتم له أمرها وصار له من الأولاد الذكور عشرة لينحرن أحدهم لله عز وجل ، فبلّغه الله تعالى مراده ، فأعطاه عشرة من الأولاد الذكور ، ووفقه لحفر زمزم وإخراج الماء لسقاية الناس .

فعندئذ أراد عبد المطلب أن يوفي بنذره ، فأقرع بين أولاده أيهم يذبح ، فخرجت القرعة على أحب أولاده إليه وهو عبدالله والد النبي ﷺ ، وكان عمره حينئذ نحو خمس وعشرين سنة ، فقام إليه ليذبحه ، فقام له أخواله بنو مخزوم وعظماء قريش وأهل الرأي منهم ، وقالوا له : والله لا تذبحه ، فإنك إن تفعل تكن سنة علينا في أولادنا وسنة علينا في العرب ، وقامت بنوه مع قريش في ذلك .

ثم قالت له قريش : إن بالحجاز عرافة لها تابع فسلها ، ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوا المرأة فيها يقال لها تخيبر ، فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره ، فقالت : ارجع اليوم عني حتى يأتيني تابعي

فأسأله . فرجعوا عنها حتى كان الغد ، ثم غدوا عليها ، فقالت : نعم قد جاءني الخبر كم الدية فيكم ، قالوا : عشر من الإبل ، قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعلى صاحبكم بالقداح ، فإن خرجت على الإبل فانحروها ، وإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشراً ، ثم اضربوا بالقداح عليها وعلى صاحبكم حتى يرضى ربكم ، فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم .

فرجعوا إلى مكة ، فأقرع عبدالمطلب على ابنه عبدالله وعلى عشر من الإبل ، فخرجت القرعة على عبدالله ، فقالت قريش لعبد المطلب: يا عبد المطلب زد ربك حتى يرضى ، فلم يزل يزيد عشراً عشراً وتخرج القرعة على عبدالله ، وتقول قريش : زد ربك حتى يرضى ، ففعل حتى بلغ مائة من الإبل . فخرجت القداح على الإبل ، فقالت قريش لعبد المطلب : انحرها فقد رضي ربك وقرعت ، فقال : لم أنصف إذاً ربي حتى تخرج القرعة على الإبل ثلاثاً . فأقرع عبدالمطلب على ابنه عبدالله وعلى المائة من الإبل ثلاثاً ، كل ذلك تخرج القرعة على الإبل .

فلما خرجت ثلاث مرات نحر الإبل في بطون الأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال ، لم يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً ، وتجلبت لها الأعراب من حول مكة وأغارت السباع على بقايا بقيت منها ، فكان ذلك أول ما كانت الدية مائة من الإبل ، ثم جاء الله بالإسلام فثبتت الدية عليه .

ولما انصرف عبد المطلب ذلك اليوم إلى منزله ، مر بوهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وهو جالس في المسجد ، وهو يومئذ من أشراف أهل مكة ، فزوج ابنته آمنة لعبدالله بن عبد المطلب – اهـ . باختصار من تاريخ الأزرقي .

فعلم مما تقدم أن عبدالله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ يسمى ذبيحاً ، وأن أحد ابني إبراهيم الخليل إسماعيل أو إسحاق يسمى ذبيحاً أيضاً على جميعهم الصلاة والسلام ، وإن لم يحصل لهما ذبح حقيقي لوقوع الفداء لهذا ولذاك ، ومن هنا قال نبينا "محمد" ﷺ : «أنا ابن الذبيحين» .

وعلم مما تقدم أيضاً : أن عدد أعمام رسول الله ﷺ عشرة ، وقيل اثنا عشر على افتراض أنه ولد لعبد المطلب اثنان بعد قصة النذر وهم : الحارث وهو أكبرهم ، والزبير ، وأبو طالب ، وأبو لهب ، وحمزة ، والعباس ، والغيداق ،

والمقوم ، وضرار ، وقثم ، وحجل واسمه المغيرة ، وعبدا لله وهذا لا يحسب من أعمام النبي ﷺ ولكنه أبوه وأخو أعمامه .

وعدد عماته ست وهن : عاتكة ، وأروى ، وصفية ، وأميمة ، وبرّة ، والبيضاء ، وهي أم حكيم .

ولم يدرك الإسلام من الذكور إلا أربعة : حمزة والعباس وقد أسلما . وأبو طالب ، وأبو لهب ، ولم يسلما ، ولم تسلم من الإناث إلا صفية وعاتكة وأروى .

ولم يكن لرسول الله ﷺ خال ولا خالة ، لأن أمه آمنة بنت وهب لم يكن لها أخ ولا أخت ، وإنما بنو زهرة يقولون نحن أخواله ، لأن أمه آمنة منهم - وكذلك لم يكن لرسول الله ﷺ أخ ولا أخت شقيق من أبيه وأمه ، حيث لم يولد لهما ولد غيره ، فأبوه عبدا لله مات وهو جنين في بطن أمه ، وماتت أمه وهو في السادسة من عمره - لكن له ﷺ ذلك من الرضاعة ، فإخوته من مرضعته حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها هم : عبدا لله ، وأنيسة ، وحذافة ، وتعرف بالشيماء ، وكلهم من زوج حليمة السعدية الحارث بن العزى - وكذلك له ﷺ إخوة من مرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب ، وهم ابنها مسروح ، وحمزة بن عبد المطلب ، وأبا سلمة بن عبد الأسد ، فيكون حمزة رضى الله تعالى عنه عمه ﷺ وأخاه من الرضاعة ، ويكون أبو سلمة أخاه من الرضاعة وابن عمته برّة بنت عبد المطلب ، وهو مشهور بكنيته أكثر من اسمه ، واسمه عبدا لله بن عبد الأسد ، وكان رضى الله تعالى عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام - أما مسروح بن ثويبة فقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى عنه في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة": لم أقف على شيء من الطرق على إسلام ابنها مسروح وهو محتمل - اهـ .

تزوج عبد الله بن عبد المطلب

تقدم أن عبد المطلب كاد أن يذبح ولده الحبيب "عبدا لله" وفاء بنذره ، لولا أن الله تعالى أنقذه من هذه المحنة بخروج القرعة على المائة الإبل ، فنحرها وتصدق بلحومها ، وشكر الله تعالى على هذه المنة ، فكان طبيعياً أن يعوض على ابنه "عبدا لله" عقب هذا البلاء العظيم بفرح عظيم وسرور شامل عميم ، ألا وهو تزويجه لتقرّ عينه وعين أسرته وقومه .

فخطب عبد المطلب لابنه عبدا لله "آمنة بنت وهب" فرضي أبوهـا وهـب بـن عبد مناف وزوّجه إياها برغبة وقبول ، وقال : لـن يستقيم لابنـتي آمنـة زوج غـير عبدا لله بن عبد المطلب ، وقد كان خطبها أشراف قريش فكانت آمنة تـأبى ذلـك وتقول : يا أبت لم يأن لي الـتزويج ، حتـى صـارت مـن نصيـب عبـدا لله بـن عبـد المطلب ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ .

قالوا : وكان عمر عبدا لله حينئذ خمساً وعشرين سنة وقيل ثلاثين سنة ، ونحن نميـل إلى القـول الأول ، لأن عـادة العـرب في الغـالب الـتزوج في سـن الخامسـة والعشرين أو قبله ، ولأن النبي ﷺ تزوج لأول مرة خديجة بنت خويلد رضـي ا لله تعالى عنها وهو في الخامسة والعشرين ، فلا يبعد أن يكون توافقهما في السن حـين زواجهمـا قـدراً مقـدوراً -وا لله تعـالى أعلـم- هـذا و لم يذكـروا عمـر آمنـة حـين زواجها ، ولا شك أنها أصغر من زوجها عبدا لله ، والذي نراه أنها كانت في سـن الاستواء والنضوج ، أي كانت في الخامسة عشر مـن عمرهـا أو في الثامنـة عشر . وا لله تعالى أعلم .

وكان والد عبدا لله عبد المطلـب سيد قريـش وشـريفها وحليمهـا وجوادهـا ، كما كان والد آمنة وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة نسباً وشـرفاً . وبنـو زهـرة قبيلة من قريش تنسب لزهرة بن كلاب وهو أخ قصـي بـن كـلاب -فرسـول ا لله ﷺ يجتمع نسب أبيه وأمه في كلاب .

فنسبه ﷺ من جهة أمه كما يأتي : محمد بن آمنة بنت وهب بـن عبـد منـاف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب .

وأمـا نسـبه ﷺ مـن جهـة أبيـه فهـو كمـا يـأتي : محمـد بـن عبـدا لله ، بـن عبدالمطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بـن قصـي ، بـن كـلاب ، بـن مـرّة ، بـن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهـر ، بـن مـالك ، بـن النضـر ، بـن كنانـة ، بـن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار "بالزاي" بن معد بـن عدنـان - وهذا هو النسب الصحيح المتفق عليه عند علماء الحديث وأهل التـاريخ ومـا فـوق ذلك مختلف فيه ، مع إجماعهم على أن نسـب رسـول ا لله ﷺ ينتهـي إلى إسمـاعيل بن خليل ا لله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فإن إسماعيل عليه السلام أبو العرب المستعربة .

موت عبد الله بن عبد المطلب أب النبي ﷺ

فلما تزوج عبدا لله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب وبنى بها حملت برسول ا لله ، ثم لم يلبث عبدا لله بعد الحمل بنحو شهرين على أرجح الأقوال أن سافر مع رفقة من مكة إلى المدينة للتجارة يمتار تمراً وليزور أخواله بني عدي بن النجار ، سافر وحده وترك زوجته آمنة ؛ لئلا يشق عليها السفر بالجمال وهي حامل .

وصل عبدا لله إلى المدينة فنزل عند أخواله ، ثم مرض لديهم شهراً ، فرجع رفقاؤه إلى مكة وأخبروا أباه عبدالمطلب بمرضه ، فبعث إليه ولده الحارث أو الزبير ، فوجده قد مات بالمدينة ودفنه أخواله في دار من دورهم ، وهي دار النابغة وما زال قبره بالمدينة معروفاً إلى اليوم .

فرجع الحارث وهو أكبر أولاد عبد المطلب فأخبر أباه بموت عبدا لله ، فحزن عليه عبد المطلب حزناً شديداً ؛ لأنه أحب أولاده إليه وعريس جديد ، كما حزنت عليه زوجته آمنة بنت وهب أشد الحزن ؛ لأنها عروس حامل لم تتمتع بزوجها إلا قليلاً .

مات عبدا لله سريعاً غريباً في دار الهجرة وهو في عنفوان شبابه ، مات وابنه "محمد" ﷺ جنين في بطن أمه ، ليخرج ابنه الذي سيكون خاتم النبيين والذي سيرسله ا لله تعالى رحمة للعالمين ، إلى الدنيا يتيماً كما اقتضته الحكمة الإلهية – فما أبلغها من حكمة وما أدق أسرارها – أنه ما رأى والده وما رآه والده ، فقد مات وهو في بطن أمه بعد زواجه بها بشهرين ، كما أن هذا اليتيم الكريم ، عليه الصلاة والتسليم ، لم يتمتع كثيراً بمعاشرة أمه الحبيبة ، فقد نشأ منذ رضاعته في البادية عند مرضعته حليمة السعدية رضي ا لله تعالى عنها حتى بلغ الخامسة ، ثم سلمته لأمه آمنة بنت وهب ، فمكث معها عاماً واحداً ، وإذا المنية تدركها فتلحق بزوجها وتموت في الأبواء ، وهي في ريعان شبابها وزهرة جمالها كما سيأتي بيان ذلك ، فيبقى هذا اليتيم الكريم الذي أصبح فيما بعد ، رائد الأيتام ورسول الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، وحيداً فريداً من غير أب ولا أم ، ولا أخ ولا أخت ، ولا خال ولا خالة ، وعمره ست سنوات تماماً ، فكان وحيد أبويه اللذين لم يتزوجا إلا مرة واحدة فقط .

لقد صار هذا اليتيم الكريم الحبيب وحيداً فريداً ، حتى يكون في كنف الله عز وجل وفي حفظه ورعايته ، ولينزل عليه بعد بعثته: ﴿ألم يجدك يتيماً فئاوى﴾ فالمنة والفضل والإحسان كلها لله عز وجل ، فلقد قيَّض الله تبارك وتعالى بعظيم لطفه ورحمته جده عبدالمطلب ، وهو عظيم قومه وسيد قريش ، ليتولى كفالته وتربيته ، فكفله جده عبد المطلب منذ وفاة أمه آمنة ، وهو في أول السابعة من عمره الشريف ، كفالة تامة ، ورعاه رعاية بالغة حتى مات ، ثم خلفه في الكفالة عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبدالمطلب ، لأن أبا طالب وعبدالله أب النبي ﷺ كانا من أم واحدة وهي فاطمة بنت عمرو ، فبذل أبو طالب في رعايته وتربيته كل جهده فكان يحبه أكثر من أولاده كما سيأتي بيان كل ذلك .

ولادة النبي ﷺ

قلنا فيما تقدم أن عبدالله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ ، بعد أن تزوج بآمنة بنت وهب أم النبي عليه الصلاة والسلام بنحو شهرين ، مات بالمدينة المنورة وابنه "محمد" ﷺ جنين في بطن أمه ، وكلاهما كانا وقتئذ بمكة المكرمة ، حزنت آمنة عاملها الله تعالى بفضله ورحمته وإحسانه ومنته ، على زوجها الحبيب حزناً شديداً ، لكنها تذرعت بصبر جميل يليق بمكانتها السامية ، صبرت على القضاء والقدر فعوّضها الله تعالى بولد كالقمر .

مكثت آمنة في دارها بمكة صابرة مستسلمة حتى أتمت مدة الحمل وهي تسعة أشهر ، فوضعت ابنها "محمداً" ﷺ في أبرك الساعات والأيام ، وهو يوم الاثنين عند طلوع الفجر ، وقيل في أول النهار أي بعد طلوع الشمس ، من عام الفيل باتفاق العلماء ، ولم تجد آمنة في حمله ووضعه ﷺ ألماً ولا تعباً ولا مشقة كما تجده النساء ؛ لأن "محمداً" رسول الله ، فهو خفيف لطيف ليس فيه غلظة ولا كثافة مثلنا ، وإن كان من لحم ودم ، إنه بشر لا كالبشر فهو كالياقوت بين الحجر ، إنه نبي حبيب نوراني مبارك ، إنه كريم على الله تعالى منذ الأزل ، فلا بد أن تصاحبه الأسرار والبركات منذ حمله وولادته ، بل منذ تنقله في الأصلاب ، وترافقه البشائر والخيرات والخوارق والمعجزات من طفولته إلى بعثته إلى مماته ، فلو أراد أحد حصر فضائله وشمائله ومعجزاته "قضى ولم يقض من إحصائها وطرا" إنه ﷺ ، نبي

الرحمة ونبي الهدى، ووجه الخيرات وفيض البركات، ورضي الله تعالى عن عبدالله بن رواحة حيث يقول في رسول الله ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك عن خطر

اللهم صل على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي الصفوة روي عن يزيد بن عبدالله ابن وهب بن زمعة عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنة لما حملت برسول ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت ولا وجدت له ثقلاً ولا وحماً كما تجد النساء، إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت وأنا بين النوم واليقظة – أو قالت بين النائمة واليقظانة، فقال: هل شعرت بأنك حملت، فكأني أقول: ما أدري، قال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها.

كذا ذكر ابن إسحاق في كتاب المغازي -وفي روايته بسيد الأنام- قالت: وذلك يوم الاثنين فكان ذلك مما يَقّنَ أو حقق عندي الحمل، ثم أمهلني حتى إذا دنا وقت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعيذه بالصمد الواحد، من شر كل حاسد -وفي المواهب اللدنية بغير لفظ الصمد- ثم سميه "محمداً" قالت: فكنت أقول ذلك.

وجاء فيه أيضاً: ومن حوادث ليلة مولده ﷺ: ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب، ومنع الشياطين من استراق السمع، وانشقاق إيوان كسرى وبقائه إلى القرن الثامن الهجري، وخمود نار فارس مع أنها لم تخمد قبل ذلك بألف سنة، وغاضت بحيرة ساوة وهي بين الري وهمذان وكانت أكثر من ستة فراسخ في الطول والعرض تعبر فيها السفن، فلما يبست هذه البحيرة بنيت موضعها مدينة ساوة المعروفة اليوم – ورحم الله القائل:

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت بشرى الهواتف في الإشراق والطفل

وصرح كسرى تداعى من قواعده وانقض منكسر الأرجاء ذا ميل

ونار فارس لم توقد وما خمدت مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل

خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل

انتهى من تاريخ الخميس ملخصاً.

قال الشيخ الخضري رحمه الله تعالى في كتابه "نور اليقين" : إن المرحوم محمود باشا الفلكي قد حقق تاريخ ولادة النبي ﷺ فقال : إن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول لليوم العشرين من شهر إبريل سنة (٥٧١) من الميلاد خمسمائة وإحدى وسبعين ، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل - اهـ كلامه .

محل ولادته ﷺ وتسميته يوم السابع

كانت ولادة النبي ﷺ بمكة في دار أبي طالب ، بشعب بني هاشم ، بقرب المسجد الحرام ويسمى الآن بشعب علي أي علي بن أبي طالب ، ولا زال محل ولادته ﷺ معروفاً إلى اليوم .

وكانت قابلته الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف ، جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وأخرج أبو نعيم ، عن عبد الرحمن بن عوف ، عن أمه الشفاء قالت : لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي ، فاستهل ، فسمعت قائلاً يقول : رحمك الله ، وأضاءت لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم . قالت : ثم ألبنته وأضجعته ، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة ، ثم غيب عني ، فسمعت قائلاً يقول : أين ذهبت به ؟ قال : إلى المشرق . قالت : فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعثه الله فكنت أول الناس إسلاماً ، ذكره في المواهب اللدنية - اهـ .

ثم بعد الولادة أرسلت آمنة أم النبي ﷺ لجده عبد المطلب ، وهو جالس في الحجر عند البيت الحرام ومعه رجال من قومه تبشره ، فأقبل إليها مسروراً ، ثم أخذه منها فأدخله الكعبة المعظمة وصار يدعو الله تعالى ويشكره على ما أعطاه ووهبه ، وهو يقول :

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان ... أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البيان ... أعيذه من شر ذي شنآن
من حاسد مضطرب العينان

ثم إن عبدالمطلب في يوم سابعه نحر جزوراً ودعي رجالاً من قريش فحضروا وطعموا، ثم سماه "محمدا" ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب يومئذ، ولكن شاء الله تعالى أن يلهم عبد المطلب هذا الاسم ليقع الأمر كما قضاه في الأزل، ولقد سألته قريش لم سميته "محمداً" ورغبت عن أسماء آبائك؟ فقال عبد المطلب: أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه.

ثم إن ثويبة جارية أبي لهب لما بشرته بأن آمنة بنت وهب قد ولدت "محمداً" ﷺ، أعتقها من شدة سروره كما في المواهب اللدنية، وهذا يدل على كثرة حب أبي لهب لأخيه عبدالله أب النبي ﷺ، ثم بعد أيام من ولادته ﷺ، أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وفي بعض الروايات أن أبا لهب أعتق ثويبة بعد الهجرة، ونحن نرجح الرواية الأولى حتى يكون رسول الله ﷺ، قد رضع من حرة لا من جارية - والله تعالى أعلم.

أحبَّ عبدالمطلب "محمداً" ﷺ لأمرين:

(الأمر الأول): أنه ولد ابنه الحبيب عبدالله الذي مات عقب زواجه بنحو شهرين وهو في عنفوان شبابه، وللحفيد رتبة ومنزلة بالغة في قلب جده خصوصاً إذا كان يتيماً.

(والأمر الثاني): لقد رأى في هذا الطفل المبارك آثار النور المعنوي، وعلامات الفلاح والصلاح، والهداية والنجابة، والنبوغ والكمال، علاوة على ما سمعه من أمه ما رأته من عجائب الأمور حين الولادة، فهو وليد فريد لا يشبه المواليد في أحواله وأطواره، وفي الحقيقة أن الله تبارك وتعالى قد ألقى محبة نبيه الكريم في قلب جده وأقاربه وجميع من رآه من من طفولته إلى حين وفاته، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ولقد بلغ من محبة عبدالمطلب لحفيده الكريم "محمد" ﷺ عندما كبر قليلاً، أنه كان يجلسه على فراشه مع أنه ما كان يجلس معه أحد عليه؛ لعظم مكانته عند قريش كما ذكرنا من قبل.

وعندما بلغ عمره ﷺ ثماني سنوات توفي جده عبدالمطلب، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه، فكان يحبه حباً جماً ويبالغ في إكرامه، ويقدمه على أولاده، وعندما بعثه الله تعالى وجهر بالدعوة كان عمه أبو طالب يحميه من قومه المشركين إلى أن مات.

رضاعته ﷺ ومرضعاته

لما ولدت آمنة الكريمة ابنها العزيز "محمداً" ﷺ ، أرضعته ثلاثة أيام وقيل سبعة أيام ، ثم أرضعته ثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب أياماً ، ثم قدمت حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب عبدا لله بن الحارث من البادية إلى مكة في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء ، فكان "محمداً" ذلك الطفل المبارك المنور الأغر الذي صار فيما بعد نبي آخر الزمان وخاتم النبيين صلوات ا لله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، من نصيب حليمة السعدية السعيدة رضي ا لله تعالى عنها ، فأخذته ، ورحلت به إلى قومها في البادية بجهة الطائف ليكمل رضاعته عندهم ، فمكث الحبيب "محمد" ﷺ في البادية عند حليمة رضي ا لله تعالى عنها خمس سنين ، ثم ردته إلى أمه آمنة بنت وهب وقد أكمل رضاعته واشتد عوده ﷺ كما سيأتي بيان ذلك بالتفصيل ، ولا بد أن حليمة كانت تأتي به ﷺ إلى مكة في بعض الأحيان لزيارة أمه آمنة بنت وهب ، حتى يطمئن قلبها وتتمتع برؤيته ، ثم ترجع به بعد أيام إلى منزلها – فلقد كانت عادة عظماء قريش وأشرافهم في ذلك العصر ، أن يدفعوا أولادهم بعد الولادة إلى المراضع القاطنين في البادية ، ليتموا رضاعتهم هنالك ولينشأوا نشأة عربية خالصة ، فإن للبادية تأثيراً عظيماً في التربية الجسمانية لطيب الهواء وعذوبة الماء وجودة الغذاء ، كما أن لها تأثيراً أعظم في الفصاحة والبلاغة ، والجود والكرم ، والشهامة والشجاعة ، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وجوامع الشرف –وما زال العرب الذين لم يختلطوا بمعاشرة أهل المدن ، يحبون عيشة البادية إلى عصرنا الحاضر ، فإنهم يحبون الزراعة وتربية المواشي ، وغالب قوتهم على الدوام التمر واللحم واللبن ، بل إنهم يعتمدون في معيشتهم على التمر واللبن صباحاً ومساءً ، والميسورون منهم يصنعون الخبز من دقيق الدخن والذرة والحنطة ، ويطبخون الأرز باللحم والسمن ويحبون العسل جداً ، ولا يأكلون الخضار إلا نادراً– والحق يقال أن عيشة البادية بين الرمال والجبال جميلة منعشة نافعة صحية مدهشة ، لكن كما يقال : "لكل امرئ من دهره ما تعودا" .

هذا وكانت أم أيمن بركة الحبشية حاضنته ﷺ حتى كبر ، وأم أيمن كانت أمة أبيه عبدا لله بن عبدالمطلب ، فلما مات ورثتها أم النبي ﷺ ، فلما ماتت أمه صارت

لرسول الله ﷺ، فكان يقول عنها: "أم أيمن أمي بعد أمي". ثم أعتقها وقد أسلمت وزوَّجها لزيد بن حارثة.

وأول من أرضع النبي ﷺ، ثويبة أمة عمه أبي لهب فقد أرضعته مع ابنها مسروح أياماً قبل قدوم حليمة السعدية، وكان رسول الله ﷺ يكرمها، وكانت تدخل على النبي ﷺ بعدما تزوج خديجة فكانت خديجة تكرمها، ثم بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة أعتقها أبو لهب، فكان النبي ﷺ يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر، ولم يصرح أحد من العلماء بإسلامها ولا يبعد أن تكون أسلمت والله تعالى أعلم.

قال أبو نعيم: اختلف في إسلامها، وفي تاريخ الخميس وفي سيرة مغلطاي قال أبو نعيم: لا أعلم أحداً أثبت إسلامها غير ابن مندة - اهـ.

وكان من عادة العرب أن يطلبوا المراضع لمواليدهم في البوادي حتى يكون الولد فصيحاً نجيباً وشهماً كريماً وشجاعاً بطلاً، لذلك كانت نساء البوادي يأتين مكة في فترات وأوقات مختلفة، فجاءت إلى مكة بعد مولد النبي ﷺ من جهة الطائف نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن يطلبن المواليد ليرضعنهم، وكان من بينهن حليمة بنت أبي ذؤيب زوجة أبي كبشة الحارث بن عبد العزى السعدي، فكان "محمد" هذا المولود المبارك الميمون ﷺ من نصيبها، فسعدت به هي وزوجها وأولادها وأهل بلدتها. قال الشاعر:

لقد بلغت بالهاشمي حليمة مقاماً علا في ذروة العز والمجد
وزادت مواشيها وأخصب ربعها وقد عم هذا السعد كل بني سعد

قصة رضاعة حليمة السعدية له ﷺ

ولنذكر قصة حليمة السعدية في أخذها رسول الله ﷺ لرضاعته، فقد جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وفي المواهب اللدنية قالت حليمة فيما رواه ابن إسحاق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي ومعي صبي لي وشارف لنا، والله ما تبض بقطرة لبن وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل يتيم، فوالله ما بقي من

صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري فلم أجد غيره ، قلت لزوجي : وا لله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، فذهبت فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن يفوح منه رائحة المسك ، وتحته حريرة خضراء وهو راقد على قفاه يغط ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فدنوت منه رويداً فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً ، وفتح عينيه ينظر إليّ فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر إليه ، فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من اللبن ، فحولته إلى الأيسر فأبى وكانت بعد عادته ، ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلي فقام صاحبي ، تعني زوجها ، إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا وبتنا بخير ليلة ، فقال صاحبي ، يا حليمة وا لله إني لأراك أخذت نسمة مباركة ، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه فلم يزل ا لله يزيدنا خيراً .

وفيه أيضاً قالت حليمة : فودعت النساء بعضهن بعضاً وودعت أنا أم النبي ﷺ ، ثم ركبت أتاني وأخذت محمداً ﷺ بين يدي ، قالت : فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معي ، وصار الناس يتعجبون مني وتقول النساء لي وهن ورائي : يا بنت أبي ذؤيب أهذه أتانكِ التي كنت عليها وأنت جائية معنا تخفضك طوراً وترفعك أخرى ، فأقول : تا لله إنها هي ، فيتعجبن منها ويقلن: إن لها لشأناً عظيماً .

وفيه أيضاً قالت حليمة : ثم قدمنا منازل بني سعد ولا أعلم أرضاً من أرض ا لله أجدب منها ، فكانت غنيمتي تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاتهم : ويلكم ما بال أغنام حليمة تحمل وتحلب وأغنامنا لا تحمل ولا تضع ولا تأتي بخير ، اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبنا ، حتى إننا نتفضل على قومنا وكانوا يعيشون على أكتافنا .

وفيه أيضاً : وفي المواهب اللدنية أخرج البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول ا لله ﷺ تكلم فقال : ا لله

أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً . وفي المواهب اللدنية : فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم . وفي المنتقى : وكان أخواه من الرضاعة يخرجان فيمران بالغلمان فيلعبان معهم ، فإذا رأهم محمد ﷺ اجتنبهم وأخذ بيد أخويه وقال لهما : إنا لم نخلق لهذا . وفي كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" أن الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت النبي ﷺ من الرضاعة وتسمى أيضاً حذافة ، كانت تحضن النبي ﷺ مع أمها وتوركه ، وكانت ترقصه وهو صغير وتقول:

يا ربنا أبق لنا "محمدا"   حتى نراه يافعاً وأمردا

ثم نراه سيداً مسودا   واكبت أعاديه معاً والحسّدا

وأعطه عزاً يدوم أبدا

وتقول الشيماء أيضاً حينما ترقصه ﷺ :

هذا أخي لم تلده أمي   ولي من نسل أبي وعمي

فديته من مخول معم   فانمه اللهم فيما تنمي

انتهى منه باختصار ، ولقد جعله الله تعالى بفضله وكرمه سيد الناس بل سيد الكونين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وفي تاريخ الخميس أيضاً : وفي المواهب اللدنية وقد روى ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال : كانت حليمة لا تدع "محمداً" ﷺ يذهب مكاناً بعيداً ، فغفلت عنه مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم ، فخرجت حليمة تطلبه حتى وجدته مع أخته ، فقالت : تخرجين به في هذا الحر ، فقالت أخته : يا أمّه ما وجد أخي حراً ، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع ، وكان ﷺ يشب شباباً لا يشبه الغلمان حتى كان غلاماً جفراً في سنتين .

قصة شق صدره ﷺ

وفي السنة الثالثة من مولده ﷺ وقع شق الصدر ، قالت حليمة : فلما مضت سنتاه وفصلته قدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بركته ، وكلمنا أمه وقلنا لو تركتيه عندنا حتى يغلظ فإنا نخشى عليه وباء مكة ، ولم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به ، فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة

خرج مع أخيه من الرضاعة لفي بهم لنا وقد بعدا قدر غلوة سهم خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد في عدوه فقال : ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال : أي بني ، ما شأنك ، قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني ، فشقا بطني ، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ، ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا . فقال أبوه : يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب ، فانطلقي نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف .

قالت حليمة : فاحتملناه ، حتى قدمنا به إلى أمه ، فقالت: ما ردكما به ، فقد كنتما حريصين عليه ، قلنا: نخشى عليه الإتلاف والأحداث .

فقالت: ماذا بكما فاصدقاني ما شأنكما ، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره .

فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ، كلا وا لله ما للشيطان عليه سبيل ، وإنه لكائن لابني هذا شأن فدعاه عنكما .

وفي رواية قالت حليمة : فخرجت أنا وأبوه ونسوة من الحي فإذا أنا به ﷺ قائماً ينظر إلى السماء كأن الشمس تطلع من وجهه ، فالتزمه أبوه وا لله لكأنما غمس في المسك غمسة ، وقال له أبوه : يا بني ما لك؟ قال : خير يا أبت ، أتاني رجلان انقضا علي من السماء كما ينقض الطائر ، فأضجعاني وشقا بطني وحشوا بشيء كان معهما ، ما رأيت ألين منه ولا أطيب ريحاً ، ومسحا على بطني فعدت كما كنت (وقد جاءت هذه القصة بروايات عديدة والمعنى واحد) فنكتفي بما تقدم – انتهى جميع ذلك من الجزء الأول من تاريخ الخميس .

واعلم بأن أمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية قد أسلمت ، وأسلم كذلك أبوه من الرضاعة الحارث بن عبدالعزي ويكنى أبا ذؤيب ويعرف بأبي كبشة .

(واعلم) بأن شق صدره ﷺ بواسطة الملائكة الكرام ، عليهم السلام ، قد وقع أربع مرات (١) عندما كان عمره عليه الصلاة والسلام نحو ثلاث سنين ، (٢) عندما كان عمره عشر سنين ، (٣) عند أول البعثة ، (٤) في ليلة الإسراء .

وقد أشار بعض العلماء إلى الثلاث المرات بقوله :

وشق صدر أشرف الأنام ... وهو ابن عامين وسدس عام
وشق للبعث وللإسراء ... أيضاً كما قد جاء في الأنباء

ونحن زدنا عليهما هذه الأبيات :

وشـق أيضـاً صـدره للرابعـة   وهو ابن عشر فاحتفظ يا سامعه
ولـم يقـع عليـه سـوء وألم   بل قام في الحال سليماً ما انثلم
ومـن تكـن عنايـة الله بـه   فـأمره متصـل بربـه
وقـد تـولى الشـق جـبرائيل   ذاك الأمـين الطـاهر الخليـل

إن شق صدر رسول الله ﷺ يشبه ما نسميه اليوم بالعملية الجراحية لكن مع الفارق العظيم، فالعمليات التي تجري بيننا اليوم في المستشفيات هي بواسطة أطباء البشر والتبنيج والآلات والسكاكين الجراحية وأدواتها، وقد تنجح العملية وقد لا تنجح، وهذا أمر موكول إلى الله عز وجل ثم إلى مهارة الأطباء، أما شق صدره ﷺ فقد حصل بإرادة الله تبارك وتعالى، وبواسطة جبريل الأمين عليه السلام الذي صار فيما بعد خليله وصاحب وحيه - إنها عملية جراحية حسية ومعنوية معاً، بدون ألم ولا وجع ولا خوف ولا وجل، إنها عملية ملائكية نورانية غسلوا قلبه ﷺ بماء زمزم في طست من ذهب، وملؤه إيماناً وحكمة ورأفة ورحمة ثم أعادوه كما كان، فكانت هذه العملية الملائكية في خلاء وفضاء بغتة بلا تبنيج، لم يشعر صاحبها عليه الصلاة والسلام بألم ولا خوف، فكان الشق والغسل والشفاء والسلامة والقيام منها في لحظة واحدة، ومن يقدر أن يمس بمبضعه رسول رب العالمين إلا ملك رسول أمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، هذه حادثة شق الصدر الشريف.

موت أمه ﷺ بالأبواء

لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين على أرجح الأقوال، خرجت به أمه آمنة بنت وهب من مكة إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، ولتقف على قبر زوجها الحبيب عبدالله بن عبدالمطلب الذي مات بالمدينة وابنه "محمد" ﷺ لم يولد بعد، مات بعد زواجه بآمنة بشهرين وبعد حملها كما تقدم بيانه، لذلك لم يكن "لمحمد" ﷺ أخ ولا أخت شقيق من أبيه وأمه حيث لم يولد لهما ولد غيره، وأيضاً لم يكن له ﷺ، خال ولا خالة، ولكن كان له أعمام وإخوة من الرضاعة وقد بينا أسماءهم في أول المبحث بالتفصيل.

خرجت آمنة بنت وهب مع ابنها "محمد" ﷺ من مكة إلى المدينة وعمره ست سنوات لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار ليعرفوه ويعرفهم، ولتقف على قبر زوجها الحبيب عبدا لله بن عبدالمطلب الذي مات بالمدينة قبل أن يولد ابنه "محمد" ﷺ، وأخذت آمنة معها أيضاً أمتها أم أيمن بركة الحبشية حاضنة النبي ﷺ لتخدمهما في السفر، قالوا: وكان معها عبدالمطلب أو أبو طالب، ونحن نرجح أن الذي خرج معها أبو طالب؛ لأن عبدالمطلب كان قد حجب بصره وكبرت سنه حتى تجاوزت المائة، ومات ومحمد ﷺ عمره ثمان سنين -وا لله تعالى أعلم- فوصلت آمنة إلى المدينة فنزلت في دار النابغة وهو رجل من بني عدي ابن النجار، وكان قبر زوجها عبدا لله أبي النبي ﷺ في هذه الدار كما تقدم بيانه في أول هذا المبحث، فأقامت آمنة بالمدينة عند أخوال زوجها بني عدي بن النجار شهراً واحداً، مع ابنها "محمد" ﷺ الذي بلغ ست سنين يعقل ويفهم جميع الأمور لا يضيع عنه ما يراه ويسمع، فهو طفل لا كالأطفال، إن جسمه ظاهره وباطنه نوراني طاهر نظيف، أليست الملائكة شقت صدره وهو في الثالثة من عمره، فغسلت قلبه في طست من ذهب ثم ملأته إيماناً ويقيناً وعلماً وحكمة استعداداً لنبوته وبعثته عند بلوغه أشده، إنه رسول ا لله وكفى - فلذلك كان ﷺ بعد هجرته إلى المدينة يذكر أموراً عندما كان مع أمه بالمدينة، فإنه ﷺ نظر إلى تلك الدار بعد الهجرة، أي بعد خمسين سنة تقريباً من سفره مع أمه، فقال: ههنا نزلت بي أمي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون علي ينظرون، قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم - فانظر، رحمنا ا لله تعالى وإياك إلى قوة ذاكرته ﷺ ولا عجب في ذلك أنها ذاكرة نبوة، وانظر أيضاً إلى حكمة نزول آمنة بنت وهب مع ابنها "محمد" ﷺ عند أخوال أبيه بني عدي بن النجار بالمدينة، وذلك ليعرفوه ويعرفهم من صغره، فإنه ﷺ لما بعثه ا لله تعالى ثم هاجر إلى المدينة وأقام بقباء أياماً قليلة وبنى مسجد قباء، أراد التحول من قباء إلى باطن المدينة، فركب ناقته وسار حتى وصل إلى دور الأنصار، فكان ﷺ كلما مر على دار من دورهم تضرع إليه أهلها أن ينزل عندهم، وكانوا يأخذون بزمام ناقته ﷺ، فكان يقول لهم: دعوها فإنها مأمورة، فلم تزل الناقة سائرة به ﷺ حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار، فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد، فنزل عنها رسول ا لله ﷺ، وقال: ههنا

المنزل إن شاء الله ، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه رحله ووضعه في بيته - فتأمل دقائق حكمة الله عز وجل .

بعد أن أقامت آمنة مع ابنها "محمد" ﷺ ومع أمتها أم أيمن ، شهراً بالمدينة عند أخوال أبيه رجعت به إلى مكة ، فلما وصلوا إلى قرية الأبواء ، وهي في منتصف الطريق بين مكة والمدينة ، أدركتها المنية ، فتوفيت بالأبواء ودفنت بها على رأس جبل قصير رخو يمكن الحفر فيه بسهولة كما سنتكلم عليه قريباً ، فقد ذهبنا إلى قرية الأبواء في سنة (١٣٨٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين هجرية ، ووقفنا على قبر آمنة أم النبي ﷺ على مكان عال فوق قمة الجبل ، وهو قبر ظاهر مرتفع عن سطح الجبل ليس هناك قبر غيره ، ولقد صدق عليها قول الشاعر:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق تلك إحدى المكرمات

فهل هناك شرف أعلى من أن تكون آمنة بنت وهب العربية القرشية أماً لمن أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ﷺ ، وهل في الدنيا قبر مرتفع فوق رأس الجبل ظاهر كالعلم ، لم يعف أثره ولم تندرس معالمه مع مرور الأجيال العديدة عليه ، وسيبقى إلى ما شاء الله تعالى مرفوع الرأس عالي القدر ، حتى يبعث صاحبه يوم القيامة سعيداً ناجياً فائزاً مسروراً بفضل الله ورحمته ، فيدخل الجنة بسلام آمنين مع ابنها سيد الخلائق أجمعين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - أليس هذا علو في الحياة وعلو في الممات ، وعلو في الآخرة إن شاء الله تعالى .

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت : شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها ، ومحمد ﷺ غلام يفع له خمس سنين ، فنظرت إلى وجهه ثم قالت :

بارك فيه الله من غلام ... يا ابن الذي من حومة الحمام

نجا بعون الملك العلام ... فودي غداة الضرب بالسهام

بمائة من إبل سوام ... إن صح ما أبصرت في المنام

فأنت مبعوث إلى الأنام ... من عند ذي الجلال والإكرام

تبعث في الحل وفي الحرام ... تبعث في التحقيق والإسلام

دين أبيك البر إبراهام ... فالله أنهاك عن الأصنام

أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت : كل حي ميت وكل جديد بال وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة وذكري باق تركت خيراً وولدت طهراً ، ثم ماتت - قالت أم أسماء : فكنا نسمع نوح الجن عليها فحفظنا من ذلك هذه الأبيات :

نبكي الفتاة البرة الأمينة ذات الجمال العفة الرزينة
زوجة عبد الله والقرينة أم نبي الله ذي السكينة
وصاحب المنبر بالمدينة صارت لدى حفرتها رهينة

قال في تاريخ الخميس : ثم قدمت به ﷺ أم أيمن رضي الله تعالى عنها إلى مكة بعد موت أمه بخمسة أيام - اهـ - فالذي يظهر لنا والله تعالى أعلم : أن أم النبي ﷺ لم تمرض كثيراً في طريقها إلى مكة ، بل إنها وصلت إلى الأبواء في هودجها سالمة ثم مرضت بها يوماً أو يومين ثم ماتت ، فلو مرضت كثيراً في قرية الأبواء ، لحصل لها ولابنها "محمد" ﷺ وهو طفل صغير ولحاضنته أم أيمن رضي الله تعالى عنها ، تعب عظيم وحزن عميق وإرهاق شديد ، ولأرسل جده عبد المطلب من مكة من يتعقب أخبارهم ، فالله سبحانه وتعالى كريم رحيم ، لطيف حكيم ، خبير عليم .

وحيث ماتت أم هذا الطفل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بالأبواء ودفنت بها ، سارعت حاضنته أم أيمن بمواصلة السفر من الأبواء ، فقدمت بمحمد ﷺ إلى مكة بعد خمسة أيام من موت أمه ، فكفله جده عبد المطلب وضمه إليه ورق عليه رقة شديدة لم يرقها على أولاده ، وكان يُقرّبه منه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلا قال : علي بابني . فيؤتى به إليه ، ولقد قال يوماً لحاضنته أم أيمن : لا تغفلي عن ابني فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة ، ثم لما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ .

فمما تقدم يعلم أن الأبواء هي منتصف ما بين مكة والمدينة ، فإن المسافة بين البلدتين بالجمال عشرة أيام ، والأبواء كانت هي طريق القوافل بين مكة والمدينة من قديم الزمان ، ثم في عصرنا الحاضر أي منذ (١٣٥٤) ألف وثلاثمائة وأربع وخمسين هجرية تقريباً هُجرت طريق الأبواء ، واتخذ الناس وادي "مستورة" المسمى بوادي "ودّان" طريقاً لهم بين البلدتين الحرامين ، وذلك منذ امتداد خط الإسفلت فيه للسيارات أي الأوتومبيلات ، وهذا الوادي هو في محاذاة الأبواء بينهما أقل من أربعين كيلو متراً كما سيأتي بيان ذلك .

محل مدفن أم النبي ﷺ

وقد اختلف الناس في موضع دفن آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ على قولين: فبعضهم يقول إنها ماتت بمكة ودفنت بها بمقبرة الحجون، فقد جاء في تاريخ الخميس: وفي ذخائر العقبى قال ابن سعد: دفنت أمه ﷺ بمكة، وأن أهل مكة يزعمون أن قبرها في مقابر أهل مكة من الشعب المعروف بشعب أبي ذئب رجل من سراة بني عمرو، وقيل: قبرها في دار رابعة في المعلاة بثنية أذاخر عند حائط حلما - اهـ.

ويقول بعضهم إن أم النبي ﷺ ماتت بالأبواء ودفنت بها، وهذا أرجح الأقوال وعليه غالب المؤرخين، ولكل من أصحاب القولين حجة - قال مؤلف تاريخ الخميس: قيل التوفيق بين دفن أمه ﷺ بالأبواء وكون قبرها بها وبين قبرها بمكة على تقدير صحة الحديثين: أن يقال يحتمل أن تكون دفنت بالأبواء أولاً وكان قبرها هناك، ثم نبشت ونقلت إلى مكة والله تعالى أعلم - اهـ.

ونحن نقول: إن دفنها بالأبواء أصح وأرجح، ولكن نستبعد نبش قبرها ونقلها إلى مكة، في ذلك العصر الذي لم تكن فيه إلا وسيلة واحدة للانتقال والأسفار، وهي الجمال والبغال والحمير، فنقل الميت بوسيلة ركوب الجمال والمشي بها من الأبواء إلى مكة في خمسة أيام أمر شاق جداً بل متعذر، ويؤدي ذلك إلى تكسر الجثة وتعفنها لعدم معرفة العرب لطرق تحنيط الأموات، ولم يكن نقل الأموات في ذلك الزمن من بلدة إلى بلدة أمراً معروفاً - أما نقل الأموات في زماننا هذا فقد جرى عليه عظماء الناس وإن لم يرد ذلك في الشرع، وهذا لتيسر أسباب النقل من الطائرات والسيارات التي اخترعت في عصرنا، ولمعرفتنا لطرق تحنيط الأموات صيانة لهم من التعفن والتفسخ.

ونحن لا يمكننا أن نوفق بين القولين إلا بأمر معنوي، وذلك بأن نقول: إن أم النبي ﷺ ماتت بالأبواء ودفنت بها، فلما خرج رسول الله ﷺ من المدينة في غزوة الحديبية ومر في طريقه بالأبواء، تذكر أمه العزيزة الكريمة فاستأذن ربه عز وجل في زيارتها، فأذن له فجاء إلى قبرها - ونقول بناء على ما جاء في بعض الأحاديث الدالة على وقوع زيارتها بمكة: أن رسول الله ﷺ لما وصل إلى مكة في حجة الوداع وهي آخر حجاته ومر على عقبة الحجون، تذكر أمه الحبيبة

فاشتاق إليها ، واستأذن ربه العزيز الغفار في زيارتها ، فأذن الله تعالى له في ذلك وأمر الملائكة بنقلها إلى مقبرة الحجون من الأبواء ، تطييباً لقلب نبيه الكريم ومعجزة له عليه الصلاة والتسليم ، ولتكون زيارته لها في أسرع وقت وأقرب لحظة ، كما وقع ذلك في اجتماعه ﷺ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس وفي السموات السبع ليلة الإسراء والمعراج ، والله تعالى أعلم بما كان بينه ﷺ وبين أمه من الأمور والمشاهدات في هذه الزيارة ، فزيارة رسول الله ﷺ للأموات ليست كزيارة عامة الناس ، فإنه ﷺ يكشف له من الأمور والمشاهدات ما لا يكشف لغيره .

هذا ولقد رأينا قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ بمقبرة المعلا بالحجون بمكة ، وكانت عليه قبة جميلة ، وكذلك رأينا قبرها بالأبواء ، وكانت عليه قبة لطيفة أيضاً ، وهاتان القبتان بنتهما الحكومة التركية حينما كانت تحكم الحجاز والبلدان العربية ، فلما دخلت الحكومة السعودية إلى الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، هدمت القبتين المذكورتين وهدمت جميع القباب التي كانت على القبور ، وستتكلم بعد المبحث الآتي عن قرية الأبواء وموقعها .

نجاة أبوي النبي ﷺ

اعلم أن العرب قبل ظهور الإسلام كانوا أهل شرك يعبدون الأصنام ، ولكن عقلاءهم وفضلاءهم ومنهم آباء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موحدين يعبدون الله تعالى على دين الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وإن كانوا على بُعد العهد لا يعرفون تفاصيل دينه الحنيف ، ويكفي أنهم يعتقدون بوجود الله تعالى وبعثة الرسل والأنبياء إلى الأمم السابقة ، وأنهم يعترضون على قومهم في عبادة الأوثان وفي سفاسف الأمور الشركية ، لأن العقل السليم لا يقر العادات المستهجنة القبيحة ، فليس ببعيد أن يمن الله تبارك وتعالى على بعض عباده من أهل الفترة بالفكر الثاقب والعقل السليم ، ليهتدي إلى الخلاق العظيم وينبذ عبادة الأصنام ويجتنب قبيح الآثام ؛ كقس بن ساعدة الإيادي حكيم العرب وغيره كما سنذكرهم بعد قليل .

فممن أسعدهم الله تعالى بالهداية بفضله ورحمته آباؤه ﷺ ذكوراً وإناثاً ، فإنهم لم يسجدوا لصنم ولم يرتكبوا جرماً وكلهم من سادات قريش ، ليخرج

رسول الله ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، من آباء طاهرين وأمهات طاهرات ، ولسنا نذهب بعيداً ونحصر الأدلة على ذلك حتى لا يطول بنا الكلام ، ولكن يكفي أن نذكر ما كان عليه الجد الأول القريب لرسول الله ﷺ وهو "عبدالمطلب" فلقد كان على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعتقد بالبعث والجزاء ، وكان قد حرّم الخمر ، ونكاح المحارم والزنا ، ومنع وأد البنات ، وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وكان كريماً يطعم المساكين ، بل يطعم حتى الطير والوحش في رؤوس الجبال ، ولقد هداه الله تعالى إلى موضع بئر زمزم بعلامات رآها في المنام ، فحفرها وأخرج منها الغزالين الذهب والسيوف والدروع التي دفنتها جرهم في البئر – ومن تأمل قصة عبد المطلب مع أصحاب الفيل علم قوة إيمانه بالله تعالى ويقينه ، فإنه لما أخذ رجال أبرهة مائتي إبل لعبد المطلب استاقوها من الحرم ، وراجع عبد المطلب أبرهة ليأمر برد إبله إليه ، فقال له أبرهة ملك الحبشة : أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمني فيه ، فأجابه عتبد المطلب : أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، قال أبرهة : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك ، ثم أمر أبرهة برد إبل عبدالمطلب إليه ، ثم رجع عبدالمطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في الجبال والشعوب – ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة الكعبة وصار يدعو ربه الكبير المتعال ويقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا　　　يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا　　　فامنعهم أن يخربوا قراكا

فتأمل رحمنا الله تعالى وإياك كيف أن عبدالمطلب التجأ إلى الله تعالى رب هذا البيت العظيم ، ولم يلتجأ إلى صنم ولا وثن ، فحفظ الله بيته وحرمه وأهله ودمّر أصحاب الفيل شر تدمير .

وهذا عبدالله بن عبدالمطلب والد رسول الله ﷺ ، إنه على دين أبيه وأخلاقه كأخلاق أبيه ، لا يقرب الحرام ولا يقترف الآثام ، وأعظم دليل على ذلك قصة الخثعمية معه ، فإنه مر يوماً على فاطمة بنت مرة الخثعمية وكانت من أجمل النساء ، فدعته إلى نفسها فامتنع عنها وقال :

أما الحرام فالممات دونه　　　والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه　　　يحمي الكريم عرضه ودينه

ومن تأمل ما قالته آمنة بنت وهب عند موتها في ابنها "محمد" ﷺ، وما كان يتراءى لها من البشائر والكرامات عند ولادته، وقولها لمرضعته حليمة وزوجها عندما رجعا به إليها بعد حادثة شق صدره ﷺ: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله، ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن فدعاه عنكما - إن من تأمل أقوال آمنة وما رأته من البشائر والكرامات، ظهر له إيمانها ويقينها برب العزة والجلال الذي له ملك السموات والأرض.

الاستدلال على نجاتهما

وإذا تأملت قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما حكى الله تعالى عنه في سورة الزخرف: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ۞ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ۞ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾. فالكلمة الباقية في عقبه هي كلمة الشهادة والإخلاص، فلا يزال ذلك في ذريته من بعده - وقوله في سورة إبراهيم: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ قال ابن جرير: فلن يزال من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ناس على الفطرة يعبدون الله تعالى - وقوله في سورة إبراهيم أيضاً: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

أخرج ابن جرير عن مجاهد، قال: استجاب الله تعالى لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً، واستجاب الله تعالى دعوته فجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله من الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة - اهـ.

وقد اتفق العلماء على أن العرب من بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلهم على دينه لم يكفر منهم أحد قط ولم يعبد صنماً إلى عهد عمرو بن لحيّ الخزاعي فإنه أول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعبد الأصنام وسيب السوائب- ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب» أي أمر بعدم منع النياق التي تسيب في الجاهلية لنذر أو نحوه من الرعي، فتترك ترعى من أي مرعى تمر عليها،

وعمرو بن عامر هو المعروف بعمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر ، جاء في شرح العزيز على الجامع الصغير : وعمرو بن عامر الخزاعي قد بلغته الدعوة ، وأهل الفترة الذين لا يعذبون هم من لم يرسل إليهم عيسى ابن مريم ولا أدركوا محمداً عليهما الصلاة والسلام . اهـ .

قال الحافظ ابن كثير : كانت العرب على دين إبراهيم ﷺ إلى أن ولي عمرو بن عامر الخزاعي مكة وانتزع ولاية البيت من أجداد النبي ﷺ ، فأحدث عمرو المذكور عبادة الأوثان وشرع للعرب الضللات . اهـ .

ولقد ذكر الأزرقي أيضاً قصة عمرو بن لحيّ المذكور في أوائل كتابه تاريخ مكة (نقول) : ولو أن عمرو بن عامر المذكور قد أحدث للعرب عبادة الأصنام ، فإنه ما زال بعضهم من العقلاء على التوحيد على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، وعمير بن حبيب الجهني ، وعمرة بن عنبسة ، وغيرهم . ومن نظر إلى قول خديجة رضي الله تعالى عنها لرسول الله ﷺ في أول نزول الوحي عندما دخل عليها وقال : زملوني زملوني ، فبعد أن زملوه وذهب عنه الروع وأخبرها ما وقع له في غار حراء قالت له : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك ، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخاً كبيراً يعرف مسائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فبشره بأنه نبي هذه الأمة ، إن من تأمل قول خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى لرسول الله ﷺ علم يقينا أنها ممن يعرف الله تعالى و لم تسجد لصنم قط - ولاشك إذاً أن آباء رسول الله ﷺ مثل هؤلاء على التوحيد لا يعرفون الشرك و لم يسجدوا لصنم ، يؤيده قوله ﷺ: « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » وفي رواية: « لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصطفى مهذباً ما تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » ، ولا يخفى أن المشركين نجس بنص القرآن الكريم .

جاء في شرح نظم عمود النسب ، قال ابن حجر الهيثمي : إن الأحاديث مصرحة لفظاً ومعنى أن آباءه ﷺ غير الأنبياء وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم

كافر، لأن الكافر لا يقال في حقه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس، وقد جاء في الأحاديث أن آباءه مختارون وأنهم كرام وأن أمهاته طاهرات - اهـ.

وما أحلى قول صاحب نظم عمود النسب رحمه الله تعالى حيث يقول:

خير الشعوب شعبه لآدم ... وقرنه خير قرون العالم
من مؤمنين متناكحينا ... خرج لا من متسافحينا
ينقل من أصلاب طاهرينا ... لطاهرات من لدن أبينا
وكيف لا والمشركون نجس ... ومن أذى نبينا مقلس
من ساجد لساجد تقلبا ... صلى عليه الله ما هب الصبا
وجعل الدين عمود نسبه ... كلمة باقية في عقبه
وفيه ربه له تقبلا ... دعاه من كل بر سألا
كترك الأصنام وترك الموبقات ... وكل ما يزري بمنصب الثقات
وقال عبدالله حين استعصما ... ممن دعته إذ تبيع الأدما
أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه
والعذر بالفترة والإحياء ... فيؤمنوا ورد في الأنباء
ولعن الإله من آذاه ... في هذه الدار وفي أخراه

ويشير الناظم بالبيتين الأخيرين إلى أن أهل الفترة ناجون لعذرهم بعدم بعث رسول إليهم، وقوله: "والإحياء" إلى أن الله تعالى أحيا أبوي النبي ﷺ بعد بعثه فآمنا به ثم ماتا كما ورد في بعض الأحاديث، ولا يشترط في إحيائهما خروجهما من القبر، بل يجوز أن الله تبارك وتعالى أحياهما في قبريهما كما يحصل في سؤال القبر فآمنا به ثم أماتهما ورسول الله ﷺ يراهما ويخاطبهما ﴿والله على كل شيء قدير﴾، وقوله: "ولعن الإله من آذاه" إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾، ولا أذى أعظم من الحكم على أبوي النبي ﷺ بالكفر وأنهما في النار، وإذا كان شرعاً يطلب درء الحدود بالشبهات، أفلا يجب في هذه المسألة الخطيرة الحكم بحسن الظن أو عدم الخوض فيهما إكراماً لرسول الله ﷺ وتأدباً معه ومع أبويه الكريمين، خصوصاً وقد ذهب كثير من الأئمة الأعلام إلى أنهما ناجيان سعيدان،

فيجب تقليد هؤلاء الأئمة الكرام ؛ لأنه أسلم وأولى - فلقد جاء في تاريخ الخميس ما نصه : قال الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في رسالته المسماة "بالدرجة المنيفة في الآباء الشريفة" وذهب جمع كثير من الأئمة الأعلام إلى أن أبوي النبي ﷺ ناجيان محكوم لهما بالنجاة في الآخرة ، وهو أعلم الناس بأقوال من خالفهم وقال بغير ذلك ولا يقصرون عنهم في الدرجة ، ومن أحفظ الناس للأحاديث والآثار ، وأنقذ الناس بالأدلة التي استدل بها أولئك ، فإنهم جامعون لأنواع العلوم ومتضلعون من الفنون . . . الخ كلامه - اهـ .

ونحن لا ندري إذا حكم الإنسان على أبوي النبي ﷺ بالكفر ، ثم يظهر له يوم القيامة خلاف ذلك بأي وجه يلقى رسول الله ﷺ هنالك ، أما لو سكت فلا خطر في السكوت ، ومن تأمل ودقق في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ اعتقد اعتقاداً جازماً بأن أبوي النبي ﷺ ناجيان يتنعمان في الجنة في أعلا الدرجات بفضل الله ورحمته ، لأن رسول الله ﷺ لا يرضى يومئذ أن يكونا في النار يعذبان ، وهما الجوهرتان المتعلقتان به والصدفتان اللتان خرج من بينهما ، نسأل الله تعالى الرضا والتوفيق والهداية لأقوم طريق آمين .

ومن أراد زيادة البحث في نجاة أبوي النبي ﷺ فليراجع الكتب الموضوعة في ذلك ، وفي تاريخ الخميس للعلامة الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري الكردي رحمه الله تعالى مبحث طويل قيم جداً في هذا الموضوع .

الحديث الصحيح الوارد في زيارته ﷺ لأمه

فعلم مما تقدم أن آباءه ﷺ من جهة الرجال والنساء أطهار كرماء لم يمسسهم دناءة الشرك وقبيح العادات ، لأن المشركين نجس كما أخبر الله تعالى بذلك في سورة التوبة ، ويكفي في نجاة أهل الفترة إن شاء الله تعالى أن يؤمنوا بوجود الله تعالى ووحدانيته مع ابتعادهم عن عبادة الأصنام ، أما معرفة أحكام دينه الحنيف فلا يشترط فيهم ، لأن أحكام الشريعة لا تعرف إلا برسول يأتي من عند الله تعالى ولذلك قال تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ . وقال في سورة القصص: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ ، فالفترة التي كانت بين عيسى بن مريم ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام هي ستمائة سنة

كما في صحيح البخاري، وهذه المدة كافية لمحو معالم الديانة وانتشار الجهل والفوضى في العقائد.

(فإن قيل): فما معنى ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: «زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

(نقول): لقد فهمنا هذا الحديث كما يأتي: إن رسول الله ﷺ مسئول من بعد بعثته عن أمته فقط، وأمه ماتت قبل بعثته بأربعين عاماً وهو طفل في السادسة من عمره، وهي من أهل الفترة على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في أساس التوحيد وإن لم تعرف معالم دينه للفترة الطويلة، فهي إذا ليست من أمته لأنها لم تدرك الإسلام، ومن لم يدرك الإسلام فأمره مفوض إلى الله عز وجل، والله تعالى لا يشقي أمه حيث كانت مع بعض عقلاء قومها على التوحيد ولم تعبد صنماً، ورسول الله ﷺ مخاطب بعد بعثته بقومه ومسئول عن أمته، لا تعلق له دينياً بمن مات قبل البعثة حتى يستغفر له ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾. فعليه ليس هو مكلفاً بالاستغفار لأمه حتى يزورها ليستغفر لها، فسوف يقر الله تعالى عينه يوم القيامة بنجاتها من النار وإدخالها الجنة مع السابقين بفضله ورحمته - وما قررناه في أمه العزيزة صلى الله تعالى عليه وسلم نقرره في أبيه الكريم.

أما زيارته لها ﷺ في قبرها شوقاً وحنيناً فلا بأس من ذلك، فقد أذن الله تعالى له في زيارتها، فزارها وبكى وأبكى من حوله، فبكاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم كان رحمة وشفقة وحنيناً وشوقاً، ولتذكره أحوال طفولته معها وكونها ماتت وعمره ست سنين، أليس رسول الله ﷺ بشر يعتريه ما يعتري البشر، فزيارته ﷺ لأمه ليست كزيارتنا، إنه يكشف له ويرى ما لا نراه.

(فإن قيل): لم استأذن رسول الله ﷺ ربه عز وجل في زيارة أمه ولم يستأذن لزيارة أبيه؟

(نقول): لأنه ﷺ لا يعرف أباه ولم يره فقد مات وهو في بطن أمه، أما أمه فقد رآها ويعرفها ويتذكرها فقد ماتت وعمره ست سنين، والإنسان يحن إلى أمه ويشتاق إليها أكثر، ورسول الله ﷺ بشر في أحواله العادية - والله تعالى أعلم.

وهذه الزيارة قيل كانت في الأبواء في عمرة الحديبية سنة ست من الهجرة، وقيل كانت بمكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة - والله تعالى أعلم- أي أن هذه الزيارة كانت بعد وفاة أمه ﷺ بستين سنة تقريباً، سواء كان جسدها سليماً صحيحاً في قبرها أم ذاب وفني في التراب، فإن الله عز وجل قادر على أن يحييها بكامل جسمها وعقلها وحواسها كما يحيي الأموات بعد دفنهم في قبورهم للسؤال وحين البعث، فيخاطبها ﷺ وتخاطبه معجزة وكرامة له عليه الصلاة والسلام والله على كل شيء قدير - فعن أبي جرير عن علقمه بن مرثد عن سليمان عن أبيه: «أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . . . إلخ».

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبدالله بن مسعود «أن رسول الله ﷺ أتى إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم، قلنا: بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي . . . الخ» - اهـ.

فالذي نذهب إليه عن حسن ظن وتعقل: أنه لو كانت أمه ﷺ في النار لكانت معذبة في قبرها، ولو كانت معذبة في قبرها لما أذن الله تعالى لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم في زيارتها، حتى لا يراها معذبة في قبرها محاطة بالنار، فإن ذلك مما يزيد في حزنه وبلائه مدة حياته، فإنه ﷺ في زيارته لقبر أمه كشف له عن حالتها فرآها ورأته وخاطبها وخاطبته في أمور لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى - أما بكاؤه ﷺ عندما قام من قبرها، فللذكرى والتفكر في يتمه وكونها ماتت وتركته طفلاً صغيراً في السادسة من عمره فبقي يتيماً من غير أب ولا أم، وبكى عندها رحمة وحناناً إليها، وكان يتمنى لو شاركته في حياته السعيدة، حياة النبوة والرسالة، ولترى ما أكرمه الله تعالى من العز والسؤدد والنصر والكرامة -هذا ما نراه ونعتقده- والله سبحانه وتعالى أعلم وهو بعباده أرحم، وجميع من في السموات والأرض عبيده وملكه يفعل فيهم ما يشاء ويحكم ما يريد - اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك "محمد" وأقر عينيه بنجاة أبويه حتى يرضى رضاء تاماً، وأدخلهما الجنة معه بسلام آمنين، مع خادمهم محمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب آمين، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ويعجبنا ما قاله بعضهم عن زيارة أمه ﷺ

السلام عليك يا آمنة بنت وهب ، السلام عليك يا أم رسول الله ﷺ ، جئناك زائرين لك حباً في رضاء الله عز وجل ورضاء ابنك خاتم النبيين محمد ﷺ ، فإننا نعتقد بفوزك وسعادتك ، وحاشا أن الله تبارك وتعالى يشقيك وقد أخرجت من بطنك من أرسله الله رحمة للعالمين ، وحويت في أضلاعك خليل الرحمن ، فلم تجدي في حمله ووضعه عناء ولا مشقة فحاشا أن تمسك نار جهنم ، إذا أنت لم تدخلي الجنة فهل نحن ندخلها ، إنك لو بقيت وعشت إلى بعثته ﷺ لكنت أول من آمن به على الإطلاق أنت ووالده عبد الله ، لما كنتما تريان منه من بشائر النبوة وأمارات الرسالة ، ولكنكما تركتماه يتيماً لحكمة يعلمها الله عز وجل ، يا آمنة بنت وهب : أنت صدفة قيمة ضممت في جوفك الطاهر أعظم درة ثمينة لا يوجد مثلها في الدارين ، فرضي الله عنك وأرضاك وجمعنا معك في جنات النعيم ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً آمين ، فهنيئاً لك ثم هنيئاً لك يا زينة النساء .

اللهم صل على سيدنا "محمد" وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

سبحانك ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . هذا ما قاله بعض الفضلاء عند زيارة آمنة بنت وهب أم نبينا "محمد" ﷺ وهو كلام صادر عن قلب مؤمن مملوء بحسن الظن بالله عز وجل وبرحمته وفضله ومملوء أيضاً بحب رسول الله ﷺ وأصوله وفروعه . والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

الكلام على قرية الأبواء وقرية مستورة

قرية الأبواء: هي من القرى الحجازية القديمة ، لولا جاء ذكرها في التاريخ لم يكن لها شأن يذكر ، فإن رسول الله ﷺ مر بها وهو طفل صغير نحو ست سنين من عمره حين ذهابه من مكة إلى المدينة ثم رجوعه مع أمه وحاضنته أم أيمن رضى الله تعالى عنها ، وقد كان برفقتها عبدالمطلب وقيل أبو طالب ونحن نرى الأرجح

هو أبو طالب لأن عبدالمطلب كان في ذلك الوقت قد حجب بصره وكبر سنه فتجاوز المائة والله تعالى أعلم، فلما وصلوا إليها ماتت أمه آمنة بالأبواء ودفنت بأعلى جبل من جبالها الغربية كما سيأتي بيانه، وكذلك وقعت في الأبواء غزوة في أول السنة الثانية من الهجرة، وهي أول مغازيه ﷺ، فقد خرج إليها في ستين رجلاً من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة يريد عيراً لقريش، ولم يحصل حرب لأن العير كانت قد سبقته، ثم هناك صالح سيد بني ضمرة رسول الله ﷺ على أن ينصر المسلمين ولا يعين عدوهم، فرجع النبي عليه الصلاة والسلام المدينة بعد مضي خمسة عشرة ليلة.

انظر: صورة رقم ٩، قبر السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ فوق جبل بالأبواء

وتقع الأبواء في منتصف طريق مكة والمدينة تقريباً، وهي قريبة من وادي ودّان بينهما ستة أميال أو ثمانية، ولتقاربهما يطلق على غزوة الأبواء غزوة ودان، ولا يبعد أن تكون قرية مستورة هي من وادي ودان؛ لأن وادي ودان واقع بين مستورة والأبواء، فبين مستورة وبين قرية الأبواء نحو ثلاثين كيلو متراً في طريق ذات حجارة ممهدة بالإسفلت وهذه الحجورة يسمونها الصَّمْد "بفتح فسكون" أي ليست حرة وليست صخوراً.

لقد كانت لنا رغبة شديدة منذ سنوات في زيارة قرية الأبواء ومشاهدتها والكتابة عنها في كتابنا "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم"، ولما تيسرت الأمور بفضل الله تعالى وحصلت معرفة وصداقة بيننا وبين أحد فضلائها ووجهائها وهو الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري، توجهنا من مكة المشرفة قاصدين المدينة المنورة عن طريق الأبواء لزيارتها بدعوة من الشيخ عبيد الله المذكور، وذلك في اليوم الثامن من ربيع الثاني سنة (١٣٨٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وثمانين هجرية، خرجنا من مكة شرفها الله تعالى بالسيارة في ضحى يوم الاثنين يرافقنا أحد أبناء الشيخ عبيد الله المذكور ليدلنا على الأبواء، فوصلنا إلى جدة في الساعة الرابعة فاسترحنا فيها إلى بعد العصر، ثم سرنا حتى وصلنا إلى مستورة ليلاً وقت العشاء وبين جُدّة ومستورة "١٩٦" كيلو متراً، فوجدنا هناك في انتظارنا الابن الثاني للشيخ عبيد الله المذكور جاءنا بسيارته الجيب ليأخذنا إلى الأبواء موفداً من قبل أبيه، فبتنا تلك الليلة في مستورة بقهوة نظيفة.

فلما أصبحنا ذهب الإخوان لزيارة خالهما المقيم بمستورة ، فدعانا خالهما الشيخ محمد نور بن مثنى المحمدي للغداء عنده ودعا معنا سعادة أمير مستورة الشيخ مبارك بن سليمان . وهو مع احتفاظه بهيئته العربية رجل كريم وقور ذكي عاقل ، يعرف القراءة والكتابة ويدرك الأمور بالإشارة ، قضينا ذلك اليوم في مستورة وأردنا السفر إلى الأبواء ولكن دعانا سعادة أمير مستورة للغداء عنده في اليوم الثاني واعتذرنا فلم يقبل ، فمكثنا يوماً آخر بمستورة إجابة لدعوته وقد طفنا حولها قليلاً ، فإذا هي واسعة فسيحة يسكن أهلها في بطونها ووديانها في بيوت من العشاش ، وفيها مركز لخفر السواحل قرب البحر به ضابط وجنود .

وقد أخذنا الشيخ محمد نور المحمدي المذكور إلى البحر في زورق شراعي فمكثنا في لجة البحر نحو ثلاث ساعات نصيد الحوت . فمستورة مشهورة بكثرة الحوت وجودة الهواء ، ومن الطريف أن ولدنا عبدالرحمن الكردي كان خائفاً كثيراً من ركوب البحر وما اطمأن إلا بعد أن أكل حوتاً مشوياً في وسط البحر ، وما ألذ الأكل بعد الخوف والجوع والاطمئنان .

يبلغ عدد سكان مستورة أكثر من ثلاثة آلاف نسمة يشتغلون بصيد الأسماك وبالزراعة في الشتاء عند نزول الأمطار ، وأهل مستورة أهل صدق وأمانة ودين واستقامة ، وهم أبعد الناس عن الفسق والفجور وشرب المسكرات وارتكاب المحظور ، وإذا حصلت بينهم مشاحنات ومخاصمات فإن عقلاء القرية يصلحون بينهم .

وأرض مستورة ما كان منها منخفضاً فتربتها صالحة للزراعة عند نزول الأمطار يزرعون فيها الحبحب والخربز والقثاء وغيرها ، وما كان منها مرتفعاً فأرضها مفروشة بالحجارة الملساء السوداء بحجم البطاطس يسمونها (الصَّمْد) أي أنها ليست حرة ولا صخوراً ، ونظن أن أصلها (الصَّلْد) باللام أي الصلب كما في اللغة فحرفت ونطقوها بالميم - وفي مستورة عدة آبار ماؤها فيه ملوحة قليلة والماء الحلو العذب يأتي إليها من رابغ بالسيارات الوايتات ، يعطى لهم مجاناً من قبل الحكومة .

ولقد أخبرنا سعادة أمير مستورة الشيخ مبارك بن سليمان أنه سمع بوجود بئر قديمة بمستورة لكنها أطبت بالحجارة العظيمة ولا يعرفون مكانها ، فأتى بأهل المعرفة من البدو فما زالوا يبحثون عنها حتى عثروا على مكانها ، فقام الأمير

بحفرها وإزالة الأطباق عنها حتى ظهر الماء، ولقد وقفنا على هذه البئر فوجدنا بين سطح الأرض وبين الأطباق نحو قامتين بل أكثر، فجزى الله تعالى من كان السبب في ذلك خير الجزاء، وجزى من أطبق البئر بالحجارة ولم يطمرها أحسن الجزاء حيث قد انتفع بها الناس اليوم.

فحبذا أن المسؤولين بمكة أطبقوا الآبار القديمة بها وجعلوا عليها علامات لمعرفتها بدلاً من ردمها وطمرها وإعفاء آثارها، فقد يأتي يوم يحتاج أهل مكة إلى ماء الآبار ولو كانت مالحة، كما احتاجوها في عام ١٣٦٠ عند نزول الأمطار القوية وتخريب السيل العظيم دبول عين زبيدة، ويعرف هذا السيل عندنا بسيل "يوم الأربعاء" الذي دخل المسجد الحرام ووصل إلى باب الكعبة المعظمة وكلنا شاهدنا ذلك.

هذا وسيل مستورة والأبواء يجري من مسيل واحد وهو المسمى بوادي "وُدَّان" هذا ما يقولونه اليوم وليس ذلك ببعيد لاتصالها وقربها من بعض، كما نقول أن سيل مكة يأتي إليها من منى وعرفات.

قال صاحب وفاء الوفاق: وُدَّان قرية من نواحي الفرع لضمرة وغفار وكنانة على ثلاثة أميال من الأبواء - اهـ. والفرع، وقال بعضهم: ودان من الجحفة على مرحلة، بينها وبين الأبواء ستة أميال - اهـ. والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، والفرسخ ثلاثة أميال، فعليه تكون المسافة بين وادي ودان والأبواء فرسخين أي نحو عشرة كيلو متر.

وفي ودان يقول بعض القدماء:

قفوا أخبروني عن سليمان أنني ... لمعروفه من أهل "ودان" راغب

فمما تقدم يعلم أن الأبواء وودان ومستورة كلها منطقة واحدة تدخل في نواحي الفرع لضمرة وغفار وكنانة - ولكن الأبواء أهمها وأعظمها - والله تعالى أعلم.

فافهم هذا المبحث الفريد فإنك لا تجده في كتاب، ولقد جرّنا الكلام على قرية مستورة؛ لأنها هي الطريق المسلوكة إلى الأبواء وإلى المدينة المنورة، فمستورة واقعة في منتصف طريق جدة والمدينة تقريباً، فهي محطة شهيرة في خط الاسفلت تمر بها اليوم جميع قوافل السيارات.

أما قرية الأبواء فنصفها بعد مشاهدتنا كما يأتي:

في صباح يوم الخميس بعد شروق الشمس قمنا من مستورة متوجهين إلى الأبواء في سيارة الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري التي أرسلها لنا لنكون في ضيافته بالأبواء يصحبنا ولداه "الشيخ يحيى والشيخ أحمد" وهما أكبر أولاده، سرنا من مستورة نحو مشرق الشمس بالسيارة الجيب في خبت واسع، في أرض غير مسفلتة وإنما هي ذات حجارة سوداء ملساء بقدر حجم البطاطس يطلقون عليها "الصمد" كما ذكرناها في مستورة، والمسافة بينها وبين الأبواء نحو (٢٨) كيلو متراً أي أقرب مما بين (مكة وبحرة) فالأبواء واقعة في شرق مستورة.

ويطلقون اليوم على الأبواء اسماً آخر وهو "خِرِيبة" لأن سيلاً عظيماً أتى عليها قديماً فخربها ثم عمرت من جديد.

سرنا في أرض واسعة لا يكتنفها الجبال، فيها العشب وأشجار السلم التي تصلح لرعي المواشي، فمررنا في طريقنا بالبئر التي طويت بالصخور الكبار والتي اكتشفها وأظهرها أمير مستورة، كما مررنا ببئر أخرى واسعة جداً غزيرة الماء في جانب منها درج من الصخر كالسلالم للنزول إلى قاع البئر، إنها درج عجيبة الابتكار، فرحم الله بانيها، وهذه البئر كانت قديماً محطة سابقة للقوافل المارة بمستورة، ومن وسط هذا الوادي كانت القوافل تمر منه قديماً إلى بدر فالمدينة المنورة، فمن أتى من رابغ يريد المدينة أمامه طريقان، طريق يؤدي إلى مستورة وطريق يؤدي إلى هرشى "على وزن سكرى" ثم يتفرع بعد هرشى إلى طريقين، طريق يمر على بير مبيريك والقاحا وطريق يمر على الأبواء وعلى المصفرة من آخر الأبواء من جهة الغرب مما يلي الجبل المدفونة عليه أم النبي ﷺ، وكل هذه الطرق تجتمع في محطة المسيجيد. وهرشى هضبة في أرض مستوية لا تنبت شيئاً ينسب إليها بنبته هرشى، وفيها يقول الشاعر:

خذا أنف هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشى لهن طريق

ومن غرب هرشى تمتد حرة وتنتهي قبيل مستورة جنوباً تسمى حرة "كَلْهَف".

سرنا في طريقنا في أرض واسعة مستوية حتى قاربنا الأبواء، وإذا هي محاطة من جميع الجهات بسلسلة من الجبال الصغيرة، وفي أول مدخل الأبواء، على يسار الذاهب إليها، جبل غير مرتفع عليه قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ ويظهر القبر

فوق الجبل من الطريق لأنه مرتفع نحو نصف قامة محاط بالأحجار، والجبل مسطح من أصل الخلقة وليس فوق الجبل ولا في أسفل الوادي قبر غير قبرها، يصدق عليه قول القائل:

وقبر حرب بمكان قفر　　　وليس قرب قبر حرب قبر

وقد بنت الأتراك أيام حكمهم للحجاز على هذا القبر قبة قوية بالأحجار والنورة البلدية، هدمتها الحكومة السعودية عند دخولها الحجاز، وحول هذه الجبال يوجد كثير من نبات الإذخر وهو نبت كروي الشكل كالحبحب "البطيخ" عطري الرائحة ييبس في الصيف عند اشتداد الحر ثم يخضر في الربيع عند نزول الأمطار ولا يموت شيء منه إذا يبس، وهذا الوادي لما كان مطروقاً من قديم الزمان كانت الآبار فيها متعددة، فقد كانت القوافل تمر مع جبال الأبواء من عند قبر أم النبي ﷺ.

ولقد سألنا العرب هناك عن سبب دفن أم النبي ﷺ فوق الجبل، فقالوا: إن هذا الموضع لم يكن محطة لنزول القوافل لعدم وجود سكان به قديماً وحديثاً، لذلك لم تكن به قبور حتى تدفن في أحدها، ولقد دفنوها فوق الجبل خوفاً عليها من السيول والسباع واختاروا لدفنها هذا الجبل بالذات؛ لأنه هش سهل التكسر والحفر، ولأنه غير مرتفع وغير مسنم بل أعلاه عريض مسطح.

فوجدنا كلامهم مقبولاً معقولاً واضحاً كالشمس - فاستنتجنا من ذلك أن أم النبي ﷺ لم تمرض بالمدينة حين إقامتها بها وإلا لم تخرج منها، وأنها أيضاً لم تمرض في الطريق وإلا للبثت في إحدى القرى والمحطات حتى تتماثل للشفاء، خصوصاً وأنه يستحيل على المريض السفر أياماً على الجمال في ذلك العهد، إذاً فيكون موتها بغتة في مدخل الأبواء بقرب ذلك الجبل، كانت في الاحتضار نحو ساعة أو ساعتين ثم ماتت فغسلها المسافرون معها من بئر الرعاة القريبة منهم ودفنوها فوق ذلك الجبل.

ولا شك أن موتها بغتة وهي في حالة السفر رحمة وكرامة لها ولابنها الصغير الذي لم يتجاوز السادسة "محمد" ذلك النبي الكريم ﷺ، فلو مرضت في الطريق لتعب ابنها الطفل الصغير وحاضنته أم أيمن رضي الله تعالى عنها كانت معهم أشد التعب ﴿والله رؤوف بالعباد﴾.

وبعد دفنها قدمت أم أيمن "بمحمد" ﷺ إلى مكة في خمسة أيام ، وما بين الأبواء والمدينة خمسة أيام أيضاً ، فتكون المسافة بين مكة والمدينة بالجمال عشرة أيام .

وفي رواية أن قبر آمنة بنت وهب بمكة .

ثم سرنا من جبل أم النبي ﷺ متوجهين إلى داخل قرية الأبواء فاستقبلنا في منزله مضيفنا الشيخ عبيد الله بن عابد الأنصاري . وهو رجل صالح فاضل كريم عاقل من أعيان أهل الأبواء ووجهائها . فجلسنا في ضيافته ثلاثة أيام ، ودعانا أخوه الشيخ عبدالقادر الأنصاري للغداء في اليوم الثاني أحسن الله إليهما وجزاهما عنا خير الجزاء .

لقد تجولنا بالأبواء بسيارة الجيب الخاصة بمضيفنا العزيز الشيخ عبيد الله المذكور ، فإذا هي قرية واسعة كبيرة زراعية ، لها أمير كريم محترم اسمه الشيخ يوسف بن عطية أبو جلى ، ولقد سمعنا عنه الثناء الحسن وأنه يتحلى بحميد الخصال وكريم الأخلاق ، كنا نود زيارته والتشرف بمقابلته لولا ضيق الوقت وسرعة سفرنا .

يبلغ عدد سكان الأبواء نحو خمسة آلاف نسمة ، بل أكثرهم يسكنون بين جبالها ووديانها ومزارعها ، وكلهم يشتغلون بتربية المواشي وبالزراعة والفلاحة صيفاً وشتاءً .

وأهل الأبواء كأهل مستورة أهل دين وأمانة وصدق واستقامة بعيدون عن الفسق والفجور وقريبون من الخير ، وإذا حصلت بينهم مخاصمات ومشاحنات يحضرهم عقلاء القرية ليصلحوا بينهم ، ولمضيفنا الكريم الشيخ عبيد الله الأنصاري منزلة خاصة بينهم ، فبيته مفتوح لهم ويصلح بينهم إذا اختلفوا ويؤمهم في مسجده الخاص ، لذلك يطلقون عليه "الشيخ عبيد الله الشيخ" .

وفي الأبواء مدرسة ابتدائية مديرها ابن مضيفنا المذكور واسمه "الأستاذ أحمد عبيد الله الأنصاري" وهو مثقف متخرج من مدارس مكة المكرمة ، وفي هذه المدرسة كثير من أبناء الأبواء ، وبناء المدرسة من اللبن وهي تحتاج إلى إصلاح كثير ، فحبذا لو أن وزارة المعارف جددت بناء هذه المدرسة بالإسمنت المسلح وساعدتها بكثير من الإعانات لأن أبناء الأبواء فيهم ذكاء مفرط كما يدل على

ذلك نتيجة الاختبار العمومي في السنة الماضية ، والحق أن مدير المدرسة المذكور رجل نشيط مخلص لعمله .

وطول الأبواء اثنا عشر كيلو متراً وعرضها ثلاث كيلو مترات ، وقد يضيق وقد يتسع ، تحيط بها الجبال من جهة الشمال ، وتحيط بها حرة سوداء من جهة الجنوب ، وهذه الحرة ممتدة كالخيط من أولها إلى آخرها ، عرضها نحو خمسمائة متر أي نصف كيلو متر . وأعلا هذه مسطح ليس فيه تعاريج وفيه بركة تجتمع فيها مياه الأمطار ، لذلك يسكن بعضهم في أعلى هذه الحرة . وفي الأبواء يزرع النخل والدخن والذرة والطماطم والفاصوليا والباذنجان الأسود والباميا والدباء والقرع الأبيض والقثاء والحبحب والخربز وغير ذلك ، وعندهم البقر والغنم والدجاج ، ولهم ولع بصيد الأرانب والغزلان والطيور .

وفي موسم الأمطار تكثر الزراعات ، وفي غيرها يسقون الأراضي من مياه الآبار يركبون عليها مكائن سحب المياه ، ففي الأبواء مائة وخمسون موتوراً يسقون بها البساتين والأراضي الزراعية ، ومياه الآبار فيها نوع ملوحة لا تصلح للشرب ، لذلك هم في حاجة شديدة للماء العذب ، وفي بعض الأوقات تأتيهم الوايتات بالماء الحلو من بلدة رابغ فيستعملونه للأكل والشرب فقط ، فحبذا لو أن الحكومة أمَّنت لأهل الأبواء الماء العذب كما أمنتها لأهل مستورة ، خصوصاً وأن سكان الأبواء يبلغ ضعف سكان مستورة ، وقد لاحظنا على زراعة الأبواء عامة الضعف والهزل خصوصاً سنابل الدخن والذرة ، والزارع الذي ينتظر بفارغ الصبر نضوج ثمره وحبوبه ، ثم يخيب أمله بفساد الحبوب وهزال الثمر ، يحزن بعد طول صبره أشد الحزن ويعتريه هبوط وكسل .

فحبذا لو أن وزارة الزراعة راعت هذه المنطقة وعملت بالوسائل التي لديها على حفظ مصالحهم ورفع مستوى الزراعة في جميع القرى .

وذكر صاحب "وفاء الوفا" نقلاً عن الأسدي : أن في وسط الأبواء مسجداً لرسول الله ﷺ ، وذكر بها آباراً وبركاً منها بركة بقرب القصر ، ثم ذكر ودان وثنية هرشى ، وقال : لقد أمر المتوكل بعمل أعلام وأميال لهذه الطرق . اهـ .

نقول : لم يبق أثر للمسجد المذكور ولا للأعلام والأميال ، فسبحان مغير الأحوال .

ثم رحلنا من الأبواء في اليوم الثالث قاصدين المدينة المنورة عن طريق مستورة، وأقمنا بها ثلاثة أيام ثم رجعنا بالسلامة إلى مكة شرفها الله تعالى وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخاءها آمين.

ومما يستأنس ويؤخذ منه الإشارة على وفاة والديه ﷺ على التوحيد، أن أباه اسمه (عبدالله) وهو إرادة الله تعالى بتسميته بهذا الاسم الشريف، وما كان اسمه كأسماء أهل الجاهلية؛ كعبد العزى وعبد قيس وعبد ياليل أو كلب أو كليب أو كلاب أو فهر ونحو ذلك، حتى لا ينتسب رسول الله ﷺ لأب له اسم بمثل هذه الأسماء، فكون اسم أبيه (عبدالله) هو من أشرف الأسماء، فإذا قيل: إن رسول الله ﷺ هو (محمد بن عبدالله) كان له وقع عظيم عند جميع الملل والنحل؛ لأنه أشرف الأسماء.

فهكذا أسماه جده عبدالمطلب بعبدالله، فلو لم يعرف الله عز وجل بالفطرة لم يسمه بعبد الله، فتوحيد آبائه ﷺ وإيمانهم بوجود الله عز وجل هذا كاف بإيمانهم بربهم الخلاق العظيم لأنه صادر بالفطرة الإلهية وبتوفيق الله عز وجل، بالعقل والتفكير، فلا يطلب منهم معرفة شروط الإيمان بالتفصيل كما يطلب منا حيث لم يكن في زمانهم نبي مرسل إليهم ليعلمهم أمور دينهم ويشرح لهم وسائل شريعتهم، فإيمان بعضهم بوجود الله تعالى كاف بنجاتهم إن شاء الله تعالى، وإنه لعز ومفخرة بربهم الخلاق العظيم خالق كل شيء، وهم في وسط بيئة موبوءة بالكفر والإشراك وعبادة الأصنام.

وأيضاً أن كون اسم أمه عليه الصلاة والسلام (آمنة بنت وهب) يؤخذ منه أنها آمنة من عذاب الله وغضبه لتوحيدها ومعرفتها بالله عز وجل بالفطرة، ولا شك أن تسمية أمه (آمنة)، أو تسمية أبيه (عبدالله)، هي من قضاء الله تعالى وقدره، فقد وافقت التسمية لهما على ما كتب في اللوح المحفوظ من الأزل، وهذه عناية إلهية بعبده ونبيه المصطفى المختار ﷺ، وفي المثل العربي (لكل مسمى من اسمه نصيب)، ولا يخفى أن الأدب والحب والاحترام لرسول الله ﷺ الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، أن نظن ونعتقد خيراً بآبائه الكرام ذوي الشرف والمقام السامي عند قومهم.

كفالة عمه له ﷺ

بعد وفاة عبدالمطلب جد النبي ﷺ كفله عمه شقيق أبيه أبو طالب حسب وصاية عبدالمطلب له ، فكان أبو طالب يحب النبي ﷺ حباً شديداً أكثر من أولاده ، فكان ينام بجنبه ويطعمه أطيب الطعام ، وكان يبالغ في إكرامه وتبجيله ويقدمه على كل شيء .

ولما حصل الجدب والقحط جاءت قريش أبا طالب وقالت له : أما ترى ما نحن فيه ، قم فاستق ، فخرج أبو طالب ومعه النبي ﷺ حتى أتى الكعبة ، فألصق ظهر رسول الله ﷺ ، بالكعبة فلاذ بإصبعه ، فأقبلت السحب من كل الجهات ، وسقوا وأخصبت الأرض من بعد جدبها ، ولذلك قال أبو طالب فيه ، ﷺ :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة الأرامل

رحلته مع عمه ﷺ إلى الشام للمرة الأولى

ولما بلغ النبي ﷺ اثنتي عشر سنة ، أراد عمه وكفيله أبو طالب السفر بتجارة إلى الشام ، فاستعظم محمد ﷺ فراق عمه ، فأخذه معه ، وهي الرحلة الأولى له ﷺ ، فلما بلغوا "بُصرى" بأرض الشام رآه بحيرا الراهب واسمه "جرجيس" وكان من أحبار اليهود ، فعرف النبي ﷺ من صفته الموضحة في كتبهم فأضاف قريشاً ، وجعل يلحظ النبي ﷺ لحظاً شديداً ، وسأله عن أشياء فأخبره النبي ﷺ عما سأله عنه ، فقال بحيرا الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال : ابني ، قال : ما هو ابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخي ، قال : فما فعل أبوه ، قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فما فعلت أمه ، قال : توفيت قريباً ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوا لله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، لما نجده في كتبنا ورويناه عن آبائنا ، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلده ، فرده أبو طالب إلى مكة واشتد تحفظه عليه ، وازداد له حباً وتكريما .

سفره ﷺ إلى الشام للمرة الثانية

ولما بلغ رسول الله ﷺ ، خمساً وعشرين سنة ، سافر إلى الشام للمرة الثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد الأسدية ، وكانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، فأرسلت إلى "محمد" ﷺ وقالت له : إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك .

ففعل رسول الله ﷺ ، وأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فقال له أبو طالب : إن هذا الرزق ساقه الله إليك فخرج النبي ﷺ يريد الشام مع ميسرة غلام خديجة ، وقد أوصت خديجة غلامها ميسرة أن لا يعصي لمحمد ﷺ أمراً ولا يخالف له رأياً .

فلما وصل محمد عليه الصلاة والسلام سوق بصرى نزل تحت ظل شجرة قريبة من صومعة "نسطورا الراهب" وكان نسطورا يعرف ميسرة ، فقال : يا ميسرة من هذا الذي تحت هذه الشجرة ، فقال : رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال نسطورا : ما نزل تحت هذه الشجرة بعد عيسى عليه السلام إلا نبي ، فأتى نسطورا إلى النبي ﷺ ، وقال له : يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة ، خلا خصلة واحدة فأوضح لي عن كتفك ، فأوضح له رسول الله ﷺ عن كتفه ، فإذا بخاتم النبوة يتلألأ ، فأقبل نسطورا عليه يقبله ، ويقول : أشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى .

ثم إن محمداً ﷺ حضر سوق بصرى ، فباع سلعته وربح ربحاً عظيماً ، ثم رجع إلى مكة وقد أحبه ميسرة حباً شديداً لما ظهر له من بركاته وأحواله الكريمة ، ودخل ﷺ على خديجة وأخبرها بما ربحوا فسرت بذلك ، وأعطت النبي ﷺ ، ضعف ما اتفقا عليه من الأجرة ، وقد أخبرها غلامها ميسرة بما سمعه من نسطورا الراهب وما رآه عليه من علامات النبوة ، فأحبته كثيراً .

تزوجه ﷺ بخديجة

وبعد مجيء النبي ﷺ من الشام بشهرين ، تزوج بخديجة رضي الله تعالى عنها - وذلك أن خديجة بعد أن رأت من "محمد" ﷺ الربح العظيم في تجارتها ،

وعلمت من أمانته وصدق حديثه ومكارم أخلاقه ، وسمعت من غلامها ما ظهر منه من علامات النبوة ، أخبرت بذلك ابن عمها "ورقة بن نوفل" وكان قد تنصر وعلم بما في الكتب القديمة ، فقال ورقة لخديجة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإن "محمداً" لنبي هذه الأمة ، وقد علمت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه .

وكانت خديجة امرأة عاقلة صاحبة دراية وحزم وعزم ، وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة وهي يومئذ أفضلهم نسباً ، وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً ، فرغبت في النبي ﷺ وأرسلت الوسائط إليه ، أرسلت نفيسة بنت منبه دسيساً تعرض نكاحها على "محمد" ﷺ بعد أن رجع من الشام ، قالت له نفيسة : ما يمنعك أن تتزوج ، فقال رسول الله ﷺ : ما في يدي ما أتزوج به ، قالت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة والشرف ألا تجيب ؟ قال : فمن هي ، قالت : خديجة ، قال : وكيف لي بذلك ، قالت : علي ، قال: افعلي .

فذهبت نفيسة فأخبرت خديجة بذلك ، فأرسلت إليه خديجة وقالت له : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لأعمامه ، فقام معه حمزة وأبو طالب حتى دخلوا على عمها عمرو بن أسد ، فخطبها إليه أبو طالب ، فقال عمرو بن أسد : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب يخطب خديجة بنت خويلد ، هذا الفحل لا يقدع أنفه ، فحضر أبو بكر الصديق ورؤساء مضر العقد .

فقام عندئذ أبو طالب وخطب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وضئضئ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنه بيته ، وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخي هذا "محمد بن عبدالله" لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً ، وإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مستردة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم "خديجة" وقد بذل لها من الصداق (كذا) .

فأجابه ورقة بن نوفل فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادات العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال

بجبلكم وشرفكم ، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله ، على كذا .

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها عمرو بن أسد ، فقال عمرو بن أسد : اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد – فقبل النبي ﷺ النكاح وأشهد على ذلك صناديد قريش ، وأصدقها اثني عشرة أوقية ونشاً ، والنش نصف أوقية ، والأوقية أربعون درهماً .

فتزوج "محمد" ﷺ لأول مرة في حياته بخديجة رضي الله تعالى عنها ، وكان ذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وعمره إذ ذاك خمسة وعشرون سنة ، وعمر خديجة أربعون سنة ، فلم يتزوج ﷺ قبل خديجة ولا عليها حتى ماتت .

وكانت خديجة قد تزوجت قبله النباش ويكنى بأبي هالة ، فولدت له هنداً وهو من الصحابة وهالة – وهما ذكران – ومات النباش في الجاهلية ، ثم بعد موته تزوجت خديجة عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له بنتاً اسمها "هند" فأسلمت وتزوجت ، ثم مات عتيق ، وقيل تزوجت خديجة أولاً بعتيق ثم بالنباش والله تعالى أعلم .

محبة خديجة لرسول الله ﷺ ومحبته لها

كانت خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها تحب رسول الله ﷺ أصدق الحب ، فعاشرته أحسن عشرة ، وكانت تقوم بخدمته ورعايته خير قيام وأفضل رعاية ، فلا ترى منه ميلاً إلى شيء إلا بادرت به إليه ، وكانت إذا رأته تأخر عن الغذاء تلتمسه بأعلا مكة ومعها غذاؤه .

وكان النبي ﷺ يحبها كثيراً ، ويسكن إليها ، ويثني عليها ، ويقول: "والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء" ، وكان ﷺ إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة .

لقد كانت خديجة رضي الله تعالى عنها تعرف الكثير من شأن رسول الله ﷺ وتحقق نبوته ، لذلك كانت أول من آمنت به ، وانظر إلى ثباتها وحكمة كلامها للنبي ﷺ عند بدء الوحي ، عند أول ما رأى رسول الله ﷺ جبريل في

حراء وقال له : ﴿اقرأ باسم ربك الـذي خلق﴾ فرجـع النبي ﷺ يرجـف فـؤاده ، ودخل على خديجة وقال : زملوني - زملونـي ، فلمـا غطـوه وسـكن روعـه أخـبر خديجة بما كان ، فقالت له : كلا وا لله ما يخزيك ا لله أبـداً ، إنـك لتصـل الرحـم ، وتحمل الكل ، وتكسي المعدم ، وتقري الضيـف ، وتعين علـى نوائـب الحـق ، فـلا يسلط ا لله عليك الشيطان والأوهام ، ولا مراء إن ا لله اختارك لهداية قومك .

ثم انطلقت خديجة به ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفـل ، وكـان عالمـاً يكتـب الكتاب العبراني ، فيكتـب مـن الإنجيـل بالعبرانيـة مـا شـاء ا لله أن يكتـب ، وكـان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : يا ابن أخي ماذا ترى ، فأخبره ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الـذي نزل ا لله على موسى فجبريل رسول ا لله إلى أنبيائه ، ثم قـال ورقـة للنبي ﷺ : يـا ليتني فيها جذعاً "أي شاباً جلداً" إذ يخرجك قومك من بلادك . . . الخ ما قال .

فانظر إلى قوة إيمان خديجة رضي ا لله تعالى عنها بنبوة رسول ا لله ﷺ قبـل أن يعلم الناس عنه ذلك ، لهذا كله كان عليه الصلاة والسلام يحب خديجة حبـاً جمـاً ، وقد ورد في فضلهـا شـيء كثـير ، نذكـر مـن ذلـك حديثـاً واحـداً ، فقـد جـاء في الصحيحين « بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

فهنيئاً لأم المؤمنين "خديجة" رضي ا لله تعالى عنها بما فازت بالقرب والاتصـال بسيد ولد آدم ﷺ .

وتوفيت خديجة رضي ا لله تعالى عنها قبل الهجرة بثـلاث سـنين فحـزن عليهـا رسول ا لله ﷺ حزناً شديداً ، لما رأى من قوة إيمانها وصدق محبتها وقيامها بخدمته ومؤازرتها له عند الشـدائد - اللهـم صـل وسـلم علـى سـيدنا "محمـد" وعلـى آلـه وأزواجه وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين .

عدد أزواجه وسراريه ﷺ

وعدد أزواجه ﷺ إحدى عشرة : (١) خديجـة بنـت خويلـد ، (٢) وعائشـة بنت أبي بكر ، (٣) وحفصـة بنـت عمـر ، (٤) وأم سـلمة بنـت أبـي أميـة ، (٥) وسودة بنت زمعة ، (٦) وزينب بنت جحش ، (٧) وميمونة بنت الحـارث ، (٨) وزينب بنت خزيمة ، (٩) وجويرية بنـت الحـارث وتسـمي بريـرة ، (١٠) وصفيـة

بنت حيي ، (١١) وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان . مـاتت عنـده اثنتـان : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، وتوفي عن التسع الباقيات .

وأما سراريه فأربع : (١) مارية القبطية أم ولـده إبراهيـم ، (٢) وريحانـة القرظية ، (٣) وواحدة وهبتها له زينب بنـت جحـش ، (٤) والرابعة أصابهـا مـن بعض السبي .

عدد أولاده ﷺ

وعدد أولاده ﷺ سبع : أربع من الإناث وثلاثة من الذكـور ، كلهـم مـن أم المؤمنين "خديجة" رضي الله عنها ، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية ، وترتيبهـم في الولادة هكذا : (١) القاسم . وبه يكنـى رسـول الله ﷺ ، وهـو أول مولـود لـه ، وأول من مات من أولاده ، فإنه مات وعمره نحو سنتين ، (٢) فزينب . وهي أكبر بناته وأول من تزوج منهن ، وماتت سنة ثمان مـن الهجرة ، (٣) فرقيـة . تزوجـت بعثمان بن عفان رضي الله عنه ، وماتت في أواخر رمضان سنة اثنتين من الهجـرة ، (٤) ففاطمة . وهي سيدة نساء العـالمين ، ولـدت قبـل الهجـرة بـاثنتي عشـرة سنة تزوجها علي بن أبي طالب في أوائل المحرم سنة اثنتين من الهجرة ، وهـي أم الحسـن والحسين رضي الله عنهم جميعاً ، وتوفيت ثـالث رمضـان سـنة إحـدى عشـر مـن الهجـرة ، أي توفيـت فاطمـة بعـد وفـاة أبيهـا رسـول الله ﷺ بسـتة أشـهر علـى الأصح ، (٥) فأم كلثوم . تزوجهـا عثمـان بـن عفـان رضـي الله عنـه بعـد مـوت أختها رقية سنة ثلاث من الهجرة ، ولذلك يلقب عثمان بذي النورين ، وتوفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ، (٦) فعبد الله . ولـد بمكـة ومـات صغيراً ، ويلقـب بالطيب والطاهر ، (٧) فإبراهيم . وهو من مارية القبطية ، ولد في ذي الحجـة مـن السنة الثامنة للهجرة ، وحين ولادته قال ﷺ : « ولد لي الليلة غـلام فسـميته باسـم أبي إبراهيم ، وتوفي إبراهيم لعشر ليال خلون من ربيع الأول في السنة العاشـرة مـن الهجرة ودفن بالبقيع ، فكان عمره نحو ثمانية عشر شهراً » ، ولمـا تـوفي قـال رسـول الله ﷺ : « إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي ، وإن له لظئرين يكمـلان رضاعـه في الجنة » ، رواه مسلم في صحيحه .

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام : « وإنـا بفراقـك يـا إبراهيـم لمحزونـون » ، رواه الشيخان . وسبب ذلك كما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن روايـة أنـس بـن

مالك رضي ا لله عنه قال : «دخلنا مع رسول ا لله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئراً لإبراهيم ، فأخذ رسول ا لله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول ا لله ﷺ تذرفان ، فقال عبدالرحمن بن عوف : وأنت يا رسول ا لله ، فقال : يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى ، فقال : ﷺ : إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» .

كيفية بدء الوحي

ننقل هنا ما ذكرناه عن بدء الوحي في كتابنا "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" المطبوع للمرة الثانية بمطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر القاهرة – فقد ذكرنا فيه ما نصه :

جاء في صحيح البخاري في أول الجزء الأول منه ما نصه : – عن عائشة أم المؤمنين رضي ا لله عنها أنها قالت : «أول ما بدئ به رسول ا لله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاء الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم﴾ فرجع بها رسول ا لله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي ا لله عنها ، فقال : زملوني ، زملوني – فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا وا لله ما يخزيك ا لله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء ا لله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له

خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ، فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أوَ مخرجي هم؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي » اهـ . من البخاري .

(أما تاريخ بدء الوحي) فإنه ﷺ بينما كان يتعبد بغار حراء بمكة ، إذ جاءه الوحي في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد رسول الله ﷺ ، وهو يوافق ٦ اغسطس سنة ٦١٠ ميلادية ، فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر وثمانية أيام . وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام – انتهى من كتابنا "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" .

كيفية نزول الوحي ونزول القرآن

ذكرنا في كتابنا : "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ما يأتي:

كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في مكة والمدينة وفي غيرهما وفي أوقات مختلفة من ليل أو نهار ، وفي الحالات كلها راكباً وجالساً ، وفي بيته وفي غير بيته ، وعلى فراش زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها .

ولقد كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يجد له مشقة وكرباً لثقل ما يلقى عليه ، قال تعالى : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ – قال العلامة العيني في أول شرحه على البخاري : ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم ، كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرحضاء ، أي البهر والعرق من الشدة ، ولذلك كان جبينه يتفصد عرقاً كما يفصد ، وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية "فأدخل رأسه – فإذا رسول الله ﷺ محمر الوجه وهو يغطي ثم سري عنه" . ومنه في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « كان نبي الله عليه الصلاة والسلام إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربد وجهه » ، وفي حديث الإفك قالت عائشة رضي الله عنها : « فأخذه ما كان يأخذه في البرحاء عند الوحي ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان

من العرق في اليوم الشاتي ، من ثقل القول الذي أنزل عليه » ، وفي الخبر : « إن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها - يعني صدرها - على الأرض ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه » . وأوحي إليه ﷺ وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد .

وجاء في أول صحيح البخاري في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وقول الله جل ذكره : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ وبعد حديث : « إنما الأعمال بالنيات . . . الخ » ما نصه :

حدثنا عبدالله بن يوسف قال : أخبرنا مالك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ، فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا» اهـ .

قال العلامة العيني في شرحه على صحيح البخاري عند هذا الحديث ، عند بيان إتيان الوحي على رسول الله ﷺ ما نصه :

قوله الوحي قد فسرناه فيما مضى ، ولنذكر ههنا أقسامه وصوره .

(أما أقسامه) في حق الأنبياء عليهم الصلاة السلام فعلى ثلاثة أضرب :

(أحدها) سماع الكلام القديم ؛ كسماع موسى عليه السلام بنص القرآن ، ونبينا ﷺ بصحيح الآثار .

(الثاني) وحي رسالة بواسطة الملك .

(الثالث) وحي تلق بالقلب لقوله عليه الصلاة والسلام : إن روح القدس نفث في روعي : أي في نفسي . وقيل كان هذا حال داود عليه السلام . والوحي إلى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمعنى الإلهام ؛ كالوحي إلى النحل .

(وأما صوره) على ما ذكره السهيلي فسبعة:

(الأولى) المنام كما جاء في الحديث .

(الثانية) أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس كما جاء فيه أيضاً .

(الثالثة) أن ينفث في روعه بالوحي.

(الرابعة) أن يتمثل له الملك رجلاً كما في هذا الحديث، وقد كان يأتيه في صورة دحية، قلت: اختصاص تمثله بصورة دحية دون غيره من الصحابة؛ لكونه أحسن أهل زمانه صورة، ولهذا كان يمشي متلثماً خوفاً أن يفتتن به النساء.

(الخامسة) أن يترائى له جبريل عليه السلام في صورته التي خلقها الله تعالى له بستمائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت.

(السادسة) أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب، إما في اليقظة كليلة الإسراء، أو في النوم كما جاء في الترمذي مرفوعاً: «أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى» الحديث. وحديث عائشة الآتي ذكره: «فجاء الملك فقال: اقرأ» ظاهره أن ذلك كان يقظة، وفي السيرة: «فأتاني وأنا نائم»، ويمكن الجمع بأنه جاء أولاً مناماً توطئة وتيسيراً عليه وترفقاً به. وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «مكث عليه الصلاة والسلام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه».

(السابعة) وحي إسرافيل عليه السلام كما جاء عن الشعبي «أن النبي ﷺ وكل به إسرافيل عليه السلام فكان يترائى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثم وكل به جبريل عليه السلام».

وفي مسند أحمد بإسناد صحيح عن الشعبي «أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة». وأنكر الواقدي وغيره كونه وكل به غير جبريل عليه السلام.

وقال أحمد بن محمد البغدادي: أكثر ما كان في الشريعة مما أوحي إلى رسول الله ﷺ على لسان جبريل عليه السلام، انتهى من شرح العيني.

ولقد نظم هذه الصور السبعة العلامة الإمام ابن المختار الجكني الشنقيطي أحد علماء القرن الثاني عشر للهجرة فقال:

قد أنزل الوحي على سبع صور ... على النبي من منزل السور
منهن أولاهن وهي الرؤيا ... أو أن أنشا يتلقى الوحيا
منها ترائي ملك الصور الرضى ... منها ترائي جبرئيل المرتضى
في الصورة التي عليها برأه ... باريه ذا أجنحة ستمائة
ينتشر اللؤلؤ والياقوت ... منها وتعي دونها النعوت
منهن تكليم الإله من ورا ... حجاب النبي أشرف الورى
والنفث في الروع ومثل الصلصلة ... ثنتان من صور هذه السلسلة
تمثل الروح الأمين رجلا ... للمصطفى العد بها قد كملا
جاء السهيلي بكل صوره ... منهن عن خير الورى مأثوره
جمعها في روضة الروض الأنف ... فيلقطفها من هناك المقتطف

وأما نزول القرآن، فقد جاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ الآية ملخصة. روى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»، وفي حديث جابر بن عبد الله: «إن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثمان عشرة»، والباقي كما تقدم.

وقال إسرائيل عن السدي عن محمد بن أبي المجالد عن مقسم، عن ابن عباس، أنه سأل عطية الأسود فقال: وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في ليلة القدر وليلة وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام، وفي رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «أنزل القرآن في النصف الثاني من شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس».

وفي رواية عكرمة عن ابن عباس ، قال : «نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة ، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ۞ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾» اهـ . من تفسير ابن كثير .

انتهى نقل ما تقدم من كتابنا "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" ، ونكتفي بما ذكرناه هنا عن كل ما يتعلق بالقرآن العظيم من جميع النواحي ، حتى لا يطول بنا المقام ، ومن أراد زيادة البحث فعليه بكتابنا المذكور ففيه ما يشفي الفؤاد .

دعوة النبي ﷺ لعبادة الله تعالى سراً

لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ۞ وربك فكبر ۞ وثيابك فطهر ۞ والرجز فاهجر ۞ ولا تمنن تستكثر ۞ ولربك فاصبر﴾ ، قام ﷺ بالدعوة إلى عبادة الله أولاً سراً .

فكان أول من أسلم زوجته خديجة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، فقد كان مقيماً عنده يطعمه ويسقيه ويقيم بأمره ، ومولاه زيد بن حارثة ويقال له زيد بن محمد ، لأن النبي ﷺ لما اشتراه أعتقه وتبناه ، وحاضنته ﷺ أم أيمن التي زوجها لمولاه زيد ، وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر الصديق ، وكان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة . وقد دعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع (منهم): عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وصهيب الرومي ، وعمار بن ياسر ، وأبوه وأمه ، وعبدالله بن مسعود ، وأبو ذر الغفاري ، وسعيد بن العدوي القرشي وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبدالمطلب ، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم النبي ﷺ ، وأبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة النبي ﷺ وزوجة أم سلمة ، وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي ، وأخواه قدامة وعبدالله ، والأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي القرشي ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخوه عمر بن سعيد ، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في دار الأرقم .

ولما كان هؤلاء السعداء لا بد لهم من تعليمهم وإرشادهم ، فقد اختار رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المذكور هنا للاجتماع بهم ، وكانت هذه الدار بأول الصفا ، وسنتكلم عنها إن شاء الله تعالى .

الجهر بالدعوة

مكث رسول الله ﷺ يدعو سراً إلى عبادة الله تعالى في أول الأمر ، ولا يظهر الدعوة في مجامع قريش ، حتى نزل عليه قوله تعالى : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ فعندئذ جهر رسول الله ﷺ بالدعوة ، فصعد على الصفا وجعل ينادي : يا بنى فهر يا بني عدى لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج بنفسه أرسل رسولاً لينظر له الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبدالمطلب وغيره من قريش ، فقال عليه الصلاة والسلام : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي . قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب: تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله تعالى في شأنه : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ۞ ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ إلى آخر السورة .

ثم نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ وهم (بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف) فجمعهم النبي ﷺ ، وقال لهم: إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً . فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبي لهب فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن سلمتموه إذا ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا . ثم انصرف الجمع .

وبسبب الجهر بالدعوة لقي رسول الله ﷺ من قريش أذى كثيراً ، وكان بعض هذا الأذى سبباً في إسلام عمه حمزة بن عبدالمطلب ، فكان يناصر المسلمين ويشتد على أعداء الدين .

فلما ازداد الأذى من المشركين بسبب الدعوة ، أذن الله تعالى لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة ، بعد أن مكث بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو إلى الله

تعالى ، ولا نريد إطالة البحث والكلام فيما لقيه النبي ﷺ والمسلمون من أذى قريش بالتفصيل ، فإن كل ذلك يعلم من السيرة النبوية ، وإنما نأتي بتفصيل الهجرة إلى المدينة المنورة إن شاء الله تعالى ؛ لما في ذلك من الفوائد الجمة .

حصار النبي ﷺ بشعب علي بسوق الليل بمكة

قال الخضري رحمه الله تعالى في كتابه "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين" ﷺ ما يأتي : لما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيداً من شبانهم يتبناه ويسلم إليهم ابن أخيه ، فقال : عجباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ .

فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب ، فإنه كان مع قريش ، وانخزل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف ، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب . انتهى من نور اليقين .

ولما قال أشراف مكة لأبي طالب : إما أن تخلي بيننا وبينه فنكفيكه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، أو اجمع لحربنا ، فإنا لسنا بتاركي ابن اخيك على هذا ، حتى نهلكه أو يكف عنا ، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص .

بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك جاؤني وقالوا كذا وكذا ، فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك ، فقال ﷺ : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه» فقال : امض على أمرك ، فوالله لا أسلمك أبداً .

ودعا أبو طالب أقاربه إلى نصرته فأجابه بنو هاشم ، وبنو المطلب ، غير أبي لهب ، وقال أبو طالب :

وا لله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وقال أبو طالب أيضاً في حصارهم قصيدته اللامية المشهورة التي أولها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهمو وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاعوا أمر العدو المزاول
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وأسرتي وأمسكت من أثوابه بالوصائل
أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة الشهيرة.

نقض الصحيفة التي كتبها كفار قريش

ثم قال الخضري في كتابه "نور اليقين" ما يأتي: وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم (هشام بن عمرو بن الحارث العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء، وزهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمة الرسول عاتكة، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري ابن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي)، واتفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ! وا لله لا أقعد حتى تشق الصحيفة الظالمة القاطعة. فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت وا لله أكذب ! ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وصدق على ما قال هشام بن عمرو، فقام إليه المطعم بن عدي فشقها. وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم ا لله، وقد أخبر النبي عليه السلام عمه أبا

طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر ، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة . انتهى من نور اليقين .

جاء في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم عند حديث : «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه - يعني أبا طالب» رواه البخاري ومسلم - ما نصه :

قوله: «لعله تنفعه شفاعتي . . . الخ» - الضمير فيه لأبي طالب عم النبي ﷺ كما بيناه بقولنا: يعني أبا طالب واسم أبي طالب عبد مناف وهو شقيق عبد الله والد النبي ﷺ ، وهو كافل النبي ﷺ بعد موت جده عبد المطلب ، وأما والده عبد الله فتوفي عنه في بطن أمه آمنة بنت وهب على الصحيح ، فلما ولد النبي عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي ، فكفله أبو طالب وكان يحبه ويحوطه إلى أن بعثه الله تعالى فنصره وأجاره ممن يريد إساءته ، وعادى فيه قريشاً والعرب ، وناصبوه كي يسلمه إليهم فأبى ، فتحالفت قريش وكنانة على بني هاشم وبني المطلب ، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ ، وفي السيرة وكتبوا بذلك كتاباً بخط بغيض بن عامر بن هاشم ، وعلقوه في جوف الكعبة وتمادوا على العمل بما فيه من ذلك ثلاث سنين ، واشتد البلاء على بني هاشم في شعبهم وعلى كل من معهم ، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصي ممن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة ، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة ، فأكلت ولحست ما فيها من ميثاق وعهد ، وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل ، وأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فقال : أربك أخبرك بذلك ، قال : نعم ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبتني ، ثم خرج أبو طالب ، فقال: يا معشر قريش ، إن ابن أخي أخبرني أن الله عز وجل قد سلط على صحيفتكم الأرضة فإن كان كما يقول ، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا قتلتم أو استحييتم ، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول . ففتحوا الصحيفه فوجدوها كما أخبر ، فقالوا : هذا سحر ابن أخيك ، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ، فنقض الله سبحانه أمر الصحيفة وأظهر أمر نبيه عليه الصلاة والسلام على ما هو مذكور في كتب الحديث والسير .

بعض ما لقيه رسول الله ﷺ من التعب والمشقة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى

لما بعث الله تبارك وتعالى نبينا "محمد" ﷺ ليدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وهجر الأصنام ونبذها، قام بامتثال أمر ربه خير قيام، فجهر بالدعوة ودعا الناس إلى الإيمان والإسلام، ودعاهم بقلب ثابت وجنان قوي، لأن الله تعالى قد شرح صدره لذلك فلا يبالي بالعقبات التي تعترضه وكيف يبالي بشيء وهو المؤيد من الله العزيز الحكيم.

لما قام رسول الله ﷺ يدعو قريشاً إلى عبادة الله تعالى وترك عبادة الأصنام، تظاهروا له بالعداوة الشديدة، وصاروا يؤذونه بمختلف أنواع الإيذاء والعداء من قول أو فعل، ولسنا الآن في صدد بيان كل ذلك بالتفصيل، ولكن نذكر حادثة واحدة من ذلك فنقول وبالله التوفيق:

لما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة قامت قريش في وجهه يردون عليه ويأذونه أشد الإيذاء، وأحياناً يعرضون عليه الرئاسة والأموال ليتردع ولا يبطل اعتقاداتهم ولا يسب آلهتهم، لكنه ﷺ كان صلباً قوياً في الدعوة، لا تغره الرئاسة والأموال، ولا يخشى عداوة قومه، بل يمضي في الدعوة بهمة وعزم، لا يطرقه الكلل ولا الملل.

لما رأى المشركون أنه ﷺ لا تلين قناته ولا يخشى بأسه ولا يرغب في الأموال والرئاسة، أرادوا أن يضيقوا عليه وعلى آله أشد الضيق، فذهبوا إلى عمه أبي طالب الذي أخذ على نفسه حمايته من أعدائه وهو يومئذ سيد بني هاشم، فطلبوا منه إما أن يكف ابن أخيه عنهم، وإما أن يخلي بينهم وبينه، فردهم أبو طالب رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ثم إن أبا طالب قال لابن أخيه "محمد" ﷺ: يا ابن أخي إن القوم جاءوني فقالوا لي كذا، فابق على نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن الرسول أن عمه خاذله فقال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم بكى وولى، فقال أبو طالب: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه فقال: اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك. اهـ.

هذا ولما رأت قريش أنهم عجزوا عن رد رسول الله ﷺ عن الدعوة، أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف، وإخراجهم من بطن مكة والتضييق عليهم فلا يتعاملون معهم بشيء، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا "محمداً" ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة المعظمة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب، وهو المعروف اليوم "بشعب علي"، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب، فإنه كان مع قريش، فلما انفصلوا عن قريش بالشعب المذكور، جهد القوم جهداً عظيماً وتعبوا تعباً شديداً حتى أكلوا أوراق الأشجار، لأن قريشاً شددوا الحصار عليهم، وكان ذلك في السنة السابعة من البعثة، ومكثوا على هذا الحال من الضيق والتعب الشديد ثلاث سنوات.

ثم قام خمسة من أشراف قريش وعقلائهم يطالبون بنقض هذه الصحيفة منهم زهير ابن أبي أمية المخزومي ابن عاتكة عمة رسول الله ﷺ، فغدا من الصباح إلى المسجد الحرام وقد لبس حلته الجميلة، فطاف بالبيت ثم أقبل على قريش، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة "أي قاطعة للرحمة والمحبة". فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب، إننا ما رضينا حين كتابتها، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وصدق على ما قال هشام ابن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدي فشقها، وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر. فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة، وجاء الفرج والنصر من الله عز وجل.

فانظر رحمنا الله تعالى وإياك إلى ما لقيه رسول الله ﷺ من الإيذاء والبلاء والتعب والشدة، في سبيل الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له، وهو أكرم على الله عز وجل الذي له ملك السموات والأرض، فهل نحن لقينا من الشدة والبلاء، ما أكلنا في يوم من الأيام أوراق الشجر، أو نمنا في العراء على الحجر؟ كلا والله. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم من المنزلة السامية والمكانة

الرفيعة عند الله عز وجل ما لا تدركه عقولنا المحدودة ، اللهم صل على عبدك ونبيك "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

ولقد قال أبو طالب حينما كان هو وصحبه بالشعب مع رسول الله ﷺ قصيدة عصماء ذكرها صاحب مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى بعنوان "القصيدة الشِّعبية" بكسر الشين المعجمة نسبة إلى شعب علي ونحب أن ننقل نص ما ذكره في كتابه المذكور وهو هذا :

القصيدة الشعبية

قال هذه القصيدة أبو طالب عم النبي ﷺ في الشِّعْب وهو شِعْب أبي طالب الذي آوى إليه بنو المطلب وبنو هاشم مع رسول الله ﷺ لما تحالفت عليهم قريش وكتبوا الصحيفة ، تعاقدت فيها على مقاطعتهم حتى يسلموا لهم محمداً ﷺ ، وذلك سنة سبع من النبوة ، وعلقوا هذه الصحيفة في الكعبة ، وكتب هذه الصحيفة منصور بن عكرمة بن هشام فَشُلَّت يده .

فمكثوا بالشعب سنتين أو أكثر لا يصل إليهم شيء إلا سراً ، ولا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا طالب بأن الله تعالى قد أوحى إليه أنه سلط الأرضة على الصحيفة ، فأكلت جميع ما فيها من الظلم والقطيعة ولم تدع غير اسم الله ، فوجدوها كذلك وخرجوا من الشعب .

واسم أبي طالب عبد مناف واشتهر بكنيته ، وقد كفل رسول الله ﷺ وضمه إليه وعمره الشريف ثمان سنين ، بوصاية جده عبدالمطلب ، وسافر به إلى الشام وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ولما بعث عليه الصلاة والسلام قام بنصرته وذب عنه ومدحه عدة مدائح . فمن قوله :

ودعوتني وزعمت أنك صادق ... ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

ومما قاله في الشِّعْب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيا وخصا من لؤي بني كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خط في أول الكتب

وإليك قصيدة أبي طالب التي قالها حينما كانوا في الشِّعْب :

خليلـــي مــــا إذنـــي لأول عــــاذل ... بصغــواء في حــق ولا عنـــد بـــاطل
خليلـــي إن الـــرأي ليــس بشــركة ... ولا نهنــه عنــد الأمـــور البلابـــل
رأيـــت القـــوم لا ودّ عندهـــــم ... وقــد قطعــوا كـل العــرى والوســائل
وقـــد صارحونـــا بـــالعداوة والأذى ... وقــد طــاوعوا أمــر العــدو المزايــل
وقــد حـــالفوا قومـــاً علينـــا أظنــة ... يعضـــون غيظـــاً خلفنـــا بالأنــــامل
صـبرت لهـم نفسـي بسـمراء سمحـة ... وأبيـض عضـب مـن تـراث المقـاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمســكت مــن أثوابــه بالوصـــائل
قيامـــاً معـــاً مســـتقبلين رتاجـــه ... لدي حيــث يقضي خلفـه كـل نـافل
أعـوذ بـرب النـاس مـن كـل طـاعن ... علينـــا بســـوء أو ملـــح ببـــاطل
ومــن كاشـح يسـعى لنـا بمعيبــة ... ومــن ملحــق في الديــن مــا لم نحــاول
وثــور ومــن أرســى ثبــيراً مكانــه ... وراق لـــبر في حــــراء ونـــازل
وبـالبيت حـق البيـت مـن بطـن مكـة ... وبـــالله: إن الله ليـــس بغـــافل
وبـــالحجر المســـود إذ يمســـحونه ... إذا اكتنفــوه بـــالضحى والأصـــائل
وموطـئ إبراهيــم في الصخــر رطبــة ... علـــى قدميـــه حافيـــاً غـــير نـــاعل
وأشـــواط بـــين المروتـــين إلى الصفـــا ... ومـــا فيهمـــا مـــن صـــورة وتمـــاثل
ومن حـج بيـت الله مـن كـل راكـب ... ومن كل ذي نـذر ومـن كـل راجـل
فهــل بعــد هــذا مــن معــاذ لعـــائذ ... وهــل مــن معيــذ يتقــي الله عـــادل
يطــاع بنــا الأعــداء وودوا لــو أننــا ... تســـد أبـــواب تـــرك وكـــابل
كذبتــم وبيـــت الله نـــبزي محمــداً ... ولمـــا نطـــاعن دونـــه ونناضـــل
ونســلمه حتـــى نصـــرع حولـــه ... ونذهـــل عـــن أبنائنـــا والحلائـــل
وينهـــض قـــوم في الحديـــد إليكـــم ... نهوض الروايـا تحـت ذات الصلاصـل
وحتى نرى ذا الضغن يركـب ردعـه ... مـن الطعـن فعـل الأنكـب المتحـامل
وإنـــا لعمـــر الله إن جـــد مـــا أرى ... لتلتبســـــن أســـــيافنا بالأمـــــاثل
بكفـي فتـى مثـل الشــهاب سميــذع ... أخــي ثقـة حـامي الحقيقـة باسـل
ومـــا تـــرك قـــوم لا أبـــا لـــك ســـيدا ... يحــوط الذمــار غــير ذرب مواكــل
وأبيـض يستسـقي الغمـام بوجهـه ... ثمـــال اليتـــامى عصمـــة للأرامـــل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... عقوبة شر عاجل غير آجل

بميزان قسط لا يخس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائل

وكل صديق وابن أخت نعده ... لعمري وجدنا غبه غير طائل

سوى أن رهطاً من كلاب بن مرة ... براء إلينا من معقة خاذل

ونعم ابن اخت القوم غير مكذب ... زهير حساماً مفرداً من حمائل

أشم من الشم البهاليل ينتمي ... إلى حسب في حومة المجد فاضل

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وإخواته دأب المحب المواصل

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزيْناً لمن ولاه ذب المشاكل

فمن مثله في الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

فأيده رب العالمين بنصرة ... وأظهر ديناً حقه غير ناصل

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تجر على أشياخنا في القبائل

لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة ... يقصر عنها سورة المتطاول

حديث بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

انتهى من كتاب مرآة الحرمين، ومن أراد شرح بعض ألفاظ هذه القصيدة البليغة فلينظر في الكتاب المذكور صحيفة (٦٤) من الجزء الثاني.

قال ابن كثير عن هذه القصيدة الشعبية: إنها قصيدة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع وأبلغ في تأدية المعنى. اهـ.

جدول الحوادث الواقعة في سنوات الهجرة

في بيان أشهر الحوادث التي وقعت من السنة الأولى لهجرة رسول الله ﷺ إلى حين وفاته. أما الإسراء والمعراج فكان قبل الهجرة وفيه فرضت الصلوات الخمس.

ذكر أشهر الحوادث الواقعة باختصار	سنة الهجرة
بناء مسجده ﷺ بالمدينة ، وبدأ الأذان ، ومشروعية القتال وبدؤه ، ووفاة عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ وغيره ، وفي شوال من هذه السنة بنى رسول الله ﷺ بعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وكان سنها تسع سنين ، وكان قد تزوجها وعمرها ست سنين أو سبع ، وفي هذه السنة أسلم سلمان الفارسي رضي الله عنه .	السنة الأولى
غزوة بدر الكبرى ، وتحويل القبلة ، وجوب صوم رمضان وزكاة الفطر ، وجوب زكاة الأموال ، ومشروعية صلاة العيد ، وزواج علي بفاطمة رضي الله تعالى عنهما ، وماتت رقية بنت رسول الله ﷺ زوجة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما .	السنة الثانية
غزوة أحد ، وفيها استشهد حمزة رضي الله عنه ، وحرمت الخمر ، وزوّج النبي ﷺ بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، وتزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وتزوّج عليه الصلاة والسلام أيضاً زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها ، وولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .	السنة الثالثة
ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وتوفيت أم المؤمنين زينب بن خزيمة ، وتزوّج ﷺ أم سلمة هنداً بعد وفاة زوجها أبي سلمة ، وفي ذي القعدة من هذه السنة رجم رسول الله ﷺ اليهود واليهودية بالزنا .	السنة الرابعة
مشروعية فريضة الحج، وحصل حديث الإفك، وغزوة دومة الجندل، وغزوة بني المصطلق، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة ، وتزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش،	السنة الخامسة

سنة الهجرة	ذكر أشهر الحوادث الواقعة باختصار
	ونزلت آية الحجاب، وتزوج ﷺ أيضاً بريرة بنت الحارث سيد بني المصطلق وسماها "جويرة" ونزلت آية التيمم.
السنة السادسة	غزوة الحديبية ، وبيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، ومكاتبة النبي ﷺ ملوك الأرض ، وزيارة النبي ﷺ قبر أمه ، واستسقى رسول الله ﷺ لما أجدب الناس فمطروا سبعة أيام بلياليهن .
السنة السابعة	غزوة خيبر ، وتزوّج ﷺ صفية بنت حيي سيد بني النضير ، والنهي عن نكاح المتعة ، والنهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية ، ورجع من هاجر إلى الحبشة وكان مع من رجع أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان وهي زوجة رسول الله ﷺ ، زوّجه إياها خالد بن سعيد بن العاص بالحبشة ، وأصدقها النجاشي عنه أربعمائة دينار ، وهو الذي خطبها للنبي ﷺ ، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص السهمي ، وعثمان بن أبي طلحة العبدري ، وحصل عمرة القضاء . وتزوج عليه الصلاة والسلام وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية ولم يدخل بها إلا بعد خروجه من مكة في موضع يقال له سَرِف بين عسفان وقديد . وفي هذه السنة اتخذ رسول الله ﷺ لنفسه خاتماً من فضة ونقش فيه محمد رسول الله وذلك ليختم به رسائل الملوك ، وأسلم أبو هريرة رضي الله عنه . وفي هذه السنة أهدى المقوقس ملك الاسكندرية ومصر إلى النبي ﷺ جملة أشياء – منها مارية وسيرين أختها وجاريتان أخريان وخصي يقال له مأبور وثياب وألف مثقال من الذهب وفرس وبغلة يقال لها الدلال وحمار يقال له يعفور وغير ذلك .
السنة الثامنة	فتح مكة شرفها الله تعالى – وذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وماتت زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأسلم حكيم بن حزام الذي ولد في الكعبة ، وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم من

سنة الهجرة	ذكر أشهر الحوادث الواقعة باختصار
	مارية القبطية وذلك في ذي الحجة من هذه السنة .
السنة التاسعة	غزوة تبوك ، أرسل النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه في أواخر ذي القعدة ليحج بالناس – ونادى : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وفاة أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وزوجة عثمان رضي الله عنه ، وفي هذه السنة ابتدأت قدوم وفود العرب إلى الرسول ﷺ ليبايعوه على الإسلام ، وفي هذه السنة هجر النبي ﷺ نساءه شهراً .
السنة العاشرة	حجة الوداع ، وفاة إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وفي هذه السنة كثرت وفود العرب على رسول الله ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وفي هذه السنة طلع جبريل بمجلس النبي ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، طيب الرائحة ، حسن الوجه ، رآه كل من في المجلس ، وسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان والقيامة وعلامات الساعة .
السنة الحادية عشرة	مرض رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر ، وفاة رسول الله ﷺ في اليوم الثالث عشر من ربيع الأول ، وماتت بعده بستة أشهر على الأصح ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها ، وبويع بالخليفة أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وذلك يوم قبض رسول الله ﷺ .

ابتداء مرضه ﷺ

لما بلغ رسول الله ﷺ رسالة ربه إلى العالمين كافة ، ولما أتم الله أحكام شريعته وأكمل دينه كما قال عز شأنه وجل جلاله هذه الآية التي أنزلت يوم عرفة في حجة الوداع: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ –كان من الفهوم أن يرتاح هذا النبي العربي الكريم من تعب هذه الدنيا الفانية وعنائها ، وأن يتنعم بجوار ربه العلي الأعلى ويحظى برضائه وجناته .

فحينما نزلت هذه الآية ، ونزلت بعدها سورة: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ، عرف رسول الله ﷺ أن حياته قد انتهت لم يبق منها إلا أيام قلائل ، وقد عرض بذلك في إحدى خطبه ، فقال : « إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر وقال : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا » .

فإذا كتب الموت على خير خلق الله سيد ولد آدم ، فمن نكون نحن ؟ اللهم اختم حياتنا بخير على ما تحبه وترضى ، على الإيمان الكامل وراحة تامة ونظافة كاملة بغير تعب ولا نصب بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

كان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت زوجته ميمونة ، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه ، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض في بيت زوجته عائشة بنت أبي بكر فأذنَّ له ، ولما دخل بيتها واشتد عليه الوجع ، قال : «هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس فأجلس ﷺ وصب عليه الماء لتخفيف حرارة الحمى » .

ولما تعذر على رسول الله ﷺ الخروج إلى الصلاة ، قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ، ولما رأى الأنصار اشتداد وجع ﷺ أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، فخرج ﷺ متوكئاً على علي والفضل ، وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر ، وثار الناس إليه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال: « أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ، ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم . . . » إلى آخر خطبته العظيمة ﷺ .

وبينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة يصلي بهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، إذا برسول الله ﷺ ، قد كشف سجف حجرة عائشة رضي الله عنها فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهمَّ المسلمون أن

يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

وفاة رسول الله ﷺ

وفي ضحى يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة توفي رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، أي في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة المنورة ، وقبض ﷺ في كساء ملبد ، قال أبو بردة : أخرجت إلينا عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً ، فقالت : قبض رسول الله ﷺ في هذين .

ولما توفي رسول الله ﷺ دهش الناس وطاشت عقولهم ، فمنهم من خبل ومنهم من أصمت ، ومنهم من أقعد إلى الأرض ، فكان عمر بن الخطاب ممن خبل ، فجعل يصيح ويقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات .

وأما عثمان بن عفان فأخرس حتى يذهب به ويجاء ولا يتكلم إلا بعد الغد ، وأقعد علي بن أبي طالب فلم يستطع حراكاً ، وأضني عبد الله بن أنيس ، ولم يكن فهيم أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس .

وكان أبو بكر غائباً بالسنح وهي منازل بني الحارث من الخزرج بعوالي المدينة بينه وبين منزل النبي ﷺ ميل ، فأقبل على فرس ، فلما أخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثا يقبله ويبكي ويقول : توفي والذي نفسي بيده ، صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين ، ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : "ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ، وقوله عز شأنه : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

قال عمر : فكأني لم أتل هذه الآية قط ، ودفن رسول الله ﷺ حيث قبض في حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها ، وأنزله في القبر علي والعباس وولداه الفضل وقثم ، ورش بلال قبره بالماء . فيكون عمره عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وستين سنة .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال ، اللهم اختم حياتنا بالأعمال الصالحات ، واسترنا في الحياة وبعد الممات ، وارزقنا علماً غزيراً نافعاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً بلا طغيان بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

هذا خلاصة الكلام عن مرضه ﷺ ووفاته وانظر تفصيل ذلك فيما يأتي .

سورة النصر ونزولها بمنى في حجة الوداع

نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية وهي آخر ما نزل من السور وآياتها (٣) نزلت بعد سورة (التوبة).

بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾.

قيل: إن هذه السورة آخر سورة نزلت يوم النحر ، والنبي ﷺ بمنى في حجة الوداع - وللطبراني من حديث جابر : « لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ : نعيت إلي نفسي : فقال له جبريل : وللآخرة خير لك من الأولى . قالت أم سلمة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء ، إلا قال : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه . فقلت له : إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم . فقال : إن ربي أخبرني سأرى علماً في أمتي ، وأني إذا رأيته أسبح بحمده وأستغفره ، ثم تلا هذه السورة » - رواه ابن جرير وغيره .

لقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله ﷺ فقد روي أنها حين نزلت قال عليه الصلاة والسلام : « نعيت إلي

نفسي» . وقال في خطبته : « إن عبداً خيره ا لله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء ا لله تعالى – فقال أبو بكر رضي ا لله تعالى عنه : فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا » .

ومعنى الآيات : إذا جاء نصر ا لله والفتح لك "يا محمد" ودانت لك العرب – وتتابعت الفتوحات عليك التي منها الفتح الأعظم ، فتح مكة وبلدتك التي أخرجوك منها– وإذا رأيت الناس يدخلون في دين ا لله أفواجاً وجماعات رغبة وحباً في الإسلام ، فاعلم أنه قد علا شأنك وانتشر دينك وجاء الحق وزهق الباطل –وبهذا تكون مهمتك النبوية قد انتهت– وتكون أنت قد أديت الأمانة وبلغت الرسالة ، فلا خوف بعد موتك على دين ا لله تعالى أبداً – فلا يزال ينتشر في جميع البلدان ويزحف على جميع البقاع والأطراف ، ويتتابع الناس في الدخول في دين ا لله أفواجاً أفواجاً إلى قيام الساعة –فحينئذ تفرغ لعبادة ا لله تعالى أكثر من حالتك الأولى استعداداً للقاء ربك– ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ حيث قد قرب أجلك ودنا ذهابك إلى الرفيق الأعلى .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي ا لله تعالى عنها ، قالت: « ما صلى رسول ا لله ، ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة : ﴿إذا جاء نصر ا لله والفتح﴾ – إلا يقول : أستغفر ا لله وأتوب إليه – قال : فإني أمرت بها – ثم قرأ: ﴿إذا جاء نصر ا لله والفتح﴾ إلى آخرها » – وقال عكرمة : لم يكن النبي ﷺ قط أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص والعباس ، ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ، فقال له النبي ، ﷺ : ما يبكيك يا عم ؟ قال : نعيت إليك نفسك ، قال : إنه كما قلت ، فعاش بعدها ستون يوماً ما رؤي فيها ضاحكاً . اهـ .

وقيل : عاش ﷺ بعدها ثمانين يوماً . انتهى .

والمعقول أنه ﷺ عاش بعد نزول هذه السورة اثنين وتسعين يوماً ، وذلك من عاشر ذي الحجة ، وهو تاريخ نزول هذه السورة إلى يوم وفاته ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول .

ويؤخذ من هذه السورة المباركة الكريمة التي نزلت في حجة الوداع أن الناس قد دخلوا بالفعل في دين ا لله أفواجاً أفواجاً ، فإن النصر العظيم لرسول ا لله ﷺ في الفتح الأعظم وهو فتح مكة شرفها ا لله تعالى وأدام أمنها وخيرها ورخاءها –

الذي كان في رمضان في السنة الثامنه للهجرة ، فلقد أقبل الناس من قريش وغيرهم يبايعون رسول الله ﷺ ويدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً - وعندما نزلت هذه السورة في يوم النحر بمنى ، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو يوم عيد الأضحى المبارك ، في حجة الوداع ، كان عدد من حج من المسلمين مع رسول الله ﷺ ، في هذه الحجة مائة وعشرين ألفاً وقيل أكثر من ذلك - ولم يكن معهم أحد من المشركين أبداً - ثم عقب هذه الحجة بنحو ثلاثة أشهر توفي رسول الله ، ﷺ . أليس هذا هو النصر المبين والفتح الأعظم لنبينا "محمد" ﷺ ، بعد أن كانت مكة وجميع البقاع ممتلئة بالمشركين والكفار ؟ بلا والله - فسبحانه القادر على كل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء .

كما يؤخذ من هذه السورة الكريمة ومن حالة رسول الله ﷺ ، بعد نزولها عليه أنه ينبغي على كل مؤمن إذا كبرت سنه وبلغ حد الشيخوخة ، أن لا يغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، وأن يكثر من التسبيح والاستغفار في جميع حالاته ، إذا تحرك أو سكن أو قام أو مشى أو أكثر من الكلام الفارغ- لأنه لا يدري متى تأتي منيته ، فإذا ألف لسانه على ذكر الله تعالى ، وعلى التسبيح والتهليل والاستغفار والإنابة ، فربما تأتي منيته وهو على هذه الحالة ، فيكون سعيداً ، فائزاً برضاء الله عز وجل ، وما أبرك أن تأتي منية الإنسان وهو على أفضل حالة من الاشتغال بالتسبيح والاستغفار والعبادة - القلبية أو البدنية - نسأل الله تعالى أن يميتنا على أحسن الحالات على طهارة ونظافة وراحة تامة ، وعلى الإيمان الكامل واليقين التام - إنه سبحانه وتعالى أكرم مسئول وأعظم مأمول جل جلاله ولا إله غيره والله أكبر .

وإليك مبحثاً خاصاً بالتفصيل في وفاته ﷺ .

فصل في وفاة رسول الله ﷺ

إن في وفاة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعبرة وأيّ عبرة خصوصاً في وفاة نبينا "محمد" ﷺ وفي دفنه والصلاة عليه - فإذا كان خيار الخلق وصفوة الناس ذاقوا الموت ودفنوا تحت الثرى فهل مثلنا يبقى على وجه الأرض ؟ كلا والله ﴿كل من عليها فان ۞ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فكل واحد منا يعيش إلى أجل معلوم ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾

فسبحان من تفـرد بالبقـاء وسـبحان مـن تعـزز بـالقدرة وسـبحان مـن قهـر العبـاد بالموت .

وإليك الكلام بالتفصيل عـن وفـاة نبينـا "محمـد" ﷺ ، فنقـول وبـا لله التوفيـق ونسأل ا لله الراحة عند الموت والعفو عند الحساب إنه بعباده لطيف خبير .

(اعلم) رحمنا ا لله وإياك أن رسول ا لله ﷺ حج حجة الوداع -بفتـح الـواو ، في السنة العاشرة من الهجرة وخرج لها مـن المدينـة لخمـس بقـين مـن ذي القعـدة ، ومكث في الطريق ثمان ليال- وهي المسافة الوسطى بالجمال بين مكـة والمدينـة - وخرج معه ﷺ تسعون ألفاً وقيل مائة ألف وأربعة عشـر ألفـاً وقيـل أكـثر -كمـا حكاه البيهقي- وكان وقوفه بعرفة يوم الجمعة كما ثبت وتواتر .

ثم بعد أن أدى ﷺ مناسك الحج ، وأقام بمكة عشرة أيام رجـع إلى المدينـة - وسميت حجة الوداع ؛ لأنه ﷺ توفي فلم يحج بعدهـا - ولقـد كـان عليـه الصـلاة والسلام عارفاً بذلك - فإنه قال في خطبته يوم عرفة : «أيها الناس اسمعوا مني أبـين لكم فإني لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . . » ، إلى آخر خطبته العظيمة الشهيرة - وفي صحيح البخاري عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ حج بعد مـا هـاجر حجة واحدة لم يحج بعدها وهي حجة الوداع . اهـ .

وقد فرض الحج في أواخر السنة الخامسة وقيل فرض في السنة السادسة .

ثم استقبل رسول ا لله ﷺ العام الحادي عشر من الهجرة في المدينة ، وفي اليـوم السادس والعشرين من شهر صفر جهز رسول ا لله ﷺ جيشاً لغـزو الشـام وفيهـم كبار المهاجرين والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد رضي ا لله تعـالى عنهم - وولى على هذا الجيش أسامة بن زيـد وهـو يومئـذ في السـابعة عشـرة مـن عمره رضي ا لله تعالى عنه - ولكن هذا الجيش لم يخرج في عهـد رسـول ا لله ﷺ من المدينة بسبب بدء مرضه بل خرج بعد وفاته ﷺ وبعـد توليـة أبي بكـر رضـي ا لله عنه ، فإن أول عمل عمله أبو بكر بعد توليتـه أن سـير جيـش أسـامة بـن زيـد رضي ا لله تعالى عنهما ، وخرج بنفسه يشـيعه ماشـياً وأسـامة راكـب - فقـال لـه أسامة : يا خليفة رسول ا لله لتركبن أو لأنزلن ، فقال أبو بكر : وا لله ما نزلت ولا ركبت ، وما عليّ أن أغبر قدمي سـاعة في سـبيل ا لله ، فـإن للغـازي بكـل خطـوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع لـه وسـبعمائة سـيئة تمحـى عنه - ثم أوصاه وأصحابه - ثم قال أبو بكر لأسامة : أرأيت أن تأذن لعمر بالمقام

عندي استأنس به وأستعين برأيه ، فقال أسامة : قد فعلت . ثم سار أسامة رضي الله عنه لوجهه ، فقاتل الروم وانتصر وهو وجيشه عليهم ورجعوا سالمين .

ابتداء مرضه ﷺ الذي قبض فيه

لا يخفي أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم من البشر يعرض عليهم ما يعرض على جميع الناس من الأمور العادية ؛ كالأكل والشرب والنوم والنكاح والهم والحزن والفقر والمرض والفرح والغنى والغضب والرضا ، وإنهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يموتون كما يموت سائر الناس بعد أن يؤدوا رسالات ربهم على الوجه الأكمل .

غير أن الله عز وجل ميزهم عن الخلق بحفظهم من الحالات المزرية ومن العاهات المنفرة والأمراض الخبيثة ، لأنهم من عباده الأخيار الذين اصطفاهم من العالمين . وكيف لا يكونون كذلك وهم سفراء الله الكبير المتعال بين خلقه أرسلهم مبشرين ومنذرين ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . وانظر إلى رسول الله ﷺ حينما اشتد به وجعه وهو في بيت عائشة فخافوا عليه أن يكون به ذات الجنب فلدوه وقد نهاهم عنه فلما أفاق قال لهم : « من صنع هذا ؟ فقلن عمك العباس أمر بذلك وتخوفنا أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إنها من الشيطان و لم يكن الله عز وجل ليسلطها علي ولا ليرميني بها » . فمن هنا تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام محفوظون من الأمراض الخبيثة والعلل المستعصية ، فإذا كان سفراء الدول والحكومات يمتازون بجمال الخلق والأخلاق ، والعلم والثقافة والمكارم والنبل - فرسل الله تعالى يمتازون عن سائر المخلوقات بكل الأوصاف الحميدة والأخلاق النبيلة والخلقة التي لا تشوبها شائبة من باب أولى - وإنهم ليتقلبون في نعم الله ويتحصنون بحفظ الله ، ويعتصمون بقوة الله ورعايته وعنايته .

فمن ألطاف الله عز وجل بهم أنه إذا اختارهم للقائه جعل لموتهم ، عليهم الصلاة والسلام ، أسباباً خفيفة ونزع عن قلوبهم رهبة الموت ، فلا يبالون في أي وقت جاءهم بل إنهم يحبون الموت ويختارون لقاء الله تعالى على هذه الحياة الدنيا الفانية الخسيسة- ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير » . فانظر إلى قوله ﷺ : « إن

عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » - إلى آخر ما جاء في صحيح البخاري في أوائل باب الهجرة . وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام حينما نزلت سورة النصر: « نعيت إلي نفسي » كما تقدم . وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام لمولاه أبا مويهبة كان يزور معه أهل مقابر البقيع في ليلة قبيل موته بأيام فإنه ﷺ قال له : « يا أبا مويهبة: إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة - قال أبو مويهبة : بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة - قال : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة . ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف عليه الصلاة والسلام عائداً إلى بيته ، فبدأ يشعر بالوجع » . كما رواه ابن إسحاق - وأبو مويهبة من مولدي مزينة اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه وقد شهد غزوة (المريسيع) .

فمما تقدم ومن بعض إشارات القرآن يعرف أن رسول الله ﷺ ، كان عالماً بقرب أجله مترقباً بشوق ورغبة ، لأنه سينتقل إلى الرفيق الأعلى ، خصوصاً وقد رأى الجنة ومنزلته فيها بعيني رأسه ليلة الإسراء والمعراج ، ويرى على الدوام الملائكة الكرام وفي مقدمتهم أمين الوحي روح القدس عليه السلام .

وإذا تأملت في قوله ، ﷺ وسلم لابنته فاطمة ، رضي الله عنها ، في مرضه إذ أسر إليها: « إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا قد حضر أجلي . . . الحديث » وأنه أسر إليها أيضاً أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه كما جاء في الصحيح . إذا تأملت هذا وغيره علمت أن رسول الله ﷺ ، ما كان ليخفى عليه أمر موته بل لقد أشار ، عليه الصلاة والسلام ، إلى اقتراب أجله وموته في حجة الوداع حين خطب الناس خطبته المشهورة فكان مما قال : « أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . . » ، ولقد كان كما قال ، ﷺ .

ومن هنا ، اقتداء بنبينا "محمد" ﷺ ، نرى الصالحين من أمته لا يخافون من الموت بل يتلقونه بغاية الرضا والاستسلام لحسن ظنهم بالله عز وجل ، ولاعتقادهم أنه تعالى سيتلقاهم بعظيم رحمته وفضله وإحسانه- وأن من يخشى الموت لا يخشاه لذاته وقد علم أنه حق مكتوب ولكنه يخشى ما بعد الموت من

الحساب والعقاب إن لم يتداركه ا لله برحمته الواسعة - وهو عز شأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم .

هذا ولم نر مَنْ بَيَنْ ما بين مرضه وموته عليه الصلاة والسلام ، من الأيام كما بينه وفصله العلامة الشيخ حسين الديار بكري رحمه ا لله تعالى في كتابه القيم (تاريخ الخميس) . ونحن نذكر هنا ذلك بالتفصيل بما يفتح ا لله تعالى علينا من فضله الواسع . فنقول وبا لله التوفيق: وكما بيّنه السمهودي رحمه ا لله تعالى في كتابه النفيس (وفاء الوفا) ، قال الحافظ ابن رجب : كان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر - وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً على المشهور .

مما لا يخفى أن رسول ا لله ﷺ ، قد توفي ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة - ولم يطل مرضه بل كان أياماً معدودة - وجاء في صحيح البخاري في باب مرض النبي ﷺ ، ووفاته - وفي صحيح مسلم في كتاب الوصية ، عن ابن عباس ، رضي ا لله عنهما أنه في يوم الخميس اشتد مرضه عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا قريباً زيارته ليلاً لأهل البقيع مع مولاه أبي مويهبة ليستغفر لهم - وأنه عليه الصلاة والسلام ، عاد من زيارته هذه إلى بيته فبدأ يشعر بالوجع - وذكرنا قريباً أيضاً أنه في السادس والعشرين من صفر جهّز عليه الصلاة والسلام جيشاً بقيادة أسامة بن زيد ، رضي ا لله تعالى عنهما - فعليه يكون بدء مرضه ﷺ من ليلة زيارته المذكورة للبقيع مع مولاه أبي مويهبة رضي ا لله تعالى عنه ، كما هو صريح رواية ابن إسحاق - والظاهر ، وا لله تعالى أعلم ، أن هذه الليلة التي بدأ يشعر بالوجع فيها ، هي ليلة الخميس ، غرة شهر ربيع الأول على القول بأن مدة علته ﷺ اثنا عشر يوماً ، وهذا القول هو الذي نميل إلى اختياره - وأما يوم الخميس الذي ذكره عبد ا لله بن عباس ، رضي ا لله عنهما ، فهو اليوم الذي اشتد فيه مرضه ﷺ وهو يوافق الثامن من ربيع الأول - ثم في يوم الاثنين الثاني عشر منه توفي رسول ا لله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى - هذا ما نراه بعد التأمل والتحقق وا لله تعالى أعلم بالحقيقة . وكان ابتداء مرضه ﷺ في بيت ميمونة وقيل في بيت زينب بنت جحش وقيل في بيت ريحانة - وأما وفاته ﷺ ، فكانت في بيت عائشة وفي يومها وبين سحرها ونحرها كما هو ثابت في الصحيح - ولقد كان رسول ا لله ﷺ يحمل وهو مريض ويطاف به على نسائه يقسم بينهن حتى استقر في بيت ميمونة ، فاجتمع

نساؤه ﷺ به عندها ، فلما رأوا ما به اجتمع رأي من في البيت على أن يلدُّوه وتخوفوا أن يكون به ذات الجنب ففعلوا (واللد : صب الدواء في أحد شقي الفم) ، ثم إنه ﷺ استأذن نساءه في أن يمرّض في بيت عائشة رضي الله تعالى عن الجميع فأذن له - فخرج ﷺ عاصباً رأسه يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس والثاني علي بن أبي طالب ، تخط قدماه ، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها -وعنها أيضاً كما هو في الصحيح ، قالت : لددناه في مرضه ﷺ ، فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني ، فقلنا : كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق ، قال : ألم أنهكم أن تلدوني ؟ قلنا : كراهية المريض للدواء ، فقال : لا تبقي أحد في البيت إلا لد ، وأنا انظر إلا العباس فإنه لم يشهدكم - رواه البخاري في باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

وعن عائشة ، قالت : كانت تأخذ رسول الله ﷺ ، الخاصرة ، فأخذته يوماً فأغمي عليه حتى ظننا أنه قد هلك ، فلددناه ثم فرج عن النبي ﷺ وقد لدوه ، فقال : من صنع هذا ؟ فهبته ، فاعتللن بالعباس ، واتخذ جميع من في البيت العباس سبباً و لم يكن له في ذلك رأي ، وتخوفنا أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إنها من الشيطان و لم يكن الله عز وجل ليسلطها علي ولا ليرميني بها ، ولكن هذا عمل النساء . لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ ، إلا عمي العباس فإن يميني لا تناله ، فلدوا كلهم ولدَّت ميمونة وكانت صائمة لقول رسول الله ﷺ ، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بيت عائشة ، وكان يومها - بين العباس وعلي والفضل ممسك بظهره ورجلاه تخطان في الأرض - حتى دخل على عائشة رضي الله تعالى عنها ، فلم يزل عندها لا يقدر على الخروج من بيتها إلى غيره حتى توفي ﷺ .

قالت عائشة : ما رأيت أحداً كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ - روي أنه كان لا يكاد تقر يد أحد عليه من شدة الحمى ، فقال : ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء ، كما يشتد علينا البلاء كذلك يضاعف لنا الأجر.

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله تعالى عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً ، قال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت : ذلك بأن لك أجرين . قال : أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها . كما جاء ذلك في الصحيح . والوعك : الحمى .

وعن ابن عمر جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ائذن لي فأمرضك وأكون الذي يقوم عليك ، فقال ﷺ : يا أبا بكر إن لم أحمل أزواجي وبناتي وأهل بيتي علاجي ازدادت - مصيبتي عليهم عظماً ، وقد وقع أجرك على الله - وفي صحيح البخاري عن عروة أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ ، كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقتُ أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه - وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها ، تحدث : إن رسول الله ﷺ ، لما دخل بيتي واشتد به وجعه قال : هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس ، فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن ، قالت : ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم . اهـ .

قال العلامة صاحب تاريخ الخميس : وكان النبي ﷺ يصلي بالناس في مدة مرضه ، إنما انقطع ثلاثة أيام وقيل سبع عشرة صلاة ، فلما أذن بالصلاة في أول ما امتنع وهي صلاة العشاء ، قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . اهـ .

ثم قال فيه أيضاً وعن عائشة قالت : لما ثقل رسول الله ﷺ ، جاء بلال يؤذن بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قلت : يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر . فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت : فقلت لحفصة قولي له . فقالت له حفصة : يا رسول الله أبو بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر ، فقال : إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت : فأمروا أبا بكر . فلما دخل الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فقام يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض حتى دخل المسجد ، فلما سمع أبو بكر حسه ذهب ليتأخر فأومأ إليه رسول الله ﷺ أن قم كما أنت فجاء رسول الله ﷺ ، حتى جلس عن يسار أبي بكر ، وكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس قاعداً وأبو بكر قائماً يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر .

ثم قال : وفي سيرة ابن هشام : فلما خرج رسول الله ﷺ تفرج الناس فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ ، فنكص عن مصلاه فدفع

رسول الله ﷺ في ظهره ، وقال : صل بالناس وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر ، فلما فرغوا من الصلاة ، قال له أبو بكر : يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة فأتيها ، قال : نعم ، ثم دخل رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُنْح . اهـ . والسنح بضم السين وسكون النون: منازل بني الحارث من الخزرج بعوالي المدينة بينه وبين منزل النبي ﷺ ميل - وكان أبو بكر رضي الله عنه بالسنح - وبنت خارجة هي زوجته واسمها حبيبة بنت خارجة بن زيد .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه حدث أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي لهم لم يفاجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة ، فقال أنس : وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر . اهـ . قال النبهاني في كتابه "الأنوار المحمدية" نقل الدمياطي ، أن الصديق رضي الله عنه صلى بالناس سبع عشرة صلاة .

جاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن كعب بن مالك الأنصاري أن عبدالله بن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه - فقال الناس : يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً . فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له : أنت والله بعد ثلاثة عبد العصا ، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى في وجعه هذا - إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت . اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمناه ، فأوصى بنا ، فقال علي : إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطينها الناس بعده - وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ . اهـ .

وجاء فيه أيضاً ، أن عائشة وعبدالله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ ، طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك

يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا. اهـ.

وجاء فيه أيضاً، أن عائشة قالت: دخل عبدالرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبَدَّهُ رسول الله ﷺ بصره فأخذت السواك فقصمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاستن به فما رأيت رسول الله ﷺ، استن استناناً قط أحسن منه فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ، رفع يده أو إصبعه، ثم قال في الرفيق الأعلى ثلاثاً ثم قضى. وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي. اهـ.

وجاء فيه أيضاً، أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته - دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك - فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه فقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته وبين يديه ركوة أو علبة يشك عمر فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده. اهـ.

وجاء فيه أيضاً أن عائشة قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة، فسمعت النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحة يقول: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم . . . الآية﴾ فظننت أنه خير. اهـ.

وقالت أيضاً رضي الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ، وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير. فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص ببصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يجاورنا. فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح. اهـ.

وقالت أيضاً رضي الله تعالى عنها أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إلى ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى». اهـ.

فكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ (اللهم الرفيق الأعلى)، قالت عائشة، رضي الله تعالى عنها: مات النبي ﷺ، وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ، اهـ. (الحاقنة) هي النقرة بين الترقوة وحبل العاتق. (والذاقنة) طرف الحلقوم، أي مات رسول الله ﷺ في حجر عائشة ورأسه الشريف في أعلى صدرها عند ذقنها في جانب خدها الأيمن، وفي هذا الدليل الأعظم لشدة حبه ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وليس في ذلك من غرابة فهي بنت صاحبه في الغار أبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنه، وإن جبريل أقرأها السلام مع النبي ﷺ، كما ثبت في الصحيح. وعن رسول الله ﷺ، أنه قال: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها». رواه البخاري في صحيحه. فرضي الله تعالى عن عائشة وعن جميع أمهات المؤمنين وغفر لنا بفضله ورحمته.

وعن عمرو بن الحارث، رضي الله عنه، قال: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة». انتهى كل ذلك من صحيح البخاري. وفي صحيح مسلم مثل ذلك أيضاً. روي «أنه استأذن على رسول الله ﷺ ملك الموت وعنده جبريل، فقال جبريل: يا محمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي كان قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله يا أحمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني به، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها وإن أمرتني أن أتركها تركتها، قال: وتفعل يا ملك الموت؟ قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما تأمرني، فقال جبريل: إن الله قد اشتاق إليك، قال: فامض يا ملك الموت لما أمرت به، قال جبريل: يا رسول الله هذا آخر موطئي الأرض إذ كنت حاجتي من الدنيا. فتوفي رسول الله، ﷺ». اهـ. من تاريخ الخميس.

توفي عليه الصلاة والسلام في ضحي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال العلامة الخضري في كتابه (نور اليقين): كانت وفاته ﷺ يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر وهو يوافق اليوم الثامن من شهر

يونية سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ميلادية - ولم نر من قال يوم الوفاة هو الثالث عشر من ربيع الأول غيره - وقد ذكر هذا التاريخ أيضاً الأستاذ محمد سيد كيلاني في كتابه (عين اليقين) ناقلاً عن الخضري رحمه الله تعالى .

[حالة الصحابة حينما سمعوا بموت رسول الله ﷺ]

فلما توفي خاتم النبيين سيدنا "محمد" ﷺ وتسامع الناس هذا الخبر دهشوا وبكوا ، وطاشت عقول الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس ، قال : « لما ثقل النبي ﷺ ، جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة ، عليها السلام ، واكرب أباه ، فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات ، قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه - يا أبتاه من جنته الفردوس مأواه - يا أبتاه إلى جبريل ننعاه . فلما دفن ، قالت فاطمة ، عليها السلام : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب » اهـ . منه . ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ذلك أصابه الخبل وسل سيفه ، فجعل يصيح ويتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه ، فلما خطب أبو بكر وتلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ الآية . قال عمر ، كما في صحيح البخاري: « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي ﷺ قد مات » . اهـ .

وأما عثمان ، رضي الله تعالى عنه ، فقد أخرس حتى يذهب به ويجاء ، وما تكلم إلا بعد غد . وأما علي ، رضي الله تعالى عنه ، فلم يستطع حراكاً . وأضني عبد الله بن أنيس . والله تعالى أعلم بما أصاب الناس من الحزن والذهول ، وكيف لا يستولي عليهم الحزن والذهول ورسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم - إنه ﷺ هو النور العظيم والسراج المنير والخير والبركة المجسمة بين أظهرهم - فلم يكن من الصحابة ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس ، رضي الله تعالى عنهما - وذلك من فضل الله تعالى على الناس ليعودوا إلى صوابهم .

فأبو بكر ، رضي الله عنه وأرضاه ، لما أقبل من مسكنه بالسنح وأخبر الخبر - دخل إلى بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثا يقبله ويبكي - فقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، ما نصه ، قالت : «

إن أبا بكر ، رضي الله تعالى عنه ، أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وبكى - ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها - قال الزهري : وحدثني أبو سلمى عن عبدالله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت - قال الله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله : الشاكرين﴾ وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها - فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي ﷺ قد مات » - اهـ . من البخاري .

روي عن أبي ذؤيب الهذلي ، قال : إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل . فأوجس أهل الحيّ خيفة عليه . فبت بليلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها حتى إذا قرب السحر غفوت فهتف لي هاتف يقول : خطب أجل أناخ بالإسلام ، وبين النخيل ومقعد الآطام قبض النبي محمد ، فعيوننا تذري الدموع عليه بالتجام . قال أبو ذؤيب : فوثبت من نومي فزعاً فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح ، فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب ، وعلمت أن النبي ﷺ ، قد مات أو هو ميت من علته ، فركبت ناقتي وسرت حتى أصبحت ، فطلبت شيئاً أزجره فعن لي شيهم قد أرم على صل وهو يتلوى عليه والشيهم يقضمه حتى أكله ، فزجرت ذلك شيئاً مهماً ، فقلت : تلوى الصل انفتال الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله ، ﷺ - ثم أولت أكل الشيهم إياه غلبت القائم على الأمر . فحثثت ناقتي حتى إذا كنت بالعلية زجرت الطير فأخبرني بوفاته ونعب غراب سانحاً بمثل ذلك ، فتعوذت من شر ما عنّ لي في طريقي ، ثم قدمت المدينة ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلوا جميعاً بالإحرام ، فقلت : ماذا جرى ، قالوا : قبض رسول الله ﷺ ، فجئت المسجد فأصبته خالياً فأتيت رسول ﷺ فأصبت بابه مرتجاً وقد خلا به أهله ، فقلت : أين الناس ، فقيل : في

سقيفة بني ساعدة صاروا إلى الأنصار ، فجئت السقيفة فوجدت أبا بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وأبا عبيدة وسالماً وجماعته من قريش ، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ومعهم شعراؤهم ، وأمامهم حسان بن ثابت وكعب في ملأ منهم ، فأويت إلى الأنصار فتكلموا فأكثروا ، وتكلم أبو بكر فلله من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع الفصل - والله لتكلم بكلام لم يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه ، وتكلم بعده عمر ، رضي الله عنه ، بكلام دون كلامه ومد يده فبايعه ورجع أبو بكر ، رضي الله عنه ، ورجعت معه فشهدت الصلاة على النبي ﷺ وشهدت دفنه . ثم أنشد أبو ذؤيب يبكي رسول الله ، ﷺ :

لما رأيت الناس في علاتهم	ما بين ملحود له ومضرح
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت	جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها	وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجبال يثرب كلها	ونخيلها لحلو خطب مفدح ...الخ

فمعنى قوله: فعن لي شيهم قد أرم على صل: الشيهم ذكر القنفذ ، والصل: الحية ، وأرم بمعنى: عض .

[اشتغال الناس بإقامة خليفة ثم بغسل رسول الله ﷺ ودفنه]

فلما مات رسول ﷺ وعرف الناس ذلك ورجع إليهم صوابهم ونزلت السكينة عليهم أغلق أهله دونه الباب ليتفرغ الناس أولاً من إقامة خليفة عليهم ، فمكث ﷺ في بيته بقية يوم الاثنين الذي توفي فيه ، وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء - ، فلما انتهى المسلمون من أمر الخليفة وجمعهم الله تعالى على أبي بكر الصديق وفرغوا من بيعته - وكانت البيعة أول الأمر يوم الاثنين ، يوم وفاة رسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة ، ثم كانت البيعة العامة من الغد في المسجد يوم الثلاثاء . فلما انتصب أبو بكر ، رضي الله تعالى عنه ، خليفة على المسلمين - أقبلوا على تجهيز رسول الله ﷺ والاشتغال بأمره ليلة الأربعاء .

فإذا نظرنا بإمعان وجدنا أن أمر إقامة الخليفة أهم من الاشتغال بتجهيز رسول الله ﷺ فإن الشيطان ينتهز فرصة الغفلة فيوقع الشقاق والاختلاف بين المسلمين - ورسول الله ﷺ في حفظ الله وأمانه ورعاية الملائكة الكرام لن يمسه سوء ، ولقد كاد الخلاف والنزاع أن يستولي على المسلمين ، ولكن الله تعالى تداركهم برحمته

فصرف عنهم كيد الشيطان فجمع كلمتهم على أبي بكر ، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين .

فلما انتهت البيعة العامة يوم الثلاثاء في مسجد رسول الله ﷺ ، الذي بلصق بيته - أقبلوا على تجهيزه ودفنه عليه الصلاة والسلام . فقام على غسله ﷺ عمه العباس وابناه الفضل وقثم وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وضرب العباس كلة من ثياب يمانية لغسله عليه الصلاة والسلام ، ثم أذن لرجال بني هاشم فقعدوا بين الحيطان والكلة ، ثم دخل هؤلاء الذين ذكرناهم الكلة ليتولوا غسله ﷺ فغسلوه حسب السنة ، وهو الطاهر المطهر في ثيابه من غير أن يجردوه منها ، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص خشية أن تظهر عورته ، وكان علي هو الذي يتولى غسله كما أوصاه عليه الصلاة والسلام بذلك ، ولم ير من رسول الله ﷺ مما يرى من الميت وكان علي يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما أطيبك حياً وميتاً - جاء في الموطأ أنه ﷺ لما كان عند غسله أرادوا نزع قميصه ، فسمعوا صوتاً يقول: لا تنزعوا القميص ، فلم ينزع القميص - وغسل وهو عليه ، ﷺ . اهـ . وبعد أن غسلوه وجففوه أدرجوه في أكفانه في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، وطيبوه وجمروه بالعود والند ، ثم احتملوه حتى وضعوه على سريره في بيته وسجوه . ثم صلى عليه علي والعباس وبنو هاشم ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم الناس ، ثم النساء ، ثم الغلمان ، يصلون عليه أفذاذاً لا يؤمهم أحد - يدخل المسلمون زمراً فيصلون عليه ويخرجون ، وكان الناس يدخلون للصلاة عليه ﷺ من باب ويخرجون من باب آخر - فلما صلي عليه نادى عمر : خلوا الجنازة وأهلها ، ثم دفنوه في منتصف ليلة الأربعاء .

وقد اختلفوا في موضع دفنه أيدفونه بمكة أو بالمدينة أو بالقدس أو عند منبره أو في البقيع ، فقال لهم أبو بكر ، رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض .

نقول: وهذا كما لا يخفى كرامة عظيمة له ، حتى يتميزوا عن جميع الناس لما لهم من المكانة والمنزلة السامية عند الله عز وجل .

فرفعوا فراش رسول الله ﷺ، الذي توفي عليه وحفروا له القبر تحته ثم دفنوه ليلة الأربعاء. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، ليلة الأربعاء. اهـ.

وفي الموطأ، أن عائشة زوجة النبي ﷺ قالت: رأيت ثلاثة أقمار سقطن في حجرتي، فقصصت رؤياي على أبي بكر الصديق، قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ ودفن في بيتها، قال لها أبو بكر: هذا أحد أقمارك وهو خيرها. اهـ.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله ﷺ وحين وضع شقران رسول الله ﷺ في قبره وضع معه قطيفته الحمراء الذي كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً. ففي صحيح مسلم عن ابن عباس، قال: جعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء. وقد جعلوا قبر رسول الله ﷺ، لحداً ونصبوا فيه اللبن - يقال بني في قبره ﷺ تسع لبنات (واللحد هو الشق في جانب القبر) ففي صحيح مسلم أن سعد بن أبي وقاص قال في مرضه الذي هلك فيه: «ألحدوا لي لحداً وانصبوا عليَّ اللبان نصباً كما صنع برسول الله ﷺ» اهـ.

وروي أن أوس بن خولى الأنصاري، وكان بدرياً سأل علي بن أبي طالب أن يكون معهم في غسل رسول الله ﷺ وفي النزول في قبره، فأذن له بذلك - ثم هالوا التراب على لحده ﷺ وجعلوا قبره مسطحاً - ورش بلال بن رباح قبره بقربة من الماء، بدأ من قبل رأسه الشريف حتى انتهى إلى رجليه، اقتداء برسول الله ﷺ، حينما رش قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه الحصى بعد الفراغ من دفنه.

واعلم أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، قاموا بتجهيز رسول ﷺ، بعد أن انتهوا من أمر بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، في آخر يوم الثلاثاء وانتظروا حتى يصلي بهم الخليفة صلاة المغرب وصلاة العشاء جماعة من ليلة الأربعاء، ثم يتفرغوا للتجهيز من الغسل والصلاة والدفن - وبالطبع إن ذلك يستغرق بضع ساعات لذلك كان دفنه ﷺ في منتصف ليلة الأربعاء - ولم يكن حمل ولا موكب في جنازة رسول الله، ﷺ؛ لأن قبره ﷺ هو في نفس بيته وفي نفس الموضع الذي مات فيه - غاية الأمر أنهم زحزحوا فراشه ﷺ الذي قبض فوقه، ثم حفروا له قبره تحت الفراش - مع العلم بأن بيته ملاصق بمسجده ﷺ فباب بيته مفتوح إلى

المسجد . إننا فصلنا هذه المسألة تفصيلاً لتكون واضحة كالشمس لجميع المسلمين في جميع الأقطار و لم نجد من أوضحها توضيحاً مثلنا والحمد لله رب العالمين - اللهم صل وسلم وبارك عليه .

ولما انتهوا من دفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة ، رضي الله تعالى عنها : يا أنس ، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ وقالت لعلي : يا أبا الحسن دفنتم رسول الله ؟ قال: نعم . قالت: كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه ، أليس كان نبي الرحمة ؟ قال : نعم ، ولكن لا مرد لأمر الله .

جاء في تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك في كتاب الجنائز عند قول الإمام مالك (وصلى الناس عليه أفذاذاً لا يؤمهم أحد) ما نصه :

قال ابن كثير : وهو أمر مجمع عليه لا خلاف فيه - قال : واختلف في تعليله فقيل هو من باب التعبد الذي يعسر تعقل معناه - وقيل ليباشر كل واحد الصلاة عليه منه إليه . وقال السهيلي : إن الله أخبر أنه وملائكته يصلون عليه وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلي عليه ، فوجب على كل واحد أن يباشر الصلاة عليه منه إليه - والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل . قال : وأيضاً فإن الملائكة لنا في ذلك أئمة . اهـ . وقال الشافعي في (الأم) ذلك لعظم أمر رسول الله ﷺ وتنافسهم فيمن يتولى الصلاة عليه وصلوا عليه مرة بعد مرة . وروى ابن سعد عن عبد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب عن علي أنه قال : لما وضع رسول الله ﷺ على السرير لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حياً وميتاً ، فكان يدخل الناس رسلاً رسلاً ، فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام ويكبرون - وعلي قائم بحيال رسول الله ﷺ يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته - اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه ، ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله ، حتى أعز الله دينه وتمت كلمته ، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه ، فيقول الناس آمين ، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان - وظاهر هذا أن المراد بقوله: (وصلى الناس عليه) ، ذهب إليه جماعة أنه ﷺ لم يصل عليه الصلاة المعتادة ، وإنما كان الناس يأتون فيدعون ويترحمون - قال الباجي : ووجهه أنه ﷺ أفضل من كل شهيد والشهيد يغنيه فضله عن الصلاة عليه ، فهو ﷺ أولى . قال : وإنما فارق الشهيد في الغسل لأن الشهيد حذر من غسله إزالة الدم عنه وهو مطلوب بقاؤه

لطيبه، ولأنه عنوان بشهادته في الآخرة، وليس على النبي ﷺ ما يكره إزالته عنه فافترقا.

وقال ابن سعد أيضاً: أنبأنا محمد بن عمر، حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي، قال: وجدت هذا في صحيفة بخط أبي فيها: لما كفن النبي ﷺ ووضع على سريره دخل أبو بكر وعمر فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، فسلموا كما سلم أبو بكر وعمر وهما في الصف الأول حيال رسول الله، ﷺ: اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلماته فاؤمن به وحده لا شريك له - فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل معه واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا وتعرفه بنا فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، لا نبغي بالإيمان بدلاً - ولا نشتري به ثمناً أبداً، فيقول الناس: آمين، آمين. ثم يخرجون ويدخل آخرون، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان، فلما فرغوا من من الصلاة تكلموا في موضع قبره - وأخرج ابن عبدالبر من حديث سالم بن عبيد أنهم قالوا لأبي بكر: هل يصلى على الأنبياء؟ قال: يجيء قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون حتى يفرغ الناس، فقال ناس: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: يدفن بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه. فحفر له فيه. ثم قال شارح الموطأ رحمه الله تعالى بعد بضعة أسطر: وأخرج عن أبي طلحة، قال: اختلفوا في الشق واللحد للنبي ﷺ فقال المهاجرون: شقوا كما يحفر أهل مكة، وقالت الأنصار: لحدوا كما نحفر بأرضنا، فلما اختلفوا في ذلك قالوا: اللهم خِرْ لنبيك، ابعثوا إلى أبي عبيدة وإلى أبي طلحة فأيهما جاء قبل الآخر فليعمل عمله، فجاء أبو طلحة، فقال: والله إني لأرجو أن يكون الله قد خار لنبيه إنه كان يرى اللحد فيعجبه.

وأخرج ابن سعد وابن ماجة عن ابن عباس، قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ كان بالمدينة رجلان - كان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري هو الذي يحفر لأهل المدينة وكان يلحد - فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وقال للآخر:

اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خِرْ لرسولك ، فوجد صاحب أبي طلحة فجاء به فألحد له . انتهى ما ذكرنا من شرح الموطأ .

والذي يظهر لنا ، والله تعالى أعلم ، أن الذين حضروا في جنازته ﷺ من الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يبلغهم قوله الشريف : (الحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا) رواه الإمام أحمد . فإنه لو بلغهم هذا القول لما اختلفوا هل يلحدوا له ﷺ أم لا . فالحمد لله الذي اختار له أفضل الأمرين وهو اللحد - ثم إن عائشة رضي الله تعالى عنها ، بعد ما مات عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ودفن عند صاحبيه ، بنت جداراً بينها وبين القبور الثلاثة - فقد روى ابن زبالة عن عائشة ، ما زلت أضع خماري وأتفضل في ثيابي حتى دفن عمر ، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جداراً . اهـ .

والخمار بالكسر : غطاء الوجه . ومعنى أتفضل في ثيابي أي أقتصر في لباسي . فكان بيت عائشة رضي الله تعالى عنها ، قسمين ، قسم كانت فيه القبور الشريفة ، وقسم كانت فيه عائشة رضي الله تعالى عنها ، وبينهما الحائط .

حكمة دفنه ﷺ في اللحد

اعلم أن الدفن في اللحد أفضل من الشق . واللحد هو ما يحفر في أسفل جانب القبر - أي يحفر القبر أولاً بقدر قامة وبسطة ، ثم يحفر في جانب أسفل القبر طولاً من جهة القبلة بقدر ما يسع الميت ويستره فيوضع الميت في هذا الجانب المحفور على جنبه الأيمن ، مستقبل القبلة ويسند ظهره بشيء من تراب أو لبنة ، ثم يسد الجانب المحفور بلبن أو حجارة حتى لا يظهر من الميت شيء ، ثم يهال التراب على القبر حتى تملأ القامة والبسطة . وأما الشق فهو عبارة عن حفر القبر بقدر قامة وبسطة ثم يوضع الميت في هذا الشق على جانبه الأيمن أيضاً ثم يسقف القبر .

فلدفن الأموات في اللحد أفضل إن صلبت الأرض واشتدت ، أما إذا كانت رخوة غير متماسكة فالدفن في الشق أفضل من اللحد - فلو عمل اللحد في أرض رخوة ودفن الميت فيه تنهار الأرض وتسقط عليه ، فأهل المدينة وبعض الجهات يدفنون في اللحد لأن أرضهم قويه متماسكة - وأهل مكة وبعض الجهات يدفنون في الشق لرخاوة أرضهم .

والحكمة في دفن رسول الله ﷺ في اللحد دون الشق والله تعالى أعلم هي: صون جثته وحفظ حرمته ﷺ من أن يعلو عليه أحد حين الدفن لإهالة التراب عليه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، مدفون مندرج في جانب القبر - فإهالة التراب تكون في نفس حفرة القبر المشقوق، فلا يقف من يهيل التراب فوق جثته الشريفة، ﷺ. أما إذا دفن الميت في الشق بوسط القبر فإن الحفار يضطر أن يقف على سقف القبر ليهيل التراب فيكون وقوفه على جثة الميت - فالله عز وجل اختار لنبيه ﷺ أشرف كيفية الدفن وخير حالاته.

إن (محمداً) ﷺ، هو رسول الله وخاتم النبيين وخير الخلائق، أجمعين، فله حرمة عظيمة ومكانة كريمة والصحابة رضي الله تعالى عنهم، كانوا معه ﷺ على آداب عالية جداً حتى إنهم ما كانوا يرفعون أصواتهم عنده ولا يجهرون له كجهر بعضهم لبعض، بل ما كانوا يرفعون أصواتهم عند منبره بعد مماته ﷺ فكيف يقدر أحدهم أن يعلو قبره الشريف حين الدفن؟ إنه في حياته ﷺ لم يعل أحد فوق بيته - وهذا أبو أيوب الأنصاري، رضي الله تعالى عنه، لما هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة ونزل في داره في الدور الأسفل ليكون أريح لزائريه - لم يرض أبو أيوب بذلك إكراماً وتأدباً له وقال له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي. فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن ونكون في السفل - فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا أيوب، إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، فما زال أبو أيوب الأنصاري، رضي الله تعالى عنه، يستعطف رسول الله ﷺ ويقول له: لا أعلو سقيفة وأنت تحتها، حتى صعد رسول الله ﷺ إلى العلو وتحول أبو أيوب في السفل.

إذا علمت ما تقدم، ظهر لك حكمة دفن رسول الله ﷺ في اللحد - والله سبحانه وتعالى، أعلم بسر ذلك وحكمته، فإنه جل جلاله يختار لأنبيائه ورسله في حياتهم وفي مماتهم أفضل الحالات وأشرفها - إنهم من عباده المكرمين، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين - سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

جاء في الأنوار المحمدية ما نصه - ذكر الواحدي بسند وصله بعبدالله بن مسعود: نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة، فقال: حياكم الله بالسلام رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله،

نصركم الله ، رفعكم الله ، آواكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأستخلفه عليكم وأحذركم الله ، إني لكم منه نذير مبين ، أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده فإنه قال لي ولكم : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ وقال: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ . قلنا : يا رسول الله ، متى أجلك ؟ قال : دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى جنة المأوى – قلنا : يا رسول الله! من يغسلك ؟ قال : رجال من أهل بيتي فالأدنى . قلنا : يا رسول الله فيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي هذه ، وإن شئتم في ثياب بياض مصر أو حلة يمنية . قلنا : يا رسول الله ، من يصلي عليك ؟ قال : إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي عليّ جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت ومعه جنود من الملائكة ، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً ، فصلوا علي وسلموا تسليماً ، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم ، ثم أنتم ، واقرأوا السلام على من غاب من أصحابي ومن تبعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة . قلنا : يا رسول الله ، ومن يدخلك قبرك ؟ قال : أهلي مع ملائكة ربي وكذا رواه الطبراني . اهـ . منه .

وجاء فيه أيضاً : وروى ابن ماجة بسند جيد عن علي يرفعه إلى النبي ﷺ إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئري بئر غرس . وغسل ﷺ ثلاثة غسلات : الأولى بالماء القراح ، والثانية بالماء والسدر ، والثالثة بالماء والكافور . وغسله علي والعباس وابنه الفضل يعينانه وقثم وأسامة وشقران مولاه ﷺ يصبون الماء وأعينهم معصوبة من وراء الستر . لحديث علي : « لا يغسلني إلا أنت ، فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه » . رواه البزار والبيهقي.

وأخرج البيهقي عن الشعبي ، قال : « غسل علي النبي ﷺ فكان يقول وهو يغسله ﷺ بأبي أنت وأمي ، طبت حياً وميتاً » . وأخرج أبو داود وصححه الحاكم عن علي ، رضي الله عنه ، قال : « غسلته ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً وكان طيبا حياً وميتاً » . وفي رواية ابن سعد : «وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط » . قيل وجعل علي يده خرقة وأدخلها تحت القميص ، ثم اعتصروا قميصه وحنطوا مساجده ومفاصله ووضئوا منه ذراعيه ووجهه وكفيه وقدميه ، وجمروه عوداً ونداً . ثم قال صاحب الأنوار المحمدية ، رحمه الله تعالى :

وقد اختلف فيمن أدخله قبره ﷺ وأصح ما روي أنه نزل في قبره ﷺ علي وعمه العباس وابناه الفضل وقثم، وكان قثم آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ ثم قال صاحب الكتاب المذكور أيضاً - قال رزين: ورش قبره الشريف ﷺ رشه بلال بن رباح بقربة بدأ من قبل رأسه. حكاه ابن عساكر - وجعل عليه من حصباء حمراء وبيضاء ورفع قبره عن الأرض قدر شبر. ثم قال صاحب الكتاب أيضاً - وروى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد أبي بكر، قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمه، اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. زاد الحاكم: فرأيت رسول الله ﷺ مقدماً وأبو بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ وعمر رأسه عند رجلي النبي ﷺ.

وهذا كان في خلافة معاوية، فكأنها كانت في الأول مسطحة ثم لما بني جدار القبور في إمارة عمر بن عبدالعزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك صيروها مرتفعة اهـ. من الكتاب المذكور.

واعلم بأنه يسن بعد دفن الميت رش قبره بالماء الطاهر البارد أخذاً من فعله ﷺ فإنه لما مات بالمدينة في السنة الأولى من الهجرة عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع أمر بعد دفنه أن يرش قبره بالماء، وكذلك لما مات ابنه إبراهيم في السنة العاشرة أمر بعد دفنه برش قبره بالماء. وهذا بلال، رضي الله تعالى عنه، رش قبر رسول الله ﷺ بعد دفنه. والله تعالى أعلم بحكمة ذلك.

[بعض ما قاله الصحابة رضي الله تعالى عنهم في رثائه ﷺ]

روي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها بعد أن انتهوا من دفن رسول الله ﷺ أخذت تربة من تراب قبر أبيها ﷺ فشمته ثم أنشأت تقول:

ماذا عليّ من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبّت عليّ مصائب لو أنها ... صبّت على الأيام صرن لياليا

وقالت صفية بنت عبدالمطلب ترثي رسول الله ﷺ، وهي عمته:

ألا يا رسول الله إن كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولم تك جافياً

وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ... ليبك عليك اليوم من كان باكياً

إلى أن قالت :

عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

ومما قالت في رثائه ﷺ أيضاً:

إن يوماً أتى عليك ليوم ... كورت شمسه وكان مضيئا

لفقد رسول الله إذ حان يومه ... فيا عين جودي بالدموع السواجم

ورثته أيضاً عاتكة بنت عبد المطلب وأختها أروى بنت عبد المطلب . ورثاه أيضاً أبو بكر وعمر وأبو سفيان وغيرهم من الصحابة ، رضي الله تعالى عن الجميع . ورثاه أيضاً حسان بن ثابت ، رضي الله تعالى عنه ، بقصائد كثيرة نقتطف منها ما يأتي:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتمهد

ولا تنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وأوضح آيات وباقي معالم ... وربع له فيها مصلى ومسجد

بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد

ثم قال:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

وبورك لحد منك ضمن طيباً ... عليه مدى الدنيا صفيح منضد

تهيل عليه التراب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

فيبكون من تبكي السماء لموته ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد

إلى أن قال:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

وليس هواي نازعاً عن ثنائه ... لعلي به في جنة الخلد أخلد

مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وقال عامر بن الطفيل:

بكت الأرض والسماء على النو ... ر الذي كان للعباد سراجا

من هدينا به إلى سبيل الحق ... وكنا لا نعرف المنهاجا

رثاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله ﷺ

جاء في مجلة الاعتصام التي تصدر بمصر ، بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٣٧١ هجرية ما يأتي :

روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، سمع بعد موت رسول الله ﷺ يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم ، فلما حن الجذع لفراقك جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت بالحنين إليك لما فارقتهم أولى .

بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب ، فقال تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم ، فقال عز وجل : ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم﴾ .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون ويقولون : يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً فتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية ، فقالت لك الذراع : لا تأكلني فإني مسمومة .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا ، فقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنه وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لو لم تجالس إلا كفؤاً لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفؤاً لك ما نكحت إلينا ، ولو لم تؤاكل إلا كفؤاً لك ما واكلناك . فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعاً منك ، ﷺ . انتهى من المجلة المذكورة .

حزن الصحابة رضي الله تعالى عنهم

وبكاؤهم من غير صوت ولا نواح على رسول الله ﷺ حين موته

لا يخفى أن الموت هو من أعظم مصائب الدنيا وعلى قدر منزلة الميت عند أهله وأصحابه يكون حزنهم على موته وفراقه – فحزن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، على موت رسول الله ﷺ ، وهم الذين شاهدوا نور نبوته ونشأوا تحت تربيته – هو أعظم حزن مرّ على البشرية عامة وعلى الأمة الإسلامية خاصة ، وكيف لا يكون كذلك وهم الذين عاصروه وعاشروه وشاهدوا نزول الوحي عليه ومشوا في ركابه .

والحزن أنواع مختلفة فقد يكون بالصمت وقد يكون بالذهول وقد يكون بالهذيان وقد يكون بالبكاء الصامت ونزول الدموع وقد يكون بالبكاء والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، وقد أصاب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، عندما سمعوا بموت رسول الله ﷺ جميع أنواع الحزن ما عدا النوع الأخير من النياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، فإنه من عادة أهل الجاهلية وهو حرام بالإجماع على كل ميت فضلاً عن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، الذي جاءنا

بالنور المبين . أما البكاء ونزول الدموع فهو أمر قهري على الإنسان لا يؤاخذ به ؛ لأنه من رقة القلب فإن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله . فقال : يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى ، فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون - كما جاء ذلك في البخاري ومسلم .

فالصحابة رضي الله تعالى عنهم حين سمعوا بموت رسول الله ﷺ اعترتهم حالات شديدة من الحزن العميق - لقد دهشوا وطاشت عقولهم وبكت عيونهم وقلوبهم وهم صامتون حيارى ، نساء ورجالاً ، أينما كانوا ، في منازلهم أو في أسواقهم أو في أشغالهم ، ولولا عصمة الإسلام وسماحته وحسن تعاليمه لظهرت منهم أفعال عجيبة من شدة التأثر وعظيم الحزن . ولنذكر هنا ما أصاب بعضهم مما روته الأخبار على سبيل المثال لا الحصر ، فنقول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم :

١- ففاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت عند موته رضي الله تعالى عنها : يا أبتاه أجاب ربا دعاه - يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه - يا أبتاه : إلى جبريل ننعاه - فلما دفنوه ﷺ ، أخذت تربة من تراب قبر أبيها ، رسول الله ﷺ فشمته ثم أنشأت تقول :

ماذا علي من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا

ثم قالت لأنس : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟ وقالت : رضي الله تعالى عنها ، لعلي : يا أبا الحسن دفنتم رسول الله ؟ قال : نعم . قالت : كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه ، أليس كان نبي الرحمة ؟ قال: نعم ، ولكن لا مردَّ لأمر الله . هكذا قالت سيدة نساء العالمين ، رضي الله تعالى عنها في والدها الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، الذي لم يأت على وجه الدنيا أفضل منه - إنها كانت تبكي صامتة تجتر حزنها ، ولا تقول كلمة تغضب الله عز وجل - ولقد عاشت رضي الله تعالى عنها ، بعد أبيها رسول الله ﷺ ستة أشهر ما ضحكت في تلك المدة أبداً وحق لها ذلك ، فأبوها رسول الله ﷺ رسول رب العالمين وخاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين :

من مثله وإله الخلق فضّله   والإنس والجن ترجو شفاعته

فأعظم الله أجرها في أبيها المصطفى المختار ﷺ وعلى آله وأصحابه الأخيار .

٢- وعائشة زوج النبي ﷺ الذي مات في بيتها بين سحرها ونحرها وكان عمرها وقتئذ ثمان عشرة - فقد جاء في تاريخ الخميس نقلاً عن الاكتفاء ، قالت رضي الله تعالى عنها : توفي رسول الله بين سحري ونحري وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً ، فمن سفاهة رأيي وحداثة سني ، أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء ، وأضرب وجهي . ولم توفي جاء التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص : السلام عليكم يا أهل البيت ، ورحمة الله وبركاته ، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة - إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجو ، فإنما المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال علي : أتدرون من هذا ، هو الخضر عليه السلام (كذا في المشكاة نقلاً عن دلائل النبوة) اهـ . من التاريخ المذكور .

ومعنى ألتدم : أضرب صدري - وليس ضرب عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، صدرها ووجهه كضرب عامة الناس وإنما هو ضرب بالتخفيف مرتين أو ثلاثاً عن غفلة ودهشة ثم رجعت لصوابها - كما اعتذرت عن ذلك بقولها : فمن سفاهة رأيي وحداثة سني - وهذا إن صح وثبت عنها والله تعالى أعلم.بما أصاب أزواجه ﷺ فجميعهن بيوتهن متلاصقات في بقعة صغيرة من مسجده ﷺ يعرفن كل ما يقع وكيف صارت حالتهن وهن ألصق الناس برسول الله ﷺ .

٣- وأبو بكر الصديق ، رضي الله تعالى عنه ، فإنه لما جاءه الخبر ، دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه عليه الصلاة والسلام وجثا يقبله ويبكي . وقد ثبته الله تعالى ، فكان من الراسخين ، ثم خرج إلى المسجد يسكن الناس حيث كانوا يكون ، ثم خطب فيهم كما سيأتي في مسألة عمر - فلم يكن أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس كما سيأتي عنه .

٤- وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فإنه لما توفي رسول الله ﷺ خبل فجعل يصيح ويتوعد المنافقين - قال سالم بن عبيد الله الأشجعي : لما مات رسول الله ﷺ ، كان أجزع الناس عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه - فأخذ بقائم سيفه وقال : لا أسمع أحداً يقول : مات رسول الله ﷺ إلا ضربته

بسيفي هذا . وقال أنس : لما توفي النبي ﷺ ، بكى الناس ، فقام عمر بن الخطاب في المسجد خطيباً فقال : لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات ، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة - وا لله لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات - قال عكرمة : ما زال عمر يتكلم ويوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه - فقال العباس : إن رسول ا لله يأسن كما يأسن الناس ، وإنه قد مات فادفنوا صاحبكم . ومعنى يأسن كما يأسن الناس أن يحصل لرسول ا لله ﷺ تغير من العلل والأمراض والموت كما يحصل لجميع الناس ؛ لأنه بشر .

قال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن عبدا لله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس . فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد ا لله فإن ا لله حي لا يموت .

قال ا لله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله: ﴿الشاكرين﴾ . وقال : وا لله لكأن الناس لم يعلموا أن ا لله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : وا لله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت ، حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي ﷺ ، قد مات . اهـ . انتهى من صحيح البخاري .

٥- وعثمان بن عفان ، رضي ا لله تعالى عنه ، فقد أخرس حتى يذهب به ويجاء ، وما تكلم إلا بعد الغد .

٦- وعلي بن أبي طالب رضي ا لله تعالى عنه أقعد فلم يستطع حراكاً .

٧- وأضني عبدا لله بن أنيس ، رضي ا لله تعالى عنه ، فمات كمداً .

٨- وأما العباس ، رضي ا لله تعالى عنه عم النبي ﷺ فقد كان هو وأبو بكر أثبت الناس وأحزمهم - وقد تقدم أن العباس قال حين سمع كلام عمر وهو يتوعد المنافقين : إن رسول ا لله ﷺ يأسن كما يأسن الناس وإنه قد مات فادفنوا صاحبكم - فمثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الراسخين وقليل ما هم .

وانظر إلى قول العباس لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، كما في صحيح البخاري: إني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا - إني لأعرف وجه بني عبد المطلب عند الموت... الخ - وقد تقدم كلامه بالتفصيل قريباً - فانظر إلى فراسته العظيمة وصدق حدسه، رضي الله تعالى عنه.

٩- جاء في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة -عند ترجمة أم أيمن، رضي الله تعالى عنها أمة رسول الله ﷺ وحاضنته- عن أنس قال: لما كان بعد وفاة النبي ﷺ قال أبو بكر لعمر: انطلق بنا نزر أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما دخلا عليها بكت، فقالا: ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله قالت: أبكي أن وحي السماء انقطع، فهيجتهما على البكاء فجعلت تبكي ويبكيان معها. وأخرجه مسلم وأحمد وأبو يعلى من هذا الوجه وفيه: ولكني أبكي على الوحي الذي رفع عنا. وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن طارق بن شهاب، قال: لما قبض النبي ﷺ، بكت أم أيمن، فقيل لها، فقالت: اليوم وهن الإسلام. وعن أنس أيضاً أن أم أيمن بكت حين مات النبي ﷺ فقيل لها، فقالت: إني والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ يموت، ولكن إنما أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء. اهـ. باختصار.

١٠- جاء في تاريخ الخميس في ترجمة بلال بن رباح، رضي الله تعالى عنه مؤذن رسول الله ﷺ وكان من السابقين الأولين وممن شهد ﷺ له بالجنة، أنه لما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ورسول الله ﷺ يقبر. فكان إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله انتحب الناس في المسجد. فلما دفن ﷺ قال أبو بكر لبلال: أذن، قال: إن كنت إنما أعتقتني لأن أكون معك فسبيلي ذلك، وإن كنت إنما أعتقتني لله فخلني ومن أعتقني له. قال أبو بكر: ما أعتقتك إلا لله. قال بلال: فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ قال: فذاك إليك. فخرج بلال إلى الشام ومات بها، رضي الله تعالى عنه.

مكث بلال، رضي الله تعالى عنه بالشام زماناً، فرأى النبي ﷺ في المنام يقول له: يا بلال جفوتنا، وخرجت من جوارنا فاقصد إلى زيارتنا. فانتبه بلال، وقصد المدينة وذلك بقريب من موت فاطمة، رضي الله تعالى عنها، فلما انتهى إلى المدينة تلقاه الناس، فأخبر بموت فاطمة، فصاح وقال: بضعة النبي ما أسرع ما لحقت بالنبي، ﷺ. ثم قال له الناس: اصعد فأذن. فقال: لا أفعل بعد ما أذنت

لمحمد ﷺ فألحوا عليه فصعد ، فاجتمع أهل المدينة رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم ، وقالوا : هذا بلال مؤذن رسول الله ﷺ يريد أن يؤذن لنسمع إلى أذانه ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر صاحوا وبكوا جميعاً ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ضجوا جميعاً ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، لم يبق في المدينة ذو روح إلا بكى وصاح . وخرجت العذارى والأبكار من خدورهن يبكين وصار كيوم موت رسول الله ﷺ حتى فرغ الناس من أذانه ، فقال : أبشركم أنه لا تمس النار عيناً بكت على النبي محمد ﷺ . ثم انصرف إلى الشام وكان يرجع في كل سنة مرة ، فينادي بالأذان إلى أن مات رضي الله تعالى عنه . اهـ منه .

١١- وجاء في صحيح البخاري في أواخر كتاب الجهاد في باب جوائز الوفد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ، ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء . فقال: اشتد برسول الله ﷺ ، وجعه يوم الخميس ، فقال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً . . . الحديث وجاء مثله في صحيح مسلم عنه أيضاً ولفظه : قال ابن عباس : يوم الخميس وما يوم الخميس ، ثم بكى حتى بل دمعه الحصى فقلت : يا ابن عباس وما يوم الخميس ، قال : اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال : ائتوني . . . الحديث . جاء في رواية الدارمي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : ما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ . اهـ .

هذا ولقد بكى كبار الصحابة بل وجميعهم ، رضي الله تعالى عنهم ، في كل وقت يتذكرون فيه رسول الله ﷺ وما كان له معهم من شأن - إنهم لا ينسونه ولا تذهب صورته الشريفة وهيئته اللطيفة من ذاكرتهم ومخيلتهم مدة حياتهم . روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ، لما تحقق موته ﷺ قال : وهو يبكي : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثروا ، اتخذت منبراً لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم . اهـ .

إن الإنسان إذا تذكر من مات من أقاربه كأمه وأبيه وابنه وأخيه ، يبكي بكاء مراً ولا ينساهم أبداً ، فكيف هؤلاء الصحابة الكرام الذين كانوا يفدون رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم وأولادهم ، ينسون هذا النبي الكريم الذي كان بينهم

كقطعة من نور يعاشرهم ويؤانسهم وينظر في شؤونهم الدينية والدنيوية ، والذي أخرجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور العلم والإيمان ، وكان لهم بمنزلة الوالد يعلمهم الدين والأخلاق والآداب الاجتماعية .

إن هؤلاء الصحابة الكرام ليحق لهم أن يسكبوا دموعهم مدراراً عليه ، فلقد كانوا يشاهدون فيه نور النبوة ، وحكمة الرسالة ، وعين الاستقامة ، ونموذج العبادة ، والعدالة ، ومثال الطهر والحياء ، والكرم ، والعفاف ، والشجاعة والرحمة ، مع ما كان ينزل من بركات السماء ، ونزول الوحي والملائكة .

إن هؤلاء الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لو لم يعلموا أن النياح على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب حرام لفعلوا كل ذلك وأشد من ذلك يوم موت رسول الله ﷺ ، حتى يصل ضجيجهم إلى السماء أياماً عديدة ، بل لقتل بعضهم أنفسهم من عظيم الأسى وشدة الحزن . إن حب رسول الله ﷺ متأصل في قلوب جميع المؤمنين ، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم الدين ، فلا يذكره أحد من المسلمين إلا بالتعظيم وبالصلاة والتسليم ، وما قرأ أحد خبر موته ﷺ إلا حزن وبكى ورجف قلبه ، وما ذاك إلا لتغلغل حبه في شغاف قلوبهم وهذا من الإيمان الصحيح والحمد الله .

وهذا الناس في زمان أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك رحمه الله تعالى ، لما جاء أمره بهدم حجرات أمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ لتوسعة المسجد النبوي ، بكوا بكاء عظيماً في ذلك اليوم . قال عطاء الخراساني : حضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حجرات أزواج النبي ﷺ فما رأيت يوماً كان باكياً من ذلك اليوم . اهـ .

فانظر رحمنا الله وإياك كيف كان حب الناس لرسول الله ﷺ ولجميع آله وأزواجه وأصحابه الكرام ، رضي الله تعالى عليهم أجمعين . إن حبه ﷺ متغلغل في قلوب المؤمنين كتغلغل الإيمان واليقين . إنه في الدارين هو السراج الوهاج صاحب الإسراء والمعراج ، فلئن ذهب إلى الرفيق الأعلى وسعد بلقاء ربه ، عز وجل ، فقد تركنا على دين قويم عظيم ، وعلى شريعة بيضاء غراء يضيء نورها وجه الأرض ، ويسري ضوءها إلى عنان السماء ، لا يخبو هذا النور المبين إلى قيام الساعة . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى

آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد .

ما يؤخذ من مرضه ووفاته ﷺ من الأمور

اعلم ، رحمنا الله تعالى وإياك ، وختم حياتنا بالإيمان الكامل والأعمال الصالحة ، وأماتنا على شهادة وطهارة ونظافة براحة تامة بدون مرض ولا تعب ، وتلقانا بلطفه ورحمته الواسعة وبعفوه وغفرانه عند الحساب ، وأدخلنا الجنة بسلام آمنين مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، آمين .

إنه يؤخذ من مرض رسول الله ﷺ ووفاته عدة أمور مهمة نذكر منها ما ظهر لنا منها :

١- أنه ﷺ حينما بدأ به المرض كان يوعك كما يوعك رجلان منا ، فالبلاء يتضاعف على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما يتضاعف لهم الأجر والثواب .

٢- أنه ﷺ عند اقتراب أجله اشتد به المرض والوجع حتى لا تكاد تقر يد أحد عليه من شدة الحمى .

٣- أنه ﷺ كان يعلم أنه يموت في مرضه هذا كما أخبر به ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها .

٤- أنه ﷺ استاك عند موته وكان بين يديه إناء فيه ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقوم : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات . ثم قال عند القبض : في الرفيق الأعلى .

٥- لم يترك ﷺ صلاته بالناس أبداً حتى في مرض موته ، فلما اشتد به المرض ولا يقدر على المشي والوقوف أمر عليه الصلاة والسلام أبا بكر أن يصلي بالناس ثم توفي بعد ذلك بيوم أو يومين .

٦- لقد أوصى رسول الله ﷺ في مرض موته بالنساء والأرقاء والمحافظة على الصلوات ، وبإخراج المشركين من جزيرة العرب ، وقال : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

٧- قبض ﷺ وهو خاتم النبيين مستنداً على صدر عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما، وهي أحب زوجاته إليه. وكان عمرها ثمان عشرة سنة وقتئذ.

٨- قبض رسول الله ﷺ وهو بتمام وعيه وكمال عقله - لم يرتبط لسانه - فإنه قال في آخر لحظته بعد أن استن بالسواك وأشخص ببصره إلى سقف البيت: اللهم الرفيق الأعلى، ثم قبض فكان هذا آخر كلامه عند موته عليه أفضل الصلاة والسلام - فولادته وحياته وموته ﷺ كانت على أكمل الحالات وأحسن الصفات مغايرة لعادات الناس - إنه أفضل الخلائق أجمعين.

٩- قبض ﷺ على فراشه في بيت عائشة، رضي الله تعالى عنها في وقت الضحى من يوم الاثنين من السنة الحادية عشرة للهجرة.

١٠- دفن ﷺ في موضع فراشه في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها - وبيته ملاصق لمسجده الشريف، وألحد له في قبره، واللحد أفضل كما تقدم بيانه.

١١- مكث ﷺ بعد موته مسجى على فراشه في بيته يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ثم دفن في منتصف ليلة الأربعاء وذلك لاشتغال الناس بإقامة خليفة وبيعتهم لأبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنه، وقيل دفن يوم الثلاثاء، والأول أشهر.

١٢- غسلوا رسول الله ﷺ وهو الطاهر المطهر في ثيابه من غير أن يجردوه منها، وكان علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، هو الذي تولى غسله بتوصية منه ﷺ ثم أدرجوه في أكفانه وطيبوه وجمروه بالعود والند ثم وضعوه على سريره في بيته وسجوه.

١٣- صلى الناس فرادى على رسول الله ﷺ لم يؤمهم أحد، صلى عليه أولاً أقاربه وكبار الصحابة، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الرجال ثم النساء، ثم الغلمان أفذاذاً. والذي نراه أن هذا الأمر لم يجمع عليه الصحابة إلا بإيعاز من النبي ﷺ. فربما أنه أمر بذلك سراً بعض كبار الصحابة؛ كأبي بكر وعمه العباس، رضي الله تعالى عن الجميع، فهو ﷺ إمامهم حياً وميتاً - وفي هذا تمييز له ﷺ، عن كافة الأموات. والله تعالى أعلم بحكمة ذلك.

١٤- كان تجهيز رسول الله ﷺ من غسله والصلاة عليه ودفنه بعد الثلث الأول من ليلة الأربعاء الثاني عشر ربيع الأول.

١٥- كان دفنه ﷺ بالليل ذلك تقدير العزيز العليم - و لم يحمل أحد جنازته ﷺ ؛ لأنه مات في بيته وغسل عند جدار بيته ، وصلى الناس عليه فرادى في بيته ، ودفن في بيته في موضع فراشه الذي مات عليه ﷺ فلم تكن له جنازة يحملها الناس ويسيرون بها إلى المقبرة ﴿كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ إنه ﷺ بشر لا كالبشر ، فأحوال الأنبياء لا تحيط بها عقول البشر .

١٦- لقد وقعت بعض الأمور والإشارات في مرض موته ﷺ كإسراره لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها ، أنه يقبض في مرضه هذا ، وأنها أول أهل بيته يتبعه ، فتوفيت بعده بستة أشهر . وكأمره أن يقدموا أبا بكر ، رضي الله تعالى عنه ليصلي بالناس إشارة إلى استخلافه بعده ، وقد كان ذلك ، فقد بايعه الناس كافة بالخلافة - إلى غير ذلك من الأمور التي لو أردنا ذكرها لطال بنا الكلام - تدل أن رسول الله ﷺ هو من جنس البشر ولكن عاداته خلاف عادات البشر . إنه ملحوظ بعناية الله ، مشمول برعاية الله ، معصوم بعصمة الله ، فحركاته وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله بتقدير العزيز العليم وتدبيره ، فإذا تدبرت قوله عز وجل في آخر سورة الطور: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ ظهر لك المعنى بوضوح تام ، فمن كان ملحوظاً بعين العناية الربانية ، لا تكون أحواله كأحوال عامة الناس .

روى الإمام أحمد عن عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، قالت : كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله ﷺ وإني واضعة ثوبي وأقول : إنما هو زوجي وأبي - فلما دفن عمر معهما فوالله ما دخلته إلا وأنا مشدودة عليّ ثيابي حياء من عمر . اهـ .

فتأمل رحمك الله في قولها ليظهر لك معان دقيقة تخفى على كثير من المؤمنين .

وكذلك تأمل فيما جاء في صحيح مسلم في فضل فاطمة رضي الله تعالى عنها ، الذي خلاصته : أن رسول الله ﷺ دعاها في مرض موته فسارّها فبكت ، ثم سارّها فضحكت ، فلما سألتها عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، قالت : سارني فأخبرني بموته فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول من يتبعه من أهله فضحكت . إذا تأملت رحمنا الله وإياك كل ذلك علمت أن الموت ما هو إلا انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء . وعلمت أموراً أخرى كلما تعمقت في التأمل ، ولولا خوف الإطالة لبينا ذلك بالتفصيل والعاقل تكفيه الإشارة .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

اللهم اختم حياتنا بالأعمال الصالحة وتوفنا على الإيمان الكامل على طهارة ونظافة وراحة تامة بدون تعب ولا مشقة وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وعاملنا بما أنت أهله برحمتك وفضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين (يا الله) آمين آمين آمين .

حكمة تأخير دفنه ﷺ

اعلم أن الحكمة في تأخير دفنه ﷺ ، كما يظر لنا والله أعلم هي ، أولاً : النظر في تنصيب خليفة للمسلمين ، لأنهم إذا اطمأنوا على جمع كلمتهم هان كل شيء وتيسر ، فلما أقاموا أبا بكر ، رضي الله تعالى عنه خليفة أقبلوا على تجهيز رسول الله ﷺ وثانياً : لما مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين وقت الضحى العالي ، أي قبيل الظهر دهش الناس لهذا الخبر وطاشت عقولهم واجتمعوا في مسجده ﷺ يكون وبيته بلصق مسجده ، لقد ذهل الناس وأصاب كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ما أصاب . ولم يثبت على حاله إلا أبو بكر والعباس فقط ، رضي الله تعالى عنهما ، أما عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ، فقد خبل فجعل يصيح ويتوعد المنافقين الذين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات حتى أزبد شدقاه - فلما قام أبو بكر يخطب في الناس وتلا قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ ، أفاق عمر ، رضي الله تعالى عنه ، حين سمع هذه الآية لكنه أهوى إلى الأرض ما تقله رجلاه من شدة حزنه على رسول الله ، ﷺ .

وأما عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه ، فقد أخرس حتى أنه يذهب به ويجاء ولم يتكلم إلا بعد الغد .

وأما علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، فقد أقعد فلم يستطع حراكاً .

هؤلاء هم كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، أصابهم ما شل حركاتهم فكيف يتمكنون من تجهيز رسول الله ﷺ من غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه

وهم في هذه الحالة المحزنة خصوصاً ولا بد من حضور بعضهم في تجهيزه ﷺ، فعلي، رضي الله تعالى عنه، كان ممن قام على غسله ونزول قبره ﷺ كما تقدم تفصيله، فلا بد إذاً من التريث والصبر حتى تنكشف هذه الغمة من الناس وتنقشع عنهم سحابة الحزن نوعاً ما وتنزل عليهم السكينة والطمأنينة ويرجع إليهم صوابهم. إن مصيبة الموت ما بعدها من مصيبة تخرس الألسنة وتشل الحركات خصوصاً موت أشرف الخلق على الإطلاق السراج الوهاج صاحب الإسراء والمعراج رسول رب العالمين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إذا علمت ما تقدم فهمت حكمة تأخير دفنه ﷺ من ضحى يوم الاثنين إلى ليلة الأربعاء، ولا ضير في ذلك، فهو الطيب المطيب الطاهر حياً وميتاً لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل - اللهم صل وسلم وبارك عليه - وإذا تأملت فيما سبق علمت عذر الصحابة رضي الله تعالى عنهم في دفنه ﷺ بعد صلاة العشاء من ليلة الأربعاء.

مات ﷺ بالمدينة المنورة وعمره ثلاث وستون سنة - وولد بمكة المكرمة وبعث بها حينما بلغ أربعين سنة - فمكث بعد البعثة بمكة ثلاث عشر سنة - ثم هاجر إلى المدينة المنورة ومكث بها عشرة سنين ثم توفي في السنة الحادية عشر من الهجرة بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً - توفي وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء كما في صحيح مسلم. ﷺ وعلى آله وأزواجه وأصحابه وأتباعه وسلم تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين.

نبذة عن أخلاق رسول الله ﷺ العظيمة وسيرته العطرة

توفي رسول الله ﷺ وقد ترك لأمته المرحومة كنزين لا ينفدان ولا يخلقان ولا يهجران هما كتاب الله العزيز وسنته المطهرة. من استمسك بهما فقد هدي إلى صراط مستقيم.

لقد تشرفنا بذكر شيء عن صفاته الكريمة وشمائله الحميدة ﷺ عند قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، ولا نرى بأساً في تكرار ذلك عند كل مناسبة بل يندب ذلك ويسن لما فيه من الذكرى والاعتبار. عسى أن يوفقنا الله تبارك

وتعالى للاقتداء والاتساء به ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله. فقد قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ولا ندري ماذا نكتب عن أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، عن سيرتهم العطرة وأخلاقهم الزكية وهم صفوة الخلق وأفضل البشر. إن الحكومات والدول إذا أرادت تعيين سفراء وإرسالهم إلى الممالك لأجل أن يمثلوا حكوماتهم تختارهم من فضلاء الناس وأرقاهم علماً وأدباً وذكاء ونباهة وأجملهم خُلقاً وأحسنهم خَلقاً، فإذا كانت هذه العادة هي الجارية بين الملوك والسلاطين فكيف لا يكون الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين أرسلهم رب العالمين ذو العزة والجبروت والملك والملكوت إلى الناس كافة من أفضل البشر وصفوة الخلق وعلى أخلاق عظيمة وصفات عالية وشمائل سامية حميدة.

إن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، هم على أكمل الأحوال وأسمى المراتب وأرفع الصفات في الخلق والخلق والأقوال والأفعال، بل وفي الحسب والنسب والشرف الرفيع، ذلك لأنهم أتوا يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وترك الأصنام والآثام ويرشدونهم إلى الخير والبر ومكارم الأخلاق، فالناس يقتدون بهم في جميع الأحوال فلا بد أن يكونوا، عليهم الصلاة والسلام مبرئين من كل عيب سليمين من كل شائبة. هذا هو المعقول والواقع في أنبياء الله تعالى ورسله الكرام، عليهم الصلاة والسلام، تؤيده الشرائع السماوية وتؤازره جميع التواريخ البشرية لا يختلف في ذلك اثنان، إنه لو كان هناك أحد أفضل منهم وأحسن وأكمل منهم وأعقل لكانوا تحت الانتقاد والاعتراض، وحاشا أن يكون رسل الله تعالى، وأنبياؤه الكرام، عليهم الصلاة والسلام، محلاً للانتقاد والاعتراض، إنهم في أشرف المراتب وأعلا المقامات حساً ومعنى. إن الله تبارك وتعالى، قد اصطفاهم من خلقه واختارهم من عباده، فهم خيار من خيار من خيار.

هذا وما دام هذا المبحث خاص بنبينا (محمد) خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين فلنتبرك بذكر شيء من سيرته العطرة وبنبذة من أخلاقه الكريمة الممتازة العالية حباً في سنته ورغبة في اتباعه فنقول وبالله التوفيق:

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ».

وجاء فيه أيضاً أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » وجاء فيه أيضاً : « كان رسول الله ﷺ أبيض مليحاً مقصداً » (أي مقتصداً ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير) . وجاء في الترمذي : « كان أبيض كأنما صيغ من فضة رجل الشعر » . وجاء في الصحيحين : « كان أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير » . وفيهما أيضاً: « كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس » . وفيهما أيضاً : « كان أشد حياء من العذراء في خدرها » . وفي صحيح مسلم : « كان أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ » . وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل » . وفيه أيضاً عن أنس بن مالك ، قال : « ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسست شيئاً قط ، ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ » وفيه أيضاً عن أنس بن مالك قال : « كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأتيت فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ففزع النبي ﷺ فقال لها : ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . قال : أصبت » .

وفي سنن أبي داود « كان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه » .

وفي صحيح مسلم عن أنس ، قال : « أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين ، فأعطاه إياه ، فأتى قومه فقال : أي قوم أسلموا فوالله إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر . فقال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها » .

وعن أنس أيضاً ، رضي الله تعالى عنه ، قال : « ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قط أف ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله إلا فعلت كذا » - رواه الشيخان .

والحاصل : كان رسول الله ﷺ على أنبل الصفات وأكمل الحالات في جميع الحركات والسكنات . ولو أردنا تعداد شمائله الشريفة لملأنا مئات الصفحات وما وفّينا حقه . وكتب الحديث والسير مشحونة بفضائله ﷺ ، وإذا كان الله تبارك وتعالى ، قد أثنى عليه وعلى إخوانه النبيين في كتابه العزيز فما قيمة ما يمدحهم الورى به - اللهم إلا أن يعود على هؤلاء الورى الأجر والثواب . كل على مقدار حبه وبحسب نيته - فالله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

ما يمتاز به نبينا محمد ﷺ عن باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إن نبينا "محمد" ﷺ ، يمتاز عن جميع الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام بكثير من الأمور ، ولا غرابة في ذلك ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ ، ولو استقصينا هذه الأمور لطال بنا الكلام و لم نقدر على حصرها ، غير أنا نذكر هنا نبذة صغيرة مما يناسب هذا المبحث وهي كما يأتي :

(الأول) أن الأنبياء السابقين ، عليهم الصلاة والسلام ، كانت أعمارهم المباركة طويلة مديدة تعد بمئات السنين حتى أن بعضهم تجاوز الألف ؛ كنوح عليه الصلاة والسلام ، فمن حكمة الله تعالى أن جعل أعمار الأمم السابقة طويلة ، ثم ما زالت أعمار الخلق تنقص شيئاً فشيئاً حتى الآن . قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » . رواه الترمذي . وهذا هو الواقع فينا ، وكذلك كانت أجساد الأمم الماضية طويلة عريضة ضخمة . قال رسول الله ، ﷺ : « خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراع ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك . قال : فذهب ، فقال : السلام عليكم . فقالوا: السلام عليك ورحمة الله . قال : فزادوه ورحمة الله . قال : فكل من يدخل الجنة

على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن ». رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

فمن الحديثين الشريفين يعلم أن الأمم السابقة وأهل القرون الأولى كانوا ضخام الأجسام طوال الأعمار، فأنبياؤهم، عليهم الصلاة والسلام، مع طول أعمارهم ودعوتهم المستمرة لم يؤمن بهم من قومهم إلا القليل حتى أن بعضهم لم يؤمن به من قومه إلا رجل واحد. ففي الحديث: «ما صدق نبي ما صدقت، إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمته إلا رجل واحد».

أما نبينا (محمد) ﷺ فإنه مع قصر عمره الشريف الذي كان ثلاثاً وستين سنة قد آمن به قومه كلهم إلا من كتب عليه الشقاء وهم قليلون – ولقد دخل الناس أخيراً في دين الله أفواجاً عن حب ورغبة واعتقاد صادق، وما زال المسلمون يتزايدون في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة، ولم نقف على عدد من آمن به ﷺ منذ بعثته إلى حين وفاته، ولكنه حينما حج عليه الصلاة والسلام حجة الوداع خرج معه مائة ألف وأربعة عشر ألفاً وقيل أكثر من ذلك.

والله تعالى أعلم بعدد من تخلف عنه ﷺ من المسلمين رجالاً ونساء في حجة الوداع التي أعقبها وفاته، عليه الصلاة والسلام، ولا يتخلف أحد عن هذه الحجة إلا من عذر قوي قهري.

(الثانية) أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا ماتوا ومات أصحابهم الذين آمنوا بهم انقطعت شريعتهم وهجرت ملتهم ورجع الناس إلى عبادة الأوثان، أما نبينا محمد ﷺ، وهو خاتم الأنبياء، فإنه لما مات لم تنقطع ملته وشريعته بل قام الناس باتباع معالم دينه على أكمل وجه – فإن أبا بكر، رضي الله تعالى عنه، قام يومئذ على المنبر وخطب في الناس فكان من جملة ما قال: أيها أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ثم قام الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، بالدعوة إلى الله تعالى وجهاد الكفار في جميع الممالك والأمصار، حتى انتشر الدين الإسلامي الحنيف في ربوع الأرض ورسخت راياته في الخافقين، ولا يزال هذا الدين القويم ثابتاً قائماً إلى قيام الساعة، ولا تزال طائفة من الأمة المحمدية ظاهرين على الحق قوامين على أمر الله ولا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة.

(الثالثة) لم تبق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كتبهم وصحفهم التي أنزلها الله تعالى عليهم بعد موتهم وإن بقي منها شيء وهو التوراة والإنجيل، فإن اليهود والنصارى حرفوهما وبدلوا فيهما بحسب أهوائهم كما صرح بذلك القرآن الكريم. أما كتاب نبينا محمد ﷺ الذي أنزله الله تعالى عليه وهو القرآن العظيم فإنه باق على صحته وسلامته كما أنزل إلى اليوم بل وإلى قيام الساعة. وإنه لم يحصل عليه شيء من التغيير والتحريف لا في حرف ولا في كلمة ولا في تقديم ولا في تأخير، فلقد تكفل الله عز وجل بحفظه كما أخبرنا به في أوائل سورة (الحجر) بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فما أعظمها من آية بينة وما أعظمها من تشريف وحكمة.

(الرابعة) أن جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لم تحفظ أقوالهم وسننهم ولم تدون أحوالهم وتواريخهم - اللهم إلا النزر القليل الذي لا يغني الباحث المحب ولا ينفع غلة الغليل - وغالب ما جاء فيهم إنما هو من أخبار خاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين - أما أقوال نبينا الكريم "محمد" ﷺ، وأحواله وأفعاله وسننه وعبادته وصفاته وشمائله وأخلاقه ومكارمه وحروبه وغزواته وفتوحاته وتاريخ حياته الشريفة، بل وحياة أصحابه الكرام، فإن كل ذلك ثابت ومدون بالتفصيل التام والتحقيق الدقيق في كتب الحديث والتفسير والمناقب والسير بالأسانيد الصحيحة، عن الثقات العدول الذين لا يتطرق إليهم الشك ولا تحوم حولهم الريب. وما أعظم كتب الأحاديث الصحاح الحاوية لأقوال وأحوال خاتم رسل الله، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وما أكثر كتب السير المعتمدة الخاصة بتاريخ حياة نبينا "محمد" ﷺ، نثراً ونظماً وبتاريخ الصحابة والتابعين وغيرهم.

لم يوضع شيء من مثل ذلك عن الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، فإنه بموتهم وموت أصحابهم وحواريهم اندرست سيرهم العطرة وتاريخ حياتهم الشريفة - ما عدا بعض الأمور الحقيقية الصادقة التي أخبر الله عز وجل بها في كتابه العزيز أو أخبر بها نبينا الكريم ﷺ، نعم قد توجد نبذ قصيرة وشذرات صغيرة ونتف قليلة عند اليهود والنصارى عن النبيين العظيمين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، لكن لا يعول عليها لاحتمالها الصدق والكذب، فإذا كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه في الكتب السماوية، فهم لغيرها أكثر جرأة

بالتحريف ، وأيضاً إنهم لا يعنون بصحة الأخبار عن بعضهم كما يعتني المسلمون بنقل الأحاديث والأخبار النبوية بصحة الإسناد وقوة النقل عن الثقات العدول .

(الخامسة) أن نبينا محمداً ﷺ كان يخبر بتعليم الله تعالى له بكثير من المغيبات عن بعض الأمور التي تقع في زمانه وفي غير زمانه وتقع لبعض أصحابه بل والتي ستقع في أزمان مختلفة حتى قيام الساعة من علاماتها وغيرها . فكانت تلك الأمور تقع كما أخبر به ﷺ تماما . كما هو مذكور في كتب الحديث ومعلوم في كتب التواريخ . وكما نحن نشاهد من ظهور بعض علامات الساعة في زماننا الشيء الكثير ، وقد مضى على مبعثه ﷺ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، فلو أردنا حصر ذلك لطال بنا الكلام ، ولا شك أن ذلك من جملة معجزاته ﷺ الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى . قال بعض العلماء:

فكم من المغيباتِ ذكرا ... فبعضها مضى وبعض سيرى
ومعجزات المصطفى ليست تعد ... وفي الشفا منها كثير قد ورد

أما الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام ، فلم ينقل عنهم أنهم أخبروا بجملة من الأمور تقع في مستقبل الأزمان . نعم لا يسلم أنهم أخبروا ببعض أشياء تقع في زمانهم وعلى بعض أقوامهم فيقع كما أخبروا ؛ لأنهم أنبياء أصحاب معجزات ولكن ذلك نادر وقليل .

ولقد أخبر الله تعالى عن بعضهم في كتابه العزيز بما وقع لهم من المعجزات والإخبار بالمغيبات ؛ كخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فله أمور عجيبة مع قومه مذكورة في بعض السور . وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام ، وهذا له شأن عظيم مع بني إسرائيل كما جاء ذكره في كثير من السور ، ونبيه يعقوب وولده يوسف كما هو مذكور في سورته ، ونبيه عيسى بن مريم الذي كان يخبر قومه بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، كما جاء ذلك في آية (٤٩) من سورة آل عمران .

ولكن كل ما جاء عن الأنبياء ، أنبياء الله سبحانه وتعالى من المعجزات والإخبار بالمغيبات وهو قليل جداً بالنسبة لنبينا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل واحد منهم وأصحابه أجمعين - فمعجزات نبينا الكريم ما زالت مستمرة إلى اليوم وإلى قيام الساعة ، وكلها ظاهرة محسومة مشاهدة كالشمس لا تحتاج إلى برهان .

هذه نبذة صغيرة عن مميزات نبينا الحبيب محمد ﷺ ، المناسبة للمبحث المذكور . ولو أردنا حصر مميزاته وفضائله لقضينا الحياة وما قضينا معشار حقه ﷺ إنه ﷺ رسول مكمل ونبي مفضل - مكمل بالذات في خَلقٌ وفي خُلقٌ وفي صفات فلا تحصى فضائله - هذا وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في مواضع شتى من تفسيرنا هذا ، وفي بطون الكتب والأسفار الشيء الكثير . ورحم ا لله من يقول :

أرى كل مدح في النبي مقصرا   وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا ا لله أثنى بالذي هو أهله   عليه فما مقدار ما يمدح الورى

نعم ، ماذا نقول فيمن اختاره ا لله عز وجل واصطفاه وقال له في آخر سورة الطور : ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ ، ماذا نقول فيمن نطقه وأحواله وحركاته وسكناته عن ا لله وبا لله ومن ا لله . ماذا نقول فيمن شقت الملائكة صدره وغسلته وملأته إيماناً وحكمة وعلماً ونوراً . ماذا نقول فيمن أراه ا لله ملكوت السموات والأرض وعرج به إلى السموات العلى . ماذا نقول فيمن تنام عيناه ولا ينام قلبه فلا سبيل للشيطان عليه ، ماذا نقول فيمن رب العز والجلال يعصمه ويحفظه والملائكة تحرسه وجبريل يؤنسه- اللهم صل وسلم على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

هذا ، ولئن ذكرنا نبينا محمد ﷺ ، بالمناسبة فإننا لا ننسى فضائل جميع الأنبياء ، أنبياء ا لله تعالى ومناقب كافة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام - فإن لكل واحدٍ منهم فضائل لا تعد ومزايا لا تحد .

فإنهم خيار الخلقِ وصفوتهم فمنِ منا يحيط بفضلهم ، وشأنهم بعيد مرتفع . وكفاهم سعادة وفوزاً وشرفاً وفخراً كونهم رسل ا لله ينزل الوحي عليهم من السماء - فنحن إذا ذكرنا فضل أحد منهم فإننا نوفي حقه بقدر معرفتنا من غير أن يؤدي ذلك إلى غمط حق أحدهم ولا بكلمة . إننا مأمورون بالإيمان بهم وبما أنزل عليهم وباحترامهم وتعظيمهم والصلاة والسلام عليهم ، صلوات ا لله وسلامه عليهم أجمعين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين - اللهم اغفر لنا وارحمنا وعافنا وارزقنا وأدخلنا الجنة بسلام آمنين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين .

هذا ولقد قلنا في زيارتنا لرسول الله ﷺ ، ليلة الثاني والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٨٢هـ) ألف وثلاثمائة واثنتين وثمانين هجرية هذه الأبيات للعظة والاعتبار :

هنا منبع الهدى هنا منزل التقى — هنا خير خلق الله يثوي ويرقد
رسول إله العالمين (محمد) — شفيع الملا يوم القيامة أحمد
قفوا أمة الإسلام في خير بقعة — أمام رسول الله والنور فاشهدوا
قفوا وقفة الإجلال يا خير أمة — أمام شفيع المذنبين لتسعدوا
وصلوا عليه كل حين وسلموا — كما أمر الله العزيز الممجد
وولوا إلى شطر الشريعة وجهكم — وقووا صفوف المسلمين ووحدوا
وتوبوا بصدق وارجعوا بعزيمة — وقوموا بنصر الله حقاً وسددوا
عسى ربنا أن ينزل النصر فيكم — وأن يخذل الكفار ما دام ألحدوا
عسى ربنا أن يبدل الحال حالة — بأحسن منها إنه هو منجد

حبذا لو كتبت هذه الأبيات في لوحة كبيرة وتعلق بالمسجد النبوي للعظة والاعتبار ، وحبذا لو كتبت الأبيات الثلاثة الأول مع البيت الخامس في لوحة أيضاً بحروف معدنية بارزة كبيرة بخط جميل وتعلق في مواجهة قبر رسول الله ﷺ .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباع سنته الغراء وشريعته البيضاء ويسعدنا في الدارين ، ويدخلنا الجنة بسلام آمنين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . آمين يا رب العالمين .

معجزاته ﷺ

أما معجزاته عليه الصلاة والسلام ، فحصرها ليس في الإمكان ، والذي عددها فإنما هذا التعداد كان بحسب المعجزات الظاهرات كالشمس للخواص والعوام ، ولكن هنالك معجزات لا تظهر إلا لأولي الألباب الذين يدققون في الأمور ويحققون المسائل ، من أقواله وأفعاله وإشاراته ﷺ ومن هنا نقول إنها كثيرة وكثيرة جداً ، فمنها ما وقع ومنها ما سيقع ، وإلى هذا أشار الناظم بقوله :

فكم من المغيبات ذكرا — فبعضها مضى وبعض سيرد
ومعجزات المصطفى ليست تعد — وفي الشفا منها كثير قد ورد

وإن من أعظم معجزاته ﷺ، القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . هذا القرآن العظيم الذي عجز الإنس والجن عن الإتيان بأصغر سورة من مثله ، كما قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ .

وهل يمكن للمخلوق الضعيف أن يأتي بما يأتي به الخالق جل وعلا - كلا والله - والحمد لله إن المستشرقين اليوم يقرون بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى ليس في ذلك شك ، كما بينا أقوالهم في كتابنا "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه" المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر القاهرة .

ولقد تكلم كثير من فطاحل العلماء عن معنى إعجاز القرآن ، ذكرنا بعض ذلك في كتابنا المذكور ، فمن أراد الاطلاع في كل ما يتعلق بالقرآن العظيم فليرجع إلى كتابنا المذكور ، كما أن من أراد زيادة البحث عن معجزاته ﷺ ، فليرجع إلى كتب التاريخ والسير .

نبذة من أخلاقه ﷺ

هنا ننقل ما ذكرناه سابقاً في كتابنا "تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد" وهذا نص ما ذكرناه :

(كان) ﷺ ، ما ضرب بيده أحداً قط ، إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته .
وقال أنس رضي الله عنه : (والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ، ولا لامني نساؤه إلا قال : دعوه إنما كان هذا بكتاب وقَدَرَ) .

(وكان) ﷺ ، يبدأ من لقي بالسلام ، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف .

(وكان) ﷺ ، إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة .

(وكان) ﷺ ، لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله .

(وكان) ﷺ ، إذا قام من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

(وكان) ﷺ ، لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال : ألك حاجة ، ولم يكن يعرف مجلس من مجلس أصحابه ، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس .

(وكان) ﷺ ، يكرم من دخل عليه ، حتى ربما بسط له ثوبه يجلس عليه .

(وكان) ﷺ ، يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته .

(وكان) ﷺ ، يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مجلسه وتوجهه للجالس إليه ، ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات .

(وكان) ﷺ ، أرحم الناس بالصبيان والعيال .

(وكان) ﷺ ، أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وانفع الناس للناس .

(وكان) ﷺ ، أصبر الناس على أقذر الناس .

(وكان) ﷺ ، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا وكذا .

(وكان) ﷺ ، إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه .

(وكان) ﷺ ، لا يضحك إلا تبسماً .

(وكان) ﷺ ، إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول: السلام عليكم - السلام عليكم .

(وكان) ﷺ ، إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده .

(وكان) ﷺ ، إذا أتى مريضاً أو أتي به قال : أذهب الباس رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً .

(وكان) ﷺ ، إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه ، فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ، وإذا لقي أحداً

من أصحابه فتناول إذنه ناوله إياها ثم لم ينزعها عنه ، حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه . قوله: فتناول إذنه أي: قرب منه ليكلمه سراً لم ينزعها ﷺ حتى يفرغ الرجل من حديثه .

(وكان) ﷺ ، لا يدفع عنه الناس ولا يضربون عنه .

(وكان) ﷺ ، لا يطرق أهله ليلاً .

(وكان) ﷺ ، لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث .

(وكان) ﷺ ، لا ينزل منزلاً إلا ودعه بركعتين .

(وكان) ﷺ ، لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه .

(وكان) ﷺ ، يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم .

(وكان) ﷺ ، يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم .

(وكان) ﷺ ، إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفض بها صوته .

(وكان) ﷺ ، يركب الحمار ، ويخصف النعل ، ويرقع القميص ، ويلبس الصوف ويقول : من رغب عن سنتي فليس مني .

(وكان) ﷺ ، يقبل الهدية ويثيب عليها .

(وكان) ﷺ ، أكثر لباسه البياض ، وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين .

(وكان) ﷺ ، أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة .

(وكان) ﷺ ، يقول : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

(وكان) ﷺ ، أجود الناس وأسخاهم ، فقد حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم مال إليها فقسمها ، فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله فقال : ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي ﷺ ذلك ، فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، فتبسم النبي ﷺ وعرض السرور في وجهه . ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى

اضطروه إلى شجرة فخطف رداءه . فوقف رسول الله ﷺ ، وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جبانا .

وفي صحيح مسلم ، عن سفيان ابن عيينة ، عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبدالله قال : « ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا » .

وفي صحيحه أيضاً عن موسى بن أنس ، عن أبيه قال : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، قال : فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ، إن جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وكان علي كرم الله وجهه إذا وصف النبي ﷺ قال : كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله .

انتهى من كتاب "تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد" .

ذكر شيء مما اختص به رسول الله ﷺ

الحقيقية أن ما اختص الله به عبده ونبيه شفيعنا "محمداً" ﷺ شيء كثير قد لا يمكن عده وحصره ، ولنذكر هنا نبذة من ذلك نقلاً عن الجزء الأول من تاريخ الخميس ، هذا التاريخ العظيم الذي جمع فأوعى – فقد جاء فيه ما يأتي:

قد جمع بعض خصائصه عليه الصلاة والسلام الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في رسالة سماها "أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب" وقال : وهي منحصرة في قسمين :

(القسم الأول) في الخصائص التي اختص بها عن جميع الأنبياء ولم يؤتها نبي قبله – وهي أربعة أنواع :

١- النوع الأول: ما اختص به في ذاته في الدنيا .

٢- النوع الثاني : ما اختص به في شرعه وأمته في الدنيا .

٣- النوع الثالث : ما اختص به في ذاته في الآخرة .

٤- النوع الرابع : ما اختص به في أمته في الآخرة .

(والقسم الثاني) في الخصائص التي اختص بها عن أمته ، منها ما علم مشاركة الأنبياء له فيها ، ومنها ما لم يعلم - وهو أربعة أنواع :

١- النوع الأول : ما اختص به من الواجبات والحكمة في زيادة الزلفى والدرجات .

٢- النوع الثاني : ما اختص به من المحرمات .

٣- النوع الثالث : ما اختص به من المباحات .

٤- النوع الرابع : ما اختص به من الكرامات والفضائل .

ثم بين صاحب تاريخ الخميس رحمه الله تعالى كل نوع من الأنواع المتقدمة مما يدخل في القسمين المذكورين - كما ذكر معجزاته ﷺ بعد كل هذه الأنواع .

ولقد أحببنا نقل جميع أنواع القسمين المذكورين في تاريخ الخميس ، ولكن رأينا أنه يطول بنا المقام ، لذلك رأينا أن نقتصر على النوع الأول من القسم الأول فقط ، تبركاً بذكر أحواله ﷺ ، فقد جاء فيه ما نصه النوع الأول ما اختص به في ذاته في الدنيا :

اختص ﷺ بأنه أول النبيين خلقاً ، وبتقدم نبوته ، فكان نبياً وآدم منجدل في طينته ، وتقدم أخذ الميثاق عليه ، وأنه أول من قال بلى يوم ألست بربكم ، وخلق آدم وجميع المخلوقات لأجله ، وكتابة اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت ، وذكر الملائكة له في كل ساعة وذكر اسمه في الأذان في عهد آدم وفي الملكوت الأعلى ، وأخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه ، والتبشير به في الكتب السابقة ونعته فيها ونعت أصحابه وخلفائه وأمته ، وحجب إبليس من السموات لمولده ، وشق صدره في أحد القولين وهو الأصح ، وجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان ، وسائر الأنبياء كان الخاتم في يمينهم ، وبأن له ألف اسم ، وباشتقاق اسمه من اسم الله ، وبأنه سمي من أسماء الله بنحو سبعين اسماً ، وبأنه سمي أحمد ولم يسم به أحد قبله ،

وقد عدت هذه من الخصائص في حديث مسلم، وبإظلال الملائكة في سفره، وبأنه أرجح الناس عقلاً، وبأنه أوتي كل الحسن ولم يؤت يوسف إلا الشطر، وبغطه ثلاثاً عند ابتداء الوحي، وبرؤيته جبريل في صورته التي خلق عليها، عد هذه البيهقي، وبانقطاع الكهانة لمبعثه، وحراسة السماء من استراق السمع والرمي بالشهب، عد هذه ابن سبع، وبإحياء أبويه له حتى آمنا به، وقد مر في ذكر نسبه، وبوعده بالعصمة من الناس، وبالإسراء وما تضمنه من اختراق السموات السبع والعلو إلى قاب قوسين، وبوطئه مكاناً ما وطئه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وإحياء الأنبياء له وصلاته إماماً بهم وبالملائكة، وباطلاعه على الجنة والنار، عد هذه البيهقي، ورؤيته من آيات ربه الكبرى، وحفظه حتى ما زاغ البصر وما طغى، ورؤيته للباري تعالى مرتين، وقتال الملائكة معه، وسيرهم معه حيث سار يمشون خلف ظهره، وبإيتائه الكتاب وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وبأن كتابه معجز ومحفوظ من التبديل والتحريف على ممر الدهور، ومشتمل على ما اشتمل عليه جميع الكتب وزيادة، وجامع لكل شيء ومستغن عن غيره، وميسر للحفظ، ونزل منجماً، وعلى سبعة أحرف من سبعة أبواب وبكل لغة، عد هذه ابن النقيب، وأعطي من كنز العرش ولم يعط منه أحد، وخص بالبسملة والفاتحة وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة والسبع الطوال والمفصل، وبأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة وهو القرآن، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها، وبأنه أكثر الأنبياء معجزات، فقد قيل إنها تبلغ ألفاً وقيل ثلاثة آلاف سوى القرآن فإن فيه ستين ألف معجزة تقريباً.

قال الحليمي: وفيها مع كثرتها معنى آخر، وهو أنه ليس في شيء من معجزات غيره ما ينحو نحو اختراع الأجسام، وإنما ذلك في معجزات نبينا محمد ﷺ خاصة، وبأنه جمع له كل ما أوتيه الأنبياء من معجزات وفضائل، ولم يجمع ذلك لغيره بل اختص كل بنوع، وأوتي انشقاق القمر، وتسليم الحجر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين الأصابع، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، ذكره ابن عبد السلام، وبأنه خاتم النبيين وآخرهم بعثاً فلا نبي بعده، وشرعه مؤيد إلى يوم القيامة لا ينسخ وناسخ لجميع الشرائع قبله، ولو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، وفي كتابه الناسخ والمنسوخ، وبعموم الدعوة للناس كافة، وأنه أكثر الأنبياء تابعاً، وأرسل إلى الجن بالإجماع وإلى الملائكة في أحد القولين، ورجحه السبكي، وبعثه رحمة للعالمين حتى للكافر بتأخير العذاب ولم يعاجلوا بالعقوبة

كسائر الأمم المكذبة ، ولأن الله أقسم بحياته وأقسم على رسالته ، وتولى الرد على أعدائه عنه ، وخاطبه بألطف ماخاطب به الأنبياء ، وقرن اسمه باسمه في كتابه ، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضاً مطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء ، ووصفه في كتابه عضواً عضواً : قلبه بقوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ، وقوله : ﴿نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك﴾ ، ولسانه بقوله : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ ، وقوله : ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ ، وبصره بقوله : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ، ووجهه بقوله : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ ، ويده وعنقه بقوله : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ ، وظهره وصدره بقوله : ﴿ألم نشرح لك صدرك ۞ ووضعنا عنك وزرك ۞ الذي أنقض ظهرك﴾ ، كذا في المواهب اللدنية ، و لم يخاطبه في القرآن باسمه بل بأيها النبي ، يا أيها الرسول ، وحرم على الأمة ندائه باسمه ، وفرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ثم نسخ ذلك ، و لم يره في أمته شيئاً يسوءه حتى قبضه بخلاف سائر الأنبياء ، وأنه حبيب الرحمن وجمع له بين المحبة والخلة وبين الكلام والرؤية وكلمه عند سدرة المنتهى وكلم موسى بالجبل ، عد هذه ابن عبدالسلام ، وجمع بين القبلتين والهجرتين ، وجمعت له الشريعة والحقيقة و لم يكن للأنبياء إلا إحداهما ، بدليل قصة موسى مع الخضر ، وقوله : إني على علم لا ينبغي لك أن تعلمه وأنت على علم لا ينبغي أن أعلمه ، ونصر بالرعب مسيرة شهر أمامه وشهر خلفه ، وأوتي جوامع الكلم ، وأوتي مفاتيح خزائن الأرض ، ولقيه الخازن على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس ، وكلم بأصناف جميع الوحي ، عد هذه ابن عبد السلام ، وهبط إسرافيل عليه و لم يهبط على نبي قبله ، عد هذه ابن سبع ، وجمع له بين النبوة والسلطنة و لم يجمع لنبي قبله ، عد هذه الغزالي في الإحياء ، وأوتي علم كل شيء إلا الخمس التي في آية: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ ، وقيل إنه أوتيها أيضاً ، وأمر بكتمها ، والخلاف جار في الروح أيضاً ، وبين له في أمر الدجال ما لم يبين لأحد ، ووعد بالمغفرة وهو يمشي حياً صحيحاً ، ورفع ذكره فلا يذكر الله جل جلاله في أذان ولا خطبة ولا تشهد إلا ذكر معه ، وعرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم ، وعرض عليه ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة ، وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلق على الله ، فهو أفضل من المرسلين وجميع الملائكة المقربين ، وأيد بأربعة وزراء جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر ، وأعطي من أصحابه أربعة عشر نجيباً وكل نبي أعطي سبعة ، وأسلم قرينه وكانت أزواجه عوناً له ، وبناته وزوجاته أفضل نساء العالمين ،

وثواب أزواجه وعقابهن مضاعف ، وأصحابه أفضل العالمين إلا النبيين ، ومسجده أفضل المساجد ، وبلده أفضل البلاد بالإجماع ما عدا مكة وعلى أحد القولين فيها وهو المختار ، ويسأل عنه الميت في قبره ، واستأذن ملك الموت عليه ولم يستأذن على نبي قبله ، وحرم نكاح أزواجه من بعده وأمة وطئها ، والبقعة التى دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش ، ويحرم التكني بكنيته ، ولم تر عورته قط ولو رآها أحد طمست عيناه ، ولا يجوز عليه الخطأ ، عد هذه ابن أبي هريرة والماوردي ، قال قوم ولا النسيان حكاه النووي في شرح مسلم .

انتهى من تاريخ الخميس - ومن أراد الاطلاع على بقية الأنواع فعليه بمطالعة التاريخ المذكور .

نبذة من صفاته وشمائله ﷺ

هنا ننقل ما ذكرناه سابقاً في كتابنا "تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد" وهذا نص ما ذكرناه :

كان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة ، رجل الشعر . وكان ﷺ أبيض مشرباً بياضه بحمرة ، وكان أسود الحدقة ، أهدب الأشفار . وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . وكان ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . وكان ﷺ أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ . وكان ﷺ أفلج الثنيتين إذا تكلم رئي كالنور . وكان ﷺ وجهه مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً . وكان ﷺ ضخم الهامة عظيم اللحية . وكان ﷺ شيبه نحو عشرين شعرة . وكان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها . وكان ﷺ كلامه كلاماً فصلاً . وكان ﷺ خاتم النبوة في ظهره بضعة ناشزة . وكانت عيناه تنام وقلبه لا ينام . وكان ﷺ أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه . وكان ﷺ إذا أُتي بطعام سأل عنه ، فإن قيل هدية أكل منها ، وإن قيل صدقة لم يأكل منها . وكان ﷺ لا يرد الطيب ، وكان ﷺ يحب التيامن ما استطاع في طهوره وتنعله وترجله وفي شأنه كله . وكان ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم . وكان ﷺ يقوم بالليل حتى تتفطر قدماه . وكان ﷺ يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد . وكان ﷺ يتوضأ عند كل صلاة . وكان ﷺ إذا صلى الغداة جاءه خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه . وكان ﷺ يؤتى بالصبيان

فيبرك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم . وكان ﷺ يدعو عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم . وكان ﷺ يتعوذ من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء وشماتة الأعداء . وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : باسمك اللهم أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت . وكان ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها .

وعن الأسود قال: « سألت عائشة رضي الله عنها كيف صلاة النبي ﷺ بالليل ؟ قالت : كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذن المؤذن وثب ، فإن كان به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج » .

وفي صحيح البخاري عن الحكم بن عتيبة قال : سمعت أبا جحيفة قال : « خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة » وزاد فيه عون عن أبيه أبي جحيفة قال : « كان يمر من ورائها المارة وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم ، قال : فأخذت بيده فوضعتها على و هي . فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك » وروى أبو نعيم والبزار بإسناد صحيح : « إذا مر في طريق من طرق المدينة وجدوا منه ر ائحة الطيب وقالوا : مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق » وروى أبو نعيم عن عائشة قالت : « كان عرقه في وجهه مثل الجمان أطيب من المسك الإذفر » ، وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : « صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله وخرجت معه ، فاستقبله ولدان ، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً ، قال : وأما أنا فمسح خدي قال : فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جوانة عطار » . وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما ، قال : سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال : (كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع وأقصر من

المشذب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحاجبين ، سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادناً ، متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سبط العصب ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال تقلعا ، ويخطو تكفيا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لي منطقه ، قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلام فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم شيئاً ، لم يكن ذواقاً ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام) . اهـ .

معنى بعض الألفاظ الواردة هنا:

قوله : المشذب هو: البائن الطويل مع نحافة . وقوله : عقيقته أي: شعر الرأس . وقوله : فرق أي: جعل شعره نصفين نصفاً عن يمينه ونصفاً عن يساره . وقوله : أزهر اللون أي: نير اللون ومشرقه في كل أجزاء بدنه عليه الصلاة والسلام . وقوله : أزج الزجيج دقة الحاجبين وسبوغهما إلى محاذاة آخر العين . وقوله : سوابغ أي: غزيرة الشعر حتى أن من لم يتأملها رآه أقرن ، ولذا قال في غير قرن ، وقوله : يدره أي: يحركه ويظهره ، وقوله : أقنى العرنين أي: أن أعلى أنفه مرتفع ووسطه

كذلك ، وقوله : أشم أي: مرتفع قصبة الأنـف ، وقولـه : كـث اللحية أي: كثير شعرها مـع استدارة ، وقولـه : سـهل الخدين أي: ليـس فيهمـا تنـؤ ولا ارتفـاع ، وقوله : ضليع الفم أي: واسعه ؛ لأن سعته تـدل علـى الفصاحـة ، وقولـه : أشـنب أي: أبيض الأسنان مع بريـق وتحديـد فيهـا ، وقولـه : مفلـج أي: مفـرج ، وقولـه : المسربة هي: ما دق من شعر الصدر كالخيط سائلاً إلى السرة ، وقوله : دميـة هـي: الصورة المنقوشة من نحو عاج أو رخام ، وقوله : ضخم الكراديس أي: عظيم كـل فرد من سائر عظام بدنه ، وقوله : أنور المتجرد ، ما كشف عنه الثوب من البـدن ، وقوله : اللبة بتشديد اللام وفتحها المنحر ، وهي المتطامن الذي فوق الصدر وأسفل الحلق : وقوله : الزندين قال العلقمي: هو عظم الذراعـين ، وقولـه : رحـب الراحة قال العلقمي: أي واسع الكف ، وقوله : سبط القصب هو جمع قصبة ، وهـي كـل عظم أجوف فيه مخ أي: ليس في قصبه تنؤ ولا تقعد ، وقوله : شثن هو: الـذي في أنامله غلظ بلا قصر ، وقولـه : خمصـان الأخمصـين قـال في النهايـة : الأخمـص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منهـا عنـد الـوطء ، وقولـه : مسيح القدمين أي: أملسهما من ظهرهما لوجود الخموصة في بطنهما ، وقوله : إذا زال تقلعا أي: إذا انتقل زال تقلعا بهمة ، وقوله : يخطو تكفيا أي: يميل إلى قدام ، وقولـه : يسـوق أصحابه أي: يقدمهم أمامه ويمشي خلفهم ليخلي ظهره للملائكـة صلـى الله عليـه وعلى آله وصحبه وسلم .

وقولـه : بأشـداقه أي: يستعمل جميع فمـه للتكلـم ، لا يقتصـر علـى تحريـك الشفتين ، وذلك من قوة المنطق والصـوت والمعنـى ، وحضـور الذهـن واجتماعـه . والدمائة: سهولة الأخلاق ، والجفاء: غلظـه . وقولـه : ذواقـاً هـو: مـا يتـذوق من الطعام .

ما قاله الأستاذ الرافعي في صفته ﷺ

قال الأستاذ الكبير ، وحيد دهره وفريد عصـره ، الأسـتاذ مصطفـى صـادق الرافعي المصري ، المتوفى في زماننا هذا في كتابه الشهير "إعجاز القـرآن" في صفتـه ﷺ ما نصه :

ولقد أفاضوا في تحقيق أوصافه ﷺ بأكثر مـن ذلـك ألفاظـاً ومعـاني ، ونقلـوا الكثير الطيب من هذه الأوصاف الكريمة في كل باب من محاسن الأخلاق مما يتسع

هذا الموضع لبسطه ، فتأمل أنت هذه الصفات واعتبر بعضها ببعض في جملتها وتفصيلها فإنك متوسم منها أروع ما عسى أن تدل عليه دلائل الحكمة ، وسمة الفضيلة ، وشدة النفس ، وبعد الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وإحكام خطة الرأي ، وإحراز جانب الخلق الإنساني الكريم ، وانظر كيف يكون الإنسان الذي تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها ، وتجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها ، فهو في صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، وفي صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك ، وما خص بتلك الصفات إلا ليملأ بها الكون ويعمه ، ولا كان فرداً في أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة . انتهى من كتاب إعجاز القرآن للرافعي .

هذا وقد نظم بعضهم جملة من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

لقد خص النبي طه بعشر ... ومن يحفظ لها جمع الخصالا
فما وقع الذباب له بجسم ... وما خالوا لقامته الظلالا
كذا الفضلات قد خفيت بأرض ... فلم يك في الكمال له مثالا
ولم يتثاءب المختار يوماً ... وما احتلم احتلاماً وانفعالا
تنام المقلتان ولم يخالط ... منام قلبه أبداً محالا
يرى من خلفه أو من أمام ... ومن حاذاه في كيف تعالا
ويظهر نوره في كل واد ... وما هربت دواب منه حالا
وقد ولدته آمنة نظيفاً ... ومختوناً بقدرته تعالى
على طه صلاة مع سلام ... تعم الصحب والخلفا وآلا

ما قاله الأستاذ الرافعي في بلاغته ﷺ

قال الأستاذ الكبير ، وحيد دهره وفريد عصره ، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي المصري المتوفى في زماننا هذا في كتابه الشهير "إعجاز القرآن" في بلاغة رسول الله ﷺ ما نصه:

هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة ، ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ، ولكنها

جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ ، إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، في منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدماء ، وإذا أراك القرآن إنه خطاب السماء للأرض ، أراك هذا إنه كلام الأرض بعد السماء ، وهي البلاغة النبوية ، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة ، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة ، وهي من البيان في إيجاز تتردد فيه (عين) البليغ فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين ، فمن رآه غير قريب من ذلك الإعجاز فليعلم أنه لم يلحق به هذه "العين" أي فليعلم هذا الناظر أنه غير بليغ ، وإذا جعلت من الياء في لفظ (الإيجاز) عيناً صار (الإعجاز) فالتورية ظاهرة في "العين" - على أنه سواء في سهولة أطماعه ، وفي صعوبة امتناعه ، إن أخذ أبلغ الناس في ناحيته ، لم يأخذ بناصيته ، وإن أقدم على غير نظر فيه رجع مبصراً ، وإن جرى في معارضته انتهى مقصراً ، إلى أن قال في فصاحته ﷺ ما نصه : وأن كلامه ﷺ لكما قال الجاحظ : هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المؤاربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ . اهـ .

وهنا نمسك عنان القلم عن وصف أفضل الخلق على الإطلاق ، نبينا "محمد" ﷺ ، فإنا لا نقدر قدره العظيم ، ولا ندرك ما يليق به من الاحترام والتعظيم ، وإنما ذكرنا زبدة من صفاته وشمائله صلى الله عليه وآله وسلم على حد قول الشاعر:

إن فاتكم أن تروه بالعيون فما ... يفوتكم وصفه هذي شمائله

مكمل الذات في خلق وفي خلق ... وفي صفات فلا تحصى فضائله

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم ، ولا يمكن حصر أوصافه السنية ، وأخلاقه المرضية كما قال بعضهم رحمه الله تعالى :

وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وقال آخر :

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

لكن مدحه ﷺ يقصد به رجاء التقرب والثواب وإظهار الحب له والشوق إليه . قال في الدر المنظم :

ومن بعظيم جاء في الذكر وصفه ... أيدرك معناه ذوو العجز والبلوى

ولكنما مداحه يمدحونه ... على قدرهم يرجون من فضله عفوا

تواضع النبي ﷺ في مزاحه مع أصحابه

بمناسبة ما ذكرناه عن أخلاقه ﷺ السامية العالية ، وعن شمائله وخصاله الكريمة الحميدة ، نتشرف هنا بذكر نبذة من تواضعه عليه الصلاة والسلام في مزاحه مع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ، للاقتداء والعبرة ، وترويحاً للنفس ، وجلباً للسرور والنشاط ، فقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أجمّوا هذه القلوب والتمسوا لها طرائف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان وقال الشاعر :

وروح القلب بذكر الطرف ... فإن ذلك صنيع السلف

ولقد كان رسول الله ﷺ من أضحك الناس وأطيبهم نفساً ، وكان لا يضحك إلا تبسماً ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً .

جاء في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ما نصه : أخبرنا ابن المسيب أن عائشة رضي الله عنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يمزح ؟ قالت: نعم - كان عندي عجوز ، فدخل رسول الله ﷺ ، فقالت : ادع الله أن يجعلني من أهل الجنة ، قال : إن الجنة لا يدخلها العجائز . وسمع النداء فخرج ، ودخل وهي تبكي ، فقال : ما لها ؟ قالوا : إنك حدثتها أن الجنة لا يدخلها العجائز ، قال : إن الله يحولهن أبكاراً عرباً أتراباً .

وجاء فيه أيضاً : حدثني القرشي قال : دخلت امرأة على رسول الله ﷺ ، فقال : من زوجك ؟ فسمته له ، فقال : الذي في عينيه بياض ؟ فرجعت تنظر إلى زوجها ، فقال : ما لك ؟ قالت: قال رسول الله ﷺ زوجك فلان ، قلت : نعم ، قال : الذي في عينيه بياض ؟ قال : أوليس البياض في عيني أكثر من السواد .

وجاء فيه أيضاً : حدثنا أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ليستحمله ، فقال : أنا حاملك على ولد ناقة ، قال : يا رسول الله ، وما أصنع بولد ناقة ؟ قال : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ انتهى من الكتاب المذكور .

وجاء في أوائل الجزء الأول من كتاب "التراتيب الإدارية" للحافظ المحدث الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي ، عند مبحث "مضحك رسول الله ﷺ" ما نصه :

ترجم في الإصابة حمار ، فذكر عن الصحيح أن اسمه عبدا لله ويلقب بحمار . وكان يُضحك رسول الله ﷺ .

وعن أبي يعلي ، عن زيد بن أسلم أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن أو العسل ، ثم يجيء بصاحبها فيقول : أعطه الثمن .

وترجم في الإصابة أيضاً لسويط حرملة العبدري ، وذكر قضايا من أفعاله ، فذكر أن النبي ﷺ ضحك هو وأصحابه منها حولاً .

وفي فوائد الدرر وفرائد الفكر في شرح مختصر السير ، للفقيه المحدث القاضي أبي علي حسن بن بلقاسم ، بن باديس القسمطيني ، لما ترجم لسودة زوجه عليه السلام ، قال : وكانت تُضحك النبي ﷺ ، قالت له : صليت البارحة خلفك يا رسول الله ، فركعت فأمسكت بأنفي مخافة الدم أن يقطر . فضحك هو منه . انتهى من الكتاب المذكور .

وجاء أيضاً في الكتاب المذكور في الجزء الثاني منه، عند مبحث "المضحكون والمضحكات في الزمن النبوي" - ما يأتي :

ومنهم نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري ممن شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها، قال ابن الأثير، في ترجمته من أسد الغابة : كان كثير المزاح يضحك النبي ﷺ من مزاحه، وهو صاحب سويبط بن حرملة .

وكان من حديثهما أن أبا بكر خرج إلى الشام ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة وكلاهما بدري، وكان سويبط على الزاد، فجاءه نعيمان فقال : أطعمني، فقال : لا، حتى يجيء أبو بكر، وكان نعيمان رجلاً مضاحكاً . فقال : لأغيظنك، فجاء إلى أناس جلبوا ظهراً، فقال : ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً وهو ذو لسان، ولعله يقول: أنا حر فإن كنتم تاركونه لذلك فدعوه لا تفسدوا علي غلامي، فقالوا: بلى بل نبتاعه منك بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال : دونكم هو هذا، فجاء القوم فقالوا: قم قد اشتريناك، فقال سويبط : هو كذاب أنا رجل حر، فقالوا : قد أخبرنا خبرك . فطرحوا الحبل في رقبته وذهبوا به، فجاء أبو بكر فأخبر فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص وأخذوه، فلما عادوا إلى النبي ﷺ وأخبروه الخبر ضحك النبي ﷺ حولاً وأصحابه .

وروى عياد بن مصعب من طريق ربيعة بن عثمان قال : أتى أعرابي إلى رسول الله ﷺ فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض أصحاب النبي ﷺ لنعيمان : لو نحرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويقرم رسول الله ﷺ ثمنها، قال : فنحرها نعيمان، ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح : واعقراه يا محمد، فخرج النبي ﷺ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا: نعيمان، فأتبعه يسأل عنه فوجدوه في دار ضباعة بنت زبير بن عبد المطلب مستخفياً، فأشار إليه رجل ورفع صوته ويقول : ما رأيته يا رسول الله، وأشار بإصبعه حيث هو، فأخرجه رسول الله ﷺ، وقال له : ما حملك على هذا ؟ قال: الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله ﷺ يمسح وجهه ويضحك وغرم ثمنها .

وأخباره في المزاح مشهورة، وكان يشرب الخمر فيؤتى به النبي ﷺ فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ويحثون عليه التراب، فلما كثر ذلك منه قال

له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : لعنك الله ، فقال النبي ﷺ : لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله .

قال الحافظ السيوطي في قوت المغتذي على جامع الترمذي : الصحابة خصوا في باب الحدود بما لا يخص به غيرهم ولهذا لا يفسقون بما يفسق به غيرهم خصوصية لهم ، ثم أورد هذه القصة قائلاً : علم النبي ﷺ من باطنه صدق محبته لله ورسوله فأكرمه بترك القتل وله ﷺ أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام . اهـ .

وفي الإصابة ، قال الزبير بن بكار : وكان لا يدخل المدينة إلا اشترى منها ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : هذا أهديته لك ، فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبي ﷺ ، وقال : أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : أو لم تهده لي ، فيقول : والله إنه لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه .

وأخرج الزبير قصة البعير بسياق آخر من طريق ربيعة بن عثمان ، قال : دخل أعرابي على النبي ﷺ وأناخ ناقته ، فقال بعض الصحابة لنعيمان الأنصاري : لو عقرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا إلى اللحم ، ففعل ، وخرج الأعرابي وصاح : واعقراه يا محمد ، فخرج النبي ﷺ وقال : من فعل هذا ؟ فقالوا : نعيمان ، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد ، فأشار رجل إلى النبي ﷺ حيث هو ، فأخرجه فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال: الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ثم غرمها للأعرابي .

وقال الزبير أيضاً : حدثني عمي عن جدي قال : كان مخرمة بن نوفل قد بلغ مائة وخمس عشرة سنة ، فقام في المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس : المسجد ، المسجد ، فأخذه نعيمان بيده وتنحى به ثم أجلسه ناحية أخرى من المسجد وقال له : بل هاهنا ، قال : فصاح به الناس فقال : ويحكم ومن أتى بي إلى هذا الموضع ؟ فقالوا : نعيمان ، فقال : أما إن لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ به ما بلغت ، فبلغ ذلك نعيمان فمكث ما شاء الله ، ثم رآه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد ، فقال لمخرمة : هل لك في نعيمان ، قال : نعم ، فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت ، فقال : دونك هذا

نعيمان ، فجمع يده بعصاه وضرب عثمان فشجه ، فصاحوا به : ضربت أمير المؤمنين فذكر بقية القصة .

وقال الزبير : حدثني علي بن صالح عن جدي عبد الله بن مصعب قال: لقي نعيمان أبا سفيان بن حرب فقال له : يا عدو الله أنت الذي تهجو سيد الأنصار نعيمان ابن عمرو فاعتذر إليه ، فلما ولى قيل لأبي سفيان إن نعيمان هو الذي قال ذلك ، فعجب منه ، وقصته مع سويبط بن حرملة تقدمت .

وقال عبدالرزاق : أنبأنا معمر عن أيوب ، عن عمر بن سرين ، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بماء ، وكان نعيمان بن عمرو يقول لأهل الماء : يكون كذا أو كذا فيأتونه باللبن والطعام فيرسله إلى أصحابه ، فبلغ أبا بكر خبره ، قال : أراني آكل من كهانة نعيمان منذ اليوم واستقاء ما في بطنه .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مولى ابن عباس ، أن عبدا لله ابن رواحة كان مضطجعاً إلى جنب امرأته ، فخرج إلى الحجرة فواقع جارية له ، فانتبهت المرأة فلم تره فخرجت فإذا هو على بطن الجارية ، فرجعت وأخذت الشفرة ، فلقيها ومعها الشفرة ، فقال لها : مهيم ، فقالت: مهيم ، أما إني لو وجدتك حيث كنت لوجأتك بها ، قال : وأين كنت ، قالت : على بطن الجارية ، قال : ما كنت : قالت : بلى ، قال : فإن رسول الله ﷺ نهى أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب ، فقالت : اقرأه ، فقال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه ... كما لاح مسطوره من الصبح طالع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قالت : آمنت با لله وكذبت بصري ، قال: فغدوت على النبي ﷺ فأخبرته فضحك حتى بدت نواجذه .

وأخرج ابن عساكر عن الزهري قال : شكى عبد بن حذافة إلى رسول الله ﷺ أنه صاحب مزاح وباطل ، فقال : اتركوه فإن له بطانة تحب الله ورسوله .

ومما جاء عن المضحكات في الزمن النبوي بالمدينة المنورة ومكة المعظمة ، ما رويناه في سنن أبي داود بسنده إلى الليث بن عمرة قالت : كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثلها ، فقدمت المكية المدينة فتعارفتا فدخلتا

على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، فقالت عائشة للمكية : عرفت هذه ، قالت : لا ولكنا التقينا فتعارفنا فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله ﷺ: الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

وعن الزبير بن بكار في كتاب المزاح والفكاهة من حديث بن شهاب عن عروة ، عن عائشة : أن امرأة كانت بمكة تدخل على نساء قريش تضحكهن ، فلما هاجرن ووسع الله دخلتا المدينة ، قالت عائشة : فدخلت عليّ ، فقلت فلانة ما أقدمك ، قالت : إليكن ، قلت : فأين نزلت ، قالت : على فلانة امرأة كانت تضحك بالمدينة ، قالت : ودخل رسول الله ﷺ ، فقال : فلانة المضحكة عندكم؟ قالت عائشة : نعم ، قال : فعلى من نزلت ، قالت : على فلانة المضحكة ، قال : الحمد لله إن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . انظر المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي ، وعروس الأفراح في معنى حديث الأرواح للمحدث الشمس محمد بن عقيلة المكي .

وقصة خوّات بن جبير مع ذات النِّحْيَيْن في الجاهلية شهيرة ، وهو القائل :

فشدّت على النِّحْيَيْن كفاً صحيحة   فأعجلتها والفتك من فعلاتي

قال في الاستبصار : وهي امرأة من بني فتح الله بن ثعلبة كانت تبيع السمن في الجاهلية وبها يضرب المثل فيقال : أشغل من ذات النِّحْيَيْن ، روي أن النبي ﷺ سأله عنها وتبسم ، فقال : يا رسول الله قد رزق الله خيراً وأعوذ بالله من الجور بعد الكور ، وكان خواتاً شاعراً . اهـ .

وأخرج جمع عن خوات المذكور ، قال : نزلت مع رسول الله ﷺ بمر الظهران ، فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني ، فرجعت فأخرجت حلة من عيبتي فلبستها ثم جلست إليها ، وخرج رسول الله ﷺ من قبته فقال : يا عبدالله ما يجلسك إليهن ، فقلت : يا رسول الله ﷺ جمل لي شرد أبتغي له قيداً ، فمضى وتبعته فألقى ردائه ودخل فقضى حاجته وتوضأ ثم جاء ، فقال : ما فعل جملك الشارد ثم ارتحل ، فجعل لا يلقاني في منزل إلا قال : يا عبدالله ما فعل جملك الشارد ، إلى أن قلت : فوالله لأعتذرن إليه ولأبردن صدره ، فقال لي يوما فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت .

انتهى كل ذلك من كتاب التراتيب الإدارية المطبوع بالمغرب الأقصى .

حسن معاشرة النبي ﷺ لأهله

(وفيه حديث أم زرع)

حسن المعاشرة دليل على حسن الخلق، وهو دليل السعادة ويؤدي إلى الجنة، فقد ورد في الصحيحين: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

وروى الطبراني: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

فالخلق الحسن مع عامة الناس ممدوح محمود، وهو مع الأهل والأولاد أعظم محمدة وأكبر مبرة، قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»، رواه الترمذي وغيره، وقد ذكر مبحثاً خاصاً في حسن المعاشرة في كتابنا المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر المسمى "تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد" فيراجعه من شاء.

ونحن نتشرف بذكر حديث واحد فقط وهو حديث "أم زرع" الخاص بكمال حسن معاشرة النبي ﷺ لأهله، وحديث أم زرع لا نذكره للاستدلال بحسن معاشرته ﷺ لأهله بل ولأمته، وهو الذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، والذي يقول الله عز وجل في حقه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ - وإنما نذكر هذا الحديث المشهور في البخاري ومسلم وغيرهما؛ لما فيه من الفوائد المتعددة التي لا تخفى على أولي الألباب، ولقد ألّف القاضي عياض رحمه الله تعالى رسالة خاصة في شرح هذا الحديث سماها "بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد".

جاء في كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع». وحديث أم زرع طويل، فقد جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها واللفظ للبخاري، قالت: «جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.

قالت الثانية: زوجي لا أبث خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره.

قالت الثالثة: زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق.

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف وإن شرب اشتف وإن اضطجع التف ولا يولج الكف ليعلم البث.

قالت السابعة: زوجي غياياء أو عياياء طباقاء، كل داء له داء، شجك أو فلك أو جمع كلا لك.

قالت الثامنة: زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب.

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع فما أبو زرع، أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبجحني فبجحت إلى نفسي، وجدني في أهل غنيمة بشق، فجعلني في أهل صهيل وأطيط، ودائس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقنح، أم أبي زرع فما أم أبي زرع علومها رداح وبيتها فساح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مضجعه كمسل شطبة، ويشبعه ذراع الجفرة، بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع، طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع، لا تبث حديثنا تبثيثاً، ولا تنقث ميراثنا تنقيثاً ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، قالت خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً ثرياً ركب شرياً، وأخذ خطيا، وأراح علي نعماً ثريا، وأعطاني من كل رائحة زوجاً، وقال كلي أم زرع، وميري أهلك، قالت: فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع - قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع».

(رواه الشيخان) عن عائشة رضي الله عنها، وظاهرهما أنه موقوف عليها، وإنما المرفوع منه قوله: « كنت لك كأبي زرع لأم زرع » كما قدمنا بيان رفعه. اهـ.

أخرج هذا الحديث البخاري مرفوعاً إلى النبي ﷺ من كتاب النكاح من باب حسن المعاشرة مع الأهل - وأخرجه مسلم كذلك في كتاب فضائل الصحابة في باب ذكر حديث أم زرع، وكذا أخرجا قصته المذكورة بطولها عن عائشة رضي الله عنها في الموضعين المذكورين.

ولما قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: « كنت لك كأبي زرع لأم زرع » أجابت إجابة تليق بمثلها في فضلها وعلمها فقالت كما عند النسائي والطبراني: « يا رسول الله ﷺ، بل أنت خير من أبي زرع ». وفي رواية الزبير: « بأبي وأمي لأنت خير لي من أبي زرع لأم زرع ».

وأبي زرع المذكور هو زوج المرأة الحادية عشرة من المذكورات، وهي التي أطنبت في مدحه وبالغت في ذكر أوصافه الحسنة، ومن اطلع على هذا الحديث علم أن الذامات منهن لأزواجهن خمس: الأولى والثانية والثالثة والسادسة والسابعة، والمادحات لأزواجهن ست: الرابعة والخامسة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة، وهي أم زرع التى اشتهر الحديث بها.

ولقد نظم شيخنا العلامة المحدث الشهير محمد بن حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" ما وصفت به كل واحدة من النسوة المذكورات في الحديث زوجها من الذم والمدح، فنأتي به هنا لما فيه من الطرافة والفائدة - فقال رحمه الله ما لفظه:

ومن عجب نادرة النساء ... في وصف أزواج بالاستقصاء
في خبر الفتاة أم زرع ... من ذكرت في قول حلف الشرع
عليه أكمل الصلاة وعلى ... أزواجه وآله أولي العلى
أولى النسا قالت وقولها جلل ... في ذم زوجها بشر ما فعل
زوجي في الشر كلحم من جمل ... غث بلا نفع على رأس جبل
ثانية من لا تبث خبره ... لأنها تخاف أن لا تذره
إن ذكرته قد أبانت عجره ... كما تبين مع ذاك بجره
ثالثة من زوجها العشنق ... بكلمة خفيفة تطلق

رابعـة مـن لم تخـف سـآمه إذ زوجهـا كـالليل في تهامـه
خامسة من مدحت من قد فهد وليس يسـأل عـن الـذي عهـد
سادسة من رزئت بمن كلف بخبث أكل لا بها بذا عرف
سـابعة زوج العيايـاء الـذي جمع كل الـداء والقول البذي
ثامنـة مـن زوجهـا كـالأرنب في المسر والريح كريح الزرنب
ثـم رفيعـة لعمـاد بسـبب رفع عماد زوجها الذي انتخب
تاسـعة النسـوة ثـم العاشـرة مـن لمفـاخر الجليـل ناشـره
حاديـة العشـرة أم زرع مادحـة الزوجـين ثـم الفـرع
لكنهـا مشـرفة بـالأول أي بـأبي زرع كريـم العمـل
قـد استفا العلـم ممـا ارتسـم عنهـا فوائد بهـا الشـرع حكـم

ولقد شرح معاني ألفاظ الحديث شيخنا المذكور في كتابه زاد المسلم لم ننقله هنا خوف التطويـل ، لكـن لا بـد لنـا أن نذكـر نبـذة صغيرة مفيـدة مـن الكتـاب المذكور ، فقد جاء فيه "تتمة مفيدة" قـال القـاضي عيـاض : في كـلام أم زرع مـن الفصاحة والبلاغـة مـا لا مزيـد عليـه فإنـه مـع كثرة فصولـه وقلـة فضولـه ، مختـار الكلمات ، واضح السمات ، نير القسمات ، قد قدرن ألفاظه قدر معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، وجعلت لبعضه في البلاغـة موضعاً ، وأودعتـه مـن البديـع بدعاً ، وإذا لمحت كلام التاسـعة ، صاحبـة العمـاد والنجـاد ألفيتهـا لأفـانين البلاغـة جامعة ، فلا شـيء أسلس مـن كلامهـا ، ولا أربـط مـن نظامهـا ، ولا أطبـع مـن سجعها ، ولا أغرب من طبعها ، وكأنما فقرهـا مفرغـة في قـالب واحـد ، ومحذوة على مثال واحد ، وإذا اعتبرت كلام الأولى وجدته مع صـدق تشبيهه ، وصقالة وجوهه ، قد جمع من حسن الكلام أنواعاً ، وكشف عـن محيـا البلاغـة قناعـاً ، بـل كلهن حسان الأسجاع ، متفقات الطباع ، غريبات الأبداع .

قال شيخنا رحمه الله تعالى في كتابه المذكور : وقد استنبط العلماء من حديث أم زرع فوائد ذكرهـا الحـافظ ابـن حجـر وغيره ولنقتصـر علـى مـا ذكـره الإمـام النووي من ذلك في شرحه لصحيح مسلم عند هذا الحديث والشيخ محمد جسوس في شرح الشمائل عنده أيضاً ولفظ الإمام النووي ، قال العلماء في حديث أم زرع هذا فوائد :

(منها) استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية وأن المشبه بالشيء لا يلزم كونه مثله في كل شيء.

(ومنها) أن كنايات الطلاق لا يقع بها طلاق إلا بالنية لأن النبي ﷺ قال لعائشة : كنت لك كأبي زرع لأم زرع ، ومن جملة أفعال أبي زرع أنه طلق امرأته أم زرع كما سبق ولم يقع من النبي ﷺ طلاق بتشبيه لكونه لم ينو الطلاق .

قال المازري : قال بعضهم وفيه أن هؤلاء النسوة ذكر بعضهن أزواجهن بما يكره ولم يكن ذلك غيبة لكونهم لا يعرفون بأعيانهم أو أسمائهم وإنما الغيبة المحرمة أن يذكر إنسان بعينه أو جماعة بأعيانهم .

قال المازري : وإنما يحتاج إلى هذا الاعتذار لو كان النبي ﷺ سمع امرأة تغتاب زوجها وهو مجهول فأقرها على ذلك وأما هذه القضية فإنما حكتها عائشة عن نسوة مجهولات غائبات لكن لو وصفت اليوم امرأة زوجها بما يكرهه وهو معروف عند السامعين كان غيبة محرمة فإن كان مجهولاً لا يعرف بعد البحث فهذا لا حرج فيه عند بعضهم كما قدمناه ويجعله كمن قال في العالم من يشرب أو يسرق .

قال المازري : وفيما قاله هذا القائل احتمال ، قال القاضي عياض : صدق القائل المذكور ، فإنه إذا كان مجهولاً عند السامع ومن يبلغه الحديث عنه لم يكن غيبة لأنه لا يتأذى إلا بتعيينه ، قال : وقد قال إبراهيم : لا يكون غيبة ما لم يسم صاحبها باسمه أو ينبه عليه بما يفهم به عينه وهؤلاء النسوة مجهولات الأعيان والأزواج لم يثبت لهن إسلام فيحكم فيهن بالغيبة لو تعين فكيف مع الجهالة والله أعلم . اهـ . بلفظه .

انتهى من زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

اللهم صل وسلم وبارك على من قلت في حقه : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ نبينا وشفيعنا وحبيبنا المصطفى المختار ، سيدنا "محمد" وعلى آله وأزواجه الأطهار ، وصحابته النجباء الأبرار .

انظر: صورة رقم ١٠ ، مقصورة قبر الرسول ﷺ

مقصورة قبر النبي ﷺ

قال البتنوني رحمه الله تعالى في كتابه "الرحلة الحجازية" عنها ما يأتي:

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة ، عملت في مدة العمارة التي قام بها قايتباي في سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، ولها أيضاً منفذ إلى جهة القبلة في المواجهة الشريفة ويفتح عند الأمور الهامة للدعاء والاستغاثة .

ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهي على استقامتها من الغرب وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ متراً ، ومن الشرقي والغربي ١٥ متراً . وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف ، وهي تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببابين : أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب ، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين ، وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي به رسول الله ﷺ في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالي ، لقوله ﷺ: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض» ، ورأسه عليه الصلاة والسلام إلى الغرب .

ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولما طُعن عمر ، رضي الله عنه استأذن من عائشة أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الأربعاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن إلى جوارهما ، ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر رضي الله عنهما ، وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذي خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار .

وأول من بنى هذه المقصورة عمر بن عبدالعزيز في عمارته للمسجد، ونزل بأساسها إلى غور بعيد، وجعلها على الشكل المزور المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة في تربيعها، خوفاً من أن يتخذها الناس قبلة لهم، وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراً رابعاً. ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء في آخر الزمان.

وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة: لو أتيت المدينة وأقمت بها، فإن مت دفنت مع رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فقال والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار أحب إليّ من أن يعلم أني أرى نفسي لذلك أهلاً. فانظر إلى درجة أدب الرجل وتنكسه مع ما كان فيه من سعة الملك الذي حلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضي الله عنه.

وفي سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكي أن الصليبيين الذين كان مشتغلاً بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة، فأمر بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر، نزل بأساسه إلى منابع الماء، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان، وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾. وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي ﷺ، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر الشريف، وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها، والكسوة الحالية وصلت إلى الحجرة الشريفة بعد إعلان الدستور.

وأول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هارون الرشيد، عندما قدمت في حجها لزيارة النبي ﷺ. وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين.

وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسطة سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية، وفي زاوية هذه الطرقة، من الجنوب، كرسي موضوع عليه مصحف شريف كبير، أهداه إلى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفي، ويقولون إنه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان.

وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف : فإن فيها كثيراً من المشاكي الذهبية ، منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار ، ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

وفي مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلانتي ، في حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع ، ويقدرون ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه . أما في شرف نسبته إلى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدري لشدة تألقه وعظيم ثنائه وبهائه ، وهو مثبت في لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة ، وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان ، في مبادئ القرن الحادي عشر هجري .

وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدري ، أهداه إليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول في سنة سبع وأربعين وألف للهجرة .

وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلانتي : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أهدتها إليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية .

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التي لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بألماس اسم السيدة فاطمة الزهراء ، وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي ، وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شيء في عظمه وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال .

ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداهما إليها السلطان عبدالمجيد خان في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهداهما السلطان محمود ، وإلى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة ، وعقاصي ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد في خزائن الحجرة الشريفة

من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة ، وكثير من الأحجار الكريمة ، والجواهر الثمينة التي لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الأساور والأقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها في كل الأزمان كثيراً من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة . وكثيراً ما كانت تتطاول إليها يد الأشرار من ولاة المدينة مثل جماز بن هبة الذي نهب في سنة إحدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدني ما قدره السمهودي بعشرين قنطاراً من الذهب . وتبعه في ذلك الشريف حسن بن زبير المنصوري سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئاً كثيراً .

وفي مبدأ القرن الثالث عشر الهجري كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبها الوهابي سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف ، وباع بعضها إلى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال ، وبعد تتميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الأخير ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفي جنيه مصري ، وردها للحجرة الشريفة ، وكذلك رد إليها محمد علي ما أعطاه إليه الوهابي من ذخائرها وأهدى إليها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها : "العبد المذنب محمد علي والي مصر سنة ١٢٢٨" .

وأهداها عباس باشا الأول شمعدانات من الفضة وثريتين (نجفتين) من الفضة : واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة في المحراب العثماني ، والأخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف ، وثريات وشمعدانات أخرى من البلور .

ولسعيد باشا وبعض كريمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى .

وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد دواليب ثمينة جداً قدمتها إليها دولة والدة الجناب العالي الخديوي لتحفظ فيها هذه الآثار الكرمية جزاها الله خيراً .

وخَدَمَةُ الحجرة الشريفة يغسلونها في السنة ثلاث مرات : واحدة في يوم ٩ ربيع الأول ، والثانية في أول رجب ، والثالثة في الثامن عشر من ذي القعدة ، ويكون لذلك احتفالاً كبيراً .

الروضة الشريفة

قال البتنوني رحمه الله تعالى في كتابه "الرحلة الحجازية" عن الروضة المباركة بالمسجد النبوي الشريف ما يأتي:

والروضة الشريفة في غرب المقصورة الشريفة - وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله : «ما بين قبري ومنبري روضة من رياضٍ الجنة» ، وفي روايةٍ: «ما بين بيتي ومنبري . . . الخ» وهي تبلغ (٢٢) متراً طولاً في نحو ١٥ عرضاً .

ويفصل الروضة عن زيادتي عمر وعثمان رضي الله عنهما اللتين في جنوبها درابزين من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر .

والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها ، وفيها مما يلي هذا الدرابزين ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة قبلته ﷺ ، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها ، وجمال صنعتها ، وهي على استقامة المقصورة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة . وإلى غرب القبلة المنبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة ، وعلى غاية في الجمال ودقة الصناعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لقايتباي ، وهو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله ﷺ .

انتهى كلام البتنوني في كتابه المذكور ، وإن شاء الله نحن سنتكلم عن الروضة ومساحتها في مبحث مستقل بتفصيل تام عند ذكر نبذة من تاريخ المدينة المنورة في آخر هذا الكتاب ، فقف على مبحث الروضة الآتي لأنه مبحث مهم .

صفة بيته ﷺ

قال البتنوني في كتابه "الرحلة الحجازية" عن ذلك ما نصه :

إن من ينظر إلى المقصورة الشريفة الحالية، ويعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبي ﷺ (المشهور ببيت عائشة)، ويفكر في أبوابها، وتسمية كل باب باسم مخصوص، ويضيف إلى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته ﷺ، وأنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها، وكان ﷺ يستطلع أمرها منه حتى سده محبة في استقلال كل بيت عن الآخر، يحكم معي بأن وضع بيته مدة وجوده ﷺ كان على الشكل الآتي:

والذي ساعدني على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضي الله عنه "قسم بيت عائشة باثنين، قسم كان به القبر، وقسم كانت تكون فيه عائشة، وبينهما حائط، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلاً (يعني سافراً)، فلما دفن عمر رضي الله عنه لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها".

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله ﷺ كان به حجرتان. أما بابه فقد قال بعضهم إنه للشمال، وقال آخرون أنه للغرب ولكن يستنتج من رواية ابن سعد أن له بابين حيث قال: "لما قبض رسول الله ﷺ قالوا (الصحابة) كيف نصلي عليه؟ قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً، فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر"، ومما ورد أيضاً أن بيت السيدة عائشة كان به صفة إلى منزل فاطمة، وكان به فتحة إلى القبلة، يؤيد ذلك قول ابن ذبالة: كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذي فيه القبر الشريف طريق، وكانتا تتهاديان الكلام وهما في منزليهما من قرب ما بينهما. وحفصة زوج رسول الله ﷺ وبنت عمر بن الخطاب، وكان بيتها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر، أي في جنوب بيت عائشة إلى الشرق.

وإني لم أجسر على هذا الوضع إلا بعد تدقيق شديد في أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة والسلام، وخصوصاً في بيته الذي أجمع المسلمون على أن موضع قبره ﷺ فيه أشرف بقعة على سطح الأرض. وعلى كل حال فهذا استنتاج لي أورده لك وأنت حر في تحسينه أو توهينه، ولو بدون دليل تقيمه عليه.

وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته في المدينة على الرسم (الموضوع في جنوب المقصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه في مكة. وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضي الله عنهن، وكان محيطها مع منزل عائشة مبنياً باللبن، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية: ومن

ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته ﷺ في مسكنه - بحيث إنه ما كان يتعدى في أي حال من الأحوال الضروري لحياته وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراساني أنه قال : "أدركت حجر أزواج النبي ﷺ ، فحضرت كتاب الوليد يقرأ يأمر بإدخالها في المسجد فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول: "وا لله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول ا لله ﷺ في حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر بها" .

ومع هذا فإنك إذا أنعمت النظر في هيئة المكان على بساطته ، وفكرت في وضعه الصحي ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية إلى السهولة في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة إلى المقصد ، مما شرع فيه الآن في العمارات الكمالية ، عرفت ما كان عليه رسول ا لله ﷺ من القناعة ، والزهد ، وحسن الذوق . ومن يتأمل في ذلك ير فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الأمور في مواضعها ، من غير زيادة عن الحاجة ولا نقص عن الضروري ، وهنالك يرى الغني في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال ا لله ، فتتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة في أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب ، وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهنالك تزول عوامل الحسد ، وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتحد الكل على العمل ، بل يعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته ووجوده ، وإذاً يكونون قد قاموا بالمأمورية التي وجدوا من أجلها ، وهي خدمة الإنسانية .

إشراق الدنيا بولادته ﷺ

لا نريد هنا بسط الكلام على كيفية ولادة نبينا (محمد) ﷺ ، فإن ذلك معروف في كتب التاريخ والسير ، ولكن نريد هنا ذكر شيء من ذلك بلون من الأدب الرفيع ، وذلك مما كتبه أديب مصر وكاتب العصر الأستاذ العظيم (الدكتور طه حسين) وزير المعارف الأسبق بمصر في زماننا ، كما جاء في الجزء الأول من كتابه الشهير (على هامش السيرة) فإنه حفظه ا لله تعالى بعد أن ذكر حزن عبد المطلب بن هاشم على موت ابنه (عبدا لله) قال ما يأتي:

وكان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً يوشك أن يكون يأساً مهلكاً وثورة جامحة، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ويذعن للخطوب، ويصبر على النائبات. كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً حين كان يفكر في غرور قريش، وتقديرها أن الله قد رد طاغية الحبشة، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابيل تكريماً لها وإيثاراً، وحين كان يفكر في غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مديته وفداه بمائة من الإبل إيثاراً له بالعافية، واختصاصاً له بالكرامة. كلا. كلا. لم يهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراماً لقريش، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو، ولا يعلم الناس منه شيئاً. ولم ينقذ الله عبدالله من الموت ويفاده بمائة من الإبل إكراماً له أو إكراماً لأبيه، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالإبل لأمر يريده هو، ولا يعلم الناس منه شيئاً. وإلا ففيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل، أليس غريباً أن ينجو من الموت ليتخذ له زوجاً لا يقيم معها إلا وقتاً قصيراً، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود، إنما يتخلف في يثرب ليموت عند أخواله من بني النجار، وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانة ما زالت تحملها في جوانحها، حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه الأمانة. ومن يدري لعل عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه، ومن يدري لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس، وكان الشيخ إذا فكر في هذا كله لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط، عظيم القوة، رائع الشباب، بارع الجمال، يستقبل السفر بأمل لا حد له ثم يراه نحيلاً، هزيلاً، شاحباً، متهالكاً، محزوناً، يمرض على فراشه عند بني النجار، ثم يراه وقد دنا منه الموت مكابراً مكاثراً، فاستله من الحياة أو استل الحياة منه، كأنما يثأر لنفسه من تلك الهزيمة التى أصابته يوم الفداء، فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يخرجه منه إلا اضطراب الناس من حوله، وإلحاح الناس عليه، وفيهم أبناؤه وبناته، فيما كان يشغلهم من الأمور.

وكانت آمنة ترى نساء قريش ونساء بني هاشم من حولها، يتبسمنا للأيام ويبتهجن للحياة، فيعجبها ذلك منهن، ولا يداخلها حسد لهن أو ميل إلى مشاركتهن. كانت تحس إحساساً قوياً، ولكنه غامض، بأن الأيام قد وفتها حظها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير الذي قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل. وكانت تريد أن تسعد بالتفكير في هذا الجنين

الذي تحسه يضطرب في أحشائها ، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حرم السعادة بهذه النعمة ، فتكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذة لا يستبد بها الفرد وإنما هي مشتركة بين اثنين فإذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر وشق احتمالها عليه ، وكانت له مصدر ألم وحزن . لكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذي كانت تقدره وتنتظره كأنما خلقت نفسها مذعنة ، وكأنما فطر قلبها على الرضا ، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل رضي الناس أو سخطوا ، وأن احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذي لا يجدي ، والثورة التي لا تفيد .

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود ، حتى يغمرها شيء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجلي فيها . وكانت تنفق نهارها ذاهلة أو كالذاهلة ، وتنفق ليلها في نوم هادئ حلو الأحلام . وما أكثر ما كان يزورها من حلم ، وما أكثر ما كان يلم بها من طيف أو ما أكثرها ما كان يلقى إليها من حديث . حتى إذا كانت ذات ليلة تتهيأ للخروج من ذهول النهار والدخول في هدوء الليل ، أحست بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن المخاض . هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بني هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي أنكرن فيها كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد رأين ما لم ير أحد ، وسمعن ما لم يسمع أحد ، وأحسسن ما لم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً ، فقد كانت ترى ، وهي يقظة غير نائمة ، أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عينها . وكانت تنظر فترى قصور بصرى في أطراف الشام . وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى في أقصى الصحراء . وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن بها الظنون وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شيء حتى تراه نوراً كله لا ظلمة فيه ، وإنما هو مشرق مضيء ، أو هو الإشراق الخالص . وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها . وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمة مظلمة قاتمة وتأخذها رعدة قوية ناهكة ، ويلم بها شيء كأنه النوم ، تسمع أثناءه صوتاً مهيباً رهيباً يسأل : (إلى أين ذهبت به ؟) فيجيبه صوت مهيب رهيب إلى المشرق ثم ينجلي عنها ما ألم بها فتفيق . ثم

يعاودها ما كانت فيه فإذا ظلمة قاتمة ، وإذا رعدة قوية ناهكة ، وإذا غاش يغشاها كأنه النوم ، وإذا هي تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل : (أين ذهبت به ؟) ، فيجيبه صوت مهيب رهيب : (إلى المغرب) . ثم ينجلي عنها ما هي فيه فتفيق وكذلك لم تدن السماء من الأرض كما دنت في هذه الليلة . وكذلك لم ير الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء في هذه الليلة . ولم تكن آمنة على هذا كله تجد ألماً قليلاً أو كثيراً وإنما كشف عنها كل حجاب ، ورفع عنها كل غشاء ، وخلي بينها وبين عالم من الجمال الذي يرى ومن الجمال الذي لا يسمع لا عهد للناس بمثله . ثم ترى وترى صاحباتها كأن شهاباً انبعث منها فملأ الأرض ومن حولها نوراً يبهر الأبصار ، ثم ترى فإذا ابنها قد مس الأرض يتقيها بيديه رافعاً رأسه إلى السماء ، محدقاً ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئاً ثم تسرع صاحباتها إليه ليؤدين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة . فإذا هي لا تحتاج إلى شيء وإذا هو لا يحتاج إلى شيء ، وإذا هن يتناولن أجمل صبي ، وأروع صبي ، وأبرع صبي ، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليداً لا كالولدان .

ثم يشرق الفجر وتبسط الشمس رداءها النقي على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال ، ويرتفع الضحى ويضطرب الناس في أمورهم وقد قضوا ليلاً جاهلاً غافلاً ، لم يشعروا فيه بشيء ، كأن لم يكن فيه شيء ولو قد كشف عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا ولكن الله قد جعل لكل شيء قدراً ، فهو يظهر آياته لمن يشاء ، ويخفي آياته على من يشاء . وعبدالمطلب جالس في الحجر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش ، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث . وهو يسمع إليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه ، يفكر في فقيده الذي لا يستطيع أن ينساه وإنه لفي ذلك وإذا البشير يقبل عليه مسرعاً ، حتى إذا انتهى إليه حياه وقال : لقد ولد لك غلام ، فهلم فانظر إليه ، فلا يسمع هذه البشرى حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقيده ورفق به في مصابه ، وادخر له عزاءه عن محنته فيسأل : أهو ابن عبد الله ؟ فيجيبه البشير : نعم . فينهض مسرعاً وينهض معه بنوه ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيت آمنة فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن ، ورده إلى غبطة وسرور بعد عهده بهما .

ثم يسمع حديث النساء فلا ينكر منه شيئاً ، كأنما كان ينتظره ، وكأنما كان منه على ميعاد . ثم يرفع الصبي إليه فيقبله ويقول: لأسمينه محمداً ، قالت آمنة : لقد أتاني في النوم فأمرني أن أسميه أحمد . قال عبدالمطلب : فهو محمد وهو أحمد ، وما أرى إلا أنهما بعض أسمائه .

قلت لمحدثي : فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة ، ونحر الإبل لأهل الشعاب ، ونحر الإبل على رؤوس الجبال ، ليطعم الناس وليطعم الوحش . قال: وهل كان عبد المطلب إلا نعمة للناس ونقمة على الإبل .

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك ، و لم يعد إلى المسجد مع العصر حتى رأى أندمة قريش متجمعة فيه ، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف أذاعه في مكة رجل من أهل الظواهر ، فشغل به الناس وتناقلوه . وكان هذا الرجل طلبة أهل المسجد ، ينتقل بحديثه من ندى إلى ندى ، فلا يكاد يتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قوم آخرون ليسمعوا منه ويسألوه . وكان يستجيب لمن يدعوه ولا يزهد في أن يعيد قصته مرة مرة ، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً ، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل إلا طالباً وكأنه قد كبر في نفسه ، فكان يقول ويطيل في القول وكان يفصل ويغرق في التفصيل . وكانت أفناء قريش تسمع له ، فمنها من يعجب ومنها من يرتاع ، ومنها من يلقى الحديث بالإغراق في الضحك ، ومنها من يلقى الحديث بهز الرؤوس .

وكان هذا الرجل يقص قصصه فيقول : ما كنت أعلم أن لليل أسراراً ليست للنهار . وما كنت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة . وما كنت أحسب أن في هذا الهواء الذي نتنسمه وفي هذا الفضاء الذي يحيط بنا أرواحاً تتناجى ، وأحياء تتجاذب الحديث ، حتى رأيت ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ، فتبينت أن حياتنا غرور ، وأن علمنا جهل ، وأن أحاديثنا لهو وهراء . والناس يتعجلونه فيقولون له : هات ما عندك من النبأ ، حتى إذا فرغت من قصته فقل ما شئت ، وهو يقول: لقد جنني الليل وإني لفي طريقي من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا أبه له ، ولا أفكر في أن أوي إلى حي من هذه الأحياء التي تنتشر بيوتها في الطريق لأنتظر مشرق الشمس ، ولكني أمضي أمامي لا ألوي على شيء ولا أرهب شيئاً ، وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا ويسلكونها إذا أمسوا ، يسيرون فيها مع ضوء النهار ، ويسيرون فيها مع

ظلمة الليل ، قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل فأمضي أمامي مجداً في السرى ، أريد أن أفجأ أهلي مع الصبح . وإني لفي بعض الطريق وقد سكن من حولي كل شيء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتي تمس الأرض مساً رفيقاً ، وإلا هذه الأنات التي ترسلها المطايا إذا جهدها السير وحنت إلى الراحة ، وإلا ما كنت أناجي نفسي به من حديث أهلي إذ طلعت عليهم مع ضوء الشمس . وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقياً فملأ نفسي أمناً ودعة وهدوءاً وإني لفي ذلك ، وإذا غمغمة تصل إليَّ من بعيد ، فلا أحفل بها ولا ألقي إليها بالاً ، وإنما أمضي فيما أنا فيه من الاستمتاع بلذة هذا السرى ، ومس أخفاف مطيتي للأرض ، وحنينها إلى ما بعد عهدها به من الراحة ، وأحاديث نفسي عمن فارقت في الطائف وعمن سألقى في مكة ولكن الغمغمة تدنو مني أو أنا أدنو منها ، وإذا هي تشتد شيئاً فشيئاً ، وإذا أصواتها تمتاز وتستبين وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهامسون ، وإذا أنا أنظر فلا أرى أحداً والقمر مع ذلك مشرق مضيء ، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع ، والحديث مع ذلك من حولي واضح يملأ الهواء وقلب مع ذلك يضطرب ويمشي في صدري رعباً وأنا أذهب بمطيتي إلى أمام وأرجع بها إلى وراء ، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال ، وأرفع بصري إلى السماء وأخفض بصري إلى الأرض ، فلا أرى شيئاً ولا أتبين شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقي رقيق وهذه النجوم التي لا تحصى وقد تألقت في السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت في طريقها مسرعة كأنها تستبق ، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعات لا أراها ، ولكنها لا تستقر وإنما يمضي بعضها أثر بعض . وإني لأسمع قائلاً يقول : "انظروا إلى السماء ، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل . إن نجومنا لتتألق في قوى لم نرها قط إنها لتستبق في سرعة لم نرها قط . إنها لتدنو من الأرض حتى أن نارها لتوشك أن تحرقنا . إن التصعيد في السماء لعسير . وفيما نصعد إلى السماء وإن السماء لتهبط إلينا ، إن البقاء على الأرض لعسير . وأنى لنا الثبات بهذا الضوء الذي لا يخفى عليه شيء ، حتى أشباحنا الخفية التي لا تراها العيون (النجاء النجاء) إن للغيب لعجبا ، وإن في الأرض لحدثا ، وإن الزمان ليستدير ، وإنا لا ندري أشر أريد بالناس أم خير ، وإني لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى ، فيبهرني ما أسمع ويسحرني ما أرى ، وأشغل به حتى عن أن أسأل نفسي أين أكون وما تكون هذه الأصوات" ، ولكن أحس أصواتاً أخرى كأنها تهيب بأهل تلك الأصوات التي كنت أسمعها

قائلة: (النجاء النجاء) ، ولكن إلى أين إنكم لتفرون من مكة كأن شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمنين ، وقد كنا نفر إليكم لأن شيئاً أزعجنا عن دورنا ، وأخرجنا من مأمننا ، واضطرنا إلى أن نهيم في الأرض ، لا ندري ما هو ، ولا ندري من أين جاء ، وإنا لنتسامع من أطراف الأرض بأن حدثاً قد حدث ، وبأن كائناً قد كان ، إنا لنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض فسقطت شرفاته وتهدم بنيانه . وإذا أصوات أخرى تصيح منتشرة في الفضاء ، وإنا لنتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة . وإذا أصوات أخرى تصيح . إنا لنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفت ، وما عهدناها إلا غزيرة جمة الماء . وإذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض ، رقيقة خفيفة خائفة قلقة: (النجاء النجاء) . إن للسماء لخبراً وإن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل ، وإن لهذا اليوم في حياة الأرض لشأناً لا ندري أخير هو أم شر . (النجاء النجاء) ، ولقد فقدت صوابي وأضللت عقلي فلا أحس شيئاً ، ولا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، كأنما انتزعت من الحياة انتزاعاً . ثم يمسني برد السحر فأفيق و كأنما ثبت إلى نفسي من سفر بعيد . وأنظر حولي فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها ، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً ، وأرى النجوم تنهزم في السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً ، وأرى ناقتي مذعنة لحكم السرى تمضي أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها وأبلغ أهلي مع الصبح فيستقبلونني دهشين كما كنت أقدر ولكني لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد .

ويتفرق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه ، وإن بعضهم ليسأل بعضاً : ماذا يقول وماذا رأى؟ وإن بعضهم ليقول لبعض : لقد أخذه النوم فعبثت به الأحلام . وإن بعضهم ليقول لبعض : لقد مر بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمرون .

ويسمع عبدالمطلب هذا كله فتثور في نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها ، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها ، لأنه مشغول عنها بمقدم حفيده اليتيم .

انتهى من كتاب على هامش السيرة .

تحقيق ميلاد النبي ﷺ

حينما كنا بمصر في عام ألف وثلاثمائة وأربع وخمسين من الهجرة، اطلعنا على جريدة الأهرام التي صدرت هنالك في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٥٤ هـ. الموافق ١٣ يونية سنة ١٩٣٥م، وكان فيها مبحث قيم عن تحقيق تاريخ ميلاد رسول الله ﷺ بقلم الفاضل الأستاذ عبد الحميد شكري، فأثرنا نقله هنا لما فيه من الفوائد وهو هذا نصه:

قال الأستاذ المذكور: قادتني أبحاثي في كشف حقائق التوفيق بين الإسلام والنصرانية وهي التي قضيت فيها ٢٣ عاماً إلى تحقيق تاريخ ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام. وتاريخ يوم نزول الإنجيل المقدس وتاريخ ميلاد سيدنا محمد ﷺ. وتاريخ نزول القرآن الشريف. أما ميلاد السيد المسيح فقد كتبنا فيه تحقيقاً في جريدة الأهرام في ٧ يناير سنة ١٩٣٠. والآن وقد حققنا يوم ميلاد سيدنا محمد ﷺ بغاية الضبط ننشر ملخصاً لتفاصيله مؤيداً بالبراهين التاريخية والدينية والعلمية.

لتحقيق الحساب يجب فحص أقوال المؤرخين في السير النبوية والأحاديث الصحيحة عن المدة من ميلاد سيدنا محمد ﷺ إلى يوم نزول القرآن الشريف ثم إلى يوم هجرته ثم إلى يوم وفاته إلى أن تنظم التاريخ الهجري.

ومن الأهمية العظمى معرفة نوع التاريخ الذي كان مستعملاً عند العرب لغاية يوم حجة الوداع التي فيها أصلح رسول الله ﷺ التاريخ، وقد كانت طريقة النسئ بالشهور القمرية والسنين الشمسية فكل من أهمل في حسابه بحث هذه الطريقة كانت تحقيقاته عقيمة ويجب على الباحث أن يكون عالماً بحركات الأرض والقمر حول الشمس؛ لأنها مقاييس الزمان، بل يجب معرفة تطورات التواريخ من عربية وإفرنجية وعبرانية لعمل المقارنة بينها لضبط الحساب.

فالتاريخ العبري كان أول سنيه شهر تشرين ثم صار شهر نيسان ثم أعيد في عصور مختلفة.

والتاريخ المسيحي صار إصلاحه في سنة ٣٢٥ ميلادية بواسطة مجمع نيقية. ثم تعدل مرة أخرى في سنة ١٥٨٢ ميلادية بأمر البابا جيورجيوس الثالث عشر وإليه ينسب الحساب الجريجوري.

والتاريخ العربي كان من عهد إسماعيل عليه السلام بالشهور القمرية والسنين القمرية وكانوا يؤرخون ببناء الكعبة الشريفة إلى زمان عمر بن ربيعة الذي غير دين إبراهيم عليه السلام كما قيل ثم أرخوا بكعب بن لؤي الجد السابع للنبي عليه الصلاة والسلام، وما زالوا يؤرخون به إلى عام الفيل فأرخوا به. وقد رجح المؤرخون أن هذا العام ولد فيه سيدنا محمد ﷺ، وما زال العرب من عهد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام يحسبون التاريخ بالشهور القمرية والسنين القمرية وكانت أسماء الشهور تختلف عن أسماءها الحالية بنحو ٢٠٠ سنة كانت أسماؤها : المؤتمر، تاجر، خوان، صوان، حنين، زبا، الأصم، عادل، نافق، وغل، رنة، برك.

وقد نظمها إسماعيل بن عباد في قوله :

أردت شهور العرب في الجاهلية	فخذها على سرد المحرم تشترك
فمؤتمر يأتي ومن بعده تاجر	وخوان مع صوان يجمع في شرك
حنين وزبا والأصم وعادل	ونافق مع وغل ورنة مع برك

وكانوا يحجون إلى الكعبة في شهر برك الثاني عشر ولما كان حجهم يقع أحيانا في الصيف وأحياناً في الشتاء أرادوا أن يجعلوا الحج في أنسب المواسم التجارية وفي فصل الربيع حيث تكون الأرض مخضرة والهواء معتدلاً، ففي نحو سنة ٢٠٠ قبل الهجرة غيروا أسماء الشهور بأسماءها الحالية من محرم إلى ذي الحجة واستعملوا في الحساب طريقة تماثل طريقة اليهود ليقع شهر الحج في أول فصل الربيع، وهذه الطريقة تجعل السنة الشمسية كما يفعل اليهود.

فاليهود يكبسون أي يزيدون شهراً، ثالث عشر في كل سنتين أو ثلاث سنوات – وفقاً للحساب لأن الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية ٨٧٥، ١٠ يوماً أي نحو أحد عشر يوماً وهو مقرب من ثلث شهر يصير هذا الفرق نحو شهر في ثلاث سنوات ويسمونه شهر الكبس آذار الثاني فيقع شهر نيسان في فصل الربيع كما أمر سيدنا موسى عليه السلام.

أما العرب فكانوا يستعملون طريقة أخرى تختلف قليلاً عن حساب اليهود وتودي إلى نفس الغرض، وهي النسيء بدل الكبس أي الطرح بدل الزيادة، وما زالوا على هذا الحساب الشمسي بالنسيء من سنة ٢٠٠ قبل الهجرة إلى سنة ١٠ بعد الهجرة يقع شهر الحج في نحو شهر مارس ففي هذه المدة ٢١٠ سنة كان يقع حجهم إلى الكعبة في فصل الربيع من كل عام حتى جاء النبي عليه الصلاة والسلام

في حجة الوداع سنة ١٠ هجرية فأبطل هذا الحساب وصحح التاريخ إلى حالته الأولى بالحساب القمرى كما سيجيء مفصلاً .

ففي مدة حياته كلها كان العرب يحسبون الشهور قمرية ويسقطون شهراً ينسئونه في كل ثلاث سنوات أو سنتين وفقاً للحساب ثم يزيدون شهراً ليجعلوا السنين شمسية - السنة ٢٤٢ ، ٣٦٥ يوماً .

وهذا يخالف الحساب القمري - السنة ٣٦٧ ، ٣٥٤ يوماً الذى أمر به رسول الله ﷺ وصار عليه سيدنا عمر رضي الله عنه منظماً من سنة ١٧ هجرية واستمر من سنة الهجرة إلى الآن .

فإنا وجدنا المؤرخين يقولون إن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام الفيل ، فيجب أن لا ننسى أن حسابهم بالنسئ الشمسي ، ولما جاء علماء الفلك في الإسلام وجدوا أن يوم الاثنين من ربيع الأول في ذلك العام يوافق ٩ ربيع الأول واستمر الجدال بين الدين والعلم أي بين تمسك المتدينين بيوم ١٢ ربيع أول وبين علماء الفلك القائلين بأنه يوم ٩ ربيع الأول ، وسأشرح كيف أن براهين العلم تؤيد صحة ما تمسك به أرباب الدين وهو أن يوم الاثنين كان يوافق ١٢ ربيع الأول .

اتفق معظم المؤرخين على أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين الواقع في ١٢ ربيع الأول عام الفيل ، وقليل منهم قال غير ذلك وليس بينهم خلاف في أنه عاش ٦٣ سنة قمرية منها ٥٣ سنة قبل الهجرة و ١٠ سنوات بعد الهجرة ، فمولده كان في سنة ٥٣ قبل الهجرة حساباً قمرياً على التحقيق ، وبما أن العالم الاسلامي متفق إلى الآن على أنه كان في ١٢ ربيع الأول وبما أن الدول والأمم والملوك الإسلامية تحتفل به على هذا الأساس ولا داعي لتكرار ما ورد في ذلك من كثير من الأقوال . أما تعيين يوم الاثنين فيكفي في تحقيقه الحديث المأثور عن النبي ﷺ : (ولدت يوم الاثنين) .

أما علماء الميقات والفلك فحققوا أن الميلاد كان في سنة ٥٣ قمرية قبل الهجرة ولكنهم وجدوا في الحساب أن يوم الاثنين من ربيع الأول في هذا العام يقع في ٩ منه ، وليس في ١٢ منه . فأرادوا أن يصحح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تاريخ الميلاد ويعتبروه يوم ٩ منه ولكنهم نسوا عنصر النسئ الشمسي الذي أدخله العرب على الحساب القمري .

قال محمود باشا الفلكي في كتابه نتائج الإفهام نسخة عربية في صحيفة ٣٠ بعد بحث طويل - يتلخص من هذا أن سيدنا محمداً ﷺ ولد في يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ مسيحية : وهذا العام يوافق سنة ٥٣ قمرية قبل الهجرة .

ورد في كتاب الغازي أحمد مختار باشا أن محمداً ﷺ ولد في يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ مسيحية .

وجاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى مجلد ٢٣ صفحة ١١٧٤ ما ترجمته : إن محمداً ولد في ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية ، وهو يوافق ٩ ربيع أول سنة ٥٣ قبل الهجرة .

سجل الأستاذ فريد وجدي في دائرة معارفه ما يأتي: ولد رسول الله ﷺ في صبيحة يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية .

سجل الأستاذ محمود ناجي في تقاويم الحكومة : إن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قمرية قبل الهجرة .

أما أبحاث علماء الفلك والحساب الذين توصلوا إلى أن محمداً ﷺ ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول ترى أن المسألة من الدقة بمكان .

إن حساب أولئك الأفاضل المحققين قمري وهذا الحساب لم يكن العرب يستعملونه أبداً فكيف يحاسبونهم بما لا يستعملون ولست أدري كيف فاتهم أن العرب في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، كانوا يستعملون تاريخ النسئ يشهد الله في قرآنه وكفى بالله شهيداً ، ويشهد الرسول وقوله الحق ، ويشهد المؤرخون بأن العرب كانوا يحسبون الزمان بالنسئ الشمسي .

فنستعرض على القارئ أولاً أقوال المؤرخين : يستدل من كتاب الخطط للمقريزي جزء أول صفحة ٢٨٢ على أن العرب في مدة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا يحسبون التاريخ بالنسئ ، وورد في كتاب العبر لابن خلدون صفحة ٣٢١ قوله : وبنو عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة منهم نسأة الشهور في الجاهلية ، وكل من صارت إليه هذه الطريقة يسمى القلمس ، وأول من نسأ الشهور سمير بن ثعلبة بن الحارث ، وفي تفسير الطبري مجلد ١٠ صفحة ١٠٢ : وكان رجل من بني كنانة يأتي كل عام في الموسم على حمار له فيقول :

أيها الناس إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ قال: يعني الأربعة الحرم فيحلوا ماحرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام ، إلى أن قال : حدثنا عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ ، قال : فرض الله الحج في ذي الحجة ، قال : وكان المشركون يسمون الأشهر ذو الحجة والمحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ثم يسمون رمضان شوال ثم يسمون ذو القعدة شوالاً ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل عامين حتى وافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه الآخر من العامين في ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ حجته التى حج فوافق ذي الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته : (إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض) .

وورد في تفسير روح المعاني للآلوسي (مجلد٤ صفحة ٣٠٥): وكان في السنة التاسعة من الهجرة التي حج بها أبو بكر رضي الله عنه بالناس في ذي القعدة ، أن الحج كان دائماً في ذي الحجة ولكن بسبب النسيء وقع شهر ذي الحجة مكان ذي القعدة ، وورد مثل ذلك في صحيح البخاري وتاريخ الطبري وتاريخ العبر لابن خلدون .

وفي تفسير الطبري في صحيفة ٩٣: حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال ابن زيدون في قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا﴾ الآية . قال : هذا كان رجل من بني كنانة يقال له التلمس كان في الجاهلية وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد يده إليه ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرم ، فقال : ننسئه العام هما لعام صفران فإذا كان عام قابل ، قال : لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان المحرم أنسأناه عاماً أول ونقضيه ذلك الإنساء إلى أن قال : كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً فيجعلون المحرم صفر فيستحلون فيه الحرمات ، فأنزل الله : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ .

وفي صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٦٦ قوله : إلى أن حدث فيهم النسيء فكانوا ينسؤون المحرم فيؤخرونه إلى صفر فيحرمونه مكانه وينسئون ربيعا ويؤخرونه إلى شعبان فيحرمونه مكانه ليستبيحوا القتال في الأشهر الحرم .

وفي تفسير النيسابوري مثل هذه التفصيلات حيث قال ما معناه : إن النسيء هو تغيير السنة من ٣٥٤ يوماً وكسور إلى ٣٦٥ يوماً وكسور .

وجاء في السير الحلبية جزء ٣ في باب حجة الوداع : إن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج في كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور إلى ٣٣ سنة فيعود إلى وقته ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في هذه الحجة : الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض فإن هذه الحجة كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته وكانت سنة عشرة بعد الهجرة .

ونجد في دائرة المعارف الفرنسية مجلد ٨ صحيفة ٩٠١ ما ترجمته : في سنة ٤١٢ بعد المسيح غيّر العرب أسماء الشهور إلى الشهور المعلومة الآن وكانوا ينسئون في شهر برك وهو الشهر الثاني عشر حتى أصلح محمد التاريخ في سنة ١٠ هجرية فصارت السنة قمرية أي قصر ١١ يوماً .

ومن الغريب بعد كل ما ذكرنا أن يقع الغازي أحمد مختار باشا الفلكي في الخطأ فيعتبر النسيء كبساً ، فقد دون في صحيفة ٤٢ من كتابه إصلاح التقاويم ما يأتي:

إن سنة العرب في عهد سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام كانت اثني عشر شهراً قمرياً تضبط من رؤية الهلال إلى رؤيته ثانياً ، وكانت أربعة منها حرم تسمى بالأشهر الحرم وكانوا يمتنعون فيها عن الجدل والقتال ويشتغلون فيها بزيارة الكعبة وبأمور راحتهم وقبل ظهور الإسلام بنحو ٢٠٠ سنة بالتخمين استعملوا سنة مختلفة ما بين شمسية وقمرية كالطريقة العبرية وهي أنه كل ما صار الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية وهو ١١ يوماً بالتقريب مساوياً لشهر واحد أضافوه إلى السنة فتصير مركبة من ثلاثة عشر شهراً : فهو يقول بالزيادة لا بالنقصان .

أورد بالصحائف ٤٨ - ٥١ جدولاً عن العشر سنوات التي بعد سنة الهجرة مبيناً فيه كيفية الكبس عن السنين العربية الشمسية في تلك المدة على طريقة اليهود ، ظن أن النسيء معناه الكبس فاعتقد أن العرب في الجاهلية كانوا يزيدون

شهراً ثالث عشر مثل اليهود ولو كان كذلك لسمي هذا الحساب كبساً لا نسيئاً .

والحقيقة: أنهم كانوا يتركون شهراً ويجعلون التالي له مكانه في كل ثلاث سنوات أو سنتين ويحجون في الشهر الثالث عشر ، وكان هذا الفلكي الكبير يستند في ذلك إلى كتاب الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني الفلكي الجليل ولكن إذا نظرنا إلى ما قاله البيروني نجد أنه يبين طريقة النسئ على خلاف ما استنتجه مختار باشا .

والبيروني أبو الريحان أحمد هو المهندس الفلكي أكبر مشاهير الفلكيين المحققين في العالم في زمانه المولود يوم الخميس ٣ ذي الحجة سنة ٣٦٢ هجرية وكان علماء أوروبا يسترشدون بمؤلفاته القيمة وكتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية مطبوع بالعربي في ليبزج بألمانيا ، جاء به في صحيفة ٣٤ : وكبني إسماعيل من العرب فإنهم كانوا يؤرخون ببناء إبراهيم وإسماعيل حتى تفرقوا وخرجوا من تهامة فكان الخارجون يؤرخون بخروجهم والباقون يؤرخون بآخر الخارجين منهم حتى طال الأمد فأرخوا بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمر بن يحيى وهو الذي يقال إنه بدل دين إبراهيم وحمل من مدينة البلقاء صنم هبل وعمل إسافاً ونائلة . . . ثم أرخوا لعام موت كعب بن لؤي . . . ثم أرخو بعام القدر إلى عام الفيل ثم أرخو به إلى تاريخ الهجرة ، وفي صحائف ٦٠-٦٢ ذكر أسماء الشهور عند العرب الجاهلية وتغييرها إلى الشهور الحالية إلى أن قال : وكانوا في الجاهلية يستعلمونها على نحو ما يستعمله أهل الإسلام وكان حجهم يدور في الأزمنة الأربعة ثم أرادوا أن يحجوا وقت إدراكهم سلمهم من الأدم والجلود والثمار وغير ذلك وأن يثبت ذلك على حالة واحدة وفي أطيب الأزمنة وأخصبها فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم وذلك قبل الهجرة بقريب من ٢٠٠ سنة فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنيهم وسنة الشمس شهراً بشهورها ويتولى الغلامي من بني كنانة بعد ذلك أن يقوموا بعد انقضاء الحج ويخطب في الموسم وينسئون الشهر ويسموا التالي له باسمه فيتفق العرب على ذلك فيقبلون قوله ويسمون هذا من فعلهم النسئ لأنهم كانوا ينسئون أول السنة في كل سنتين أو ثلاثة شهراً على حسب ما يستحقه التقدم ، قال قائلهم :

لنا ناسئ تمشون تحت لوائه   يحل إذا شاء الشهور ويحرم

وكان النسيء الأول للمحرم وسمي صفر به وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور ، وكان النسئ الثاني للصفر وسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً وكذلك حتى دار النسئ دورته في الشهور الاثني عشر وعاد إلى المحرم فأعادوا بها فعلهم الأول وكانوا يعلون النسئ ويحددون به الأزمنة فيقولون قد دارت السنون من زمان كذا إلى زمان كذا دورة فإن ظهر لهم مع ذلك فقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع كسور سنة الشمس الذي ألحقوه بها كبسوها كبساً ثانياً وكان يتبين لهم ذلك بطلوع منازل القمر وبسقوطها حتى هاجر النبي عليه الصلاة والسلام كانت نوبة النسئ كما ذكرت بلغت شعبان وسمي محرماً شهر مضان صفر فانتظر النبي ﷺ حينئذ حجة الوداع وخطب للناس وقال فيها : « ألا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض » ، عنى بذلك أن الشهور قد عادت إلى مواضعها وزال عنها فعل العزب بها ، ولذا سميت حجة الوداع الحج الأقوم ، ثم حرم ذلك وأهمل أصلاً . انتهى .

هذا الفلكي الجليل هو أعظم الشارحين بياناً وتفصيلاً لذلك قد اتخذناه إماماً والمؤرخون أجمعوا على أن العرب مدة حياة النبي ﷺ كانوا يستعلمون النسئ الشمسي في حساب تواريخهم .

كلما ذكر المؤرخون العرب يوم ميلاد سيدنا محمد ﷺ ، أو يوم نزول القرآن الشريف أو يوم الهجرة أو يوم خطبة الوداع كانوا يذكرونه على حساب التاريخ الذي كانوا يستعملونه في ذاك الزمان بالنسئ ، فجميع المؤرخين الميقاتيين وغيرهم الذين حسبوا تاريخ مولد سيدنا محمد ﷺ وتاريخ نزول القرآن الشريف بالحساب القمري أنهم يحسبون على ما لم يكن العرب يستعملونه .

شهد الله أن التاريخ بالنسئ ما زال قائماً في الحج وفي حساب العرب بدليل قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ۞ إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ .

أمر الله تعالى أن تعتبر السنة اثني عشر شهراً قمرياً ليس فيها شهر ناقص يتغير، ولا كبس شهر زائد ثالث عشر، ولا تواطؤ ولا اختلاس ولا ضلال، لأنه تعالى رسم في الطبيعة ١٢ شهراً كما يعدها القمر في دورانه حول الأرض لتتبع حساباً صحيحاً لا يخطئ ﴿ذلك الدين القيم﴾ سليم من الخطأ، وقد نزلت سورة التوبة التي فيها آية النسيئ في سنة ٩ هجرية بدليل ما ورد في تفسير الطبري عن الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أي: بعد العام الذي نادى فيه علي كرم الله وجهه ببراءة وذلك عام حج أبو بكر بالناس سنة ٩ وكانت حجة الوداع سنة ١٠.

هذا دليل قاطع على أن العرب كانوا يحسبون تاريخهم بالنسيئ الشمسي حتى سنة ٩ هجرية وما زال العمل به قائماً حتى لغاه سيدنا محمد ﷺ وأصلح التاريخ في خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ ذي الحجة سنة ١٠ هجرية الموافق الجمعة ٩ آذار الثاني سنة ٤٣٩٢ عبرية، الموافق الجمعة ٩ مارس سنة ٦٣٢ مسيحية. وهذا الاتفاق في تواريخ دين الله كله كان عجيباً جديراً بالنظر والاعتبار.

فمن قال من الميقاتيين أن سيدنا محمداً ﷺ ولد يوم ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة حساباً قمرياً الموافق الاثنين ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ مسيحية لم يكن على الحق مهما كان حسابه فلكياً صحيحاً لأن هذا التاريخ على الحساب القمري ولكنه غير ما كان يستعمله العرب من حساب النسيئ الشمسي بدليل قول الله تعالى في كتابه الكريم. وقد ثبت بالبرهان العلمي أن سيدنا محمداً ﷺ ولد يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول.

وصف رضاعته ﷺ

لا نريد هنا بسط الكلام على رضاعة نبينا "محمد" ﷺ، فإن ذلك معروف في كتب التاريخ والسير، ولكننا نحب هنا ذكر قصة الرضاعة بلغة أهل الأدب، فإن لذلك طعماً غير طعم عبارة التواريخ، فإليك القصة بقلم عميد الأدب في زماننا هذا (الدكتور طه حسين) وزير المعارف المصرية سابقاً، فقد قال حفظه الله تعالى في الجزء الأول من كتابه "على هامش السيرة" ما يأتي:

أقبل المراضع إلى مكة عجافاً نحافاً ، تحملهن حمر عجاف نحاف ، ويصحبهن أزواجهن قد مسهم الضر ، وأعياهم الكسب ، واشتدت عليهم السنة ، وأجدبت بهم الأرض ، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلاً . وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة يلتمسون الرضعاء أبناء السادة والمترفين في قريش ، ويبتغون بذلك فضلاً من مال ونافلة من نعيم ، وحظاً من هذا البر الذي تطمع فيه المراضع عند أهل الرضعاء . فلما ألقوا رحالهم ، انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقون سراة الناس من قريش ، فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية ، بادية بني سعد بن بكر . وما هي إلا طوفة في الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضع موفورات مجبورات ، وقد وجدت كل واحدة منهن رضيعاً من أسرة كريمة موسرة ، فامتلأت يدها بالمال ، ونفسها بالأمل ، وقلبها بالغبطة والأمن على قوت العيال ، إلا حليمة بنت أبي ذؤيب ، فإنها عادت إلى زوجها كئيبة محزونة ، لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذي يصيح في غير انقطاع ، ويبكي في غير هدوء ، لشدة ما مسه من ألم الظمأ والجوع .

ولقي الأعرابي امرأته الشابة محزوناً مثلها ، كئيباً مثلها لا يؤذيه ما يحس من الجوع والظمأ ، كما يؤذيه ما يسمع ويرى من بكاء الطفل وتوجع أمه البائسة . قال : إني لأرى أترابك من المراضع يرجعن موفورات مجبورات يحملن الرضعاء ، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً إلا هذا الطفل ؟ ألعلك قد دللت الناس على مكاننا من البؤس وحظنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذي لا ينقطع له صياح ؟ ألعلك قد أيأست الأمهات وأحفت الآباء ألا يلقى أبناؤهم عندك ما يرويهم من ظمأ أو يشبعهم من جوع ؟ ليتني لم أنحدر مع الناس إلى المسجد وليتني بقيت هنا أحفظ عليك هذا الطفل ، حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاء ولا شكاة ، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضراً .

قالت : والله ما صد عني الآباء والأمهات ، ولقد أسكت هذا الطفل فما بكى ولا شكى ، وما أحس أحد عليّ ولا عليه ضراً أو شراً ، وإنما صددت أنا عن رضيع صَدَّ عنه الأتراب من قبلي .

قال الأعرابي : وفيم صدكن عنه واجتنابكن له .

قالت : يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه ، إنما هو إلى أمه وحده . وما تصنع أمه وما يصنع جده ، وماذا تنتظر من بر الأمهات بالمراضع ومن بر الجدود بالحفدة ، وإنهم لكثير .

قال : صدقت ، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بني سعد . وإني لأجد في نفسي إشفاقاً على هذا اليتيم رحمة له ، ولكن ماذا نصنع به في تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من برّ أهله ما يقيمه ويقيمنا ، ويصلح من حاله ومن حالنا ؟

قالت : لقد رأيته فأحببته ، ونظرت إليه فرققت له . ولقد أنست من أمه دعة وليناً ، ولقد نازعتني نفسي إلى أن أحمله لولا أني أشفقت مما تقول ، ولولا أني ذكرت الجدب وشدة السنة وانقطاع المادة وأشفقت عليه مما نحن فيه .

قال الأعرابي: فسنقفل إذاً كما أقبلنا ، ويقفل القوم راضين . وإني وا لله يا ابنة أبي ذؤيب ما أدري أتبلغنا أتاننا وشارفنا ديار بني سعد ، وإنك لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدورة ، وأن شارفنا ما تبض قطرة من لبن .

قالت : فلنقم ، فإن الأطفال يولدون ، ولعل ا لله أن يرزقنا بين اليوم وغد رضيعاً نجد عند أهله ما يرضينا .

وهمَّ المراضع بالقفول ، وأخذت بنت أبي ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها ، ومن قفولهن وتخلفها ، وأخذ الأعرابي ينظر إلى رفاقة يشدون الرحال على المطايا ، ويحملون النساء على الأتن فيؤذيه ذلك ويغيظه ، ولكنه يخفي ما يجد من الغيظ ، ويظهر التجلد والصبر . حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا في الطريق وبعدوا عن مرمى العين ، نظر الرجل إلى امرأته ونظرت المرأة إلى زوجها ، ونظر الزوجان إلى ابنهما واستمعا لبكائه ، وإذا هي تقول لزوجها : ما أدري . لعلي لم أحسن حين جاريت أترابي وأعرضت عن هذا اليتيم ، وإن نفسي لتنازعني إليه ، وإن قلب ليعطفني عليه ، وإني لأحس كأنه يدعوني ، وإني لأشعر كأني لا أستطيع عنه صبراً ، وإني لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفي أن يكون ا لله قد قدر لنا خيراً وآثرنا ببعض ما نحب . قال : فلا عليك يا ابنة أبي ذؤيب ، اذهبي إلى يتيمك فخذيه ، فإني أكره أن يرحل القوم ونبقى ، وأن يصلوا إلى ديار بني سعد فيتحدث المراضع أنهن قد ظفرن بالرضعاء وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفت عنك وزهدت فيك .

فتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود إلى آمنة فتعرض عليها إرضاع الطفل ، وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى وجهها آيات حزن عميق ، وفي صوتها بقية من بكاء ، وأمتها بركة تعينها على الإباء وتحرضها على الامتناع . ولكن ابنة أبي ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلئ حباً له ، وإذا هي تحس أنها مدفوعة إليه دفعاً ، وإذا هي تسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من صدرها ، وإذا الطفل يلتمس الثدي كأنما كان منه على ميعاد ، وإذ هو يشرب حتى يروى ، وإذا بنت أبي ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل ، وإذا آمنة تستجيب لها ، كيف تأبى عليه وقد رأت من حبها للطفل ومن إقبال الطفل عليها ومن إرضاعها له ما رأت . لقد أصبحت هذه الظئر له أماً . قالت آمنة : خذيه ولا تراعي ، فاني لأرجو ألا تجدي منه إلا خيراً ، فلقد حملته فما وجدت له ثقلاً ، ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يحس النساء قليلاً ولا كثيراً ، ولولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به امرأة من دهرها . ولكن الحوادث تحدث والخطوب تلم والآمال تقطع وقد كان يرجى أن تتصل . والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس . ولقد وضعت هذا الصبي فما عرف صاحباتي علي وعليه شيئاً مما تعودن أن يعرفن على الأمهات والولدان . وإنك لتنكرين يا ظئر لو تسمعين . قالت حليمة : وماذا أسمع وماذا أنكر ؟ قالت آمنة : لم أكن تلك الليلة في دار من دور قريش ، وإنما كنت في مكان لم يألفه الناس : كنت في بحر من النور كله رحمة وبر ورضوان . وما لك لا تنكرين هذا يا ظئر وقد أنكرته أنا وأنكرته صواحبي ؟ وما لك لا تعجبين يا ظئر وقد عجبت وعجبت صواحبي وعجب جده الشيخ . سلي حاضنته هذه تنبئك بما رأت وما سمعت . سلي من شئت من نساء بني هاشم ورجالهم تعلمي أن لابني هذا اليتيم شأناً ليس لغيره من أبناء الأغنياء وأهل اليسار . لا تراعي يا ظئر ، فإنك تحملين وليداً كريماً لأب كريم وجد كريم . ثم انهلت من عينها دموع غزار وقالت في صوت يقطعه البكاء : لا تيأسي يا ظئر ، فإن معروفنا على قلته سيصل إليك ، ورب قليل خير من كثير . قالت حليمة ، وقد رق قلبها وجادت عيناها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات : لا بأس عليك يا ابنة وهب ، فإني والله ما استطعت صبراً على هذا الصبي منذ رأيته . وإني والله ما أدري ما الذي عطفني عليه حتى رجعت إليك آخذه منك . وقد كنت أستطيع القفول ، وقد كنت

أستطيع المكث في بلدكم هذا يوماً أو أياماً، فالأطفال يولدون، وسراة قريش في حاجة إلى المراضع كل يوم، ولكنه والله أمر يراد .

وانصرفت حليمة بابنها الجديد راضية مسرورة، قانعة بما زودتها به آمنة من البر والمعروف، حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابي لقيها باسم الثغر، مشرق الوجه، سعيداً أن لا تعود إليه صفر اليدين . ولم يكد ينظر إلى الطفل حتى انطلق لسانه، وإذا هو يقول لامرأته: إيه يا ابنة أبي ذؤيب، ما رأيت كاليوم وجهاً مشرقاً يفيض منه البشر، إني والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير .

وينهض الأعرابي إلى شارفه يلتمس في ضرعها الجاف قطرات من لبن يبل بها ظمأ امرأته وينقع بها بعض غلاته فما أسرع ما يأخذه عجب لا ينقضي حين يرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته، وفوق ما يريد وما تريد امرأته . وينظر الأعرابي فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يرويه ويرضيه، وإذا وجهه الكالح المظلم قد أخذ يشرق ويضيء، وإذا ابتسامة حلوة طاهرة قد ارتسمت على ثغره البريء، وإذا هو يقول لامرأته : تعلمي يا بنت أبي ذؤيب إنك قد حملت نسمة مباركة .

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها، وتضع الرضيع بين يديها، وينهض الأعرابي إلى شارفه فيمتطيها، ويرميان بنفسيهما في الطريق يلتمسان الركب من بني سعد، والركب بعيد قد دفع به في الطريق طويلة نائية . ولكن الأعرابية تجد من أتانها نشاطاً وحدة، ولكن الأعرابي يجد في شارفه قوة ومرحاً، وهما يمضيان وكأنهما تطوى لهما الأرض طياً . ثم يقول الأعرابي لامرأته : مدي عينيك يا ابنة ذؤيب، أترين شيئاً ؟ قالت: إي والله، إني لأراهم، وإنهم لأدنى من مرمى العين . وما هي إلا أن يبلغ الأعرابي جماعة بني سعد، فيعجب الناس بأمر حليمة وقد أدركتهم في غير جهد ولا كد، والأمد بعيد، والطريق شاقة . ويسأل النساء حليمة عن هذا الرضيع الذي تحمله، فإذا أنبأتهن بنبئه أظهرن لها الرقة والرثاء، وأضمرن التيه والكبرياء . ويمضي الركب أخذاً بأطراف الحديث، وإن حليمة لتسبق أترابها حتى تعييهن، وإن أترابها ليقلن لها : أهذه أتانك يا ابنة أبي ذؤيب التي أقبلت بك إلى مكة ؟ فتقول: هي والله أتاني ما غيرتها . فيقلن : اربعي علينا يا بنت أبي ذؤيب، فما رأينا كاليوم مرحاً ولا عدْواً .

ويبلغ الركب ديار بني سعد، ويثوب المراضع إلى بيوتهن ويستأنفن حياة أهل البادية في أرض مجدبة قلَّ فيها الرعي والماء، وكثر فيها البؤس والشقاء، وغنم حليمة ترعى كما ترعى الغنم، ولكنها تروح ملآ حفّلاً لا يظمأ أصحابها ولا يجوعون، تروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضية، لا تكاد تبض بما يبل الريق، وهم يقولون لرعاتهم: ويلكم ارعوا حيث ترعى غنم ابنة ذؤيب. فيقول الرعاة: وا لله إن لنرعى حيث ترعى، وإنها وا لله لا تجد أكثر مما نجد، ولكنها تروح ملآ ونروح بغنمنا كما ترون، لا تغني من ظمأ ولا جوع. فيقولون: إن لابنة أبي ذؤيب لشأناً.

وتنعم حليمة وينعم أبناؤها بحياة راضية هادئة وينمو رضيعها ويزكو. وتقضي هذه الأسرة عامين راضين لا تعرف فيها مشقة ولا جهداً، ولا تجد فيهما ألماً ولا سقماً، وإنما هي أيام وليال تطرد وتمضي بعضها في أثر بعض، لا كدر فيها، حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حليمة وزوجها، فإذا الطفل قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون، لم يكد يتم الثانية وكأنه ابن الأربع، والقوم عليه حراص، ولكنهم يؤدونه على ذلك إلى أمه كارهين. ثم تهم حليمة أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبد المطلب وأرضتها آمنة وعبد المطلب، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حباً له وحدباً عليه، ورغبة في استبقاء ما وجدت في استصحابه من خير، فتلح على آمنة أن ترده معها إلى البادية حيث الهواء النقي، والسماء الصافية، والحياة الهادئة البريئة، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد. وتجيبها آمنة إلى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها، وضحت بلذة الأمومة في سبيل تنشيء ابنها تنشيئاً صالحا. وهل عرفت آمنة إلا التضحية؟ وتمضي حليمة بالصبي راضية، وتبقى آمنة في مكة محزونة، وتنظر بركة إلى حليمة نظرات فيهن الحسد. وتنظر بركة إلى آمنة نظرات فيهن اللوم.

قلت لمحدثي: فكيف قضى الصبي أيامه بعد ذلك في البادية، وكم أقام عند ظئره في ديار بني سعد؟ قال: إن لهذا لحديثاً عجيباً مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصه عليك في تلك السذاجة الحلوة الأخاذة التي كان يقصها مكحول على أهل الشام. فاسمع حديث مكحول فإنك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع.

قال مكحول : حدثني سداد بن أوس قال : « بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدرة قومه وسيدهم ، شيخ كبير يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدي النبي ﷺ قائماً ، ونسبه إلى جده فقال : يا ابن عبد المطلب إني أنبئك أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ألا وإنك فوهت بعظيم . وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، فما لك وللنبوة ، ولكن لكل قول حقيقة ، فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك . قال : فأعجب النبي ﷺ بمسألته ، ثم قال : يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلساً ، فاجلس ، فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير . فاستقبله النبي ﷺ بالحديث فقال : يا أخا بني عامر ، إن حقيقة قولي وبدء شأني أني دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى بن مريم ، وأني كنت بكر أمي ، وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل ، وجعلت تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجد . ثم إن أمي رأت في المنام أن الذي في بطنها نور . قالت : فجعلت أتبع بصري النور والنور يسبق بصري ، حتى أضاءت مشارق الأرض ومغاربها . ثم إنها ولدتني فنشأت . فلما أن نشأت بغضت إليّ أوثان قريش ، وبغض إليّ الشعر . وكنت مسترضعاً في بني ليث ابن بكر . فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان ، نتقاذف بيننا بالجلة ، إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحابي هرباً حتى انتهوا إلى شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم إلى هذا الغلام ، فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مسترضع فينا ، غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يردّ عليكم قتله ؟ وماذا تصيبون من ذلك ، ولكن إن كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم .

فلما رأى الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جواباً انطلقوا هرباً مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم . فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعاً لطيفاً ، ثم شق ما بين مفرقي صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مساً ، ثم أخرج أحشاء بطني ، ثم غسلها بذلك الثلج ، فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه : تنح فنحاه عني ، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه . فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم مال بيده يميناً منه كأنه يتناول شيئاً ، فإذا أنا بخاتم في يده من نور

يحار الناظرون دونه ، فختم به قلبي فامتلأ نورا ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه ، فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً . ثم قال الثالث لصاحبه : تنح ، فتنحى عني ، فأمر يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتئم ذلك الشق بإذن الله ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذي شق بطني : زنه بعشرة من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم . ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم . فقال : دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم . قال : ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني . ثم قالوا : يا حبيب لا ترع ، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك . قال : فبينا نحن كذلك إذا أنا بالحي قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمي وهي ظئر أمام الحي تهتف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبوا عليَّ فقبلوا رأسي وما بين عيني . فقالوا : حبذا أنت من ضعيف . ثم قالت ظئري : يا وحيداه ، فانكبو عليَّ فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا أنت من وحيد . وما أنت بوحيد إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض . ثم قالت ظئري : يا يتيماه ، استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ، فانكبوا عليَّ فضموني إلى صدورهم ، وقبّلوا رأسي وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله ، لو تعلم ماذا يراد بك من الخير .

فوصلوا بي إلى شفير الوادي . فلما بصرت بي أمي ، وهي ظئري ، قالت : يا بني ألا أراك حياً بعد فجاءت حتى انكبت علي وضمتني إلى صدرها . فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها وقد ضمتني إليها ، وإن يدي في يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم . يقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه . فقلت : يا هذا ما بي شيء مما تذكر ، إن إرادتي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قلبة . فقال أبي -وهو زوج ظئري- : ألا ترون كلامه كلام صحيح ، إني لأرجو ألا يكون بابني بأس . فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن ، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه فلما قصوا عليه قصتي ، قال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم . فسألني فاقتصصت عليه أمري ما بين أوله وآخره . فلما سمع قولي وثب إلي وضمني إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب يا للعرب ، اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ، فواللات والعزى لئن تركتموه

وأدرك ليذلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط . فعمدت ظئري فانتزعتني من حجره وقالت : لأنت أعته وأجن من ابني هذا ، فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، واطلب لنفسك من يقتلك ، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام . ثم احتملوني فأدوني إلى أهلي . فأصبحت مفزعاً مما فعل بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشراك ، فذلك حقيقة قولي وبدء شأني يا أخا بني عامر .

فقال العامري: أشهد با لله الذي لا إله غيره أن أمرك حق . فأنبئني بأشياء أسألك عنها . قال : سل عنك - وكان النبي ﷺ قبل ذلك يقول للسائل : سل عما شئت وعما بدا لك . فقال للعامري يومئذ : "سل عنك" لأنها لغة بني عامر ، وكلمه بما علم - فقال له العامري : أخبرني يا ابن عبد المطلب ما يزيد في العلم؟ قال : التعلم . قال : فأخبرني ما يدل على العلم ؟ قال النبي ﷺ : السؤال . قال : فأخبرني ماذا يزيد في الشر ، قال : التمادي . قال : فأخبرني هل ينفع البر بعد الفجور ، قال : نعم التوبة تغسل الحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات ، وإذا ذكر العبد ربه عند الرخاء أغاثه عند البلاء .

قال العامري : وكيف ذلك يا ابن عبد المطلب ؟ قال : ذلك بأن ا لله يقول : لا وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمنين ، ولا أجمع له أبداً خوفين : إن هو خافني في الدنيا أمنني يوم أجمع فيه عبادي عندي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه ، ولا أمحقه فيمن أمحق ، وإن هو أمنني في الدنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه .

قال : يا ابن عبدالمطلب ، أخبرني إلام تدعو ، قال : أدعو إلى عبادة ا لله وحده لا شريك له ، وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى ، وتقر بما جاء من ا لله من كتاب أو رسول ، وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدي زكاة مالك يطهرك ا لله بها ويطيب لك مالك ، وتحج البيت إذا وجدت إليه سبيلاً ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار .

قال : يا ابن عبد المطلب ، فإذا فعلت ذلك فما لي ، قال النبي ﷺ : جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

قال : يا ابن عبدالمطلب ، هل مع هذا من الدنيا شيء فإنه يعجبني الوطأة من العيش ، قال النبي ﷺ : نعم النصر والتمكن في البلاد . قال : فأجاب وأناب .

قلت لمحدثي : إن هذا النبأ ليعجب ، فمن لهذا الشيخ العامري بما كان يعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، قال : كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود ويلقون النصارى فيعلمون منهم علم الأنبياء ، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم في غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونصرانية النصارى فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك .

قلت لمحدثي : فكيف انتهى حديث مكحول إلى أهل الشام ؟ قال : أما علمت أن شداد بن أوس سكن فلسطين ، وأنفق شطراً طويلاً من حياته في بيت المقدس يعلم الناس ويحدثهم وعده بذلك النبي نفسه ، فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجود بنفسه فقال : ما لك يا شداد ، قالت : ضاقت بي الدنيا .

فقال : "ليس عليك ، إن الشام سيفتح وبيت المقدس سيفتح وتكون أنت وولدك من بعد أئمة فيهم إن شاء الله تعالى" .

انتهى من كتاب على هامش السيرة .

محمد ﷺ المثل الأعلى في الأنبياء

عثرنا بالمصادفة على كتاب مطبوع بمصر اسمه "المثل الأعلى في الأنبياء" تأليف خ . كمال الدين ، وعربه عن الإنكليزية الأستاذ أمين محمود الشريف ، فرأيناه كتاباً قيماً بأسلوب بديع شيق ، يثبت المؤلف بأدلة عقلية قوية أن نبينا "محمداً" ﷺ هو المثل الأعلى في الأنبياء ، وفي الكتاب قليل من الأخطاء كان الواجب على المؤلف أن يتنبه لها جيداً ، ولكنه يعذر بحسن نيته ، ونحن لم نتعرض لهذه الأخطاء وتصحيحها لأننا لسنا في معرض نقد للكتاب ، ولقد نقلنا منه ما يوافق غرضنا ، وإليك بعض النبذ التي جاءت فيه عن رسول الله ﷺ – فقد جاء في صحيفة (٣٨) ما يأتي:

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد انطمست معالم صورهم الحقيقية بما أسبغ عليها من ألوان التبجيل والإطراء ، أما محمد ﷺ ، فهو شخصية تاريخية

واضحة المعالم ، وكل أفعاله وأقواله قد أحصاها معاصروه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، بل هو النبي الفذ الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، ولا سيما الفترة التي أدى فيها الرسالة . ولست أغالي إذا قلت أنني أعرفه أكثر مما أعرف أبوي ، ثم أليس من العجيب أننا لا نجد فيما أثر عنه – على كثرته – إلا كل ما يدعو إلى الاحترام والإعجاب ، ولست أدرى ماذا يكون رأينا في غيره إذا أتيح لنا أن نعرف أكثر مما نعرف عنه ، فإن سيرة غيره من الأنبياء مضروب عليها حجاب من الغموض والأساطير ، ولا نعرف من حياتهم اليومية إلا القليل . وما يحكى عنهم يشبه كلام الكهان ، حتى لا يتصور العقل أنهم أشخاص حقيقيون ولكن تاريخ النبي ﷺ معروف أكثر من أية شخصية أخرى في التاريخ ، وإنه لمن دواعي العجب أن العدو لا يجد وجهاً للنقد فيما روي عنه وهو كثير .

وهنا يظهر فضل النبي على غيره ، وهذا أحد الأسباب الكثيرة التي تحملنا على القول بأنه المثل الأعلى في الأنبياء ، فسجل أقواله وأفعاله كامل غير منقوص ، وسننه القولية والفعلية يتمم بعضها بعضاً ، وكأن كل مطلب من المطالب الروحية قد قدر وعمل حسابه ، فكل ما يعرض للإنسان مما دق أو جل يتجلى في مرآة حياته . لا أستطيع أن أقول باعتباري مسلماً أن غيره من الأنبياء لم يؤدوا رسالتهم كاملة ، بل كل ما أريد أن أقوله أننا لا نجد في كل ما أثر عنهم إلا القليل مما يفي بحاجة البشر ، ولا بد أنهم قد أدوا ما أرسلوا به ، ولكن مؤرخيهم لم يقوموا بحقهم . ولا يسعني إزاء قلة ما أثر عنهم إلا أن أقول ، أنه لولا محمد ﷺ ما استطعنا أن نفهم قدر النبوة ، إذ لو كانت وظيفة النبي مقصورة على القول دون العمل ، وإلقاء بعض العظات دون أن يعمل في حياته شيئاً لرفعة الإنسانية ، بل يكرر الدروس التي ألقاها غيره بعبارة أخرى ، لما كان هناك معنى للرسالة الإلهية لأننا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس نفسها ممن لم يدع أنه مرسل من عند الله .

ثم جاء فيه أيضاً بصحيفة (٤٢) ما نصه:

وإذا نظرنا في حال من تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجدنا أنه لا يخلو من أمرين :

(الأول) أنهم لم يمارسوا جميع أحوال الحياة كما مارسها النبي ﷺ؛ لأنهم لم تهيأ لهم الفرصة، ولو تهيأت لفعلوه. ولنضرب مثلاً بالمسيح عليه السلام، كلنا نعلم أن كثيراً من سعادة المرء يتوقف على معاملة أهله بخلق حسن، فلو أن المسيح تزوج لكان مثال الزوج الكامل، ولكنه لم تتح له فرصة الزواج، ولذا فنحن لا نستطيع أن نقتدي به في هذه الناحية.

(الثاني) أن الذين منهم أتيحت لهم الفرصة وأدوا واجبهم على الوجه الأكمل، لم يصل إلينا من أخبارهم إلا النزر اليسير، وحتى هذا النزر اليسير لا يصور لنا الحقيقة كما هي، بل هو صورة ما انطبع في أذهان أصحابهم الذين دونوا تاريخهم فكتبوا ما راق لهم، هذان الأمران بالذات هما السبب في أن الإنسان يحاول عبثاً أن يجد قبساً من النور والهدى في حياة الأنبياء السابقين، ولكن محمداً ﷺ هو العلم الفرد الذي يجد الباحث في تاريخه ما يروي غليله.

ليس كل ما في جعبة النبي هو الدعوات الصالحات، وإنزال اللعنات، وإلقاء العظات، والإتيان بالمعجزات، بل إن منصب النبوة أسمى من ذلك وأجل، فالنبي يُبعث لإحياء الإنسانية من الموت العقلي والخلقي والروحي الذي حل بها، ويُبعث بالشرائع السامية ليعمل بها في خاصة نفسه، ويأمر الناس أن يهتدوا بهديه، وبذلك يحيي أرض القلوب بعد موتها.

وخلاصة القول أنه يبعث "لتكميل الإنسانية" وهي مشكلة من أعوص المشاكل، لأن للإنسان جوانب متعددة منها الناحية الجسمية والناحية العاطفية والشعورية والاجتماعية والخلقية والروحية، وهذه النواحي كلها مشتبكة يكمل بعضها بعضاً في وجودها وتطورها، كما أنها تتعاون في أداء وظائفها.

وقد اختلف الناس في شأنها، فمنهم من يذم الغرائز والميول النفسية، ومنهم من يشير بقمعها وسحقها، وهذا مخالف للطبائع البشرية؛ لأن هذه الغرائز قابلة للتطور والارتقاء، وهي أساس الأخلاق العالية، وبذرة الرقي الروحي. وواجب النبي أن ينظر إليها جميعاً بعين الاعتبار، وأن يرشد إلى وسيلة يمكن بها توجيه هذه الغرائز في الطريق القويم، وضبط القوى العقلية على الوجه الذي يسمو بالإنسانية، ويمكن الإنسان من التخلق بالأخلاق الربانية، كما أشرت إلى ذلك في مكان آخر في هذه الصفحات.

وقد لخصت في مكان آخر بعض المناقب التي يختص بها النبي ﷺ دون سواه، واليد البيضاء التي أسداها للإنسانية بوصفه نبياً. وهذه المناقب هي من خصائص الأنبياء، ولا توجد في سيرة غيره من الأنبياء، وأكبر الظن أن مرد ذلك إلى السببين اللذين سلف ذكرهما.

وإذا كنا نحن معشر المسلمين نؤمن بأن محمداً ﷺ هو المثل الأعلى في الأنبياء، فما ذلك إلا لأنه اجتمع فيه كل ما تفرق في غيره من الفضائل والكمالات. وقد كان كل نبي من أنبياء الله مثلاً أعلى، وكان قدوة للناس الذين بعث فيهم، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده لو عرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كان يتحلى بها قطعاً، لم يتمكن من إظهارها لأنه لم تتهيأ له الظروف المناسبة.

والحقيقة أن النبي ﷺ هو أكمل الأنبياء؛ لأنه تتوافر فيه جميع مقتضيات النبوة، كما يجتمع فيه كافة الكمالات التي تفرقت في غيره. وإذا تقرر ذلك، فليس من العسير أن نبين الصفات التي استحق بها أن يكون المثل الأعلى في الأنبياء وسنتحاشى المقارنة البغيضة ما أمكن، على أنه لا وجه للمقارنة بين اثنين نعرف عن أحدهما كل شيء ولا نعرف عن الآخر إلا القليل النادر.

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ٨٩ ما يأتي:

ومن الفضائل التي انفرد بها ﷺ وتدل على وصوله إلى أسمى مرتبة من الكمال، أعني مرتبة التخلق بأخلاق الربانية، ثباته على العهد والمبدأ، بحيث لا يتغير ولا يتبدل تبعاً للظروف والأحوال. فهو هو في حالي العسر واليسر، والغنى والفقر، والهزيمة والنصر، مثله في ذلك كمثل كلمات الله وسننه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فمن ذلك فضيلة التواضع التي كان يمتاز بها في جميع أطوار حياته، ولكن "انتصاراته الحربية" كما قال واشنجتن إيرفنج: "لم تبعث في نفسه شيئاً من الفخر والزهو؛ لأنه لم يكن له فيها أي مأرب شخصي".

وعندما بلغ أوج سطوته وسلطانه، ظل محتفظاً بالبساطة في مظهره وأخلاقه، كما كان في أيام الفقر والشدة. وكان يكره أن يظهر بمظهر الملوك، ويستاء إذا بدرت من الناس حركة غير عادية تدل على الاحترام والتعظيم حين يدخل عليهم، وإذا كان هناك سلطان يطمع هو إليه، فسلطان الدين الذي جاء به. أما السلطان الدنيوي الذي كان يتمتع به في حياته، فقد كان مجرداً من مظاهر الملك، ولم

يعمل هو على أن يكون وراثياً في آل بيته ، وبعد أن صار سيد الجزيرة العربية ، وظل يعامل أصحابه كأنهم إخوة ، لا يقوم دونه الحجاب ، ولا يمشي بين يديه الحراس بل كان يمشي بينهم بلا كلفة ، يصلح ذات بينهم ، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم ويبذل وده لهم .

ويقول جيبون : كان محمد لوفور عقله يحتقر أبهة الملك ، وهو في أوج سلطانه الدنيوي ، وكان رسول الله في مهنة أهله ، يستوقد ناره ، ويقمّ بيته ، ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه . ومع ذلك لم يفخر بأنه من الزهاد الذين يعذبون أنفسهم ، بل كان يقاسي من شظف العيش ما يقاسيه كل عربي وجندي ، فيأكل ما وجد دون عناء أو تكلف . وكان يكرم أصحابه ويؤثرهم بلذائذ الأطعمة ، وتمر الأسابيع الطوال ما يستوقد ناراً في بيته ، وأحب أن أضيف بهذه المناسبة خبراً عن السيدة عائشة رضي الله عنها تأييداً لما نقلته عمداً من كلام جيبون وغيره عملاً بالمثل العربي القائل : "والفضل ما شهدت به الأعداء" ، قالت : (كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً ، إنما هو التمر والماء ، إلا أن نؤتى باللحم - ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين) .

هذه صفة عيش رسول الله ﷺ ، وهذا هو تواضعه في وقت دانت له فيه جزيرة العرب ، وصارت تحت قدميه ، وقد زخرت المدنية بمظاهر الثراء في الأيام الأخيرة من حياته ، فسالت بطاحها بالأموال من ذهب وفضة ، إلا بيت ابنته فاطمة فقد خلا من أسباب الغنى ، وأقفر من آثار النعيم ، وكان كل ما يملكه يوم وفاته بضع دراهم ذهب بعضها في قضاء دين عليه وما بقي أعطي لمسكين جاء يسأل شيئاً من الصدقة ، أما الملابس التي فاضت فيها روحه الشريفة فقد كانت ذات رقاع ، وبذلك صرف كل ما كان يملكه ، وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وجاء فيه أيضاً بصحيفة (١٠٤) ما يأتي:

وقبل أن أواصل الكتابة ، أحب أن ألخص حياة النبي ﷺ في مكة مؤثراً كلمات السيد أمير علي في كتابه "روح الإسلام" إذ أنه يصورها صورة رائعة في هذه الكلمات : "رأينا ذلك الرجل العجيب يتيماً لم ينعم قط بمحبة الأب ، محروماً في نعومة أظفاره من حب الأم ، ورأينا حياته الأولى تبعث الشجون ، إذ نشأ طفلاً كثير التأمل والتفكير ، ثم صار شاباً يافعاً كثير التأمل والتفكير كذلك ، وكان في

شبابه زكي النفس صادق اللهجة كما كان في طفولته ، وكان في كهولته زاهداً ورعاً كما كان في شبابه يصغي إلى أنات الضعفاء وآلام الفقراء ، يفيض قلبه بالرحمة والحنان على جميع الخلق ، يمشي على الأرض هوناً ، تغشاه السكينة حتى ليشير الناس إليه بالبنان قائلين : (هذا هو الأمين الصادق الصدوق) - كان الصديق الحميم والزوج الوفي ، والمفكر الذي يتغلغل بذهنه في أسرار الحياة والموت ، ويغوص بفكره في سر القضاء والقدر ، والحكمة في وجود الخلق ، تكفل بإصلاح أمة وإنقاذها ، لا بل بإصلاح العالم بأسره ، ولا عزاء له فيما يكابده سوى قلب يغمره الحب قد تعترضه الصعاب ولكن لا يعروه اضطراب وقد يغلب على أمره ولكن لا يلم اليأس بصدره ، بل تراه يكافح ويناضل بروح قوي لا يغلب ، ليؤدي الرسالة التي وكلت إليه ، وقد جمعت حوله أخلاقه الكريمة الزكية ، وإيمانه القوي بالرحمة الإلهية قلوباً مخلصة ، ونفوساً صادقة .

وحين أزفت ساعة العسرة ، تراه كالبحار الأمين ، لا يبرح مكانه حتى يطمئن إلى وصول أصحابه إلى الساحل آمنين ، فإذا وصلوا إليه ، توجه هو إلى الساحل الأمين ، هكذا رأيناه فيما مضى . والآن ستراه الملك المسيطر على ذلك كله ، فهو الفقير المتواضع ، الذي لا يحيط نفسه بمظاهر العظمة والفخامة ، ومن الآن فصاعداً ، يغني تاريخ الجماعة التي كان هو قطب رحاها ، ومن الآن فصاعدًا نرى الداعي الذي يرقع ملابسه بيده ، ويبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وقد أصبح أقوى من أقوى ملوك الأرض . اهـ .

كانت حياة النبي ﷺ في المدينة حلقة هامة في سلسلة الخلق الإنساني ففي المدينة أتيحت له الفرصة لإبراز ما دعا إليه بالقول إلى حيز الفعل ، وقد أكبر من شأن شريعة موسى عليه السلام وزاد عليها وحقق على الأرض ملكوت السموات الذي كان عيسى عليه السلام يدعو الله به ، وسما بأخلاق قومه إلى مستوى القديسين والملائكة ، فحقق بذلك أحلام أرسطو وأفلاطون في المساواة بين البشر ، وأنشأ لأول مرة في التاريخ مجتمعاً اشتراكياً ومدينة فاضلة يسكنها ويديرها قوم تخلوا عن الرذيلة ، قوم ليسوا بحاجة إلى رجال شرطة يتولون حفظ النظام بينهم ، قد زالت بينهم الفروق فلا امتياز لأحد على أحد بسبب لونه أو جنسه أو قومه ، قوم لا يفرق فيهم بين الحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرؤوس ، تلاشت بينهم جميع الفوارق القائمة على المذاهب والطبقات والألوان والأنساب فالأبيض ، والأسود ،

والأحمر ، والأصفر - كل أولئك سواء عند الله ؛ لأنهم من معدن واحد ، أبوهم آدم وأمهم حواء ، ولكي ينمحي التمييز بينهم بسبب الجنس ، والدم ، والمال ، قيل لهم إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ولأول مرة في التاريخ قرر الخليفة عمر رضي الله عنه ، أن الحكومة التي لا تسمح لأي فرد من أفراد الرعية أن يبدي رأيه ، ولا تحترم هذا الرأي ، لا تعد جديرة بهذا الاسم ، ولأول مرة في التاريخ سمح لأدنى فرد من السوقة أن يبدي رأيه في أية مسألة تمس الدولة أو الدين أو الحاكم نفسه ، ولأول مرة في التاريخ حل الانتخاب محل الوراثة في تولي الحكم . وتقرر أن تكون وظيفة الحاكم - كائنا من كان - مقصورة على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، وأن تكون جميع التشريعات التفصيلية متفقة مع الأصول العامة للشرع ، الذي سنه المشرع الأعظم . وكانت الرعية تدعى إلى بيان عيوب الحاكم في سياسة الحكم ، وكانت الدولة ملكاً للجميع على السواء ذكوراً وإناثاً ، وكانوا جميعاً ملكاً لإله واحد ، يخضعون لقانون واحد ، ليس من وضع البشر ، بل أنزله الله الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، والعدل الذي ملأ الأرض عدله - قانون واحد ينطبق على الغني والفقير على السواء .

كان عيسى عليه السلام يحلم بالمساواة ، ولكن محمداً ﷺ حقق هذا الحلم على أحسن وجه ، ولا غروى ، فقد كان يقدس العمل ، ويعمل كل شيء بيده ، وكان ﷺ يكره أن يعمل الناس له شيئاً ، فكان يخدم نفسه ، وكان في بيته في مهنة أهله ، يفلي ثوبه ، ويقمّ بيته ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويخصف نعله ، ويحضر الماء ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويعجن مع الخادم . وروي عن أنس أنه غدا إلى النبي ﷺ فوجده يمسح جملاً بالزيت ، وفي حديث آخر أنه رآه يسم إبل الصدقة .

ولما بنيت الكعبة وهو صغير كان ينقل الحجارة ، وفي أثناء بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة ، كان يعمل في البناء كغيره من العمال ، وكان ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه . ودانت له شبه الجزيرة العربية ، وانهالت عليه الأموال من ذهب وفضة ، ولكنه كان يقول: ليس لابن آدم حق فيما سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء .

وقد دلت حياته في المدينة على أنه لم يسع قط إلى الملك والسلطان في الأرض، بل الملك هو الذي سعى إليه، فأتيح له أن يبين لملوك الأرض أن الأموال العامة أمانة مقدسة يجب صرفها في وجوه مصالح الرعية، لا في تحصيل الشهوات واللذات الشخصية، إذ كان ﷺ زاهداً في الدنيا، متقشفاً في معيشته - يلبس ما وجد، ولا يسأل أهله طعاماً إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، إما على حصير، أو على بساط، أو على الأرض، وكان يأكل الشعير غير منخول، ويلبس القميص مطلق الأزرار. وكان بطبعه يعرض عن زينة الحياة الدنيا، ويكره الشهرة في اللباس. ومن المسلم به أنه لا رهبانية في الإسلام، ومن أجل ذلك أحل النبي ﷺ زينة الله، والطيبات من الرزق، وكان هو نفسه يتمتع بهما تشريعاً لأمته، ولكنه مع ذلك كان لا يميل إلى رغد العيش ولا يرغب في النعيم والترف، بل نهى الناس عنه؛ لأنه يدخل الوهن في قلوب الرجال.

يروى أن رجلاً أضاف علي بن أبي طالب، فصنع له طعاماً، فقالت فاطمة: «لو دعونا رسول الله ﷺ فأكل معنا. فدعوه، فجاء، فوضع يده على عضادتي الباب، فرأى القرام قد ضرب به في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة: الحقه فانظر ما رجعه، فتبعته، فقلت: يا رسول الله ما ردك؟ فقال: «إنه ليس لنبي أن يدخل بيتاً مزوقاً»»، وكان ﷺ يقول: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان». وكان ﷺ يحب دائماً ما خشن من الثياب، وما غلظ من الكساء، وما رث من اللباس، لما طبع عليه من التواضع والتذلل، وهضم حظوظ النفس.

وكان من رأي عمر رضي الله عنه أن يلبس النبي ﷺ الثياب الفاخرة عند استقبال الوفود والسفراء، وغيرهم من كبار الرجال، فوجد حلة استبرق تباع في السوق، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابتع هذه الحلة، فتجمل بها للعيد وللوفود، فقال رسول الله ﷺ: إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة، وكان يلبس عادة كساء ملبداً، صنع من الصوف، وفيه نزع روحه الشريف ﷺ. ودخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، وهو معتزل في المشربة، فإذا هو متكئ على حصير ما بينه وبينه شيء، قد أثر في جنبه، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، فأدنى على إزاره، وليس عليه غيره، ونظر

عمر ببصره في خزانة رسول الله ﷺ ، فإذا هو بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة ، وعند رأسه أهب معلقة ، فابتدرت عيناه ، قال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال : يا نبي الله ، وما لي لا أبكي ، وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله ﷺ وصفوته ، وهذه خزانتك ، فقال : يا ابن الخطاب ، ألا ترضى أن يكون لنا الآخرة ولهم الدنيا .

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها : إن كنت تريدين الإسراع واللحوق بي ، فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، فقلت : يا رسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على هذا الحصير شيئاً يقيك منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ما لي وللدنيا ، ما أنا والدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ١٢٢ ما يأتي:

لا ريب أن هذا النجاح الفريد في بابه ، الذي لا مثيل له في التاريخ ، دليل ناطق بما وصل إليه النبي ﷺ من السمو الروحي . ومن المسلَّم به أنه لا يمكن أن يتم أي إصلاح في أمة ما لم يشعر أفرادها بحب المصلح واحترامه ، واستعدادهم لطاعته ، وامتثال أمره ولن يستطيع أي مصلح بماله وسلطانه ، بل ولا بمعجزاته ، أن يحمل الناس على حبه واحترامه وطاعته ، فهذه أمور لا تتأتى للمرء إلا إذا كان على جانب كبير من السمو الروحي .

لم يكن محمد في قومه ملكاً مسلطاً يملي عليهم أوامره ، بل كان يتبرأ من وسائل الإغراء التي من شأنها أن تجلب له كثرة الأتباع والأنصار ، فكان يقول لهم على لسان القرآن : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ - ومع ذلك كان يحظى بطاعة أصحابه ، وانقيادهم له إلى حد لا يتصوره العقل ، فكان كلامه فيهم كلام المحبوب الذي يحترمه المحب ويصغي له ، وإذا كان هذا هو حال أصحابه معه ، فما أخلقه أن يكون "أعظم المصلحين الدينيين نجاحاً" في إصلاح الفرد والمجتمع ، ولا يمكن أن يتسنى هذا النجاح للمرء إلا أن يبلغ أسمى درجة في سلم الرقي الروحي .

ثم جاء فيه أيضاً بصحيفة ٢٠٦ ما يأتي:

إن ضيق المقام يحول دون تفصيل القول في أخلاق النبي ﷺ في شتى مناحيها ؛ لأنه الشخصية الفذة في التاريخ التي اجتمع فيها ما تفرق في أهل الفضل من الكمالات . فزهده ، ومروءته ، وكرمه ، وقصده ، وسعة صدره ، وحلمه ، وهمته ، ووفاؤه ، وثباته في الشدائد ، وتواضعه مع علو منصبه ، ورفقه بالحيوان ، وحبه للصبيان ، وشجاعته ، وإقدامه ، وشهامته ، وإقامته للعدل - كل أولئك يحتاج إلى مجلدات للوفاء بحق هذه الشخصية الخارقة للعادة .

انتهى كل ما تقدم عن النبي ﷺ من كتاب "المثل الأعلى في الأنبياء" وهو كتاب عربه عن الإنجليزية الأستاذ أمين محمود شريف .

والحق يقال أن هذا الكتاب ، كتاب قيم فريد في بابه ، ولولا خوف التطويل لذكرنا منه شيئاً كثيراً ، فنوصي القراء الكرام بشرائه ومطالعته .

انظر: صورة رقم ١١ ، كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط

تعبد النبي ﷺ قبل البعث

مما لا ريب فيه أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم معصومون عن الكفر والزلل وسفاسف الأمور قبل أن يبعثهم الله تعالى للناس فلا يعصون الله تعالى ولا يهمون بمعصية قط ، فإن الله تعالى عز شأنه يتولاهم بعنايته ورعايته منذ ولادتهم إلى مماتهم ، لتكون نشأتهم ممتازة منذ الصغر فيعرفون بالفضل والكمال ، حتى إذا قاموا بالدعوة إلى الله لا يقدر أحد أن يعيّرهم بشيء غير لائق حال الصغر ، وفرق بين من ينشأ في رعاية والديه وأهله ، وبين من ينشأ في رعاية الله تعالى وحفظه ، ولم يقل أحد من أهل الإسلام ولا من أهل الكتاب أن نبياً من الأنبياء كان يعبد غير الله تعالى قبل أن يبعث ويوحى إليه . هذه مقدمة نرتب عليها الكلام الآتي:

اختلف العلماء هل كل رسول الله ﷺ متعبداً بشريعة من كان قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم لا ؟ . وقبل أن نسوق كلامهم ، نذكر رأينا الخاص في ذلك نسأل الله تعالى التوفيق فيه فنقول :

إن نبينا محمداً ﷺ لم يتعبد بشريعة من كان قبله ؛ لأن ذلك يستلزم ذهابه إلى أهل الكتاب ليتعلم منهم شريعة موسى أو عيسى أو غيرهما ، فإن لم يتعلم من

غيره فكيف يعرف شريعة من كان قبله ولم ينزل عليه الوحي بعد؟ لكن لم يعرف عنه أنه ذهب ليتعلم عند أحد مطلقاً وهو النبي الأمي الذي لم يأخذ إلا عن جبريل عليه الصلاة والسلام.

فرسول الله ﷺ كان يتعبد قبل بعثه في غار حراء على الحق المبين بإلهام من الله سبحانه وتعالى فهو الهادي إلى سواء السبيل، وإذا كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قد آتاه الله الهدى والرشد قبل البلوغ كما جاء في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ۝ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ إلى آخر الآيات.

وإذا كان أيضاً يحيى عليه الصلاة والسلام آتاه الله الحكم وطبعه على التقوى وهو صبي كما جاء في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ۝ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا﴾.

فإن نبينا محمداً سيد الرسل وخاتم الأنبياء صلى الله تعالى عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وسلم تسليماً، قد آتاه الله الهدى والرشد، وطبعه على التقوى ومكارم الأخلاق من حين الصبا، فقد ورد: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، ولقد ظهرت عليه دلائل النبوة وبشائر البعث منذ الصغر، فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل عبدت غير الله؟ قال: لا. قيل: فهل شربت الخمر قط؟ قال: لا. ثم قال: ما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان.

ولقد كان عبد المطلب جد النبي ﷺ يتوسم فيه أن يكون له من الشرف والمكانة السامية ما لم يكن لأحد، فكان يحبه كثيراً حتى أنه لما جلس النبي ﷺ وهو غلام صغير يدرج على مفرش جده وأرادوا منعه من الجلوس على المفرش بكى، فقال عبد المطلب: ما لابني يبكي؟ قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه. فقال عبد المطلب: دعوا ابني، فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط. اهـ. وقد كان ذلك بفضل الله ورحمته.

وحينما كان رسول الله ﷺ يبني مع قريش الكعبة قبل البعثة، وينقل الحجارة معهم على رقبته وقد وضع على ظهره إزاره يتقي به فنودي: يا محمد عورتك، فرمى بنفسه على الأرض من الفزع، فأخذه العباس عبد المطلب فضمه إليه، ثم قال رسول الله ﷺ: إني نهيت أن أتعرى.

ولما أجدبت الأرض وحصل القحط وهلكت المواشي ، قالت قريش لأبي طالب : استسق لنا ، فخرج أبو طالب بهم ومعهم محمد ﷺ وهو غلام ، فلما صار بإزاء الكعبة ألصق النبي ﷺ ظهره بالكعبة وصار يشير بإصبعه إلى السماء وما زال كذلك حتى أقبل السحاب من كل جهة وجاء الله بالمطر حتى أخصبت الأرض ، فأنشأ أبو طالب قصيدة طويلة في مدحه ﷺ . منها :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الثمال بالكسر: الملجأ والغياث .

ولقد كان ﷺ من صغره يبغض الأوثان ولا يحضر مع قومه أعيادهم وأصنامهم ، قال عليه الصلاة والسلام : "لما نشأت بغضت إليَّ الأوثان وبغض إليَّ الشعر ، و لم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته - قلت لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس و لم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك" .

و لم يكن بعث رسول الله ﷺ يخاف على أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى وكان لهم فيه علامات ، وقصة بَحيرا الراهب "بفتح الباء وكسر الحاءِ وآخره راء مقصورة" معه شهيرة في كتب السير نلخصها فيما يأتي:

لما بلغ عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة أراد عمه شقيق أبيه أبو طالب السفر إلى الشام للتجارة ، فخرج به معه للمرة الأولى فسار الركب حتى وصلوا قرية من قرى الشام وكان يسكنها راهب وهو بَحيرا وكان ذا علم في النصرانية ، فنزلوا قريباً من صومعته واستظل النبي ﷺ تحت شجرة فاخضرّت أغصانها وجاءت غمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم ، فلما رأى بَحيرا الراهب ذلك نزل من صومعته وصنع لجميع الركب طعاماً ، ثم أخذ بيد محمد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما لديه من العلم ، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التي عنده ، فقبّل موضع الخاتم ، ثم قال : هذا رسول رب

العالمين ، وقال لعمه أبي طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود ، فإنه سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم ، كما هو مذكور في كتبنا .

وهناك كثير من الأمور الخارقة للعادة وقعت لرسول الله ﷺ منذ صغره تدل على أن الله تعالى يصطفيه من بين الناس بالرسالة ، ومن هنا نعلم أن تعبد النبي ﷺ لم يكن تقليداً لشريعة من كان قبله من الأنبياء ، وإنما كان بإلهام من الله تعالى يوجهه إلى عبادته الحقة كيفما شاءت قدرته القوية ، عبادة صحيحة مستقلة لا عبادة تقليد وتبعية حيث لم يتعلم من أحد شيئاً قط ، ونقصد بالعبادة هنا أساسها الثابت ؛ كتوحيد الله تعالى ومعرفته وتقديسه وتسبيحه والتفكر في آلائه ومخلوقاته التي تدل عليه وعلى وحدانيته وعظمته وقدرته سبحانه وتعالى ، أما فروع العبادات وتفاصيل أدائها بالكيفيات المخصوصة فلم يعرفه إلا بعد البعث وإنزال الوحي والقرآن عليه .

وإليك ما ذكره العلماء في تعبده ﷺ قبل أن يبعثه الله تعالى .

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : قال العلامة الدواني في تفسير: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ : اختلف الأصوليون في أن النبي ﷺ هل كان متعبداً بشريعة من قبله أو لا؟ ، فقيل : إنه كان متعبداً بشريعة موسى ، وقيل : بشريعة عيسى ، وقيل : بشريعة إبراهيم ، وقيل: بشريعة نوح عليهم السلام . وقيل : إنه لم يكن متعبداً فالمختار أنه كان متعبداً قبل البعث لما ثبت أنه كان متعبداً في غار حراء ، والتعبد لا يكون إلا بشريعة ، لأن الحاكم هو الشرع عند أهل الحق ، وعلى مذهب المعتزلة القائلين بحكم العقل الأمر أظهر ، إذ العبادة لا تتوقف على هذا التقدير على شريعة . والحاصل أنه كان يتحنث في غار حراء أي يتعبد الليالي ذوات العدد ، فلا جرم تكون هذه العبادة لله تعالى لا غير إذ الأنبياء معصومون عن الكفر قبل البعثة بالاتفاق - انتهى من تاريخ الخميس .

موضع ولادة النبي ﷺ

لقد ولد رسول الله ﷺ بدار أبيه عبدالله بن عبدالمطلب بمكة ، فقد كان عبد المطلب قسم حقه بين أولاده ودفع إليهم ذلك في حياته حين ذهب بصره ، فكان مولد النبي ﷺ وما حوله لوالده عبدالله بن عبدالمطلب .

قال الأزرقي: فمن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبد الله بن عبدالمطلب .

جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه : قال أبو الوليد: مولد النبي ، أي البيت الذي ولد فيه النبي ﷺ وهو في دار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف ، كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي ﷺ وفيه وفي غيره يقول رسول الله ﷺ عام حجة الوداع حين قيل له : أين تنزل يا رسول الله ؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل . فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء ، وتعرف اليوم بابن يوسف ، فلم يزل ذلك البيت في الدار حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون فجعلته مسجداً يصلى فيه ، وأخرجته من الدار وأشرعته من الزقاق الذي في أصل تلك الدار يقال له زقاق المولد .

حدثنا أبو الوليد قال : سمعت جدي يوسف بن محمد يثبتان أمر المولد وأنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة ، حدثنا أبو الوليد ، قال : حدثني محمد بن يحيى عن أخيه ، قال : حدثني رجل من أهل مكة يقال له سليمان بن أبي مرحب مولى بني ختم ، قال : حدثني ناس كانوا يسكنون ذلك البيت قبل أن تشرعه الخيزران من الدار ثم انتقلوا عنه حين جعل مسجداً قالوا : لا والله ما أصابتنا فيه جائحة ولا حاجة فأخرجنا منه فاشتد الزمان علينا . انتهى من الأزرقي .

قال الغازي في تاريخه : قال ابن الأثير : قيل إن المصطفى ﷺ وهب الدار لعقيل بن أبي طالب ، فلم تزل حتى توفي عنها فباعها ولده لمحمد بن يوسف ، وقيل : إن عقيلاً باعها بعد الهجرة تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين . انتهى .

نقول: لقد وقعت عمارات كثيرة في مولد النبي ﷺ وجعل مسجداً يصلى فيه ، وكان له إمام ومؤذن وأوقاف في البلاد الرومية ، ثم هدم هذا المكان في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف فأصبح سوحاً ، ولا نرى ضرورة في ذكر أسماء من بناه وعمّره في الأزمان السابقة فذلك مذكور في كتاب التاريخ ، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بناية حصلت في موضعه في وقتنا هذا وإليك بيان ذلك .

إن موضع ولادة النبي ﷺ بمكة بسوق الليل ، وهو شعب علي قد بنيت فيه الآن عمارة لطيفة بناها أمين العاصمة الأسبق الشيخ عباس بن يوسف القطان الذي توفي في ١٦ رجب سنة ألف وثلاثمائة وسبعين رحمه الله رحمة الأبرار ، فقد بناها

على حسابه الخاص لتكون مكتبة عامة يتردد إليها العلماء والطلبة ، وقد ابتدأ في عمارة هذه الدار قبل وفاته بشهرين ، فلما مات أتمها ابنه الفاضل الشيخ أمين - وقد اتفق الشيخ عباس المذكور قبل وفاته مع المرحوم الشيخ كامل بن ماجد الكردي وإخوانه على نقل مكتبتهم الماجدية المعروفة إلى عمارته التي جعلها مكتبة عامة "أي دار الكتب" وإن شاء الله تعالى عما قريب سيعمل الشيخ أمين المذكور على إنجاز هذه المكتبة على أحسن حال ، تنفيذاً لوصية والده ورغبة في إحياء ذكره ، جزاه الله تعالى خير الجزاء . وإليك صورة الشيخ عباس قطان وصورة الدار .

انظر: صورة رقم ١٢ ، الشيخ عباس القطان .وهو من أعيان مكة

ترجمة الشيخ عباس القطان

هو الشيخ عباس بن يوسف قطان ، ولد عام (١٣١٢) ألف وثلاثمائة واثني عشر من الهجرة ، كان والده الشيخ يوسف قطان شيخاً لمشايخ الجاوة في عهد الشريف عون الرفيق ، ثم تولى في عهد ملك الحجاز الأسبق الشريف حسين بن علي رئاسة البلدية أي "أمانة العاصمة" بمكة ، ثم تولى في أوائل عهد الحكومة السعودية رئاسة شؤون الحج ، وصار وزير النافعة ، وتوفي في آخر ذي القعدة سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين وقد بلغ خمساً وثمانين سنة .

وأما ابنه الشيخ عباس القطان فقد كان أميناً للعاصمة بمكة المكرمة في عهد جلالة ملك المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى ، فمكث في وظيفته المذكورة ثمانية عشر عاماً من عام (١٣٤٧) إلى عام (١٣٦٤)هـ . وكانت الحكومة تنتدبه أحياناً لبعض الأمور المهمة ، فكان محبوباً من كافة الطبقات ، يقصدونه في المهمات ، وحيث أنه كان من أثرياء البلاد ما كان يأخذ راتباً على وظيفته ، والحقيقة أنه أدى للبلدة خدمات تذكر فتشكر ، وكان ينزل الناس منازلهم يعرف لكل شخص قيمته .

والخلاصة أنه كان شهماً كريماً مضيافاً ، يحب أهل العلم وأهل الخير والاستقامة ، وكان قبيل وفاته لازم صلاة الجماعة في المسجد الحرام - توفي في اليوم السادس عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف .

ذكرنا ترجمته بمناسبة طبعه كتاب القرى لقاصد أم القرى للطبري ، وبنائه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم في مكان دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وبنائه دار خاصة تكون مكتبة عامة لمراجعة أهل العلم في مكان مولد النبي ﷺ كل ذلك على حسابه الخاص ، فرحمه الله تعالى وجزاه عنا خير الجزاء آمين .

انظر: صورة رقم١٣ المنزل الذي بناه الشيخ عباس قطان في موضع ولادة النبي ﷺ
انظر: صورة رقم ١٤ ، موضع ولادة النبي ﷺ بعد بنائه

موضع ولادة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ بمكة

كانت ولادة السيدة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها ابنة رسول الله ﷺ بدار أمها السيدة خديجة بنت خويلد بمكة بزقاق الحجر ، وهذه الدار تقع خلف دار أبي سفيان. قال الأزرقي: إن معاوية رضي الله عنه اشترى منزل خديجة من عقيل بن أبي طالب وهو خليفة فجعله مسجداً وفتح فيه باباً من دار أبي سفيان ابن حرب – وإليك نص ما جاء في تاريخ الأزرقي :

ومنزل خديجة ابنة خويلد زوج النبي ﷺ ، وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ وخديجة وفيه ابتنى بخديجة وولدت فيه خديجة أولادها جميعاً وفيه توفيت خديجة فلم يزل النبي ﷺ ساكناً فيه حتى خرج إلى المدينة مهاجراً فأخذه عقيل بن أبي طالب ثم اشتراه منه معاوية وهو خليفة فجعله مسجداً يصلى فيه وبناه بناءه هذا وحدد الحدود التي كانت لبيت خديجة لم تغير فيما ذكر عن من يوثق به من المكيين وفتح معاوية فيه باباً من دار أبي سفيان بن حرب هو قائم إلى اليوم وهي الدار التي قال رسول الله ﷺ يوم الفتح : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وهي الدار التي يقال لها اليوم دار ريطة بنت أبي العباس أمير المؤمنين ، وفي بيت خديجة هذا صفيحة من حجارة مبني عليها من الجدار جدر البيت الذي كان يسكنه النبي ﷺ قد اتخذ قدام الصفيحة مسجداً ، وهذه الصفيحة مستقبلة في الجدر من الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل وذرعها ذراع في ذراع وشبر .

وقال أبو الوليد : سألت جدي أحمد بن محمد ويوسف بن محمد بن إبراهيم وغيرهما من أهل العلم من أهل مكة عن هذه الصفيحة و لم جعلت هنالك وقلت لهم أو لبعضهم: إني أسمع الناس يقولون إن رسول الله ﷺ كان يجلس تحت تلك الصفيحة فيستدري بها من الرمي بالحجارة إذا جاءته من دار أبي لهب ودار عدي

بن أبي الحمراء الثقفي ، فأنكروا ذلك وقالوا: لم نسمع بهذا من ثبت ولقد سمعنا من يذكرها من أهل العلم فأصح ما انتهى إلينا من خبر ذلك أن أهل مكة كانوا يتخذون في بيوتهم صفائح من حجارة تكون شبه الرفاف توضع عليها المتاع والشيء من الصيني والداجن يكون في البيت فقلّ بيت يخلو من تلك الرفاف ، قال جدي : وأنا أدركت بعض بيوت المكيين القديمة فيها رفاف من حجارة يكون عليها بعض متاع البيت ، قال : فيقولون إن تلك الصفيحة التي في بيت خديجة من ذلك .

ولقد وقعت عمارات كثيرة في موضع ولادتها رضي الله عنها لا نرى ضرورة لذكرها ، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بناية حصلت في موضعه في وقتنا هذا ، وإليك بيان ذلك :

إن موضع ولادة السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ بمكة المعروفة بدار السيدة خديجة رضي الله تعالى عنهما ، قد بنيت الآن فيه عمارة حسنة ، بناها أمين العاصمة الأسبق الشيخ عباس بن يوسف القطان المتوفى عام (١٣٧٠) فابتدأ في بنائها سنة ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية لتكون مدرسة خاصة لتحفيظ القرآن الكريم ، فكم نزل على رسول الله ﷺ من القرآن وهو في هذه الدار ، دار خديجة رضي الله تعالى عنها ، ثم إنه بعد وفاة الشيخ عباس المذكور وتكملة عمارة الدار سلمت لوزارة المعارف لإدارتها مدرسة للغرض المذكور ، والآن هذه الدار عامرة بالطلبة الذين يحفظون القرآن الكريم فجزى الله الشيخ عباس المذكور خير الجزاء .

تكية السيدة فاطمة رضي الله عنها

أول ما جعلت هذه التكية في سنة (١٢٦٥) خمس وستين ومائتين وألف ، فقد ذكر الغازي في الجزء الثالث من تاريخه عند ترجمة وتولية الحاج محمد حسيب باشا مكة ما نصه : ثم إن الباشا المذكور بنى تكية بجانبها "أي بجانب دار أبي سفيان" للفقراء ، والتي تعرف الآن "بتكية فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ" وهي بجوار دار أبي سفيان وهي دار أم المؤمنين خديجة الكبرى التي كان يسكنها النبي ﷺ ، وجعل لها بابين بابا من جهة المحل المعروف بزقاق الحجر ،

والباب الثاني من جهة المسعى في أوائل المحناطة . ثم ذكر الغازي بعض ما عمله الباشا المذكور بمكة لم ننقله لعدم احتياجنا إليه ، واكتفينا بما ذكرناه هنا .

وقد نسبت التكية إلى السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها وعن أمها وإخوانها ؛ لأن هذه التكية تقع في دار أمها السيدة خديجة رضي الله عنها وفاطمة رضي الله عنها قد ولدت في هذه الدار التي هي ملاصقة لدار أبي سفيان رضي الله عنه ، ثم لم تبق في عصرنا هذا التكية المذكورة بل صار موضعها مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم .

موضع ولادة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

كانت موضع ولادة علي بن أبي طالب تعالى عنه بمكة بسوق الليل بأعلى الشعب ، وموضع ولادة علي بقرب موضع ولادة النبي ﷺ بينهما أقل من مائتي متر .

ولقد حصلت عمارات كثيرة في هذا الموضع لا نرى ضرورة لذكرها ، لكن من الواجب أن نشير إلى آخر بناية حصلت فيه في وقتنا هذا بعد أن أصبحت هذه البقعة ميداناً لا بناية فيه مطلقاً . وإليك بيان ذلك :

فإنه في أوائل سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ابتدأوا في بناية دار في هذا الموضع لتكون مدرسة تسمى "مدرسة النجاح الليلية" تكون لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم فن التجويد ، وأنواع العلوم العربية إن شاء الله تعالى ، والذي سعى في ذلك هو الأستاذ الفاضل الشيخ عبدالله خوجة العامل النشيط لمحو الأمية وتهذيب العوام بمكة المشرفة الذي قام بأمر التعليم نحو ربع قرن حتى تخرج من مدرسته كثير من المتعلمين الذين نفعوا أنفسهم وخدموا بلادهم ، فإنه التمس من جلالة مليكنا المعظم الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود أرض مولد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه التي بسوق الليل ليبني عليها مدرسة للغرض المذكور فأمر جلالة الملك حفظه الله تعالى بمنحه تلك الأرض ، فلما سمع بذلك المحسن الكبير السيد حسن الشربتلي من أهل جدة تكفل ببناء المدرسة وبجميع ما يلزم لها على حسابه الخاص – فجزاهم الله تعالى خير الجزاء ، وإن شاء الله سنرى هذه المدرسة مزدهرة عامرة بحفظة القرآن وطلاب العلم .

وبمكة مواضع ولد فيها كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، ذكر أشهرها في بعض كتب التاريخ ؛ كمولد عمر بن الخطاب ومولد جعفر الصادق وغيرهما . وكل ذلك لا يعلم على التحقيق ، ولا يترتب على معرفتها أو جهلها أمر شرعي مطلقاً ، لهذا لم نتعرض لذكرها .

انشقاق القمر

قال الله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ من معجزاته ﷺ انشقاق القمر وذلك لما قال له كفار قريش: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين فسأل ربه فانشق ، وما يشاع إلى اليوم على ألسنة بعض الناس أنه في جبل أبي قبيس موضع خاص لانشقاق القمر يسمى "مشق القمر" فهذا لا أصل له .

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي السنة التاسعة من المبعث كان انشقاق القمر – في المواهب اللدنية أن انشقاق القمر كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، قال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق حديث شعبة بن سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود ثم قال : وله طرق أخر شتى بحيث لا يمتري في تواتره . انتهى .

وجاءت أحاديث انشقاق القمر في روايات صحيحة من جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وعلي وحذيفة بن جبير بن مطعم وابن عمر وأنس وابن عباس وغيرهم .

وفي الصحيحين من حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما . قوله: شِقّتين بكسر الشين المعجمة أي: نصفين . وأنس وإن لم يشاهد القصة لأنه إذ ذاك كان ابن أربع سنين أو خمس بالمدينة ، لكن يجوز أن يكون حمل الحديث عمن شاهدها ومن حديث ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا .

وفي رواية الترمذي من حديث ابن عمر في قوله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ، قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين فلقة دون الجبل وفلقة خلف الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا . وقال مجاهد :

انشق القمر فبقيت فرقة وذهبت فرقة من وراء الجبل . وقال ابن زيد : لما انشق القمر كان يرى نصفه على قعيقعان والنصف الآخر على أبي قبيس ، كذا في دلائل النبوة وعند الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم : فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس . وعن عبدا لله بن مسعود أنه قال : فقال كفار قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السفار فأخبروهم بذلك . رواه أبو داود الطيالسي ورواه البيهقي - بلفظ: انشق القمر بمكة فقالوا : أسحركم ابن أبي كبشة فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه . فقالوا : رأيناه . وعند أبي نعيم عن ابن عباس قال : لما اجتمع المشركون إلى رسول ا لله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق .

وعند البخاري مختصراً من حديث ابن عباس بلفظ : إن القمر انشق على عهد رسول ا لله ﷺ وابن عباس وإن لم يشاهد القصة ؛ لأنه لم يولد إذ ذاك ففي بعض طرقه أنه حمل الحديث عن ابن مسعود وعند مسلم من حديث شعبة عن قتادة بلفظ : فأراهم انشقاق القمر مرتين ، وكذا في مصنف عبدالرزاق عن معمر بلفظ : مرتين ، واتفق الشيخان عليه من رواية شعبة عن قتادة بلفظ : فرقتين كما في حديث جبير عند أحمد وفي حديث ابن عمر فلقتين باللام كما مر ، وفي لفظ في حديث جبير فانشق باثنتين .

وفي رواية عن ابن عباس عند أبي نعيم في الدلائل فصار قمرين . ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي: وانشق مرتين بالإجماع .

قال الحافظ ابن حجر : وأظن قوله بالإجماع يتعلق بالشق لا بمرتين فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ ولعل قائل مرتين أراد فرقتين . وقد وقع في رواية البخاري من حديث ابن مسعود ونحن بمنى وهذا لا يعارض قول أنس أن ذلك كان بمكة ؛ لأنه لم يصرح بأنه عليه السلام كان ليلتئذ بمكة فالمراد أن الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة هذا ما وقع في المواهب اللدنية وفي شواهد النبوة انشق القمر بحيث كان فلقة منه على أبي

قبيس وفلقة على الجبل الآخر ، وفي المواهب اللدنية : وما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه فليس له أصل كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير ، نقول إنما يزعمه بعض الناس من العوام أن موضع انشقاق القمر في محل فوق جبل أبي قبيس لا أصل له أبداً وهذا من الدجل والكذب ؛ لأنه لا يعلم في أي موضع وقف رسول الله ﷺ في جبل أبي قبيس يطلب من ربه عز وجل انشقاق القمر ، ولا يعقل أنه ﷺ يتكلف التعب والمشقة في الصعود إلى الجبل لهذا الأمر أو غيره في وقت لم يكن على الجبل أحد من قريش يسكنه . والله تعالى أعلم . ومما يستحسن ذكر شيء مما قيل في وصف القمر والهلال قديماً وحديثاً .

فللإمام جلال الدين السيوطي رسالة في ذلك تسمى "رصف اللآل في وصف الهلال" وهي مطبوعة بالقسطنطينية بمطبعة الجوائب ضمن كتاب "التحفة البهية والطرفة الشهية" ولصلاح الدين الصفدي رسالة تسمى "رشف الزلال في وصف الهلال" .

ولنقتطف هنا شيئاً مما ورد في الهلال :

قال بعضهم :

وهلال في الأفق قد لاح غرباً ... وتبدى لأعين النظار

كسوار أو دملج أو كطوق ... أو كصدغ أو حاجب أو عذار

وقال بعضهم :

وبدا هلال الأفق والأقوام ... بين مكذب في أمره ومصدق

فكأنما هو شعرة بيضاء قد ... علقت بحاشية الرداء الأزرق

وقال بعضهم :

كأن الهلال المستنير وقد بدا ... ونجم الثريا واقف فوق هالته

مليك على أعلاه تاج مرصع ... ويزهى على من دونه بجلالته

وقال بعضهم :

أنظر إلى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضة ... يحصد من زهر الدجى نرجسا

وقال بعضهم :

أهـلاً بفطـر قـد أتـاك هلالـه فـالآن فـاغْد إلى الصـلاة وبكـر
فكأنما مـن زورق مـن فضـة قـد أثقلتـه حمولـة مـن عنـبر

وقال بعضهم :

بـا لله يـا مصبـاح بيـت الدجـى ويـا أنيـس المعشـر السـاهدين
حدث بوجـدي كـل أهـل الهـوى واقـرأ تحيـاتي علـى العاشـقين

وقال بعضهم :

يبشـر في الهـلال بنقـص عمـري وأفـرح كلمـا هـل الهـلال

قصة أصحاب الفيل

لقد جاء ذكر أصحاب الفيـل مجملاً في القـرآن الكريـم ، فقـال عـز وشـأنه : ﴿بسم ا لله الرحمن الرحيم ۝ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيـل ۝ ألم يجعل كيدهم في تضليل ۝ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ۝ ترميهم بحجارة مـن سـجيل ۝ فجعلهم كعصف مأكول﴾ .

قال صاحب مرآة الحرمين : كانت واقعة الفيل سنة (٥٧١) ميلادية ، وكانت ولادة النبي ﷺ عام الفيل .

أما قصتهم فرأينا أن ننقلها من تاريخ الإمام الأزرقي رحمه ا لله تعالى فقد جـاء في الجزء الأول منه ما نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، قال : حدثنا سعيد بن سالم عـن عثمـان بن ساج عن محمد بن إسحاق أنه قال : لما ظهرت الحبشة علـى أرض اليمـن كـان ملكهم إلى أرياط وأبرهة ، وكان أرياط فوق أبرهة ، فأقام أرياط باليمن سـنتين في سلطانه لا ينازعه أحد ، ثم نازعه أبرهة الحبشي الملك وكان في جند مـن الحبشـة ، فانحاز إلى كل واحد منهما إلى الحبشة طائفة ، ثم سار أحدهما إلى الآخـر ، فكـان أرياط يقوم بصنعاء ومخاليفها ، وكان أبرهة يكون بالجند ومخاليفهـا ، فلمـا تقـارب الناس ودنى بعضهم من بعض ، أرسل أبرهة إلى أرياط : إنـك لا تصنـع بـأن تلقـي الحبشة بعضهم ببعض فتفنيها بيننا ، فابرز لي وأبرز لك ، فأينـا مـا أصـاب صاحبـه انصرف إليه جنده .

فأرسل إليه أرياط : قد أنصفت ، فخرج إليه أرياط وكان رجلاً عظيماً طويلاً وسيماً وفي يده حربة له ، وخرج له أبرهة وكان رجلاً قصيراً حادراً لحيماً دحداحاً وكان ذا دين في النصرانية ، وخلف أبرهة عبداً له يحمي ظهره له يقال له "عتودة" فلما دنى أحدهما من صاحبه ، رفع أرياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفتيه ، فبذلك سمي "أبرهة الأشرم" وحمل غلام أبرهة عتودة على أرياط من خلف أبرهة فزرقه بالحربة فقتله ، فانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وكان ما صنع أبرهة من قتله أرياط بغير علم النجاشي ملك الحبشة بأرض أكسوم من بلاد الحبش .

فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال : عدا على أمير بغير أمري فقتله ، ثم حلف النجاشي ألا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ويجز ناصيته ، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه ثم ملأ جرابه من تراب أرض اليمن ثم بعث به إلى النجاشي وكتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا في أمرك ، وكلنا طاعة لك إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة منه ، وأضبط وأسوس لهم منه وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت به إليه مع جراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر بذلك قسمه . فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب له أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري فأقام أبرهة باليمن ، وبنى أبرهة عند ذلك "القليس" ، بصنعاء إلى جنب غمدان فبنى كنيسة وأحكمها وسماها القليس وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة : أني قد بنيت لك كنيسة لم ين مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف حاج العرب إليها ، قال أبو الوليد: أخبرني محمد بن يحيى قال : حدثني من أثق به من مشيخة أهل اليمن بصنعاء أن يوسف ذا نواس – وهو صاحب الأخدود الذي حرق أهل الكتاب بنجران – لما غرقه الله عز وجل وجاءت الحبشة إلى أرض اليمن فعبروا من دهلك حتى دخلوا صنعاء وحرقوا غمدان وكان أعظم قصر يعلم في الأرض وغلبوا على اليمن وبنى أبرهة الحبشي القليس للنجاشي وكتب إليه أني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله ولن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركون الحج إلى بيتهم . فبنى القليس بحجارة قصر بلقيس الذي بمأرب . وبلقيس صاحبة الصرح الذي ذكره الله في القرآن في قصة سليمان وكان سليمان حين تزوجها ينزل عليها فيه إذا جاءها . انتهى من الأزرقي .

صفة بناء كنيسة القليس

قال الإمام الأزرقي بعد أن ساق قصة الفيل المتقدمة ، وأن أبرهة الحبشي لما بنى كنيسة القليس بصنعاء إلى جنب غمدان كتب إلى النجاشي ملك الحبشة : إني قد بنيت لك كنيسة لم تبن العرب ولا العجم مثلها ، ولن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليها ويتركوا الحج إلى بيتهم .

وكان بناء "القليس" بحجارة قصر "بلقيس" الذي بمأرب ، فوضع الرجال نسقاً يناول بعضهم بعضاً الحجارة والآلة ، حتى نقل ما كان في قصر "بلقيس" مما احتاج إليه من حجر أو رخام أو آلة للبناء وجدّ في بناءه ، وأنه كان مربعاً مستوي التربيع ، وجعل طوله في السماء ستين ذراعاً ، وكبسه من داخله عشرة أذرع في السماء ، وكان يصعد إليه بدرج الرخام ، وحوله سور بينه وبين القليس مائتا ذراع ، مطيف به من كل جانب ، وجعل بين ذلك كله بحجارة تسميها أهل اليمن الجروب ، منقوشة مطابقة لا يدخل بين أطباقها الإبرة مطبقة به ، وجعل طول ما بنى به من الجروب عشرين ذراعاً في السماء ، ثم فصل ما بين حجارة الجروب بحجارة مثلثة تشبه الشرف مداخلة بعضها ببعض ، حجراً أخضر ، وحجراً أحمر ، وحجراً أبيض ، وحجراً أصفر ، وحجراً أسود ، وفيما بين كل سافين خشب ساسم مدور الرأس ، غلظ الخشبة حضن الرجل ناتئة على البناء ، فكان مفصلاً بهذا البناء على هذه الصفة ، ثم فصل بإفريز من رخام منقوش طوله في السماء ذراعان ، وكان الرخام ناتئاً على البناء ذراعاً ، ثم فصل فوق الرخام بحجارة سود لها بريق من حجارة نقم جبل صنعاء المشرف عليها ثم وضع فوقها حجارة صفر لها بريق ، ثم وضع فوقها حجارة بيض لها بريق ، فكان هذا ظاهر حايط القليس وكان عرض حايط القليس ستة أذرع .

وذكروا أنهم لا يحفظون ذرع طول القليس ولا عرضه ، وكان له باب من نحاس عشرة أذرع طولاً في أربعة أذرع عرضاً ، وكان المدخل منه إلى بيت في جوفه ، طوله ثمانون ذراعاً في أربعين ذراعاً ، معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة ، ثم يدخل من البيت إلى إيوان طوله أربعون ذراعاً عن يمينه وعن يساره ، وعقوده مضروبة بالفسيفساء مشجرة بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة ، ثم يدخل من الإيوان إلى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً ، جدرها

بالفسيسفساء وفيها صلب منقوشة بالفسيفساء والذهب والفضة ، وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعة عشرة أذرع في عشرة أذرع ، تغشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدي ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة ، وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ -وهو عندهم الأبنوس- مفصل بالعاج الأبيض ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة ، وكان في القبة سلاسل فضة وكان في القبة أو في البيت خشبة ساج منقوشة طولها ستون ذراعاً يقال لها : كعيب ، وخشبة من ساج نحوها في الطول يقال لها : امرأة كعيب ، كانوا يتبركون بهما في الجاهلية وكان يقال لكعيب : الأحوزي -والأحوزي بلسانهم الحر- .

وكان أبرهة عند بناء القليس قد أخذ العمال بالعمل أخذاً شديداً وكان آلى أن لا تطلع الشمس على عامل لم يضع يده في عمله فيؤتى به إلا قطع يده . قال : فتخلف رجل ممن كان يعمل فيه حتى طلعت الشمس ، وكانت له أم عجوز فذهب بها معه لتستوهبه من أبرهة ، فأتته وهو بارز للناس ، فذكرت له علة ابنها واستوهبته منه ، فقال : لا أكذب نفسي ولا أفسد علي عمالي فأمر بقطع يده ، فقالت له أمه : اضرب بمعولك ساعي بهر ، اليوم لك ، وغداً لغيرك ليس كل الدهر لك . فقال : ادنوها ، فقال لها : إن هذا الملك أيكون لغيري ، قالت : نعم ، وكان أبرهة قد أجمع أن يبني القليس حتى يظهر على ظهره فيرى منه بحر عدن ، فقال : لا أبني حجراً على حجر بعد يومي هذا ، وأعفا الناس من العمل . وتفسير قولها ساعي بهر ، تقول : اضرب بمعولك ما كان حديداً .

فانتشر خبر بناء أبرهة هذا البيت في العرب ، فدعا رجل من النساءة من بني مالك بن كنانة فتيين منهم ، فأمرهما أن يذهبا إلى ذلك البيت الذي بناه أبرهة بصنعاء فيحدثا فيه ، فذهب بهما ففعلا ذلك ، فدخل أبرهة البيت فرأى أثرهما فيه فقال : من فعل هذا ؟ فقيل : رجلان من العرب ، فغضب من ذلك وقال : لا أنتهي حتى أهدم بيتهم الذي بمكة ، قال : فساق الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه فكان من أمر الفيل ما كان . اهـ .

فلم يزل القليس على ما كان عليه ، حتى ولي أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين العباس بن الربيع بن عبيد الله الحارثي اليمن ، فذكر العباس ما في القليس من النقض والذهب والفضة ، وعظم ذلك عنده وقيل له : إنك تصيب فيه مالاً كثيراً

وكنزاً ، فتاقت نفسه إلى هدمه وأخذ ما فيه فبعث إلى ابن وهب بن منبه فاستشاره في هدمه وقال : إن غير واحد من أهل اليمن قد أشاروا عليّ أن لا أهدمه وعظم علي أمر كعيب ، وذكر أن أهل الجاهلية كانوا يتبركون به وأنه كان يكلمهم ويخبرهم بأشياء مما يحبون ويكرهون ، قال ابن وهب : كلما بلغك باطل وإنما كعيب صنم من أصنام الجاهلية فتنوا به ، فمر بالدهل "وهو الطبل" وبمزمار فليكونا قريباً ثم أعلّه الهدامين ثم امرهم بالهدم ، فإن الدهل والمزمار أنشط لهم وأطيب لأنفسهم ، وأنت مصيب من نقضه مالاً عظيماً مع أنك تثاب من الفسقة الذين حرقوا غمدان ، وتكون قد محوت عن قومك اسم بناء الحبش وقطعت ذكرهم .

وكان بصنعاء يهودي عالم ، قال : فجاء قبل ذلك إلى العباس بن الربيع يتقرب إليه فقال له : إن ملكاً يهدم القليس يلي اليمن أربعين سنة .

قال : فلما اجتمع له قول اليهودي ومشورة ابن وهب بن منبه أجمع على هدمه ، قال أبو الوليد : فحدثني الثقة قال : شهدت العباس وهو يهدمه فأصاب منه مالاً عظيماً ، ثم رأيته دعا بالسلاسل فعلقها في كعيب والخشبة التي معه ، فاحتملها الرجال فلم يقربها أحد مخافة لما كان أهل اليمن يقولون فيها ، فدعا بالورديين "وهي العجل" فأعلق فيها السلاسل ، ثم جبذها الثيران وجبذها الناس معها حتى أبرزوها من السور ، فلما لم ير الناس شيئاً مما كانوا يخافون من مضرتها ، وثب رجل من أهل العراق كان تاجراً بصنعاء فاشترى الخشبة وقطعها لدار له فلم يلبث العراقي أن جذم فقال رعاع الناس : هذا لشرائه كعيباً ، قال : ثم رأيت أهل صنعاء بعد ذلك يطوفون بالقليس فيلتقطون منه قطع الذهب والفضة - انتهى من الأزرقي .

خروج أبرهة بالفيل لهدم الكعبة

ثم قال الإمام الأزرقي : ثم رجع إلى حديث ابن إسحاق قال : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة بذلك إلى النجاشي غضب رجل من النساءة أحد بني فقيم من بني مالك بن كنانة فخرج حتى أتى القليس فقعد فيها - أي أحدث فيها - ثم خرج حتى لحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا؟ فقيل له : صنعه رجل من العرب من أهل البيت الذي تحج العرب إليه بمكة ، لما سمع بقولك: أصرف إليها حاج العرب ، فغضب فجاءها فقعد فيها ، أي أنها ليست لذلك

بأهل ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج بالفيل معه فسمعت بذلك العرب فأعظموه وقطعوا به ورأوا أن جهاده حق عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة -بيت الله الحرام- فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له : ذو نَفْر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وإلى مجاهدته عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخرابه فأجاب من أجابه إلى ذلك ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر فأتى به أسيراً فلما أراد قتله ، قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني فعسى أن يكون مقامي معك خيراً لك من قتلي ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً ورعاً ذا دين في النصرانية ، ومضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج إليه ، حتى إذا كان في أرض خثعم عرض له بنفيل بن حبيب الخثعمي في قبائل خثعم شهران وناهس ومن اتبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به فقال له نفيل : أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي على قبائل خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة ، فأعفاه وخلى سبيله وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون وليس لك عندنا خلاف وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد -يعنون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم ، وبعثوا معه أبا رغال يدله على مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزلهم بالمغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت العرب قبره ، فهو قبره الذي يرجم بالمغمس وهو الذي يقول فيه جرير بن الخطفى :

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبي رغال

فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على فيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وخزاعة وكنانة وهذيل ومن كان في الحرم بقتاله ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة فقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل لهم إن الملك يقول لكم: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا

البيت فإن لم تعرضوا لي بقتال فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فأتني به ، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبدالمطلب ، فأرسل إلى عبدالمطلب فقال له بما قال أبرهة ، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت إبراهيم خليله عليه السلام أو كما قال . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه وإن يخل بيته وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ، فقال له حناطة : فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ قال ذو نفر : وما غناء رجل أسير في يدي ملك ينتظر أن يقتله بكرة أو عشية ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سايس الفيل صديق لي فسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك وتكلمه فيما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . قال : حسبي ، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والجبل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب الملك له مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة وهو يطعم الناس بالسهل والجبل والوحوش في رؤوس الجبال فأذن له عليك فليكلمك في حاجته ، فأذن له أبرهة ، وكان عبدالمطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة معه على سريره فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ، قال له الترجمان : إن الملك يقول لك ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يرد الملك عليّ مائتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، تكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، قال عبد المطلب : إني أنا رب إبلي وإن للبيت رباً سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك ، قال ابن إسحاق : وقد كان فيما يزعم بعض أهل العلم قد ذهب مع عبدالمطلب إلى أبرهة

حين بعثه إليه حناطة الحميري بعمر بن نفاثة بن عدي بن الذيل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وهو يومئذ سيد بني بكر وخويلد ابن واثلة الهذلي وهو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت فأبى عليهم، والله أعلم أكان ذلك أم لا، وقد كان أبرهة رد على عبدالمطلب الإبل التي كان أصاب.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبدالمطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال خوفاً عليهم من معرة الجيش ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله عز وجل ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب إن المرء يمنع ... رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا ... فأمر ما بدا لك

ولئن فعلت فإنه ... أمر يتم به فعالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. وقال عبدالمطلب أيضاً:

قلت والأشرم تردي خيله ... إن ذا الأشرم غر بالحرم

كاده تبع فيما جندت ... حمير والحي من آل قدم

فانثنى عنه وفي أوداجه ... حارج أمسك منه بالكظم

نحن أهل الله في بلدته ... لم يزل ذاك على عهد إبرهم

نعبد الله وفينا شيمة ... صلة القربى وإيفاء الذمم

إن للبيت لرباً مانعاً ... من يرده بآثام يصطلم

يعني إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

ولما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مجمع لهدم الكعبة ثم الانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل فالتغم أذنه فقال: ابرك

محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، فوجهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب غير الغالب

وقال نفيل أيضاً حين ولّوا وعاينوا ما نزل بهم :

ألا حييت عنا يا ردينا ... نعمناكم مع الإصباح عينا

ردينة لو رأيت ولن تريه ... لدا جنب المحصب ما رأينا

إذاً لعذرتني وحمدت أمري ... ولم تأسى على ما فات بينا

حمدت الله إذ عاينت طيراً ... وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل ... كان علي للحبشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم تسقط أنملة أنملة كلما سقطت منه أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء و هو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون وأقام بمكة فلال من الجيش وعسفاه وبعض من ضمه العسكر ، فكانوا بمكة يعتملون ويرعون لأهل مكة .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب في ذلك العام ، وأنه أول ما رؤي بها من مراير الشجر الحرمل والحنظل والعشب من ذلك العام .

قال أبو الوليد: وقال بعض المكيين: إنه أول ما كانت بمكة حمام اليمام، حمام مكة الحرمية ذلك الزمان، يقال إنها من نسل الطير التي رمت أصحاب الفيل حين خرجت من البحر من جدة، ولما هلك أبرهة ملّك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة وبه كان يكنى، ثم ملك بعد يكسوم أخوه مسروق بن أبرهة، وهو الذي قتله الفرس حين جاءهم سيف بن ذي يزن وكان آخر ملوك الحبشة وكانوا أربعة فجميع ما ملكوا أرض اليمن من حين دخلوها إلى أن قتلوا ثلاثين سنة.

ولما رد الله سبحانه عن مكة الحبشة وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشاً وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم، فجعلوا يقولون في ذلك الأشعار يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما دفع عن قريش من كيدهم ويذكرون الأشرم والفيل ومساقه إلى الحرم، وما أراد من هدم البيت واستحلال حرمته.

قال ابن إسحاق: حدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة عن عائشة أم المؤمنين، قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. قال ابن إسحاق: فلما قتلت الحبش ورجع الملك إلى حمير سُرّت بذلك جميع العرب لرجوع الملك فيها وهلاك الحبشة، فخرجت وفود العرب جميعها لتهنئة سيف بن ذي يزن، فخرج وفد قريش، ووفد ثقيف، وعجز هوازن وهم نصر وجشم وسعد بن بكر ومعهم وفود عدوان وفهم ابني عمرو بن قيس فيهم مسعود بن معتب، ووفد غطفان، ووفد تميم، وأسد، ووفد قبائل قضاعة والأزد، فأجازهم وأكرمهم وفضل قريشاً عليهم في الجائزة لمكانهم في الحرم وجوارهم بيت الله تعالى.

قال أبو الوليد: وحدثني عبد الله بن شبيب الربعي قال: حدثنا عمرو بن بكر بن بكار قال: حدثني أحمد بن القاسم الربعي مولى قيس بن ثعلبة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها لتهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، فأتاه وفد قريش وفيهم عبدالمطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد في ناس من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء وهو في قصر له يقال له: غمدان، وهو الذي يقول فيه الشاعر أبو الصلت الثقفي أبو أمية بن أبي الصلت:

لا تطلب الثأر إلا كابن ذي يزن	خيم في البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقلاً وقد شالت نعامتهم	فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم	تخالهم فوق متن الأرض أجيالا
بيض مرازبة غلب أساورة	أسد يربين في الغيضات أشبالا
لله درهم من فتية صبر	ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
لا يضجرون وإن حزت مغافرهم	ولا نرى منهم في الطعن ميالا
أرسلت أسداً على سود الطلاب	أضحى شريدهم في الناس فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً	في رأس غمدان داراً منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
فالتط بالمسك إذا شالت نعامتهم	وأسبل اليوم في برديك إسبالا

فاستأذنوا عليه فأذن لهم فإذا الملك متضمخ بالعنبر يلصف ووميض المسك من مفرقه إلى قدمه وسيفه بين يديه ، وعن يمينه وعن يساره الملوك وأبناء الملوك ، فدنا عبد المطلب فاستأذن في الكلام فقال له سيف بن ذي يزن : إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملك فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب : إن الله عز وجل قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً ، منيعاً ، شامخاً ، باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، وأنت أبيت اللعن رأس العرب ، وربيعها الذي تخصب به وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ، ومعلقها الذي تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أبهجنا لكشفك الكرب الذي فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال: وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف . قال : ابن أختنا ، قال : نعم ، قال : ادن ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلاً ، وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم ، قال : ثم قال : انهضوا إلى دار الضيافة

والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف ، قال : وأجرى عليهم الإنزال .

ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه وأخلا مجلسه ثم قال : يا عبد المطلب إني مفوض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك يكون لم أبح به له ، ولكني وجدتك معدنه فأطلعتك طلعه وليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره ، إني أجد في الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خبراً جسيماً وخطراً عظيماً فيه شرف للحياة وفضيلة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . قال : أيها الملك مثلك سر وبر فما فداك أهل الوبر والكدر زمراً بعد زمر . قال : فإذا أولد بتهامة غلام به علامة كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة ، فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما آب بمثله وافد قوم ، ولولا هيبة الملك وإعظامه وإجلاله لسألته من سارة آبائي ما أزداد به سروراً ، فإن رأى الملك أن يخبرني بإفصاح فقد أوضح لي بعض الإيضاح ، قال: هذا حينه الذي يولد فيه وقد ولد اسمه محمد بين كتفيه شامة ، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان ، ويكسر الأوثان ويخمد النيران ، قوله فصل وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله ، قال : فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال له : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا كعبك ، فهل أحسست من أمره شيئاً ؟ قال: نعم أيها الملك ، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً فزوجته كريمة من كرائم قومه ، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كل ما ذكرت من علامة .

قال له : والبيت ذي الحجب ، والعلامات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لجده غير الكذب ، وإن الذي قلت ، لكما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله تعالى لهم عليه سبيلاً ، فاطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة ، من أن تكون لك الرئاسة فيبتغون لك الغوائل ، وينصبون لك الحبائل ، وهم فاعلون أو أبناؤهم ولولا أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي ، حتى أصير

يثرب مملكته فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق ، أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصره ، وموضع قبره ، ولولا أني أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأوطأت أسنان العرب كعبه ، ولأعليت على حداثة سنه ذكره ، ولكني صارف ذلك إليك ، عن غير تقصير بمن معك ، ثم أمر لكل رجل منهم بمائة من الإبل وعشرة أعبد ، وعشر إماء وعشرة أرطال ذهب ، وعشرة أرطال فضة وكرش مملوءة عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك ، ثم قال له : ائتني بخبره ، وما يكون من أمره عند رأس الحول ، فمات سيف بن ذي يزن من قبل أن يحول الحول .

وكان عبد المطلب يقول : أيها الناس لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد ، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي شرفه وذكره وفخره ، فإذا قيل له : وما ذاك ؟ يقول : ستعلمن ولو بعد حين ، وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جلبنا النصح نحقبها المطايا ... إلى أكوار أجمال ونوق

مفلفلة مراتعها تعالى ... إلى صنعاء من فج عميق

تؤم بنا ابن ذي يزن وتغري ... ذوات بطونها أم الطريق

ونرعى من مخايلها بروقاً ... مواقفة الوميض إلى بروق

ولما وافقت صنعاء صارت ... بدار الملك والحسب العريق

قال أبو الوليد : وقد ذكر الله تعالى الفيل وما صنع بأصحابه ، فقال : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ إلى آخرها ، ولو لم ينطق القرآن به لكان في الأخبار المتواطئة والأشعار المتظاهرة في الجاهلية والإسلام حجة وبيان لشهرته وما كانت العرب تؤرخ به فكانوا يؤرخون في كتبهم وديونهم من سنة الفيل ، وفيها ولد رسول الله ﷺ ، فلم تزل قريش والعرب بمكة جميعاً تؤرخ بعام الفيل ، ثم أرخت بعام الفجار ، ثم أرخت ببنيان الكعبة ، فلم تزل تؤرخ به حتى جاء الله بالإسلام فأرخ المسلمون من عام الهجرة ، ولقد بلغ من شهرة أمر الفيل وصنع الله بأصحابه واستفاضة ذلك فيهم حتى قالت عائشة رضي الله عنها على حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسايسه أعميين ببطن مكة يستطعمان . وقد ذكر غير واحد من أحداث قريش أنه رآهما أعميين ، انتهى من الأزرقي .

وسنعيد هنا في الصحيفة الآتية قصة الفيل في قالب أدبي إن شاء الله تعالى .

نقول : وبعد هلاك جيش أبرهة بالمغمس أرسل الله عليهم سيلاً جارفاً ألقاهم في البحر كما ذكر ذلك بعض المؤرخين وهذا معقول حتى لا ينتشر الوباء من جثث الموتى بجهة عرفات ، وتصل إلى مكة وما حولها ، والمقصود بالبحر بحر جدة ، فإن المغمس به مسيل يسيل منه السيل إلى اليوم ، يمر بعرفات ثم ينزل منها إلى مزدلفة فمنى وينزل منها إلى جهة حراء إلى شعبة أذاخر ثم يمر إلى جهة بحرة بطريق جدة إلى أن يصب في البحر الأحمر ، هذا إذا كان السيل قوياً ، وبالضرورة كان السيل الذي جرف جيش أبرهة قويا جداً .

وتأمل في كلام نفيل بن حبيب الخثعمي مع فيل أبرهة الذي يسمونه "محمود" الذي ذكره ، وذلك حينما وجهوا الفيل محمود إلى مكة حينما أراد أبرهة دخول مكة ، فإن نفيل بن حبيب أقبل حتى قام إلى جنب الفيل فالتقم أذنه فقال له : "ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام" ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل ، فضربوا الفيل فأبى . . . إلى آخر القصة المذكورة .

فمن هو نفيل بن حبيب ، وكيف يخاطب الفيل وهو حيوان لا يعقل ، ثم كيف أن الفيل استمع إليه وأطاع أمره فلم يتوجه إلى مكة مهما ضربوه ، لكنه كان يهرول إلى جهة المشرق أو المغرب أو اليمن . لا شك أن كل ذلك بإلهام من الله سبحانه وتعالى كرامة لبيته المعظم وبلده الأمين .

قال بعض فضلاء عصرنا عن حادثة الفيل ما يأتي:

بعث الرسول لأمة أمية	لا حاكمون بها ولا حكماء
ما عندهم جيش يصد عدوهم	ولذاك يوم الفيل عز لقاء
فروا من الميدان وانسحبوا بلا	حرب فقامت فتنة عمياء
قالوا: لهذا البيت رب قادر	يحميه مما رامه الأعداء
فإذا برب البيت يصدر أمره	للطائرات فيستحر بلاء
ألقت قذائفها فنالت مقتلاً	منهم وأصحاب الحمى شهداء
قد كان هذا حال أمة يعرب	لكنهم بعد الهدى سعداء
تركوا الهوى وتوحدوا في دولة	قد نظمت ويديرها رؤساء
الذكر دستور وفيها حاكم	ولها جيوش قادها بسلاء

هزوا عروش الفرس والروم الآلى كانت لهم مدينة زهراء

بيت بَرْمَك

ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن السنجاري : أن الزمخشري ذكر في كتابه "ربيع الأبرار" ونوبهار بلخ قال : بناه أحد أجداد خالد بن برمك عارض به الكعبة ، وكانوا يطوفون به ويحجه أهل مملكتهم ويلبسونه الحرير ، وكان بيتاً حول أروقته ثلاثمائة وستون مقصورة ، يسكنها خدامه وقوامه ، وكان من يليه يسمى "برمكا" ، وانتهت البرامكة إلى خالد بن برمك فأسلم على يد عثمان وسماه عبدا لله . انتهى .

بيت غطفان

وذكر الغازي في تاريخه : قال السنجاري ، قلت : وفي القاموس "وبُس" بالضم بيت لغطفان بناها ظالم بن أسعد لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت الحرام وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ورجع إلى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين وقال : هذان الصفا والمروة ، فاجتزؤا به عن الحج ، فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه . انتهى .

وصف قصة الفيل

بقلم الدكتور طه حسين

انتهينا من قصة الفيل التي ذكرها الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى . والآن نحب أن نعيد هذه القصة لا على لغة المؤرخين ، وإنما على لغة أهل الأدب ، لحلو ذوقها وتنوعِ طعمها . على حد قوله ﷺ كما في البخاري وغيره : «إن من البيان لسحراً» . فإليك القصة بقلم أديب مصر وكاتب العصر الأستاذ العظيم "الدكتور طه حسين" وزير المعارف الأسبق بمصر في زماننا ، كما جاءت في الجزء الأول من كتابه "على هامش السيرة" عند كلامه على راهب الإسكندرية ، فقد صاغ الدكتور طه حسين على لسان هذا الراهب لرئيس الدير وأهله ، حكاية النجاشي

وأبرهة حتى وصل إلى عزم أبرهة على هدم بيت الله الحرام . ومن هنـا نحن ننقل من كلامه ما يأتي :

قال حفظه الله تعالى : وفي ذات يوم رفـع إلى أبرهـة أمران ضـاق بهمـا أشـد الضيق ، وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأنـاة . أصبح سـدنة الكنيسـة فـرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم : رأوا كنيستهم قـد لطخـت بالقـاذورات ، وألقيـت فيهـا الجيف ، وانتهكت حرمتها ، فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة ، وزعمـوا لـه أن هـذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يـأتون مـن تهامـة ، حيـث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه ويحجون إليه ويسمونه الكعبة والعرب كلها تحج إليه وتعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشـون حولـه مـن هـذا الحـي الـذي يسـمى قريشـاً ، والذي يتجر بين بلادنا وبلاد الشام . فلما سمع الملك ذلك غضب أشـد الغضـب ، وأقسم ليهدمن هذا البيت وليحملن العرب على أن يحجـوا إلى كنيسته بالسـيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . و لم يكد النهـار يتقـدم حتـى رفعـت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلـوا ذلـك الرجـل الـذي أرسـله إليهـم ملكـاً ، فطار طائره ، وثار ثائره ، وأذن من فـوره بـالتجهز للحـرب والاستعداد لـلرحيل ، وأرسل إلى النجاشي ينبئه بذلك ، ويسأله أن يمده بالجنود والفيلة . وما هي إلا أيـام حتى تهيأ له جيش ضخم قوي ، وحتى فصلنا عـن صنعـاء يملؤنـا الأمـل وتزدهينـا الكبرياء . وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سـنقطع هـذه الطريـق علـى طولهـا في غـير مشقة ولا جهد ، وبأننا سنصل بين الشام واليمن ، وبأني سأستقبله ضيفـاً في بـلاد القيصر ، كما استقبلني ضيفاً في بلاد النجاشي . وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا في الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقيالها .

ولكن طريقنا لم تخل مع ذلك من العقاب و لم تكن آمناً كلها ، فقد نصب لنـا الحرب جماعة من أقيال اليمـن علـى رأسـهم رجـل يقـال لـه ذو نفـر ، غـيرة علـى وثنيتهم ، وحفيظة لبيتهم ذلك ، ودفاعاً عن حلفائهم من قريـش ، ولكنـا هزمنـاهم في غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهم الملك أن يقتله ، ثم رق له وعفا عنـه ، واستبقاه في أسره . ومضينا أمامنا لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامـة اليمـن ، وإذا حي من أحيائها قوي عظيم البأس مسـلط علـى الأرض ، متحكـم في الطريـق وفي القوافل التي تقطعها ، يقال له خثعم ، قد جمع لحربنا ، وغـره عـدده فخيـل إليـه أنـه سيقهرنا كما تعود أن يقهر الناس من قبل . ولكـن قهرنـاه في أقصـر وقـت وأيسـر

جهد ، وأخذنا رئيسه رجلاً يقال له نفيل بن حبيب أسيراً وهم الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا في الاستعطاف حتى ظفر بعفو الملك ، وتقدم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريق هذا البيت الذي كنا نقصد إليه . ونمضي في طريقنا لا نلقى كيداً ، وقد هابتنا العرب وخلت لنا الطريق ، وأعظمت أمرنا إعظاماً حتى إذا دنونا من مكة ، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف ، تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدائق ، فيها أنواع الفاكهة والثمر كأنها مدينة من مدن الساحل الشامي قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجدبة فأقامت فيها مشرفة زاهية كأنها الابتسامة الجميلة في الوجه المظلم الكئيب ، خرج إلينا هنالك أهل هذه المدينة فقدموا الطاعة وأظهروا الخضوع ، وبعثوا معنا رجلاً منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق ونمضي أمامنا حتى نبلغ مكة ، فينيخ الجيش يستريح قبل أن يأخذ في الهجوم . ويأتي سفراء القبائل إلى الملك من كل مكان يقدمون إليه طاعتهم ويعرضون عليه ثلث أموالهم ، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء ، فلا يسمع الملك منهم ولا يحفل بهم . ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ما حول مكة من الأرض وتستاق كل ما تجد فيه من مال . حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها ، فإذا لقوه أنبئوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم ، وإنما يريد أن يهدم هذا البيت فإن خلوا بينه وبين البيت فهم آمنون ، وإلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقاً وأمر الملك سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم . ويمضي السفراء ثم يعودون ومعهم رجل عظيم ، وسيم جسيم ، لم أر قط أجمل منه ، ولا أملأ للعين ، ولا أوقع في القلب ، ولا أشد مهابة وجلالاً . حتى إذا بلغوا به سرادق الملك دخلوا يستأذنون له . ويسأل الملك عنه فيقال له : هذا عبد المطلب سيد قريش وصاحب عيرها ، أعظمها شرفاً ، وأعلاها مكانة ، وأكرمها نفساً ، وأسخاها يداً ، يطعم الناس في السهل ويطعم الوحوش في رؤوس الجبال وكنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل ، ورأيت الملك ينظر إليه فيكبره ويعظمه ، ويلقاه بالتجلة والكرامة ، ويهم أن يجلسه معه على السرير ، ولكنه يشفق أن تنكر الحبشة ذلك ، فينزل عن سريره ويجلس مع هذا الرجل على البساط . ثم يكلف الترجمان أن يسأله حاجته . فما أشد ما عجب الملك حين فسر الترجمان له جواب سيد قريش . قال : حاجتي أن ترد إليّ مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال . قال الملك مستهزئاً : لقد أعظمتك حين

رأيتك ، فإني لأصغر من شأنك الآن . لقد كنت أظن أنك ستحدثني في بيتك هذا الذي أريد أن أهدمه ، والذي هو دينك ودين آبائك وشرفك وشرف آبائك ، فإذا أنت تحدثني في مائتين من الإبل . قال سيد قريش في صوت الهادئ الواثق المطمئن : أنا رب الإبل ، فلأحدثك فيها ، فأما البيت فإن له رباً سيمنعه . قال الملك : لن يمنعه مني . قال سيد قريش : فأنت وذاك . وأمر الملك أن ترد إلى الشيخ إبله ، فردت إليه .

ولكني تبعته لأرى ما يكون من شأنه ، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هدياً إلى هذا البيت ، الذي لم يرد أن يتحدث إلى الملك فيه ويمضي هذا الشيخ إلى قومه من قريش ، فيأمرهم أن يفرقوا في الشعاب وعلى رؤوس الجبال هرباً من الملك ، وإشفاقا من معرة الجيش ، ويقوم أمام بيته هذا الذي يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ، ومن حوله نفر من قومه ويقول كلاماً حسن الانسجام شديد الوقع في النفس ، سمعته فأحببته ولكني لم أفهمه ، على أني كنت قد أخذت أحسن هذه اللغة . ثم يرسل حلقة الباب ، ويمضي مع من كان يصحبه من قومه فيتحصن في شعب من الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة فإذا هي قد خلت من أهلها ، وقامت بيوتها هادئة ساكنة ، يظلها حُزن عميق فيه هيبة وجلال . قامت بظلها هذا الحزن ، و لم أكن أرى في هذا الحزن خوفاً ولا إشفاقاً من معاول الهادمين . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهمّ الجيش أن يتحرك وفي مقدمته فيل عظيم ، ولكني أرى دليلنا نفيل بن حبيب الخثعمي يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويسر فيها كلاماً . ثم يرسلها ويشتد هارباً في الجبل . وتثير حركة هذا الرجل في نفسي شيئاً من العجب ، فما علمت أنه يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . وعجبت ، وليت عجبي لم يتجاوز هذه القصة ، ولكني رأيت بعد ذلك ما يقضي على كل عجب . رأيت بعد ذلك أشياء ما قدرت قط أنني سأرى بعضها . رأيت بعد ذلك أشياء وددت لو لم أرها قط .

وإني على ذلك لسعيد أشد السعادة ، مغتبط أشد الغبطة ، لأني رأيتها ، فهي التي هدتني إلى الحق ، وهي التي كشفت عن نفسي الغطاء . رأيت الفيل قد برك ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد . ويجد ساسته بعد ذلك في إنهاضه فلا يبلغون منه شيئاً ، يحثونه ويؤذونه ويضربونه ، ويبلغون به أقصى ما يهيج الفيل فلا ينهض ولا يهم بالنهوض . حتى

إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مهرولاً ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك و لم يتقدم أمامه إصبعاً ، ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يطلق بعض الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت ، وإنا لفي ذلك ننظر إلى الساسة وهم يعالجون الفيل ، وإذا الجو يظلم شيئاً فشيئاً ، وإذا سحاب كثيف يبدو لنا من بعيد ، قد أقبل إلينا مسرعاً من ناحية البحر ، فلا نكاد نطيل النظر إليه حتى نتبين ، ويا هول ما نتبين ، لسنا نرى سحاباً كالسحاب ، ولا غماماً كالغمام ، وإنما نرى سحاباً حياً يخفق بأجنحته خفقاً ، ويبعث منظره في نفوسنا روعاً يخرجنا عن أطوارنا وينتهي بنا إلى شيء يشبه الذهول . إني لأرى الآن السحاب حين كان يقبل علينا أسراباً من طير صغار ، لها مناقير الطير وأكف الكلاب ، حتى إذا دنت منا أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها وأرجلها . و لم تكن هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحمصة ، وإنما كانت شيئاً بين بين ، وكانت على دقتها لا تمس شيئاً إلا هشمته تهشيما ، ولا تمس رجلاً إلا ألقته صريعاً وسلوا ما شئتم عن خوف الخائفين وذعر المذعورين وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحول الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جاداً في الهرب ، وهذه الأسراب من الطير تتبعه ، تحصبه بهذه الحجارة وتملأ الجو من حوله بصياح مخيف .

ولست أدري كيف انتهى أمرنا ، ولا كيف نجونا من هذه الطير ولكني أراني مجداً في الهرب ، ومن حولي قوم يجدون مثلي في الهرب ، وقد حملوا رجلاً مريضاً سيء الحال . حتى إذا انقطعت أصوات الطير ، ونظرنا فلم نر في السماء شيئاً ، أخذت أسأل عن نفسي وعمن حولي وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذي أراه محمولاً يتأذى ، فإذا هو أبرهة ، قد مسه حجر من تلك الحجارة فصرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلاً قليلاً ، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديد منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل أو كم احتمل من ألم في نفسه وجسمه ، وكم ذاق من مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة . إني لأراه حين بلغنا صنعاء ، وأدخل إلى قصره ليمرض فيه وقد هزل ومسه الضر ، حتى لكأنه فرخ من فراخ الطير . على أن حياته لم تمتد في قصره ، وإنما ألح الألم عليه إلحاحاً شديداً وأقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إلي ، فلما سألت كيف مات ، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديث الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم وقلوبهم، فأغرقوا في شيء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع في تفكير عميق بعيد ولست أدري كم أنفقوا من الوقت في هذا الوجوم الصامت، ولكني أعلم أن رجلاً منهم شاباً لم تكن قد تقدمت به السن بعد، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه حين قال بصوت متهدج تقطعه العبرات تقطيعاً: إن لهذا البيت في مكة لشأناً. قال الشيخ: نعم، إن لهذا البيت في مكة لشأناً، وإن هذا الشأن هو الذي اضطرني إلى أن أعود من اليمن مسرعاً ما وسعتني السرعة حتى أبلغ مصر وأنتهي إلى الإسكندرية وأقسم ما حفلت بأهلي ولا بوطني ولا بشركائي في التجارة ولا أتحْتُ لأحد منهم أن يسألني من أمري عن قليل أو كثير، وإنما فرقت فيهم مالي تفريقاً، وحملت منه ما استطعت حمله، ومضيت إلى الشام يحسبني الناس تاجراً يبتغي الربح، وإنما كنت سائحاً أبتغي هذا الدير لأدخله، فأخرج من الحياة ولذاتها، وآمالها وغرورها، وأفرغ للعبادة وطاعة الله.

وإني لأرجو لو امتدت بي الحياة أن أعود إلى هذا البيت في مكة لا غازياً ولا باغياً ولا قاصداً إلى شر، بل تائباً ثائباً منيباً مستغفراً من هذا الإثم الذي شاركت فيه. وإلى أن يتيح الله لي هذه الأوبة إلى مكة، إن كان قد قدر لي أن أراها مرة أخرى، فسأقيم معكم ألقى من تلقون من هؤلاء الذين يأتون من مكة، ويعودون إليها، فأتحدث إليهم وأسمع منهم، وأنا لهم بما أستطيع أن أنالهم به من إحسان.

وأذن مؤذن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حجراتهم، فتفرقوا وما في نفوسهم رغبة في سمر ولا ميل إلى حديث، وما منهم إلا من يفكر في هذا البيت الذي أحجم عنه الفيل، ورجمته طير أبابيل، ترمي عدوه بحجارة من سجيل، فإذا هم كعصف مأكول. انتهى من كتاب على هامش السيرة.

نطق فيل أبرهة لعبد المطلب

ومما يناسب قصة الفيل، الحكاية الواردة في كتاب "النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم" المطبوع سنة (١٣٠٨) هجرية بمطبعة الحلبي بمصر، وهي هذه والله تعالى أعلم بصحتها:

الفصل السادس في نطق الفيل: لما بلغ عبد المطلب قدوم أبرهة لهدم بيت الله الحرام، قال: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم هذا البيت لأن لهذا البيت رباً

يحميه ويحفظه . ثم جاء أبرهة فاستاق إبل قريش وغنمهم وساق لعبد المطلب أربعمائة ناقة فركب عبد المطلب في قريش حتى بلغ ثبير واستدارت دائرة غرة رسول الله ﷺ على جبينه أي جبين عبد المطلب كالهلال ، وانتشر شعاعها على البيت الحرام مثل السراج فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال : يا معشر قريش ارجعوا قد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور مني إلا كان الظفر لنا فرجعوا متفرقين .

فبلغ ذلك أبرهة فبعث إليه رجلاً من قومه ، فأقبل الرجل حتى دخل مكة ، فسأل عن كبير الناس فقيل له عليك بعبد المطلب فلما دخل ونظر وجهه ذعر وخضع وتلجلج لسانه وخر مغشياً عليه فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه ، فلما أفاق خر ساجداً لعبد المطلب وقال : أشهد أنك سيد قريش حقاً . وذلك أنه لم يكن أحد من الناس يدخل مكة إلا خر ساجداً إكراماً من الله عز وجل لمحمد ﷺ ، فلما بلغ الرسول رسالة أبرهة ركب عبد المطلب في نفر من قريش وسبقه الرسول حتى دخل على أبرهة وقال له : يا سيداه ويا مولاه ، قد جاءك اليوم سيد قريش حقاً قال له : ويلك كيف علمت ذلك ؟ قال : لأني لم أر في الآدميين أتم جمالاً منه وما أشبه لونه إلا باللؤلؤ المكنون وأعلم أنه لا يمر على شيء إلا خر له ساجداً . قال : فأخذ الملك أحسن زينته ثم أذن له في الدخول فدخل عليه وهو قاعد على سرير ملكه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قام قائماً وأخذ بيده وأقعده على سرير ملكه ، وأقبل أبرهة ينظر في وجه عبد المطلب ، ثم قال له : يا عبد المطلب هل كان أحد من آبائك له مثل هذا النور والجمال ؟ فقال له عبد المطلب : نعم أيها الملك كل آبائي كان لهم مثل هذا النور والبهاء . فقال له الملك : وأنتم قوم فاخرتم الملوك فخراً وشرفاً وبهذا حق لك أن تكون سيد قومك ثم التفت الملك أبرهة إلى سائس الفيل وكان له فيل عظيم أبيض وكان ذلك الفيل لا يسجد للملك أبرهة كما تسجد سائر الفيلة ، فقال الملك لسائس الفيل : أخرجه ، فأخرجه وقد زين بكل زينة على وجه الأرض فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجداً ونادى الفيل بلسان الآدميين السلام على النور الذي يخرج من ظهرك يا عبد المطلب ، معك العز والشرف لا تذل ولا تغلب أبداً . فلما نظر الملك رجف وارتعد وظن أن ذلك كله سحر فبعث في تلك الساعة إلى السحرة الذين في عسكره فجمعهم وقال لهم : الويل لكم حدثوني عن هذا الفيل وشأنه لا يسجد لي ويسجد لعبد المطلب . فقال السحرة : أيها الملك إن

الفيل لم يسجد لعبد المطلب ولكنه سجد لنور يخرج من ظهره في آخر الزمان يقال له محمد يملك الدنيا وتذل له ملوك الأرض ولا يدين إلا بدين صاحب هذا البيت يعنون بذلك إبراهيم وملكه أعظم من ملكك وملك أهل الدنيا ، فأذن لنا أيها الملك أن نقبل يديه ورجليه . فأذن لهم ، فقامت السحرة يقبلون يدي عبد المطلب ورجليه ، وقام الملك وحيداً متواضعاً وقبّل رأس عبد المطلب وأمر له بجائزة عظيمة وقال : سل حاجتك . فقال : إبلي التي أخذت . فأمر بردها عليه من ساعتها ، ثم قال أبرهة : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم ذهلت فيك حين كلمتك وعملت أقصى منهبك في طلبك إياي أن أرد عليك إبلا أصبتها وتركت بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ولا تكلمني فيه . فقال عبد المطلب : إن الإبل هي لي وأنا ربها وأنت أخذتها فأطلب منك ردها إذ صارت في ملكك وحكمك وأما البيت فإن له رباً وهو ربنا ورب كل شيء وسيمنعك عنه . فرد أبرهة عليه إبله ، ثم انصرف عبد المطلب . انتهى من الكتاب المذكور .

انتهت هذه الحكاية نقلاً من كتاب النطق المفهوم المذكور ، لمؤلفه الحافظ الهمام أحمد بن طغر بك رحمه الله تعالى ، وهو كتاب عجيب قيم ، يبحث عن نطق بني آدم ونطق الحيوان ، والحشرات والنباتات ، والجمادات من كل جنس ونوع ، ونعتقد أن هذا الكتاب فريد في بابه لم يؤلف مثله أحد على منواله . وهو مطبوع بمصر . وقد نقلنا عنه الحكاية المذكورة لطرافتها ، وقد تكون موضوعة ، وقد تكون صحيحة ، و لله خرق العوائد ، وليس ببعيد أن لا يسمع كلام الفيل أحد سوى عبد المطلب تكرمة له .

وفي الحقيقة أن نطق الفيل ، أو الحيوان الأعجم ، أو الجمادات ليس ممنوع شرعاً ، فقد يقع كل ذلك على سبيل المعجزة والكرامة . وهذا هدهد سليمان عليه السلام مذكور في القرآن الكريم في سورة النمل ، وهذا الحجر الذي كان يسلم على رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، كما جاء في صحيح مسلم وغيره : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث » .

وهذه بقرة بني إسرائيل والذئب اللذان تكلما ، فقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت : إني لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث ، فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة

فطلبه حتى استنقذها منه ، فقال له الذئب : هنا استنقذتها مني ، فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري ، فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر » .

وأمثال هذه الأمور كثيرة وردت في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد ورد أمثالها بكثرة لنبينا "محمد" صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين .

وإن كلام فيل أبرهة لجد النبي ﷺ عبد المطلب ، إنما هو كرامة له وبشارة بقرب ميلاده عليه الصلاة والسلام ، وليتيقن قلبه أن أبرهة لن يقدر على هدم بيت الله الحرام . وسيأتي إن شاء الله تعالى في أواخر الكتاب مبحث خاص بهذا الأمر .

مسرحية شعرية في هلاك أصحاب الفيل

عثرنا في إحدى مجلات الإذاعة السورية لسنة (١٣٧٧) هجرية ، على مسرحية شعرية تمثيلية للأستاذ محيي الدين الدرويش ، وهي تقع في فصل واحد وخمسة مشاهد ، تتضمن كيفية هلاك أصحاب الفيل ، ونذر عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة .

فرأينا أن ننقل هنا من المجلة المذكورة ما يختص بقصة أصحاب الفيل فقط ، أما فيما يختص بقصة عبد المطلب لذبح أحد أولاده وهو "عبدالله" والد نبينا "محمد" ﷺ ، فقد ذكرناه في مبحث حفر عبد المطلب لزمزم . يعني أننا قسمنا المسرحية إلى قسمين فما يختص بأصحاب الفيل وهو القسم الأول ذكرناه هنا ، وما يختص بقصة عبدالمطلب وهو القسم الثاني ذكرناه هنالك .

وإليك ما يختص بأصحاب الفيل :

المشهد الأول

على أحد سفوح جبل أبي قبيس يبدو عبدالمطلب وأقاربه وأبناء عمه وأولاده العشرة وأمهاتهم الأربع وقد أخذوا يترقبون وصول الغزاة الأحباش بقيادة (أبرهة) وقد استعانوا بالفيلة لهدم الكعبة والاستيلاء على مكة :

عبدالمطلب منتحباً متوسلاً :

"يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا"

"إن عـدو البيـت مــن عاداكـــا   امنعهـــم أن يخربـــوا قراكـــا"
قــد أجمعــوا أمرهـــم دراكـــا   وأزمعـــوا للكعبـــة انتهاكـــا
فحشـدوا جيشـاً لهـم سـفاكا   وأشـرعوا سـلاحهم فتاكـــا
زئـيرهم قـد طبـق الأفلاكـــا   وشـغل العقـول والإدراكـــا
والفيـل طـود مـائج وأفاكـــا   عينـاه قـد أنذرتـا هلاكـــا
يـــا رب لا تـذر لهـم أفاكـــا   فـــإنهم وحدهــــم عداكـــا

هاتف :

أبشـــر فقـــد نلـــت الأرب   لا مجـــــد إلا للعـــــرب
ســـوف يلاقـــون الـــردى   ويحرقـــون بـــــاللهب
إرادة ا لله قضــــــــــــت   للظلـــم شـــر منقلـــب
أمـــر جـــرى بـــه القضـــا   ونـــــور عبدالمطلـــــب

عبدالمطلب لقومه:

أيهـا القـوم أبشـروا قـد تنـاءت   عـن حمانـا الخطـوب والأرزاء
هـاتف مـن جوانـب الغيـب وافـى   وتهـادت بوحيـه الصحـــراء
أذن ا لله أن يصـــون حمانــــا   مـــا لمـــا يـأذن الإلـــه انتهـــاء
إن للظـــالمين يومـــاً عبوســـاً   يتغنـــى مـــن جانبيـــه الفنـــاء
أمطـري يـا سمـاء فـوق الأعـادي   حمـم الغيـظ ، أمطـري يـا سمـاء

تسمع ضجة الغزاة فيصرخ أحد أتباع عبدالمطلب :

الطواغيــــــت أقبلــــــت   مـــا لنـــا اليـــوم عـــاصم
والمذاكــــــي تدافعــــــت   أيـــن منهـــا القوائـــم

آخر:

والفيـل إذ يختـال فـوق الأرض   كجبـل علـى الـثرى منقـض
وقـد تسـاوى طولـه بـالعرض   عينـاه مثـل الشـرر المرفـض

آخر:

وللحديــــــد جلجلــــــة   وللســـــيوف صلصلـــــة
جلبـــــــة كأنهـــــــا   قـــد اســـتحالت زلزلـــة

عبد المطلب مؤنباً :

ما لي أرى الروع قد جنت نوازيه والعزم منكم قد انهارت صياصيه
أتجزعون وقد وافت بشائرنا والنور أشرق في الأكوان هاديه

أحد أبنائه :

والبيت من يدرأ الأخطار عنه ؟

عبد المطلب :

كفى فإن للبيت رباً سوف يحميه

وقد نذرت سأفديه بخيركم .

عبدالله:

لبيك ، والدنا ، بالروح نفديه

رمز الكرامة مأوى العز كعبتنا لا خير في العيش إن ديست معاليه

المشهد الثاني

يقرب الغزاة ، وتربد السماء بطيور كأنها السحب المترافدة يتبع بعضها بعضاً وفي منسر كل طير حجر .

عبدالمطلب :

أرى السماء قد أربدت معالمها والطير تنقض في آفاقها زمرا
وما شهدت لها فيما مضى شبهاً وفي مناسرها قد حملت حجرا
لا تعجبوا هو أمر الله قد سبقت به المشيئة كان الله مقتدرا
هو القضاء وقد حمت عجائبه من ذا يرد قضاء الله والقدرا

أبو طالب :

قد حومت ودومت وهمهمت ودمدمت
وهذه أحجار أم شهب ونار
تحمل للأعداء رسالة الفناء
فغادرتهم صرعى لم يستطيعوا دفعا
فملأوا الأغوارا وأصبحوا أخبارا

عبدالمطلب لابنه عبدا لله :

بني أرى في الغيـب نـوراً سيشرق　　وأنســامه في كـل أرض سـتعبق

هو الأمل المرجو

عبدا لله :

بوركـــت يـــا أبــــي　　كـأنك مـن نفسـي تقـول وتنطـق

تراجم بعض من تقدم ذكرهم

في السيرة النبوية

نذكر هنا بعض تراجم من تقدم ذكرهم في أثناء السيرة النبوية لمعرفتهم والاطلاع على أخبارهم .

وفاة عبد المطلب جد النبي ﷺ

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : ومن وقائع السنة الثامنة "أي من ولادته ﷺ" وفاة عبد المطلب ، واختلف في سن عبد المطلب حين مات ، فقال السهيلي: إن عبد المطلب مات وعمره مائة وعشرون سنة ، وقال ابن جبير: عمره خمس وتسعون سنة ، وقيل مائة وعشر سنين ، وقيل مائة وأربعون سنة ، وقيل اثنتان وثمانون سنة ، ذكر هذه الأقاويل الأربعة الأخيرة مغلطاي في سيرته وقد عمي قبل موته ودفن على ما ذكره ابن عساكر بالحجون ، كذا في شفاء الغرام ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثمان سنين وشهر وعشرة أيام ، كذا في نور العيون لليعمري ، وفي سيرة مغلطاي ، وقيل ثمان سنين وسئل رسول الله ﷺ ، أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال : نعم أنا يومئذ ابن ثمان سنين ، وفي المواهب اللدنية وسيرة مغلطاي قيل كان ابن تسع سنين ، وقيل عشر ، وقيل ست ، وقيل ثلاث وفيه نظر . قالت أم أيمن : رأيت رسول الله ﷺ يبكي خلف جنازة عبد المطلب . وفي المنتقى توفي عبد المطلب في ملك كسرى هرمز بن أنوشروان .

انتهى من تاريخ الخميس .

ترجمة أبي طالب وأولاده

قال مؤلف تاريخ الخميس : أبو طالب اسمه عبد مناف وجملة أولاده ستة ، أربعة ذكور ، طالب ومات كافراً في غزوة بدر حين وجه المشركون إلى حرب المسلمين وهو أكبر ولده وبه كان يكنى ، وعقيل وجعفر وعلي ، وبنتان أم هانئ وجمانة ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وكان علي أصغرهم ، وكان جعفر أسن منه بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وطالب

أسن من عقيل بعشر سنين ، ذكره ابن قتيبة وأبو سعيد وأبو عمرو ، وأما علي فسيجيء ذكره في الخاتمة في ذكر الخلفاء ، وأما جعفر فقد تقدم ذكر أمه ويكنى أبا عبد الله أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ومعه زوجته أسماء بنت عميس وولدت ثمة بنيه عبد الله ومحمداً وعوناً فلم يزل هنالك حتى قدم على النبي ﷺ وهو بخيبر سنة سبع فحصلت له الهجرتان ، وأما ذكر جواره في أرض الحبشة وما جرى له مع النجاشي فسيجيء في الركن الثاني من حوادث السنة الخامسة من النبوة ، وسيجيء ذكر وفاته وبعض أحواله في الموطن الثامن في سرية مؤتة إن شاء الله تعالى . انتهى من تاريخ الخميس .

كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ

جاء في تاريخ الخميس ما نصه :

ومن وقائع السنة الثامنة "أي من ولادته ﷺ" كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ روي أنه لما مات عبدالمطلب كفل أبو طالب رسول الله ﷺ وضمه إليه وذلك لأن أبا طالب وعبد الله أبا النبي ﷺ كانا من أم واحدة وهي فاطمة بنت عمرو ، وكان الزبير عم رسول الله ﷺ أيضاً من أمهما ، لكن كفالة أبي طالب إما بوصية عبد المطلب وإما لأن الزبير وأبا طالب اقترعا فخرجت القرعة لأبي طالب ، وإما لأن رسول الله ﷺ اختار أبا طالب لكثرة مؤانسته وشفقته ، قيل بل كفله الزبير حتى مات ثم كفله أبو طالب وهذا غلط لأن الزبير شهد حلف الفضول بعد موت عبد المطلب ولرسول الله ﷺ نيف وعشرون سنة وأجمع العلماء أن رسول الله ﷺ شخص مع عمه أبو طالب إلى الشام بعد موت عبد المطلب بأقل من خمس سنين ، فهذا يدل على أن أبا طالب كفله ، ذكره ابن الأثير في أسد الغابة وروي أن أبا طالب كان فقيراً وكان يحبه حباً شديداً وكان لا يحب أولاده كذلك وكان لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج معه متى يخرج . وفي المواهب اللدنية وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال وهلكت المواشي فهلمّ استسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء وما زال يسعى والغلام معه ، فلما صار بإزاء الكعبة وحوله أغيلمة ، فألصق الغلام ظهره بالكعبة ولا زال يشير بإصبعه وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من

هاهنا وهاهنا وأغدق واغلودق وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي ، وفي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثِمال اليتامى عصمةُ للأرامل

الثمال: بكسر المثلثة الملجأ والغياث ، وعصمة الأرامل أي : يمنعهم من الضياع والحاجة ، والأرامل المساكين من الرجال والنساء ، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده أرمل وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً والواحد أرمل وأرملة . وهذا البيت من أبيات قصيدة لأبي طالب ذكرها ابن إسحاق بطولها وهي أكثر من ثمانين بيتاً ، انتهى .

وأنشأ أبو طالب في مدح النبي ﷺ أبياتاً منها هذا البيت :

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا البيت :

ألم تر أن أرسل عبده ... بآياته والله أعلى وأمجد

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الدين والأوثان في الأرض تعبد

وأرسله ضوءاً منيراً وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند

وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً ويصبح رسول الله ﷺ صقيلاً دهيناً كحيلاً وكان رسول الله ﷺ يبغض حضور الأصنام والأعياد مع قومه ، روي أن بوانة كانت صنماً يحضره قريش في كل سنة يوماً ويعظمونه ويعبدونه ويجعلونه عيداً ، وتُنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده إلى الليل ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم النبي ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ﷺ ، فغضب أبو طالب وأعمامه عليه فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إليهم مرعوباً فزعاً فقالوا له : ما الذى رأيت ؟ قال : إني كل ما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه ، فأعاد إلى عيدهم بعد ذلك وكان لم يأكل مما

ذبح على النصب وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ كان يعبد الله وحده قبل أن يوحى إليه ؛ لأنه كان من ورثة دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

انتهى من تاريخ الخميس .

وفاة أبي طالب

جاء في تاريخ الخميس : وفي السنة العاشرة من النبوة أول ذي القعدة وقيل للنصف من شوال السنة الثامنة كذا في الاستيعاب ، مات أبو طالب بعدما خرج من الحصار بالشعب بثمانية أشهر وأحد وعشرين يوماً ، كذا في سيرة اليعمري ، وفي حياة الحيوان مات أبو طالب وكان النبي ﷺ ابن تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً وأبو طالب ابن بضع وثمانين سنة . وفي المواهب اللدنية ابن سبع وثمانين سنة وقيل مات في نصف شوال من السنة العاشرة ، وقال ابن الجوزي قبل هجرته عليه السلام بثلاث سنين . انتهى من تاريخ الخميس .

ترجمة أم هانئ بنت أبي طالب

قال مؤلف تاريخ الخميس : وأما أم هانئ فاسمها فاختة وقيل هند ، أسلمت يوم الفتح ، حكاه أبو عمرو وتزوجها هبيرة بن أبي وهب بن عائد بن عمران بن مخزوم وولدت له أولاداً وهرب إلى نجران ومات مشركاً ، وهي التي صلى النبي ﷺ في بيتها عام الفتح الضحى ثمان ركعات في ثوب واحد مخالفاً بين طرفيه وقال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ، متفق عليه . وعن ابن عباس : دخل رسول الله ﷺ على أم هانئ بنت أبي طالب يوم الفتح وكان جائعاً فقالت : يا رسول الله إن أصهاراً لي قد لجأوا إلي وإن علي بن أبي طالب لا تأخذه في الله لومة لائم وإني أخاف أن يعلم بهم فيقتلهم فاجعل من دخل دار أم هانئ آمناً حتى يسمع كلام الله ، فأمنهم رسول الله ﷺ ، وقال : أجرنا من أجارت أم هانئ ، فقال : هل عندك من طعام نأكله ؟ فقالت : ليس عندي إلا كسرة يابسة وإني لأستحي أن أقدمها إليك ، قال : هلميه ، فكسرهن في ماء وملح ، فقال : هل من إدام ؟ فقالت : ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خلّ ، فقال : هلميه ، فصبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله ثم قال : نعم الإدام الخل يا أم هانئ لا يفقر بيت فيه خل . خرجه بهذا السياق الطبراني وجماعة . انتهى من تاريخ الخميس .

ترجمة عقيل بن أبي طالب

قال مؤلف تاريخ الخميس : وأما عقيل بن أبي طالب فلم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام عقيلاً ويكنى أبا يزيد ، أمه فاطمة بنت أسد . قال العذري : وكان عقيل قد خرج مع كفار قريش يوم بدر فأسر ففداه عمه العباس ، ثم أتى مسلماً قبل الحديبية وشهد غزوة مؤتة ، ذكره أبو عمرو وروي أن النبي ﷺ قال له : يا أبا يزيد إني أحبك حبين ، حباً لقرابتك مني وحباً لما كنت أعلم من حب عمي إياك ، خرجه أبو عمرو والبغوي . وكان عقيل أنسب قريش وأعلم بأيامها ولكنه كان مبغضاً إليهم ؛ لأنه كان يعد مساوئهم وكانت له قطيفة تفرش له في مسجد رسول الله ﷺ يصلي عليها ويجتمع إليه في علم النسب وأيام العرب وكان أسرع الناس جواباً وأحضرهم مراجعة في القول وأبلغهم في ذلك ، خرجه أبو عمرو .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن عقيلاً جاء إلى علي بالعراق فسأله فقال له : إن أحببت أن أكتب لك إلى مالي بينبع فأعطيك منه ، فقال عقيل : لأذهبن إلى رجل هو أوصل لي منك ، فذهب إلى معاوية فصرف ذلك له ، خرجه البغوي . قال أبو عمرو : وكان عقيل غاضَبَ علياً وخرج إلى معاوية وأقام عنده فزعموا أن معاوية قال يوماً بحضرته : هذا أبو يزيد لولا علمه بأني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال عقيل: أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي وقد آثرت دنياي وأسأل الله خاتمة خير . وتوفي عقيل في خلافة معاوية و لم يوقف على السنة التي مات فيها ، ذكره ابن الضحاك .

ترجمة العباس بن عبد المطلب

قال في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم في ترجمته ما يأتي : هو العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ ابن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، يكنى أبا الفضل ، وأمه تنيلة بنت جناب بن كلب ، ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين ، وضاع وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير ، فهي أول من كساه ذلك .

وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة ، أما السقاية فمعروفة ، وأما العمارة فهي عمارة المسجد الحرام فإنه كان لا يدع أحداً يشبب في المسجد الحرام ولا

يقول فيه هُجراً ، لا يستطيعون لذلك امتناعاً لأن قريشاً كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك فكانوا له أعواناً عليه كما ذكره علماء النسب ، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم للتوثق لابن أخيه رسول الله ﷺ ، وشهد بدراً مع المشركين مكرهاً فأسر فافتدى نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث . ولما أسر يوم بدر فيمن أسر كان قد شد وثاقه ، فسهر النبي ﷺ تلك الليلة و لم ينم ، فقال بعض أصحابه : ما يسهرك يا نبي الله؟ فقال : أسهر لأنين العباس ، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه . فقال رسول الله ﷺ : مالي لا أسمع أنين العباس؟ فقال الرجل : أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله ﷺ : فافعل ذلك بالأسرى كلهم . وأسلم عقيب ذلك . وقيل أن سبب إسلامه أنه لما أرسلت قريش فداء أسراها وبقي العباس وابنا أخويه المذكورين أمره رسول الله ﷺ بدفع الفداء عن نفسه وعن ابني أخويه ، فاعتذر بأن لا شيء عنده يفتدي به ، فقال له رسول الله ﷺ : عندك المال الذي أوصيت عليه أم الفضل آخر الليل وقلت لها ادفنيه في موضع كذا ، فإن مت انتفعتم به بعد موتي وإن رجعت رجعت إليه أو كما قال ، فقال له العباس : ومن أخبرك بهذا؟ فقال : أخبرني به جبريل آنفاً ، فقال العباس : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فوالله ما علم به أحد غيري وغير أم الفضل آخر الليل ، فلما تشهد وثب أبو بكر الصديق عليه وحل الوثاق عنه .

والروايات في وقت إسلامه مختلفة ، قيل إنه أسلم قبل الهجرة وكان يكتم إسلامه ، قال ابن عبدالبر: أسلم العباس قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ثم ظهر إسلامه يوم فتح مكة . وقيل إن اسلامه كان قبل بدر . وكان رضي الله عنه يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتقوون به بمكة ، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ : إن مقامك بمكة خير . فلذلك قال رسول الله ﷺ يوم بدر : من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج كارهاً ، وكان العباس رضي الله عنه أشد الناس نصرة لرسول الله ﷺ بعد أبي طالب ، وقال له النبي ﷺ : أنت آخر المهاجرين كما أنني آخر الأنبياء ، ثم قال له لما استأذنه في الهجرة : يا عم أقم مكانك الذي أنت به فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة ، كما أخرجه أبو يعلى الموصلي من رواية سهل بن سعد الساعدي ، ثم هاجر إلى النبي ﷺ . وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة الواجبة إليه ﷺ التي كانت شرطاً في الإسلام لا يقبل دونها ، لا الهجرة عن

محل حكم عليه الكافر فلا ينقطع وجوبها أبداً حتى تنقطع التوبة ، كما رواه أبو داود في سننه عن معاوية ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . رواه في باب الهجرة هل انقطعت في صدر كتاب الجهاد من سننه .

وشهد حنيناً وثبت مع رسول الله ﷺ لما انهزم الناس بحنين كما ثبت معه فيه أبو سفيان بن الحارث في عدد سمى ابن إسحاق منهم سبعة ، وكذلك شهد فتح مكة والطائف وتبوك كما صرح به الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب ، ومن شعره رضي الله عنه لما ثبت يوم حنين قوله :

ألا هل أتى عرس مكري وموقفي ... بواد حنين والأسنة تشرع

وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدي ... وهام تدهدى والسواعد تقطع

وكيف رددت الخيل وهي مغيرة ... بزوراء تعطي باليدين وتمنع

نصرنا رسول الله في الحرب سبعة ... وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

وثامننا لاقى الحمام بسيفه ... بما مسه في الله لا يتوجع

وقد تقدم ذكر الأبيات الأربعة الأول من هذه الأبيات فيما ذكرناه من أشعار الصحابة في الجزء الثاني عند حديث ، لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعراً فذكرتها هنا مع زيادة البيت الخامس في محل ترجمة صاحبها .

وكان رسول الله ﷺ يعظمه ويكرمه بعد إسلامه ، وكان وصولاً لأرحام قريش محسناً إليهم ذا رأي سديد وعقل غزير ، وقال النبي ﷺ له : هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفاً وأوصلها رحماً ، وقال : هذا بقية آبائي ، وقد دخل العباس على النبي ﷺ يوماً مغضباً فقال : ما أغضبك؟ فقال : يا رسول الله ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة وإذا لقونا لقونا بغير تلك ، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه ثم قال : والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله ، ثم قال : أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه ، وروي عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ومنزلي ومنزل إبراهيم تجاهين في الجنة ومنزل العباس بن عبدالمطلب بيننا مؤمن بين خليلين ، وروي أن النبي ﷺ قال فيه : « العباس مني وأنا منه » ، وروي عن العباس قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : علمني يا رسول الله شيئاً أدعو به ، قال : فقال :

سل ا لله العافية ، ثم أتيته مرة أخرى ، فقلت: يا رسول ا لله علمني شيئاً أدعو به ، يا عم رسول ا لله سل ا لله العافية في الدنيا والآخرة ، وعنه أيضا رضي ا لله تعالى عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ : ذاق طعم الإيمان من رضي با لله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً .

وروى ابن أبي الزناد عن أبيه عن الثقة أن العباس بن عبد المطلب لم يمر بعمر ولا بعثمان وهما راكبان إلا نزلا حتى يجوز العباس إجلالاً له ويقولان : عم النبي ﷺ ، وروي أن عمر بن الخطاب كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس ، فقد أخرج البخاري في أبواب الاستسقاء وفي كتاب المناقب في ذكر العباس بن عبد المطلب عن أنس رضي ا لله عنه أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون ، اهـ . بلفظه في الموضعين .

قال ابن عبدالبر في الاستيعاب : وكان سبب ذلك أن الأرض أجدبت إجداباً شديداً على عهد عمر زمن الرمادة وذلك سنة سبع عشرة ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن بني اسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء ، فقال عمر : هذا عم رسول ا لله ﷺ وصنو أبيه وسيد بني هاشم ، فمشى إليه عمر وشكا إليه ما فيه الناس من القحط ثم صعد المنبر ومعه العباس ، فقال : اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، الخ ما رواه ابن عبدالبر ، ثم قال : وروينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقي وخرج معه العباس ، فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ﷺ ونستشفع به فاحفظ فيه لنبيك ﷺ كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما وأتيناك مستغفرين ومستشفعين الخ ما رواه .

وقد افتخر الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بسقيا ا لله لأهل الحجاز بعمه العباس في قوله:

بعمي سقا ا لله الحجاز وأهله ... عشية يستسقي بشيبته عمر
توجه بالعباس في الجدب راغباً ... فما كر حتى جاد بالديمة المطر

وقال حسان بن ثابت :

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا ... فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ... ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت   مخضرة الأجناب بعد اليأس

قال ابن عبدالبر في الاستيعاب بعد ذكره روايات لحديث توسل عمر بالعباس مؤداها واحد مع اختلاف قليل في ألفاظها ما نصه : وهذه الألفاظ كلها لم تجئ في حديث واحد ولكنها جاءت في أحاديث جمعتها واختصرتها و لم أخالف شيئاً منها وفي بعضها فَسُقوا والحمد لله . وفي بعضها قال : فأرخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض وعاش الناس ، فقال عمر رضي الله عنه : هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل والمكان ، ثم قال : وطفق الناس بالعباس يمحون أركانه ويقولون هنيئاً لك ساقي الحرمين .

قال ابن شهاب : كان أصحاب رسول الله ﷺ يعرفون للعباس فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه . قال ابن الأثير في أسد الغابة : وكفاه شرفاً وفضلاً أنه يعزى بالنبي ﷺ لما مات و لم يخلف من عصباته أقرب منه ، وكان له من الولد عشرة ذكور منهم الفضل وعبيد الله وقثم وعبدالرحمن ومعبد والحارث وكثير وعون وتمام وكان أصغر ولد أبيه وله من الأحاديث خمسة وثلاثون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على حديث واحد منها وهو حديث المتن عندنا ، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بثلاثة روى عنه بنوه عبدالله وهو أبو ملوك بني العباس وكثير وعبيدالله وعامر بن سعد وأضرّ العباس في آخر عمره ، وتوفي بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب وقيل بل رمضان سنة اثنتين وثلاثين على أكثر الروايات ، وقيل سنة ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين ، وكانت وفاته قبل قتل عثمان بسنتين وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان طويلاً جميلاً أبيض ذا ضفيرتين ولما أسر يوم بدر لم يجدوا قميصاً يصلح عليه إلا قميص عبدالله ابن أبي بن سلول فألبسوه إياه ولهذا لما مات عبدالله بن أبي كفنه رسول الله ﷺ في قميصه ، وقد أعتق العباس سبعين عبداً كما وردت به الأحاديث ، ودخل قبره ابنه عبدالله بن عباس كما صرح به ابن عبدالبر في الاستيعاب وبالله تعالى التوفيق . وهو الهادي إلى سواء الطريق .

انتهى من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

وجاء في تاريخ الخميس ما نصه : العباس بن عبدالمطلب أمه تنيلة ويقال لها تنلة ، وقد تقدم ذكرها ويقال إنها أول عربية كست البيت الحرام الديباج وأصناف

الكسوة وذلك أن العباس ضل وهو صبي فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرام فوجدته ففعلت ويكنى أبا الفضل.

(ذكر صفته)، وكان رضي الله عنه جميلاً جسيماً أبيض له ضفيرتان معتدل القامة، وقيل كان طوالاً . عن جابر أن الأنصار لما أرادوا أن يكسوا العباس حين أسر يوم بدر فلم يصلح عليه إلا قميص عبدالله بن أبي بن سلول فكساه إياه فلما مات عبدالله بن أبي بن سلول ألبسه النبي ﷺ قميصه وتفل عليه من ريقه، قال سفيان: فظن أنه مكافأة لقميص العباس، خرجه ابن الضحاك وأبو عمرو وكان مولده قبل الفيل بثلاث سنين وكان أسن من النبي ﷺ بسنتين وقيل بثلاث.

وعن أبي رزين قال: قيل للعباس أيكما أكبر أنت أو النبي ﷺ ؟ قال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله، خرجه ابن الضحاك وهو أصغر أولاد عبد المطلب غير عبدالله، كذا في المواهب اللدنية . وعن ابن عمر مثله خرجه البغوي في معجمه وغيره.

وكان العباس في الجاهلية رئيساً في قريش وإليه عمارة المسجد الحرام والسقاية بعد أبي طالب، أما السقاية فمعروفة وأما عمارة المسجد الحرام فكان لا يدع أحداً يشبب فيه ولا يقول فيه هجراً وكانت قريش قد اجتمعت وتعاقدت على ذلك، فكانوا له عوناً عليه وأسلموا ذلك إليه . ذكره الزبير ابن بكار وغيره من علماء النسب، حكاه أبو عمرو، والتشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء وكأنه أراد إنشاد ذلك في المسجد، والهجر بالضم الهذيان والقول الباطل ويطلق على الكلام الفاحش وذكر شهوده بيعة العقبة سيجيء في الركن الثاني.

(ذكر إسلامه) قال أهل العلم بالتاريخ: كان إسلام العباس قديماً وكان يكتم إسلامه وخرج مع المشركين يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرهاً فأسره أبو اليسرة كعب بن عمرو ففادى نفسه ورجع إلى مكة ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً، قاله أبو سعيد وقيل إنه أسلم يوم بدر فاستقبل النبي ﷺ يوم الفتح بالأبواء وكان معه يوم فتح مكة وبه ختمت الهجرة . وقال أبو عمرو: أسلم قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويسر بما يفتح الله على المسلمين وأظهر إسلامه يوم فتح مكة وشهد حنيناً والطائف وتبوك ويقال إن إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون بمكة يثقون به، وكان يحب القدوم على رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله

ﷺ أن مقامك بمكة خير لك وعن شرحبيل ابن سعد قال : لما بشر أبو رافع رسول الله ﷺ بإسلام العباس بن عبد المطلب أعتقه ، خرجه أبو القاسم السهمي في الفضائل .

وفي المواهب اللدنية قال عليه الصلاة والسلام للعباس : يا عم لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيك فإن لي فيكم حاجة ، فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءته ثم قال : يا رب هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه ، قال : فأمّنت أسكفة الباب وحوائط البيت ، فقالت : آمين آمين آمين . رواه ابن غيلان وأبو القاسم حمزة والسهمي ورواه ابن السري وفيه : فما بقي في البيت مدرة ولا باب إلا أمن .

(وذكر وفاته) توفي رضي الله عنه في خلافة عثمان قبل مقتله بسنتين بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة ، وقيل : لأربع عشرة ليلة خلت من رجب ، ولم يذكر صاحب الصفوة غيره ، وقيل : من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل : ثلاث وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وقيل : سبع وثمانين سنة بعد أن كف بصره أدرك منها في الإسلام اثنتين وثلاثين سنة ، وصلى عليه عثمان ، ودفن بالبقيع ، ودخل في قبره ابنه عبدالله ، مروياته في كتب الحديث خمسة وثلاثون حديثا . انتهى من تاريخ الخميس .

ترجمة أبي جهم بن حذيفة القرشي

ترجمة أبي جهم "بفتح الجيم وسكون الهاء" كما في الجزء الرابع من كتاب الإصابة بصحيفة ٣٥ هو أبو الجهم بن حذيفة ابن غانم القرشي العدوي ، قيل اسمه عامر وقيل عبيدالله هو من مسلمة الفتح وهو أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب وهو أيضاً أحد الأربعة الذين تولوا دفن عثمان ولما أصيب عثمان أرادوا الصلاة عليه فمنعوا فقال أبو الجهم دعوه فقد صلى الله عليه ورسوله كان من معمري قريش ومن مشيختهم حضر بناء الكعبة مرتين حين بنتها قريش وحين بناها ابن الزبير ، روى ابن أخي الأصمعي في النوادر عن عمه عن عيسى بن عمر قال : وفد أبو جهم على معاوية ثم على يزيد ثم ذكر قصة له مع ابن الزبير وثبت ذكره في الصحيحين من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : صلى النبي ﷺ في خميصة لها أعلام فقال : اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم

وائتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي . انتهى من كتاب الإصابة . الخميصة قيل هي كساء مربع من صوف ، والأنبجانية هي بفتح الهمزة وكسرها وبفتح الباء وكسرها وبتشديد الياء وتخفيفها . انتهى من الإصابة .

وفي الصحيحين أو في صحيح مسلم فقط عن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له . انكحي أسامة » . قاله لها لما طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص البتة ، فخطبها أبو جهم ومعاوية بن أبي سفيان . قوله : صعلوك بضم الصاد أي : فقير . والمعنى : أن أبا جهم يضرب زوجته كثيراً ، وقيل : هو كناية عن كثرة مسافرته لكن الوجه الأول أولى لما جاء في بعض الروايات : «أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء» .

انتهى من كتاب مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار .

ترجمة حكيم بن حزام

حكيم بن حزام هو الذي أرسلته قريش مع أبي سفيان بن حرب إلى مرّ الظهران يستطلعون خبر رسول الله ﷺ حينما قدم لفتح مكة . كما سبق الكلام عنه .

جاء في تاريخ الخميس عنه ما يأتي : وفي هذه السنة "أي السنة الثامنة" أيام فتح مكة أسلم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي ويكنى أبا خالد .

وعن أم مصعب بن عثمان قالت : دخلت أم حكيم بن حزام الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل متم بحكيم بن حزام ، فضربها المخاض في الكعبة فأتيت بنطع حيث أعجلتها الولادة فولدت حكيم بن حزام في الكعبة على النطع ، وكان حكيم من سادات قريش ووجوهها في الجاهلية والإسلام .

وعن مصعب بن عبدالله قال : جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها بعد من معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف درهم ، فقال له عبدالله بن الزبير : بعت مكرمة قريش . فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى يا ابن أخي إني اشتريت بها داراً في الجنة أشهدك أني جعلتها في سبيل الله عز وجل .

وعن أبي بكر بن أبي سليمان ، قال : حج حكيم بن حزام معه مائة بدنة قد أهداها وجللها الحبرة وكفها عن أعجازها ووقف مائة وصيف يوم عرفة وفي أعناقهم أطواق الفضة نقش في رؤوسها عتقاء الله عن حكيم بن حزام وأعتقهم وأهدى ألف شاة .

وعن هشام بن عروة عن أبيه أن حكيم بن حزام أعتق في الجاهلية مائة رقبة وفي الإسلام مائة رقبة وحمل على مائة بعير ، قال حكيم : نجوت يوم بدر ويوم أحد فلما غزا النبي ﷺ مكة خرجت أنا وأبو سفيان نستروح الخبر ، فلقي العباس أبا سفيان فذهب به إلى النبي ﷺ فرجعت ودخلت بيتي فأغلقته علي ، ودخل النبي ﷺ مكة فأمن الناس فجئته فأسلمت وخرجت معه إلى حنين.

وعن محمد بن عمر قال : قدم حكيم بن حزام المدينة ونزلها وبنى بها داراً ومات بها سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرون سنة ، كذا في الصفوة وسيجيء في الخاتمة . انتهى من تاريخ الخميس .

الإسراء والمعراج

قال الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

فالإسراء خاص بذهاب رسول الله ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، والمعراج خاص بعروجه عليه الصلاة والسلام من المسجد الأقصى إلى السموات العلا فما فوقها ، وقد يكون الإسراء والمعراج بمعنى واحد.

ونحن هنا نذكر أولاً بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في الصحيحين عن الإسراء والمعراج ، ثم نذكر قصة ذلك بالتفصيل التام من التواريخ المعتمدة فنقول وبالله التوفيق :

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقدَّ ما بين هذه إلى هذه فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي بماء زمزم ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل من هذا ؟ قال: جبريل قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت فردا ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يوسف ، قال: هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرده ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء . ففتح فلما

خلصت إذا إدريس ، قال : هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل: من هذا؟ قال : جبريل ، قيل: ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل: مرحباً به فنعم المجيء ، جاء ففتح فلما خلصت إذا هارون قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل: ومن معك؟ قال : محمد ، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت إذا موسى قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، قيل له : ما يبكيك؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي . ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال: نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام ، فقال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح . ثم رُفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال : هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، قلت : ما هذان يا جبريل؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع لي البيت المعمور ، فقلت : يا جبريل ما هذا؟ قال : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، ثم فرض عليّ خمسون صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً . فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً . فأُمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني

قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قلت : سألت ربي حتى استحييت منه ولكني أرضى وأسلم ، فلما جاوزت نادني مناد : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي .

(رواه) البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ .

معنى قوله ﷺ في أول الحديث المذكور : « فقدَّ ما بين هذه إلى هذه » الإشارة من نقرة نحره إلى ما تحت سرته ، والقد بتشديد الدال الشق طولاً ، والمراد بلفظ "هجر" قرية قريبة من المدينة وليست هجر البحرين وكانت تعمل بها القلال ، وقوله : « فأخذت اللبن » قالوا : يحتمل أنه عرضت عليه ﷺ آنية اللبن مرتين مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ، وفي مسلم أن إتيناه بالآنية كان ببيت المقدس قبل المعراج ، وقوله ﷺ في آخر الحديث : « فلما جاوزت نادني مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي » قالوا إن هذا من أقوى ما يستدل به على أنه ﷺ كلمه ربه ليلة الإسراء بغير واسطة . وأيضاً يؤخذ ذلك من قوله ﷺ : « قلت سألت ربي حتى استحييت منه » كما يؤخذ ذلك أيضاً من الحديث الآتي « فراجعت ربي ... الخ » .

وجاء في الصحيحين أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل ، قال: هل معك أحد؟ قال : نعم معي محمد ، قال : فأُرسلَ إليه ؟ قال : نعم ، ففتح فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدَة وعن يساره أَسْوِدَة ، فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك وإذا نظر قِبَل شماله بكى ، ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية ، فقال لخازنها : افتح ، فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح قال أنس : فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وابراهيم صلوات الله

عليهم . ولم يُثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة . فلما مررت بإدريس قال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس ، ثم مررت بموسى ، قال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى ، ثم مررت بعيسى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم مررت بإبراهيم ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت : من هذا؟ قال: هذا إبراهيم . ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ، فقال موسى : ماذا فرض ربك على أمتك ؟ قلت : فرض علي خمسين صلاة ، قال لي موسى : فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعت ربي فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال : راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعت ربي فقال : هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك فقلت : قد استحييت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك .

رواه البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ إلا قوله: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام فإنه عن ابن عباس وأبي حبة البدري رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ .

المراد بكلمة "الأسودة" الواردة في أول الحديث المذكور هو الجماعة من بني آدم ، والنسم بفتحتين جمع نسمة وهي الروح أي أرواح بني آدم عليه السلام ، وقوله ﷺ في آخر الحديث: « ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ » الجنابذ جمع جُنْبُذ بضم الجيم والباء وهو ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة .

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث « بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آت ... الخ » ما نصه :

(تنبيه) لا يخفى على من وفقه الله تعالى لفهم كتابه العزيز وسنة رسول الله ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام أسري بجسده الشريف إلى المسجد الأقصى ثم عرج بجسده أيضاً إلى سدرة المنتهى بل فوقها كما في الأحاديث الصحاح بروايات

متعددة ويكفي من كون الإسراء والمعراج كانا بجسده الشريف قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ۞ عند سدرة المنتهى ۞ عندها جنة المأوى ۞ إذ يغشى السدرة ما يغشى ۞ ما زاغ البصر وما طغى ۞ لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

فهاتان الآيتان صريحتان في الإسراء بجسده الشريف والعروج به أيضاً لأن آية الإسراء مبدأ الإسراء وآية النجم ذكرت منتهاه الذي هو صريح في المعراج بجسده الشريف وحديث المعراج الثابت في الصحيحين وغيرهما المشتمل على ركوبه على البراق الصريح في كون المعراج بجسده الشريف بينما تضمنه القرآن من أول الإسراء إلى منتهى المعراج ونعم البيان الذي أرشد إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ فلم يبق لمن عاند من الجهال إلا تكذيب القرآن وتكذيب النبي عليه الصلاة والسلام المبين للقرآن أتم بيان وهو كفر صريح أعاذنا الله منه ومما يجر إليه . انتهى من شرح زاد المسلم .

قال الشاعر البليغ في الإسراء والمعراج :

سريتَ من حرم ليلاً إلى حرم	كما سرى البدر في داج من الظُلَم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة	من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها	والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم	في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شَأْواً لمستبق	من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ	نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أي مستتر	عن العيون وسر أي مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك	وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما وليت من رُتَبٍ	وعز إدراك ما أوليت من نعم
بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا	من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته	بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقال أيضاً في الإسراء والمعراج :

فطوى الأرض سائراً والسموا	ت العلا فوقها له إسراء

فصف الليلة التي كان للمختـ ـتار فيها على البراق استواء

وترقى به إلى قاب قوسيـ ـن وتلك السيادة القعساء

رتب تسقط الأماني حسرى دونها ما وراءهن وراء

ثم وافى يحدث الناس شكراً إذ أتته من ربه النعماء

وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء

وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء

ويدل الورى على الله بالتو حيد وهو المحجة البيضاء

وجاء في شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس ... الخ» أن العراقي قال في ألفية السيرة عن الإسراء وتكذيب قريش ما يأتي:

وبعد عام مع نصف أسريا به إلى السماء حتى حظيا

من مكة الغرا إلى القدس علا ظهر البراق راكباً ثم علا

إلى السماء معه جبريل فاستفتح الباب له يقول

مجيباً إذ قيل له من ذا معك محمد معي فرحب الملك

ثم تلاقى مع الأنبياء وكل واحد لدى سماء

ثم علا لمستوى قد سمعا صريف الأقلام بما قد وقعا

ثم دنا حتى رأى الإلها بعينه مخاطباً شفاها

أوحى له سبحانه ما أوحى فلا تسل عن ما جرى تصريحا

وفرض الصلاة خمسين على أمته حتى لخمس نزلا

والأجر خمسون كما قد كانا وزاده من فضله إحسانا

فصدق الصديق ذو الوفاء وكذب الكفار بالإسراء

وسألوه عن صفات القدس رفعه إليه روح القدس

جبريل حتى حقق الأوصافا له فما طاقوا له خلافا

لكنهم قد كذبوا وجحدوا فأهلكوا وفي العذاب أخلدوا

وقوله: "وبعد عام مع نصف أسريا ... الخ" أي بعد عام ونصف من تاريخ وفد جن نصيبين المذكور في الألفية. انتهى من زاد المسلم.

ويروى أن النبي ﷺ أسري به وهو في بيت أم هانئ رضي الله تعالى عنها بمكة وسنحقق إن شاء الله تعالى موضع دار أم هانئ ونضعه في آخر هذا المبحث لمعرفتها .

قصة الإسراء والمعراج

"نقلاً من تاريخ الخميس"

يحلو للمؤمن أن يقرأ بالتفصيل ويفهم بالتدقيق كل لنا تطويل الشرح فيها والإسهاب في وصفها ، ورأينا أن الله تعالى رحمة للعالمين ، نبينا وشفيعنا "محمد" صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ولما كان قصة الإسراء والمعراج من أهم حالات وأخباره عليه الصلاة والسلام ، فإنه يطيب حالة من حالات خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي أرسله ننقل ذلك من كتاب "تاريخ الخميس" لما فيه من التفصيل الوافي والبيان الكافي ، ولم نتصرف في عباراته بشيء غير أننا بوبنا الأبحاث فجعلنا لكل مسألة عنواناً ، فنقول وبالله التوفيق وعليه الاعتماد والتكلان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

جاء في الجزء الأول من تاريخ الخميس ما نصه : وفي السنة الثانية عشر من النبوة وقع المعراج وما تضمنه وفرضت الصلوات الخمس في الإسراء وستجيء كيفيتها ، وفي الاستيعاب وسيرة مغلطاي بعد سنة ونصف من حين رجوعه من الطائف . قاله ابن قتيبة . وقال ابن شهاب عن ابن المسيب: قبل خروجه إلى المدينة بسنة .

وفي المواهب اللدنية : لما كان في شهر ربيع الأول أسري بروحه وجسده يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سموات ، ورأى ربه بعين رأسه وأوحى إليه ما أوحى وفرض عليه الصلوات الخمس ، ثم انصرف في ليلته إلى مكة فأخبر بذلك فصدقه الصديق وكل من آمن بالله وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد بيت المقدس فمثله الله له فجعل ينظر إليه ويصفه وسيجيء تفصيل ذلك كله .

اختلف العلماء في الإسراء هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة يقظة أو مناماً أو إسراءان كل واحد في ليلة مرة بروحه وبدنه ومرة مناماً أو يقظة بروحه وجسده

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم مناماً من المسجد الأقصى إلى العرش أو هي أربع إسراءات .

وفي سيرة مغلطاي اختلف في المعراج والإسراء هل كانا في ليلة واحدة أم لا ، وهل كانا أو أحدهما يقظة أو مناماً ، وهل كان المعراج مرة أو مرات والصحيح أن الإسراء كان في اليقظة بجسده وأنه مرات متعددة وأنه رأى ربه بعين رأسه ﷺ .

عام الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : واختلف في تاريخ الإسراء في أي سنة كان وفي أي شهر وفي أي يوم من الشهر وفي أي ليلة من الأسبوع ، فأما سنة الإسراء فقال الزهري : كان ذلك بعد المبعث بخمس سنين ، حكاه القاضي عياض ورجحه القرطبي والنووي ، وقيل : قبل الهجرة بسنة ، قاله ابن حزم وادعى فيه الإجماع ، رواه ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن عباس وأنس وحكاه البغوي في معالم التنزيل عن مقاتل ، وقيل : قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر . قاله السدي ، وأخرجه من طريق الطبري والبيهقي . فعلى هذا يكون في شوال ، وفي أسد الغابة قال السدي قبل الهجرة بستة أشهر وقيل كانا قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر فعلى هذا يكون في ذي الحجة وبه جزم ابن فارس ، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين ذكره ابن الأثير . كذا في المواهب اللدنية .

شهر الإسراء ويومه وليلته

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وأما شهر الإسراء فقيل ربيع الأول قاله ابن الأثير والنووي في شرح مسلم ، وقيل : ربيع الآخر . قاله الحربي والنووي في فتاويه ، وقيل : رجب . حكاه ابن عبدالبر وقبله ابن قتيبة وبه جزم النووي في الروضة ، وعن الواقدي رمضان ، وعن السدي والماوردي شوال ، وعن ابن فارس ذو الحجة كما مر .

وأما أن الإسراء في أي يوم من الشهر كان . فعن ابن الأثير ليلة سبع من ربيع الأول ، وعن الحربي في ثالث عشر من ربيع الآخر ، وقيل : ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر وعن الواقدي في سابع عشر من رمضان .

وأما ليلة الإسراء فقيل ليلة الجمعة وقيل ليلة السبت ، وعن ابن الأثير ليلة الاثنين ، وقال ابن دحية : إن شاء الله يكون ليلة الاثنين ليوافق المولد والمبعث والمعراج والهجرة والوفاة ، فإن هذه أطوار الانتقالات وجوداً ونبوة ومعراجاً وهجرة ووفاة ، كذا في المواهب اللدنية .

وفي سيرة اليعمري : ولما بلغ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر ، أسري به من بين زمزم والمقام وكذلك في حياة الحيوان ، وإنما كان ليلاً لتظهر الخصوصية بين جليس الملك ليلاً وجليسه نهاراً . انتهى من تاريخ الخميس .

جاء في كتاب "الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات وفيما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" تأليف العلامة الكبير الشيخ محمد بن بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقاً ، والمتوفى في عصرنا الحاضر ، رحمه الله تعالى ما نصه :

وإنما أسري به ﷺ ليلاً لمزيد الاحتفال به عليه الصلاة والسلام ، فإن الليل وقت الخلوة والاختصاص ومجالسة الملوك ، ولا يكاد يدعو الملك لحضرته ليلاً إلا من هو خاص عنده ، وقد أكرم الله تعالى فيه قوماً من أنبيائه بأنواع الكرامات ، وهو كالأصل للنهار ، وأيضاً الاهتداء فيه للمقصد أبلغ من الاهتداء في النهار ، وأيضاً قالوا : إن المسافر يقطع في الليل ما لا يقطع في النهار ، ومن هنا جاء : عليكم بالدلجة ، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار ، وأيضاً أسري به ليلاً ليكون ما يعرج إليه من عالم النور المحض ، أبعد عن الشبه بما يعرج منه من عالم الظلمة وذلك أبلغ في الإعجاب .

وقال ابن الجوزي في ذلك : إن النبي ﷺ سراج ، والسراج لا يوقد إلا ليلاً ، وبدر ، وكذا مسير البدر في الظلم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولم تنص الآية على دخوله ﷺ في المسجد الأقصى ، إلا أن الأخبار الصحيحة نصت على ذلك .

الموضع الذي كان منه الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : واختلف في الموضع الذي أسري به منه ﷺ ، فقيل : أسري به من بيته ، وقيل : من بيت أم هانئ بنت أبي طالب ، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته وقص

القصة عليها وقال : مثل لي النبيون فصليت بهم ، وبيتها بين الصفا والمروة ، ومن قال هذين القولين قال : الحرم كله مسجد ، والمراد بالمسجد الحرام في الآية الحرم ، وعن ابن عباس الحرم كله مسجد ، وقيل : أسري به من المسجد الحرام والمراد بالمسجد في الآية هو المسجد نفسه وهو ظاهر ، فقد قال ﷺ : بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة ، قيل : الحكمة في المعراج أن الله تعالى أراد أن يشرف بأنوار محمد ﷺ السموات كما شرف ببركاته الأرضين فسرى به إلى المعراج ، وسئل أبو العباس الدينوري : لم أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس قبل أن يعرج به إلى السماء ؟ فقال : لأن الله تعالى كان يعلم أن كفار قريش كانوا يكذبونه فيما يخبرهم به من أخبار السموات فأراد أن يخبرهم من الأرض التي قد بلغوها وعاينوها وعلموا أن النبي ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط فلما أخبرهم بأخبار بيت المقدس على ما هو عليه لم يمكنهم أن يكذبوه في أخبار السماء بعد أن صدقوه في أخبار الأرض .

نقول : إن بيت أم هانئ رضي الله عنها المذكور هنا ، فقد قال عنه الإمام الأزرقي في تاريخه ما يأتي :

ودار أم هانئ بنت أبي طالب وهي أخت علي رضي الله عنه ، كانت بالحزورة "أي عند باب الوداع" ، وفي دار أم هانئ حفر قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ بئراً وهي أول بئر حفرت بمكة ، ثم لما زاد أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي سنة ١٦٤ هجرية زيادته العظيمة في المسجد الحرام دخلت هذه الدار والبئر فيه فعلى هذا كانت دار أم هانئ التي كان النبي فيها ليلة أسري به بجوار المسجد الحرام في ذلك الوقت ، فيكون محلها اليوم حصوة باب الوداع ، فيكون بين دار أم هانئ وبين الكعبة المشرفة نحو أربعين متراً تقريباً . والله تعالى أعلم .

الاختلاف في الإسراء هل كان بالروح أو بالجسد

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : واختلف السلف والعلماء في أنه هل كان إسراء بروحه أو جسده ؟ على ثلاثة أقوال :

(أحدها) أنه ذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح وأنه رؤيا منام مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء وحي وحق وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكي عن الحسن في غير المشهور وحجتهم قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾ الآية ، وما حكوا عن عائشة: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، وقوله ﷺ : بينا أنا نائم ، وقول أنس : وهو نائم في المسجد الحرام وذكر القصة ثم قال في آخرها : فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام ، وفي العروة الوثقى وحديث عائشة صحيح في المعراج الذي اتفق للنبي ﷺ ، على فراشها في المدينة وقالت : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، وقول ابن عباس أيضاً صحيح في المعراج المكي الذي أخبر به نص التنزيل بقوله : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ الآية ، لقوله تعالى : ﴿ثم دنا فتدلى ۞ فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

(والثاني) أنه ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه أسري بروحه وجسده وفي اليقظة وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبي هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبي حبة البدري ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن في المشهور ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جرير ، وهو قول الطبري ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهذا قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

(والثالث) أنه في المنام ، قالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح في المنام ، قال القاضي عياض : الحق والصحيح أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل: ﴿بعبده﴾ وقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ، ولو كان مناماً لما كان فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر ، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحالة يقظته ، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس أو في السماء على ما روى غيره ، وذكر مجيء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : من معك ؟ فيقول : محمد ،

ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك، ووصوله إلى سدرة المنتهى ودخوله الجنة ورؤيته فيها ما ذكره . قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ لا رؤيا منام .

وعن الحسن : بينا أنا جالس في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئاً فعدت لمضجعي فذكر ذلك ثلاثاً ، فقال في الثالثة : فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد فإذا بدابة وذكر خبر البراق . وعن أم هانئ قالت : ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي تلك الليلة صلى العشاء الآخرة ونام فلما كان قبيل الفجر أهنا رسول الله ﷺ ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس وصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون ، فهذا كله بيّن في أنه بجسمه ﷺ .

وعن أبي بكر من رواية شداد بن أوس عنه أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسري به : طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك ، فأجابه : إن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى ، وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: صليت ليلة أسري بي مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث وذكر الحديث . وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة فتحمل على ظواهرها ، وعن أبي ذر عنه ﷺ: فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل فشرح صدري ثم غسله بماء زمزم إلى آخر القصة ، ثم أخذ بيدي فعرج بي ، قيل: الحق أن المعراج مرتان ، مرة في النوم وأخرى في اليقظة ، قال محي السنة : وما أراه الله في النوم قبل الوحي ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي بسنة تحقيقاً لرؤياه كما أنه رأى فتح مكة في المنام سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان ، كذا في شرح المشكاة للطيبي .

شق صدر النبي ﷺ

لقد شق صدره عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات كما ورد في الأحاديث وإلى ذلك أشار صاحب قرة الأبصار بقوله :

وشق صدر أشرف الأنام ... وهو ابن عامين وسدس عام
وشق للبعث وللإسراء ... أيضاً كما قد جاء في الأنباء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : روي أن النبي ﷺ حدث عن ليلة أسـري بـه قال : بينا هو يصلي في الحطيم أو في الحجر مضطجعاً إذ أتاه آت فشق ما بين ثغرة نحره إلى شعر عانته فاستخرج قلبه ثم أتى بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبه ثم حشي ثم أعيد إلى مكانه .

قيل : الحكمة في شق الصدر مرتين أما في الصغر فليصير قلبه كقلـوب الأنبيـاء في الانشراح ، وأما في الإسراء فليصير حاله كحال الملائكة ، وقيل شرح الصدر في صباه لاستخراج الهوى منه وفي الإسراء لاستدخال الإيمان فيه ، ثم أتي بدابة طويلة بيضاء تسمى البراق .

وصف البراق الذي ركبه ﷺ ليلة الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي حياة الحيوان : كان البراق أبيـض وبغلتـه شهباء وهي التي أكثرها بياض ، إشارة إلى تخصيصه بأشرف الألوان ، وسمي براقـاً لنصوع لونه وشدة بريقه ، وقيـل لسرعة حركتـه تشبيهاً ببرق السـحاب ، وقـال القاضي عياض لكونها ذات لونين ، وفي الصحيح أنه دابة دون البغل وفوق الحمـار أبيض يضع خطوه عند أقصى طرفه .

قال صاحب المنتقى : الحكمة في كونه على هيئة بغل ولم يكن على هيئة فرس التنبيه على أن الركـوب في سـلم وأمـن لا في حـرب وخـوف أو لإظهـار الآيـة في الإسراع العجيب في دابة لا يوصف شكلها بالإسـراع ويؤخـذ مـن قولـه : (يضـع خطوه عند أقصى طرفه) أنه أخذ من الأرض إلى السـماء في خطـوة واحـدة ، وإلى السموات في سبع خطوات ، وبه يرد على من استبعد من المتكلمين إحضـار عـرش بلقيس في لحظة واحدة ، وقال إنه أعدم ثـم أوجـد ، وعللـه بـأن المسـافة البعيـدة لا يمكن قطعها في هذه اللحظة ، وهذا أوضح دليل على الرد عليه ، وكانت مضطربـة الأذنين ، وجهها كوجه الإنسان وجسدها كجسد الفـرس ، ناصيتهـا مـن يـاقوت أحمر ، عيناها كالزهرة ، أذناها من زمرد أخضر . وفي رواية: أذناها كـأذن الفيـل ، وعنقها كعنق البعير وصدرها كصدر البغل . وفي رواية: وصدرها كأنه من ياقوت أحمر ، وظهرها كأنه صفرة البيضة يبرق مـن غايـة صفائـه ، لها جناحـان كجنـاح النسر فيهما من كل لون ، نصفها الأول من كافور ، والآخر من مسك ، وقوائمها كقوائم الثـور . وفي روايـة كقوائـم الفـرس . وفي روايـة كقوائـم البعير وحوافرهـا

كحوافر الثور . وفي رواية أظلافها كظلف البقر ، وذنبها كذنب البقر . وفي رواية كذنب البعير . وفي رواية كذنب الغزال ، لا ذكر ولا أنثى ، عدوها كالريح وخطوها كالبرق ، لجامها وسرجها من در مضروب على سرجها حجلة من نور كأنها ياقوت أحمر . وفي رواية عليها سرج من سروج الجنة . وفي رواية وعلى فخذيها ريشتان يستران ساقيها . وفي زبدة الأعمال لها جناحان في فخذيها قيل هي البراق التي ركبها جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها . انتهى من تاريخ الخميس .

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقاً ، المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى في كتابه "الكلمات الطيبات في المأثور على الإسراء والمعراج من الروايات ، وما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه :

وقد ذكر الثعالبي في تفسيره في وصف البراق ، أنه كان إذا أتى على واد ، طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أتى على عقبة ، طالت رجلاه وقصرت يداه ، وكانت المسافة في غاية الطول . ففي حقائق الحقائق : كانت المسافة من مكة إلى المقام الذي أوحى الله تعالى فيه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ما أوحى قدر ثلاثمائة ألف سنة ، وقيل خمسين ألفاً ، وقيل غير ذلك ، وكيف يمكن أن يكون أدنى اشتباه في ذلك فضلاً عن الاستحالة ، وقد كان معه ﷺ جبريل، وهو الذي كان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده في أسرع من رجعة الطرف ، فهو لعمري أسرع من حركة ضياء الشمس على ما قرروه في الحكمة الجديدة وإنما يستغرب ويستبعد لو كان ﷺ ماشياً على قدميه ، أما إذا كان محمولاً على البراق وهو من الملائكة ومعه جبريل وهو منهم ، وقد علمت مقدار مدة هبوطه إلى الأنبياء ورجوعه إلى السماء . والملائكة أنوار إلهية أقوى من ضياء الشمس فهم أسرع سيراً منه كما لا يخفى . انتهى من الكتاب المذكور .

ركوب النبي ﷺ البراق ووصوله بيت المقدس

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي حياة الحيوان روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يزور ولده إسماعيل على البراق ، وأنه ركب هو وإسماعيل وهاجر حين أتى بهما إلى البيت الحرام ، ومن غاية سرعته وخفة مشيه يضع قدميه

أو خطوه عند أقصى طرفه ، وفي رواية يقع حافره عند أقصى طرفه . وفي رواية عند منتهى طرفه . وفي رواية خطوها عند منتهى البصر ، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا جبى ، ثم إن البراق وإن كان يركبها الأنبياء لكن لم تتصف بوضع الحفر عند منتهى طرفها إلا عند ركوب النبي ﷺ كذا في المنتقى . وفي رواية : أتاه جبريل ومعه خمسون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح ورسول الله ﷺ في بيت أم هانئ ومعه ميكائيل ، فقال قم يا محمد فإن الجبار يدعوك ، وأخذ جبريل بيده وأخرجه من المسجد الحرام فإذا هو بالبراق واقف بين الصفا والمروة ، فقال له جبريل : اركب يا محمد هذه براق إبراهيم التي يجيء عليها إلى طواف الكعبة ، فأخذ جبريل ركابها وميكائيل عنانها فأراد النبي ﷺ أن يركبها ، وفي رواية فذهب يركبها فاستصعبت عليه ، قيل استصعابها لبعد العهد بالأنبياء لطول الفترة بين عيسى ومحمد ، وهذا مبني على أن الأنبياء عليهم السلام ركبوها وفيه خلاف ، وقيل لأنها لم تذلل قبل ذلك ولم يركبها أحد ، وقيل تيهاً وزهواً بركوب النبي ﷺ كذا في مزيل الخفاء ، فقال لها جبريل : اسكني فوالله ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد ، وفي رواية قال لها جبريل : أبمحمد تفعلي هذا فارفضَّ عرقاً ، كذا في الشفاء . فركبها النبي ﷺ . وفي حياة الحيوان اختلف الناس هل ركب جبريل معه عليه ، فقيل نعم كان رديفه ﷺ ، وقيل لا ؛ لأن النبي ﷺ المخصوص بشرف الإسراء ، وانطلق به جبريل حتى أتى به بيت المقدس فربطها بالحلقة التي ربط بها الأنبياء دوابهم ، ثم دخل المسجد الأقصى فصلى بهم ركعتين ، فانطلق به جبريل إلى الصخرة فصعد به عليها فإذا معراج إلى السماء لم ير مثله حسناً ومنه تعرج الملائكة ، وقيل تعرج منه الأرواح إذا قبضت ، فليس شيء أحسن منه إذا رآه أرواح المؤمنين لم تتمالك أن تخرج ، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا احتضر ، كذا في سيرة ابن هشام أصله ، وفي رواية : أحد طرفيه على صخرة بيت المقدس وأعلاه ملصق ، وفي رواية : والآخر ملصق بالسماء ، إحدى جنبيه ياقوتة حمراء والأخرى زبرجدة خضراء ، درجة له من فضة ودرجة من ذهب ودرجة من زمرد مكلل بالدر واليواقيت . انتهى من تاريخ الخميس .

وجاء في كتاب "الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات" فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام قد عرج به من صخرة بيت المقدس ، واجتمع في كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم السلام كما في صحيح البخاري

وغيره ، واطلع عليه الصلاة والسلام على أحوال الجنة والنار ورأى من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى . انتهى من الكتاب المذكور .

عروج النبي ﷺ إلى السماء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي كيفية عروجه ﷺ إلى السماء اختلاف ، قيل عرج به إلى السماء على البراق إظهاراً لكرامته ولم يزل راكباً إظهاراً لقدرته تعالى ، وقيل نزل أيضاً راكباً على البراق كما روي عن حذيفة ما زايل ظهر البراق حتى رجع ، وقيل احتمله جبريل على جناحه ، ثم ارتفع به إلى السماء من ذلك المعراج حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما دخل فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قِبَل يمينه ضحك وإذا نظر قِبَل يساره بكى ، فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلم فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم قال جبريل : هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ، فأهل اليمين هم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار ، ثم صعد إلى السماء الثانية ، وهكذا كان يستفتح جبريل في كل سماء فيفتح فيدخل فيرى فيها نبياً ، ففي الثانية يحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، وفي الثالثة يوسف ، وفي الرابعة إدريس ، وفي الخامسة هارون ، وفي السادسة موسى ، فلما اجتاز عنه النبي ﷺ بكى ، قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الله الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ، ثم صعد إلى السماء السابعة فرأى فيها إبراهيم ، ثم رفعت له سدرة المنتهى فإذا نبقها مثلا قلال هجر وورقها كآذان الفيلة ، فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، قال جبريل : أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات .

وفي الكشاف : سدرة المنتهى هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول ، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها . وفي المدارك : وجه تسميتها كأنها في منتهى الجنة وآخرها ، وقيل لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي

علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها ، وقيل تنتهي إليها أرواح الشهداء . وفي بعض الروايات أنها في السماء السادسة .

قال القاضي عياض: كونها في السابعة هو الأصح ، وقال النووي يمكن الجمع بأن أصلها في السادسة ومعظمها في السابعة . انتهى من تاريخ الخميس.

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي ، مفتي الديار المصرية سابقاً ، المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى في كتابه "الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات ، وما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه :

ومنها ما قيل : كيف رأى النبي ﷺ من رآه من الأنبياء في السماء مع أن مقرهم في الأرض ؟ والجواب : أن الله تعالى شكل أرواحهم على هيئة أجسامهم كما ذكره ابن عقيل . وكذا ذكره ابن التين وقال : وإنما تعود الأرواح إلى الأجساد يوم البعث كما قدمناه ، إلا عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه حي لم يمت وينزل إلى الأرض ، وقال بعضهم : إن الأنبياء أحياء في قبورهم ، وقد رآهم النبي ﷺ حقيقة ، وقد مر على موسى عليه السلام ، وهو قائم يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة . ولا يخفى أن هذا لا ينافي ما قاله ابن التين من أن الأرواح إنما تعود إلى الأجسام يوم البعث ، لأن عود الروح إلى الأجساد يوم البعث ، هو الذي يقتضي أن تعود الأجسام إلى الحياة المشاهدة التي يترتب عليها الحركات والسكنات وجميع الأفعال الاختيارية بأقوى مما كانت عليه في الحياة الدنيا .

وأما حياة الأنبياء في قبورهم ، فهي حياة ملكوتية ، بها يقدرون على حركات وسكنات ، وأفعال ملكوتية لا يشاهدها ولا يراها إلا من يشاهد عالم الملكوت ، مثل نبينا ﷺ . فما ذكره ابن التين شيء ، وما قاله هذا البعض شيء آخر ، وبالجملة فما قاله ذلك البعض حياة برزخية ، وهي للأنبياء فوق حياة الشهداء ، وللشهداء فوق حياة الأولياء غير الشهداء ، وللأولياء غير الشهداء فوق حياة من عداهم من الناس أجمعين من أهل البرزخ . انتهى من الكتاب المذكور .

وصول النبي ﷺ إلى البيت المعمور

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : ثم رفع له البيت المعمور وهو بيت في السماء السابعة محاذ للكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه ، هكذا في

الصحيحين وغيرهما من كتب الأحاديث بذكر البيت المعمور بعد سدرة المنتهى ، وأما في الكشاف وغيره من كتب التفاسير فالبيت المعمور الضراح في السماء الرابعة حيال الكعبة ، وقيل : في الأولى ، وقيل : في السادسة ، ولمسلم في صحيحه بعد صعوده إلى السماء السابعة رأى فيها إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وسلم على كل منهم إذا رآهم وهو يرد ثم يقول : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، إلا آدم وإبراهيم فإنهما قالا بالابن الصالح كما مر في السماء الدنيا . وفي رواية عن طريق ابن عباس ثم عرج به حتى ظهر مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ثم أتي بإناء من خمر وإناء من عسل وإناء من لبن ، فأخذ اللبن فقال جبريل : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك .

وصول النبي ﷺ إلى الحجاب

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي رواية بعد استصعاب البراق فركبها حتى أتى الحجاب الذي يلي الرحمن تعالى ، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل من هذا ؟ قال : والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه ، ولما جاوز سدرة المنتهى قال له جبريل : تقدم يا محمد ، فقال له النبي ﷺ : تقدم أنت يا جبريل ، أو كما قال ، قال جبريل : يا محمد تقدم فإنك أكرم على الله مني ، فتقدم النبي ﷺ وجبريل على أثره حتى بلغه إلى حجاب منسوج بالذهب فحركه جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معه ؟ قال : محمد ، قال ملك من وراء الحجاب : الله أكبر الله أكبر ، قيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر ، فقال ملك : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا ، فقال ملك : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا أرسلت محمداً ، فقال ملك : حي على الصلاة حي على الفلاح ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي دعا إلي عبدي ، فأخرج ملك يده من وراء الحجاب فرفعه فتخلف جبريل عنه هناك . وفي رواية : فما زال يقطع مقاماً بعد مقام وحجاباً بعد حجاب حتى انتهى إلى مقام تخلف عنه فيه جبريل ، فقال : يا جبريل لم تخلفت عني؟ قال : يا محمد وما منا إلا له مقام معلوم لو دنوت أنملة لاحترقت ، وفي هذه الليلة بسبب احترامك وصلت إلى هذا المقام

وإلا فمقامي المعهود عند السدرة ، فمضى النبي ﷺ وحده وكان يقطع الحجب الظلمانية حتى جاوز سبعين ألف حجاب ، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة سنة ، وما بين كل حجاب أيضاً مسيرة خمسمائة سنة ، فوقف البراق عن المسير فظهر له رفرف أخضر غلب نوره على نور الشمس فرفع النبي ﷺ على ذلك الرفرف وذهب به إلى قرب العرش . وفي رواية كان يقال له : ادن مني ادن مني حتى قيل له في تلك الليلة ألف مرة يا محمد ادن مني ، ففي كل مرة منها كان يترقى حتى بلغ مرتبة دنا ، ومنها ترقى إلى مرتبة فتدلى ، ومنها ترقى حتى وصل إلى منزلة قاب قوسين أو أدنى ، كما قال تعالى: ﴿ثم دنا﴾ أي دنا محمد إلى ربه تعالى أي قرب بالمنزلة والمرتبة لا بالمكان فإنه تعالى منزه عنه ، وإنما هو قرب المنزلة والدرجة والكرامة والرأفة ، ﴿فتدلى﴾ أي سجد له تعالى لأنه كان قد وجد تلك المرتبة بالخدمة فزاد في الخدمة ، وفي السجدة عدة القرب ولهذا قال ﷺ : أقرب ما يكون العبد من ربه أن يكون ساجداً . انتهى من تاريخ الخميس .

[عدد مراكبه ﷺ ليلة الإسراء]

قال العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي ، مفتي الديار المصرية سابقاً ، المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة رحمه الله تعالى . في كتابه "الكلمات الطيبات ، في المأثور عن الإسراء والمعراج من الروايات ، وما وقع ليلتئذ من الآيات الباهرات" قال فيه ما نصه :

ومن الآيات التي رآها في عروجه على بعض الروايات كما ذكره العلائي في تفسيره ، أنه كان للنبي ﷺ ليلة الإسراء خمسة مراكب :

الأول : البراق إلى بيت المقدس ، الثاني : المعراج منه إلى السماء الدنيا ، الثالث : أجنحة الملائكة منها إلى السماء السابعة ، الرابع : جناح جبريل عليه السلام منها إلى سدرة المنتهى ، الخامس : الرفرف منها إلى قاب قوسين وعلى رواية أنه لم يكن إلا البراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم المعراج إلى ما شاء الله تعالى . ومنها أن المعراج كان له عشر مراقي : سبعة إلى السماوات ، والثامن إلى السدرة ، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام ، والعاشر إلى العرش. انتهى من الكتاب المذكور .

مناجاة الله تعالى مع عبده ورسوله

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : واختلف في مناجاته تعالى وكلامه مع النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ إلى ما تضمنته الأحاديث ، فأكثر المفسرين على أن الموحي الله إلى جبريل وجبريل إلى محمد . وذكر عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : أوحى الله إليه بلا واسطة ونحوه عن الواسطي ، وعلى هذا ذهب بعض المتكلمين إلى أن محمداً ﷺ كلم ربه في الإسراء ، وحكي عن الأشعري وعن ابن مسعود وذكر النقاش عن ابن عباس في قصة الإسراء عنه ﷺ في قوله: ﴿دنا فتدلى﴾ ، قال : فارقني جبريل فانقطعت الأصوات عني ، فسمعت كلام ربي وهو يقول : ليهدأ روعك يا محمد ادن ادن ، وفي قوله تعالى : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله﴾ الآية . قالوا : هي على ثلاثة أقسام ، من وراء حجاب كتكليم موسى ، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا عليه وعليهم السلام . الثالث قوله: ﴿وحياً﴾ ولم يبق من أقسام الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة .

ثم إنه تعالى أخفى من الخلق كل ما نسب إليه في تلك الليلة إشارة إلى أنه حبيبه الخاص ، فقال في حال مشاهدته لسدرة المنتهى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ ، وفي الآيات التي أراه: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ ، وفي التكلم معه: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي أوحى إلى عبده محمد في ذلك المقام .

وللعلماء في بيان ما أوحى خلاف : قال بعضهم وهم أهل الاحتياط الأقرب إلى الصواب أن لا يعين ؛ لأنه لو كانت الحكمة والمصلحة في إظهاره وتعيينه لما أبهمه ، وقال الآخرون: لا بأس بذكر ما بلغنا في خبر أو أثر أو من جهة الاستدلال والاستنباط ، ومن ذلك ما ورد في حديث صحيح ثلاثة أشياء أحدها فريضة الصلوات الخمس ، وهذا دليل على أن أفضل الأعمال الصلوات الخمس ؛ لأنها فرضت في ليلة المعراج بغير واسطة جبريل ، والثاني خواتيم سورة البقرة والثالث أن يغفر لأمة محمد ﷺ كل الذنوب غير الشرك .

رؤية النبي ﷺ ربه تعالى عز وجل

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : واختلف أيضاً في رؤية النبي ﷺ ربه تعالى ، فأنكرتها عائشة ، روي عن مسروق أنه قال لعائشة : يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ قالت : لقد قفّ شعري مما قلت ، ثم قرأت: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ ، الآية.

وقال جماعة بقول عائشة وهو المشهور عن ابن مسعود ومثله عن أبي هريرة في قوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أنه رأى جبريل له ستمائة جناح ، ويؤيد ذلك ما قال أبو ذر : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه ، وفي العروة الوثقى قال أبو ذر : سألته عن رؤية ربه ليلة المعراج ، قال : لا بل نوراً أرى ، وفي معالم التنزيل والمدارك أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين ، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين ، مرة في الأرض ومرة في السماء ، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى والمراد بالأعلى جانب المشرق ، وفي المشكاة برواية الترمذي ومرة في أجياد ، وفي نهاية الجزري : الأجياد موضع بأسفل مكة معروف من شعابها ، انتهى . وذلك أي بيان رؤيته في الأفق الأعلى أن محمداً ﷺ كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق وله ستمائة جناح فسد الأفق إلى المغرب ، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله : ﴿ثم دنا فتدلى﴾ ، وأما ما في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمد ﷺ ، وفي المدارك وذلك ليلة المعراج ، وقال بامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وعن ابن عباس أنه رآه سبحانه بعين رأسه وروى عطاء عنه أنه رآه بقلبه كذا ذكرهما في المدارك ، وعن أبي العالية أنه رآه بفؤاده مرتين ، وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم ، والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه ، قال الماوردي : قيل إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد فرآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين ، قال عبدالله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وكعب بعرفة فقال ابن عباس : أما نحن بني هاشم فنقول : إن محمداً رأى ربه مرتين فكبر كعب حتى جاوبته الجبال وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه .

وروى شريك عن أبي ذر في تفسير الآية: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ، قال : رأى النبي ﷺ ربه ، وحكى السمرقندي عن محمد بن كعب القرظي وربيع بن أنس أن النبي ﷺ سئل : هل رأيت ربك ؟ قال : رأيته بفؤادي و لم أره بعيني ، وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف با لله لقد رأى محمد ربه ، وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم ، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه رآه حتى انقطع نفسه يعني نفس أحمد ، وقال سعيد بن جبير : لا أقول رآه ولا لم يره ، وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وجماعة من أصحابه : أنه رأى ا لله ببصره وعيني رأسه ووقف بعض المشايخ في هذا كما وقف ابن جبير وقال : ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز ، قال القاضي أبو الفضل : والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلاً إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه ا لله تعالى .

مراجعة موسى لنبينا محمد عليهما الصلاة والسلام بشأن الصلوات التي فرضت

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : ثم بعد ما فرضت عليه خمسون صلاة أذن له بالرجوع فرجع من حيث جاء حتى بلغ منزل جبريل ، فقال له جبريل : أبشر يا محمد فإنك خير خلق ا لله ومصطفاه ، بلّغك الليلة إلى مرتبة لم يبلغها أحد من خلقه قط ، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً هنيئاً لك هذه الكرامة ، ثم ذهب به جبريل إلى الجنة والنار وأراه منازلهما وما في الجنة من الحور والقصور والغلمان والولدان والأشجار والأثمار والأزهار والأنهار والبساتين والرياحين والرياض والحياض والغرف والشرف ، وما في النار من السلاسل والأغلال والأنكال والحيات والعقارب ، والزفير والشهيق والفساق واليحموم وتفاصيلها تؤدي إلى التطويل.

ثم رجع فمر بموسى فسأله بما أمرت ، قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : إن أمتك لا تستطيع وإني وا لله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني

إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فرجع وقال : يا رب خفف عن أمتي فوضع عنه ربه عشراً ، فرجع إلى موسى فقال مثله ، فرجع إلى ربه فوضع عنه عشراً ، فلم يزل يرجع بين ربه وموسى حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فرجع إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ قال : بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات فارجع إلى ربك فسله التخفيف ، قال : سألت ربي حتى استحييت ولكني أرضى وأسلم ، ولما جاوز عن موسى سمع منادياً ينادي فيقول : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وهي خمس وهن خمسون ، ثم يقول : يا محمد قد جعلت صلاتك وصلاة أمتك قياماً وركوعاً وسجوداً وتشهداً وقراءة وتسبيحاً وتهليلاً ، تشتمل عبادته على سائر عبادات الملائكة من لدن عرشي إلى منتهى الثرى ، فيكون لهم بالقيام ثواب القائمين ، وبالركوع ثواب الراكعين ، وبالسجود ثواب الساجدين ، وبالتشهد ثواب المتشهدين ، ولهم في القراءة والتسبيح ثواب المسبحين والقارئين ، وبالتهليل ثواب المهللين ولدي مزيد ، كذا في المنتقى . انتهى من تاريخ الخميس ، وسيأتي قريباً ترجمة موسى الكليم وترجمة الخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في آخر هذا المبحث ، لما لهما من الفضل على الأمة المحمدية ، وبالأخص على الأمة العربية.

نقول : إن موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم له فضل عظيم على الأمة المحمدية قاطبة ، حيث طلب من نبينا محمد ﷺ أن يراجع ربه عز وجل في تخفيف الصلوات التي فرضها على أمته ليلة الإسراء وقال له : إن أمتك لا تطيق ذلك . فلم يزل نبينا عليه الصلاة والسلام يراجع ربه تعالى حتى بلغ التخفيف عنا إلى خمس صلوات بعد أن كانت خمسين صلاة.

فكليم الله موسى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قد أحسن إلى جميع المؤمنين والمؤمنات في هذه المسألة إحساناً كبيراً وقد رأى من بني إسرائيل العجب العجاب . والحق أننا وصلنا في هذا الزمان إلى حالة من العجز والكسل والتقصير والخمول لا نقدر معها أن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها ، بل لقد تهاون الكثير بها في غير قطرنا حتى تركوها بتاتاً والعياذ بالله تعالى . فكيف لو لم

يتداركنا الله عز وجل بالتخفيف عنا بفضله ورحمته، فجزى الله عنا كليمه موسى وصفيّه محمداً صلوات الله وسلامه عليهما بما هو أهله.

مقدار مدة غيابه ﷺ في الإسراء والمعراج

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وروي أنه ﷺ لما رجع كان جبريل عليه السلام رفيقه حتى دخل بيت أم هانئ، وروى عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها، وفي رواية: عاد ﷺ إلى بيت المقدس ومعه جبريل حتى أتى به مكة إلى فراشه وبقيت من الليل ساعات، وفي زين القصص عن عمار: كان زمان ذهابه ومجيئه ثلاث ساعات، وعن وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق أربع ساعات والله أعلم، وعن عائشة أنها قالت: لما أسري بالنبي ﷺ أصبح يحدث بذلك فارتدّ ناس ممن كان آمن به وضعف إيمانهم، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾. فسبب ارتدادهم أنهم كانوا يرون العير تذهب شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وتجيء شهراً مقبلة، فاستحالوا عند عقولهم القاصرة قطع تلك المسافة البعيدة في زمان قليل ببعض الليل فارتدوا، والاستحالة مدفوعة لما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرف كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض والله تعالى قادر على الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ أو في ما يحمله والتعجب من لوازم المعجزات كذا في أنوار التنزيل، وأيضاً قال أهل الهيئة إن الفلك الأعظم في مقدار زمان يتلفظ الإنسان بلفظة واحدة يقطع ألفاً واثنين وثلاثين فرسخاً.

إنكار المشركين للإسراء والمعراج

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: وروي أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسري به وكان بذي طوى قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقوني، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق، وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما أصبح جلس في الحجر معتزلاً حزيناً لما أنه كان يعلم أن قومه يكذبونه، فبينما هو جالس كذلك إذ مر به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزئ: يا محمد هل استفدت من شيء جديد؟

قال : نعم سافرت البارحة ، وفي رواية : أسري بي الليلة إلى بيت المقدس ومنه إلى السموات ، وقال أبو جهل : سافرت الليلة إلى بيت المقدس وأصبحت بين أظهرنا بمكة ؟ قال : نعم ، فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث ، قال : أتحدث قومك كما حدثتني ؟ قال : نعم ، فصاح أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا ، فانتقضت المجالس ، فجاءوا حتى جلسوا إليهما ، قال : فحدث قومك بما حدثتني ، قال : نعم أسري بي الليلة ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ قال : نعم ، فوقعوا في التعجب والاستغراب وقالوا : إن هذا لشيء عجاب ، وبعضهم من كثرة إنكارهم يصفقون ، وبعضهم من قلة اعتبارهم يضحكون ، وبعضهم يضعون أيديهم على رؤوسهم تعجباً ، فإن هذا الأمر يرى عندهم محالاً وعجباً ، وارتدّ ناس ممن كان قد آمن به وصدقه . وعن عائشة رضي الله عنها : سعى رجال من المشركين وهم أبو جهل وأتباعه إلى أبي بكر فقالوا له : هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس ومنه إلى السموات ؟ فقال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أتصدقه أنه ذهب إلى الشام ورجع قبل أن يصبح ، قال : نعم إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة وروحة ، قال بعضهم : ومن ذلك اليوم سمي أبو بكر صديقاً.

سؤال قريش النبي ﷺ عما رآه في طريق الإسراء

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وعن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه ، فما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم ، ونحوه عن جابر ، كذا في الشفاء ، وعن عائشة قالوا : يا محمد هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى ، فشرع ينعت حتى إذا التبس قال : فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر إليه ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ، وهذا أبلغ في المعجزة ولا استحالة فيه فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين ، فقالوا : أخبرنا عن عير فهي أهم إلينا من ذلك هل لقيت منها شيئاً ؟ قال : نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدح من

ماء فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته ، فسلوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا ، قالوا : هذه آية ، قال : ومررت بعير بني فلان وفلان راكبان قلوصاً لهما . وفي رواية قعوداً لهما بذي مر فنفر البعير مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهم عن ذلك ، فقالوا : هذه آية أخرى ، قالوا : أخبرنا عن عيرنا ، قال : مرزت بها بالتنعيم ، قالوا : فما عدتها وأحمالها وهيئتها ، فقال : كنت في شغل عن ذلك ثم مثل لي بعدتها وأحمالها ومن كان فيها وكانوا بالحزورة ، قال : نعم هيئتها كذا كذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخططتان يطلع عند طلوع الشمس ، وفي المواهب اللدنية : يقدمهم جمل أدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، قالوا هذه آية أخرى ، ثم خرجوا نحو ثنية كداء حتى يكذبونه فإذا بقائل يقول : هذه الشمس قد طلعت ، وقال الآخر : هذه العير قد أقبلت كما قال محمد يقدمها فلان وفلان كذا في المنتقى ، وفي رواية البيهقي : أشرف الناس ينتظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير فلم يؤمنوا وقالوا : ما سمعنا بمثل هذا قط إن هذا إلا سحر مبين ، وفي رواية سألوه أيضاً عن عير الشام ليستدل به على تكذيبه وتصديقه فيما قال عليه السلام فوصفهم وقال : يقدمون يوم الأربعاء فكان ذلك اليوم ، وما قدموا حتى كادت الشمس أن تغرب فدعا الله تعالى فحبسها حتى قدموا مكة ، فعلموا صدقه ومع ذلك لم يصدقوه في الخبر وما آمنوا ، كذا في سيرة مغلطاي .

وفي حياة الحيوان : حبست الشمس مرتين لنبينا ﷺ ، إحداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه كما رواه الطحاوي وغيره ، والثانية صبيحة الإسراء حين انتظروا العير التي أخبر بوصولها مع شروق الشمس ، ذكره القاضي عياض في غير الشفاء .

وحبست ليوشع بن نون ، وحبست لداود وذكره الخطيب في كتاب النجوم وضعف رواية ، وحبست لسليمان ذكره البغوي في معالم التنزيل في سورة "ص" كذا في مزيل الخفاء ، وفي سيرة مغلطاي ذكر الطحاوي أن الشمس ردت له في بيت أسماء بني عميس حين شغل عن صلاة العصر .

اعلم أنه ليس لأحد من أهل القبلة اختلاف في وقوع المعراج للنبي ﷺ فمن أنكر الإسراء يكفر ؛ لأنه إنكار لنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ ، وأيضاً ورد في

الأحاديث الصريحة المشهورة القريبة من حد التواتر وأما منكر المعراج إلى السموات فمبتدع ضال عند أئمة الدين .

تحقيق موضع دار أم هانئ بمكة

الذي دعانا إلى العناية بتحقيق موضع دار أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، هو اختلاف العلماء في أن النبي ﷺ هل أسري به من المسجد الحرام أو من بيت أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها ، فقد جاءت أحاديث صحيحة في هذا وذاك.

فأردنا أن نتحقق موقع بيت أم هانئ بمكة وبُعده عن المسجد الحرام في زمنه ﷺ الذي مساحته هي مساحة دائر المطاف الذي حول الكعبة المشرفة ، فإن في معرفة مكان دارها جملة فوائد . فنقول وبالله تعالى التوفيق ، ومنه المعونة والسداد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير :

لم يذكر أحد من المؤرخين مكان بيت أم هانئ بالضبط ، لكن اتفقت كلمتهم على أن دارها كانت جهة باب الوداع ، وأدخلت في التوسعة القديمة ، ونحن أيضاً مثلهم لا نعرف موقع دارها ، لكن شرح الله تعالى صدرنا في الليلة العاشرة من شهر جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، في النظر إلى تاريخ الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني للهجرة ، عسانا نهتدي بالتأمل في عباراته المختلفة المتكررة في كثير من أبواب تاريخه ، فإن تاريخه جامع لمئات المسائل والأبحاث القيمة ، لكنها متفرقة ومبعثرة في الكتاب بدون ترتيب منتظم ، فكتابه أشبه بدكان عطار فيه من جميع الأدوية والعقاقير ، لكنها مبعثرة في الدكان ، فعلى المحتاج أن يفتش ويبحث بنفسه عن ما يريده من الدواء .

وها نحن قد فتشنا في كثير من صحائف تاريخ الأزرقي حتى عثرنا على ضالتنا المنشودة ، واهتدينا لمسألتنا التي نبحث عنها ، و لله الحمد والمنة .

وإليك ما جاء في تاريخه المطبوع في مكة سنة (١٣٥٢) هجرية .

فلقد راجعنا فيه أكثر من ثلاثين صحيفة ، جاء في جميعها ذكر دار أم هانئ والحَزْوَرَة ، وبئر العجول ، وباب البقالين ، وباب الحناطين ، وباب بني حكيم . وكل ذلك دائر حول بيت أم هانئ.

ولكن لم نقدر من هذه الصحائف على أن نستنتج موضع دار أم هانئ رضي الله تعالى عنها استنتاجاً مضبوطاً، وإنما قاربنا في الوصول إلى الحقيقة، بعد الاطلاع في الجزء الثاني من الصحائف الآتية وهي (٤٩ و٥٠ و١٨٨ و ٢٣٨) وإليك تفصيل ذلك:

قال الأزرقي في صحيفة ٤٩ ما نصه: عن علي الأزدي، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: "إنا لنجد في كتاب الله تعالى عز وجل أن حدّ المسجد الحرام من الحَزْوَرَة إلى المسعى" انتهى.

والظاهر: أن المراد من كتاب الله تعالى هنا ليس القرآن الكريم، وإنما ربما كان المراد به التوراة أو الإنجيل. والله تعالى أعلم.

ثم روى الأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "أساس المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيم عليه السلام من الحَزْوَرَة إلى المسعى إلى مخرج سيل أجياد. قال: والمهدي وضع المسجد على المسعى". انتهى.

وقال في صحيفة ١٨٨ ما نصه: ولهم أيضاً دار أم هانئ بنت أبي طالب التي كانت عند الحناطين، عند المنارة، فدخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي في الهدم الآخر سنة سبع وستين ومائة. انتهى.

وقال في صحيفة ٢٣٨ ما نصه: قال أبو الوليد: الحَزْوَرَة وهي كانت سوق مكة، كانت بفناء دار أم هانئ ابنة أبي طالب التي كانت عند الحناطين فدخلت في المسجد الحرام، كانت في أصل المنارة إلى الحثمة والجزاور والجباجب الأسواق. وقال بعض المكيين: بل كانت الحَزْوَرَة في موضع السقاية التي عملت الخيزران بفناء دار الأرقم. وقال بعضهم: كانت بحذاء الردم في الوادي، والأول أنها كانت عند الحناطين أثبت وأشهر عند أهل مكة.

وروى سفيان عن ابن شهاب: قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحزورة: أما والله إنك لأحب البلاد إلى الله سبحانه، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت "وهذا الخطاب لبلدة مكة". قال سفيان: وقد دخلت الحَزْوَرَة في المسجد الحرام. انتهى.

بقي علينا أن نعرف موضع الحَزْوَرَة فإننا إذا عرفنا موضعها تماماً عرفنا موضع دار أم هانئ ، لأن دارها كانت عندها . والحَزْوَرَة هي الأكمة ، وهي التل ، وإن شاء الله تعالى سنهتدي أيضاً إلى مكان الحَزْوَرَة بما يأتي :

قال الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة ٦٤ ما نصه: وقد كان قصي بن كلاب حفر بمكة آباراً وكان الماء بمكة عزيزاً إنما يشرب الناس من آبار خارجة من الحرم ، فأول ما حفر قصي بمكة حفر بئراً يقال لها العجول ، كان موضعها في دار أم هانئ بنت أبي طالب بالحزورة ، وكانت العرب إذا قدمت مكة يردونها فيسقون منها ويتراجزون عليها . انتهى .

نقول: إن هذه البئر مع دار أم هانئ قد دخلتا في المسجد الحرام في توسعة المهدي رحمه الله تعالى سنة (١٦٧) مائة وسبع وستين من الهجرة .

وقال الأزرقي في الجزء الثاني بصحيفة ٣٣ عند الكلام على حفر عبد المطلب زمزم ما نصه : فأتي عبد المطلب في المنام فقيل له : احفر زمزم خبيئة الشيخ الأعظم ، فاستيقظ فقال : اللهم بيّن لي ، فأتى في المنام مرة أخرى فقيل له : احفر زمزم بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب في قرية النمل مستقبلة الأنصاب الحمر ، فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في الحرم ينظر ما سمي له من الآيات فنحر بقرة بالحزورة فانفلتت من جازرها بحشاشة نفسها ، حتى غلبها الموت في المسجد في موضع زمزم ، فجزرت تلك البقرة في مكانها حتى احتمل لحمها ، فأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفَرْث فبحث عن قرية النمل ، فقام عبد المطلب فحفر هنالك ... إلى آخر القصة . قال في مختار الصحاح "الفَرْث" بوزن الفلس السرجين ما دام في الكَرِش ، والجمع فُروث كفلوس . اهـ .

وقال الفاسي في كتابه "شفاء الغرام" عن الحَزْوَرَة في الباب الخامس من الجزء الأول . ما نصه : والحَزْوَرَة – بحاء مهملة مفتوحة وزاي معجمة – ، وعوام مكة يصحِّفون الحَزْوَرَة فيقولون "عَزورة" بعين مهملة ، وهذا التصحيف من قديم ، لأني رأيت ذلك مكتوباً في حجر رباط رامشت بمكة وتاريخه سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، والحَزْوَرَة الرابية الصغيرة والجمع الحزاور ، وكان عندها سوق الحناطين بمكة ، وهي في أسفلها عند منارة المسجد الحرام التي تلي أجياد . وما وقع للطبراني من أن الحَزْوَرَة في "شرقي مكة" تصحيف صوابه "سوق مكة" كما وقع

مصرحاً به في مسند أحمد بن حنبل من حديث عبدا لله بن عدي بن الحمراء ، وما ذكرناه في موضع الحَزْوَرَة هو المشهور المعروف على ما ذكره الأزرقي . انتهى .

ثم ذكر الفاسي سبب تسمية الحَزْوَرَة بعد أربعة أسطر من الكلام المذكور ما نصه : وأفاد الفاكهي سبب تسمية الحَزْوَرَة لأنه قال : لما ذكر ولاية ابن نزار للكعبة ، فكان أمْرُ البيت إلى رجل منهم يقال له وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد ، فبنى صرحاً بأسفل مكة عند الحناطين اليوم وجعل فيه أمة له يقال لها الحازورة فبها سميت حازورة مكة . اهـ . انتهى من شفاء الغرام .

إلى هنا انتهينا من نقل ما يهمنا للوصول إلى معرفة موضع دار أم هانئ بنت أبي طالب رضي ا لله عنه وموضع الحَزْوَرَة ، وبعد التأمل فيما نقلناه هنا من الكلام ، ومراجعة ما طالعناه من الأبحاث العديدة ، عرفنا موقع دار أم هانئ مما يأتي :

(١) من قول الإمام الأزرقي المتقدم رحمه ا لله تعالى في الجزء الثاني من تاريخه بصحيفة ١٨٨ حيث يقول : "ولهم أيضاً دار أم هانئ بنت أبي طالب التي كانت عند الحناطين عند المنارة ، فدخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي في الهدم الآخر سنة سبع وستين ومائة" انتهى كلامه .

(٢) ومن قول الفاسي رحمه ا لله تعالى المتقدم ، في الجزء الأول من كتابه شفاء الغرام ، حيث يقول عن الحَزْوَرَة : "وكان عندها سوق الحناطين بمكة وهي في أسفلها عند منارة المسجد الحرام التي تلي أجياد" انتهى كلامه .

(٣) ومن الخريطة التي وضعناها في بيان الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام ، المطبوعة في كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" بصحيفة ٩١ من الطبعة الأولى .

فمن هذه الأمور الثلاثة ظهر لنا تماماً ما لا يقبل الشك أن دار أم هانئ رضي ا لله تعالى عنها واقعة بالضبط عند منارة باب الوداع في عصرنا الحاضر ؛ لأنها هي المنارة المعنية في العبارة المتقدمة ، فمحلها في ذلك الزمن هو محلها اليوم لم يتغير ، والحَزْوَرَة واقعة عندها وكذلك سوق الحناطين .

ومن نظر إلى خريطة زيادات المسجد الحرام الموجودة بكتابنا المذكور "مقام إبراهيم عليه السلام" والموجودة أيضاً في هذا التاريخ ، علم يقيناً أن المنارة المذكورة

تقع في آخر توسعة المهدي رحمه الله تعالى من ركن المسجد الحرام الجنوبي المقابل لأجياد، فدار أم هانئ كانت عند هذا الركن، ثم دخلت في توسعة المهدي المذكور سنة (١٦٤) مائة وأربع وستين من الهجرة.

وفي محل المنارة، أي في موضع دار أم هانئ، حفر قصي بن كلاب البئر التي يقال لها العجول، كما أنه من هذا الموضع انفلتت البقرة التي نحرت عنده من الجزار وجرت نفسها حتى وصلت إلى موضع زمزم فماتت، فسلخوها في هذا المكان وفرقوا لحمها، ثم أقبل غراب فوقع في فرثها، فعندئذ قام عبد المطلب يحفر زمزم في الموضع الذي وصلت إليه البقرة وماتت. كما تقدم ذلك في عبارة الأزرقي.

والمسافة من الركن اليماني في الكعبة المشرفة إلى منارة باب الوداع التي تقابل أجياد هي (١٢٠) مائة وعشرون متراً، أي نحو خمسين ومائتين ذراعاً.

فتكون المسافة بين الكعبة شرفها الله تعالى وبين دار أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها هي (١٢٠) متراً بالضبط على التحقيق الذي عملناه. وهي نفس المسافة بين الكعبة وبين الحَزْوَرَة، وهي نفس المسافة أيضاً بينها وبين البئر التي كان حفرها قصي بن كلاب ثم دفنت ودخلت مع دار أم هانئ في توسعة المهدي رحمه الله تعالى.

فالحمد لله على ما وفقنا لتحقيق هذه المسألة، والحمد لله على توفيقاته المتوالية، وعلى نعمائه المتتالية التي لا تنقطع عنا طرفة عين بواسع فضله وعظيم إحسانه. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فضل سيدنا إبرهيم وسيدنا موسى على الأمة المحمدية

لئن جمعنا في هذا الفصل بين النبيين الكريمين: خليل الله، وكليم الله "إبراهيم وموسى" عليهما الصلاة والسلام في أياديهما البيضاء على الأمة المحمدية، فقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى﴾ وذلك أنه أنزل على سيدنا إبراهيم عشرة صحف كانت كلها أمثالاً، وأنزل على سيدنا موسى قبل التوراة عشر صحف كانت كلها عبراً، فقد تساويا في مقدار إنزال الصحف عليهما، كما تقاربا مضمون صحائفهما في معانيهما، من الأمثال والعبر، والاتعاظ والذكرى، وقد تشابها أيضاً في الابتلاء والاختبار، فإبراهيم نجاه

الله في صغره من قتل نمرود، كما نجاه من النار حين ألقي فيها، وموسى نجاه الله من قتل فرعون في صغره، كما نجاه من الغرق حينما ألقي في اليم وهو رضيع.

ولنذكر هنا ما لكل منهما علينا من الفضل: فسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام له فضل عام على العرب والأمة المحمدية، وفضل خاص على أهل مكة، فأما الفضل العام على العرب والأمة المحمدية فدعاؤه لهم بالهداية والتوفيق كما في القرآن الكريم: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وفي آية أخرى: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

وأما الفضل الخاص على أهل مكة: فإنه أول من اكتشفها ونزل بها وعمرها، وأسكن فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر، اللذين بسببهما ظهر ماء زمزم، وعلى يدي إبراهيم وإسماعيل بنيت الكعبة المعظمة، وأن إبراهيم ترك لديهم مقامه الكريم المحترم، وحرّم مكة وصيرها مأمناً، ودعا لأهلها بالرزق والبركة فيما كان عندهم من ماء ولحم ولبن، وهو الذي أذن في الناس بالحج ودعاهم إليه، فصاروا يقصدون مكة في أيام معلومات من كل فج عميق، وبذلك اتسعت عمرانها وكثرت أرزاقها وخيراتها كما أتى كل ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾، وفي سورة إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾، ولقد استجاب الله تعالى منه جميع دعائه بفضله ورحمته، فجزاه الله عنا ما هو أهله.

أما موسى الكليم عليه الصلاة والسلام: فإحسانه عظيم أيضاً على الأمة المحمدية قاطبة. حيث طلب من نبينا محمد ﷺ ليلة عرج به واجتمع معه في السماء السادسة أن يراجع ربه عز وجل في تخفيف الصلاة عن أمته التي فرضها الله تعالى عليهم أولاً، وقال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل رسول الله يرجع بين ربه عز وجل وبين موسى عليه السلام حتى بلغ التخفيف عنا إلى خمس صلوات كل يوم وليلة بعد أن كانت خمسين صلاة.

فموسى عليه السلام قد أحسن إلى جميع المؤمنين والمؤمنات في هذه المسألة إحساناً كبيراً ووُفّق فيها أعظم توفيق ، كيف لا ، وهو الذي رأى من أحوال بني إسرائيل العجب العجاب ، ولذلك قال نبينا محمد ﷺ : «أكثروا من الصلاة على موسى فما رأيت أحداً من الأنبياء أحوط على أمتي منه» رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والحق أننا قد وصلنا في هذا الزمان إلى حالة من العجز والتقصير ، لا نقدر بأن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها ، بل تهاون الكثير بها في غير قطرنا حتى تركوه بتاتاً والعياذ بالله ، فكيف لو لم يخفف الله عنا بفضله ورحمته ، فجزى الله موسى وإبراهيم ونبينا محمداً عنا ما هو أهله . اللهم صل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل منهم أجمعين .

ترجمة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام

لما كان إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، له فضل عام على العرب والأمة المحمدية ، بنص القرآن الكريم ، حيث يقول : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ، ويقول في آية أخرى : ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ .

كما له فضل خاص على أهل مكة من الدعاء لهم بنص الآية الكريمة حيث يقول : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ ، وغير ذلك من الآيات ، فاستجاب الله تعالى منه جميع دعواته بفضله ورحمته ، فجزاه الله عنا بما هو أهله .

رأينا أن نتشرف بذكر شيء من ترجمته النفيسة ، فكتبنا عنه ترجمة لطيفة وافية ، وقد قدمناها في أول الكتاب و لم نذكرها هنا ، لمناسبة أنه هو أول مكتشف لمكة شرفها الله تعالى ، ورافع قواعد بيت الله الحرام .

فناسب أن تكون ترجمته في أول الكتاب ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

ترجمة موسى عليه الصلاة والسلام

نتشرف الآن بذكر ترجمة موسى عليه السلام لما له من الفضل على الأمة المحمدية قاطبة، حيث طلب من نبينا "محمد" ﷺ ليلة أن عرج به واجتمع معه في السماء السادسة، أن يراجع ربه عز وجل في تخفيف الصلاة التي فرضها على أمته أولاً.

هو موسى كليم الله، أبوه رجل عبراني يقال له "عمران" بن قاهت ابن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وأمه "يوكابد" بنت لاوي، وأخوه "هارون" وهو شقيقه من أبيه وأمه.

لما ولد موسى خبأته أمه عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل لقتل ذكرانهم، فمكث موسى عند أمه ثلاثة أشهر، فلما خافت افتضاح أمرها أعلمها الله تعالى وعلمها أن تصنع له ما يشبه الصندوق وتطليه بالقطران والزفت وتلقيه في اليم، ففعلت وناطت بأخته أن تتبع أثره وتعلم علمه، وأن الله تعالى قد أعلمها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين.

فلم تزل أخته ترقب أخباره حتى علمت أنه التقط وأدخل دار فرعون، وأن الله تعالى ألقى محبة موسى في قلب زوجة فرعون حينما وقعت عينها عليه، فأبقته ليكون قرة عينها وعين فرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً.

وكانت أخته تقص أثره وتتبعه أينما سير به فرأته لا يقبل ثدي المراضع، فعرضت على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه وتكفله وتقوم له مقام الأم، وكان اسم أخته مريم، فبعثوا في طلبها فجاءت بأمها وأمه على التحقيق، فأقبل موسى على ثديها فتولت شؤونه وفرحت به فرحاً شديداً.

فتربى موسى في بيت فرعون تربية بحسب تقاليد البلاط الفرعوني وكان ذا قوة وبأس، وكان طبيعياً أن يعرف أنه من بني إسرائيل ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله، فكان ظهيراً للعبرانيين قومه يلجأ إليه المظلومون منهم، فلما بلغ أشده آتاه الله العلم والحكمة.

انتهى ملخصاً من كتاب "قصص الأنبياء" للأستاذ عبدالوهاب النجار.

ونحن لا نريد إطالة الكلام عن ترجمة موسى عليه السلام وتاريخ حياته من كافة الوجوه حتى لا نخرج عن المقصود ، وإنما تشرفنا بذكر هذه النبذة عنه لما له من الفضل على كافة الأمة المحمدية .

وهنا يحلو لنا أن نأتي ببعض الآيات الواردة في القرآن العظيم عنه ﷺ :

فقد قال الله عز شأنه في سورة القصص : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ۞ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ۞ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ۞ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ۞ وقالت لأخته قصيه فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون ۞ وحرَّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون ۞ فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ۞ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ .

ما بين موسى عليه السلام وفرعون

قال الله تعالى في كتابه العزيز في سورة الشعراء : ﴿قال فرعون وما رب العالمين ۞ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ۞ قال لمن حوله ألا تستمعون ۞ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ۞ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ۞ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ۞ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين ۞ قال أو لو جئتك بشيء مبين ۞ قال فأت به إن كنت من الصادقين ۞ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ۞ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ۞ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ۞ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ۞ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ۞ يأتوك بكل سحَّار عليم ۞ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ۞ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ۞ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ۞ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ۞ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقرَّبين ۞ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ۞ فألقوا حبالهم

وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ۞ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ۞ فألقي السحرة ساجدين ۞ قالوا آمنا برب العالمين ۞ رب موسى وهارون﴾ .

ويستنتج من قصة موسى عليه الصلاة والسلام جملة أمور . ذكرها الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه "قصص الأنبياء" ونحن نلخصها منه كما يأتي :

(١) إذا ابتلي الإنسان في الدنيا يجب عليه أن يقابل ذلك بالرضا ، فقد يكون في هذا الابتلاء خير كبير .

(٢) من توكل على الله في أموره لا بد أن يقيض الله من ينقذه ويخلصه .

(٣) من استمسك بالحق لا يبالي بمن خالفه في رأيه وطريقته مهما بلغت رتبته .

(٤) لا يعدم الحق أن يجد له نصيراً ولو بعد حين .

(٥) من ذاق لذة الإيمان بالله لا يبالي بما يصيبه في سبيل ذلك .

(٦) عاقبة الصبر حميدة . قال تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ .

(٧) حلم موسى عليه السلام على بني إسرائيل . انتهى ملخصاً من الكتاب المذكور .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين آمين .

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن النبي ﷺ أنه قال : حاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومني على أمر قد كتبه عليّ قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني ، قال رسول الله ﷺ : فحجَّ آدم موسى .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : أحجَّ آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة ، قال : فقال آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض ، قال : فحجَّ آدم موسى .

وقد ورد هذا الحديث بجملة روايات اكتفينا بما ذكر .

إلى هنا نكتفي بهذه النبذة اللطيفة ، ومهما أطنبنا وأثنينا على سيدنا موسى عليه السلام ، فما قيمة قولنا بجانب من اصطفاه الله تعالى برسالته وكلامه ، وقال في حقه عز شأنه : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ .

اللهم صل وسلم عليه وعلى أخيه هارون وعلى نبينا "محمد" وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين .

ذكر حج موسى عليه الصلاة والسلام

جاء في تاريخ ابن كثير رحمه الله تعالى عن حجة كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ما نصه : قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي عالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق ، فقال : أيّ واد هذا . قالوا : وادي الأزرق . قال : كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية ، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية ، حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال : أي ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء . قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف حطام ناقته خلبة . قال هشيم : يعني ليفا وهو يلبي . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هندبة . ورواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً أن موسى حج على ثور أحمر . وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، ولكن قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم . وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر ، على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي . قال هشيم : الخلبة الليف .

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم . فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر ، فأما موسى فآدم جسيم . قال : فإبراهيم ؟ قال : انظروا إلى صاحبكم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبان قال حدث قتادة ، عن أبي العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجل طوالاً جداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الحمرة والبياض سبط الرأس . وأخرجاه من حديث قتادة به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر ، قال الزهري ، وأخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أسري به : لقيت موسى فنعَتَه فقال رجل قال حسبته قال مضطرب رجل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسى فنَعَتَه رسول الله ﷺ فقال : ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعنى حماماً . قال : ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به .

الحديث . وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

معرفة كيفية الصلوات الخمس

تقدم هنا أن الصلوات الخمس فرضها الله عز وجل ليلة الإسراء والمعراج ، لكن بقي على رسول الله ﷺ أن يَعلم أوقاتها وكيفيتها حتى يبين كل ذلك لأمته التي هي خير الأمم فهبط عليه جبريل صبيحة الإسراء ليعلمه ﷺ كيفيتها وإليك تفصيل ذلك :

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « نزل جبريل عليه السلام فأمَّني فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس صلوات » رواه أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه .

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في الجزء الرابع من شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند هذا الحديث ما يأتي :

قال ابن عبدالبر : لم يختلف أن جبريل هبط صبيحة الإسراء عند الزوال فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها وهيئتها . اهـ .

قوله: «فأمَّني» بتشديد الميم بعد الهمزة المفتوحة أي كان إماماً لي في أول الصلوات المفروضة ليلة الإسراء . وقوله: «فصليت معه» أي صلاة الظهر ؛ لأن نزوله كان حينما زاغت الشمس ، فصلاة الظهر هي أولى الصلوات الخمس ،

وقوله: «ثم صليت معه» أي صلاة العصر . وقوله: «ثم صليت معه» أي صلاة المغرب . وقوله: «ثم صليت معه» أي صلاة العشاء . وقوله: «ثم صليت معه» أي صلاة الصبح .

قال شيخنا رحمه الله تعالى: وحديث المتن يوضح معناه ما نسبه الحافظ في فتح الباري وغيره لعبد الرزاق ، قال عبدالرزاق عن ابن جريج قال نافع بن جبير وغيره : لما أصبح النبي ﷺ من الليلة التي أسري به لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس ولذلك سميت الأولى أي صلاة الظهر فأمر فصيح بأصحابه الصلاة جماعة فاجتمعوا فصلى به جبريل وصلى النبي ﷺ بالناس طول الركعتين الأولين ثم قصر الباقيتين ثم سلم جبريل على النبي ﷺ ، وسلم النبي على الناس ثم نزل في العصر على مثل ذلك ففعلوا كما فعلوا في الظهر ، ثم نزل في أول الليل فصيح : الصلاة جماعة فصلى جبريل بالنبي ﷺ وصلى النبي بالناس طول في الأولين وقصر في الثالثة ثم سلم جبريل على النبي وسلم النبي على الناس ، ثم لما ذهب ثلث الليل صيح : الصلاة جماعة فاجتمعوا فصلى جبريل بالنبي وصلى النبي للناس فقرأ في الأولين فطول فيهما وقصر في الأخيرتين ثم سلم جبريل على النبي وسلم النبي على الناس ، فلما طلع الفجر صيح : الصلاة جامعة فصلى جبريل بالنبي وصلى النبي للناس وقرأ فيهما فجهر وطول ورفع صوته وسلم جبريل على النبي وسلم النبي على الناس .

قال الحافظ في فتح الباري : وفيه رد على من زعم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة ، والحق أن ذلك وقع قبلها ببيان جبريل وبعدها ببيان النبي ﷺ ، قال السيوطي في تنوير الحوالك : وهو صريح حديث ابن عباس : أمني جبريل عند البيت ، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وفي رواية الشافعي عند باب البيت وحديث المتن رواه البخاري ومسلم من رواية أبي مسعود الأنصاري أيضاً بغير هذا اللفظ الذي سقناه في المتن باتفاق الشيخين .

وقد بينت في المعلم محل تخريجهما له وذكرت أن البخاري أخرجه في أول كتاب مواقيت الصلاة وأن مسلماً أخرجه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة في باب أوقات الصلوات الخمس وهو أول حديث في موطأ مالك ولفظه : عن أبي مسعود أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى ،

فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم قال : بهذا أمرت ، الحديث ، وقوله: أمرت روي بفتح التاء وبضمها ، قال مغلطاي: والفتح هو الأقوى أي أن الذي أمرت به من الصلاة البارحة مجملاً هذا تفسيره اليوم مفصلاً ، قال ابن العربي : نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ مأموراً مكلفاً بتعليم النبي لا بأصل الصلاة . وقوله في هذا الحديث : نزل فصلى ، فصلى رسول الله ﷺ الخ قال فيه عياض : ظاهره أن صلاته كانت بعد صلاة جبريل ولكن المنصوص في غيره أن جبريل أم النبي ﷺ فيحمل قوله: صلى فصلى على أن جبريل كان كلما فعل جزءاً من الصلاة تابعه النبي ﷺ بفعله . اهـ.

وبهذا جزم النووي وقال غيره الفاء بمعنى الواو . واعترض بأنه يلزم عليه أن يكون النبي ﷺ كان يتقدم في بعض الأركان على جبريل على ما يقتضيه مطلق الجمع . وأجيب بمراعاة الحيثية وهي التبيين فكان لأجل ذلك يتراخى عنه ، وقيل : الفاء للسببية كقوله تعالى : ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ وإنما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الصلاة بقوله : الصلاة جامعة ، فيما قدمناه عن نافع بن جبير وغيره ؛ لأن الأذان لم يكن شرع حينئذ .

واستدل بهذا الحديث على جواز الائتمام بمن يأتم بغيره . ويجاب عنه بما يجاب به عن قصة أبي بكر رضي الله عنه في صلاته خلف النبي ﷺ وصلاة الناس خلفه فإنه محمول على أنه كان مبلغاً فقط وتحقيق وجوب الصلوات كان معلقاً ببيان جبريل فلم يتحقق الوجوب إلا بعده وحديث أبي مسعود أفاد أن أصل بيان الأوقات كان بتعليم جبريل عليه السلام على الروايتين المتفقتي المعنى وإن اختلفت ألفاظهما وأصل هذا الحديث أخرجه أبو داود في الصلاة من سننه وكذا أخرجه النسائي وابن ماجة وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى من زاد المسلم .

الاستنتاج من قصة الإسراء والمعراج

إن قصة الإسراء والمعراج قصة حقها أن تكتب بالذهب وأن تنقش في القلوب ، كيف وهي قصة تتضمن الرحلة النبوية المحمدية فيما بين السموات والأرض ، رحلة رأى فيها نبينا "محمد" ﷺ من ربه عز وجل منتهى الإكرام والإحسان ، وكانت نتيجة هذه الرحلة الميمونة المباركة للمؤمنين خيراً كثيراً . لهذا

رأينا أن نتأمل في هذه القصة الشريفة ونكتب مبحثاً خاصاً عما نستنتجه منها . فنقول وبا لله التوفيق :

(١) يؤخذ من شق صدره ﷺ وغسل قلبه في ليلة الإسراء والمعراج أنه لا بد للإنسان إذا أراد مقابلة الملوك وذوي الشأن أو حضور الاجتماعات أن يتهيأ ويتنظف ويلبس أحسن الثياب .

(٢) يؤخذ من غسل قلبه ﷺ بماء زمزم . أنه أفضل مياه الدنيا مطلقاً وكيف لا يكون كذلك وهو بجوار بيت ا لله الحرام ، وهمزة جبريل لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

(٣) وفي شق صدره ﷺ وغسله ليلة الإسراء والمعراج وملئه حكمة وإيماناً والتامه بدون ألم وفي لحظة واحدة ، معجزة وأي معجزة ، بل فيه ثلاث معجزات : شق الصدر وغسله وملؤه بالإيمان والحكمة .

(٤) يؤخذ من إحضار البراق صحبة جبريل ليلة الإسراء والمعراج : أن الملوك والكبراء إذا طلبوا بعض الناس لتكريمه أن يهيئوا له أسباب السفر والوصول ويرسلوا إليه من قبلهم من يدلهم ويستأنس بهم .

(٥) ويؤخذ من صلاته ﷺ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس أن نبينا محمداً مقدم عليهم وهو أفضلهم صلى ا لله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، وهذا يوافق الآية الكريمة في سورة آل عمران : ﴿وإذ أخذ ا لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ ، جاء في تفسير ابن كثير ما يأتي : قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي ا لله عنهما : ما بعث ا لله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لأن بعث ا لله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ؛ لأن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . انتهى .

(٦) ويؤخذ من اجتماع الأنبياء معه في الصلاة : تعرفه عليهم وائتناسه بهم حال الإسراء ، ويؤخذ من رؤيته لبعضهم في كل سماء وسلامه عليهم وترحيبهم به أن هذا اجتماع خاص للاستئناس به وزيادة في تكريمه ﷺ في السموات حتى لا يستوحش فإنه إذا رأى في الملأ الأعلى بعض إخوانه من النبيين من جنسه من البشر استكن واطمئن .

(٧) ويؤخذ من صلاة نبينا محمد بإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببيت المقدس أنهم صلوا جميعاً إلى صخرة بيت المقدس وهي القبلة الأولى ؛ لأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة كان في السنة الثانية من الهجرة ، والإسراء كان قبل الهجرة ، وفي هذه الصلاة إشارة إلى ما سيفرضه الله تعالى على نبينا صلوات الله وسلامه عليه وعلى أمته من الصلوات الخمس .

(٨) ولإسرائه ﷺ إلى بيت المقدس أولاً قبل عروجه إلى السماء جملة فوائد . منها ما ذكرناه هنا ، ومنها أنه ﷺ عند وصفه بيت المقدس لقريش عند إنكارهم للإسراء يكون أدعى لتصديقهم له لمعرفتهم بيت المقدس ، أما لو بدأهم بخبر صعوده إلى السماء في بدء الحديث لاشتد إنكارهم وتكذيبهم له .

(٩) وقوله ﷺ : « ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل . قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد قال: فأرسل إليه قال: نعم ففتح ... » وهكذا مع كل خازن من خزنة السموات السبع : يؤخذ منه أن السموات محروسة وأن لكل منها خازناً على بابه ، لا يفتحون باب السماء إلا لمن أذن له الرحمن جل جلاله ولا إله غيره ، كما يؤخذ منه أن أهل كل سماء لا يختلطون بأهل سماء أخرى ، وأن من عرج منهم إلى سماء أو نزل منها لا بد وأن يكون ذلك بإذن .

(١٠) ويؤخذ من قول جبريل لنبينا "محمد" ﷺ: (هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه) أن نبينا محمداً من نسل إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، فقد انعقد إجماع الأمة على ذلك . ولقد صرح رسول الله ﷺ بهذا في الحديث الذي رواه مسلم (وأنا أشبه ولده به) يعني إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(١١) ويؤخذ من سلام رسول الله ﷺ على كل نبي وجده في السماء كما جاء في الحديث جملة أمور . منها :

١- أن نبينا محمداً ﷺ لما صلى بالأنبياء في بيت المقدس لم يتعرف عليهم ، لذلك كان جبريل يعرفه بالنبي الذي في كل سماء .
٢- يسن أن يتعرف الإنسان بمن يجتمع معه .
٣- يسن أن يسلم القادم على من يقدم عليه .
٤- يسن على صاحب المكان أن يرحب بالقادم ويبش في وجهه .

٥- لا بد أن يصحب ضيوف الملوك والكبراء من يدلهم على الطريق ويعرفهم بمن يستقبلونهم ويجتمعون بهم - فمصاحب ضيوف الملوك يسمى في عرف زماننا "بالتشريفاتي".

(١٢) ويؤخذ من حديث الإسراء أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء والمعراج، وأما كيفيتها وعدد الركعات بأوقاتها فقد نزل جبريل على رسول الله ﷺ فعلمه كل ذلك. كما ذكرنا تفصيله في المبحث الخاص.

(١٣) ويؤخذ من قوله ﷺ «... فراجعت ربي فقال: هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي» أنه ﷺ كلم ربه تعالى بلا واسطة وسمع كلامه سبحانه عز وجل.

(١٤) ويؤخذ من الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ رأى ربه عز وجل فقد روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل».

(١٥) ويؤخذ من قوله ﷺ: «ثم أدخلت الجنة» أن الجنة والنار كانتا مخلوقتين حينئذ.

(١٦) وفي وصف رسول الله ﷺ بيت المقدس لقريش معجزة أخرى أيضاً، ففي الصحيحين: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١٧) ويؤخذ منها أيضاً معجزة أخرى وهي: أنه ﷺ مر في طريقه للإسراء على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فعطش فأخذه وشربه ثم وضعه، ومر أيضاً بعير بني فلان وفلان راكبان قلوصاً أو بعيراً لهما بذي مر فنفر البعير منه ﷺ فرمى بفلان فانكسرت يده، وهذه الأمور كلها أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام قريشاً حينما سألوه: هل لقي في طريقه عيرهم.

فهذه الأمور لو رآها الإنسان العادي في طريقه على دابته لما كان موضع استغراب، أما وقد رآها رسول الله ﷺ وهو راكب البراق الذي يضع خطوه عند أقصى طرفه، والذي عدوها كالريح، وخطوها كالبرق، والذي قد يكون أنه قطع المسافة بين الأرض والسماء في خطوة واحدة - فهنا موضع الاستغراب - إذ

كيف يتمكن رسول الله ﷺ وهو سائر ليلاً في هذه الحالة أن يرى أحوال العير ويصفها لقريش، هذه كلها معجزات كل معجزة تلو الأخرى لتكون آيات بينات على صدقه والله تعالى قادر على كل شيء.

(١٨) ويؤخذ من بعض الروايات أن طريقه ﷺ في رجوعه ليلة الإسراء كان من جهة التنعيم ومر الظهران. والله تعالى أعلم بالغيب والأسرار.

(١٩) ويؤخذ من قصة الإسراء والمعراج معجزة أخرى "وكلها معجزات" وهي: أنه ﷺ ذهب تلك الليلة إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العلا بل وفوق ذلك ورأى ما رأى، في مدة وجيزة فقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها.

(٢٠) ويؤخذ من كيفية الإسراء والمعراج لبيت المقدس والسموات العلا وما فوقها في مدة قصيرة من الليل وهو راكب البراق الذي يضع خطوه في منتهى طرفه والذي يقطع المسافة بين السماء والأرض في خطوة واحدة ولحظة واحدة: أن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء قد خلق في عبده ورسوله "محمد" ﷺ من القوة والاستعداد ما يمكنه أن يتحمل كل ما يتعرضه في عروجه من الأحوال الكونية المانعة من وصول البشر إلى تلك الحدود السماوية فهو ﷺ قد خرق الله له العادات وسخر له الطبيعات، فليس هو كالبشر العادي فلو كان كذلك لا يقدر على رؤية جبريل في كل مرة ولا يمكنه الاجتماع بالملأ الأعلى ليلة الإسراء والمعراج.

وانظر في زماننا هذا مع تقدم صناعة الطيران، لا يقدر إنسان على الطيران في الهواء إلا إلى طبقات محدودة، وذلك أيضاً بعد الاستعدادات الكافية من الثياب الخاصة واستعمال الأوكسيجين والمكيفيات، وهو مع ذلك معرض للأخطار.

فأين هذا الحال من حال رسول الله ﷺ الذي طويت له الأرض واخترقت السموات السبع ورجع من عند ربه الكبير المتعال بكل خير ومزيد الإكرام. ﷺ وعلى آله وأزواجه وأصحابه وذريته صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين. اللهم اجعلنا من سعداء الدارين. آمين.

(٢١) ويؤخذ من الإسراء والمعراج، حكمة دقيقة وسر لطيف جليل وهو أن يرى رسول الله ﷺ بعيني رأسه الملأ الأعلى في السموات كما رأى عوالم الأرض، وأن يرى ما أعد الله له وللمؤمنين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

خطر على قلب بشر ، وليطئمن قلبه إلى ما له عند الله تعالى من المنزلة السامية والمكانة الرفيعة ، وليعلم معاني الآيات القرآنية التي نزلت وتنزل عليه في مسائل السموات والملكوت وأمور الآخرة والقيامة علم مشاهدة ويقين ، وهذا الحال أبلغ وأقوى من حال الإيمان بالغيب لذلك قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ .

ثم تأمل كيف تكون حال رسول الله ﷺ بعد رجوعه من المعراج وقد رأى ما في السموات بل وما فوق السموات ودخل الجنة ورأى نعيمها وهو حي لم يمت ، فهل يركن إلى هذه الدنيا الفانية الخسيسة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ؟ كلا والله .

لذلك كان ﷺ لم يمتع نفسه في الحاة الدنيا قط ، وهو الذي مقامه في أمته أعظم من مقام الملوك لدى شعوبهم بكثير وكثير مما لا نسبة . ولقد كان زهده ﷺ في الدنيا مضرب الأمثال فهو لم يشبع قط من الأكل وكان يقول : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » قالت عائشة رضي الله عنها : لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب .

وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في أضلاعه وقد بكى عمر رضي الله عنه لما رأى عليه ذلك الأثر ﷺ ، ولم يلبس من ثياب الخز والحرير ، وكان يرى نفسه كراكب استظل في طريقه في شجرة فعما قليل سيرحل ، نعم كان ﷺ يجتهد في عبادة ربه فيصلي حتى تتورم قدماه ، ويصوم حتى يقال إنه لا يفطر ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وكان يعطي من العطايا ما لا تطيب بها إلا نفس نبي مرسل ، فكان أجود بالخير من الريح المرسلة وهو الذي يقول: «لو كان لي مثل أحد ذهباً لسرني أن لا تمر عليّ ثلاث ليال وعندي منه إلا شيئاً أرصده لدين» .

نعم كيف يطمئن إلى هذه الدنيا الفانية نبينا "محمد" وهو رسول الله وقد دخل الجنة ليلة المعراج ورأى من نعيمها ما أسقط الدنيا من عينيه ، ورأى ما رأى من إكرام الله عز وجل له ما زهده في الخلق أجمعين . ولذلك كان ختم كلامه عند الموت: « رب اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلى » اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

(واعلم) أنه ﷺ يتجدد عليه ذكرى الإسراء والمعراج كلما قرأ الآيات التي أنزلت عليه في ذلك، خصوصاً حينما كان يعرض القرآن على رفيقه في الإسراء والمعراج جبريل عليه السلام في كل سنة مرة، وعرضه عليه عام موته ﷺ مرتين. فما أحلى هذه الذكرى المباركة الشريفة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

(٢٢) ويؤخذ مما تقدم أن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قال إن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج وتبعهم بعض العلماء، وبعض الصحابة رضي الله عنهم قال رأى النبي ﷺ ربه ليلة المعراج، وتبعهم بعض العلماء.

فقال في هذا الشيخ أحمد المقري المصري:

وقد رأى خير الورى الديَّانا ليلة أسري به عيانا

في المذهب المصحح المشهور وهو الذي ينمي إلى الجمهور

فنستنتج من هذا أن من أثبت رؤية النبي ﷺ ليلة المعراج لا حرج عليه، ومن نفاها لا حرج عليه؛ لأن كلاً من الفريقين يتبع قول بعض الصحابة.

وأما كيفية الرؤيا فهذا لا سبيل إلى الخوض فيه والله تعالى أعلم، وسيأتي بعد هذا المبحث الكلام على الرؤية مفصلاً من كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى.

(٢٣) ويؤخذ من وجود بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السموات السبع معان سامية لم نعرفها، وإنما فهمنا أن وجود أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في السماء الأولى؛ لأنه أول الأنبياء وأبو البشر فكان جميلاً أن يكون هو أول من استقبل نبينا "محمداً" ﷺ في السماء الأولى.

أما وجود خليل الله عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة، فمعناه أنه أقرب الأنبياء إلى الله عز شأنه وجل جلاله، كيف وهو خليله وصفيه لكن مع ذلك له مقام معلوم لا يتعداه، ومعنى مرور نبينا "محمد" ﷺ وذهابه بعد ذلك إلى سدرة المنتهى، أن رتبة نبينا "محمد" فوق رتبة خليل الله إبراهيم، ومقامه أعلا من مقامه عند الله عز وجل الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وأما وجود كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام في السماء السادسة فمعناه أن فضل كليم الله موسى دون فضل خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وليكون الخليل والكليم في سماءين متجاورين لا يفصل بينهما نبي آخر، لأن كلاً منهما اختصه الله بشيء لم يختص به غيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنه قد ذكر كلاهما في آية واحدة في قوله عز شأنه: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى﴾، ثم إن وجود موسى في السماء السادسة فيه حكمة أخرى، وهي إذا رجع نبينا "محمد" عليهما الصلاة والسلام من المناجاة ومرّ بموسى وهذا طلب منه أن يراجع ربه في تخفيف الصلوات عن أمته، كانت المراجعة من السماء السادسة أقرب مسافة من السموات التي بعده.

(٢٤) ويؤخذ مما في صحيح مسلم من أن النبي ﷺ بعد صعوده إلى السماء السابعة رأى فيها إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، يؤخذ من هذا أن النبي ﷺ في عروجه إلى السماء وصل فيها إلى ما يقابل مكة المشرفة؛ لأن البيت المعمور كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها.

والبيت المعمور هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة، كما أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر والحاكم، وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً.

نقول: إن ما ذكرناه هنا عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دليل على تفضيل بعضهم على بعض - وهو كذلك - فقد قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ وقال عز شأنه: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾.

والحقيقة أن كل نبي له مقام معلوم ومنقبة مخصوصة ولهذا فضلوا أولي العزم منهم على غيرهم.

ونحن إذا فضلنا بعض الأنبياء يجب أن يكون التفضيل بالاعتدال وبمقدار ما ورد في الكتاب والسنة، فلا نغلو فيهم ولا نتعدى الحدود في تفضيلهم، حتى لا نقع في محظور، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: « لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم وقولوا عبد الله ورسوله » رواه البخاري في صحيحه. وقال عليه الصلاة والسلام: « لا تخيروا بين الأنبياء » رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: « لا

تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » رواه البخاري ومسلم أيضاً .

وقد جاء هذا الحديث اللطيف بروايات أخرى في الصحيحين وكلها بمعنى واحد وسبب هذا الحديث كما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال : يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك ، فقال من ؟ قال : رجل من الأنصار ، قال : ادعوه ، فقال : أضربته ، فقال : سمعته في السوق يحلف والذي اصطفى موسى على البشر ، قلت : أي خبيث على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذتني غضبة ضربت وجهه ، فقال النبي ﷺ : لا تخيروني من بين الأنبياء ... ».

فتفضيل بعض الأنبياء على بعض بما جاء في الكتاب والسنة لا بأس به ولا حرج ، والمحظور إنما هو تفضيل بعضهم بما يؤدي إلى نقص بعضهم ، هذا هو الممنوع بل هذا قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وإلى هذا يشير العلامة المختار بن بون الشنقيطي بقوله :

مثل النصارى أفرطوا في عيسى	فيما ادعوا وفرطوا في موسى
محمد الحائز الارتفاع	أفضل خلق الله بالإجماع
وعكسهم معاشر اليهود	وفرط الجميع في المحمود
عليه أزكى صلوات الباري	ما كور الليل على النهار

ولما نزل قول الله تعالى في حق خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أو لم تؤمن﴾ قالت طائفة : شك إبرهيم عليه السلام ولم يشك نبينا ، فقال ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أو لم تؤمن ، قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

قوله: « لأجبت الداعي » أي داعي الملك . ومثل هذه الأحاديث الصحيحة الصادرة من رسول الله ﷺ تدل على تواضعه ﷺ ومدحه لهم ، فهو لا يصرح أنه

أفضل من إخوانه الأنبياء وأنه هو كذلك في حقيقة الأمر ، وفضله عليهم واضح كالشمس ويؤخذ ذلك من الكتب والسنة صريحاً وتلويحاً ، فهو سيد ولد آدم بصريح الأحاديث ، قد أجمعت الأمة المحمدية التي لا تجتمع على ضلالة على ذلك .

وانعقد الإجماع أن المصطفى : أفضل خلق الله والخلف انتفى ولولا خوف التطويل لبسطنا الأدلة على ذلك بالتفصيل التام.

اللهم صل وسلم على سيدنا "محمد" عبدك ونبيك ورسولك وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الأتقياء أجمعين .

(٢٥) ويؤخذ من قصة الإسراء والمعراج : أنها تدل دلالة صريحة واضحة أن الله سبحانه وتعالى اختص ذلك بعبده ورسوله "محمد" دون غيره من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ليرى ملكوت السموات والأرض ، وهذا دليل على ما لنبينا ﷺ من المنزلة العظمى والمقام المحمود عند ربه الكبير المتعال ذي الجلال والإكرام الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. فيزداد رسول الله ﷺ بذلك شكراً وليكون من الموقنين ظاهراً وباطناً حساً ومعنى ، فرؤية نبينا "محمد" ﷺ في الإسراء والمعراج ملكوت السموات والأرض بالمشاهدة الحسية يعني بعيني رأسه ، غير رؤية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك كما في قوله تعالى : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ .

ومن أراد بيان الأدلة الشرعية على تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء فليراجع شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث: « نحن أحق بالشك من إبراهيم ... الخ » ، بأواخر الجزء الرابع ، فنحن مع يقيننا بهذا التفضيل لنبينا "محمد" نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ما علمناهم وما لم نعلمهم ، ونحبهم ونحترمهم ونصلي ونسلم عليهم ، من أبينا "آدم" أول الأنبياء إلى نبينا "محمد" خاتم الأنبياء .

ولكن لا يعلم هذا الفارق إلا الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى.

هذا بعض ما استنتجناه من قصة الإسراء والعراج بحسب فهمنا القليل وإدراكنا القاصر ، فإذا أمعن فيها ذوي الفكر والنظر والبصيرة والبصر ، لظهر له من الأمور الدقيقة أكثر وأكثر ، فقصة الإسراء والمعراج تشتمل كلها على عظيم المعجزات كل معجزة أكبر من أختها ، وهي من أولها إلى آخرها صريحة بمزيد

إكرام الله تعالى وإحسانه لعبده ورسوله خاتم الأنبياء "محمد" ﷺ بحيث بلغ الإكرام منتهاه ، وهل بعد قوله تعالى : ﴿ثم دنا فتدلى ۞ فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ مقام أسمى من هذا .

اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك "محمد" المختار ، وعلى آله وذريته المباركين الأطهار ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وصحابته الأجلاء البررة المتقين .

اللهم إنا نسألك وأنت خير المسئولين ، ونطلب منك وأنت أكرم الأكرمين أن تعرج بنا إلى العلا دواماً بفضلك ورحمتك وإن لم نسهر الليالي بالعمل ، وأن تملأ قلوبنا بالإيمان والحكمة ، وأن تنوّر بصائرنا وتشرح صدورنا ، وأن ترزقنا العفو والعافية والصحة والسلامة ، وأن ترزقنا من برك وإحسانك رزقاً حلالاً واسعاً عظيماً هنيئاً بدون عصيان ولا طغيان ، وأن تثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن تميتنا على الإيمان الكامل على طهارة ونظافة وفي أفضل يوم وأشرف ساعة وأبرك بقعة بدون تعب ولا مرض ولا نصب، وأن تدخلنا جنتك المفضلة بسلام آمنين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وأن تجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الكلام على رؤية النبي ﷺ ربه عز وجل

لما اختلفوا هل رأى نبينا "محمد" ﷺ ربه سبحانه وتعالى ليلة المعراج أم لا ، رأينا من اللازم أن نشبع الكلام عن هذا الموضوع ، ولا بد أن ننقل من أوثق الكتب المعتمدة فنقلنا ما يأتي من كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" ﷺ ، تأليف العلامة القاضي عياض وهو من علماء القرن السادس الهجري . وإليك ما جاء فيه حرفياً وهو :

(فصل) وأما رؤيته ﷺ لربه عز وجل فاختلف السلف فيها ، فأنكرته عائشة رضي الله عنها . حدثنا أبو الحسين سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه ، قال : حدثني أبي وأبو عبدالله بن عتاب الفقيه قالا : حدثنا القاضي يونس بن مغيث ، حدثنا أبو الفضل الصقلي ، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت عن أبيه

وحده ، قالا : حدثنا عبدا لله بن علي ، حدثنا محمود بن آدم ، حدثنا وكيع عن ابن أبي خالد عن عامر عن مسروق أنه قال لعائشة رضي ا لله عنها : يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، ثلاث من حدثك بهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية . وذكر الحديث .

وقال جماعة بقول عائشة رضي ا لله عنها وهو المشهور عن ابن مسعود ، ومثله عن أبي هريرة أنه قال : إنما رأى جبريل واختلف عنه ، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين .

وعن ابن عباس رضي ا لله عنهما : أنه رآه بعينه ، وروى عطاء أنه رآه بقلبه ، وعن أبي العالية عنه : رآه بفؤاده مرتين ، وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي ا لله عنهما يسأله هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم . والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه ، روي ذلك عنه من طرق ، وقال: إن ا لله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة ، ومحمداً بالرؤية ، وحجته قوله تعالى : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى ۞ أفتمارونه على ما يرى ۞ ولقد رآه نزلة أخرى﴾.

قال الماوردي : قيل إن ا لله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ﷺ ، رآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين .

وحكى أبو الفتح الرازي وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب ، وروى عبدا لله بن الحارث قال : اجتمع ابن عباس وكعب ، فقال ابن عباس : أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمداً قد رأى ربه مرتين ، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال ، وقال : إن ا لله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى ، فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه ، وروى شريك عن أبي ذر رضي ا لله عنه في تفسير الآية قال : رأى النبي ﷺ ربه .

وحكى السمرقندي عن محمد بن كعب القرظي وربيع بن أنس أن النبي ﷺ سئل : هل رأيت ربك ؟ قال : رأيته بفؤادي و لم أره بعيني ، وروى مالك بن يخامر عن معاذ عن النبي ﷺ قال : رأيت ربي وذكر كلمة ، فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ، الحديث .

وحكى عبدالرزاق أن الحسن كان يحلف با لله لقد رأى محمد ربه ، وحكاه أبو عمر الطلمنكي عن عكرمة ، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود .

وحكى ابن إسحق أن مروان سأل أبا هريرة هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم ، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه : رآه رآه حتى انقطع نفسه ، يعني نفس أحمد . وقال أبو عمر ، قال أحمد بن حنبل : رآه بقلبه وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار . وقال سعيد بن جبير : لا أقول رآه ولا لم يره .

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس وعكرمة والحسن وابن مسعود ، فحكى عن ابن عباس وعكرمة رآه بقلبه ، وعن الحسن وابن مسعود رأى جبريل ، وحكى عبدا لله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال : رآه ، وعن ابن عطاء في قوله تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ، قال : شرح صدره للرؤية ، وشرح صدر موسى للكلام .

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي ا لله عنه وجماعة من أصحابه : أنه رأى ا لله تعالى ببصره وعيني رأسه ، وقال : كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام ، فقد أوتي مثلها نبينا محمد ﷺ وخص من بينهم بتفضيل الرؤية . ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال : ليس عليه دليل واضح ، ولكنه جائز أن يكون .

قال القاضي أبو الفضل وفقه ا لله : والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلاً وليس في العقل ما يحيل ، والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها ، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على ا لله وما لا يجوز عليه ، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مستحيل ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه ا لله فقال له ا لله تعالى : ﴿لن تراني﴾ أي لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي ، ثم ضرب له مثلاً مما هو أقوى من بنية موسى وأثبت وهو الجبل . وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا بل فيه جوازها على الجملة ، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها ، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى : ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لاختلاف التأويلات في الآية ، وإذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة.

وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة، وقد قيل لا تدركه أبصار الكفار، وقيل لا تدركه الأبصار لا تحيط به، وهو قول ابن عباس، وقد قيل لا تدركه الأبصار وإنما يدركه المبصرون. وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ وقوله: ﴿تبت إليك﴾ لما قدمناه ولأنها ليست على العموم، ولأن من قال أن معناها لن تراني في الدنيا إنما هو تأويل، وأيضاً فليس فيه نص الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى.

وحيث تتطرق التأويلات وتتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل. وقوله تعالى: ﴿تبت إليك﴾ أي من سؤالي ما لم تقدره لي. وقد قال أبو بكر الهذلي في قوله: ﴿لن تراني﴾ أي ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا وأنه من نظر إليّ مات.

وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة عرضاً للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية.

وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس رحمه الله، قال: لم ير في الدنيا؛ لأنه باق ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رؤي الباقي بالباقي.

وهذا كلام حسن مليح وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه. وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحاها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رأياه، والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر في أثناء أجوبته عن الآيتين ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صاعقاً، وأن الجبل رأى ربه فصار دكاً بإدراك خلقه الله له، واستنبط ذلك والله أعلم من قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾، ثم قال: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا﴾ وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه على هذا القول. وقال جعفر

بن محمد : شغله بالجبل حتى تجلى ولولا ذلك لمات صعقاً بلا إفاقة ، وقوله هذا يدل على أن موسى رآه .

وقد وقع لبعض المفسرين في الجبل أنه رآه وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبينا له إذ جعله دليلاً على الجواز ولا مرية في الجواز إذ ليس في الآيات نص في المنع .

وأما وجوبه لنبينا ﷺ ، والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص ، إذ المعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك ، وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجب العمل باعتقاد مضمنه ، ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية ، وحديث معاذ محتمل للتأويل وهو مضطرب الإسناد والمتن ، وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل ، فروى : نور أنى أراه.

وحكي بعض شيوخنا أنه روى : نوراني أراه ، وفي حديثه الآخر سألته فقال : رأيت نوراً ، وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية ، فإن كان الصحيح رأيت نوراً ، فهو قد أخبر أنه لم ير الله تعالى ، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى ، وإلى هذا يرجع قوله : نور أنى أراه ، أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر ، وهذا مثل ما في الحديث الآخر حجابه النور ، وفي الحديث الآخر : لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين ، وتلا : ﴿ثم دنا فتدلى﴾ ، والله تعالى قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب أو كيف شاء لا إله غيره ، فإن ورد حديث نص بين في الباب اعتقد ووجب المصير إليه ، إذ لا استحالة فيه ولا مانع قطعي رده ، والله الموفق للصواب .

ثم قال القاضي عياض بعد ذلك ما يأتي :

وكلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز ، غير ممتنع عقلاً ، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه ، فإن صح في ذلك خبر اعتمد عليه ، وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به ، نص على ذلك في الكتاب ، وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة ورفع مكانه على ما ورد في الحديث في السماء السابعة بسبب كلامه ، ورفع محمداً فوق هذا كله ، حتى بلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام ، فسبحان من خص من شاء بما شاء وجعل بعضهم فوق بعض درجات.

خلاصة ما ورد في كتاب الشفاء من الأقوال في الرؤية

تقدم تفصيل الكلام على رؤية نبينا "محمد" ﷺ ربه عز وجل ليلة المعراج . والآن نحب أن نلخص الأقوال الواردة في ذلك مما ذكره القاضي عياض رحمه الله تعالى في كتابه "الشفاء" وهو فيما يأتي :

(١) أن عائشة رضي الله تعالى عنها قد أنكرت الرؤية . وقال بعضهم بقولها .

(٢) وأن ابن عباس رضي الله عنه أثبت الرؤية وقال : رآه بعينه .

(٣) وأن أبا ذر رضي الله عنه قال : رأى النبي ﷺ ربه .

(٤) وأن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه .

(٥) وأن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه .

(٦) وأن أحمد بن حنبل تبع ابن عباس وقال بحديثه : بعينه رآه رآه ، وفي رواية عنه عن أحمد بن حنبل قال : رآه بقلبه .

(٧) وأن أبا هريرة وابن مسعود قالا إنما رأى جبريل ، وروي عن أبي هريرة رأى محمد ربه .

(٨) وأن سعيد بن جبير قال : لا أقول رآه ولا لم يره .

هذه خلاصة الأقوال الواردة في كتاب الشفاء ، ولا حرج في اتباع أي قول من هذه الأقوال والحق يقال : أن رؤية النبي ﷺ في الدنيا جائزة عقلا ، وليس هناك نص في المنع ، وأما الوجوب والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص .

اللهم اغفر لنا وارحمنا واعف عنا وطهرنا من المعاصي والذنوب ، حتى نليق بالنظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة ، والاجتماع بنبيك الكريم محمد ﷺ بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين. آمين.

هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة

لما سمعت قريش مبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ، وأنهم يدافعون عنه ويمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، ساءهم ذلك جداً. فاجتمع عظماؤهم ورؤساؤهم في دار الندوة، للتشاور فيما بينهم ووضع خطة محكمة توقف النبي ﷺ عن الدعوة إلى الإسلام، وبعد أن أدلى كل منهم رأيه أجمعوا على قتله بكيفية لا يقدر بها بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية، وذلك بأن يأتي من كل قبيلة شاب قوي شجاع ثم يجتمعوا أمام داره، فإذا خرج محمد ﷺ ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل.

فعندئذ أعلم الله عز وجل نبيه الكريم بما دبره له أعداؤه، وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في وقت الظهيرة، وأخبره بأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة. فسأله أبو بكر الصحبة، فقال: نعم. ثم اتفقا على المقابلة ليلاً خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد شباب قريش لتنفيذ الخطة التي رسموها لقتله ﷺ، فاجتمعوا حول باب داره ورسول الله داخلها، فلما أراد الخروج أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن يبيت مكانه على فراشه، وقال له: إنهم لن يضروك، فألقى الله على أعدائه النوم فخرج النبي ﷺ من الدار، ووضع على رأس كل واحد منه التراب وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ و لم يزل عليه الصلاة والسلام سائر حتى تقابل مع أبي بكر الصديق فسارا معاً حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه.

أما المشركون فحينما استيقظوا ووجدوا التراب على رؤوسهم علموا أن محمداً قد خرج من الدار، فدخلوها فوجدوا علياً على الفراش فلم يتعرضوا له، ثم خرجوا يطلبونه ﷺ في كل جهات مكة وجعلوا الجوائز لمن يأتي به أو يدلهم عليه، ولقد وصلوا إلى الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ مع أبي بكر بجبل ثور، فحين رآهم أبو بكر اشتد خوفه على النبي ﷺ وبكى وقال له: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فحينئذ قال له ﷺ: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ فأعمى الله أبصار المشركين فلم يروهما في ذلك الغار وإلى

هذا تشير الآية الكريمة : ﴿فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ .

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وهنا يحلو للمؤمن أن يقف على مسألة هجرة النبي ﷺ وحديث الغار مفصلاً ، لذلك نحب أن نسترسل في الكلام وننقل ما ورد عن ذلك من الكتب المعتمدة في الحديث والتاريخ ، فنقول وبالله تعالى التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

قال شيخنا المحدث الشهير محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في كتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" في الجزء الخامس عند حديث : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ما نصه :

وسبب هذا الحديث كما في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر وما ظنك باثنين الله ثالثهما . فقوله عليه الصلاة والسلام: ما ظنك باثنين الله ثالثهما جواب لأبي بكر رضي الله تعالى عنه . وبيان أنه جواب أن لازم الحالة التي قال فيها أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه الخ الخوف ، ولازم قوله ﷺ هذا أن لا خوف.

قال القرطبي: والحديث ظاهر في قوة توكله ﷺ وعظم منزلة أبي بكر رضي الله عنه بهذا القول.

والغار المذكور في القرآن وفي قول الصديق ونحن في الغار هو كما قاله السهيلي وغيره غار بجبل ثور أحد جبال مكة شرفها الله . وقد زرته وبت فيه بعض الليالي تبركاً بآثار رسول الله ﷺ على عادة السلف الصالح ؛ كابن عمر رضي الله عنهما ، وقرأت فيه تفسير قوله تعالى : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ الخ الآية. وحديث الهجرة من صحيح البخاري بطوله وسأذكره هنا للمناسبة عن قريب إن شاء الله تعالى .

وكان من حديث الغار كما قاله عياض وغيره أن المشركين اجتمعوا لقتل رسول الله ﷺ وبيتوه، فأمر علياً أن يرقد على فراشه، وقال: إنهم لن يضروك. فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم على الباب ولم يروه، ووضع على رأس كل واحدٍ التراب، وانصرف عنهم إلى غار ثور فاختفى فيه. وأخبروا أنه قد خرج عليهم ووضع التراب على رؤوسهم فمدوا أيديهم إلى رؤوسهم فوجدوا التراب، فدخلوا الدار فوجدوا علياً على الفراش فلم يتعرضوا له، ثم خرجوا من كل وجه يطلبون النبي ﷺ ويقتفون أثره بقائف معهم إلى أن وصلوا الغار، فوجدوا العنكبوت قد نسجت عليه. وما أحلى قول بعضهم في هذا المعنى:

ودود القز إن نسجت حريراً ... يجمل لبسه في كل شيء

فإن العنكبوت أجل منها ... بما نسجت على غار النبي

(قال الأُبي) قال السهيلي: ولما وصل رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار تقدم أبو بكر رضي الله عنه في الدخول ليقيه بنفسه، ورأى فيه حجراً فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ. قال ثابت في الدلائل: ولما دخلاه أنبت الله سبحانه وتعالى على بابه الراءة بالمد، وهي شجرة من غلاة الشجر تكون مثل قامة الإنسان لها خيطان وزهر أبيض يحشى به المخاد؛ كالريش في خفته ولينه. وفي سند البزار أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فعششتا على فم الغار، وأن ذلك مما صد المشركين عنه، وأن حمام مكة من نسل تينك الحمامتين، وأن قريشا لما انتهى بهم القائف إلى فم الغار وجدوا ما ذكر على فم الغار، فحين رآهم أبو بكر رضي الله عنه اشتد خوفه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فحينئذ قال ﷺ لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا أي بالحفظ والكلاءة اهـ. وقولي واللفظ له أي لمسلم.

وأما البخاري فلفظه في باب مناقب المهاجرين وفضلهم: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. ولفظه من كتاب التفسير في باب قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾. ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ولفظه في الهجرة: اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما. فهذا لفظ البخاري في رواياته الثلاث وفي قوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ دليل على أن من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه كفر لتكذيبه القرآن (فإن قلت): لا دلالة في

لفظ لصاحبه على خصوص أبي بكر (أجيب) : بأن الإجماع منعقد على أنه أبو بكر رضي الله عنه .

أما حديث الهجرة فيناسب أن أذكر قبله ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وحديث الهجرة الطويل هو ما أخرجه البخاري بلفظ حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، و لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ، وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرَج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج . أتخرجون رجلاً يكسب للمعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء الله ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر . فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه . وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ،

وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما ان ترجع إلي ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عزَ وجل . والنبي ﷺ يومئذ بمكة . فقال النبي ﷺ للمسلمين : إني أريت دار هجرتكم ذات نخل ، بين لابتين ، وهما الحرتان . فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة . وتجهز أبو بكر قبل المدينة . فقال له رسول الله ﷺ : على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك -بأبي أنت وأمي- قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فدى له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر : اخرج من عندك . فقال : أبو بكر : إنما هم أهلك -بأبي أنت يا رسول الله- قال : فإني قد أذن لي في الخروج . فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يا رسول الله قال رسول الله ﷺ : نعم . قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله أحد راحلتي هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن . قالت عائشة : فجهزناهما أحسن الجهاز وضعنا لهم سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق ، قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبدا لله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا دعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام . ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورصيفتهما ، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس .

يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً، -والخريت الماهر بالهداية - قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق الساحل.

فإن قيل: فما حكمة ذهاب رسول الله ﷺ إلى جبل ثور والاختفاء في غاره عند هجرته إلى المدينة المنورة؟

نقول: إن ذهاب رسول الله ﷺ إلى جبل ثور للاختفاء في غاره، إنما هو بتوجيه من ربه عز وجل، إن هذا الجبل يقع في أسفل مكة ويبعد عن الكعبة بنحو ثلاث كيلو مترات، وهو جبل لا يقع على طريق المسافر إلى جدة أو الطائف، وإنما جبل بين جبال مكة لا يصلح أن يلجأ إليه أحد. وربما كان اختفاء رسول الله ﷺ فيه لتضليل كفار قريش عن اقتفاء أثره، فإن الإنسان إذا هرب من بلدة إلى أخرى يسلك جادة الطريق، وفي ذلك العصر الطريق إلى هذا الجبل وعر، صعب، مليئة بأشجار الشوك والأحجار، بخلافها في زماننا الحاضر فإنها نظيفة معبدة بالإسفلت تسير فيها السيارات، ومع ذلك فقد بحث عنه ﷺ كفار قريش في كل الجهات، حتى توصلوا إلى هذا الجبل ووقفوا على باب الغار، ولكن الله تبارك وتعالى حجبه عن أعينهم معجزة له ﷺ.

فجبل ثور وغاره مبارك لاختفاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله تعالى عنه فيه، بل مكة كلها مقدسة مباركة، منذ أن اكتشفها خليل الله إبراهيم وأسكن فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر عليهم الصلاة والسلام.

ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها

جاء في الجزء السادس من شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عن ترجمة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما عند حديث: « لا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت ». قاله عليه الصلاة والسلام لذات النطاقين. رواه البخاري ومسلم عن أسماء المذكورة رضي الله عنها.

فبعد أن شرح المؤلف شيخنا رحمه الله تعالى الحديث المذكور قال عن ترجمة أسماء رضي الله تعالى عنها ما يأتي:

وأما راوي الحديث هنا : فأسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما ، وأمها قتلة أو قتيلة بنت عبد العزى ، قرشية من بني عامر ابن لؤي ، وقد أسلمت أسماء قديماً بمكة . قال ابن إسحاق : بعد سبعة عشر نفساً ، وتزوجها الزبير بن العوام ، وهاجرت وهي حامل منه بولده عبدا لله فوضعته بقباء ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين ، وعاشت أسماء إلى أن ولي ابنها الخلافة ، ثم إلى أن قتل وماتت بعده بقليل على ما سيأتي .

وكانت تلقب بذات الطاقين . قال أبو عمر : سماها رسول الله ﷺ ذات النطاقين ؛ لأنها هيأت له لما أراد الهجرة سفرة ، فاحتاجت إلى ما تشدها به ، فشقت خمارها نصفين فشدت بنصفه السفرة وانتطقت النصف الثاني، فسماها رسول الله ﷺ ذات النطاقين . قال : هكذا ذكر ابن إسحاق وغيره .

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة : وأصل القصة في صحيح مسلم دون التصريح برفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أسند ذلك أبو عمر من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب قال : قالت أسماء للحجاج : كيف تعيّره بذات النطاقين ؟ تعني ابنها ، أجل قد كان لي نطاق أغطي به طعام رسول الله ﷺ من النمل ، ونطاق لا بد للنساء منه ، قال أبو عمر لما بلغ ابن الزبير أن الحجاج يُعيِّرُه بابن ذات النطاقين أنشد قول الهذلي متمثلاً :

وعيَّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة نازح عنك عارها

فإن اعتذر منها فإني مكذب ... وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

وقال ابن سعد: أخبرنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه وفاطمة بنت المنذر ، عن أسماء قالت : صنعت سفرة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة ، فلم نجد لسفرته ولا لسقائه من نربطهما به ، فقلت لأبي بكر : ما أجد إلا نطاق ، قال : شقيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة . وسنده صحيح .

وبهذه السند عن عروة عن أسماء قالت : تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه ، قالت : فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسومه وأدق النوى لناضحه ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير الحديث ، وفيه حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك خادماً فكفتني سياسة الفرس . قال : وقال الزبير بن

بكار في هذه القصة قال لها رسول الله ﷺ : أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة ، فقيل لها "ذات النطاقين" .

وقد روت أسماء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدة أحاديث وهي في الصحيحين والسنن . قاله الحافظ ابن حجر في الإصابة . وقال الخزرجي في الخلاصة : لها ستة وخمسون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على أربعة عشرة منها ، وانفرد البخاري بأربعة ، ومسلم بمثلها ، وروى عنها ابنها عبدالله وعروة ، وأحفادها عباد بن عبد الله ، وعبدالله بن عروة ، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير ، وعباد بن حمزة بن عبد الله ابن الزبير ، ومولاها عبد الله بن كيسان ، وابن عباس ، وصفية بنت شيبة ، وجماعة .

قالت فاطمة بنت المنذر : كانت أسماء تمرض المرضة فتعتق كل مملوك لها ، وأخرج ابن السكن من طريق أبي المحياة يحيى ابن يعلى التيمي عن أبيه ، قال : دخلت مكة بعد أن قتل ابن الزبير فرأيته مصلوباً ، ورأيت أمه أسماء عجوزاً طوالة مكفوفة ، فدخلت حتى وقفت على الحجاج ، فقالت : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ قال : "المنافق" ! قالت : لا والله ما كان منافقاً ، وقد كان صواماً قواماً . قال : اذهبي ، فإنك عجوز قد خرفت ، فقالت : لا والله ، ما خرفت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير ، فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو ، فقال الحجاج : منه المنافقون .

وأخرج ابن سعد بسند حسن عن ابن أبي مليكة : كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول : بذنبي وما يغفر الله أكثر .

وقال هشام بن عروة عن أبيه : بلغت أسماء مائة سنة لم تسقط لها سن ولم ينكر لها عقل .

وقال أبو نعيم الأصبهاني : ولدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين سنة ، وعاشت إلى أوائل سنة أربع وعشرين ، واختلف في مكثها بعد ابنها عبدالله ، فقيل عاشت بعده عشر ليال ، وقيل عشرين يوماً ، وقيل بضعاً وعشرين يوماً ، حتى أتى جواب عبد الملك بإنزال ابنها عن الخشبة وماتت وقد بلغت مائة سنة ، قال ابن إسحاق: توفيت بمكة سنة ثلاث وسبعين . قال الذهبي : وهي آخر المهاجرات وفاة . وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى من الكتاب المذكور .

عود إلى هجرة النبي ﷺ

قال ابن شهاب : وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول : جاءنا رسل قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره . فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة الساحل آراها محمداً وأصحابه . قال سراقة ، فصدقت أنهم هم ، فقلت لهم : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبغون ضالة لهم . ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت ، فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي ، وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها ، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها آخرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي . حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض ، حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ، ولم يسألاني ، إلا أن قال : أخف عنا . فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر ابن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسى الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بيض . وسمع المسلمون بالمدينة فخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظاره ، فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من

آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب ! هذا جدكم الذي تنتظرونه . فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف . وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول .

فقام أبو بكر ، وجلس مع رسول الله ﷺ صامتاً . فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك . فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين . وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل ، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة . فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل . ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً . فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ﷺ . فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً . وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبرّ ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي .

قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت اهـ . بطوله بلفظ البخاري في صحيحه .

وقوله : قال ابن شهاب في المواضع الثلاث في هذا الحديث الطويل هو متصل بإسناد حديث عائشة المذكور ، كما صرح به الحافظ في فتح الباري .

وأخرج البخاري أيضاً في مناقب المهاجرين وفضلهم ، وفي علامات النبوة قصة حديث الهجرة مختصرة من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه قال : اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر

لعازب : مر البراء فليحمل إليّ رحلي . فقال عازب : لا ، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم . قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرنا ليلتنا ويومنا ، حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه ، فإذا صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظل لها فسويته ، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه ، ثم قلت له : اضطجع يا نبي الله . فاضطجع النبي ﷺ . ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً . فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة ، يريد منها الذي أردنا . فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من قريش سماه فعرفته . فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : فهل أنت حالب لبناً ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه . فقال : هكذا . ضرب إحدى كفيه بالأخرى . فحلب لي كثبة من لبن . وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ . فقلت له : اشرب يا رسول الله . فشرب حتى رضيت ، ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله . قال : بلى . فارتحلنا والقوم يطلبوننا . فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له . فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله . فقال : لا تحزن إن الله معنا .

زاد في علامات النبوة . فدعا عليه النبي ﷺ فارتطمت به فرسه إلى بطنها أرى في جلد من الأرض -شك زهير- فقال : إني أراكما قد دعوتما عليّ ، فادعو لي فالله لكما أن أرد عنكما الطلب ، فدعا له النبي ﷺ فنجا ، فجعل لا يلقي أحداً إلا قال : كفيتكم ما هنا فلا يلقى أحداً إلا رده . قال : ووفى لنا اهـ .

وفي حديث المتن كما قدمنا ظهور قوة توكل رسول الله ﷺ ، وعظم منزلة أبي بكر رضي الله عنه حيث جعله الله مع نبيه ، وكان تعالى ثالثهما .

وفي قصة حديث الهجرة الطويل فوائد منها : خدمة التابع الحر للمتبوع في يقظته ، والذب عنه عند نومه ، وخدمة التلميذ لشيخه ، وما تثمره من المزايا في المآل لما حصل للصديق من الفضل في الدنيا والآخرة . أما الدنيا فلا فضل فيها أعظم من إجماع المسلمين على أنه هو الأحق بخلافة رسول الله ﷺ وبيعتهم له بعد النزاع أولاً . وأما الآخرة فقد دلت الأدلة على أنه فيها من أعظم هذه الأمة

منزلة عند الله لما ثبت في الصحيحين من أنه يدخل الجنة من جميع أبوابها كما تقدم لنا في هذا الكتاب مع تبشيره بالجنة كسائر من بشر بها ، ودفنه مع النبي ﷺ في مكان واحد ، ومنها محبة أبي بكر للنبي ﷺ وأدبه معه وإيثاره له على نفسه ، ومنها أدب الأكل والشرب واستحباب التنظيف لما يؤكل ويشرب . ومنها استصحاب آلة السفر كالإداوة والسفرة ولا يقدح ذلك في التوكل . ومنها جواز شرب اللبن الذي يحلبه الراعي للمسافر إذا جرت العادة بالمسامحة فيه كما هو عادة العرب في ذلك الزمن . وفي فتح الباري قال المهلب بن أبي صفرة : إنما شرب النبي ﷺ من لبن تلك الغنم ؛ لأنه كان حينئذ في زمن المكارمة ، ولا يعارضه حديث : « لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه » ؛ لأن ذلك وقع في زمن التشاح ، أو الثاني محمول على التسور والاختلاس ، والأول لم يقع فيه ذلك ، بل قدم أبو بكر سؤال الراعي : هل أنت حالب ؟ فقال : نعم . كأنه سأله هل أذن لك صاحب الغنم في حلبها لمن يرد عليك؟ فقال : نعم . أو جرى على العادة المألوفة للعرب في إباحة ذلك ، والإذن في الحلب على المار ، ولابن السبيل . فكأن كل راع مأذوناً له في ذلك .

وقال الداودي: إنما شرب من ذلك على أنه ابن سبيل وله شرب ذلك إذا احتاج ، ولا سيما النبي ﷺ . وأبعد من قال إنما استجازه ؛ لأنه مال حربي ؛ لأن القتال لم يكن فرض بعد ، ولا أبيحت الغنائم . وللمالكية في هذه المسألة تفصيل منسوب للخمي نظمه صاحب سلم القضاة إلى منازل نوازل الرعاة . من علماء قطرنا بقوله :

سقى الرعاة من لقوا من لبن ... مرعيهم مالك لا يعجبن
يريد يكره إذا ما غلبا ... إباحة الناس لما قد حلبا
وليس يكره ولكن يحرم ... إن كان لا يبيح أكثرهم
وإن أباحوا لبن المرعى ... لم يكره التفصيل للخمي

وحديث المتن كما أخرجه الشيخان أخرجه الترمذي في كتاب التفسير من سننه . انتهى كل ذلك من زاد المسلم .

ما لقيه رسول الله ﷺ من التعب في طريقه إلى الغار

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : وكان رسول الله ﷺ قد خلع نعليه في طريق الغار ، وكان يمشي على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرهما على الأرض ، حتى حفيت رجلاه "أي رقتا من كثرة المشي" ، فلما رآه أبو بكر وقد حفيت رجلاه حمله على كاهله وجعل يشتد حتى أتى الغار . كذا في دلائل النبوة .

ثم جاء فيه بعد هذا ببضعة أسطر من هذا الكلام ما يأتي : وروي عن أبي بكر أنه قال لعائشة : لو رأيتني ورسول الله ﷺ إذ صعدنا الغار ، فأما قدما رسول الله ﷺ فتفطرتا ، وأما قدماي فعادتا كأنهما صفوان ، قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ لم يتعود الحفية ولا الرعية.

وروي عن أبي بكر أنه قال : نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد قطرتا دماً ، فاستبكيت ، فعلمت أنه ﷺ لم يتعود الحفاء ولا الحفوة.

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن البصري قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر إلى الغار قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حية ليقي رسول الله ﷺ بنفسه .

وفي معالم التنزيل : قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله ﷺ حتى أستبرئ الغار ، وكان الغار مشهوراً بكونه مسكن الهوام والوحوش ، قال : ادخل . فدخل ، فرأى غاراً مظلماً ، فجلس وجعل يلتمس بيده ، كلما وجد جحراً أدخل فيه إصبعه حتى انتهى إلى جحر كبير فأدخل رجله إلى فخذه فأجرحه.

وفي رواية : كلما وجد جحراً شق ثوبه فألقمه إياه حتى فعل ذلك بثوبه كله ، فبقي جحر فألقمه عقبه.

وفي الرياض النضرة : فجعل الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه انتهى . وعلى كل التقديرين لدغته الحية تلك الليلة . قال أبو بكر : فلما ألقمت عقبي الجحر لدغتني الحية ، وإن كانت اللدغة أحب إليّ من أن يلدغ رسول الله ﷺ ، انتهى .

ثم قال أبو بكر : أدخل يا رسول الله ، فإني سويت لك مكاناً . فدخل فاضطجع رسول الله ﷺ ، وأما أبو بكر فكان متألماً من لدغة الحية ، ولما أصبحا رأى النبي ﷺ على أبي بكر أثر الورم ، فسأله عنه ، فقال : من لدغة الحية . فقال

النبي ﷺ : هلا أخبرتني ؟ قال : كرهت أن أوقظك . فمسحه النبي ﷺ فذهب ما به من الورم والألم . ثم قال : فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ فأخبره بما فعل ، فعند ذلك رفع النبي ﷺ يده فقال : اللهم اجعل أبا بكر في درجتي يوم القيامة . فأوحى الله إليه قد استجاب لك . كذا في المنتقى خرجه الحافظ أبو الحسين بن بشر والملا في سيرته عن ميمون بن مهران عن ضبة بن محصن الغنوي.

وعن ابن عباس : قال له رسول الله ﷺ : رحمك الله صدقتني حين كذبني الناس ، ونصرتني حين خذلني الناس ، وآمنت بي حين كفر بي الناس ، وآنستني في وحشتي فأي منة لأحد علي مثلك . خرجه في فضائله ، ذكره في الرياض النضرة.

وفي معالم التنزيل قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض .

قال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن ، وفي سائر الصحابه إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً . انتهى من تاريخ الخميس .

وقت الخروج من الغار والسفر إلى المدينة

جاء في تاريخ الخميس في الجزء الأول منه عن وقت خروجه ﷺ من غار ثور وعن وقت وصوله إلى المدينة المنورة ما نصه:

وفي الاستيعاب : أذن الله له في الهجرة إلى المدينة يوم الاثنين ، وكانت هجرته في ربيع الأول وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وقدم المدينة يوم الاثنين قريباً من نصف النهار ، في الضحى الأعلى لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . هذا قول ابن إسحاق ، وكذا قال غيره ، إلا أنه قال : كان مخرجه إلى المدينة لهلال ربيع الأول.

وقال أبو عمرو وقد روي عن ابن شهاب أنه قدم المدينة لهلال ربيع الأول .
وقال عبد الرحمن ابن المغيرة : قدم المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول .
وقال الكلبي : خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، قال أبو عمرو وهو قول ابن إسحاق إلا في تسمية اليوم فإن ابن إسحاق يقول يوم الاثنين والكلبي يقول يوم الجمعة ، واتفقا

لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وغيرهما يقول لثمان خلت منه ، والاختلاف أيضاً في تاريخ قدومه المدينة كما ترى .

وفي الصفوة قال يزيد بن حبيب : خرج رسول الله ﷺ من مكة في صفر ، وقدم المدينة في ربيع الأول . وفي الوفاء ذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن الخروج كان في بقية تلك الليلة ، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال . وقال الحاكم بثلاثة أشهر أو قريباً منها ويرجح الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خرج أول يوم من ربيع الأول ، فيكون بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوماً ، وكذا جزم به الأموي فقال : خرج لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه .

قال في فتح الباري : وعلى هذا كان خروجه يوم الخميس وهو الذي ذكره محمد بن موسى الخوارزمي ، لكن قال الحاكم : تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين ، والدخول يوم الاثنين ، وجمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس ، أي في أثناء ليلته لما قدمناه ، وخروجه من الغار يعني غار ثور ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال : ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين . كذا في المواهب اللدنية. ومن روى لليلتين لعله لم يحسب أول ليلة .

وكانت مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة بضع عشرة سنة ، ويدل عليه قول صرمة :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة   يذكر لو ألفى صديقاً مواتيا

وقال عروة : عشراً ، وقال ابن عباس : خمسة عشرة سنة . وفي رواية عنه عشر سنين و لم يعلم بخروجه الا علي وآل أبي بكر .

وفي سيرة اليعمري : ولما بلغ ثلاثاً وخمسين سنة هاجر من مكة إلى المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول ، وأقام المشركون ساعة ، فجعلوا يتحدثون فأتاهم آت وقال : ما تنتظرون ؟ قالوا: ننتظر أن نصبح فنقتل محمداً . قال : قبحكم الله وخيبكم ، أو ليس قد خرج عليكم وجعل على رؤوسكم التراب ؟ قال أبو جهل : أو ليس ذاك مسجى ببردة والآن كلمنا . فلما أصبحوا قام علي عن الفراش ، فقال أبو جهل : صدقنا ذلك الخبر.

فاجتمعت قريش وأخذت الطرق ، وجعلت العجائل لمن جاء به . فانصرت عيونهم ولم يجدوا شيئاً ، وفي رواية لما قال القائل قد خرج ونثر على رؤوسكم التراب فما ترون ما بكم؟ وضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا فيه التراب . ثم جعلوا يتطلعون وينظرون من شق الباب فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ يحسبونه النبي ﷺ فيحرسونه ، ويقولون : إن هذا لمحمد ، نائم عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فوثبوا عليه ، فقام علي من الفراش ، فقالوا له : أين صاحبك؟ قال : لا علم لي . قيل إنهم ضربوا علياً وحبسوه ساعة ، ثم تركوه واقتصوا أثر النبي ﷺ . فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم .

وروي أنه لم يبق أحد من الذين وضع على رؤوسهم التراب إلا قتل يوم بدر ، وأنشأ علي في بيتوته في بيت النبي ﷺ هذه الأبيات :

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول الله في الغار آمناً ... موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

وبت أرعاهم وما يتبتوني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

انتهى من تاريخ الخميس .

انظر: صورة رقم ١٥ ، جبل ثور . وصورة رقم ١٦ ، مدخل جبل ثور

خروج النبي ﷺ وأبي بكر من الغار

جاء في تاريخ الخميس عند الكلام على ذكر خروجهما من الغار وتوجههما إلى المدينة وما وقع لهما في الطريق : ما خلاصته :

ولما مضت ثلاث ليال وسكن عنهما الناس جاء الدليل بالراحلتين صبح ثلاث بالسحر إلى باب الغار كما وعده .

قال أبو الحسن بن البراء : خرج رسول الله ﷺ من الغار ليلة الاثنين لغرة شهر ربيع الأول .

وذكر محمد بن سعد أنه خرج من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من ربيع الأول، كما مر . كذا في سيرة مغلطاي ودلائل النبوة .

وفي سيرة ابن هشام : آتاهما صاحبهما الذي استأجره ببعيريهما وبعير له وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصاماً فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس فيها عصام ، فحلت نطاقها فجعلته عصاماً علقتها به . فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين لذلك .

قال ابن هشام سمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين وتفسيره أنها لما أرادت تعليق السفرة شقت نطاقها باثنتين ، فعلقت السفرة بواحدة ، وانتطقت بالأخرى ، كما مر في أوائل الفصل الأول . وجاء عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق .

وفي سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق : فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبي وأمي . فقال رسول الله ﷺ : إني لا أركب بعيراً ليس لي . قال : فهي لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي . قال : لا ، ولكن بالثمن ابتعتها به . قال : أخذتها بكذا وكذا . قال : قد أخذتها بذلك ؟ قال : هي لك يا رسول الله . وقد مر أن ثمنها ثمانمائة درهم .

قيل : الحكمة في أنه ﷺ أحب أن لا تكون هجرته إلا بمال نفسه . فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما في الطريق .

وفي سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق : ولما خرج بهما دليلهما عبدالله بن أرقد ، وكان ماهراً بالطريق ، فسلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج .

وفي رواية : ثم عارض الطريق على أمج ، ثم نزل من قديد خيام أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية من بني كعب .

قال ابن إسحاق : ثم اجتاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الحرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا .

قال ابن هشام : لفتا . قال ابن إسحاق : ثم أجاز بهما مدلجة لقف ثم استبطن بها مدلجة محاج ، ويقال لجاج فيما قال ابن هشام ، ثم سلك بهما مرجح مجاح ، ثم تبطن بهما مرجح من ذي العضوين ، بفتحة العين المهملة وسكون الضاد المعجمة ، ويقال بسكون الصاد المهملة فيما قاله ابن هشام ، ثم بطن بهما ذي

كَشْر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تِعْهن ، ثم على العبابيد ، قال ابن هشام : ويقال العبابيب ، ويقال العثيانة . قال ابن هشام : ثم أجاز بهما الفاجّة ويقال القاحة ، فيما قال ابن هشام ، ثم هبط بهما العَرْج وقد أبطأ عليهما بعض ظُهْرهم ، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له أوس بن حجر على جمل ، وقيل يقال له ابن الرداء ، وفي نسخة ابن الرداح إلى المدينة ، وبعث معه غلاماً له يقال له مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين رَكُوبة ، ويقال ثنية الغائر فيما قال ابن هشام ، حتى هبط بهما على بطن رئم ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل ، كما سيجيء . واتفق في سيرة قصة سراقة عارضهم يوم الثلاثاء بتعديد ذكره ابن سعد كما سيجيء .

قال أبو بكر : فأدلجنا -يعني من الغار- فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة فضربت ببصري هل أرى ظلاً نأوي إليه ، فإذا أنا بصخرة ، فأهويت إليها ، فإذا بقية ظلها مديد ، فدخلت إليها فسويته لرسول الله ﷺ ، وفرشت فروه وقلت : اضطجع يا رسول . فاضطجع ، ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب ، فإذا أنا براعي غنم لرجل من قريش كنت أعرفه ، فحلب شيئاً من اللبن ، ثم أتيت به رسول الله فشرب حتى رضيت .

وفي المواهب اللدنية : واجتاز ﷺ في وجهه ذلك بعبد يرعى غنماً ، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده ، عن قيسٍ بن النعمان قال : فلما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مرا بعبدٍ يرعى غنماً ، فاستسقياه اللبن ، فقال : ما عندي شاه تحلب ، غير أن هاهنا عناقاً حملت أوّل ، وما بقي لها لبن . فقال : ادع بها . فاعتقلها ﷺ ، ومسح ضرعها ودعى حتى أنزلت . وجاء أبو بكر بمجن فسقى أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعي ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعي: بالله من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك . فقال : أو تراك تكتم عليّ حتى أخبرك ؟ قال : نعم . قال : فإني محمد رسول الله . قال : فأنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك . قال : فأشهد أنك نبي ، وأن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي ، وأنا متبعك . قال : إنك لن تستطيع ذلك يومك ، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا .

وأورد في المواهب اللدنية قصة العبد الراعي بعد قصة أم معبد .

قال أبو بكر: ثم قلت : آن الرحيل ، فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جعشم . فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا . قال : لا تحزن إن الله معنا . حتى إذا دنا منا وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت ، قال : لم تبكي ؟ قلت : أما والله ما على نفسي أبكي ، ولكني أبكي عليك . فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال : اللهم اكفناه بما شئت . فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد ، فوثب عنها وقال : يا محمد قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب ، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا ، فخذ منها حاجتك . فقال رسول الله ﷺ : لا حاجة لي بها . فأطلق ، فرجع إلى أصحابه وجعل لا يلقى أحداً إلا قال : كفيته ما هاهنا ، ولا يلقى أحداً إلا رده كذا في المنتقى .

وفي رواية : دعا عليه فقال : اللهم اصرعه . فصرعت فرسه ، ثم قامت تحمحم . وفي مزيل الخفاء اسم هذه الفرسة العود . وقيل كانت أنثى .

وفي سيرة مغلطاي : فلما راحوا من قديد تعرض لهما سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي .

وفي المواهب اللدنية : ثم تعرض لهما بقديد سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي .

وفي رواية عن سراقة أنه قال : جاءنا رسل قريش أنهم جعلوا في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية ، في كل واحد منهما مائة إبل لمن قتله أو أسره . فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي أقبل رجل حتى قام علينا ، فقال : يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أظنها محمداً وأصحابه .

وفي سيرة ابن هشام قال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علي آنفاً ، إني لأراهم محمداً وأصحابه . قال : فأومأت إليه بعيني أن اسكت . قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا . ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي ، وهي من وراء أكمة فتحبسها علي ، وأخذت رمحي فخرجت به

من ظهر البيت ، فخططت برحة الأرض وخفضت عالية الرمح حتى أتيت فرسي .

وفي سيرة ابن هشام : قال سراقة : وكنت أرجو أن أرده على قريش وآخذ المائة . قال : فركبتها فلغعتها تقرب بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام ، ولم أزل أجد في الطلب تقرب بي حتى سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر كثير الإلتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة ظهر لأثر يديها غبار ساطع إلى السماء مثل الدخان .

وفي سيرة ابن هشام : كالإعصار ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديت بالأمان ، فوقفوا . فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر محمد ﷺ . فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، فأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئاً ، إلا أن قال : أخف عنا . فسألت أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ . كذا في المنتقى .

وفي سيرة ابن هشام : قال ابن إسحاق ، قال سراقة: عرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر . قال : فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه . فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له : ما تبتغي منا ؟ قال : فقال لي ذلك أبو بكر ، فقلت : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينكم . قال : اكتب له يا أبا بكر . قال : فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خرقة ، ثم ألقاه إليّ فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعي الكتاب لألقاه . فلقيته بالجعرانة .

قال : فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك ما تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على

ناقته ، وا لله لكأنني أنظر إلى ساقه في غرزه ، فكأنما جمّارة . قال : فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول ا لله هذا كتابك لي ، أنا سراقة بن جعشم . فقال رسول ا لله ﷺ : يوم وفاء وبر ، أدن مني . قال : فدنوت منه وأسلمت .

وأورد في المواهب اللدنية قصة سراقة بعد قصة أم معبد . روي أن أبا جهل لما سمع قصة سراقة أنشأ هذين البيتين وبعث بهما إليه :

بني مدلج إني أخاف سفيهكم سراقة يستغوي بنصر محمد
عليكم به أن لا يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عز وسودد

وسراقة أيضاً أنشا هذين البيتين وبعث بهما إلى أبي جهل :

أبا حكم واللات إن كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً نبي ببرهان فمن ذا يكاتمه ؟

وفي الاكتفاء : وسراقة بن مالك هذا الذي أظهر ا لله فيه أثراً من الآثار الشاهدة له عليه الصلاة والسلام بأن ا لله أطلعه من الغيب في حياته على ما ظهر مصداقه بعد وفاته . وذلك أنه روى سفيان بن عيينة ، عن أبي موسى ، عن الحسن أن رسول ا لله ﷺ قال لسراقة بن مالك : كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ قال : فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما . وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين . فقال له : ارفع يديك ، فقل : ا لله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابياً من بني مدلج . ورفع عمر بها صوته .

[قصتهما مع أم معبد]

ومما وقع لهم في الطريق مرورهم بخيمتي أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية .

وفي المشكاة أن النبي ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة ودليلهما عبدا لله الليثي مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية انتهى . وكانت بقديد . وفي معجم ما استعجم : من قُديد إلى المشلل ثلاثة أميال بينهما خيمتي أم معبد .

وفي خلاصة الوفاء: قديد -كزُبَيْر- قرية جامعة بطريق مكة، كثيرة المياه. وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة، تحتبي بفناء الخيمة تسقي وتطعم. فسألوها تمراً ولحماً ليشتروا منها. فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك. وكان القوم مرملين مسنتين، فقال: والله لو كان عندنا ما أعوزتكم القرى. فنظر رسول الله ﷺ إلى الشاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده المباركة ضرعها وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها فتفاجت عليه ودرت واجترت، ودعا بإناء يربض الرهط فحلب ثجًّا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب رسول الله ﷺ آخرهم، ثم أراضوا، ثم حلب ثانياً بعد بدء حتى امتلأ الإناء، ثم غادروه عندها، ثم بايعها وارتحلوا عنها. كذا ذكره البغوي في شرح السنة وابن عبدالبر في الاستيعاب.

وقال ابن الجوزي في الوفاء: قال لها: هات قدحاً فجاءت بقدح فحلب فيه حتى امتلأ، فأمر أبا بكر أن يشرب فقال أبو بكر: بل أنت اشرب يا رسول الله. قال: ساقي القوم آخرهم شرباً. فشرب أبو بكر، ثم حلب فشرب رسول الله ﷺ، ثم حلب فشربت أم معبد، ثم حلب فقال: ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك. ثم ركبوا وساروا، وقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً، يتساوكن هزالاً مخهن قليل. فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاء عازب حيال لا حلوب بالبيت. قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، وفي رواية نحلة ولم تزريه صعلة، وفي رواية صقلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره عطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأعلاه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه العين من قصر، غصن بين غصنين، وهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له

رفقاء يحفونه ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا . ثم هاجرت هي وزوجها فأسلما . وكان أهلها يؤرخون بيوم الرجل المبارك . كذا في شرح السنة لمحيي السنة .

وفي خلاصة الوفاء : خرج أبو معبد في أثرهم ليسلم ، فيقال أدركهم ببطن ريم فبايعوه وانصرف .

(قوله) : تفاجت أي : فتحت ما بين رجليها . (قوله) : يربض الرهط أي يرويهم . (قوله) : البهاء هو لمعان رغوة اللبن (قوله) : يتساوكن أي : يسرن سيراً ضعيفاً ، (قوله) : عازب أي : بعيدة عن المرعى ، وحيال جمع حائل ، وهي غير الحامل ، (قوله) : ثجلة أي : عظم بطن، (وقوله) : نحلة أي نحول ودقة جسم ، أي : ليس سميناً مفرطاً ولا نحيلاً مفرطاً ، (قوله) : صعلة هي صغر الرأس ، (قوله) : عطف أي : طول . (قوله) : صحل هو كالبحة ، (قوله) : محفود أي : مخدوم ، (وقوله) : محشود أي : له حشد أي : جماعة ، (قوله) : ولا مفند أي : ليس كثير اللوم على من وقع منه ذنب .

وفي الصفوة : قال عبدالملك : فبلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبي ﷺ وأسلمت .

قال رزين : أقامت قريش أياماً ما يدرون أن رسول الله ﷺ إلى أيّ جهة توجه ، وأي طريق سلك ، حتى سمعوا بعد ذهابهما من مكة بأيام في صباح هاتفاً أقبل من أسفل مكة بأبيات ، ويغني بغناء العرب عالياً بين السماء والأرض ، والناس يسمعون الصوت ويتبعونه ولا يدرون صاحبه حتى خرج من أعلا مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالهدى ثم اهتدت به	فقد فاز من أمسى رفيق محمد
ما حملت من ناقة فوق رحلها	أبر وأوفى ذمة من محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا تجارى وسؤدد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومعقدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحاً ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

وقيل : سمعوا هاتفاً على أبي قبيس بصوت جهوري يقول هذه الأبيات . ولما سمع حسان بن ثابت قال في جوابه هذه الأبيات :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليه ويغتدي
ترحل عن قوم فزالت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم ، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم ، هاد به كل يهتدون مهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى غد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

وفي رواية عن أم معبد أنها قالت : طلعت علينا أربعة على راحلتين فنزلوا بي ، فجئت رسول الله ﷺ بشاة أريد ذبحها فإذا هي ذات در ، فأدنيتها منه ، فلمس ضرعها وقال : لا تذبحيها . فأرسلتها وجئت بأخرى ، فذبحتها وطبختها لهم ، فأكل هو وأصحابه وملأت سفرتهم منها ما وسعت ، وبقي عندنا لحمها أو أكثر ، وبقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا إلى زمان عمر ، وهي السنة الثامنة عشر من الهجرة ، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما في الأرض لبن .

وروى الزمخشري في ربيع الأبرار عن هند بنت الجون : نزل رسول الله ﷺ خيمة خالتها أم معبد ، فقام من رقدته فدعا بماء فغسل يديه ، ثم تمضمض ومج في عوسجة إلى جانب الخيمة ، فأصبحنا وهي كأعظم دوحة ، وجاءت بتمر كأعظم ما يكون في لون الورس ورائحة العنبر وطعم الشهد، ما أكل منها جائع إلا شبع ، ولا ظمآن إلا روي ، ولا سقيم إلا برئ ، ولا أكل من ورقها بعير ولا شاة إلا درَّ لبنها ، فكنا نسميها المباركة ، وينتابنا من البوادي من يستشفي بها ويتزود منها ، حتى أصبحنا ذات يوم وقد تساقط ثمرها وصفر ورقها ، ففزعنا . فما راعنا إلا نعي

رسول الله ﷺ ثم إنها بعد ثلاثين سنة أصبحت ذات شوك من أسفلها إلى أعلاها ، وتساقط ثمرها ، وذهبت نضرتها ، فما شعرنا إلا بقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، فما أثمرت بعد ذلك . وكنا ننتفع بورقها ثم أصبحنا وإذا بها قد نبع من ساقها دم غبيط وقد ذبل ورقها ، فبينا نحن فزعون مهمومون إذ أتانا خبر مقتل الحسين بن علي ، ويبست الشجرة على إثر ذلك ، وذهبت . والعجب كيف لم يشتهر أمر هذه الشجرة كما شهر أمر الشاة في قصة هي أعلى القصص .

ومما وقع لهم في الطريق أنه أقبل النبي ﷺ إلى المدينة ، وهو مردف أبا بكر وهو شيخ يعرف ، والنبي ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا بين يديك ؟ فيقول : هذا الذي يهديني السبيل . فيحسب السائل أنه يعني به الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير .

وفي نهاية ابن الأثير ، لقيهما في الهجرة رجل بكراع ، فقال : من أنتم ؟ فقال أبو بكر : باغ وهاد عرَّض ببناء الإبل ، أي طلبه وهداية الطريق ، وهو يريد طلب الدين والهداية من الضلالة .

ومما وقع لهم في الطريق أنه لقيهم بريدة بن الخصيب الأسلمي . وفي الوفاء روى ابن الجوزي في شرف المصطفى ، من طريق البيهقي موصلاً إلى بريدة ، أنه لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن أخذ النبي ﷺ ، ويرده عليهم حين توجه إلى المدينة ، سمع بريدة بذلك ، فحمله الطمع على الخروج لقصده ﷺ . فركب في سبعين من أهل بيته من بني سهم فتلقى رسول الله ، وكان رسول الله ﷺ لا يتطير ، وكان يتفاءل ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا بريدة بن الخصيب . فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر برد أمرنا وصلح . ثم قال : ممن أنت ؟ قال : من أسلم . قال ﷺ : سلمنا . قال : ممن : من بني سهم . قال : خرج سهمك يا أبا بكر . فقال بريدة للنبي ﷺ : من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب رسول الله . فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً . قال بريدة : الحمد لله أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين . فلما أصبح قال بريدة : يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا معك لواء ، فحل عمامته ، ثم شدها في رمح ، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة فقال : يا نبي الله تنزل على من؟ فقال رسول الله ﷺ : إن ناقتي هذه مأمورة أين تنزل . كذا في شرف المصطفى لابن الجوزي .

استقبال أهل المدينة رسول الله ﷺ

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة .

قال ابن إسحاق : وذلك في أيام حارة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم ، أوفى رجل من اليهود على أطم من الآطام لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب ، وفي رواية يا بني قيلة ، يعني الأنصار ، هذا جدكم ، يعني ، يعني حظكم ، وفي رواية : صاحبكم الذي تنتظرونه .

وفي رواية : بعث النبي ﷺ إلى الأنصار من يخبرهم بقدومه ، كما سيجيء . فثأر المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين نحو قباء ، حتى نزل أعلا المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، وهم أهل قباء .

وفي الوفاء : قباء معدود من العالية وكان حكمته التفاؤل له ولدينه بالعلو ، وذلك يوم الاثنين من ربيع الأول نهاراً عند الأكثر .

وفي سيرة أبي محمد عبد الملك بن هشام ، عن زياد بن عبدالله البكائي ، عن بن إسحاق المطلبي ، قال : قدم علينا رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحى ، وكادت الشمس تعتدل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وهو التاريخ فيما قال ابن هشام . قال ابن إسحاق : ورسول الله ﷺ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة .

وفي أسد الغابة : كان مقامه بمكة عشرسنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، والأكثر ثلاث عشرة سنة .

وقال ابن الكلبي : خرج من الغار أول ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه يوم الجمعة .

وفي المنتقى : تنازع القوم أيهم ينزل عليه ، فقال رسول الله ﷺ : أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك ، فلما أصبح غدا حيث أمر .

وفي الوفاء روى رزين عن أنس ، قال : كنت إذ قدم رسول الله المدينة ابن تسع سنين ، فأسمع الغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله ﷺ فنذهب فلا نرى شيئاً ، حتى جاء رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فمكثنا في خرب في طرف المدينة .

وفي رواية : فنزلا جانب الحرة ، فأرسلا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما .

وفي خلاصة الوفاء : فنزل في بني عمرو بن عوف بقباء على كلثوم ابن الهدم ، وكان يومئذ مشركاً ، وبه جزم ابن زبالة . ولرزين : نزل في ظل نخلة ، ثم انتقل إلى دار كلثوم أخي بني عمرو بن عوف . وفي رواية : نزل على سعد بن خيثمة . وجه الجمع بين الروايتين ، أن يقال إنه كان نزل على كلثوم بن الهدم ، ولكن عينوا له مسكناً في دار سعد بن خيثمة يكون للناس فيه ، وذلك لأن سعد كان عزباً لا أهل له ، ويسمى منزل العزباء .

قال المطري : وبيت سعد بن خيثمة ، أحد الدور التي قبلي مسجد قباء ، وهي التي تلي المسجد في قبلته ، يدخلها الناس إذا زاروا مسجد قباء ويصلون فيها . وهناك أيضاً دار كلثوم بن الهدم ، وفي تلك العرصة كان رسول الله ﷺ نازلاً قبل خروجه إلى المدينة ، وكذلك أهله وأهل أبي بكر حين قدموا بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة وهن : سودة ، وعائشة ، وأمها أم رومان ، وأختها أسماء وهي حامل بعبد الله بن الزبير فولدته بقباء قبل نزولهم المدينة ، انتهى . ونزل أبو بكر بالسنح على حبيب بن إساف ، أحد بني الحارث بن الخزرج . وقيل : على خارجة بن زيد بن أبي زهير . روى مجمع بن يعقوب ، عن أبيه ، وعن سعيد بن عبد الرحمن بن رقيش ، عن عبد الرحمن بن زيد بن حارثة ، قالا : نزل النبي ﷺ بظهر حرتنا ، ثم ركب فأناخ على غدق عند بئر غرس ، قبل أن تبزغ الشمس . (قوله) : عند بئر غرس الظاهر أنه تصحيف ، ولعله بئر غدق ، لبعد بئر غرس عن منزله ﷺ بقباء بخلاف بئر غدق . قيل : كان أول ما سمع من النبي ﷺ : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . وأكثر أهل السير على أن ذلك اليوم كان يوم الاثنين وشذ من قال يوم الجمعة من ربيع الأول في الضحوة الكبرى قريباً من نصف النهار .

وفي نسخة طاهر بن يحيى ، أن قدومه كان قبل أن تبزغ الشمس . وما يعرف رسول الله ﷺ من أبي بكر عليهما ثياب بيض متشابهة ، فجعل الناس يقفون

عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمهم، الذي يقال له شنف، فأمهل أبو بكر ساعة، ثم قام فستر رسول الله ﷺ بردائه، فعرف القوم رسول الله ﷺ.

قال محمد بن معاذ: قلت لمجمع بن يعقوب، إن الناس يرون أنه جاء بعدما ارتفع النهار وأحرقتهم الشمس. قال مجمع: هكذا أخبرني أبي وسعيد بن عبد الرحمن، يريد أنهما قالا: ما بزغت الشمس إلا وهو في منزله ﷺ.

وفي مسلم: أن قدومهم كان ليلاً، والذي قاله الأكثر نهاراً.

وفي الصفوة، قال ابن إسحاق: دخلها حين ارتفع الضحى وكادت الشمس تعتدل. كما مر في قول ابن هشام، حيث قال: وهو التاريخ. وفي الصحيح أنهم لما قدموا جلس النبي ﷺ تحت شجرة صامتاً، وقام أبو بكر لأمر الناس، أي يتلقاهم، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم يكن رأى رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر ويرحبه، يحسب أنه النبي ﷺ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله.

تاريخ الهجرة

جاء في تاريخ الخميس ما نصه: واختلفوا في أن يوم نزوله أي يوم من الشهر، فبعضهم على أنه أول الشهر على ما روى موسى بن عقبة، عن ابن شهاب. وقيل: لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ونحوه، عن أبي معشر لكن قال: ليلة الاثنين، ومثله عن ابن البرقي. وثبت ذلك في أواخر صحيح مسلم. وقيل: لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، حكاه ابن الجوزي في شرف المصطفى، عن الزهري فقال: قال الزهري: قدم رسول الله ﷺ، المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. وبه جزم النووي، وكذا ابن النجار.

وفي شرف المصطفى لابن الجوزي، عن ابن عباس: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، ورفع الحجر يوم الاثنين، وخرج مهاجراً يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين.

وفي روضة الأقشهري، قال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين، أول يوم من ربيع الأول، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه. قال أبو عمرو: وهو قول ابن إسحاق، إلا في تسمية اليوم. وعن أبي بكر بن حزم:

لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . ويجمع بين هذا وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال . ونقل ابن زبالة ، عن ابن شهاب : أن نزوله على بني عمرو بن عوف كان في النصف من ربيع الأول . وقيل : كان قدومه في سابعه . ولما نزل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعامر ابن فهيرة على كلثوم ، قال لمولى له : يا نجيح أطعمنا رطباً . فلما سمع رسول الله ﷺ اسم نجيح التفت إلى أبي بكر وقال : أنجحت أو أنجحنا ؟ فأتوا بقنو من أم جردان فيه رطب منصف وفيه زهو ، فقال : ما هذا ؟ فقال : غدق أم جردان . فقال ﷺ : اللهم بارك في أم جردان .

واختلف في أنه ﷺ كم يوماً أقام في بني عمرو بن عوف ، فعن قوم من بني عمرو بن عوف أنه قام فيهم اثنين وعشرين يوماً . حكاه ابن زبالة .

وفي البخاري من حديث أنس : أقام فيهم أربع عشرة ليلة وهو المراد بما في رواية عائشة بقولها بضع عشرة ليلة . وقال موسى بن عقبة : ثلاثاً . وقال عروة : ثلاث ليال ، الثلاثاء والأربعاء والخميس ، كما جزم به ابن حيان . وقال ابن إسحاق : أقام فيهم خمساً . وفي ذخائر العقبي : لم يقيم إلا ليلة أو ليلتين . قال الحافظ ابن حجر : أنس ليس من بني عمرو بن عوف ، فإنه من الخزرج ، وقد جزم بأربع عشرة ليلة ، فهو أولى بالقبول . وأمر النبي ﷺ بالتاريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع الأول ، رواه الحاكم في الإكليل . قال ابن الجزار : وتعرف بعام الإذن ، وهو معضل والمشهور أن ذلك كان في خلافة عمر ، وأن عمر قال : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخ بها وابتدأ من المحرم بعد إشارة علي وعثمان بذلك . وأفاد السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ .

وفي الاستيعاب : ومن مقدمه إلى المدينة أرخ التاريخ في زمان عمر ، وأقام علي بمكة بعد مخرجه ، عليه السلام ، ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى للناس ودائعهم التي كانت عند النبي ﷺ وخلفه لردها . ثم خرج فلحق النبي ﷺ بقباء فنزل على كلثوم بن الهدم ، وإنما كانت إقامة علي بقباء مع النبي ليلة أو ليلتين.

وفي روضة الأحباب : وكان علي يسير بالليل ويختفي بالنهار ، وقد نقبت قدماه فمسحهما النبي ﷺ ودعا له بالشفاء فبرئتا في الحال ، وما اشتكاهما بعد اليوم قط .

وفي الوفاء : وكان لكلثوم بن الهدم بقباء مربد ، والمربد الموضع الذي يبسط فيه التمر لييبس ، فأخذه منه رسول الله ﷺ فأسسه وبناه مسجداً ، كما رواه ابن زبالة وغيره .

وفي الصحيح عن عروة : فلبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى .

وفي رواية عبد الرزاق ، قال : الذين بني فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف. وكذا في حديث ابن عباس ، عن ابن عائذ ولفظه ، ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليال ، واتخذ مكانه مسجداً وكان يصلي فيه ، ثم بناه عمرو بن عوف ، فهو المسجد الذي أسس على التقوى . وروى ابن أبي شيبة ، عن جابر ، قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ سنتين نعمر المساجد ، ونقيم الصلاة ، ولذا قيل : المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله ﷺ والأنصار بقباء قد بنوا مسجداً يصلون فيه ، يعني هذا المسجد . فلما هاجر رسول الله ﷺ وورد قباء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس ولم يحدث فيه شيئاً ، أي في مبدأ الأمر لأن ابن أبي شيبة روى ذلك ، ثم روى أنه ﷺ بنى مسجد قباء وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال : جبريل يؤم بي البيت.

وقد اختلف في المراد بقوله تعالى : ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ . فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء ، ولا ينافيه قوله ﷺ : لمسجد المدينة هو مسجدكم هذا ، إذ كل منهما أسس على التقوى .

وفي الكبير عن جابر بن سمرة ، قال : لما سأل أهل قباء النبي ﷺ أن يبني لهم مسجداً ، قال رسول الله ﷺ : ليقم بعضكم فليركب الناقة ، فقام أبو بكر فركبها فحركها فلم تنبعث ، فرجع فقعد فقام عمر فركبها فلم تنبعث ، فرجع فقعد . فقال رسول الله ﷺ : ليقم بعضكم فيركب الناقة ، فقام علي ، فلما وضع رجله في غرز الركاب وثبت به ، فقال رسول الله ﷺ : ارخ زمامها وابتنوا على مدارها فإنها مأمورة.

وروى الطبري عن جابر ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قال لأصحابه : انطلقوا إلى أهل قباء نسلم عليهم ، فرحبوا به ، ثم قال : يا أهل قباء ائتوني بأحجار من الحرة . فجمعت عنده أحجار كثيرة ومعه عنزة فخط قبلتهم فأخذ حجراً فوضعه ثم قال : يا أبا بكر خذ حجراً فضعه إلى جنب حجري . ثم

قال : يا عمر خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر ثم قال : يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر . كأنه أشار إلى ترتيب الخلافة كما سيجيء في بناء مسجد المدينة . ثم التفت إلى الناس فقال : وضع رجل حجره حيث أحب على ذلك الخط .

وروى الترمذي ، عن أسيد بن ظهير ، عن النبي ﷺ قال : الصلاة في مسجد قباء كعمرة . وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت : سمعت أبي يقول : لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل . وورد في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال : كان رسول الله ﷺ يزور قباء ، أو يأتي قباء راكباً أو ماشياً . وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من صلى فيه كان كعدل عمرة .

وعن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله ﷺ : من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة . أخرجه ابن ماجة . وعن عمرو بن شيبة بسند جيد ورواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد . وللبخاري والنسائي أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً أو ماشياً ، وكان عبد الله يفعله .

وروى ابن زبالة : أن النبي ﷺ صلى إلى الأسطوانة الثالثة في مسجد قباء التي في الرحبة . وعن سعيد بن عبد الرحمن قال : كان المسجد في موضع الأسطوانة المخلفة الخارجة في رحبة المسجد .

قال ابن رقيش : حدثني نافع أن ابن عمر كان إذا جاء مسجد قباء ، صلى إلى الأسطوانة المخلفة ، يقصد بذلك مسجد النبي ﷺ الأول .

وروى ابن زبالة ، عن عبد الملك بن بكير ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبيه : أن رسول الله صلى في مسجد قباء إلى الأسطوانة الثالثة في الرحبة إذا دخلت من الباب الذي بفناء دار سعد بن أبي خيثمة .

قلت : الباب المذكور هو المسدود اليوم يظهر رسمه من خارج المسجد في جهة المغرب ، وكان شارعاً في الرواق الذي يلي الرحبة من السقف القبلي ، فالاسطوانة الثالثة في الرحبة ، هي الاسطوانة التي عندها اليوم محراب في رحبة المسجد لانطباق الوصف المذكور عليها ، فهي المرادة بقول الواقدي : كان المسجد

في موضع الاسطوانة المخلفة الخارجة في رحبة المسجد ، وهي التي كان ابن عمر يصلي إليها . ذكر ذلك كله في الوفاء .

انظر: صورة رقم ١٧ ، مسجد قباء . وصورة رقم ١٨ ، محراب مسجد قباء

انتقاله ﷺ من قباء إلى داخل المدينة

جاء في تاريخ الخميس ما نصه : في الصحيح عن أنس بعد ما ذكر من إقامته ببني عمرو ابن عوف ، ثم أرسل إلى بني النجار فجاؤوا متقلدين السيوف وكانوا أخواله ، يعني أخوال جده عبد المطلب .

وفي رواية : فجاؤوا فسلموا على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وقالوا : اركبا آمنين مطاعين . فركب يوم الجمعة حتى نزل جانب دار أبي أيوب ، وسيجيء أنه ﷺ لما شخص أي خرج من قباء ، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا : أخرجت ملالاً منا ، أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟ قال : إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها ، أي ناقته ، فإنها مأمورة ، حتى أدركته الجمعة في بني سالم فصلاها في بطن الوادي ، وادي ذي صلت .

وفي سيرة ابن هشام ، عن إسحاق ، وادي رانونا . وفي غيره كانوا أربعين ، وقيل مئة . وكانت هذه أول جمعة جمعها في الإسلام حين قدم المدينة وخطب يومئذ خطبة بليغة وهي أول خطبة في الإسلام . وقيل : إنه كان يصلي الجمعة في مسجد قباء في إقامته هناك ، والله أعلم .

(ذكر تلك الخطبة) روي عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي ، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها في المدينة في بني سالم بن عوف : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً ، أوصيكم بتقوى الله ، فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك ذكر ، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق

على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين ا لله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه ا لله ، يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم وما كان سوى ذلك يود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم ا لله نفسه وا لله رؤف بالعباد ، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول: ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ ، فاتقوا ا لله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإن من يتق ا لله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ومن يتق ا لله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأن تقوى ا لله توقي مقته وعقوبته وسخطه وتبيض الوجوه وترضي الرب وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب ا لله فقد علمكم ا لله كتابه ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن ا لله إليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا في ا لله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة ، ولا قوة إلا با لله ، وأكثروا ذكر ا لله واعلموا أنه خير من الدنيا وما فيها ، واعملوا لما بعد الموت فإنه من يصلح ما بينه وبين ا لله يكفه ا لله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن ا لله يقضي الحق على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون عليه ، ولا قوة إلا با لله العلي العظيم .

كذا أوردها في المنتقى وفي خلاصة الوفاء . وليحيى عن عمارة بن خزيمة أنه ﷺ دعا براحلته يوم الجمعة وحشد المسلمون ولبسوا السلاح وركب ﷺ ناقته القصوى والناس عن يمينه وشماله وخلفه ، منهم الماشي والراكب . فاعترضت الأنصار فما يمر بدار إلا قالوا : هلم إلى العز والمنعة والثروة ، فيقول لهم خيراً ، ويدعو فيقول : إنها مأمورة خلوا سبيلها . فمر ببني سالم فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل بن عبدا لله بن مالك العجلاني وهو آخذ بزمام راحلته يقول : يا رسول ا لله انزل فينا ، فإن فينا العدد والعدة والحلقة ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك ، يا رسول ا لله كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قل حيث شئت . فجعل يتبسم ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . وقام إليه عبادة بن الصامت وعباس بن الصامت بن نضلة بن عجلان فجعلا يقولان : يا رسول ا لله انزل فينا . فيقول : إنها مأمورة . ثم أخذ عن يمين الطريق ، حتى جاء بني الحبلى وأراد أن ينزل على عبد ا لله بن أبي بن سلول ، فلما رآه وهو عند مزاحم ، أي الأطم ، محتبساً قال : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم . فقال سعد بن عبادة : لا تجد يا رسول ا لله في نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج

تريد أن تملكه عليها ، ولكن هذه داري فمر ببني ساعدة . فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة : هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد . وسعد يقول : يا رسول الله ليس في قومي أكثر عزقاً مني مع الثروة والجلد والعدد والحلقة . فيقول ﷺ : بارك الله عليكم . ويقول : يا أبا ثابت خل سبيلها فإنها مأمورة . فمضى واعترضه سعد بن الربيع وعبدالله بن رواحة وبشير بن سعد ، أي من بني الحارث بن الخزرج فقالوا : يا رسول الله ، لا تجاوزنا فإنا أهل عدد وثروة وحلقة . فقال : بارك الله فيكم ، خلوا سبيلها فإنها مأمورة . واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو ، أي من بني بياضة يقولان : يا رسول الله ، هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك . فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . ثم مر ببني عدي بن النجار ، وهم أخواله ، فقام إليه أبو سليط وصرمة بن أبي أنيس في قومهما فقالا : يا رسول الله ، نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا ، ليس لأحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا لك فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . أو يقال : أول الأنصار اعترضه بنو بياضة ثم بنو سالم ، ثم مال إلى ابن أبي ثم مر على بني عدي بن النجار ، حتى انتهى إلى بني مالك بن النجار . ولابن إسحاق : اعترض بني سالم أولاً ، ثم وازت راحلته بني بياضة واعترضوه ، ثم وازت دار الحارث كذلك ، ثم مرت بدار بني عدي وهم أخواله ، لأن سلمى بنت عمرو إحدى بني عدي بن النجار كانت أم جده عبدالمطلب ، وبنو مالك بن النجار إخوتهم ، ومنزله ﷺ بدار بني غنم منهم . وجاء في رواية : أن القوم لما تنازعوا أنه ﷺ على أيهم ينزل وكل منهم على أن يكون داره له المنزل ، قال : إني أنزل على أخوال عبدالمطلب وأكرمهم بذلك . قيل يشبه أن يكون هذا في أول قدومه من مكة قبل نزوله قباء ، لا في قدومه باطن المدينة .

وعن أنس أنه ﷺ قال : دعوا الناقة فإنها مأمورة . فبركت على باب أبي أيوب .

وفي سيرة مغلطاي : نزل برحله على أبي أيوب لكونه من أخوال عبدالمطلب . وعند البعض : أن الناقة استناخت به أولاً ، فجاءه ناس فقالوا : المنزل يا رسول الله . فقال : دعوها . فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم

تحلحلت فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب فقال : منزلي أقرب المنازل ، فائذن لي أن أنقل رحلك . قال : نعم . فنقل رحله وأناخ الناقة في منزله .

وقال الواقدي : أخذ أسعد بن زرارة بزمامها فكانت عنده .

وعن مالك بن أنس : أن الناقة ، لما أتت موضع المسجد ، بركت وهو عليها ، وأخذه ﷺ الذي كان يأخذه عند الوحي ، ثم ثارت من غير أن تزجر ، وسارت غير بعيد ، ثم التفتت فعادت إلى المكان الذي بركت فيه أول مرة ، فبركت فيه فسري عنه ، فأمر أن يحط رحله .

وفي رواية : كان رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ من بني النجار حوله حتى ألقي بفناء أبي أيوب ، وهو موضع مسجده اليوم ، وهو يومئذ مربد للتمر لغلامين يتيمين من بني النجار كانا في حجر معاذ بن عفراء ، أو أبي أيوب أو أسعد بن زرارة ، والأخير هو الأصح ، اسمهما سهل وسهيل ابنا عمرو ابن عمارة .

وفي رواية رافع بن عمرو : فبركت عند باب المسجد فلم ينزل عنها النبي ﷺ ثم انبعثت وسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ مرخ لها زمامها ، ثم التفتت خلفها ثم رجعت إلى مبركها الأول وبركت فيه ، ووضعت جرانها على الأرض ونزل عنها رسول الله ﷺ وقال : هذا إن شاء الله المنزل . فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في بيته بعدما استأذنه ﷺ فدعته الأنصار إلى النزول عليهم فقال ﷺ : المرء مع رحله .

وفي الوفاء : فنزل رسول الله ﷺ فقال : أي الدور أقرب ؟ فقال أبو أيوب : داري ، هذا بابي وقد حططنا رحلك فيها . فقال : المرء مع رحله . فمضت مثلاً ، فنزل علي أبي أيوب خالد بن زيد ، وسأل عن المربد فقال معاذ : هو ليتيمين لي وسأرضيهما . فاشتراه النبي ﷺ .

وفي شرف المصطفى : لما بركت الناقة على باب أبي أيوب ، خرج جوار من بني النجار يضربن بالدف ويقلن :

نحن جوار من بني النجار ... يا حبذا محمد من جار

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أتحببنني ؟ قلنا : نعم يا رسول الله . فقال : والله وأنا أحبكن . قالها ثلاثاً . وفي رواية : يعلم الله أني أحبكن .

وفي رواية الطبري في الصغير ، فقال عليه السلام : الله يعلم أن قلبي يحبكن .

وفي المواهب اللدنية : فرح أهل المدينة بقدومه ، عليه الصلاة والسلام ، وأشرقت المدينة بحلوله فيها وسرى السرور إلى القلوب .

قال أنس بن مالك : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام المدينة أضاء منها كل شيء ، ولما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء . رواه ابن ماجة. قال رزين : صعدت ذوات الخدور على الأجاجير ، يعني السطوح ، عند قدومه ﷺ يقلن .

وفي الرياض النضرة: لما قدم النبي ﷺ المدينة جعل الصبيان والنساء والولائد يقولون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي

وفي رواية :

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

قال الطبري : تفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون : جاء محمد ، جاء رسول الله . وفي الرياض النضرة : خرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يقلن : أيهم هو ، أيهم هو .

وفي خلاصة الوفاء : ثنية الوداع ، بفتح الواو ، معروف شآمي المدينة خلف سوقها القديمة ، بين مسجد الراية ومشهد النفس الزكية قرب سلع .

وقال عياض : هي موضع بالمدينة بطريق مكة . وقيل واد بمكة ، والأول أصح .

وفي المواهب اللدنية : أنشئ هذا الشعر عند قدومه . رواه البيهقي في الدلائل ، وأبو الحسن بن مقري في كتاب الشمائل له ، عن ابن عائشة . وذكره الطبري في الرياض النضرة عن الفضل بن الجمحي قال : سمعت ابن عائشة يقول أراه عن أبيه ، فذكر وقال . خرجه الحلواني على شرط الشيخين . وسميت ثنية الوداع ، لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديماً .

وصحح القاضي عياض هذا ، واستدل عليه بقول نساء الأنصار حين قدم ، عليه الصلاة والسلام – طلع البدر علينا – من ثنيات الوداع . فدل على أنه اسم قديم .

وقال شيخ الإسلام ، الولي ابن العراقي : ففي صحيح البخاري ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، عن السائب بن يزيد قال : لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع . قال : وهذا صريح بأنها من جهة الشام .

وقال ابن القيم في الهدى النبوي : هذا وهم من بعض الرواة ، فإن ثنية الوداع إنما هي من جهة الشام ، لا يراها القادم من مكة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام ، وإنما وقع ذلك عند قدومه من تبوك ، انتهى . لكن ، قال زين الدين العراقي : يحتمل أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع ، انتهى .

قال مؤلف الكتاب : يشبه أن يكون هذا هو الحق ، ويؤيده جمع الثنيات ، إذ لو كان المراد بها الموضع الذي هو من جهة الشأم ، لم يجمع ، ولا مانع من تعدد وقوع هذا الشعر ، مرة عند قومه ، عليه الصلاة والسلام ، من مكة ، ومرة عند قدومه من تبوك ، فلا ينافي ما في صحيح البخاري وغيره ، ولا ما قاله ابن القيم عن جابر ، أنه كان لا يدخل أحد المدينة إلا من ثنية الوداع ، فإن لم يعشر بها مات قبل أن يخرج ، فإذا وقف على الثنية قيل قد ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الورد فلم يعشر ثم دخل فقال : يا معشر يهود ما لكم وللتعشير . قالوا : لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من ثنية الوداع إلا قتله الهزال . فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية . كذا في الوفاء .

وعن أنس : لما قدم رسول الله ﷺ ، لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ .

[نزوله ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري]

رضي الله تعالى عنه

ولابن إسحاق عن أبي أيوب الأنصاري : لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل ، وأنا وأم أيوب في العلو فقلت : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن ونكون في السفل . فقال : يا أبا أيوب ، إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت . قال : فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن فلقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رأس رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه . وذكر غيره أن أبا أيوب لم يزل يتضرع للنبي ، عليه الصلاة والسلام ، حتى تحول إلى العلو وأبو أيوب في السفل .

وفي الصفوة : عن أفلح ، مولى أبي أيوب ، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لما نزل عليه نزل أسفل وأبو أيوب في العلو، فانتبه أبو أيوب ذات ليلة ، فقال : نمشي فوق رأس رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فتحول فباتوا في جانب . فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ، عليه الصلاة والسلام ، فقال النبي ، عليه الصلاة والسلام ، الأسفل أرفق بي . فقال أبو أيوب : لا أعلو سقيفة أنت تحتها . فتحول أبو أيوب في السفل ، والنبي ، عليه الصلاة والسلام ، في العلو . وسيجيء وفاته في الخاتمة في خلافة معاوية . وأفاد ابن سعد أن إقامته عليه الصلاة والسلام ، بهذه الدار سبعة أشهر ، بتقديم السين ، وقيل إلى صفر من السنة الثانية .

وقال الدولابي : شهراً . كذا في سيرة مغلطاي . وقد ابتاع داره هذه وبيته المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث ، من ابن أبي أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري بألف دينار فتصدق بها وهو في شرقي المسجد المقلس ، ثم بيعت فاشتراها الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شادي ، أي عرصة دار أبي أيوب هذه ، وبناها مدرسة للمذاهب الأربعة تعرف اليوم بالمدرسة الشهابية ، وفي إيوان قاعتها الصغرى الغربي خزانة صغيرة جداً مما يلي القبلة فيها محراب يقال إنها مبرك ناقته ، عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : إن هذا البيت بناه تبّع الأول لما مر بالمدينة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ينزله إذا قدم المدينة ، وترك فيها أربعمائة عالم وكتب كتاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ، ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه للنبي ، عليه الصلاة والسلام ، فتداول البيت الملاك إلى أن صار إلى أبي أيوب ، وأن أبا أيوب من ذرية الحبر الذي أسلمه تبّع كتابه .

وفي رواية : أرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إلى ملأ بني النجار ، فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم . قالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله عز وجل .

وفي خلاصة الوفاء : قال الغلامان : بل نهبه لك يا رسول الله . فأبى رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً ودفعها أبو بكر الصديق .

وفي رواية : أداها من مال أبي بكر وكان قد خرج من مكة بماله كله . كذا في المواهب اللدنية .

وعن النوار بنت مالك ، أم زيد بن ثابت ، أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يصلي بالناس الصلوات الخمس ويجمع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل ابني رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار . قالت : فأنظر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لما قدم صلى بهم في ذلك المسجد وبناه فهو مسجده اليوم . ونقل ابن سيد الناس ، عن ابن إسحاق : أن الناقة بركت على باب مسجده ، عليه الصلاة والسلام ، وهو يومئذ ليتيمين من بني مالك بن النجار ، في حجر معاذ بن عفراء ، سهل وسهيل ابني عمرو .

انظر: صورة رقم ١٩ ، القبة الخضراء .

وقال أحمد بن يحيى البلاذري : فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عند أبي أيوب ، ووهب له الأنصار كل فضل كان في خططها . وقالوا : يا نبي الله ، إن شئت فخذ منازلنا . فقال لهم خيراً . وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يجمع بمن يليه في مسجد له ، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يصلي بهم ، ثم إنه سأل أسعد أن يبيع أرضاً متصلة بذلك المسجد كان في يده ليتيمين في حجره يقال

لهما سهل وسهيل ابنا رافع . انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس . وإليك ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضي ا لله تعالي عنه .

ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه

بمناسبة نزول رسول ا لله ﷺ عند أبي أيوب الأنصاري ، رضي ا لله عنه ، حين وصوله من مكة الي المدينة ، نعقد هنا فصلاً لترجمته فنقول :

جاء في شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" في الجزء الخامس عند حديث « يهود تعذب في قبورها » ما نصه :

وأما راوي الحديث فهو أبو أيوب الأنصاري ، وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن كعب أبو أيوب النجاري ، من بني غنم بن مالك بن النجار ، غلبت عليه كنيته أمه هند بنت سعد بن عمرو الأنصارية الخزرجية ، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد ، وعليه نزل رسول ا لله ﷺ في خروجه من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً من مكة ، فلم يزل عنده حتى بنى مسجده الشريف في تلك السنة ، وبنى مساكن أمهات المؤمنين ، ثم انتقل ﷺ إلى مسكنه وآخى رسول ا لله ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير .

وأخرج ابن عبدالبر في الاستيعاب بإسناده إلى أبي رهم السماعي أن أبا أيوب الأنصاري حدثه قال : نزل رسول ا لله ﷺ في بيتنا الأسفل وكنت في الغرفة ، فأهريق ماء في الغرفة فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة نتتبع الماء شفقة أن يخلص إلى رسول ا لله ﷺ فنزلت إلى النبي ﷺ وأنا مشفق ، فقلت : يا رسول ا لله ، إنه ليس ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة . فأمر النبي ﷺ بمتاعه أن ينقل ، ومتاعه قليل . وذكر تمام الحديث .

ولأبي أيوب الأنصاري من الحديث عن رسول ا لله ﷺ مائة وخمسون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على سبعة منها ، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بخمسة ، وروي أيضاً عن أبي بن كعب . وروى عنه البراء بن عازب ، وزيد بن خالد ، والمقدام بن معدي كرب ، وابن عباس ، وجابر بن سمرة ، وأنس ، وعروة ، وعطاء الليثي ، وغيرهم .

وروي عن سعيد بن المسيب ، أن أبا أيوب أخذ من لحية رسول الله ﷺ شيئاً فقال : لا يصيبك السوء يا أبا أيوب . وأخرج أبو بكر بن أبي شيبة ، وابن أبي عاصم من طريق أبي الخير ، عن أبي رهم في حديث عن أبي أيوب أنه قال : قلت يا رسول الله كنت ترسل إلي بالطعام فأنظر فأضع أصابعي حيث أرى أثر أصابعك حتى كان هذا الطعام . قال : أجل ، إن فيه بصلاً ، فكرهت أن آكل من أجل الملك ، وأما أنتم فكلوا .

وكان أبو أيوب مع علي بن أبي طالب في حروبه كلها ، ثم مات بالقسطنطينية من بلاد الروم زمن معاوية ، وكانت غزاته تلك تحت راية يزيد بن معاوية ، وهو كان أميرهم يومئذ ، وذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، وقيل سنة اثنتين وخمسين وهو الأكثر . وقد أسند ابن عبدالبر في الاستيعاب ، عن أبي ظبيان ، عن أشياخه أن أبا أيوب خرج غازياً في زمن معاوية ، فمرض فلما ثقل قال لأصحابه : إذا أنا مت فاحملوني ، فإذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ، ففعلوا . ولما ولى معاوية يزيد على الجيش إلى القسطنطينية جعل أبو أيوب يقول : وما علي إن أمر علينا شاب . فمرض في غزوته تلك ، فدخل عليه يزيد يعوده فقال له : أوصني . قال : إذا مت فكفنوني ثم مر الناس أن يركبوا ثم يسيروا في أرض العدو حتى إذا لم تجدوا مساغاً فادفنوني . قال : ففعلوا .

وكان أبو أيوب يقول : قال الله عز وجل : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً . ونقل نحو هذا عن المقداد بن الأسود . وقال ابن القاسم ، عن مالك : بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحون به ويستسقون وقبر أبي أيوب قرب سور القسطنطينية وهو معلوم إلى اليوم معظم يستسقون به فيسقون ، ولأبي أيوب عقب .

وقيل إن يزيد بن معاوية أمر بالخيل بعد دفنه ، فجعلت تدبر وتقبل على قبره ، حتى عفى أثر قبره ، روي هذا عن مجاهد . وقيل إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب : لقد كان لكم الليلة شأن . فقالوا : هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا ﷺ وأقدمهم إسلاماً ، وقد دفناه حيث رأيتم ، والله لئن نبش لأضرب لكم ناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة . روي هذا المعنى ، عن مجاهد . وقال مجاهد أيضاً : كانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا ، رضي الله عنه وأرضاه ، ومناقبه جمة ، وقد وقفت على تأليف لبعض علماء عصرنا فيه .

انتهى من كتاب زاد المسلم .

إتيان رسول الله ﷺ إلى مسجد قباء

وفضل الصلاة فيه

قال في شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم : قُباء بضم القاف ممدوداً وقد يقصر ، ويذكر على أنه اسم موضع فيصرف ، وعلى أنه اسم بقعة يؤنث ولا يصرف ، والأشهر مده وصرفه وتذكيره . انتهى .

ورد في الصحيحين واللفظ للبخاري « كان النبي ﷺ ، يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً ، وكان عبد ا لله بن عمر يفعله » رواه عبدا لله ابن عمر رضي ا لله تعالى عنهما .

ولننتقل مما ورد في ذلك نبذة من الأحاديث من كتاب "وفاء الوفا" للسمهودي ، رحمه ا لله تعالى ، فقد جاء فيه :

روينا في الصحيحين عن ابن عمر ، رضي ا لله تعالى عنهما ، قال : « كان النبي ﷺ يزور قباء -أو يأتي قباء- راكباً وماشياً » .

زاد في رواية لهما : « فيصلي فيه ركعتين » .

وروى ابن شبة ، عن سعيد بن عمرو بن سليم مرسلاً : « أن النبي ﷺ كان يطرح له على حمار أنبجاني لكل سبت ثم يركب إلى قباء » .

ورواه ابن زبالة بنحوه – وزاد – : « ويمشي حوله أصحابه » .

وعن محمد بن المنكدر مرسلاً قال : « كان النبي ﷺ يأتي قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان » .

وفي كتاب رزين ، عن ابن المنكدر قال : أدركت الناس يأتون مسجد قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان .

وروى ابن شبة ، عن شريك بن عبدا لله بن أبي نمر مرسلاً : « أن النبي ﷺ كان يأتي قباء يوم الاثنين » .

وعن أبي غزية قال : كان عمر بن الخطاب ، رضي ا لله تعالى عنه ، يأتي قباء يوم الاثنين ويوم الخميس ، فجاء يوماً من تلك الأيام فلم يجد فيه أحداً من أهله ،

فقال : والذي نفسي بيده ، لقد رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر في أصحابه ننقل حجارته على بطوننا ، يؤسسه رسول الله ﷺ بيده ... الخ .

وروى ابن زبالة ، عن زيد بن أسلم قال : الحمد لله الذي قرب منا مسجد قباء ، ولو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل .

وقال ابن النجار : كان النبي ﷺ نزل بقباء في منزل كلثوم بن الهدم ، وأخذ مربده فأسسه مسجداً وصلى فيه ، ولم يزل ذلك المسجد يزوره ﷺ ويصلي فيه أهل قباء ، فلما توفي ﷺ لم تزل الصحابة تزوره وتعظمه .

انتهى ما تقدم باختصار من كتاب وفاء الوفا .

جاء في شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث : « كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً ... الخ » ما ملخصه :

ومسجد قباء بينه وبين المدينة المنورة ثلاثة أميال أو ميلان ، وهو أول مسجد بناه رسول الله ﷺ وكان يحمل الحجارة بنفسه الشريفة إعانة للعملة على بنائه .

وقال جماعة من السلف ، منهم ابن عباس : إنه المسجد المؤسس على التقوى ، وهو مسجد بني عمرو بن عوف ، وقد سمي باسم بئر هناك ، وفي وسطه مبرك ناقة رسول الله ﷺ وفي صحنه مما يلي القبلة شبه محراب ، هو أول موضع ركع فيه رسول الله ﷺ هناك .

ثم قال : وفي هذا الحديث فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه اقتداء بالنبي ﷺ وكذلك فيه استحباب أن يكون ذلك في يوم السبت ، ثم قال : ولا يخفى أن المسجد الأقصى ومسجد قباء أفضل من سائر المساجد غير المسجد الحرام ومسجد المدينة المنورة . انتهى من الكتاب المذكور .

ومما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء ، ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص ، قال : لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل . وروى النسائي حديث سهل بن حنيف مرفوعاً : « من خرج حتى يأتي مسجد قباء فيصلي فيه ، كان له عدل عمرة » . وعند الترمذي من حديث أسيد بن حضير ، رضي الله تعالى عنه ، رفعه : « الصلاة في مسجد قباء كعمرة » . قال

شيخنا مؤلف زاد المسلم رحمه الله تعالى عند هذا الحديث : لكنه لم يثبت فيه تضعيف كالمساجد الثلاثة . اهـ .

وأخرج ابن ماجة وعمر بن شبة بسند جيد عن سهل بن حنيف ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة» . رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد .

وقال عمر بن شبة : حدثنا سويد بن سعيد ، قال : حدثنا أيوب بن صيام ، عن سعيد بن الرقيش الأسدي ، قال : جاءنا أنيس بن مالك إلى مسجد قباء فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري ، ثم سلم وجلس وجلسنا حوله ، فقال : سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد ، لو كان على مسيرة شهر كان أهلاً أن يؤتى ، من خرج من بيته يريده معتمداً إليه ليصلي فيه أربع ركعات ، أقلبه الله بأجر عمرة .

نقول: كيف لا يكون حق مسجد قباء عظيماً ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى ، وقد بناه رسول الله ﷺ وكان يحمل الحجارة بنفسه الكريمة لبنائه .

والحقيقة أن ناحية قباء من أنفس نواحي المدينة المنورة وأجملها .

إن هذه الناحية تشرح الصدر ، وتبسط النفس وتسر الناظرين ، تمتد في أطرافها كلها البساتين والزروع ، والثمار ، مع وفرة المياه العذبة الصافية ، والجو البديع اللطيف ، والمنظر الساحر الخلاب .

وما أحلى قول القائل :

إذا كنت في أرض العوالي تشوقت ... لأرض "قبا" نفسي وفيها المؤمل

وإن كنت فيها قالت النفس ليت لي ... بأرض العوالي يا خليلي منزل

فيا ليت أني كنت شخصين فيهما ... ويا ليت في التحقيق أن لا تعلل

اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد.

أحكام الهجرة

جاء في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا ...الخ ».

وجاء فيهما: « مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام والجهاد (يعني أخا مجاشع). وسبب هذا الحديث كما في الصحيحين من راوية مجاشع رضي الله عنه، قال: انطلقت بأبي معبد إلى النبي ﷺ ليبايعه على الهجرة، قال: مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام والجهاد ». اهـ. بلفظ البخاري.

وجاء فيهما أيضاً أنه ﷺ قال لأعرابي سأله عن الهجرة: « ويحك إن شأن الهجرة شديد. فهل لك من إبل ؟ قال: نعم. قال: فهل تؤدي صدقتها؟ قال: نعم. قال: فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئاً ». رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

ومعنى: لن يترك، بفتح الياء وكسر التاء ونصب الراء وفتح كاف الخطاب، أي لن ينقصك من ثواب عملك شيئاً، وفي رواية: لم يترك بالجازم بدل الناصب وسكون الراء للجزم.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى، في شرحه على كتابه " زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" في الجزء الخامس عند حديث: « ويحك إن شأن الهجرة شديد » الخ ما ملخصه:

(تنبيهات) تتعلق بالهجرة وأحكامها، وما هو حكم تاركها؟ والتفصيل بين من تركها اختياراً وبين من تركها عجزاً واضطراراً.

"التنبيه الأول": تجب الهجرة على كل من كان مقيماً ببلاد الكفر ولا يقدر على إظهار الدين، فيجب عليه أن يهاجر إلى دار الإسلام، لأن من خاف على دينه وجبت عليه الهجرة من موضعه وترك أبويه وأولاده كما فعل المهاجرون رضي الله تعالى عنهم. كما نص عليه القرطبي ونقله الأُبي في شرح صحيح مسلم في أول كتاب البر والصلة، ونص عليه غيره من سائر فقهاء المالكية وغيرهم، وهو ظاهر نصوص القرآن العظيم والأحاديث الشريفة الصحيحة.

ثم اعلم أيها الطالب للهجرة والسائل عن حقيقتها : أن الهجرة بكسر الهاء فعلة من الهجر وهو ضد الوصل ، ثم غلب ذلك على الخروج من أرض إلى أرض وترك الأولى للثانية قاله في النهاية ، فالهجرة لغة الترك لأن الهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره وفي الشرع ترك ما نهى الله عنه ، كذا قاله الحافظ ابن حجر ، وقال العيني : وهي في الشرع مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة ، وطلب إقامة الدين ، وفي الحقيقة مفارقة ما يكرهه الله تعالى إلى ما يحبه ، ومن ذلك سمي الذين تركوا توطن مكة وتحولوا إلى المدينة من الصحابة بالمهاجرين لذلك .

قال الحافظ ابن حجر: وقد وقعت في الإسلام على وجهين :

الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرة الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثاني : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة ، إلى أن فتحت مكة ، فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً . اهـ .

قوله : وبقي عموم الانتقال من دار الكفر الخ ، أي وبقي عموم وجوب الانتقال من دار الكفر أو دار الإسلام التي جرى عليها حكم الكفر إلى بلد يسلم فيه دين المسلم من بلاد الإسلام ، ويختار في آخر الزمان أقلها إثماً وأحوطها لسلامة العرض والدين والمال ، ثم اعلم أن حديث المتن الذي هو : ويحك إن شأن الهجرة شديد المشعر بأن المسلم إذا كان يؤدي فرض الله تعالى في ماله ونفسه ، لا بأس بعدم هجرته لقوله ، عليه الصلاة والسلام : فاعمل من وراء البحار الخ ، فحاله فيمن لم يكن تحت حكم عدو الدين ، أما من كان تحت سلطة الكفرة بحيث يخاف على دينه وأهله وماله كما هو مشاهد اليوم فيمن بقي تحت حكمهم ، فإن الهجرة لا تزال واجبة عليه إلى قيام الساعة ، ولا حجة له في حديث : لا هجرة بعد الفتح ، لما قررناه سابقاً عند حديث : مضت الهجرة لأهلها ، المذكور في حرف الميم في الجزء الثالث ، من أن معنى: لا هجرة بعد الفتح ، أي لا هجرة واجبة من مكة إلى المدينة ، لأن مكة صارت دار إسلام بالفتح لانتفاء على الكفر الموجبة للهجرة منها ، وهكذا الحكم في كل بلد كان عليه حكم الكفر ثم زال عنه ،

لقوله ﷺ للأعرابي الذي سأله عنها : ويحك إن شأن الهجرة شديد ، الخ . أي فلا تجب عليك ما دمت غير جار عليك حكم أهل الكفر ، ومن ذلك المعنى أيضاً عدم أمره ﷺ الوفود عليه قبل الفتح بأن يهاجروا ، فقد تبين بما قررناه معنى حديث : لا هجرة بعد الفتح ، وموضوع حديث : ويحك إن شأن الهجرة شديد .

قال الإمام النووي : وأما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، فقال العلماء إنها واجبة إلى قيام الساعة ، وتأولوا هذا الحديث بأن الهجرة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة ومضت لأهلها ، أو أن معنى: لا هجرة ، لا هجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام . انتهى كلامه ، وهو موافق لما ذكرناه لك آنفاً. قال القرطبي : وعلى هذا فلا يجوز لمسلم دخول بلد الكفر لتجر أو غيره ، إلا لضرورة في الدين كالداخل لفداء مسلم : وقد أبطل مالك شهادة من دخل دار الحرب للتجارة . اهـ.

ومما يوضح لك أن محل حديث: لا هجرة بعد الفتح ، وحديث : ويحك إن شأن الهجرة شديد ، حيث لم يكن المسلم تحت حكم الكفر ، وأما إن كان تحته ، وخاف على دينه وأهله وماله ، فلا يزال وجوب الهجرة باقياً عليه : ما رواه البخاري : أن عبيد بن عمرو سأل عائشة ، رضي الله عنها ، عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية ، اهـ . فقولها : فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام الخ ، دال على أن موضوع الحديثين المذكورين حيث كان المسلم مقيماً تحت حكم الإسلام ، ومما هو بمعنى الحديثين المذكورين في أن المسلم ما دام متمكناً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من أمور دينه ، مما لا يتأتى غالباً لمن كان تحت حكم الكفر . ما رواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص ، قال : جاء أعرابي فقال : يا رسول الله أين الهجرة إليك حيث كنت ، أم إلى أرض معلومة ، أم لقوم خاصة ، أم إذا مت انقطعت ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ ساعة ، ثم قال : أين السائل عن الهجرة ؟ قال : ها أنا ذا يا رسول الله . قال : إذا أقمت الصلاة وآتيت الزكاة فأنت مهاجر وإن مت بالحضرمة . قال : يعني أرضاً باليمامة . وفي رواية له : الهجرة ، أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، ثم أنت مهاجر وإن مت بالحضرمة ، اهـ . وفيه دليل على أن بلاد

الحضرمة من أخس البلاد لمبالغته بها ، وهو دليل للنهي عن سكناها اختياراً كما هو واضح .

(التنبيه الثاني) : قد علمت مما بسطناه في التنبيه الأول ، أن الهجرة لا تزال واجبة من كل بلد تجري عليه أحكام الكفرة بحيث لا يتمكن المسلم فيه من إقامة دينه ، ومما يدل على ذلك ، ما رواه أبو داوود والنسائي من حديث معاوية ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وما رواه أحمد في مسنده أيضاً من حديث عبدالرحمن بن عوف ، ومعاوية ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهم ، أن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات ، والأخرى تهاجر إلى الله وإلى رسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكُفي الناس العمل . وروى أحمد من حديث ابن السعدي مرفوعاً : لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل . وروى أحمد أيضاً من حديث جنادة بن أبي أمية مرفوعاً : إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد . وأخرج البغوي وغيره من طريق الوليد بن سليمان ، عن بسر بن عبيد الله ، عن ابن محيريز ، عن عبدالله بن السعدي ، عن محمد بن حبيب ، قال : أتينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، إن رجالاً يقولون قد انقطعت الهجرة ، فقال : لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار . قال البغوي ، رواه غير واحد عن ابن محيريز ، عن عبدالله بن السعدي ، وأن النسائي أخرجه من طريق أبي إدريس ، عن عبد الله بن السعدي ليس فيه محمد بن حبيب اهـ . من ترجمة محمد بن حبيب النصري في الجزء الثالث من الإصابة . وأخرج نحوه أبو حاتم ، وابن حبان من طريق عبدالله بن محيريز ، عن عبدالله بن السعدي ولفظه ، عن رسول الله ﷺ : لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو ، وقال رسول الله ﷺ : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قالوا : يا رسول الله ولم؟ قال : لا تتراءى ناراهما ، أخرجه الترمذي من رواية جرير بن عبد الله في باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين ، وأخرجه أيضاً أبو داود من روايته في باب على ما يقاتل المشركون من سننه ، وأخرج أبو داود في آخر كتاب الجهاد من سننه عن سمرة بن جندب ، قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله ، وأخرجه الترمذي في سننه من رواية سمرة بن جندب معلقاً ، وروى النسائي من طريق بهز بن حكيم بن معاوية ، عن أبيه ،

عن جده مرفوعاً : لا يقبل الله من مشرك عملاً بعد ما أسلم أو يفارق المشركين ، ومن حديث أخرجه الطبراني عن أبي هريرة : جاهدوا تغنموا وهاجروا تفلحوا . إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على دوام وجوب الهجرة وأنها لا تنقطع حتى تنقطع التوبة .

أما الآيات القرآنية الدالة على تحريم مساكنة أعداء الدين ، والبقاء تحت حكمهم فهي كثيرة ، جمع منها صاحب المعيار جملة وافرة ، وهي شديدة جداً على القاطنين من المسلمين تحت حكم الكفرة مع قدرتهم على الهجرة عنهم ، ولكثرتها ، مع العلم بها ، لم أتعرض لنقلها في هذا التنبيه واكتفيت بتخريج الأحاديث الواردة في وجوب الهجرة ، ولو أردت نقل الآيات الدالة على ذلك لكان ذكرها قبل الأحاديث أولى ، قال صاحب المعيار بعد ذكرها وذكر جملة من الأحاديث في هذا المعنى : فتتعاضد هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات القطعية على هذا النهي ، فلا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفاً عن أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فهو تحريم مقطوع به من الدين ، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق ، وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها ، ومن خالف الآن في ذلك ، أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم ، فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها ، فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ، ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله . اهـ كلام صاحب المعيار ، الذي قال فيه ابن الإمام غازي : هو جبل من علم يمشي على وجه الأرض .

وقد روى أشهب عن مالك : لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير الحق ، وقال أبو الوليد بن رشد في أول كتاب التجارة من مقدماته : فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة ، وقد كره مالك رحمه الله أن يسكن أحد ببلدة يسب فيها السلف ، فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن ، وتعبد فيه من دونه الأوثان ، لا تستقر نفس أحد مسلم على هذا إلا مسلم مريض الإيمان . اهـ .

(التنبيه الثالث): لا يشترط شرعاً في صحة الهجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ أن تكون إلى المدينة المنورة خاصة ، بل تعتبر شرعاً ويعتد بحصولها وأداء فرضها من

المسلم المهاجر عن بلد لم يتمكن فيه من إقامة دينه ، أو بلد تسب فيه الصحابة ، رضي الله عنهم ، ومن باب أحرى بلد يسب فيه رسول الله ﷺ أو يحتقر فيه ولا يعظم ، لأن تعظيمه واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة كما بسطناه في غير هذا الموضع ، وإن كان الأولى في الهجرة والأكمل أن تكون إلى المدينة المنورة مهما وجد المهاجر إلى ذلك سبيلاً .

أما من لم يجد إليه سبيلاً ، فليس في استيطانه غيرها نقص في هجرته شرعاً ، ولا يعد بذلك كمن ترك المدينة رغبة عنها ، بل يثبت له أجر القاطن بها ، إن حبسه عذر شرعي عن دوام سكناها مع عزمه على ذلك مهما أمكنه ، لما رواه البخاري في صحيحه في باب نزول النبي ﷺ الحجر من رواية أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال : إن بالمدينة أقواماً ، ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة . قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر اهـ . فقوله: حبسهم العذر ، تعليل لكون الله تعالى أثبت لهم أجر المجاهدين ولو لم يسيروا معهم بأبدانهم فقد بلغت بهم نيتهم وعزمهم مبلغ أولئك المجاهدين السائرين له بأبدانهم ، وهم على فرشهم في بيوتهم ، وهذا الحديث أصل عظيم في كون نية المؤمن كعمله ، لا سيما إن كانت مع العزم الأكيد ، وهو دليل أيضاً ، لأن كل من نوى خيراً وغلب عنه بعذر محقق كمرض ونحوه ثبت له أجر ذلك الخير الذي عزم عليه ، كما أشار له صاحب روضة النسرين بقوله :

ومن نوى الخير لكن قد غلب   عنه فأجر ما نوى له جلب
كغفلة وسفر ومرض   وكبر وغير ذا من عرض

وقولي : أو بلد تسب فيه الصحابة الخ ، أشرت به إلى ما صرح به الحطاب في أول فصل صلاة السفر بقوله : وكذلك يجب الهروب من بلد يسمع فيها سب الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولو كان مكة المكرمة والمدينة اهـ .

وقولي: ولا يعد بذلك كمن ترك المدينة رغبة عنها الخ ، يؤيده ما ذكره السيوطي في حاشيته المسماة بتنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك ، في باب ما جاء في سكنى المدينة والخروج منها ، عند حديث : لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه ، فقد قال هنا ما نصه عن ابن عبدالبر ، والحديث عندي خاص بحياته ﷺ وأما بعده فقد خرج منها جماعة من أصحابه و لم تعوض

المدينة بخير منهم ، وقال الباجي : والمراد يخرج رغبة عن ثواب الساكن فيها ، وأما من خرج لضرورة شدة زمان أو فتنة ، فليس ممن يخرج رغبة عنها ، قال : والمراد به من كان مستوطناً بها فرغب في استيطان غيرها ، وأما من كان مستوطناً غيرها فقدمها للقربة ورجع إلى وطنه ، أو كان مستوطناً بها فخرج مسافراً لحاجته ، فليس بخارج منها رغبة عنها ، قال : والإبدال إما بقدوم خير منه من غيرها ، أو مولود يولد فيها ، اهـ . بلفظه . نسأل الله تبارك وتعالى أن يردنا لها آمنين ويرزقنا بها الشهادة والموت على الإيمان بجوار شفيع المذنبين ، عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام ، وأن يجعلنا في جواره فيها وفي الفردوس دار السلام والإكرام .

(التنبيه الرابع) : قد تحرر مما أسلفناه في التنبيهات المذكورة أنه لا خلاف في وجوب الهجرة على غير المعذور بالاستضعاف المنصوص عليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ۞ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً﴾ . وأن غير المعذور بالاستضعاف المذكور في الآية ، إن ترك الهجرة عمداً يكون عاصياً بتركها مصادماً لنصوص القرآن والسنة كما تقدم ، وقد أشار إليه شقيقنا وشيخنا العلامة المرحوم ذو المناقب الشيخ محمد العاقب في منظومته في أحكام الجهاد والهجرة بقوله :

وهجرة من أرضهم ما اختلفا ... في فرضها على امرئ ما استضعفا

وإن أباها مسلم قد أخلصا ... فهو على إسلامه وقد عصى

وأما المعذور بالاستضعاف المذكور ، أو بتغلب الكفرة عليه بغتة قبل أن يتمكن من الهجرة ، فهو غير آثم شرعاً ، بشرط عزمه على الهجرة متى أمكنه فعلها بأي حيلة أمكنته شرعاً ، مع أن الحزم والأحوط شرعاً أن يبادر بها المعذور ، فإن من تكلف وخرج مهاجراً وهو معذور شرعاً يضاعف له الأجر كالأعرج وشبهه إذا تكلف في الجهاد مع سقوطه عنه بنص الكتاب العزيز ، فلا يكون آثماً بل يضاعف له الأجر ، كما في "ضياء التأويل".

فالعاقل لا يتركها وهي في إمكانه ولو عذر شرعاً ، لئلا يتمكن عدو الدين من منعه منها ومن إقامة دينه ، ويستولي على نسائه وأبنائه ويحول بينه وبينهم بالارتداد وأخس الاستعباد ، وربما ردوه عن دينه قهراً في زمان ضعف أهل الإسلام ، و لله در أخينا الشيخ محمد العاقب المذكور ، رحمه الله ، حيث يقول في نصيحته لمن لم

يهاجر من قطر شنقيط في أوان هجرتنا من تلك البلاد أعادها الله تعالى دار إسلام ، وحرس ساكنيها من الشر والآثام :

فالسرعة السرعة قبل أن يهاض العظم أو يقص ريش الأجدل

قبل اللحاق ينفع الفرار لا من بعده فالحزم رأي العجل

والمهاجر في هذا الزمن الذي عم فيه استيلاء الكفرة على جميع بلاد الإسلام ، لا يمكنه فعل الهجرة إلا بمحض التوكل على الله تعالى في أن يوفقه للهجرة إلى بلد يسلم له فيه دينه ولو على رأس جبل ، فإن من توكل عليه تعالى في أي شيء هداه للرشاد فيه ، والنجاح لقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ ، وغيرها من آيات التوكل عليه تعالى ، فإن هذا الزمان هو الزمان المشار له بحديث: يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر من شاهق إلى شاهق ، وهو المشار له بحديث الصحيح وهو قوله عليه الصلاة والسلام : يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن . رواه البخاري في مواضع من صحيحه ، فقد أخرجه في كتاب الإيمان ، وفي كتاب الرقاق ، وعلامات النبوة ، وكتاب الفتن ، وأخرجه أبو داود والنسائي أيضاً ، فهو زمان الفتن الذي يكون المهاجر فيه إذا بدا بعد هجرته غير ملعون ولا آثم ، بل يكون فاعلاً ما هو خير له في دينه ، لما أخرجه الطبراني من حديث جابر بن سمرة رفعه : لعن الله من بدا بعد هجرته إلا في الفتنة فإن البدو خير من المقام في الفتنة .

وقد نص صاحب "المعيار" وغيره ، على أن الكفر إذا عم البلاد ، يختار المرء المسلم لهجرته أقل البلاد إثماً ، ومثّل لذلك بما يعلم بالوقوف عليه وتركنا ذكره خوف السآمة والإفراط في التطويل ، وظواهر نصوص القرآن والأحاديث ، دالة على أن الله تعالى لا بد أن يدبر للمهاجر أمره حتى يتم له هجرته ويوسع عليه لأنه ضمن له ذلك في قوله تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ... الخ﴾ . فعلينا الامتثال لأمره تعالى ، وهو تعالى ضامن لتدبير أمورنا وأمننا وسعة أرزاقنا وصدورنا حيث هاجرنا في سبيله ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ ، ﴿وإن وعد الله حق﴾ الآيتين .

(التنبيه الخامس) : أرجى ما وقفت عليه من الأدلة لعذر المستضعفين من أهل أقطار بلاد الإسلام اليوم عن الهجرة ، كقطر شنقيط المعروف عند أهل الجغرافية بالصحراء الكبرى ، وبمريتان باللسان الإفرنجي ، حديث المتن وحديث الإمام أحمد

من رواية عبدا لله بن عمرو بن العاص المتقدم ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام ، فيه : إذا أقمت الصلاة وآتيت الزكاة فأنت مهاجر وإن مت في الحضرمة ، وكذا ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد منه في باب قول ا لله تعالى : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من آمن با لله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على ا لله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل ا لله أو جلس في أرضه التي ولد فيها . قالوا : يا رسول ا لله ، أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها ا لله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم ا لله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة اهـ . وأخرجه أيضاً في باب درجات المجاهدين في سبيل ا لله من كتاب الجهاد ، وليس في البخاري في الموضعين وآتى الزكاة ، قال القسطلاني في كتاب الجهاد : فكأن الاقتصار على ما ذكر إن كان محفوظاً لأنه هو المتكرر غالباً ، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال بشرطه ، والحج لا يجب إلا مرة على التراضي اهـ . وهذا الحديث أخرجه الترمذي أيضاً فهو مع حديث المتن .

وحديث الإمام أحمد المذكور سابقاً من أرجى الأدلة الصحيحة لعذر أهل بلادنا المعروفة بالصحراء الكبرى ، لعجزهم غالباً عن الهجرة بالفقر وبسرعة تغلب العدو عليهم قبل التأهب للهجرة ، وإن كان ظاهر هذه الأحاديث ورودها بعد فتح مكة وهي بعد فتحها صارت دار إسلام ، وكذلك غيرها من البلاد التي دخلها الإسلام في حياة رسول ا لله عليه الصلاة والسلام ، أو فتحت بعده على أيدي الصحابة رضوان ا لله عليهم .

وأما كل بلد تغلب عليه الكفرة من بلاد الإسلام وأجروا أحكامهم عليه ، فلا تزال الهجرة واجبة منه إلى يوم القيامة كما تقدم ، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، ولكننا نسأل ا لله تعالى الذي سبقت رحمته غضبه ، أن يمن علينا وعلى إخواننا الذين لم يهاجروا بالغفران ويختم لنا بأكمل الإيمان بجوار سيد بني عدنان رسولنا محمد ، عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام الأكملان .

(ومما يؤيد عذر من تغلب عليه العدو فجأة) ومنعه من الهجرة وهو عاجز عن قتاله وعن الهجرة دون إذنه ، ما حققه الجلال السيوطي في كتاب الإتقان ، في

النوع السابع والأربعين في ناسخ القرآن ومنسوخه ، في المسألة الرابعة من مسائل الناسخ والمنسوخ .

(وحاصل) ما حققه : أن ما أُمر به لسبب ثم يزول السبب ، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح ، ثم نسخ بإيجاب القتال ليس في الحقيقة نسخاً ، بل هو من قسم المُنسأ كما قال تعالى : ﴿أو ننسأها﴾ ، فالمُنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون . وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى ، ثم ذكر أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى الحكم آخر ليس بنسخ ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله . وقال مكي : ذكر جماعة أن ما ورد في الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية ، مثل قوله في البقرة : ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ ، محكم غير منسوخ ، لأنه مؤجل بأجل ، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه اهـ . ملخصاً منه مع تصرف يسير للإيضاح . فيؤخذ مما ذكره في هذا القسم من النسخ ، الذي هو في الحقيقة قسم من المُنسأ ، أن صبر المسلمين على أذى الكفرة المحتلين لبلادهم إذا منعوهم من الهجرة ، والحال أنهم لا قدرة لهم على جهادهم لا يأثمون به ، لعذرهم بالعجز وسرعة تغلب العدو عليهم بغتة قبل أن يستعدوا لجهادهم أو للهجرة عنهم ، لا سيما مع اختلاف كلمتهم وتفرق آرائهم وإن كانوا مأمورين بعدم التنازع خوف الفشل ، لأن التكليف بحسب الإمكان ، والإثم في مثل هذه الصورة في ترك الجهاد والهجرة معاً ، إنما يتعلق بأهل الحل والعقد لا بالضعاف المغلوبين على أمرهم .

هذا ما تحرر عندي من خلاصة أحكام الهجرة في هذا الزمان الذي عم الكفر فيه جميع بلاد الإسلام إلا ما لا يذكر لضعف شأنه ، وقد كنت في ابتداء هجرتنا من أوطاننا ألفت رسالة في وجوبها وسميتها "مزمل الحرج في رد ما عند من أسقط الهجرة من الحجج" تحريت فيها الحق غاية جهدي ، و لم أكفر من تركها متأولاً ، و لم أفت بإباحة أموالهم لمن يزعم أنه مجاهد ، وإن خالفني في ذلك بعض مشايخي وإخوتي ، رحم الله الجميع وغفر لهم ، ثم جربت البلاد المشرقية بعد هجرتي للحرمين الشريفين ، واختبرت أحوال سائر البلاد وأحوال المهاجرين في هذا الزمن ، والمتوكل منهم كحال الصحابة في بدء هجرتهم وغير المتوكل ، فزدت لذلك في رسالتي المذكورة مسائل دقيقة وفوائد نافعة ، ولخصت في هذه التنبيهات

الخمسة زبدة أحكامها ، وإني أسأل الله تعالى أن يتقبل منا هجرتنا الأولى والثانية ، ويتجاوز عن كل من لم يهاجر من المسلمين ، ويختم لي ولأقاربي وأحبابي بالإيمان ، بجوار رسول الله ﷺ بدار الهجرة المدينة المنورة مع امتثال السنة في هذا الزمان .

وإنما أطلت في شرح هذا الحديث لمسيس الحاجة بذلك ، والله تعالى هو المرجو لما هنا وما هنالك . وهذا الحديث كما أخرجه الشيخان ، أخرجه أبو داود في الجهاد من سننه ، وأخرجه النسائي في البيعة وفي السير من سننه أيضاً .

انتهى من زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

حكم إقامة المهاجر بمكة بعد انقضاء النسك

نذكر هنا حكم إقامة المهاجرين ، رضي الله تعالى عنهم ، بمكة إذا أتوها للحج أو العمرة ، فإن لهم حكماً غير حكم عامة المسلمين بسبب هجرتهم عن مكة إلى المدينة حباً في نصرة رسول الله ﷺ . فلنذكر أولاً ما جاء في الصحيحين عن ذلك ، ثم نذكر شرح الأحاديث من فتح الباري لابن حجر ، ومن شرح مسلم للنووي :

جاء في صحيح مسلم من كتاب الحج ما يأتي :

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب ، حدثنا سليمان ، يعني ابن بلال ، عن عبدالرحمن بن حميد ، أنه سمع عمر بن عبد العزيز يسأل السائب بن يزيد يقول : هل سمعت في الإقامة بمكة شيئاً ؟ فقال السائب : سمعت العلاء بن الحضرمي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « للمهاجر إقامة ثلاث بعد الصَّدَر بمكة » كأنه يقول : لا يزيد عليها .

حدثنا يحيى بن يحيى ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، عن عبدالرحمن بن حميد ، قال : سمعت عمر بن عبدالعزيز يقول لجلسائه : ما سمعتم في سكنى مكة ؟ فقال السائب بن يزيد : سمعت العلاء ، أو قال العلاء بن الحضرمي : قال رسول الله ﷺ : « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً » .

وحدثنا حسن الحلواني ، وعبد بن حميد ، جميعاً عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، حدثنا أبي عن صالح ، عن عبدالرحمن بن حميد ، أنه سمع عمر بن عبدالعزيز

يسأل السائب بن يزيد فقال السائب : سمعت العلاء بن الحضرمي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث ليال يمكثهن المهاجر بمكة بعد الصَّدَر » .

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم : أخبرنا عبدالرزاق ، أخبرنا ابن جريج وأملاه علينا إملاء ، أخبرني إسماعيل بن محمد بن سعد ، أن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أخبره أن السائب بن يزيد ، أخبره أن العلاء بن الحضرمي ، أخبره عن رسول الله ﷺ قال : « مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاث » . انتهى من صحيح مسلم .

وجاء في صحيح البخاري في باب الإسراء : حدثني إبراهيم بن حمزة ، حدثنا حاتم عن عبد الرحمن بن حميد الزهري قال : سمعت عمر بن عبدالعزيز يسأل السائب بن أخت النمر : ما سمعت في سكنى مكة ؟ قال : سمعت العلاء بن الحضرمي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث للمهاجر بعد الصَّدَر » . انتهى من البخاري .

جاء في فتح الباري لابن حجر عند هذا الحديث المروي في البخاري ما نصه : «قوله : بعد الصَّدَر» بفتح المهملتين ، أي بعد الرجوع من منى . وفِقْه هذا الحديث أن الإقامة بمكة كانت حراماً على من هاجر منها قبل الفتح ، لكن أبيح لمن قصدها منهم بحج أو عمرة أن يقيم بعد قضاء نسكه ثلاثة أيام لا يزيد عليها ، ولهذا رثى النبي ﷺ ، لسعد بن خولة أن مات بمكة . ويستنبط من ذلك ، أن إقامة ثلاثة لا تخرج صاحبها عن حكم المسافر ، وفي كلام الداودي اختصاص ذلك بالمهاجرين الأولين ، ولا معنى لتقييده بالأولين ، قال النووي : معنى هذا الحديث : أن الذين هاجروا يحرم عليهم استيطان مكة ، وحكى عياض أنه قول الجمهور قال : وأجازه لهم جماعة ، يعني بعد الفتح ، فحملوا هذا القول على الزمن الذي كانت الهجرة المذكورة واجبة فيه ، قال : واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم ، وأن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس ، وأما غير المهاجرين فيجوز له سكنى أي بلد أراد سواء مكة وغيرها بالاتفاق ، انتهى كلام القاضي ، ويستثنى من ذلك من أذن له النبي ﷺ بالإقامة في غير المدينة ، واستدل بهذا الحديث على أن طواف الوداع عبادة مستقلة ليست من مناسك الحج ، وهو أصح الوجهين في المذهب لقوله في هذا الحديث : بعد قضاء نسكه لأن طواف الوداع لا إقامة بعده ، ومتى أقام بعده خرج عن كونه طواف

الوداع ، وقد سماه قبله قاضياً لمناسكه فخرج طواف الوداع عن أن يكون من مناسك الحج . والله أعلم .

وقال القرطبي : المراد بهذا الحديث من هاجر من مكة إلى المدينة لنصر النبي ﷺ ولا يعني به من هاجر من غيرها لأنه خرج جواباً عن سؤالهم لما تحرجوا من الإقامة بمكة ، إذ كانوا قد تركوها لله تعالى فأجابهم بذلك وأعلمهم أن إقامة الثلاث ليس بإقامة ، قال: والخلاف الذي أشار إليه عياض كان فيمن مضى ، وهل ينبني عليه خلاف فيمن فرّ بدينه من موضع يخاف أن يفتن فيه في دينه ، فهل له أن يرجع إليه بعد انقضاء تلك الفتنة ، يمكن أن يقال إن كان تركها لله كما فعله المهاجرون ، فليس له أن يرجع لشيء من ذلك ، وإن كان تركها فراراً بدينه ليسلم له و لم يقصد إلى تركها لذاتها ، فله الرجوع إلى ذلك ، انتهى ، وهو حسن متجه إلا أنه خص ذلك بمن ترك رباعاً أو دوراً ولا حاجة إلى تخصيص المسألة بذلك . والله أعلم . انتهى من فتح الباري .

وجاء في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم عند الأحاديث المتقدمة ما نصه :

قوله ﷺ : « يقيم المهاجر بمكة بعد انقضاء نسكه ثلاثاً » . وفي الرواية الأخرى: مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً ، وفي رواية : للمهاجر إقامة ثلاث بعد الصدر بمكة فإنه يقول لا يزيد عليها . معنى الحديث : أن الذين هاجروا من مكة قبل الفتح إلى رسول الله ﷺ ، حرم عليهم استيطان مكة والإقامة بها ، ثم أبيح لهم إذا وصلوها بحج أو عمرة أو غيرهما أن يقيموا بعد فراغهم ثلاثة أيام ولا يزيدوا على الثلاثة واستدل أصحابنا وغيرهم بهذا الحديث على أن إقامة ثلاثة ليس لها حكم الإقامة ، بل صاحبها في حكم المسافر ، قالوا : فإذا نوى المسافر الإقامة في بلد ثلاثة أيام غير يوم الدخول ويوم الخروج ، جاز له الترخص برخص السفر من القصر والفطر وغيرهما من رخصه ولا يصير له حكم المقيم ، والمراد بقوله ﷺ : « يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثة » أي بعد رجوعه من منى كما قال في الرواية الأخرى: « بعد الصَّدر » أي الصدر من منى ، وهذا كله قبل طواف الوداع ، وفي هذا دلالة لأصح الوجهين عند أصحابنا أن طواف الوداع ليس من مناسك الحج ، بل هو عبادة مستقلة أمر بها من أراد الخروج من مكة ، لا أنه نسك من مناسك الحج ، ولهذا لا يؤمر به المكي ومن يقيم بها ، وموضع الدلالة

قوله ﷺ بعد قضاء نسكه . والمراد قبل طواف الوداع كما ذكرنا ، فإن طواف الوداع لا إقامة بعده ، ومتى أقام بعده خرج عن كونه طواف وداع فسماه قبله قاضياً لمناسكه . والله أعلم .

قال القاضي عياض رحمه الله : في هذا الحديث حجة لمن منع المهاجر قبل الفتح من المقام بمكة بعد الفتح ، قال : وهو قول الجمهور ، وأجاز لهم جماعة بعد الفتح من الاتفاق على وجوب الهجرة عليهم قبل الفتح ، ووجوب سكنى المدينة لنصرة النبي ﷺ ومواساتهم له بأنفسهم ، وأما غير المهاجر ومن آمن بعد ذلك فيجوز له سكنى أي بلد أراد سواء مكة وغيرها بالاتفاق ، هذا كلام القاضي . قوله ﷺ : «مكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً» هكذا هو في أكثر النسخ ثلاثاً وفي بعضها ثلاث ووجه المنصوب أن يقدر فيه محذوف أي مكثه المباح أن يمكث ثلاثاً ، والله أعلم . انتهى من كتاب صحيح مسلم .

نقول : إن كثيراً من الناس لا يعرفون حرمة إقامة المهاجرين ، رضي الله تعالى عنهم بمكة بعد انقضاء نسكهم أكثر من ثلاثة أيام لهذا كتبنا هذا المبحث ، والحكمة في ذلك ، والله تعالى أعلم ، هي أنهم لما هاجروا من مكة إلى المدينة حباً في رسول الله ﷺ ونصرته وخدمته وعدم مفارقته ، حرم عليهم الإقامة ببلدتهم الأصلية التي هاجروا منها ، وهي مكة ، أكثر من ثلاثة أيام بعد أداء نسكهم من حج أو عمرة . فإنهم إن أقاموا بها أكثر من الثلاث ، تباطئوا في الرجوع إلى المدينة وحنوا للإقامة بمسقط رأسهم ووطنهم الذي هاجروا منه لله ولرسوله ، أما الثلاثة الأيام المرخص لهم بالإقامة في مدتها بعد انقضاء نسكهم ، فهي كافية لأداء حقوق أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم في زياراتهم والائتناس بهم .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة» ، رواه البخاري ومسلم . والجحفة كان يسكنها اليهود.

وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم» .

ومن هنا نرى أن جميع الصحابة ، رضي الله عنهم ، المهاجرين من مكة فقط لم يموتوا بها ، وإنما ماتوا بالمدينة أو بغيرها ، ما عدا سعد بن خولة ، فقد رثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة ، وسعد المذكور صحابي جليل ، وكان من مهاجرة

الحبشة وممن شهد بدراً ، مرض بمكة وتوفي بها ، وله ذكر في الصحيحين في حديث سبيعة بنت الحارث أنها كانت تحت سعد بن خولة ، فلما توفي عنها في حجة الوداع وكانت حاملاً ، فولدت بعد وفاته بليال ، أتت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : «قد حللت فانكحي من شئت» .

انظر ترجمته في كتاب الإصابة وفي الاستيعاب .

ولما كان يوم فتح مكة قام رسول الله ﷺ على الصفا يدعو ربه وقد أحلقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها . فلما فرغ ﷺ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال : « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » . وبالفعل فإن رسول الله ﷺ لم يزل مقيماً بالمدينة حتى مات وقبر بها . فانظر إلى وفائه ، عليه الصلاة والسلام ، للأنصار وكيف عاملهم باللطف والفضل والإحسان الشامل . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

ولما أعطى رسول الله ﷺ لقريش وقبائل العرب من الغنائم التي أخذها في غزوة حنين ، وقد ترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا : إن هذا لهو العجب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم فلما اجتمعوا قال لهم : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي ، إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألّفت به قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحلكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

فلما سمعوا كلامه ﷺ بكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً . ثم انصرف ، عليه الصلاة والسلام ، وتفرق القوم .

فانظر رحمك الله تعالى إلى درر كلامه ووفائه ﷺ وانظر إلى حب الأنصار وطاعتهم وانقيادهم له ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . ويا ليتنا كنا في ذلك الزمن المبارك العاطر حتى نسعد بمشاهدة نور محياه ﷺ ونتشرف بخدمة أقدامه الطاهرة ، ولئن فاتنا ذلك العصر الزاهر نسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا بحبه وأن يوفقنا للتمسك بشريعته وإحياء سننه ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وصحابته أجمعين آمين .

وانظر إلى ترجمة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، صاحب رسول الله ﷺ في الغار .

ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

قال صاحب كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عن ترجمته ما نصه : هو أبو بكر الصديق ، رضي الله تعالى عنه ، وهو عبد الله بن أبي قحافة القرشي التيمي . واسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، يجتمع نسبه مع نسب النبي ﷺ في مرة بن كعب بن لؤي وعدد من آبائهما إلى مرة سواء ، وهو صاحب رسول الله ﷺ وهو الصديق الأكبر وصاحبه في الغار وفي الهجرة والخليفة بعده ، وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة ، وكان يسمى أيضاً عتيقاً ، واختلف هل هو اسم له أصلي ، أو قيل له ذلك لأنه ليس في نسبه ما يعاب به أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام ، أو قيل له ذلك لحسنه ، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فلما ولد لها استقبلت به البيت فقالت : اللهم هذا عتيقك من الموت . أو أن النبي ﷺ بشره بأن الله أعتقه من النار فقال له : أنت عتيق من النار ، فيومئذ سمي عتيقاً . وقد ورد في هذا الأخير حديث عن عائشة عند الترمذي ، وآخر عن عبدالله بن الزبير عند البزار ، وصححه ابن حبان وزاد فيه . وكان اسمه قبل ذلك عبد الله بن عثمان ولم يختلف في أن عثمان اسم أبي قحافة ، كما لم يختلف في كنية الصديق . ولقد لقب الصديق لسبقه إلى تصديق النبي ﷺ ، قيل قد كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء . وروى الطبراني من حديث علي ، رضي الله عنه ، أنه كان يحلف أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق. ورجاله ثقات .

وأم أبي بكر سلمى ، وتكنى أم الخير بنت صخر بن مالك بن عامر بن عمرو المذكور في نسبه السابق الذكر ، أسلمت أمه وهاجرت وذلك معدود من مناقبه لأنه انتظم إسلام أبويه وجميع أولاده . وقد ولد أبو بكر بعد الفيل بسنتين وستة أشهر .

أخرج ابن البرقي من حديث عائشة : تذاكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأبو بكر ميلادهما عندي ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أكبر . وصحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به . وكان من أسباب إيمانه بالنبي ﷺ قبل غيره من الرجال ، ما أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة بإسناده إلى عبدالله بن مسعود قال: قال أبو بكر الصديق : إني خرجت إلى اليمن قبل أن يبعث النبي ﷺ فنزلت على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب وعلم من علم الناس علماً كثيراً ، فلما رآني قال : أحسبك حَرَمِياً . قال أبو بكر : قلت نعم ، أنا من أهل الحرم . قال : وأحسبك قرشياً . قال ، قلت : نعم أنا من قريش . وقال : أحسبك تيمياً . قال قلت : نعم أنا من تيم بن مرة ، أنا عبد الله بن عثمان من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرة . قال : بقيت لي فيك واحدة . قلت ما هي ؟ قال: تكشف عن بطنك . قلت : لا أفعل أو تخبرني لم ذاك . قال: أجد في العلم الصحيح الصادق أن نبياً يبعث في الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل . فأما الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات . وأما الكهل فأبيض نحيف ، على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة ، وما عليك أن تريني ما سألتك فقد تكاملت لي فيك الصفة إلا ما خفي عليّ . قال أبو بكر : فكشفت له عن بطني فرأى شامة سوداء فوق سرتي . فقال : أنت ورب الكعبة وإني متقدم إليك في أمر فاحذره . قال أبو بكر : وما هو . قال : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى ، وخف الله فيما خولك وأعطاك . قال أبو بكر : فقضيت باليمن إربي ثم أتيت الشيخ لأودعه فقال : أحامل عني أبياتاً من الشعر قلتها في ذلك النبي ؟ قلت : نعم . فذكر أبياتاً . قال أبو بكر : فقدمت مكة وقد بعث النبي ﷺ فجاءني عقبة بن أبي معيط وشيبة وربيعة وأبو جهل وأبو البختري وصناديد قريش ، فقلت لهم : هل نابتكم نائبة أو ظهر فيكم أمر ؟ قالوا : يا أبا بكر ، أعظم الخطب ، يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي مرسل ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، فإذ قد جئت فأنت الغاية والكفاية . قال أبو بكر : فصرفتهم على أحسن مس ، وسألت عن النبي ﷺ فقيل في منزل خديجة ، فقرعت عليه الباب فخرج إلي فقلت : يا محمد فقدت من

منازل أهلك وتركت دين آبائك وأجدادك . قال : يا أبا بكر ، إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فآمن بالله . فقلت : وما دليلك على ذلك؟ قال : الشيخ الذي لقيته باليمن . قلت : وكم شيخ لقيت باليمن؟ قال : الشيخ الذي أفادك الأبيات . قلت : ومن خبرك بهذا يا حبيبي؟ قال : الملك العظيم الذي يأتي الأنبياء قبلي . قلت : مد يدك ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال أبو بكر : فانصرفت وما بين لابتيها أشد سروراً من رسول الله ﷺ بإسلامي اهـ . وقد استمر أبو بكر مع رسول الله ﷺ منذ أسلم بمكة ، وفي طريق الهجرة ، وفي المدينة ، إلى أن توفاه الله . وشهد المشاهد كلها وكانت الراية معه يوم تبوك . وحج بالناس في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع ، ولقبه المسلمون بعده خليفة رسول الله . وقد أسلم أبوه كأمه ، وهو أفضل الصحابة كما تقدم في شرح الحديث السابق لهذا .

ومن خصائصه أنه لا يوجد في الصحابة من يكنى أبا بكر غيره ، إلا ما ذكره الحافظ في الإصابة عن شداد بن الأسود بن شعوب أنه يكنى أبا بكر أيضاً ، وهو الذي رثى قتلى بدر من المشركين بالأبيات المذكورة في صحيح البخاري وهي التي أولها (وماذا بالقليب قليب بدر) الخ الأبيات . قال : ثم أسلم ابن شعوب بعد . وأبو بكر بن شعوب هذا ، هو الذي تزوج أم بكر الكليبية زوج أبي بكر الصديق طلقها لما هاجر ، فتزوجها ابن عمها هذا الشاعر الذي رثى قتلى بدر من المشركين بالأبيات المشار إليها . ولعل وجه تكنيته بأبي بكر تزوجه بأم بكر المذكورة نظير ما وقع للصديق إذ لم يعرف وجه لتكنيته بأبي بكر إلا تزوجه بها كما حققه بالاستقراء التام .

وقد روى أبو بكر عن النبي ﷺ مائة واثنين وأربعين حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على ستة منها ، وانفرد البخاري بأحد عشر ومسلم بحديث . روى عنه عمر وعثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وابن عمرو وابن عباس وحذيفة وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومعقل بن يسار وأنس وأبو هريرة وأبو أمامة وأبو برزة وأبو موسى ، وابنتاه عائشة وأسماء ، وابنه عبدالرحمن وغيرهم من الصحابة وخلق كثير من كبار التابعين . وكان أبيض نحيفاً ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، ناتئ الجبهة ، مشرف الوركين ، جميل الصورة (وقد رأيته) في النوم مرة واحدة بعد توطني لمصر كأنه ذاهب بي أنا وبعض إخواني إلى

المدينة المنورة، أماتنا الله على الإيمان بها. وقد وردت في فضله أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما. منها قوله ﷺ: سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر. ومنها غير ذلك اكتفينا عن ذكرها بشهرتها. ومن أعظم مناقبه قول الله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ فإن المراد بصاحبه أبو بكر بالإجماع لأنه انفرد بهذه المنقبة وكان يقيه بنفسه في الغار وخارجه كما هو مشهور مروي بالأسانيد. ومناقبه رضي الله عنه كثيرة جداً أفردها جماعة بالتصنيف. وترجمته في تاريخ ابن عساكر قدر مجلدة، كما قاله الحافظ في الإصابة. ولفظ الخزرجي في الخلاصة: وترجمته في تاريخ الشام في مجلد ونصف. وكانت وفاته يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. وذكر ابن سعد من طريق الزهري، أن أبا بكر والحارث بن كلدة أكلا خزيرة أهديت لأبي بكر وكان الحارث طبيبا، فقال لأبي بكر: ارفع يدك والله إن فيها لسم سنة. فلم يزالا عليلين حتى ماتا عند انقضاء السنة في يوم واحد. وبالله تعالى التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق. انتهى من زاد المسلم.

فضل أبي بكر رضي الله عنه

ولقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة في فضل أبي بكر، رضي الله عنه، في الصحيحين وغيرهما نقتصر على بعضها على سبيل التبرك، لا على سبيل الحصر والتعداد.

جاء في صحيح البخاري في أوائل فضائل أصحاب النبي ﷺ: عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر. فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر. وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: إن من أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر.

وجاء فيه أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: لو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي.

وجاء فيه أيضاً : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كنا نخيّر بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم .

وجاء فيه أيضاً : عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، قال : أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيتَ إن جئتُ و لم أجدك ، كأنها تقول الموت ، قال عليه السلام ، إن لم تجديني فأتي أبا بكر .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي ﷺ : أما صاحبكم فقد غامر فسلم .

وجاء فيه أيضاً : عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبوابٍ -يعني الجنة- : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان ، فقال أبو بكر : ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، وقال : هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر .

وجاء فيه أيضاً : عن سعيد بن المسيب قال : أخبرني أبا موسى الأشعري أنه توضأ في بيته ثم خرج ، فقلت : لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا ، قال : فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا : خرج ووجَّه هاهنا . فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلست عند الباب ، وبابها من جريد ، حتى قضى رسولِ الله ﷺ حاجته فتوضأ ، فقمت إليه ، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قُفها ، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر ، فسلمت عليه ، ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت : لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم . فجاء أبو بكر فدفع الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال : أبو بكر . فقلت : على رسلك ، ثم ذهبت ، فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجليه في البئر

كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه ، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً -يريد أخاه- يأت به ، فإذا إنسان يحرك الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رسلك ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت فقلت : ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة . فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجليه في البئر ثم رجعت فجلست ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً يأت به ، فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رسلك ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فجئته فقلت له : أدخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك ، فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس وجاهه من الشق الآخر . قال شريك ، قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم .

وجاء فيه أيضاً : عن عائشة ، رضي الله عنها ، زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح – قال إسماعيل : يعني بالعالية – فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت : وقال عمر : والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله ، قال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر ، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وقال : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ، وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشكرين﴾ . قال : فنشج الناس يبكون ، قال : واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : منا أمير ومنكم أمير . فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك ، إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ، ثم تكلم أبو بكر ، فتكلم أبلغ الناس ، فقال في كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، فقال حباب بن المنذر : لا والله لا نفعل ، منا أمير ، ومنكم أمير ، فقال أبو بكر : لا ، ولكنا الأمراء ، وأنتم

الوزراء ، هم أوسط العرب داراً ، وأعربهم أحساباً ، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة ، فقال عمر : بل نبايعك أنت ، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول ا لله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس . فقال قائل : قتلتم سعد بن عبادة . فقال عمر : قتله ا لله . وقال عبد ا لله بن سالم ، عن الزبيدي ، قال عبدالرحمن بن القاسم : أخبرني القاسم أن عائشة ، رضي ا لله عنها ، قالت : شخص بصر النبي ﷺ ثم قال : في الرفيق الأعلى ثلاثاً وقص الحديث ، قالت : فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع ا لله بها ، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردهم ا لله بذلك ، ثم لقد بصَّر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به يتلون : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل -إلى- الشاكرين﴾ . انتهى من البخاري .

ونكتفي بهذا القدر ، ففضل أصحاب النبي ﷺ معروف ، وما من مسلم إلا وهو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه وأولاده ، كيف وهم قد فازوا بمشاهدة رسول ا لله ﷺ وسعدوا بخدمته وخدمة هذا الدين السمح الحنيف .

اللهم صل على عبدك ونبيك "محمد" وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار وأزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليماً كثيراً .

يروى أن أربعة من الصحابة رأوا النبي ﷺ : ابن وأبوه وجده وأبو جده وهم أبو عتيق واسمه محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة ، رضي ا لله تعالى عنهم جميعاً .

وفي الصحيحين عن ابن عباس وابن مسعود ، رضي ا لله تعالى عنهما ، عن رسول ا لله ﷺ أنه قال : «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي . وقد اتخذ ا لله عز وجل صاحبكم خليلاً » .

قال شارح زاد المسلم ، أستاذنا الشيخ محمد حبيب ا لله الشنقيطي ، رحمه ا لله تعالى ، عند هذا الحديث ما نصه :

قلت : وقد بحثت غاية البحث عن سبب تكنيته بأبي بكر ولم أجد في أبنائه من سمي بكراً ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وما رأيت لسبب تكنيته بذلك إلا قول صاحب المصباح المنير .

والبكر بالفتح : الفتى من الإبل وبه كني ومنه أبو بكر الصديق اهـ.

ونظم معنى كلامه بعض الفضلاء بقوله :

والبكر بالفتح فتى الإبل ومنه كنية أبي بكر العلي

وليس في عبارة صاحب المصباح تصريح بوجه تكنيته بأبي بكر وأنها بسبب بكر من الإبل كان ملابساً له مثلاً حتى يصدق عليه أنه كني به . ورأيت للزمخشري كما نسبه له شارح المواهب اللدنية ما نصه :

ولعله كني أبا بكر لابتكاره المكرمات ، وهذا أيضاً ليس بشيء ، إذ لو كانت تكنيته من هذا المعنى لقيل له أبو الابتكار . ثم بعد هذا كله فتح الله علي باستنباط سبب تكنيته من حديث البخاري في آخر باب هجرة النبي ﷺ عن عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه ، تزوج امرأة من كلب يقال لها أم بكر ، فلما هاجر أبو بكر طلقها، فتزوجها ابن عمها الشاعر الذي قال هذه القصيدة رثى بها كفار قريش :

وما ذا بالقليب قليب بدر من الشيزى تزين بالسنام الخ

فعلمت أن وجه تكنيته بأبي بكر من أجل كونه تزوج امرأة يقال لها أم بكر ، فقيل له هو أبو بكر لكونه أبا لابن زوجته عرفاً ، إذ هو ابن زوجته . ومن الضروري عند العرب تسمية زوج المرأة أباً لجميع أبنائها ولو من غيره ، فهذا ، والله تعالى أعلم ، هو سبب تكنيته بأبي بكر وما تحصلت عليه إلا بعد الاستقراء التام الذي يعلم منه أن لا وجه لتكنيته بأبي بكر إلا هذا الذي استنبطته من هذا الحديث .

فتح مكة المكرمة

وهو الفتح الأعظم

كان خروج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً مكة يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، فصام عليه الصلاة والسلام وصام الناس معه ، حتى إذا وصل الكديد أفطر ، وما زال مفطراً حتى انسلخ الشهر . وكديد ما بين عسفان وأمج ، وعن ابن عباس الكديد الماء الذي بين قديد وعسفان اهـ . وبين مكة وعسفان مرحلة واحدة عن طريق وادي فاطمة - وكان دخول النبي ﷺ مكة صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة ، ودخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام ، وهو

راكب راحلته ، منحن على الرحل حتى تكاد جبهته تمسه تواضعاً وشكراً لله على هذه النعمة الكبرى ، وأسامة بن زيد رديفه ، فلما وصل إلى موضع رايته بالحجون استراح قليلاً في القبة التي نصبت له هناك ، وكان فيها أم سلمة وميمونة رضي الله تعالى عنهما ، ثم سار عليه الصلاة والسلام وبجانبه أبو بكر رضي الله عنه يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح ، حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر الأسود بمحجنه ، ثم أقام ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً وقيل : ثمانية عشر وقيل : تسعة عشر وهو يقصر الصلاة. وبعد ذلك خرج إلى غزوة حنين "بالتصغير" وتسمى غزوة هوازن ، وحنين واد وراء عرفات بين مكة والطائف .

روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن طاووس : لم يدخل النبي ﷺ مكة إلا محرماً إلا يوم فتح مكة . وروى مسلم من حديث جابر : دخل النبي ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام .

نقول: إن رسول الله ﷺ لو دخل مكة للنسك لدخلها محرماً ، ولكنه يوم الفتح أتى إليها غازياً بجيشه مستعداً للقتال إذا اضطر إليه ، ودخول المقاتل الفاتح له حالة غير حالة الناسك المتعبد ، لذلك لم يكن يوم الفتح محرماً ولم يكن صائماً بمكة مدة إقامته بها حتى انسلخ شهر رمضان .

وقصة فتح مكة شرفها الله تعالى شهيرة ، وهذا الفتح من أعظم فتوح الإسلام ، أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه ، فدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وإلى هذا الفتح تشير سورة النصر وهي : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾. وقد فهم رسول الله ﷺ من نزول هذه السورة أنه قد اقترب أجله ، فكان يكثر من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه .

وغزوة فتح مكة مذكورة في جميع كتب التفسير والحديث والتاريخ والسير ، ولقد أردنا أن نذكر خلاصتها ، لكن رأينا الإتيان بتفصيل غزوة الفتح أولى وأفضل لما فيها من العبر والفوائد الجمة . كما رأينا أن ننقل ما جاء عنها من كتاب " تاريخ الخميس " لأنه كتاب شهير معتمد ونادر الوجود ، ولأنه ينقل جميع الأقوال والمرويات بتفصيل تام . وإليك نص ما جاء فيه عن فتح مكة :

وفي عشرين من رمضان هذه السنة "أي السنة الثامنة من الهجرة" يوم الجمعة وقيل في سادس عشر منه وقعت غزوة فتح مكة ، وفي البخاري على رأس ثمان ونصف من مقدمه المدينة . وفي خلاصة السير : لسبع سنين وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً .

وفي الاكتفاء : أقام رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجباً ، ثم عَدَت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة على خزاعة . قال أصحاب الأخبار إن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية واصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، كما مر ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ . وكان بينهما شر قديم ، ولما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية عَدَت بنو بكر على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني ديل من بني بكر وليس كل بني بكر تابعه . كذا في معالم التنزيل .

وفي المنتقى : كلمت بنو نفاثة وهم من بني بكر أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح ، فوعدوهم ووافوهم وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ متنكرين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحويطبٍ ومكرز مع عبيدهم ، فبيتوا خزاعة ليلاً وهم غارّون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً ، ثم ندمت قريش على ما صنعت وعلموا أن هذا نقضٌ للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة وكان ذلك مما هاج فتح مكة .

وروي عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ بات عندها في ليلتها ، ثم قام وتوضأ للصلاة ، فسمعته يقول : لبيك لبيك ثلاثاً . فلما خرج من متوضئه قلت له : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، إني سمعتك تكلم إنساناً ، فهل كان معك أحد؟ قال : هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر . قال : فأقمنا ثلاثة أيام ، ثم صلى الصبح بالناس فسمعت راجزاً ينشد على رسول الله ﷺ ، وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس وهو يقول :

لا هـم إنـي ناشـد محمـدا ... حلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
إنـا ولدنـاك وكنـت الولـدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يـدا
إن قريشـا أخلفـوك الموعـدا ... ونقضـوا ميثـاقك المؤكـدا
هـم بيّتونـا بالوتـير هجـدا ... وقتلونـا ركعـاً وسـجدا
وجعلـوا لي في كـداء رصـدا ... وزعمـوا أن لسـت أدعـو أحـدا
وهـم أذل وأقـل عـددا ... فـانصر هـداك الله نصـراً أبـدا
وادع عبـاد الله يـأتوك مـددا ... فيهـم رسـول الله قـد تجـردا
في فيلـق كـالبحر يجـري مزبـدا ... أبيـض كـالبدر ينمـى صعـدا

إن سيم خسفاً وجهه تربدا

فقال رسول الله ﷺ: قد نصرت يا عمرو بن سالم. وفي المنتقى: نصرت نصرت ثلاثاً، أو لبيك لبيك ثلاثاً. ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل لنصر بني كعب وهم رهط عمرو بن سالم.

وفي المنتقى: فلما كان بالروحاء نظر إلى سحاب منصب، فقال: إن هذا السحاب لينصب لنصر بني كعب. ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة قدموا على رسول الله فأخبروه بما أصيب منهم، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد كان رسول الله قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة ومضى بديل بن ورقاء فلقي أبا سفيان بعسفان قد بعثه قريش إلى رسول الله ﷺ ليشدد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا. فلما لقي أبو سفيان بُديلاً قال: من أين أقبلت يا بُديل؟ فظن أنه أتى رسول الله ﷺ. قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما أتيت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل مكة قال أبو سفيان: لئن كان بالمدينة لقد علف بها. فعمد إلى منزل ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى. فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً. ثم خرج أبو سفيان. حتى قدم على رسول الله ﷺ، فدخل البيت – وهو بيت ابنته أم حبيبة ابنة أبي سفيان – فأتى ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه. قال: يا بنية أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عني؟ قالت: بلى، هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله

ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ . فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فأبى ، ثم أتى علي بن أبي طالب فأبى . ثم قال لفاطمة أن تأمر ابنها الحسين وهو غلام يدب بين يدي أبويه حتى يجير له فأبت . فقال : يا أبا حسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني . قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : وترى ذلك مغنياً شيئاً ؟ قال : لا والله ، ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق فلما أن قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد عليّ بشيء ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد عنده خيراً ، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين الناس ، فقد أشار عليّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا . قالوا : وماذا أمرك ؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا . قالوا : والله إن زاد عليٌّ إلا أن لعب بك الناس ، فما يغني عنا ما قلت . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ولم يعلموا به أحداً . فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ ، فقال : يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت : لا أدري . قال : أمركم رسول الله ﷺ بأن تجهزوه ؟ قالت : نعم . فتجهزه . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : ما أدري . قال : ما هذا زمان غزوة بني الأصفر فأين يريد ؟ قالت : لا علم لي . ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نسبقها في بلادها .

وفي رواية قال : اللهم عَمِّ عليهم خبرنا حتى نأخذهم بغتة . فتجهز الناس فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة وبعثه مع سارة مولاة بني المطلب .

وفي معالم التنزيل والمدارك : أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف يقال لها سارة أتت المدينة من مكة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة . فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : أفمهاجرة ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : قد ذهبت الموالي ، وقد احتجت حاجة شديدة ، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني . فقال لها : وأين أنت من شباب مكة . وكانت

مغنية نائحة . قالت : ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر . فحث عليها رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها.

وفي شفاء الغرام : حامل كتاب حاطب بن أبي بلتعة أم سارة مولاة لقريش ، وفيه أيضاً أم سارة هي التي أمر النبي ﷺ بقتلها يوم فتح مكة ، وأنها كانت مولاة لقريش . وبيّن الحافظ مغلطاي اسم المرأة قال : كتب حاطب كتاباً وأرسله مع أم سارة كنود المزنية . انتهى .

ولما علم حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد أن رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة كتب إليهم كتاباً ودفعه إلى سارة وأعطاها عشرة دنانير ، وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة . وكتب في الكتاب ، وفي المدارك : واستحملها كتاباً نسخته : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة . اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم . وفي رواية كتب فيه : إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له وعده .

وفي رواية كتب فيه : إن محمداً قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر . ذكرهما السهيلي . فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً . فقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين أو إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن لم تدفعه إليكم أو قال : فإن أبت فاضربوا عنقها .

قال الواقدي : روضة خاخ بقرب ذي الحليفة على بريد من المدينة . فانطلقوا تعادي بهم خيلهم حتى أتوا الروضة فأدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ . فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً ، فهموا بالرجوع فقال علي : والله ما كَذَبنا ولا كُذِبنا . وسل سيفه وقال : أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك أو لأضربن عنقك .

وفي المدارك : أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك .

وفي رواية : لتخرجن الكتاب أو لتلقن الثياب . فلما رأت الجد أخرجته من عقيصتها قد خبأته في شعرها . فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها ، فرجعوا

بالكتاب إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ ، إلى حاطب فأتاه . فقال : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم . قال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل عليّ ، والله يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ صحبتك ، أو قال : نصحتك ولا أجبتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته .

وفي رواية : وكان لمن معك من المهاجرين بمكة قرابات يحمون أهلهم وأموالهم وكنت غريباً فيهم . وفي رواية : كنت امرءاً ملصقاً في قريش ، يقول حليفاً ، ولم أكن من أنفسها ، وليس فيهم من يحمي أهلي ، وكان أهلي بين ظهرانيهم ، فخشيت على أهلي فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي . وقد علمتُ بأن الله ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً ، ولم أفعل ذلك ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فصدقه رسول الله ﷺ وعذره ، فقال : أما إنه قد صدقكم . فقام عمر بن الخطاب فقال : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . ففاضت عينا عمر ، فأنزل الله عز وجل في حاطب : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة... الآية﴾ وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من الأعراب فجلبهم ، وهم أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم ، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري . وفي المنتقى : عبدالله بن أم كلثوم .

وخرج عامداً إلى مكة يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضين من رمضان السنة الثامنة من الهجرة ، فصام ﷺ وصام الناس ، حتى إذا كان بالكديد ما بين عسفان وأمج . وعن ابن عباس . الكديد الماء الذي بين قديد وعسفان .

وفي القاموس : الكديد ماء بين الحرمين . أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر ، وقدم أمامه الزبير وقد كان ابن عمته ، وأخوه من رضاع حليمة السعدية أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ومعه ولده جعفر بن أبي سفيان . وكان أبو سفيان يألف رسول الله ، فلما بُعث عاداه وهجاه . وابن عمته عاتكة بنت عبدالمطلب عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة لقياه بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة .

وفي المواهب اللدنية: كان لقاؤهما له عليه السلام بالأبواء، وقيل: بين السقيا والعرج، فالتمسا الدخول عليه فأعرض ﷺ عنهما لما كان يلقى منهما من شدة الأذى والهجو. وكلمته أم سلمة وهب أخت عبد الله فيهما فقالت: يا رسول الله، لا يكن ابن عمك وابن عمتك وصهرك أشقى الناس بك. قال: لا حاجة لي فيهما، فأما ابن عمي فهتك عرضي، واما ابن عمتى وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان ومعه بني له اسمه جعفر بن أبي سفيان: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

وفي المواهب اللدنية: قال علي لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمرو وصاحب ذخائر العقبى: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان. فقال له ﷺ: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾.

وقد مر في أولاد عبد المطلب في النسب، ويقال: إن أبا سفيان ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياء منه. قالوا: ثم سار رسول الله ﷺ، فلما كان بقديد عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل، ثم سار حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين لم يتخلف عنه من المهاجرين والأنصار أحد.

وفي القاموس: ظهران واد بقرب مكة يضاف إليه مر، ومرّ الظهران موضع على مرحلة من مكة. وقال بعضهم: ومنه إلى مكة أربعة فراسخ. قال ابن سعد: نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاء فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب. وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم. وقد كان عباس بن عبدالمطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار هل يجدون خبراً، وقد قال العباس ليلتئذ: وا صباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوا إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

فخرج على بغلة رسول ا لله ﷺ البيضاء وقال : أخرج إلى الأراك لعلي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول ا لله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فخرجت وإني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، فأبو سفيان يقول : وا لله ما رأيت كالليلة قط نيراناً . فقال بديل : وا لله هذه نيران خزاعة حشتها الحرب. فقال أبو سفيان : خزاعة وا لله ألأم وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ فقلت : نعم . قال : ما لك فداك أبي وأمي . فقلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول ا لله ﷺ قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين ، وا صباح قريش . قال : فما الحيلة ، فداك أبي وأمي ؟ قلت : وا لله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول ا لله ﷺ فأستأمنه لك . فردفني ورجع صاحباه . فحركت به بغلة رسول ا لله ﷺ فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ، فإذا رأوا بغلة رسول ا لله ﷺ قالوا: هذا عم رسول ا لله ﷺ على بغلة رسول ا لله ﷺ ، حتى مررت بنار عمر ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي . فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال : أبو سفيان عدو ا لله ، الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد . ثم اشتد نحو رسول ا لله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ، فاقتحمت عن الغلة فدخلت على رسول ا لله ﷺ ودخل عمر فقال : يا رسول ا لله ، هذا أبو سفيان عدو ا لله قد أمكن ا لله تعالى منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني أضرب عنقه . فقلت : يا رسول ا لله ، إني قد أجرته . ثم جلست إلى رسول ا لله ﷺ فأخذت برأسه .

قال : قال النبي ﷺ للعباس بعد تنازع وتراجع في الكلام بينه وبين عمر : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به . قال فذهبت به إلى رحلي ، فبات عندي ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول ا لله ﷺ فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا ا لله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك ، وا لله لقد ظننت أن لو كان مع ا لله غيره لقد أغنى عني شيئاً . قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول ا لله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك ، أمّا هذه وا لله كأن في

النفس حتى الآن منها شيء. قال العباس: قلت ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك. فشهد شهادة الحق وأسلم. وفي رواية عروة لما دخل أبو سفيان مع العباس على رسول الله ﷺ صبيحة أسلم.

قال أبو سفيان: يا محمد إني قد استنصرتُ إلهي واستنصرتَ إلهك. فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرتَ علي، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لظهرتُ عليك. فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومرّت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة. حتى نفدت القبائل، لا تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته فيقول: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدَق. قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء من قِبَل، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. قلت: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذاً. قلت: الحق بقومك فحذرهم.

وفي الاكتفاء: التجيء إلى قومك. فخرج سريعاً حتى إذا جاءهم فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به. قالوا: فمسه؟ قال: فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم. قال: ويحكم لا تغرن هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني دارك عنا شيئاً. قال: فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى

السلاح فهو آمن . وفي رواية نادى أبو سفيان : أسلموا تسلموا فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وروي أن حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قدما على رسول الله ﷺ بمر الظهران فأسلما فبايعاه ، فبعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام . ولما خرج أبو سفيان وحكيم من عند النبي ﷺ راجعين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير بن العوام وأعطاه الراية وأمّره على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يسير من طريق كداء ، وأن يركز رايته على الحجون ، وقال له : لا تبرح من حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك . وفي الاكتفاء : وأمر رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذي طوى الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كداء ، وكان على المجنبة اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كدي . فذكروا أن سعداً حين وجه داخلاً قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . فسمعها رجل من المهاجرين قيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله أتسمع ما قال سعد؟ ما نأمن أن يكون له في قريش صولة وصدمة . فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : أدركه فخذ الراية ، فكن أنت الذي تدخل بها . ويقال أخذت الراية من سعد ودفعت إلى ابنه قيس بن سعد ، ويقال أمر الزبير بأخذ الراية وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين . وفي المواهب اللدنية هذه الثلاثة الأقوال فيمن دفعت إليه الراية التي نزعت من سعد ، والذي يظهر من الجميع أن علياً أرسل لينزعها من سعد ويدخل بها ، ثم خشي من تغير خاطر سعد فأمر بدفعها إلى ابنه قيس ، ثم إن سعداً خشي أن يقع من ابنه شيء ينكره النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ أن يأخذها من قيس فحينئذ أخذها الزبير وجعل أبا عبيدة ابن الجراح على الحسر والبيادق كذا في المواهب اللدنية والمنتقى .

فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون وغرز هناك راية رسول الله ﷺ .

وأمر خالد بن الوليد وكان على المجنبة اليمنى أن يدخل فيمن أسلم من قضاعة وبني سليم وغفار وجهينة ومزينة وسائر القبائل . فدخل من الليط أسفل مكة ، وبها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف والأحابيش الذين استنفرتهم واستنصرتهم قريش وأمرتهم أن يكونوا بأسفل مكة . وأمر النبي ﷺ خالداً أن يركز رايته عند منتهى البيوت وأدناها ، وكان ذلك أول إمارة خالد ، وقال النبي

ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم . ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حمراء وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله وشكراً له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

العثنون - بالعين المهملة والثاء المثلثة والنونين بينهما واو - اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين ، أو نبت على الذقن وتحته سفلا ، أو هو طولها وشعيرات طوال تحت حنك الإبل كذا في القاموس .

ولما وقف ﷺ هناك قال أبو قحافة وقد كف بصره لابنة له من أصغر ولده ، وهو على أبي قُبيس مشرفاً عليه : أي بنية ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سوداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . قال : أي بنية ، ذاك الوازع - يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها . ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد والله إذاً دفعت الخيل ، فأسرعي بي إلى بيتي . فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته ، وفي عنق الجارية طوق من ورق فتلقاها رجل فقطعه من عنقها . قال : فلما دخل رسول الله ﷺ أتاه أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رأى رسول الله ﷺ قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه . قال : فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسلم . فأسلم . ورآه رسول الله ﷺ وكأن رأسه ثغامة ، فقال : غيّروا هذا من شعره وسيجيء . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد . فقال : أي أخية احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة اليوم في الناس قليل .

ولم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال ، وأما خالد بن الوليد فدخل من الليط أسفل مكة ، فلقيه قريش وبنو بكر ، والأحابيش فقاتلوه ، فقتل منهم قريباً من عشرين رجلاً ، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة وانهزموا ، وقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد ، وقرب قضيضهم حتى دخلوا الدور ، وارتفعت طائفة منهم على الجبال ، واتبعهم المسلمون بالسيوف ، وهربت طائفة منهم إلى البحر وإلى صوب اليمن ، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ ، ودخل رسول الله ﷺ من أواخر المهاجرين حتى نزل بأعلى مكة وضربت له هناك قبة .

وروى مسلم من حديث جابر : دخل النبي ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام . وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن طاووس : لم يدخل النبي ﷺ مكة إلا محرماً ، إلا يوم فتح مكة . وقد اختلف العلماء هل يجب على من دخل مكة الإحرام أم لا ، فالمشهور من مذهب الشافعي عدم الوجوب مطلقاً . وفي قول يجب مطلقاً ، وفيمن يتكرر دخوله خلاف مرتب ، فأولى بعدم الوجوب والمشهور عن الأئمة الثلاثة الوجوب كذا في المواهب اللدنية .

ولما علا رسول الله ﷺ ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضض المشركين فقال : ما هذا ؟ وقد نهيت عن القتال . فقال المهاجرون : نظن أن خالداً قوتل وبُدئ بالقتال ، فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك . فهبط رسول الله ﷺ من الثنية فأجاز على الحجون واندفع الزبير بن العوام حتى وقف بباب الكعبة .

وفي الاكتفاء : وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد في نفر قد سماهم أمر بقتلهم ، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة ، وسيجيء ذكرهم . وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا ، فيهم حماس أبي قيس بن خالد أخو بني بكر ، وقد كان أعد سلاحاً وأصلح منها ، فقالت له امرأته : لَمَ تُعدّ سلاحك هذا ؟ قال : لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد شيء . قال : والله إني لأرجو أن أُخدمكِ بعضهم . ثم قال :

إن يقتلوا اليوم فمالي علة　　　هذا سلاح كامل وآلة
وذو غرارين سريع السلة

ثم شهد الخندمة فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن الأشقر -كانا في خيل خالد- فشذا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وأصيب سلمة بن الميلاء الجهني من خيل خالد ، وأصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حماس منهزما حتى دخل بيته وقال لامرأته : أغلقي علي بابي . قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة　　　إذ فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتهم بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة لهم نهيت خلفنا وهمهمة
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد بعد أن اطمأن: لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟ قال: هم بدأونا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا النبل، وقد كففتُ يدي ما استطعت. فقال رسول الله ﷺ: قضاء الله خير. وفرّ يومئذ صفوان بن أمية عامداً للبحر وعكرمة بن أبي جهل عامداً لليمن. وستجيء قصتهما.

وفي المنتقى: وكل الجنود لم يلقوا جنوداً غير خالد، فإنه لقي صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل في جمع من قريش، فمنعوه من الدخول وشهروا السلاح ورموا بالنبل، فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم، فقتل أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل. فلما ظهر النبي ﷺ قال لخالد: ألم أنه عن القتال؟ فقيل: قوتل فقاتل كما مر.

وفي شفاء الغرام عن عطاء ابن السائب قال: حدثني طاووس وعامر قالا: دخل رسول الله ﷺ وقدم خالد بن الوليد فأنالهم شيئاً من قتل، فجاء رجل من قريش فقال: يا رسول الله، هذا خالد بن الوليد قد أسرع في القتل. فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار عنده: يا فلان، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ائت خالد بن الوليد قل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن لا تقتل بمكة أحداً. فجاء الأنصاري فقال: يا خالد إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تقتل من لقيت، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلاً من مكة. فجاء إلى النبي ﷺ رجل من قريش فقال: يا رسول الله، هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم. قال: ولم؟ قال: هذا خالد لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله. فقال النبي ﷺ: ادع لي خالداً، فلما أتى إليه خالد قال: يا خالد، ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً. قال: بل أرسلت إلي أن اقتل من قدرت عليه. قال: ادع لي الأنصاري، فدعاه له. فقال: ألم آمرك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحداً. قال: بلى، ولكنك أردت أمراً وأراد الله غيره، فكان ما أراد الله. فسكت ﷺ ولم يقل للأنصاري شيئاً وقال: يا خالد، قال: لبيك يا رسول الله، قال: لا تقتل أحداً، قال: لا.

وفي المواهب اللدنية والمنتقى: روى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: أقبل رسول الله ﷺ وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث

الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر - بضم المهملة وتشديد السين المهملة - أي الذين بغير سلاح. فقال لي: يا أبا هريرة اهتف لي بالأنصار، فهتف بهم فجاءوا فأطافوا، فقال لهم: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أبحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. فقال ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن.

وفي الاكتفاء: قالت أم هانئ بنت أبي طالب، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرّ إلي رجلان من أحمائي من بني مخزوم، فدخل علي أخي علي بن أبي طالب فقال: والله لأقتلنهما. فأغلقت عليهما بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنة كان فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه. فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثمان ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي فقال: مرحباً وأهلاً بأم هانئ. ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وأمّنا من أمّنت فلا يقتلنهما.

قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام وزهير بن أمية بن المغيرة. وفي رواية للبخاري: أنه ﷺ يوم فتح مكة اغتسل في بيت أم هانئ، ثم صلى الضحى ثمان ركعات، فقالت: لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود، وذكره في المواهب اللدنية.

وفي رواية دخل رسول الله ﷺ مكة حين ارتفعت الشمس على ناقته القصوى بين أبي بكر وأسيد بن حضير، وقد أردف أسامة بن زيد، وقد طأطأ رأسه تواضعاً لله وهو يقرأ سورة الفتح.

وفي الاكتفاء: ولما نزل رسول الله ﷺ واطمأن خرج حتى أتى البيت، فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحج. يا معشر

قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم خلق من تراب . ثم تلا هذه الآية : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، الآية﴾ ثم قال : يا معشر قريش أو يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فأعتقهم رسول الله ﷺ . وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة فلذلك يسمى أهل مكة الطلقاء ، أي الذين أُطلقوا فلم يُسترقوا و لم يُؤسروا ، والطليق هو الأسير إذا أطلق .

قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدعي له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بِرّ ووفاء ، وقال لعلي فيما حكى ابن هشام : إنما أعطيكم ما تزرأون لا ما تُرزأون .

وفي البحر العميق : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح فقبض السقاية من العباس بن عبد المطلب ، والحجابة من عثمان بن طلحة ، فقام العباس بن عبدالمطلب فبسط يده وقال : يا رسول الله : بأبي أنت وأمي ، اجمع لي الحجابة مع السقاية . فقال رسول الله ﷺ : أعطيكم ما تزرأون فيه لا ما تُرزأون منه . قال أبو علي : معناه أنا أعطيكم ما تمونون على السقاية التي تحتاج إلى مؤن ، أي فأنتم تُرزأون –بضم التاء وسكون الراء المهملة قبل الزاي المعجمة المفتوحة من الرزء بالضم وهو النقص – أي : يرزؤكم الناس أي : ينقصونكم بالأخذ لتموينكم إياهم بتموين السقاية المعدة لهم ، وأما السدانة فيرزأونها الناس بالبعث إليها أي بعث كسوة البيت أي لا يليق أن تَرْزؤا ، بفتح التاء وسكون الراء المهملة قبل المعجمة ، أي : تنقصوا الناس بأخذ أموالهم والتعرض لذلك لشرفكم . وقيل : معنى ترزأون فيه بضم المثناة أي : تصيبون فيه الخير بصرف أموالكم في مؤنات زمزم . ومعنى : ما تزرأون منه بفتح المثناة أي : تستجلبون به الأموال أي تأخذون منه أموال الناس كالحجابة . فقام رسول الله ﷺ بين عضادتي باب الكعبة فقال : ألا إن كل دم أو مأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي هاتين ، إلا السقاية وسدانة الكعبة ، فإني قد أمضيتهما لأهلهما على ما كانت في الجاهلية . فقبضها العباس وكانت في يده حتى توفي ، فوليها بعده عبدالله بن عباس فكان يفعل كفعله دون بني عبدالمطلب .

وكان محمد بن الحنفية قد كلم فيها ابن عباس فقال له ابن عباس : ما لك ولها ، نحن أولى بها في الجاهلية والإسلام . وقد كان أبوك تكلم فيها فأقمت البينة طلحة بن عبيدا لله ، وعامر بن ربيعة ، وأزهر بن عبد عوف ، ومخرمة بن نوفل أن العباس بن عبدالمطلب كان يليها في الجاهلية بعد عبدالمطلب ، وجدك أبو طالب في إبله في باديته بعرفة ، وأن رسول ا لله ﷺ أعطاها العباس يوم الفتح دون بني عبدالمطلب ، فعرف ذلك من حضر ، وكانت بيد عبدا لله بن عباس بتولية رسول ا لله ﷺ دون غيره لا ينازعه فيها منازع ولا يتكلم فيها متكلم ، حتى توفي فكانت في يد علي بن عبدا لله بن عباس يفعل فيها كفعل أبيه وجده ، ويأتيه الزبيب من ماله بالطائف وينبذه ، حتى توفي فكانت في يد ولده حتى الآن . قال الأزرقي : كان لزمزم حوضان حوض بينها وبين الركن يشرب منه ، وحوض من ورائها للوضوء له سرب يذهب فيه الماء .

وذكر ابن عقبة أن رسول ا لله ﷺ لما قضى طوافه نزل ، فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم ، فاطلع فيها وقال : لولا أن تغلب بنو عبدالمطلب على سقايتهم لنزعت منها بيدي . ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريباً من مقام إبراهيم ، وكان المقام لاصقاً بالكعبة فأخره رسول ا لله ﷺ ، ودعا ﷺ بسجل من ماء فشرب وتوضأ ، والمسلمون يبتدرون وضوءه ويصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون: ما رأينا ملكاً قط بلغ هذا ولا سمعنا به.

وذكر ابن هشام أيضاً أن رسول ا لله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال : قاتلهم ا لله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .

وعن ابن عباس أن رسول ا لله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام ، فقال : قاتلهم ا لله ، لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط . ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت و لم يصل، وفي رواية صلى فيه .

وفي الاكتفاء عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع ذلك الصنم لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع.

وفي رواية : يشير إلى الصنم بقوس في يده وهو آخذ بسيتها وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . وقل : جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد . فيقع الصنم لوجهه ، وكان أعظمها هبل ، وهو وجاه الكعبة حذاء مقام إبراهيم لاصقاً بها . وقال تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصنام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب أو العقابا

وفي المواهب اللدنية : وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنماً . فكلما مر ﷺ بصنم أشار إليه الخ ، رواه البيهقي . وفي رواية أبي نعيم قد أوثقها الشياطين بالرصاص والنحاس .

وفي تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي : أن الله تعالى أعلمه أنه قد أنجزه وعده بالنصر على أعدائه وفتح له مكة ، وأعلى كلمته ودينه ، وأمره إذا دخل مكة أن يقول : جاء الحق وزهق الباطل . فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فيخر الصنم ساقطاً ، مع أنها كلها كانت مثبتة بالحديد والرصاص . وكانت ثلثمائة وستين صنماً بعدد أيام السنة . قال ابن عباس : ولما نزلت الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتي صنماً صنماً ويطعن في عينه أو بطنه بمخصرته ويقول : جاء الحق وزهق الباطل . فينكب الصنم لوجهه ، حتى ألقاها جميعاً ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير أو صفر وقال : يا علي ارم به . فحمله عليه السلام حتى صعد ، ورمى به وكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون . انتهى كلام المواهب اللدنية .

وفي الرياض النضرة : روي عن علي أنه قال : حين أتينا الكعبة قال لي رسول الله ﷺ : اجلس . فجلست إلى جنب الكعبة فصعد على منكبي ، فذهبت لأنهض به فرأى ضعفاً مني تحته . قال لي : اجلس . فجلست ، فنزل عني وجلس لي رسول الله ﷺ وقال لي : اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه ، فنهض بي وإنه

يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت البيت . وفي شواهد النبوة : سأل رسول الله ﷺ علياً حين صعد منكبه : كيف تراك ؟ قال علي : أراني كأن الحجب قد ارتفعت ، ويخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء . فقال رسول الله : طوبى لك تعمل للحق وطوبى له أحمل للحق ، أو كما قال انتهى . قال : فصعدت البيت وكان عليه تمثال صفر أو نحاس ، وهو أكبر أصنامهم ، وتنحى رسول الله فقال لي : ألق صنمهم الأكبر ، وكان مُوتداً على البيت بأوتاد حديد إلى الأرض . فقال رسول الله ﷺ : ايه ايه عالجه ، جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . فجعلتُ أزاوله أو قال أعالجه عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنتُ منه قال لي رسول الله : اقذف به . فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت. وزاد الحاكم : فما صعدت حتى الساعة . ويروى أنه كان من قوارير رواه الطبراني وقال : خرجه أحمد ورواه الزرندي والصالحاني .

وفي رواية : فجاء النبي ﷺ إلى مقام إبراهيم فصلى ركعتين ، ثم جلس ناحية ، فبعث علياً إلى عثمان بن طلحة الحجَبي في طلب مفتاح الكعبة ، فأبى دفعه إليه ، وقال : لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه منه . فلوى علي يده وأخذ المفتاح منهم قهراً وفتح الباب .

وفي شفاء الغرام : كلام الواحدي أن عثمان لم يكن حين أُخذ ذلك منه مسلما ، يخالف ما ذكره العلماء من أنه كان مسلماً . قال ابن ظفر في ينبوع الحياة : قوله لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه هذا وهم لأنه كان ممن أسلم فلو قال هذا لكان مرتداً .

وعن الكلبي : لما طلب عليه الصلاة والسلام المفتاح من عثمان بن طلحة مد يده إليه ، فقال العباس : يا رسول الله اجعلها مع السقاية ، فقبض عثمان يده بالمفتاح . فقال له رسول الله ﷺ : إن كنت يا عثمان تؤمن با لله واليوم الآخر فهاته ، فقال عثمان : فهاكه بالأمانة . فأعطاه إياه ونزلت الآية . قال ابن ظفر : وهذا أولى بالقبول . وعن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلا مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ، ومعه بلال وعثمان بن طلحة من الحجبة ، حتى أناخ بالمسجد . فأمره أن يأتي بمفتاح البيت ، ففتح ودخل معه أسامة بن زيد وعثمان بن طلحة .

وفي شفاء الغـرام : أن النبي ﷺ دخـل الكعبـة بعد هجرتـه أربع مـرات يـوم الفتح ، ويوم ثاني الفتح ، وفي حجة الوداع ، وفي عمـرة القضـاء . وفي كـل هـذه الدخلات خلاف ، إلا الدخول الذي يوم فتح مكة.

وفي شفاء الغرام: طاف النبي ﷺ بالبيت يوم الفتح يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . وفي الاكتفاء: وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهـو بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : ماذا كنت تحدث نفسك؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده علـى صدره فسكن قلبـه . فكـان يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه . قـال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يـأبى عليـك الله والإسـلام
لـو مـا رأيـت محمـداً وقبيلـه ... بـالفتح يـوم تكسـر الأصنـام
لرأيـت ديـن الله أضحـى بيننـا ... والشرك يغشـى وجهـه الإظـلام

وأمر رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة عام الفتح بلالاً أن يـؤذن ، وكـان دخـل معه ، وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحـارث بـن هشـام جلـوس بفنـاء الكعبة . فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هـذا فيسـمع منـه مـا يغيظه . فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنـه محق لاتبعته . وقـال أبـو سـفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرته عني هذه الحصاة . فخرج عليهم النبي ﷺ فقـال : لقد علمتُ الذي قلتم ، ثم ذكر ذلك لهـم . فقـال الحـارث وعتـاب : نشـهد أنـك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك .

وفي المواهب اللدنية عن ابن عمر قال : أقبل رسـول الله ﷺ عـام الفتـح على ناقته القصوى ، وهو مردف أسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة ، ثم دعا عثمـان بن طلحة فقال له : ائتني بالمفتاح . فذهب إلى أمـه فـأبت أن تعطيـه . فقـال : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي . فأعطته إياه ، فجـاء بـه إلى النبي ﷺ ، ففتح به الباب ، رواه مسلم .

وروى الفاكهاني من طريق ضعيف عن ابن عمر أيضاً قال : كان بنـو طلحـة يزعمون أنه لا يستطيع فتح الكعبـة أحـد غيرهم ، فـأخذ رسـول الله ﷺ المفتـاح

ففتحها . وعثمان المذكور هو عثمان بن طلحة ، وعثمان هذا لا ولد له ، وله صحبة ورواية ، واسم أم عثمان سُلافة بضم السين المهملة وتخفيف الفاء .

وفي الطبقات لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ونلت منه . فحلم عني ثم قال : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال : بل عمرت وعزت يومئذ . ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت يومئذ الأمر سيصير إلى ما قال . فلما كان يوم الفتح قال : ائتني بالمفتاح يا عثمان ، فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إلي . وقال : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم . يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف . كذا في شفاء الغرام .

قال : فلما وليت ناداني ، فرجعت إليه فقال : ألم يكن الذي قلت لك ؟ قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة : لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت . قلت: بلى أشهد أنك رسول الله .

وفي التفسير أن هذه الآية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ نزلت في عثمان بن طلحة الحجَبي . أمره عليه السلام أن يأتي بمفتاح الكعبة فأبى عليه وأغلق عليه الباب وصعد البيت وقال : لو علمت أنه رسول الله ﷺ لم أمنعه منه . فلوى علي يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب . فدخل ﷺ ، ولما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، اجمع لي السدانة مع السقاية. وكان النبي ﷺ يريد أن يدفعها إلى العباس ، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ أي سادنها ، وهو عثمان بن طلحة . كذا في معالم التنزيل . فأمر النبي ﷺ علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، وقال قل له : خذوها يا بني طلحة بأمانة الله ، فاعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم أو من أيديكم أو لا يأخذها منكم إلا ظالم . فردها علي . فلما ردها قال : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، قال علي : لأن الله أمرنا برده عليك . كذا في معالم التنزيل .

وفي المواهب اللدنية : قال علي : لقد أنزل الله في شأنك وقرأ عليه : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فأتى النبي ﷺ فأسلم . كذا في العمدة .

وفي المنتقى : أن إسلام عثمان بن طلحة كان قبل ذلك بالمدينة مع إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص كما مر ، وفي روضة الأحباب : في هذا الكلام مخالفة بين أهل التفسير وأهل السير لأنه إن كان المراد بعثمان سبط عبد الدار بلا واسطة فأبوه أبو طلحة لا طلحة ، وهو باتفاق أهل السير كان صاحب لواء المشركين يوم أحد ، فقتل في ذلك اليوم ، كما ذكر في غزوة أحد . وإن كان المراد به عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبدالدار الذي هو ابن أخي عثمان بن طلحة بن عبدالدار فهو أسلم قبل فتح مكة . وفي المواهب اللدنية : فجاء جبريل عليه السلام فقال : ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان . وكان المفتاح معه ، فلما مات دفعه إلى أخيه ، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة .

وفي رواية مسلم : دخل ﷺ يعني يوم الفتح هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحجبي ، فأغلقوا عليهم الباب . قال ابن عمر : فلما فتحوا كنت أول من ولج ، فلقيت بلال فسألته هل صلى فيه رسول ا لله ﷺ ؟ قال : نعم بين العمودين اليمانيين ، وذهب عني أن أسأله كم صلى . وفي رواية : جعل العمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه ، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . وقد بين موسى بن عقبة في روايته عن نافع أن بين موقفه ﷺ وبين الجدار الذي استقبله قريباً من ثلاثة أذرع ، وجزم برفع الزيادة مالك عن نافع فقال أخرجه الدارقطني في الغرائب ، ولفظه : وصلى وبينه القبة ثلاثة أذرع . وفي رواية ابن عباس قال : اخبرني أسامة أنه عليه السلام لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ، ولم يصل فيه حتى خرج ، فلما خرج ركع في قِبَل البيت ركعتين فقال : هذه القبلة . رواه مسلم .

وأفاد الأزرقي في تاريخ مكة أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذب عنه ﷺ الناس .

وفي شفاء الغرام : فخرج عثمان بن طلحة إلى هجرته مع النبي ﷺ إلى المدينة ، وأقام ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة مقامه ، ودفع المفتاح إليه ، فلم يزل يحجب هو وولده وولد أخيه وهب بن عثمان حتى قدم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وولد مسافع بن طلحة بن أبي طلحة من المدينة ، وكانوا بها دهراً طويلاً . فلما قدموا حَجَبوا مع بني عمهم . وفي الصفوة قال الواقدي : كان عثمان

بن طلحة بن أبي طلحة يلي فتح البيت إلى أن توفي ، فدفع ذلك إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عمه ، فبقيت الحجابة في ولد شيبة ، وبقي شيبة حتى أدرك يزيد بن معاوية ودفع السقاية إلى العباس ، وأذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة وكسرت الأصنام .

وفي الاكتفاء : وقام رسول الله ﷺ حين افتتح مكة على الصفا يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم . ثم اجتمع الناس للبيعة فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس . فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفي المدارك : روي أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا ، وعمر جالس أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه . فجاءت هند ابنة عتبة امرأة أبي سفيان وهي متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً . فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : ولا يسرقن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أصبت من ماله هناة ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبتِ فهو لك حلال . فضحك النبي ﷺ وعرفها ، وقال لها : وإنك لهند . فقالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك . فقال : ولا يزنين . فقالت : أتزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم . وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر . فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ فقال : ولا يأتين ببهتان . فقالت : والله إن البهتان أمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . فقال : ولا يعصينك في معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

فلما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور . وستجيء وفاة هند في الخاتمة في أوائل خلافة عمر ، وفي معالم التنزيل : قال ابن إسحاق وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف . وفي شفاء الغرام عن

ابن عباس : من بني سليم سبعمائة وقيل ألف ، ومن غفار أربعمائة ، ومن أسلم أربعمائة ، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر ، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من بني تميم وقيس وأسد .

وفي الاكتفاء : وعَدَت خزاعة الغد من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال له ابن الأبوع فقتلوه ، وهو مشرك ، برجل من أسلم يقال له أحمر باسا . وكان رجلاً شجاعاً قتله خراش بن أمية الخزاعي . ولما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خراش بن أمية قال : إن خراشاً لقتال . يعنفه بذلك . وقام ﷺ في الناس خطيباً وقال : يا أيها الناس ، إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، وأن يعضد فيها شجرة . لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها . ألا قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسوله ، ولم يحلها لكم . يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر القتل ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤا فدم قاتله وإن شاؤا فعقله . ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة . وفي المواهب اللدنية : فإن ترخص أحد فيها بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي معالم التنزيل : وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان السنة الثامنة من الهجرة ، وأقام بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة . كذا في البخاري ، وفي رواية تسع عشرة . وفي رواية أبي داود سبع عشرة ، وعند الترمذي ثمان عشرة ليلة يصلي ركعتين . وفي الإكليل بضع عشرة يقصر الصلاة . قال ابن عباس : ونحن نقصر ما بيننا وبين تسع عشرة ، فإذا زدنا أتممنا . وفي رواية أقام بمكة بقية الشهر وستة أيام من شوال ، ثم خرج إلى هوازن وثقيف ، وقد نزلوا حُنينا .

وروي أن النبي ﷺ عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أحد عشر رجلاً وست نسوة ، فإنه أمر بقتلهم أينما ثقفوا من الحِلّ والحرم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة . انتهى من تاريخ الخميس .

هذا وفي غزوة الفتح الأعظم "غزوة فتح مكة" حصل للنبي ﷺ كثير من المعجزات والأمور الخارقة . وكنا نتمنى درس هذه الغزوة والتأمل فيها لعدها وحصرها والكتابة عنها بالتفصيل التام ، ولكن ليس لنا من الوقت والفراغ ما تحقق هذه المسألة ، فعسى الله أن يقيض من الفضلاء العلماء من يؤلف كتاباً خاصاً عن هذه الغزوة الفتحية المباركة.

ثم إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يسافر من مكة جعل عتّاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه أميراً على مكة ، وأوصاه بأهلها خيراً ، وإليك ترجمة عتاب ابن أسيد أول أمير لمكة في الإسلام .

ترجمة عتَاب بن أسيد رضي الله عنه

عتاب بن أسيد بكسر السين رضي الله عنه ، هو أول أمير لمكة بعد فتحها ، ولاه رسول الله ﷺ ، وجعل رزقه كل يوم درهما ، فكان عتاب رضي الله عنه يقول : لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم .

جاء في الإصابة عنه ما ملخصه : عتاب بالتشديد ابن أسيد بفتح أوله ، أسلم يوم الفتح ، واستعمله النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم على مكة يوم سار إلى حنين واستمر ، وقيل إنما استعمله بعد أن رجع من الطائف ، وحج بالناس سنة الفتح ، وأقره أبو بكر على مكة ، وروى الطيالسي والبخاري في تاريخه من طريق أيوب عن عبد الله بن يسار عن عمرة بن أبي عقرب : سمعت عتاب بن أسيد وهو مسند ظهره إلى بيت الله يقول : والله ما أصبت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله ﷺ إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان – وإسناده حسن – انتهى ملخصاً .

ذكر من أهدر النبي ﷺ دمهم يوم الفتح

جاء في تاريخ الخميس : روي أن النبي ﷺ عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أحد عشر رجلاً وست نسوة ، فإنه أمر بقتلهم أينما ثقفوا من الحل والحرم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة . وإليك أسماءهم في هذا الجدول نقلاً من التاريخ المذكور باختصار :

جدول أسماء الرجال الذين أهدر النبي ﷺ دمهم يوم الفتح

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
١	عبدالله بن خطل	كان قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم ، واسمه عبدالعزى ، فلما أسلم سماه النبي ﷺ عبدالله ، ثم ارتد ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فلما كان يوم فتح مكة استعاذ بالكعبة وتعلق بأستارها ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله فقتلوه وهو آخذ بثياب الكعبة يتعوذ بها.
٢	عبدالله بن سعد بن أبي سرح	كان أخاً لعثمان بن عفان من الرضاعة ، وأسلم قبل الفتح ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في سورة المؤمنين : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين -إلى قوله-: ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ ، فتعجب عبدالله من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله : فتبارك الله أحسن الخالقين ، قبل إملائه. فقال له رسول الله ﷺ : اكتب ، هكذا نزلت ، فقال عبدالله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي ، فارتد وهرب إلى مكة ثم إنه أسلم يوم فتح مكة .
٣	عكرمة بن أبي جهل	لما كان يوم فتح مكة ركب عكرمة بن أبي جهل إلى البحر هارباً ، فجعل الصراري والملاحون ومن في السفينة يدعون الله تعالى ويوحدونه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله ، وفي رواية : جاء ملاح إلى عكرمة وقال له : أخلص العمل ، قال : ماذا أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، فإن هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله ، قال عكرمة : فهذا إله محمد الذي يدعونا إليه

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		فارجعوا بنا ، فرجع فأسلم . وقيل كان سبب إسلامه امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وكانت امرأة عاقلة أسلمت قبله ذهبت عنده فدعته إلى الإسلام فأسلم وثبتا على نكاحهما الأول ، روي أنه لما بلغا قريباً من مكة قال النبي ﷺ لأصحابه : يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يلحق الميت، ولقد استعمله رسول الله ﷺ على هوازن عام حج ، قتل عكرمة شهيداً يوم اليرموك بأجنادين في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما .
٤	حويرث بن نقيد بن وهب بن عبد قصي	كان كثير الأذى والهجو لرسول الله ﷺ ، ولما سمع يوم الفتح أن النبي ﷺ أهدر دمه أغلق بابه واستتر في بيته ، فجاء علي بن أبي طالب إلى بابه يطلبه ويسأل عنه ، فقيل له : قد خرج إلى البادية ، فعلم حويرث أن المسلمين يطلبونه ، فمكث حتى ذهب علي عن بابه فخرج من بيته وأراد أن ينتقل إلى مكان آخر متنكراً ، فصادفه علي رضي الله عنه فضرب عنقه .
٥	المقيس بن صبابة الكندي	بكسر الميم وسكون القاف وفتح الياء ، كان مقيس أسلم هو وأخوه هشام . فوجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام معه رجلاً من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة ادفعوه إلى مقيس فيقتص

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		منه ، وإن لم تعلموا ادفعوا إليه ديته . فأبلغهم الفهري ذلك ، فقالوا : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، والله ما نعلم له قاتلاً ، لكنا نعطي ديته . فأعطوه مائة من الإبل وانصرفا راجعين نحو المدينة . فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال : تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة ؟ اقتل الذي معك فتكون نفس بنفس ، وفضل الدية . فتغفل الفهري فرماه بصخرة فشدخه ، ثم ركب بعيراً وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً . فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ وهو الذي استثناه رسول الله يوم فتح مكة ممن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة . وفي شفاء الغرام : أما مقيس فقتل عند الردم ، وهو ردم بني جمح الذي قيل إن النبي ﷺ ولد فيه ، وليس الردم الذي هو بأعلا مكة ، لأنه لم يكن إلا في خلافة عمر عمله صوناً للمسجد من السيل حين ذهب بالمقام .
٦	هبار بن الأسود	كان كثير الأذى لرسول الله ﷺ ، فمن جملة أذيته أن أبا العاص بن الربيع حين خلص من الأسر يوم بدر رجع إلى مكة وأرسل زينب بنت رسول الله ﷺ ، كما شرط مع النبي ﷺ يوم بدر . فعرض هبار مع جماعة لطريق زينب ومنعها وضرب زينب بالرمح ، فسقطت من الإبل وكانت حاملاً فألقت حملها ومرضت وماتت بهذا المرض . فغضب عليه النبي ﷺ غضباً شديداً وأهدر دمه ، حتى بعث مرة سرية إلى نواحي مكة فقال

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		لأهل السرية : إن ظفرتم بهبار فأحرقوه . ثم قال : إنما يعذب بالنار رب النار ، إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه . وفي يوم الفتح ، أي فتح مكة ، اختفى و لم يدر مكانه . ولما رجع رسول الله إلى المدينة جاء هبار رافعاً صوته وقال : يا محمد ، أنا جئت مقراً بالإسلام ، وقد كنت قبل هذا مخذولاً ضالاً ، والآن قد هداني الله للإسلام ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله واعتذر إليه معترفاً بذنبه مظهراً لخجالته . فقبل النبي ﷺ إسلامه وقال : يا هبار ، عفوت عنك ، والإسلام يجب ما كان قبله أو كما قال .
٧	صفوان بن أمية	لما علم صفوان أن النبي ﷺ أهدر دمه يوم فتح مكة هرب مع عبدٍ له اسمه يسار إلى جدة يريد أن يركب منها إلى اليمن . فقال عمير بن وهب الجمحي : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومي ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه عليك . قال : هو آمن . قال : يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك . فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة . وفي المشكاة : فبعث إليه ابن عمه وهب بن عمير برداء رسول الله ﷺ أماناً لصفوان انتهى . فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فداك أبي وأمي ، اذكر الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتك عدة . فقال :

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		ويلك اغرب عني ، فلا يكلمه . فقال : أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال : فإني أخاف على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ ، فقال صفوان : هذا يزعم أنك أمنتني . قال : صدق . قال : فاجعلني في أمري بالخيار شهرين . قال : أنت فيه بالخيار أربعة أشهر . كذا في معالم التنزيل ، فلما خرج النبي ﷺ إلى حنين وهوازن كان صفوان مع كفره رفيقه ، واستعار منه النبي ﷺ مائة درع ، قال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ فقال النبي ﷺ : بل عارية مضمونة . وسيجيء . وحين قفل النبي ﷺ من الطائف إلى الجعرانة مر مع صفوان على شعب مملوء من الإبل والغنم وسائر أنعام الغنيمة ، وكان صفوان يحد النظر إلى تلك الأموال ولم يرفع بصره منها ، وكان النبي ﷺ يلاحظه فقال : يا أبا وهب أتعجبك هذه ؟ قال : نعم . قال : وهبتها لك كلها . فقال صفوان : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي . فأسلم هناك .
٨	حارث بن طلاطلة	هو من جملة الذين آذوا رسول الله ﷺ ، فلما كان يوم الفتح قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
٩	كعب بن زهير	هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الشهير صاحب القصيدة المشهورة "بانت سعاد" ، وكان يهجو النبي ﷺ ، فجاء

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		وهو جالس في المسجد فدخل وأسلم وأنشأ قصيدته التي أولها : "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول" فلما بلغ قوله : إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف ا لله مسلول أنبئت أن رسول ا لله أوعدني والعفو عند رسول ا لله مأمول قال النبي ﷺ : اسمعوا ما يقول ، وقيل : فرح النبي ﷺ وكساه برداً جائزة له .
١٠	وحشي بن حرب	هو قاتل حمزة عم النبي ﷺ ، كان المسلمون يحرصون على قتله لكن لم يقدر عليه ذلك ، فلما كان يوم الفتح هرب إلى الطائف وأقام هناك إلى زمان قدوم وفد الطائف إلى النبي ﷺ ، فجاء معهم ودخل عليه وقال : "أشهد أن لا إله إلا ا لله وأن محمداً رسول ا لله" فقال النبي ﷺ: أنت وحشي ؟ قال : نعم . قال : آأنت قتلت حمزة ؟ قال : قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول ا لله ، قال : اجلس واحك لي كيف قتلته . ولما قص عليه قصة قتله قال : أما تستطيع أن تُغيّب وجهك عني ، فكان وحشي بعد ذلك إذا رأى النبي ﷺ يفر منه ويختفي .
١١	عبدا لله بن الزبعرى	كان من الشعراء وكان يهجو الصحابة رضي ا لله عنهم ويحرض المشركين على قتالهم ، فلما سمع يوم الفتح أن النبي ﷺ أهدر دمه هرب إلى نجران وسكنها ، وبعد مدة وقع الإسلام في قلبه فأتى النبي ﷺ ، فلما رآه من بعيد قال : هذا ابن الزبعرى ، ولما دنا منه

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		قال : السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .
		ذكر النساء الست اللاتي أهدر دمهن
١٢	هند بنت عتبة	هي امرأة أبي سفيان ، وقد اشتهرت بإيذائها للنبي ﷺ ، وهي التي بقرت عن كبد حمزة رضي الله تعالى عنه في غزوة أحد . فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، فلما كان يوم فتح مكة جاءت إلى النبي ﷺ وهي مستنكرة متنقبة في النساء حين يبايع النساء على الصفا فأسلمت .
١٣ و١٤	مغنيتان لابن خطل	تقدم في أول هذا الجدول أن عبد الله بن خطل أهدر النبي ﷺ دمه مع من أهدر دمهم يوم فتح مكة ، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة. وكان لابن خطل قينتان "أي مغنيتان" تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتلهما مع ابن خطل . (فالأولى) اسمها قُرِيبة بالتصغير ، وقيل اسمها سارة ، وهذه قتلت مصلوبة . (والثانية) اسمها فَرْتنا بفتح الفاء وسكون الراء ، وهذه فرت حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ فأمنها فآمنت .
١٥	مولاة بني خطل	قتلت يوم فتح مكة .
١٦	مولاة بني عبدالمطلب	وقيل مولاة عمر بن صيفي بن هاشم . وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة من المدينة ذاهبة إلى مكة إلى قريش .وكانت تؤذي رسول الله ﷺ بمكة . تغيبت يوم الفتح حتى استؤمن لها ، فعاشت حتى أوطأها

عدد	الأسماء	نبذة عن أحوالهم
		رجل فرساً له في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالأبطح فقتلها ، ونقل الحميدي أنها قتلت ، وفي فتح الباري في شرح صحيح البخاري أنها أسلمت. والله تعالى أعلم .
١٧	أم سعد أرنب	قتلت .

نقول : إننا نقلنا كل ما تقدم في هذا الجدول من تاريخ الخميس باختصار .

منزل النبي ﷺ بمكة عام الفتح بعد الهجرة

لقد كان لرسول الله ﷺ بمكة دار ورثها من أبيه عبدالله بن عبدالمطلب وفيها ولد ، وذلك كما في الأزرقي أن جده عبدالمطلب كان قد قسم حقه بين أولاده ودفع إليهم ذلك في حياته حين ذهب بصره ، فمن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبدالله بن عبدالمطلب ، وهذه الدار واقعة بسوق الليل ، وهي مولده ﷺ وما حوله ، فلما هاجر إلى المدينة باعها عقيل بن أبي طالب تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين ، وقيل إن النبي ﷺ وهبها له .

جاء في تاريخ الأزرقي : حدثنا أبو الوليد ، قال حدثني جدي ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن محمد بن علي قال : قيل للنبي ﷺ : أين تنزل بمكة ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل بمكة من ظل . وسيأتي معنى هذا الحديث هنا قريباً .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، عن مسلم بن خالد، عن ابن جريج قال : أخبرني عطاء أن النبي ﷺ بعدما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة . قال : كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلا مكة فاضطرب به الأبنية ، قال عطاء : في حجته فعل ذلك أيضاً ، ونزل أعلا مكة قبل التعريف وليلة النفر نزل أعلا الوادي .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي ، عن محمد بن إدريس ، عن محمد بن عمر ، عن معاوية بن عبدالله بن عبيد الله، عن أبيه عن أبي رافع قال : قيل للنبي ﷺ يوم الفتح : ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ قال : وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ، ومنزل كل من هاجر من بني هاشم . فقيل لرسول

الله ﷺ : فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : لا أدخل البيوت . فلم يزل مضطرباً بالحجون ، لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد من الحجون .

وبه عن محمد بن إدريس ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سبرة ، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ مضطرباً بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة .

ثم قال الأزرقي بعد بضعة أسطر :

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي ، عن الزنجي ، عن أبي جريج ، عن عثمان بن أبي سليمان ، عن عبدالله أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قدمنا مكة إن شاء الله تعالى نزلنا بالخيف الذي تحالفوا علينا فيه . قال ابن جريج : قلت لعثمان : أي حلف ؟ قال : الأحزاب .

وبه عن الزنجي ، عن ابن جريج ، عن عطاء : أن النبي ﷺ لَم يَنزل بيوت مكة بعد أن سكن المدينة . قال : كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلا مكة فضرب به الأبنية . قال عطاء : وفعل ذلك في حجته أيضاً ، نزل بأعلا مكة قبل التعريف ، وليلة الصدر نزل بأعلا الوادي . انتهى من الأزرقي .

نقول: معنى قوله هنا : قبل التعريف ... الخ ، أي : قبل طلوعه إلى عرفات للحج ، ومعنى قوله: وليلة الصدر هو بفتح الصاد والدال يطلق على طواف الإفاضة ، ويكون بعد الوقوف بعرفة ونصف ليلة النحر ، فالمراد بليلة الصدر ليلة النحر . وذلك أن رسول الله ﷺ لما قدم من المدينة في حجة الوداع وصل مكة صبح يوم الأحد رابع ذي الحجة بعد أن بات ليلته بذي طوى قرب مكة ، فدخلها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، ونزل بظاهر مكة وأعلاها أي نزل جهة الحجون ، فأقام بمكة محرماً بقصر الصلاة أربعة أيام يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء . فلما كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة وكان يوم الخميس توجه ضحى ﷺ بمن معه من المسلمين إلى منى محرماً بذلك الإحرام ، فنزل بها وصلى الظهر والعصر ، وبات بها فلما أصبح يوم الجمعة وطلعت الشمس سار منها إلى عرفة ، وقد ذكرنا مفصلاً خبر حجة وداعه ﷺ .

موضع نزول النبي ﷺ بمكة ومنى ومزدلفة وعرفات

نعقد هذا المبحث لمعرفة أن رسول الله ﷺ بعد هجرته وإقامته بالمدينة المنورة إذا قدم إلى مكة لا يسكن في بيوتها ودورها ، وإنما تضرب قبته بالأبطح أو بالحجون بأعلا مكة فينزل بها .

روى الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى وغفر لنا وله في تاريخه : عن ابن جريج قال : أخبرني عطاء أن النبي ﷺ بعد ما سكن المدينة كان لايدخل بيوت مكة ، قال : كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلام مكة فاضطرب به الأبنية . قال عطاء : في حجته فعل ذلك أيضاً ونزل بأعلا مكة قبل التعريف ، وليلة النفر نزل أعلا الوادي .

وروي أيضاً عن أبي رافع قال : قيل للنبي ﷺ يوم الفتح ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ قال : وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ، ونزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : لا أدخل البيوت . فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد من الحجون .

وعن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ مضطربا بالحجون في الفتح يأتي لكل صلاة .

وعن أسامة بن زيد قال : قلت يا رسول الله أين منزلك غداً ، قال : وذلك في حجته ، قال : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ قال : ونحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة ، يعني المحصب . انتهى من الأزرقي .

قال شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث « منزلنا غداً إن شاء الله ... » ما يأتي : أصل الخيف في اللغة كل ما انحدر عن الجبل وارتفع عن المسيل ، وهو هنا المُحَصَّب – بفتح الحاء والصاد المهملتين – ، ويقال له الحصبة بفتح الحاء وإسكان الصاد المهملتين ، والأبطح والبطحاء ، وخيف بني كنانة . فهذه أسماء مترادفة لشيء واحد ، وفي المدونة قلت : أين هو الأبطح عند مالك ؟ قال : لم أسمع أين هو ، ولكنه معروف هو حيث المقبرة . انتهى من الجزء الرابع من زاد

المسلم . هذا ما كان منزله ﷺ بمكة ، وإن شاء الله سنتكلم عن معنى حديث : (وهل ترك لنا عقيل منزلاً) بعد الانتهاء من هذا المبحث .

وأما منزله عليه الصلاة والسلام بمنى في الحج ، فقد روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن طاووس قال : كان منزل رسول الله ﷺ بمنى على يسار مصلى الامام ، وكان يُنزل أزواجه موضع دار الإمارة ، وكان يُنزل الأنصار خلف دار الإمارة ، وأومأ رسول الله ﷺ إلى الناس أن انزلوا هاهنا وهاهنا .

وعن خالد بن مضرس أنه رأى أشياخاً من الأنصار يتحرون مصلى رسول الله ﷺ أمام المنارة قريباً منها ، قال الأزرقي ، قال جدي : الأحجار التي بين يدي المنارة هي موضع مصلى النبي ﷺ ، لم نزل نرى الناس وأهل العلم يصلون هنالك ، ويقال له مسجد العيشومة وفيه عيشومة أبداً خضراء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، وتلك العيشومة قديمة لم تزل ثم . انتهى من الأزرقي .

نقول : إن مصلى النبي ﷺ في مسجد الخيف بمنى هو مكان المحراب الذي تحت القبة بوسط المسجد ، كما بينا ذلك في الكلام عن مسجد الخيف . فراجعه إن شئت .

وأما منزله ﷺ بمزدلفة بعد نزوله من عرفات ، ففي موضع من مسجد مزدلفة على ما يظهر ، أي عند المحراب الذي بوسط جدار المسجد القبلي كما هو صريح عبارة الأزرقي الآتية ، فقد روى الأزرقي في تاريخه عن ابن جريج قال : قال لي عطاء : بلغني أن النبي ﷺ كان ينزل ليلة جمع في منزل الأئمة الآن ليلة جمع ، يعني دار الإمارة التي في قبلة مسجد مزدلفة ، انتهى من الأزرقي .

ومعنى ليلة جمع : ليلة مزدلفة ، وجمع يطلق على مزدلفة ، وأما منزل الأئمة - أي دار الإمارة التي ذكرها الأزرقي - فلا وجود لها الآن مطلقاً ، وما تراه اليوم من البنايات القليلة إنما حدثت في زماننا ، أي من بعد سنة (١٣٥٣) ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف ، وقبل هذه السنة لم يكن بمزدلفة شيء من البنايات غير المسجد .

وأما منزله عليه الصلاة والسلام بعرفة إذا وصل إليها من منى ففي جبل نمرة ، فقد روى الأزرقي عن ابن جريج قال : سألت عطاء أين كان رسول الله ﷺ ينزل يوم عرفة ؟ قال : بنمرة ، منزل الخلفاء ، إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى عرفة ، يلقى عليها ثوب ، يستظل به ﷺ .

قال الأزرقي : وتحت جبل نمرة غار أربعة أذرع في خمسة أذرع ، ذكروا أن النبي ﷺ كان ينزل يوم عرفة حتى يروح إلى الموقف ، وهو منزل الأئمة إلى اليوم ، والغار داخل في جدار دار الإمارة في بيت في الدار ، ومن الغار إلى مسجد عرفة ألفا ذراع وأحد عشر ذراعاً ، ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل، يكون الميل خلف الإمام إذا وقف وهو حيال جبل المشاة . انتهى من الأزرقي .

نقول : أما موقفه ﷺ عشية عرفة ففي مسجد الصخرات الذي هو بقرب جبل الرحمة وهو موضع معروف إلى اليوم .

وأما كلام الإمام الأزرقي "أن الغار داخل في جدار دار الإمارة في بيت في الدار" فهذا الوصف بحسب زمانه وقد مضى على وفاته رحمه الله تعالى إلى يومنا هذا أكثر من "ألف ومائة عام" فلم يبق للدار والجدار والبيت أي أثر أو علامة مطلقاً ، اللهم إلا الغار فإن الغيران لا تزول حتى تزول الجبال عن موضعها .

ولقد يسر الله تعالى لنا التجول في بعض وادي عرنة "بالنون" والجبال القريبة من مسجد نمرة ، والعلمين القديمين لبيان حدود الحرم من الحل ، للبحث عن الغار الذي نزل فيه رسول الله ﷺ يوم عرفة قبل الزوال عند مجيئه من منى ، والذي ذكره الإمام الأزرقي هنا ، فقد تجولنا ثلاث مرات في المكان المذكور مع دليلين خبيرين من العرب يعرفان هذه الأماكن والغيران الموجودة فيها ، وذلك بعد النصف الثاني من شهر شوال سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، فوجدنا ما يأتي :

إذا وصل الإنسان من منى إلى قبيل مسجد نمرة بعرفات وسار مع الجبل الذي عن يمينه وهو جبل كثير الصخور والحجارة بعضها فوق بعض من أصل الخلقة فمن ذلك تتكون المغارات "أي الغيران" .

فقبل أن يصل الإنسان إلى منتهى الجبل الممتد كاللسان في الرمل بنحو (١٦٠) متراً - مائة وستين متراً - ، يجد على يمينه على ارتفاع نحو قامتين مغارة كبيرة في أصل الجبل ، من الصخور الكبار تسع نحو عشرة أشخاص بل أكثر ، وفي وسط أرض الغار صخرة كبيرة وأخرى أصغر منها متصلتان ببعضهما ، وللغار بابان إحداهما صغير وهو الذي يقابل القبلة وعرضه مائة وثلاثون سنتيمتراً ، والباب الثاني كبير وهو الذي يقابل عرفات وعرضه متران ، وأمام هذا الباب

صخرة كبيرة نازلة إلى الأرض بها ثلاث حفر طبيعية أو أربعة كل حفرة كدائرة رأس الإنسان، واحدة فوق الأخرى تشبه الدرجة، ومن هذه الحفر يسهل الطلوع إلى الغار. على أن الصعود إليه ميسور من البابين وإن لم تكن هذه الحفر، وسقف هذا الغار يتكون من صخرتين كبيرتين جداً متصلتان ببعضهما من وسط السقف كهيئة الجملون على شكل مثلث، وطول هذا الغار ستة أمتار، وسيع من مدخله الكبير وضيق من مدخله الصغير، ومن وراء هذا الغار من الجهة المقابل للجبل غار آخر كبير طويل يسع نحو خمسة عشر شخصاً، والفاصل بين هذا الغار وبين الغار المذكور إحدى صخرتي سقفه التي تلي الجبل ومدخل هذا الغار من المدخل الصغير للغار الذي تكلمنا عنه، فهذان الغاران بجوار بعضهما تماماً، ولا يوجد في الجبل أكبر من هذين الغارين المتجاورين، وكلاهما يسع لنحو ثلاثين شخصاً.

وتحت هذا الغار مباشرة جهة الباب الكبير غار آخر صغير تتجه فتحته إلى عرفات، وهو غار على وجه الأرض غير مرتفع في الجبل، وسقفه صخرة واحدة كبيرة، طوله أقل من ثلاثة أمتار وعرض فتحته متران.

وفي هذا الجبل غيران كثيرة متعددة، ولا يعلم بالتحقيق التام نفس الغار الذي نزل رسول الله ﷺ يوم عرفة في هذا الجبل، لكننا نظن غالب الظن الذي نطمئن إليه، أن الغار الكبير الذي ذكرناه هو الغار الذي نزله رسول الله ﷺ يوم عرفة لجملة أمور وهي:

(١) أن وصف هذا الغار الكبير يقرب من وصف الإمام الأزرقي له.

(٢) أن هذا الغار يقع تقريباً أمام العلمين القديمين الدالين على انتهاء حدود الحرم، ولا نستبعد أن ينزل النبي ﷺ عند مفرق الحل من الحرم - أي عند حدودها - والله تعالى أعلم. والبعد بين هذا الغار وبين العلمين المذكورين (٤٣٠) متراً، أربعمائة وثلاثون متراً.

وقد يزيد البعد وقد ينقص عن هذه الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

(٣) والبعد بين هذا الغار وبين مسجد نمرة القبلي (١١٣٠) متراً هو ألف ومائة وثلاثون متراً، وهو قريب مما ذكره الأزرقي فإن المتر الواحد يساوي ذراعين تقريباً، فقد ذكروا أن ذراع اليد يساوي ثمانية وخمسون سنتيمتراً. وقد يزيد البعد وقد ينقص عن الأمتار بحسب استقامة أخذ القياس أو انحرافه.

(٤) أن الجالس في هذا الغار يرى من مدخله الكبير أي بابه مسجد نمرة وجبل عرفات أي جبل الرحمة الذي يقف عليه الحجاج المسمى "بالقرين" ويرى مسجد الصخرات الذي تحته جبل الرحمة الذي وقف فيه رسول الله ﷺ عشية عرفة ، بل يرى ميدان عرفات كلها . فكأن النبي ﷺ جلس في هذا الغار ليشاهد جبل عرفات ومسجد نمرة ومسجد الصخرات وحدود الحل من الحرم .

(٥) أن هذا الغار الكبير هو أقرب الغيران إلى مسجد نمرة وهذا ما يوافق الرغبة النبوية . فإنه ﷺ حينما زالت الشمس نزل من هذا الغار إلى موضع مسجد نمرة فصلى فيها الظهر والعصر ، ثم ذهب إلى عرفات فوقف في مسجد الصخرات حتى غربت الشمس ثم دفع إلى مزدلفة ، ولذلك سمي هذا الجزء الأخير من الجبل بجبل نمرة لقربه من نمرة.

(٦) أن هذا الغار هو الغار الذي يلائم رسول الله ﷺ ، (أولاً) أنه مرتفع مشرف على ساحة عرفات كلها (ثانياً) أن مدخله الكبير يقابل عرفات وهو بيت القصيد ومنتهى الرحلة ، وأن مدخله الصغير يقابل مكة والقبلة (ثالثاً) أن الغار هو أوسع غار في الجبل فإنه يأخذ في جوفه نحو عشرة أنفس ، والنبي ﷺ لا بد وأن يكون معه نحو هذا العدد من كبار الصحابة لا يفارقونه في السفر ويتشرفون بالقرب منه كالخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم من كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . (رابعاً) أن بجوار هذا الغار غار آخر متصل به يفصل بينهما الصخرة التي بوسطهما وطولهما واحد وكل منهما يسع بقدر الآخر من الأشخاص ، فلو كان مع النبي ﷺ ثلاثون من الصحابة لاستظلوا فيهما بغاية الراحة وبدون أن يتعدوا عن بعضهم .

ومن عجيب أمر الغيران في الجبال أنها تكون في وقت الظهيرة باردة منعشة ، لا يشتد على الجالس بداخلها وطأة الحر والقيظ .

هذا رأينا في الغار الذي نزله رسول الله ﷺ يوم عرفة قبل الظهر وهذه أدلتنا في تحقيقه ، ولا يعلم الغيب إلا الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى ، ونزوله ﷺ في الغار المذكور لا يمنع من أنه نزل أيضاً في قبة من شعر التي أمر أن تضرب له بنمرة .

وما نظن أن أحداً قبلنا طرق هذا الباب أو بحث عن هـذه المسألة مع أنها لا دخل لها في المناسك مطلقاً ، فالحمد الله رب العالمين أولاً وآخراً . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

فعلم من جميع ما تقدم أن النبي ﷺ بعد أن سكن المدينة إذا قدم مكة لا ينزل في بيوتها ومنازلها . وإنما ينزل بقبته التي تضرب له حيثما كان إلى أن يرجع إلى المدينة ، أي أنه ﷺ ينزل في خبائه الذي يضرب له أينما نزل ، سواء في بطحاء مكة بالحجون ، أو في منى ومزدلفة وعرفات ، فلا يستظل في بيت مبني منذ خروجه من المدينة إلى أن رجع إليها من مكة . فقد تقدم في أول هذا المبحث أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا لرسول الله ﷺ يوم الفتح : فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك . فأبى رسول الله ﷺ وقال : لا أدخل البيوت . فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة.

فهذا أعظم دليل على زهده وتواضعه ﷺ في بلد الله الأمين ومشاعر الحج ، فإنه أتى إليها للنسك لا للإقامة ، والنسك عبارة عن التجرد ومخالفة العادات المألوفة . ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن رسول الله ﷺ في حجته قد تعرض كثيراً للشمس بمكة ومنى وعرفات ، فأين عهدنا من ذلك العهد النبوي المشرق ، وأين عصرنا من ذلك العصر المبارك الأنور .

ثم رأينا ما يؤيد كلامنا هذا في المجموع شرح المهذب للإمام النووي رحمه الله تعالى فإنه قال فيه بصحيفة ١١٧ من الجزء الثامن ما يأتي :

إن الأفضل للواقف أن لا يستظل بل يبرز للشمس ، إلا للعذر بأن يتضرر أو ينقص دعاؤه أو اجتهاده في الأذكار ، ولم ينقل أن النبي ﷺ استظل بعرفات ، مع ثبوت الحديث في صحيح مسلم وغيره عن أم الحصين أن النبي ﷺ «ظلل عليه بثوب وهو يرمي الجمرة» وقد قدمنا بيان مذهبنا عند ما في استظلال المحرم بغير عرفات في باب الإحرام والله تعالى أعلم . انتهى .

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم ، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وعلى آله وذريته وصحابته الطيبين الطاهرين ، واجزه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته ، وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود . ولا تحرمنا شفاعته الثابتة التي أتحفته وخصصته بها ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون ۞ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ، وتداركنا في تلك الساعة وفي ذلك اليوم

﴿يوم يفرء المرء من أخيه ۝ وأمه وأبيه﴾ بلطفك الخفي ، واسترنا بسترك الذي لا ينكشف ، وأظلنا تحت ظل عرشك ، وآمنا من غضبك وعذابك ، وأدخلنا الجنة بسلام آمنين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، آمين يا أرحم الراحمين ، بفضلك وإحسانك ورحمتك وكرمك ، يا عظيم يا حليم يا كريم يا رحيم ، فإنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك ، لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك .

معنى حديث: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»

جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» وفي رواية البخاري في كتاب المغازي : «من منزل» .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن أبي رافع قال: قيل للنبي ﷺ يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب ، قال : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ قال: وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ: فانزل في بعض بيوت في غير منزلك . فأبى رسول الله ﷺ ، وقال : لا أدخل البيوت ، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد من الحجون . انتهى من كلام أبي رافع .

وعن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده قال : رأيت رسول الله مضطرباً بالحجون في الفتح ، يأتي لكل صلاة . وعن أسامة بن زيد قال : قلت رسول الله أين منزلك غداً ؟ قال : وذلك في حجته . قال : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ، قال : ونحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة - يعني المحصب - انتهى كل ذلك من الأزرقي .

نقول : ليس معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور» أنه ﷺ يتحسر ويأسف على منزله الذي باعه عقيل بن أبي طالب -كلا ثم كلا . فإن ذلك لا يليق بمقام النبوة ، وهو ﷺ لو شاء لجعل الله له الجبال ذهباً ، ولكنه لا بد أن يرمي بقوله هذا إلى حكمة دقيقة ، ولا يبعد أن يكون ذلك تأنيباً لعقيل بن أبي طالب عسى أن يكفر عن خطئه هذا بالإسلام ، فإن عقيلاً أخ

لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبالفعل فقد أسلم عقيل عام الفتح وقيل أسلم بعد الحديبية. والله تعالى أعلم.

ولا بد لنا أن نستوفي الكلام على معنى هذا الحديث الشريف فنقول وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل:

ذكر أستاذنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه في كتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور» في صحيفة (١١٥) من الجزء الخامس ما يأتي:

قوله: « من رباع » بكسر الراء جمع ربع، بفتح الراء وسكون الموحدة، وهو المنزل المشتمل على أبيات، وقيل: هو الدار، فعلى هذا فقوله: «أو دور» إما للتوكيد أو من شك الراوي. وفي رواية في الصحيح «من منزل» بدل من رباع كما أشرنا إليه سابقاً.

وأخرج هذا الحديث الفاكهي من طريق محمد بن أبي حفصة وقال في آخره: ويقال إن الدار التي أشار إليها عليه الصلاة والسلام كانت دار هاشم بن عبد مناف، ثم صارت لعبد المطلب ابنه فقسمها بين ولده حين عمر، فمن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبدالله وفيها ولد النبي ﷺ. وظاهر قوله: وهل ترك لنا عقيل من رباع، أنها كانت ملكه عليه الصلاة والسلام فأضافها إلى نفسه، فيحتمل أن عقيلاً تصرف فيها كما فعل أبو سفيان بدور المهاجرين ويحتمل غير ذلك.

وفي الصحيحين بعد حديث المتن ما نصه: وكان عقيل ورث أبا طالب، هو وطالب ولم يرثه جعفر ولا علي رضي الله عنهما شيئاً لأنهما كانا مسلمين. وكان عقيل وطالب كافرين. زاد البخاري فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يرث المؤمن الكافر. قال ابن شهاب وكانوا يتأولون قول الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصرو أولئك بعضهم أولياء بعض، الآية﴾. وهذه الزيادة من تفسير الراوي.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح بعدها ما نصه: محصل هذا أن النبي ﷺ لما هاجر استولى عقيل وطالب على الدار كلها باعتبار ما ورثاه من أبيهما لكونهما كانا لم يسلما وباعتبار ترك النبي ﷺ لحقه منها بالهجرة وفُقِد طالب ببدر فباع عقيل الدار كلها. وحكى الفاكهي أن الدار لم تزل بيد أولاد عقيل إلى أن باعوها

لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار . وفي نسخة بثمانية آلاف دينار ، وزاد في روايته من طريق محمد بن أبي حفصة فكان علي بن الحسين يقول : من أجل ذلك تركنا نصيبنا من الشعب ، أي حصة جدهم علي من أبيه أبي طالب . وقال الداودي وغيره : كان من هاجر من المؤمنين باع قريبه الكافر داره وأمضى النبي ﷺ تصرفات الجاهلية تأليفاً لقلوب من أسلم منهم . اهـ .

(قلت) أي قال الشارح : وكما أمضى عليه السلام تصرفاتهم كذلك كان يصحح أنكحتهم . هذا وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب في صدر الإسلام ، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ والذي يفهم من الآية المسوقة هنا أن المؤمنين يرث بعضهم بعضاً ولا يلزم منه أن المؤمن يرث الكافر ، لكنه مستفاد من بقية الآية المشار إليها بقول البخاري الآية وهي قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء ، حتى يهاجروا﴾ أي من توليتهم في الميراث إذ الهجرة كانت في أول عهد البعثة من تمام الإيمان ، فمن لم يكن مهاجراً كأنه ليس مؤمناً . فلهذا لم يرث المؤمن المهاجر منه . وهذا الحديث كما أخرجه الشيخان أخرجه أبو داود في الحج من سننه ، وكذا أخرجه النسائي فيه في سننه ، وأخرجه ابن ماجة في سننه فيه وفي الفرائض .

ويستفاد من هذا الحديث أن المسلم لا يرث الكافر ، وعلى ذلك فقهاء الأمصار . وحكي عن بعض الصحابة والحسن البصري وإبراهيم النخعي وإسحاق أن المسلم يرث الكافر . وأجمعوا على أن الكافر لا يرث المسلم . ويستفاد منه أيضاً بقاء دور مكة لأربابها . قال الخطابي : احتج بهذا الحديث الشافعي على جواز بيع دور مكة ، لأنه ﷺ أجاز بيع عقيل الدور التي ورثها ، وكان عقيل وطالب ورثا إياهما لأنهما إذ ذاك كانا كافرين ، فورثاه ، ثم أسلم عقيل فباعها . قال الخطابي : وعندي أن تلك الدور وإن كانت قائمة على ملك عقيل لم ينزلها رسول الله ﷺ ، لأنها دور هجروها لله تعالى فلم يرجعوا فيما تركوه . قال الحافظ وتعقب بأن سياق الحديث يقتضي أن عقيلاً باعها ، ومفهومه أنه لو تركها له لنزلها .

(قال مقيده وفقه الله تعالى) أي قال الشارح أيضاً : هذا التعقب غير مستقيم فيما يظهر والله تعالى أعلم ، بل ما قاله الخطابي هو الظاهر ، لأن الخطابي قال : إن كانت قائمة على ملك عقيل الخ فهو قيد دال على أن كلامه إنما يتنزل على

كونه إنما ترك نزولها إن كانت قائمة على ملك عقيل، وهو قد أسلم، لأنها دور هجرها لله تعالى، فلم يرجع فيما هجره له تعالى. فكلام الخطابي مع هذا القيد لا يتنزل إلا على ما ذكرناه. وقولنا ويستفاد منه أيضاً بقاء دور مكة لأربابها قاله غير واحد، وممن قاله القاضي عياض. وقد اختلف فيه، والخلاف في ذلك على الخلاف هل فتحت عنوة وهو قول مالك وأبي حنيفة لكن مَنّ على أهلها بدورهم وأموالهم، ولم يقسمها بين الغانمين. قال أبو عبيد: ولا نعلم بلداً تشبه مكة أو فتحت صلحاً، وهو قول الشافعي، كذلك اختلف في بيع دورها وكرائها قال أبو حنيفة وجماعة من السلف: لا يحل بيعها ولا كراؤها ولا ملك عليها لأحد، وأجازه الشافعي وأبو يوسف، وكرهه مالك. وهو أيضاً على الخلاف في فتحها، وفي الضمير في قوله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ هل هو عائد على البلد أو على المسجد، وعلى أنها فتحت عنوة وأقرت بأيديهم فيحتج به على أن للإمام إبقاء ما فتح عنوة بأيدي أربابه، أسلموا أو لم يسلموا، لما يراه من استئلافهم إن كانوا مسلمين، أو ليضرب الجزية عليهم إن بقوا على دينهم، ويكون تركها بطيب نفوس الجيش كما فعل عليه الصلاة والسلام في سبي هوازن، أو يقومها من الخمس، على أنه لم يرد أنه قسم من مال أهل مكة شيئاً، بل كان أبقاه لهم لقرابتهم كما جاء في الآخر أن الله عوضهم من مال هوازن أضعاف ذلك. وفيه حجة لمن يقول أن الغنيمة لا يملكها الغانمين بالحوز بل بتمليك الإمام وقسمها بينهم، ولذلك لم يختلف في قطع سارقها منهم وحد زانيهم. اهـ. بلفظه. انتهى من شرح "زاد المسلم"، ثم ذكر الشارح رحمه الله تعالى بيان أحكام بيع دور مكة وغيرها من أرض الحرم وإجارتها ورهنها لم نر ضرورة في نقلها.

ترجمة عقيل بن أبي طالب

ذكر أستاذنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند حديث: « وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور » في صحيفة (١١٤) من الجزء الخامس ما يأتي:

وعقيل بفتح العين وكسر القاف مكبراً، هو عقيل بن أبي طالب عم رسول الله ﷺ، يكنى أبا يزيد، وهو أخ علي وجعفر، فهو أسن أبناء أبي طالب الثلاثة

الذين أسلموا . أما طالب أخوهم الذي فقد ببدر و لم يكرمه الله بالإسلام فهو أسن أبناء أبي طالب جميعاً ، ولذلك كني به . ومن النوادر في أبنائه الأربعة أن كل واحد منهم أسن من الذي يليه بعشر سنين فطالب أسن من عقيل وهو من جعفر وهو من علي ، والتفاوت بين كل واحد والآخر عشر سنين ، وهو من النوادر . فبهذا الاعتبار يكون عقيل أكبر من علي بعشرين سنة ، وقد تأخر إسلام عقيل رضي الله عنه إلى عام الفتح ، وقيل أسلم بعد الحديبية ، وهاجر في أول سنة ثمان ، وكان أسيراً يوم بدر ففداه عمه العباس . ووقع ذكره في الصحيح في مواضع ، وشهد غزوة مؤتة ، و لم يسمع له بذكر في الفتح وحنين كأنه كان مريضاً أشار إلى ذلك ابن سعد ، لكن روى الزبير من بكار بسنده إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما أن عقيلاً كان ممن ثبت يوم حنين ، وكان عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها وأيامها . وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة . كان سريع الجواب المسكت ، وكان قد فارق علياً ووفد إلى معاوية في دين لحقه . وقد روي أن النبي ﷺ أعطاه من خيبر كل سنة مائة وأربعين وسقاً. وله أحاديث . وقال ابن حجر في الإصابة : ولعقيل حديث كامل أخرجه له النسائي وابن ماجة . قال ابن سعد : قالوا : مات في خلافة معاوية . قال الحافظ : وفي تاريخ البخاري الأصغر بسند صحيح أنه مات في أول خلافة يزيد قبل الحرة ، وروى عنه ابنه محمد ، والحسن البصري ، وعطاء . انتهى من شرح زاد المسلم .

فضل مكة المشرفة

اعلم أن الله تعالى لم يخلق جنساً من أجناس المخلوقات إلا وجعل بينها تفاوتاً وتفاضلاً ، سواء كان ذلك في الجمادات أو في بني آدم حتى في النبيين ، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾ ولقد قال العلماء : "ما من عامّ إلا وقد خصص" ومما لا شك فيه أن أرضية جميع المساجد في الدنيا أفضل من غيرها من البقاع لأنها بيوت الله يذكر فيها اسمه ومحل لعبادته ، بل إن بعض المساجد أفضل من بعض كالمساجد الثلاث . قال الشاعر :

إن البقاع إذا نظرتَ رأيتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فلا تتساوى بقعة خصصت للعبادة والعلم ، وبقعة خصصت للهو والفجور ، فإذا علمنا أن البقاع تتفاضل فنقول : إن مكة المشرفة والمدينة المنورة أفضل بقاع

الأرض بالإجماع ويليها بيت المقدس . ثم اختلف العلماء في أن مكة أفضل أم المدينة : فعند جمهور العلماء أن مكة أفضل منها . ونحن نجنح إلى هذا القول أيضا لأن المدينة لم يعرف فضلها إلا بعد حلول نبينا "محمد" ﷺ فيها ، وأما مكة ففضلها معروف منذ العصور الأولى الغابرة من لدن آدم عليه السلام وبالأخص بعد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث بنى الكعبة بيت الله فيها ، وأذّن في الناس بالحج فأتوا مكة من كل فج عميق ، والله أعلم بعدد من أتى مكة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من عامة الناس ، وأن من ينظر في أشهر الحج إلى مكة يأتى إليها الناس أفواجاً أفواجاً يومياً ليلاً ونهاراً ، وقد علا ضجيجهم بالدعاء والتضرع في كل محلة وزقاق حين دخولهم مكة وهم محرمون يذهبون مع مطوفيهم إلى الطواف والسعي . آمن بعظمة الله سبحانه وتعالى وعرف فضل مكة على سائر البلدان ، فإن هذه الحال لا توجد في جميع أنحاء المعمورة سوى بمكة وفي كل عام إلى قيام الساعة . فالحمد لله الذي جعلنا من أهلها السعداء الآمنين من كل خوف وفزع في الدنيا والآخرة بفضله وبرحمته إنه واسع الفضل والإحسان . واعلم : أن مكة المشرفة ترتفع عن سطح البحر نحو (٣٣٠) متر وهي على عرض (٢١) درجة و (٣٨) دقيقة ، وفي طول (٤٠) درجة و (٩) دقائق .

امتياز مكة عن سائر البلدان

تمتاز مكة عن سائر البلدان على وجه الأرض بجملة أمور:

(منها) : أنها مهبط الوحي ومركز نزول القرآن وابتداء ظهور الإسلام .

(ومنها) : أن القادم إليها يجب عليه التجرد من ثيابه ودخولها بإحرام بنية العمرة أو الحج.

(ومنها) : أنه ليس فيها إلا دين واحد وهو الإسلام فليس فيها دينان .

(ومنها) : أنه يمنع شرعاً دخول الكافر ودفنه فيها .

(ومنها) : أنه يحرم حمل السلاح فيها إلا لضرورة .

(ومنها) : أنه يحرم صيدها على جميع الناس سواء في ذلك أهل مكة وأهل الحرم وغيرهم وسواء المحرم منهم والحلال.

(ومنها) : أن دماء الهدايا والجبرانات مختص بمكة وبالحرم ولا يجوز في غير ذلك من البقاع.

(ومنها) : أنه يحرم قطع شجره ويضمن ما يقطع منه .

(ومنها) : أنه يحرم إخراج شيء من ترابه أو حجارته إلى الحل وإلى البلدان الأخرى .

(ومنها) : مضاعفة الحسنات فيها وبالأخص الصلوات في المسجد الحرام ، فقد روى الإمام أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة ألف صلاة » .

(ومنها) : أنه يبعث من مقبرتها سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر كما في الحديث.

(ومنها) : أن الدجال سيطأ جميع البلدان حين خروجه إلا مكة والمدينة وبيت المقدس .

(ومنها) : أنه ما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا كذبه قومه إلا وخرج إلى مكة يعبد الله تعالى حتى يأتيه اليقين وأن حول الكعبة قبر ثلاثمائة نبي ، وما بين الركن اليماني والركن الأسود قبر سبعين نبياً ، وقبر إسماعيل وأمه هاجر في الحِجْر تحت الميزاب ، وأن ما بين زمزم والمقام قبر نوح وهود وشعيب وصالح .

وروى الأزرقي عن مجاهد أنه قال : حج خمسة وسبعون نبياً كلهم قد طاف بالبيت وصلى في مسجد منى ، فإن استطعت أن لا تفوتك صلاة في مسجد منى فافعل .

(ومنها) : أن أهل مكة يتجهون في صلاتهم إلى الكعبة من جميع الجهات الأربعة بخلاف بلدان العالم فكل بلدة تتجه إلى الكعبة من جهة واحدة . وما أبهج منظر المسجد الحرام حين الصلاة ، فإن الجميع يصلون حول الكعبة من جميع الجهات على اتساعه ، ولا يوجد منظر يأخذ بمجامع القلوب ويشرح الصدور

ويذهب الهم والغم ويجلب السرور ، كالصلاة في المسجد الحرام والجلوس حول الكعبة المشرفة .

إلى غير ذلك من فضائل مكة التي لا توجد على وجه الأرض بلدة تدانيها ، وكفى أنها بلد الله تعالى وبلد رسوله ومولده وبلد أصحابه المهاجرين الكرام ، ومأوى الأنبياء والمرسلين والأتقياء والصالحين وقبلة جميع المؤمنين وفيها الموسم السنوي للحج يفد إليها المسلمون من كل فج عميق ليقيموا خامس أركان الإسلام الحج الذي لا يمكن أداؤه إلا فيها لاحتوائها على جميع المشاعر .

اللهم صلي وسلم على نبيك ورسولك "محمد" الذي تشرفت مكة بظهوره فيها ، وعلى آله وأصحابه الذين فازوا بتلبية دعوته واجتلاء نور طلعته وتشرفوا بخدمته ، فنالوا رضاءك وعفوك وفضلك ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين ، وارض اللهم عنا معهم وألحقنا بهم واحفظنا وذرياتنا من الفتن وتوفنا مسلمين ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

الآيات والأخبار الواردة في فضل مكة

هذا ويطيب لنا التحدث عن فضل مكة زادها الله شرفاً ورخاءً وأمناً وأماناً ، أكثر مما ذكرناه (ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره) ولنذكر في فضلها ما جاء في كتاب (العقد الثمين في فضائل البلد الأمين) للشيخ أحمد بن محمد الحضرواي .

قال رحمه الله تعالى في أوله ما نصه :

ويكفي من ذلك كله إنزال ذكرها في كتابه العزيز في مواضع عديدة :

(منها) قولة تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، الآية﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ على بعض الروايات أنها مكة . وقوله تعالى : ﴿والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ ، وقوله تعالى : ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ببطن مكة﴾ ، وقوله تعالى : ﴿لتنذر أم

القرى ومن حولها﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وهذا البلد الأمين﴾ .

فهذه الآيات أنزلها الله سبحانه وتعالى في مكة خاصة وغيرها من الآيات البينات و لم تنزل في بلد سواها.

انظر: صورة رقم ٢٠ ، جانب من مكة المشرفة وبيوتها اللطيفة ومنازلها الجميلة

(وأما الأخبار الواردة فيها) فمما روي عن عبدالله بن عدي بن حمراء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته على الحَزْوَرَة من مكة وهو يقول لمكة : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت ، رواه سعيد بن منصور والترمذي وقال: حديث حسن صحيح والنسائي وابن ماجة وابن حسان وهذا لفظه ، (ورواه) أحمد واقف بالحزورة ، انتهى .

والحزورة كانت سوقاً بمكة سابقاً وقد دخل في المسجد الحرام فيما زيد فيه وهو محل المنارة المعروفة الآن بباب الوداع . (وفي حديث آخر) : خير بلدة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى مكة . وقال رسول الله ﷺ : دحيت الأرض من مكة فحدها الله تعالى من تحتها فسميت أم القرى . وأول جبل وضع في الأرض أبو قبيس ، وأول من طاف بالبيت الملائكة قبل أن يخلق الله تعالى آدم بألفي عام وما من ملك يبعثه الله تعالى من السماء إلى الأرض في حاجة إلا اغتسل من تحت العرش وانقضى محرماً فيبدأ ببيت الله فيطوف به أسبوعاً ثم يصلي خلف المقام ركعتين ، ثم يمضي لحاجته وما بعث إليه . وكل نبي من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة ، فعبد الله تعالى بها عند باب الكعبة حتى أتاه اليقين وهو الموت ، وأن حول الكعبة قبر ثلاثمائة نبي ، وما بين الركن اليماني والركن الأسود قبر سعبين نبياً كلهم قتلهم الجوع والقمل ، وقبر إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام في الحجر تحت الميزاب ، وقبر نوح وهود وشعيب وصالح ، على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، فيما بين زمزم والمقام ، وما على وجه الأرض بلدة وفد إليها جميع النبيين والمرسلين والملائكة أجمعين . وصالح عباد الله الصالحين من أهل السموات والأرضين والجن إلا مكة . ذكره الحسن البصري في رسالته .

(وعن عمرو بن الأحوص) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، ألا لا يجني جان على نفسه ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده، وإن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ولكن ستكون له طاعة فيما تحقرون من أعمالكم فيرضى به، رواه ابن ماجة والترمذي وصححه وفي الصحيح: أنه ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال إلا مكة والمدينة وبيت المقدس ليس نقب من نقابها إلا وعليه الملائكة صافين يحرسونها. النقب بفتح النون وضمها وسكون القاف: الباب، وقيل الطريق، وجمعه نقاب. (وعنه ﷺ) أنه قال: إن الشيطان قد يئس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم، رواه الهروي في شرحه على المشكاة.

(وعن ابن عباس) رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لن يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا ينتقط لقطة إلا من عرفها ولا يختلى خلاه. فقال العباس، رضي الله عنه: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: إلا الإذخر متفق عليه. قوله: لقينهم. القين الحداد وكذا الصياغ فإنهم يحرقونه بدل الحطب والفحم. وفي رواية فقال العباس: إلا الإذخر فإنه لقبورنا وبيوتنا، انتهى.

وقال رسول الله ﷺ: (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب)، رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

(وعن جابر) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح. رواه مسلم.

(وكان ابن عمر) رضي الله عنهما يمنع ذلك في أيام الحج، انتهى.

واتفق الجمهور أنه لا يحل بلا ضرورة ، وحجته في ذلك دخوله ﷺ عام الفتح متهيأ للقتال ، كذا ذكره القاضي عياض ، وتبعه الطيبي وابن حجر. وجزم الحسن أنه لا يجوز حمل السلاح بمكة مطلقاً ، وهو موافق لابن عمر رضي الله عنهما . وأما عام الفتح ، فهو مستثنى من هذا الحكم ، فإنه ﷺ ، كان أبيح له ما لم يبح لغيره من نحو حمل السلاح وما يكون سبباً لرعب مسلم أو أذى أحد ، كما هو مشاهد اليوم .

(وعن ابن عباس) رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ، لمكة : ما أطيبك من بلد وأحبك الي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، غريب إسناداً.

(وفي المشكاة) عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغداة من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي ، حين تكلم به حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإنْ أحدٌ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمر ؟ وقال : قال إنه أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة ، متفق عليه ، وفي البخاري الخربة : الجناية .

(ويروى عن علي بن أبي طالب) رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، عن الله تعالى أنه قال : إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخربته ثم أخرب الدنيا على إثره . رواهما الغزالي في الإحياء .

(ويروى) عن النبي ﷺ أنه قال : ليأرز فيما بين الحرمين ، يعني مكة والمدينة ، ذكره أبو محمد المرجاني في الفتوحات الربانية .

(وروي) أن النبي ﷺ لما سار إلى المدينة مهاجراً تذكر مكة في طريقه فاشتاق إليها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : نعم . قال : فإن الله يقول: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ ، أي مكة . ذكره القرشي في المناسك .

(قال الحسن البصري) في رسالته : ما أعلم اليوم على وجه الأرض بلدة ترفع فيها من الحسنات وأنواع البر كل واحدة منها بمائة ألف ما يرفع بمكة ، وما أعلم أنه ينزل في الدنيا كل يوم رائحة الجنة وروحها ما ينزل بمكة . ويقال إن ذلك للطائفين .

(وقال ابن عباس رضي الله عنهما): أصل طينة النبي ﷺ من سرة الأرض بمكة ومن موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله ﷺ ، الأصل في التكوين ، والكائنات تبع له ، وقيل : لذلك سمي أمياً ، لأن مكة أم القرى وطينة أم الخليقة .

(فإن قيل) : إن مدفن الإنسان بترتبه ، والنبي ﷺ دفن بالمدينة ؟

(الجواب): أن الماء لما ماج في ذلك الوقت ، رمى بتلك الطينة المباركة في ذاك الموضع من المدينة . ذكره صاحب عوارف المعارف .

(وعن مجاهد) قال : خلق الله موضع البيت الحرام قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي عام . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لو أن إبراهيم حين دعا قال : اجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، لازدحمت عليه اليهود والنصارى ، ولكنه خص حين قال : أفئدة من الناس ، فجعل ذلك للمؤمنين . (وأخرج عن مجاهد) قال : لو قال إبراهيم : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لزاحمتهم عليه الروم وفارس ، وهذا صريح في فهم الصحابة والتابعين التبعيض مِنْ مِنَ.

(وعن محمد بن سوقة) قال : كنا جلوساً مع سعيد بن جبير في ظل الكعبة ، فقال : أنتم في أكرم ظل على وجه الأرض . (وفي الحديث) عنه ﷺ : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ولم يذكر شيئاً من المساجد غيرها . (وفي الخبر) عنه : ﷺ ، أنه قال : ما بين الركن اليماني والحجر الأسود روضة من رياض الجنة . انتهى من كتاب العقد الثمين .

وجاء في كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة ، رحمه الله تعالى ، بعد ما ذكر جزءاً في أفضلية مكة على غيرها من البلاد : ما نصه :

... (ومنها) حديث أبي سلمة ، عن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري ، قال : رأيت رسول الله ﷺ على راحلته واقفاً بالحزورة يقول : والله إنك لخير

أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت. وهو حديث حسن، أخرجه أصحاب السنن، وصححه جماعة، منهم الترمذي. وزاد الإمام أحمد: واقف بالحزورة في سوق مكة، وقد دخل سوق مكة المذكور في المسجد بعد ذلك، وفي رواية أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ وقف بالحزورة وقال: إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله عز وجل، ولو تركت فيك ما خرجت منك. وفي أخرى عنه: والله لقد عرفت أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله، ولولا أن قومي أخرجوني، الحديث. وفي رواية ابن عباس: ما سكنت غيرك. قال بعض العلماء: الظاهر أن هذه المقالة كانت منه ﷺ في عمرة القضية حين سألت قريش النبي ﷺ أن يخرج من مكة بعد الثلاثة الأيام التي أقامها كما وقع الشرط. ولا يظن أحد أنه، عليه السلام، قال ذلك حال خروجه للهجرة إلى المدينة، لأنه لم يكن بهذه الصفة حين هاجر، وإنما كان خروجه إليها مستخفياً كما هو معلوم لا راكباً على راحلته، إذ لو كان كذلك لأشعره بسفره.

وفي تاريخ الأزرقي أنه عليه السلام قال ذلك عام الفتح فيحمل على أنه قاله مرتين إذ لا تنافي، ويكون فيه من تعظيم مكة ما لا يخفى، والحَزْوَرَة بحاء مهملة مفتوحة وزاء معجمة، وعَوَامّ مكة يصحفونها ويقولون عزورة، بعين مهملة. والحَزْوَرَة هي الرابية الصغيرة، جمعها حزاور، وكان عندها سوق الحناطين بمكة قديماً، وهي مخففة على وزن قسورة، والمحدثون يشددون الحَزْوَرَة والحديبية، والصواب التخفيف، كذا قال الشافعي والدارقطني.

(ومنها) حديث ابن الزبير، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدي»، رواه أحمد. قال ابن عبدالبر في التمهيد: إنه ثابت لا يطعن فيه، أن مضاعفة الصلاة بالمسجد الحرام على مسجد النبي ﷺ بمائة، منهب عامة أهل الأثر. انتهى.

وذهب الإمام مالك وجمهور أصحابه إلى تفضيل المدينة، وهو مذهب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكثير من الصحابة وأكثر أهل المدينة، واستدلوا بقوله ﷺ: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة. مع قوله عليه السلام: موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها.

قال ابن عبدالبر: هذا استدلال بالخبر في غير ما ورد فيه ولا يقاوم النص الوارد في فضل مكة. ثم ساق حديث أبي سلمة، عن ابن الحمراء المتقدم وقال: هذا نص في محل الخلاف، فلا ينبغي العدول عنه. وأما الحديث المروي: اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلي، فأسكني أحب البلاد إليك، لا يختلف أهل العلم في نكارته ووضعه، وسئل عنه الإمام مالك، رضي الله عنه فقال: لا يحل لأحد أن ينسب الكذب الباطل إلى رسول الله ﷺ. انتهى.

قال الطبري: وعلى تقدير صحته فلا دلالة فيه لأن قوله: فأسكني في أحب البلاد يدل سياقه في العرف على أن المراد به بعد مكة، فإن الإنسان لا يسأل ما أخرج منه فإنه قال: أخرجوني فأسكني، فدل على إرادة غير المخرج منه فتكون مكة مسكوتاً عنها. انتهى.

وأما الحديث الذي فيه: المدينة خير من مكة لا يرد لأنه ضعيف، بل قيل موضوع. قال الجد رحمه الله: فإن قلت: ورد في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة، ودعوته ﷺ، مستجابة بلا شك. وفيها أيضاً أن الملائكة يحرسونها لا يدخلها الطاعون ولا الدجال. قلت: هذه الأحاديث ونحوها تدل على فضيلة المدينة، لا أفضليتها على مكة كما لا يخفى، وقوله ﷺ لهم: حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد. وفي رواية: وأشد لا دلالة فيه. أما على رواية: أو أشد، فظاهر لوجود الشك. وأما على رواية: وأشد، بدون ألف أو بها، وتكون بمعنى الواو، فلأن سؤاله عليه السلام حصول أشدية الحب للمدينة بعد وجود المانع من سكناه مكة تسلية عنها، لا يلزم منه تفضيل المدينة على مكة بعد استحضار ما تقدم من قوله، عليه السلام: لقد عرفت أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله، بشهادة التأمل. انتهى. نقلنا هذا بنصه من الجامع اللطيف.

قال بعض الفضلاء في التحذير من الظلم بمكة شرفها الله تعالى:

أبنيَّ لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محل مهابتي ... لا أن يغر بك الغرور
أبنيَّ من يظلم بمكة ... يلق أطراف الشرور
أبنيَّ يضرب وجهه ... يلج بخديه السعير
أبنيَّ قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور

الله أمنهـــــا ومـــــا	بنيـــت بعرصتهـــا قصـــور
ولقـــــد غزاهـــا تبـــع	فكســا بنايتهـــا الحبـــير
وأذل ربـــــي ملكـــــه	فيهـــا فـــأوفى بـــالنذور
ويظـــل يطعـــم أهلهـــا	لحـــم المهـــاري والجـــذور
يســقيهم العســل المصفــى	والرحيـــق مـــن الشـــعير
والفيـــل أهلـــك جيشـــه	يرمـــون فيهـــا في الصخـــور
والملـــك في أقصـــى البـــلاد	وفي الأعـــاجم والجـــزور
فـــاسمع إذا حدثـــت وافـــ	ـهـم كيـف عاقبـة الأمـور

نقلنا هذه القصيدة من مرآة الحرمين لأيوب صبري .

أهل مكة أدرى بشعابها

هذا مثل عربي قديم وهو مثل شائع إلى اليوم عند جميع النـاس ، نحن لم نقف على قائل هذا المثل اللطيف ، ولكنا نحب أن نشرحه هنا بما يظهر معناه . فنقول :

إن مكة ، شرفها الله تعالى ، تحيطها الجبال من جميع الجهات ، بـل هـي واقعة وسط الجبال ، وكان العرب من قديم العصور ، يسكنون حول الكعبة المعظمة بـين شعاب هذه الجبال وما أكثر هذه الشعاب ، فـالغريب في مكة لا يعرف مساكن العرب بين هذه الشعاب ، وإذا مشى وحده بين هذه الجبال الكثيرة ، ضل وانقطع وهلك من العطش والجوع ، وأما العربي من أهل مكة فهو لا يضـل فيها لمعرفته بشعابها ومسالكها ، بل إن بهائمهم مـن الغنم والجمـال إذا ذهبت إلى المرعى في هذه الجبال ، لتعرف كيف تعود وحدها بدون راع إلى منازلها ومرابضها .

إن مكة التي شرفها الله تعالى على سائر البقـاع ، لم تعرف فيهـا الشوارع الواسعة والمسالك السهلة العريضة ، إلا بعد القـرن التاسع للهجـرة تقريبـاً ، حيث كثر الناس فيها وصاروا يقطعون أشجار الشوك ، ويقطعون الجبال الصغيرة الواقعة في مسالكهم ، ويرفعون الأحجار والأتربـة المتراكمـة في دروبهـم مـن أثـر السيول والإعصار . وفي زماننا هذا سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجريـة ، وهي سنة توسعة المسجد الحرام وتوسعة شوارع مكـة المكرمـة ، قـد شـاهد النـاس كيف يزيلون الجبـال ويقطعون الصخـور ، ويهدمـون المنـازل والبيوت في أسرع

وقت ، بواسطة الآلات الضخمة الجبارة التي تدار بالكهرباء وبالمكائن الأوتوماتيكية التي اخترعت في هذا العصر العجيب ، كما شاهدوا إقامة بناء البيوت والقصور الضخمة بالإسمنت المسلح في أقصر زمن لا تتجاوز أشهراً قلائل .

وبمناسبة شعاب مكة نذكر الحكاية الآتية : لقد ذهبنا مع بعض الأصدقاء منذ عشر سنوات إلى بعض الجبال القريبة من مكة ، وأخذنا معنا أكلنا وشربنا وجلسنا بين جبلين لا تأتيه الشمس ، وبعد أن تغدينا وشربنا الشاهي وصلينا صلاة العصر ، قال بعض رفاقنا نحب أن نطلع فوق هذا الجبل لنرى ما وراءه ، فذهب أربعة منهم إلى رأس الجبل بعد أن حذرناهم من التوغل بين الجبال خصوصاً وأن الليل مقبل ، لقد تسلقوا الجبل ونحن جالسون في مكاننا نراهم ، ثم هبطوا منه بين الجبال وأرادوا الرجوع فتاهوا في ظلام الليل ، ولقد قلقنا عليهم أشد القلق وقد قرب أذان العشاء ، فطلبنا من بعضنا أن يطلعوا إلى رأس الجبل وينادوهم بأسمائهم وأن يرفعوا بأيديهم الكشاف الكهربائي الذي عندهم ، ثم بعد برهة سمعنا صوتهم ، واهتدوا إلى رأس الجبل بالكشاف الكهربائي ، فحمدنا الله تعالى على رجوعهم بالسلامة . فلو كان بدلهم بدوي من العرب لما تاه وما ضاع عن رفاقه .

قال في المصباح المنير : الشعب بالكسر الطريق وقيل الطريق في الجبل والجمع شعاب ، والشعب بالفتح ما انقسمت فيه قبائل العرب والجمع شعوب ، مثل فلس وفلوس ، ويقال الشعب الحي العظيم . انتهى ملخصاً منه .

أهل مكة أهل الله عز شأنه

نذكر ملخص ما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى في هذا العنوان وهو : عن ابن جريج ، عن عبدالله بن عبيدالله أنه كان يقول : "كان أهل مكة فيما مضى يُلقون فيقال لهم يا أهل الله : وهذا من أهل الله" . قال العلامة ابن ظهيرة ، رحمه الله تعالى ، في كتابه الجامع اللطيف : المراد بأهل مكة قريش ، وبما مضى حال شركهم وكفرهم كما ذكر أهل السير ، فبالأولى أن يقال لهم بعد أن أكرمهم الله تعالى بدين الإسلام وأعزهم بنبيه ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فطوبى لأهل مكة ثم طوبى . انتهى منه .

وعن ابن جريج قال : أخبرني معاذ بن أبي الحارث أن النبي ﷺ حين استعمل عتاب بن أسيد على مكة قال : « هل تدري على من استعملتك ، استعملتك على أهل الله » .

وقال ابن أبي مليكة : أن النبي ﷺ قال : « لقد رأيت أسيداً في الجنة وأنى يدخل أسيد الجنة ، فعرض له عتاب بن أسيد ، فقال : هذا الذي رأيت ، ادعوه لي ، فدعا فاستعمله يومئذ على مكة . ثم قال لعتاب : أتدري على من استعملتك ، على أهل الله فاستوص بهم خيراً ، يقولها ثلاثاً » اهـ من الأزرقي .

قال الخضري رحمه الله تعالى في كتابه "نور اليقين" ما نصه : وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة ، وولى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقه كل يوم درهماً . فكان عتاب ، رضي الله عنه ، يقول : لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم . اهـ .

فانظر رحمك الله البون الشاسع بين زمانهم وزماننا .

وفي الأزرقي أيضاً : عن وهب بن منبه أنه قال في حديث حدث به في الحرم قال : « ... ومن أمّن أهله استوجب بذلك أماني ، ومن أخافهم فقد أخفرني في ذمتي ، ولكل ملك حيازة مما حواليه وبطن مكة حوزتي التي احتزت لنفسي دون خلقي ، أنا الله ذو بكة أهلها خيرتي وجيران بيتي ، وعمّارها وزوارها وفدي ، وأضيافي في كنفي وأماني ، ضامنون علي في ذمتي وجواري » . اهـ .

وهذا القدر هو جزء صغير من حديث وهب بن منبه الذي حدث به عن فضل البيت الحرام . وحديثه هذا طويل جداً يبلغ صحيفتين وقد ذكره كله الأزرقي في أوائل كتابه "تاريخ مكة".

وعن الحسن بن مسلم المكي قال : استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نافع بن الحارث الخزاعي على مكة ، قال : فلما قدم عمر استقبله ، فقال عمر : من استخلفت على أهل مكة ؟ فقال : ابن أبزى . قال : استعملت على أهل مكة رجلاً من الموالي . فغضب عمر حتى قام في الغرز ، قال : فقال : إني وجدته أقرأهم لكتاب الله وأعلمهم بدين الله . قال: فتواضع عمر بن الخطاب حتى لصق بالرحل ، ثم قال : لئن قلت ذلك لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله تعالى يرفع بهذا الدين أقواماً ويضع به آخرين . اهـ .

وفي رواية بهذا القرآن . وابن أبزى اسمه عبدالرحمن . ونستنتج من هذه الرواية :

(الأول) : من المستحسن اللائق استقبال الناس خلفاء المسلمين وولاة الأمور والملوك وكل ذي شأن ، كالعلماء والوالدين والرؤساء والأصدقاء من خارج البلدة كما أن نافع بن الحارث ، استقبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعسفان وهي واقعة بين مكة والمدينة فيما بين وادي فاطمة وخليص ، أي مسيرة يومين من مكة بالجمال ، وبها بئر يقال أن النبي ﷺ شرب منه ، وقد غزا النبي ﷺ بني لحيان بعسفان . وفي مرآة الحرمين أن رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، لما مر بوادي عسفان قال : يا أبا بكر أي واد هذا ؟ قال : وادي عسفان . قال : مر به هود وصالح على بكرين أحمرين ، خطمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون ، يحجون البيت العتيق . ذكره الإمام في المسند.

(الثاني) : مبادرة عمر بن الخطاب في سؤال عامله على مكة نافع بن عبد الحارث عن الرجل الذي جعله وكيلاً عنه مدة غيابه عن مكة لاستقباله ، وهذا دليل على حرصه على أمور المسلمين وعدم غفلته عن شؤونهم ولو كان في السفر .

(الثالث) : غضبه على عامله نافع لإقامته ابن أبزى أحد الموالي وكيلاً عنه مدة غيابه ، بينما يوجد في أهل مكة من هو أفضل منه ، وهذه من أدق المسائل الاجتماعية ، فإن من موجبات التنافر والتباغض والعداء ، تعيين صغار القوم وضعفاء الرأي والفكر ومن لم يبلغ مبلغ الرجال من النبل ومكارم الأخلاق ، في المراكز الرئيسية والمناصب المهمة . وإلى هذا المعنى يشير النبي ﷺ : « إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة » . كما في البخاري ، لأن نتيجة ذلك انتشار الظلم وأخذ الرشوة وفساد الأمور والفوضى فيها ، وإهانة ذوي الفضل والدين ، وإكرام الجهلة وأهل الفسق . نسأل الله السلامة والعافية من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

(الرابع) : ذهاب غضب عمر وتواضعه ورضاؤه حينما أخبره عامله بأنه اختار ابن أبزى وكيلاً عنه على أهل مكة لأنه أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بدين الله .

وأهل العلم لهم مكانة سامية عند الله وعند خلقه .

وفي الأزرقي ، عن معمر ، عن الزهري ، عن القاسم بن محمد ، عن أسماء ابنة عميس ، قالت : دخل رجل من المهاجرين على أبي بكر الصديق ، رضي ا لله عنه ، وهو شاكٍ ، فقال : استخلفتَ علينا عمر وقد عتا علينا ولا سلطان له ، فلو قد ملكنا كان أعتى وأعتى ، فكيف تقول لله سبحانه إذا لقيته ؟ فقال أبو بكر : اجلسوني ، فأجلسوه . فقال : هل تفرقني إلا با لله عز وجل فإني أقول إذا لقيته استخلفت عليهم خير أهلك . قال معمر : فقلت للزهري : وما قوله خير أهلك ؟ قال : خير أهل مكة . انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي ملخصاً .

وفي الجامع اللطيف لابن ظهيرة : "وجاء في الحديث أن سفهاء مكة حشو الجنة" كذا نقل عن أبي العباس الميورقي . وفيه أيضاً : وعن ابن مسعود ، رضي ا لله تعالى عنه ، قال : وقف رسول ا لله ﷺ على المقبرة ، يعني مقبرة مكة ، وليس فيها يومئذ مقبرة ، قال : يبعث ا لله عز وجل من هذه البقعة أو من هذا الحرم سبعين ألف يدخلون الجنة بغير حساب ، ويشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً ، وجوههم كالقمر ليلة البدر . فقال أبو بكر ، رضي ا لله عنه : ومن هم يا رسول ا لله ؟ قال : هم الغرباء . انتهى من الجامع اللطيف .

اللهم اجعلنا وذرياتنا وأحبائنا من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنك بر رحيم وكريم حليم ، اجعلنا لرضائك وعفوك أهلاً ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، واجعلنا لغيرنا من المسلمين قدوة صالحة حسنة فنحن جيران بيتك المعظم ، وأهل بلدك الأمين ، اللهم أصلح ولاتنا وأفراد قومنا وأمتنا وكبيرنا وصغيرنا وغنينا وفقيرنا ، وأمّنا من الخوف والجوع والبلاء والغلاء ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، وأمتنا في بلدك الأمين هذا على دين الإسلام وأنت عنا راض براحة تامة وطهارة ونظافة بدون مشقة أو تعب بفضلك ورحمتك يا حي يا قيوم ، وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

فضل مكة المكرمة على المدينة المنورة

إن بعض العلماء يفضل مكة على المدينة وبعضهم يفضل المدينة على مكة ، ولكل طائفة وجهة معقولة ونية حسنة مقبولة ، وكل منهم يقول عن حب ويقين

وإيمان وإخلاص لم يخرج عن حد الشرع الشريف والصواب ، فلهم على ذلك الأجر والثواب .

ونحن نحب أن ندلي برأينا في هذا الاختيار فنقول وبالله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

مما لا شك فيه أن مكة المكرمة عرفت منذ قديم الأزل ، حيث فيها بيت الله الحرام والمشاعر العظام ، وحيث إن إقامة الركن الخامس للإسلام وهو الحج لا تكون إلا بها وذبح أنواع الهديا والفدية لا تذبح إلا بها ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في سورة آل عمران في آية: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ . وأن الله عز وجل قد ذكر في كتابه العزيز مكة وبين فضلها ، ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿والتين والزيتون ۞ وطور سينين ۞ وهذا البلد الأمين﴾ وقوله عز شأنه : ﴿لا أقسم بهذا البلد ۞ وأنت حل بهذا البلد﴾ . وفي مكة وأهلها يقول خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والتسليم كما جاء في القرآن الكريم في سورة إبراهيم : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾. وجاء في سورة البقرة : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ . إلى أن يقول إبراهيم خليلٍ الله صلوات الله وسلامه عليه بعد آيتين من هذه الآية : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ . يدعو سيدنا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والتسليم لأهل مكة بهذا الدعاء العظيم المبارك منذ خمسة آلاف سنة تقريباً بعد بنائه للبيت الحرام ، فجزاه الله تعالى عن أهل مكة خاصة وعن المسلمين عامة خير الجزاء بما يليق بكرم الله عز وجل ومقام خليله الكريم عليه الصلاة والتسليم .

هذا بعض ما ورد في القرآن العظيم عن فضل مكة شرفها الله تعالى ، وهذا غير ما ورد من الأحاديث الشريفة في فضلها ، وكفاها فضلا قوله صلى الله ﷺ : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) رواه البخاري ومسلم . وقوله ﷺ : (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في

غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة ألف صلاة) رواه الإمام أحمد وغيره . وروي بإسناد حسن (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفي مسجدي بألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة) .

فمن هذا كله يعلم أن مكة أفضل من المدينة ، علاوة على ما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي رضي الله تعالى عنه في فضل مكة المكرمة ، فإنه قال في أول تاريخه : عن ابن عباس أنه قال : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، بعث الله تعالى ريحاً هفافة فصفقت الماء ، فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة ، فدحا الله الأرضين من تحتها ، فمادت ثم مادت ، فأوتدها الله تعالى بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس ، فلذلك سميت مكة أم القرى ، انتهى منه . هذا مع العلم بأن كثيراً من أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام قد أتوا إلى مكة المشرفة للحج وزيارة البيت الحرام .

أما المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فإنها لم تعرف ولم تشتهر إلا بعد أن هاجر إليها نبينا الحبيب محمداً ﷺ وازداد شرفها بموت رسول الله فيها ودفن بها ، كما دفن فيها بعض أولاد رسول الله ﷺ وأكثر زوجاته ، وغالب كبار أصحابه الكرام رضي الله تعالى عن الجميع . ولما كانت المدينة المنورة محل هجرة رسول الله ﷺ وموضع إقامته وإقامة أصحابه الكبار ، كان لا بد أن يرد في فضلها بعض الأحاديث الشريفة .

فمن هنا يعلم أن فضل مكة معروف من آلاف السنين وفضل المدينة لم يعرف إلا بعد ظهور الإسلام أي بعد بعثته ﷺ بثلاث عشرة سنة ، مع العلم بأن أكثر الأغراب يقيمون بمكة المكرمة ، فصار سكانها أكثر من سكان المدينة من قديم الزمن إلى اليوم ، ومن هنا كانت مكة عاصمة بلاد الحجاز .

وكل من البلدتين الطاهرتين له مكانة سامية وشرف عظيم . أما ما يقوله بعضهم من أن التربة التي تضم جسد رسول الله ﷺ أشرف حتى من العرش ، فهذا الحكم لا بد له أن يستند إلى الكتاب والسنة وليس فيهما شيء عن هذا . فالكلام في هذا الأمر يحتاج إلى دليل قطعي ، ولا يجدي فيه شدة الحب والإخلاص ، فالأفضل عدم الخوض في مثل هذا الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور خصوصاً وأن هذه المسألة لم يتكلم عليها أحد من الأئمة المتقدمين وأهل القرون

الثلاثة الأولى، فلا لزوم في الغلو، وإذا علمنا أن الأفضلية راجعة إلى الله عز وجل، فلا لزوم في الكلام على ما لم نطلع عليه.

فضل مكة لمؤلف هذا الكتاب

يقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي المكي الخطاط غفر الله تعالى له وللمسلمين أجمعين :

إننا كتبنا في أوائل هذا الكتاب نبذه عن فضل بلد الله الأمين (مكة المكرمة) بما فيه الكفاية، وبعد أن قدمنا هذا الكتاب للمطبعة طرأ في بالنا هذه الأبيات في فضل مكة المكرمة أيضاً، حرسها الله تعالى من كل سوء حساً ومعنىً إلى قيام الساعة .

مكة أفضل بلاد البشر ... وإنها بلدة خير البشر

فلم يكن سواه مولوداً بها ... من أنبياء الله فافهم كنهها

عليه أفضل الصلاة وعلى ... جميعهم وآلهم ومن تلا

ففضلها ليس بحسن المنظر ... ولا بكثرة النبات المثمر

بل فضلها قد جاء في القرآن ... وفي أحاديث عظيم الشان

في سورة التين وسورة البلد ... وغير ذلك كثيراً قد ورد

فأهل مكة لقد فضلهم ... رب العباد وكذا أمّنهم

من شدة الخوف من الأعداء ... أو شدة الحرمان من غذاء

فنعمة الله عليهم لا تعد ... وفضل مكة عظيم لا يجد

أليس فيها بيت رب الناس ... يقصده للحج كل الناس

ينزل الله عليه دائماً ... رحمته وخيره من السما

يكفي لها فضلاً وفخراً وشرف ... بأن كل الناس عنها قد عرف

يحرم فيها الصيد مع قطع الشجر ... كذلك السلاح حمله خطر

لكل فضل ولكل خير ... فافهم هديت لجميع الخير

وإنه لو جاءها المسافر ... يدخل بالإحرام وهو سافر

بمثل هذه الأمور البارزة ... تمتاز مكة فكانت حائزة

يلهج بالذكر وبالتلبية ... ما دام محرماً بغير عجمة

فأهل مكة إذا ما اغتربوا ... وطال اغترابهم ترقبوا

رجوعهم بفارغ اصطبار ... يدعون رب البيت في الأسحار

ليصلوا مكة في لمح البصر ... فيسعدوا برؤية البيت الأغر

ويرتووا من شرب ماء زمزم ... فهو شفاء المؤمن المتيم

فهم يحنون إلى جبالها ... ويستريحون على رمالها

فأرضها الطاهرة المقدسة ... مهما تكن قاحلة ويابسة

أفضل من حدائق الثمار ... ومن خضار الروض والأزهار

وكيف لا والدين قام من هنا ... والوحي جاء من هنا ومن هنا

ومنبع الشريعة الغراء ... يمتد من مكة في الأرجاء

وبيت ربنا الكبير المتعال ... في قلبها يقوم حولها الجبال

وأن خير الخلق في أطرافها ... مشى فكان الخير في أعطافها

وقد دعا لأهلها الخليل ... دعاء خير ما له مثيل

عليهما الصلاة والسلام ... ما دامت الأيام والأعوام

من كان حاكماً على هذا البلد ... وسار بالعدل فقد فاز الأبد

ومن تجبر وكان ظالماً ... قصمه الله وكان آثما

وانظر أخي في سورة الحج ترى ... ومن يرد فيه بإلحاد يرى

وفاز من وفق للطاعات ... وفاز من وفق للخيرات

وكل من أكرم أهل البيت ... أكرمه والله رب البيت

فهل هناك مثل هذا البلد ... ومثل هذا البيت بيت الصمد

ومثل هذا المسجد الحرام ... وهذه المشاعر العظام

كلا فلا يوجد فوق الأرض ... كمثله في طولها والعرض

فالحمد لله الذي جعلنا ... من أهله وبالنعيم خصصنا

وكل ذا بفضله ورحمته ... يدخل من يريده في رحمته

نحن أسأنا وعصينا ربنا ... فاغفر لنا يا ربنا ذنوبنا

فأنت ربنا ولا رب لنا ... غيرك فاغفر ما جنينا علنا

وأنــــت ربنــــا غــــني عنــــا	فــاغفر لنــا جميــع مــا أســأنا
وأنــت أنــت الملــك الكريــم	وأنــت ربــي خــالق عظيــم
يــا حــي يــا قيــوم يــا عليــم	يــا راحــم الضعيـف يــا حليــم
أنـت عظيـم الفضـل والإحسـان	وواســع الرحمـــة والغفـــران
فمنـك نرجـو الخـير والإحسـانا	ومنــك نرجـو العفـو والغفرانــا
والمــوت بالإيمــان والأمــان	من كـل خـوف يـا عظيـم الشـان
وندخـــل الجنـــان بالســـلام	والحمـــد لله علـــى الختـــام
ثـم الصـلاة والسـلام السـرمدي	علـى النـبي العربـي الأحمـدي
وآلـــه وصحبـــه الأخيـــار	وكلهــم مــن صفــوة الأخيــار

مكانة أهل مكة بين جميع الأمم

كان لأهل مكة منذ عهد جدهم الأول نبي الله إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام مكانة سامية في قلوب جميع الناس ، فكانوا يحترمونهم ويكرمونهم أينما سافروا وأينما أقاموا تعظيماً لبيت الله الحرام ، ودامت لهم هذه المكانة الرفيعة بين الناس إلى زمن الجاهلية بل إلى اليوم ، فلما جاء الإسلام أقر لهم بذلك بل وزادهم رفعة على رفعة وعطف عليهم فضل أهل المدينة المنورة أيضاً ، فكان لأهل الحرمين الشريفين المنزلة العليا والمكانة الرفيعة لدى جميع الأمم الإسلامية منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا .

لقد كان أهل مكة وكذلك أهل المدينة إذا سافروا إلى جهة من الجهات كمصر والشام والعراق وجاوة وبلاد الأتراك مقر الخلافة أو إلى هندستان وباكستان وبخارى والأفغان وغيرها من البلدان ، كانوا يكرمونهم إكراماً عظيماً ، حتى إنهم ليرتبون لهم مرتبات شهرية كافية يرسلونها إليهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة بواسطة وكلائهم من التجار والأعيان وبواسطة المحامل التي كانت تأتي في موسم الحج من كل عام ، خصوصاً من الآستانة دار الخلافة الإسلامية ومن مصر والهند ، هذا غير الصدقات والمساعدات التي كانت تأتي إليهم في موسم الحج من كل عام مع وفود الحجاج القادمين من جميع الجهات . فكان أهل الحرمين الشريفين في بحبوحة من العيش ويسر من الحال .

ودام هذا الحال عليهم على هذا المنوال اللطيف إلى أن زالت الخلافة الإسلامية من الوجود وذلك في سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين من الهجرة، وتعددت الحكومات وتغيرت الأوضاع في جميع الأقطار والبلدان، واستولت الحكومة السعودية على الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية، واستقلت الممالك والبلدان بعضها عن بعض فلم تكن جميع البلدان الإسلامية تحت لواء الخلافة بعد زوالها، وبذلك تضعضعت أحوال المسلمين وضعفت شوكتهم. ومنذ سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية تقريباً أخذت تلك الأوقاف والمرتبات لأهل الحرمين في الانقطاع تدريجياً، حتى لم يكن يصل إليهم شيء يذكر في هذه الأيام ونحن في سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين من الهجرة، وبذلك ضعفت أحوال أهل الحرمين الشريفين وصاروا في ضيق من العيش، اللهم إلا القليل النادر، والنادر لا حكم له.

نسأل الله الكبير المتعال أن يبدل عسرهم يسراً وأن يصلح أحوالهم وأحوال كافة المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها، وأن ينصرهم على أعداء الدين وأن يعيد إليهم مجدهم وعزهم الغابر وما ذلك على الله بعزيز، آمين آمين آمين، وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكانة المساجد الثلاثة لدى المسلمين

المساجد كلها بيوت الله تعالى، جعلت خاصة للعبادة، قال تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾. وأفضل هذه المساجد ثلاثة، وهي في أفضليتها أيضاً على الترتيب الآتي:

المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي بالمدينة، والمسجد الأقصى بالقدس. قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى». رواه الشيخان واللفظ لمسلم، وأما البخاري فلفظه: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى».

وروي بإسناد حسن: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة».

وسبب أفضلية هذه المساجد الثلاث لأنها من بناء الأنبياء، فالمسجد الحرام من بناء إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أي أنه تابع لبناء الكعبة المشرفة، والمسجد النبوي من بناء نبينا "محمد" ﷺ والمسجد الأقصى من بناء سليمان عليه الصلاة والسلام.

ولهذه المساجد الثلاثة مكانة سامية وبالأخص المسجدين الحرامين بمكة والمدينة، فإليهما تهفو أفئدتهم وتحن جوارحهم لمشاهدتهما والعبادة فيهما، كيف لا وفيهما منبع الإيمان ونور العلم والعرفان، وإليهما يأتي الناس أفواجاً في كل عام من كل فج عميق.

لذلك كان المسلمون من قديم العصور، يهتمون بتصوير الكعبة المشرفة والمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى والمشاعر العظام، ويتخذون لها نماذج مصغرة من الفضة أو المعدن والجص، ويحتفظون برسومها في المتاحف ودور الآثار، بل لا يزالون إلى يومنا هذا يرسمون ذلك في المنسوجات الحريرية والأقمشة المتنوعة، كالسجاجيد والمناديل والمفارش، ويتهادونها فيما بينهم، وذلك لتبقى ذكرى روحية ماثلة أمام أعينهم، وقد نشرت مجلة الهلال بتاريخ شهر يوليو عام ١٩٥٨ من الميلاد بعض هذه الرسوم.

بعض ما قيل في المساجد الثلاثة

قال السيد محمد عبدالله الموسوي الشهير بكبريت المدني:

فارقت مكة والأشواق تجذبني ... لها ويممت طه معدن الكرم

فهل درى البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وقال الشيخ عبدالرحمن العمادي مفتي الحنفية بدمشق قديماً:

فارقت طيبة مشتاقاً لطيبتها ... وجئت مكة في وجد وفي ألم

لكن سررت بأني بعد فرقتها ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وقال آخر:

إذا كنت في القدس الشريف تشوقت ... إلى مكة نفسي لحج وعمرة

ولو كنت فيها قالت النفس طيبة ... أعيش بها في ظل دوح النبوة

وإن كنت فيها زاد للأهل شوقها ... فمن لي بأهلي وبالبلاد الشريفة

وقال غيره في قباء وعوالي المدينة :

إذا كنت في أرض العوالي تشوقت ... لأرض قبا نفسي وفيها المؤمل

ولو كنت فيها قالت النفس ليت لي ... بأرض العوالي يا خليلي منزل

فيا ليت أني كنت شخصين فيهما ... ويا ليت في التحقيق أن لا تعلل

أول من لقب بخادم الحرمين

إن أول من لقب بخادم الحرمين الشريفين هو السلطان سليم خان ، من سلاطين الأتراك آل عثمان ، فإنه لما دخلت البلاد العربية ومنها الحجاز في حكمه وتحت سلطته خوطب بلقب حامي الحرمين الشريفين ، لكن السلطان سليم لم يرض بهذا اللقب وقال: إن حاميهما هو الله عز شأنه وأما أنا فخادم الحرمين الشريفين . فرحم الله سلاطين الأتراك الذين كانوا يعرفون حرمة الحرمين الشريفين ، فيحترمون أهلهما ويجعلون لهم مرتبات شهرية وقواعد سنوية يرسلونها إليهم في موسم كل حج تصرف لهم بواسطة ولاتهم في الحجاز . فرحمهم الله تعالى رحمة الأبرار وجزاهم عن أهل الحرمين الشريفين خير الجزاء آمين .

ويروى عن الإخشيدي الذي كان حوالي سنة (٣٣١) من الهجرة حاكماً على مصر والشام وبلاد الحرمين ، كتب إلى ملك الروم يقول : " إنه لو لم يكن لي شرف إلا إمارة الحرمين لكفاني ذلك" .

ونقول : لقد كان الناس لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة المشرفة احتراماً لها ، كما جاء ذلك في تاريخ الإمام الأزرقي . وأن الناس في العصور السابقة كانوا أكثر إيماناً واحتَراماً للمسائل الدينية الدقيقة ، وعلى سبيل المثال نقول : إن أحد سلاطين الأتراك دخل ليلاً مخدع نومه فرأى مصحفاً معلقاً في الجدار الذي عند سريره ، فلم يرقد بل ظل واقفاً إلى الصباح .

ولقد روى الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" : أنه في سنة (٧١٩) سبعمائة وتسع عشرة هجرية أمر الملك المؤيد الخطباء بالمساجد والجوامع إذا وصلوا إلى الدعاء إليه في الخطبة أن يهبطوا المنبر درجة ليكون اسم الله ورسوله في مكان أعلا من المكان الذي يذكر فيه اسم السلطان ، فصنع ذلك الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر وابن النقاش بجامع ابن طولون ، قال ابن حجر : وكان مقصد السلطان في ذلك جميلاً . اهـ . فانظر رحمنا

الله وإياك إلى أعمال السابقين رحمهم الله تعالى ، فإذا كان هذا حال سلاطينهم وملوكهم فكيف يكون حال علمائهم وفقرائهم . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه آمين .

عادة العرب في إصلاح ذات البين في الحجاز

عادة العرب عندنا في إصلاح ذات البين وفض الخصام ، يعرفها جميع قبائل العرب والبدو في القرى والبوادي ، لا يشذ عنها أحد منهم . وهي :

أنه لو حصل خصام بين الوالد وولده ، أو بين ذوي الأرحام والقرابة ، أو بين الأصحاب ، فإن العرب والبدو لا يتركون الخصومة تسري بينهم مدة طويلة ، وإنما يقوم العقلاء وذوي الشأن منهم ، بالتدخل بينهم، لرفع الخصام ، والتوسط بينهم لإصلاح ذات البين . فيعملون اجتماعاً ويحصل التحقيق بين المتخاصمين ، فمن ثبت عليه التعدي والخطأ ، يفرضون عليه جزاء ، وهو تقديم ذبيحة أو ذبيحتين أو أكثر ، مع ما يتبعه من الرز والسكر وقهوة البن والتمر ، وأحياناً يفرضون عليه فوق ذلك دفع نقود معلومة ، وذلك بحسب نوع الجريمة وقدرة المخطئ .

ثم يذهبون بالمخطئ مع هذه الأشياء ، إلى بيت صاحب الحق فيدفعون كل ذلك له ، فيقوم المخطئ بأخذ خاطره من تقبيل رأسه أو يده ويشفع الحاضرون فيه عنده ، فيسامحه ويصفح عنه . فعندئذ يذبحون الذبيحة ويطبخون أكلهم ويأكلون جميعهم في بيت الرجل ، ثم يخرجون وقد حصل العفو والتسامح وجرت المياه في مجاريها كما ينبغي ، وزال الشر.

هكذا عادة العرب في إزالة الخصومة والعداوة ولو في مسائل الرقاب قبل وصولها إلى الحاكم والحكومة . وهذه العادة ما زالت موجودة في مكة المكرمة ، لكن عند أهل الحارات ومشايخها ، فإنهم يعملون الصلح ويزيلون الخصومة بالطريقة المذكورة . أما الخصومة فيما بين الموظفين ، فإنها قد تزال بواسطة بعضهم لبعض ، هذا هو الحال عندنا في عرب الحجاز كافة .

أما عشائر العرب في اليمن والشام ومصر والعراق ، فأعتقد أن عاداتهم في هذا الشأن تقارب عاداتنا ، وإذا وجد فرق ، فإنه فرق بسيط ، وهي عادة ممدوحة شرعاً ، لأنها واسطة في إزالة الخصومات وفي الصلح ، والصلح خير . وهناك

عاذات جميلة بين العرب ، لسنا في صدد بيانها ، فلو سردناها لطال بنا المقام لكثرتها.

أول من عمل مواسير المياه من العرب بمكة المكرمة

ذكر الإمام الأزرقي ، رحمه الله تعالى ، في كتابه "تاريخ مكة" ، وفي باب "ذكر ما عمل في المسجد من البرك والسقايات" ما ملخصه : أن أمير المؤمنين ، سليمان بن عبد الملك بن مروان ، رحمهم الله تعالى ، كتب إلى خالد بن عبدالله القسري ، رحمه الله تعالى ، أن أجر لي عيناً تجري من الثقبة من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود ، ويضاهي بها رغم ماء زمزم . قال : فعمل خالد بن عبدالله القسري البركة التي بفم الثقبة يقال لها : بركة القسري . ويقال لها أيضاً : بركة البردي ببئر ميمون ، وهي قائمة إلى اليوم بأصل ثبير ، فعملها بحجارة منقوشة طوال ، وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع ، ثم شق لها عيناً تسكب فيها من الثقبة ، وبنى سد الثقبة وأحكمه . والثقبة شعب يفرع فيه وجه ثبير ، ثم شق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام ، فأجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام ، بين زمزم والركن والمقام ، حتى جرت وظهر ماؤها ، ثم أمر خالد بن عبدالله القسري بعمل وليمة كبيرة ذبحت فيها الذبائح بسبب هذا العمل ، إلى آخر ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه .

نقول : خالد بن عبدالله القسري المذكور هنا ، هو أمير مكة المكرمة في ذلك العهد . والثقبة بالتحريك ، هو موضع في أوائل جبل ثبير من جهة حراء ، لا يبعد عن المسجد الحرام بأكثر من أربعة كيلومترات ، فمن هذا التاريخ المعتمد الموثوق ، يعلم أن أول من عمل مواسير المياه من الرصاص هو أمير مكة المكرمة ، خالد بن عبدالله القسري ، رحمه الله تعالى ، وهو من صميم العرب من أهل مكة ، وذلك منذ أكثر من ألف سنة ، فلا يظن أحد أن مخترعي مواسير المياه هم الإفرنج .

معنى مكة ومعنى بكة

قال الأزرقي في صحيفة (٢٢٨) من الجزء الثاني : وبكة الوادي الذي به الكعبة : قال الله تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى

للعالمين﴾ . قال : وبطن الوادي الذي فيه بيوت سراج والمربع حائط بن برمك ، اهـ . وهو اليوم يقال له وادي إبراهيم .

وفي تاريخ الأزرقي أيضاً : عن ابن عباس ، قال : إنما سميت بكة لأنه يجتمع فيها الرجال والنساء . وعن ابن جريج أنه كان يقول : إنما سميت بكة لتباك الناس قدام الكعبة . ويقال : إنما سميت بكة لأنها تَبُكّ أعناق الجبابرة . انتهى .

نقول : لا يبعد أن يكون بكة ومكة (بالباء والميم) اسمان على مسمى واحد ، وهو (البلد الأمين) الذي فيه وادي إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولا يبعد أيضاً أن يكون بكة (بالباء) ، هو ما بين الأخشبين (جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان) ، وهما جبلان متقابلان قريبان من بعض ، والكعبة المشرفة تقع بينهما . ومكة (بالميم) هو نفس البلدة الطاهرة ، والله تعالى أعلم .

وأما الحرم فلا يطلق على بكة ولا على مكة ، وإن كانتا جزءاً منه ، فالحرم محيط بمكة من جميع جهاتها إلى مسافات طويلة ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيان مقدار هذه المسافات .

وأهل مكة اليوم يطلقون الحرم على نفس المسجد الحرام ، فيقول أحدهم : إني ذاهب إلى الحرم ، وجئت من الحرم . ويعني بذلك : المسجد الحرام .

ويدل على صحة كلامنا هذا ما جاء في مختار الصحاح : وبكة اسم بطن مكة ، سميت بذلك لازدحام الناس ... الخ . فعليه يطلق بكة (بالباء) على بطن مكة (بالميم) ، وبطن مكة يعني وسطها ، ووسطها هو ما بين أخشبيها "جبل قبيس وقعيقعان" ، وهو الموضع الذي فيه البيت الحرام مهما اتسع العمران ، ويدل على ذلك صراحة نفس الآية : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ . فالبيت والمقام في نفس بكة ، وهي وسط مكة بلا خلاف .

وأما مكة فهي البلد الحرام كما في مختار الصحاح ، يعني نفس البلدة مهما اتسعت .

المراد بوادي إبراهيم

وادي إبراهيم -أي خليل الله عليه الصلاة والسلام- جاء في تاريخ الغازي ما يأتي:

قال العلامة الحضراوي في نزهة الفكر: هو من أعلا جبل النور، وهو جبل حراء ببطن مكة مسيلها إلى أسفل مكة، إلى باب الماجن وهو واد مبارك.

وقال بعضهم: هو مكة جميعها، شعابها وسهلها وادي إبراهيم، اهـ.

وأما المنحنى، فهو جبل بجانب وادي إبراهيم في أعلا الأبطح، والجبل المقابل للمنحنى يسمى حاجراً وهو على يسار الذاهب إلى حراء، وأذاخر هو المحل المعروف الآن بالمعابدة وفيها ثنية أذاخر، والرقمتين هو محل عند جبل السليمانية جهة النقا عند قبر العباس بن مرداس السلمى قريب من الشيخ العبادي يعرفه أهل مكة. انتهى من نزهة الفكر. اهـ. من الغازي.

نقول: إن وادي إبراهيم هو جميع مكة لا مجرى السيل فقط، بل لا يبعد أن يشمل الوادي حدود الحرم؛ ونسبة الوادي إلى إبراهيم عليه السلام نسبة تشريف، فإنه هو أول من أطلق على مكة كلمة (وادي) كما في الآية: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ وأول من أتى إليه وأسكن فيه بعض ذريته.

والمعقول أن يكون وادي إبراهيم هو جميع حدود الحرم، فمن مكة المشرفة إلى عرفات شرقاً، ومن مكة إلى الشميسي غرباً، ومن مكة إلى جهة الشرائع شمالاً، ومن مكة إلى جهة الجنوب من طريق المسفلة إلى حدود الحرم، فكل هذه الجهات من مشاعر الحج وحدود الحرم لم تعرف إلا من خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم. ونرى أن أصدق ما يطلق على وادي إبراهيم هو موضع سيل مكة، فإنه يأتي السيل الكبير من جهة عرفة شرقاً ماراً بمزدلفة فمنى فمكة، ثم يخرج من مكة إلى جهة الغرب إلى الشميسي في طريق جدة، وربما نزل السيل إلى جدة وصب في البحر الأحمر إذا كان عظيماً. وجميع ما ذكرناه من هذه الأطراف والجهات لا زرع فيها ولا نبات اللهم إلا الأشجار ذات الأشواك الصالحة للاحتطاب. فسيدنا إبراهيم الخليل، عليه الصلاة السلام، قد أسكن من ذريته

وهو إسماعيل مع أمه هاجر عليهما السلام ، في بقعة من هذا الوادي وهي التي عند بيت الله الحرام كما هو صحيح ، الآية.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم... الآية﴾

جاء في القرآن في سورة إبراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ۞ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

هذا الدعاء كان عند خروج إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة السلام ، من مكة بعد أن ترك بها ولده إسماعيل وأمه هاجر ، فإنه بعد أن وضعهما في مكان زمزم ، خرج من مكة مسافراً إلى الشام ، فتبعته هاجر بعد أن تركت ابنها في مكانه ، فقالت : يا إبراهيم ، إلى من تدعنا ؟ فسكت حتى إذا دنا من جبل كداء ، وقيل من الثنية ، قال : إلى الله عز وجل أدعكم . قالت : فالله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : فحسبي تركتنا إلى كاف . وانصرفت هاجر إلى ابنها .

فلما وقف إبراهيم على كداء ، ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول رؤية ابنه ، فنظر إليه فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده ، فعندئذ قال : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... الآية﴾ .

(فإن قيل): لم دعا الله تعالى هنا وتضرع إليه ، ولم يدعه حين إلقائه في النار قبل ذلك ، عندما قال له جبريل: هل لك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال جبريل : فسل ربك ، قال إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي ؟

(فالجواب): أن إلقاءه في النار تتعلق بنفسه هو ، والخليل يتلقى من خليله كل أمر بقبول تام وإذعان بالغ ، والأنبياء لا يغفلون عن الله طرفة عين ، والله تعالى لا تخفى عليه خافية . لذلك قال لجبريل : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فكأن أدبه العالي مع ربه جعل النار عليه برداً وسلاماً ، وهل يرضى العزيز الحكيم أن يحرق خليله إبراهيم بالنار ، أو يذبح بيده ولده وفلذة كبده بالسكين؟ - كلا والله - ولكن اقتضت حكمته تعالى ، أن يبتلي ويختبر نبيه وخليله ليكتبه في رأس قائمة

الصابرين المتوكلين الممتثلين للأوامر الإلهية ، مع علمه سبحانه وتعالى بما يكون منه ، وكيف العاقل قد لا يسأل غيره حاجة لنفسه ، ولكنه يسألها منه لغيره ، فإبراهيم عليه السلام ، لم يسأل ربه بلسانه النجاة من النار اكتفاء بعلمه تعالى ، وتلك حالة نبوية خليلية لا تكون إلا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أما دعاؤه لغيره من أهله وأولاده والمؤمنين ، فقد كان على الطبيعة البشرية ، فدعا لذريته ، ودعا لمكة بالأمن والرزق ، ودعا له ولوالديه وللمؤمنين عامة بالمغفرة حيث يقول: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

ولنتكلم هنا عن آية : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... الخ﴾ بما يفتح الله به علينا من فضله الواسع ، فهو الفتاح العليم لا راد لفضله . فنقول وبالله التوفيق:

إن من يتدبر في الآيات الواردة في دعاء خليل الله إبراهيم ، عليه السلام ، يجد في كلها أو غالبها ينادي الله تعالى بقوله: "رب أو ربنا" وهذا حال العبد المقر بالربوبية والوحدانية وحال المحب الذي لا يغفل عن محبوبه ويكثر من ذكر اسمه وفي المثل : "من أحب شيئاً أكثر من ذكره" . وهل أحد أعرف بالله من الأنبياء - كلا - وإليك بعض ما ورد في الآيات عن ندائه لربه جل جلاله ، وعظمت قدرته ، وتعالت هيبته :

ففي سورة البقرة : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمناً... الآية﴾ . وفيها أيضاً : ﴿ربنا تقبل منا... الآية﴾ وفيها أيضاً : ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك... الآية﴾ وفيها أيضاً : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم... الآية﴾.

وفي سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً... الآية﴾ . وفيها أيضاً : ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس... الآية﴾ . وفيها أيضاً : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم... الآية﴾ . وفيها أيضاً : ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن... الخ﴾ وفيها أيضاً : ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ۝ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾. إلى غير ذلك من الآيات .

وليس كل هذا بغريب على من قال الله في حقه : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ . وقال في حقه : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ . وقال في حقه أيضاً : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات

والأرض وليكون من الموقنين﴾ . وقال في حقه أيضاً : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ۝ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۝ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

ويفهم من قوله : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾ ، أن إبراهيم عليه السلام هو الذي عمر مكة شرفها الله تعالى ، بإسكان بعض ذريته فيها امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى ، لا أنه أتى بهم للسياحة والنزهة ، فبلدة ليس بها أنيس ولا ماء ولا شجر ، لا يأتي الإنسان إليها للفسحة والاسترواح من بلاد الشام العامرة بالفواكه والثمار والخضرة والأنهار .

كما يفهم من قوله : ﴿من ذريتي﴾ ، أنه أسكن بعضهم بمكة ، وأما البعض الآخر ، فقد بقوا في بلدتهم الأصلية ولم يحضروا معه إلى مكة ، لأنه عليه السلام ، أحضر إلى مكة ابنه إسماعيل مع أمه هاجر فقط تنفيذاً لرغبة زوجته سارة ، وامتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمره بالهجرة إلى مكة معهما .

ويفهم صراحة من قوله : ﴿بواد غير ذي زرع﴾ أن مكة كلها كانت قفراً لا نبات فيها ولا ماء ، فليس المراد بالوادي هو مجرى السيل من شارع القشاشية الذي بقرب المسجد الحرام فقط ، كما يفهمه بعضهم ، بل المراد بعض مكة كلها من جميع الأطراف كما لا يخفى على المتأمل ، والله تعالى أعلم .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أول من أطلق على مكة كلمة "وادي" كما هو صريح في هذه الآية : ﴿بواد غير ذي زرع﴾ ، فنسبة وادي إبراهيم إليه نسبة تشريف ، فإنه هو أول من أتى إليه وأسكن بعض ذريته فيه .

ومعنى قوله : ﴿بواد غير ذي زرع﴾ أي في بدء الأمر ، وأصل الخلقة في عهد إبراهيم ومن قبل عهده ، فلا محل للاعتراض إن وجد فيما بعد ماء وزرع بالإنبات ، وإيصال الماء إليه وحفر الآبار ، ووجود البشر والسكان في الوادي ، يقتضي إشغال الأيدي العاملة بعمارته بالماء والزرع والبنيان ، كما هو سنة الله في خلقه .

وبهذا المعنى ينتفي إشكال من يقول : كيف يقول: بواد غير ذي زرع ، بينما مكة اليوم ولله الحمد فيها الزروع والبساتين .

وأيضاً يمكن أن نقول : إذا قسنا اليوم ما يوجد بمكة من البساتين والزروع ، إلى ما يوجد بمصر والشام وغيرهما من الزروع والأنهار والبساتين والثمار ، لوجدنا أن ما هو بمكة شيء قليل ونسبة ضئيلة لا تذكر في جانب ما هو في الخارج، والقليل لا حكم له ، فكأن مكة ليست بذات زروع وثمار .

ويفهم من قوله : ﴿عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة﴾ ، أنه سبحانه وتعالى ، قد أعلمه بمكان بيته الحرام بمكة قبل أن يأمره ببنائه ، ليطمئن قلبه عند تركه إسماعيل وأمه بها أن لهما مستقبلا سعيداً ، وشأناً عظيماً فيما بعد .

وقوله : ﴿ليقيموا الصلاة﴾ أي إني أسكنت من ذريتي عند بيتك المحرم ليعبدوك بإقامة الصلوات وحج البيت وأنواع البر والعبادات ، فالصلاة والصيام والحج من العبادات التي كانت من قبل الإسلام ، وإقامتها بهذه الكيفية من خصوصيات هذه الأمة المرحومة ، وقوله: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ : هذه عبارة بديعة وجملة لطيفة ، فإنه لما ترك إبراهيم عليه السلام ، ولده إسماعيل وأمه هاجر بمكة لا أنيس لديهما ، أحب أن يرسل الله إليهما من خيار الناس وأفضلهم ليأتنسا بهم وينسيا غربتهم ، فتذهب وحشتهم ، وبالفعل فقد أرسل الله لإسماعيل عليه السلام وأمه هاجر عندما نبع لهما زمزم طائفة من أخيار قبيلة جرهم ، استأذنوا هاجر في النزول عندها ، والإقامة معها وإسماعيل كان صغيراً ، فقالوا لها : أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ، فأذنت لهم ، فأقاموا عندها وأحبوا إسماعيل حتى زوجوه بامرأة منهم .

ويؤخذ من قوله: ﴿من الناس﴾ المقصود طائفة منهم لا كلهم . فكلمة (من) للتبعيض أي بعضهم . ولذلك قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : لو قال أفئدة الناس ، لحنت إليه فارس والروم والناس كلهم .

وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ هذا منتهى الرحمة ومنتهى العناية والرأفة بأهله ﷺ وأولاده ، فإنه قد ترك إسماعيل وأمه ، بشيء من التمر وقليل من الماء في مكان قفر لا نبات فيه ولا ماء، ولا بشر ، وهم لا بد وأن يحصلوا على قوتهم من اللحم واللبن والثمرات ، فدعا لهم بكل ذلك .

فالثمرات ، وإن كانت ليس من القوت الضروري ، فهي تفيد الإنسان فائدة كبرى كما لا يخفى ، فأراد إبراهيم ، عليه السلام ، أن ينعم الله عليهم بالكماليات من الفواكه ، كما ينعم عليهم بالقوت الأساسي ، فدعا الله لهم أن يرزقهم من

الثمرات ليتفكهوا بها ، ثم دعا لهم ثانياً حينما أتى من الشام لزيارتهم بالبركة في اللحم والماء ، فببركة دعائه ﷺ صارت مكة عامرة بكل شيء ، ممتلئة بالأرزاق والثمار في كل وقت من الأوقات وفاء لما وعد الله به أهل هذا البلد الآمن بقوله : ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ . فالحمد لله رب العالمين .

وأما قوله : ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ، فيفهم منه أنه ﷺ، كان يحمل في قلبه لوعة فراق زوجته وولده ، ويحمل همهما وما سيؤول إليه أمرهما وقد تركهما في فلاة قفر ، ليس عندهم قريب ولا غريب ، امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى . لكنه ﷺ لا يريد أن يفصح بلسانه عما في قلبه ، وذلك من كمال الإيمان والتفويض ونهاية الاستسلام والخضوع لله الواحد القهار . وهذا من قبيل : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ومن قبيل : ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ .

فقوله : ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ ، هو عرض الحال إلى الله عز وجل ، بلطيف الإشارة وبكمال الأدب ومنتهى الاسترحام والاستعطاف . ولقد استجاب الله دعائه وحقق رجائه ، وحفظ له أولاده ، وجعلهم من المصطفين الأخيار . فجدير بأهل مكة أن يتصفوا بصفات أهل الخير والكمال ، وأن يكونوا قدوة حسنة للعالم الإسلامي إن شاء الله . وما أحلى قول القاضي تاج الدين بن أحمد من علماء الحرم المتوفى سنة (١٠٦٦هـ) :

من كان بالوادي الذي هو غير ذي زرع وعز عليه ما يهديه
فليهدن ألفاظه الدر التي تحلو فواكهها لكل نبيه

ويؤخذ من آية : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع...﴾ ، أن يدعو الإنسان لأهله وأولاده ومعارفه وأحبابه عند فراقهم بكل خير ، ويتضرع إلى الله عز شأنه أن يحفظهم ويهديهم ، وأن يسهل لهم سبل المعيشة برفاهية تامة .

اللهم إني أسألك أن تيسر لنا أمورنا ، وتنور قلوبنا ، وتصلح أحوالنا ، وترزقنا من فضلك العظيم رزقاً حلالاً واسعاً ، وتسترنا في الدنيا والآخرة ، واحفظنا في أهلنا وأولادنا واجعلهم لنا قرة أعين ، واختم لنا بخير يا أرحم الراحمين آمين ، وصلي اللهم وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ، وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

بيان فضل أهل مكة من الآية الآتية

قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ .

يفهم من هذه الآية الكريمة عناية الله عز وجل وعظيم رحمته وفضله بأهل بلده الأمين " مكة المكرمة " سواء المؤمن منهم أو الكافر . فإن خليل الله إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، لما دعا لأهل مكة بالرزق من الخيرات والثمرات ، خص المؤمنين منهم فقط دون الكافرين والمشركين فقال كما حكى الله تعالى عنه : ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ . لكن الله تبارك وتعالى ، يعامل جميع خلقه وعباده في دار الدنيا باللطف والرحمة والفضل والإحسان ، سواء كانوا من المؤمنين أو من الكفار ، لأنه عز وجل ، هو ربهم وهو الذي خلقهم ، فلو لم يرزق من عباده إلا المؤمنين ، فمن يرزق الكافرين إذاً ، فلما خص خليله إبراهيم ﷺ المؤمنين بالدعاء أجابه العزيز الحكيم الرزاق الكريم بقوله : ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ . أي إنني أمتع الكافرين منهم أيضاً بالنعم والثمرات في دار الدنيا ، فإذا مات على كفره ولم يؤمن ، فإني أضطره وأدفعه في الآخرة إلى عذاب النار وبئس المصير الذي صار إليه .

قال في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحجرها -أي الدعوة- على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله تعالى وما كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ ، رواه ابن مردويه . وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً ، وهذا قوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ۞ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ . انتهى من التفسير المذكور .

فإذا فهمت ما تقدم ، عرفت عناية الله عز وجل وعظيم رحمته بأهل مكة ، وعظيم رحمته وإحسانه عليهم خاصة بمؤمنهم وكافرهم ، وعظيم رحمته وإحسانه بكافة عباده المؤمنين والكافرين عامة . فلو استجاب الله تعالى دعاء خليله إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، حينما قال في الآية المذكورة : ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ لما رزق الله ، تبارك وتعالى ، الكافرين منهم ثمرة واحدة من الثمرات ، فالله عز وجل فضله واسع وإحسانه عميم : ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ .

حكمة جعل مكة كثيرة الألبان واللحوم

والذي يظهر لنا ، والله تعالى أعلم بغيبه ومراده : أن مكة جعلها الله تعالى وهى بلده الأمين ، في واد غير ذي زرع يحيط بها الجبال من جميع الأطراف ، لا يكثر فيها سوى اللحوم والألبان كدعوة إبراهيم عليه السلام لها بذلك ، ولم يجعلها كمصر والشام كثيرة الزروع والثمار تجري من تحتها الأنهار ، لحكمة دقيقة تقصر عن إدراكها الأفهام والعقول ، منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي.

فالحكمة المعنوية أن الوافدين إلى مكة لا يفدن إليها إلا للحج والعبادة فقط امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى ، فليس هناك ما يدفعهم للسفر إليها من المرغبات الدنيوية كالنزهة وترويح النفس بما فيها من الخضرة والبساتين وأنواع الملاهي والمسليات .

ومن الحكمة الحسية الظاهرة : أن الإنسان الذي يقتصر في أكله على الألبان واللحوم ، يكون أقوى بنية وأصح بدناً ممن يكثر الأكل ويخلط تغذيته بأنواع المأكولات والخضروات وينغمس في اللذائذ والمنعمات ، لذلك نرى العرب والبدو والرعاة في القفار والجبال لهم من الصحة والعافية ما ليس لأهل المدن ، كما نرى أنهم لا يعرفون الأمراض المنتشرة في أهل الترف والنعيم ، ولا شك أن الصحة والعافية للإنسان من أعظم نعم الله عز وجل على عباده .

والذي يؤيد صحة نظريتنا هذه ما ذكره ابن خلدون رحمه الله تعالى في مقدمته حيث يقول : (اعلم) أن الأقاليم ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم ، والحنطة والفواكه لزكاء المنابت ، واعتدال الطينة ، ووفور العمران . وفيها

الأرض الحارة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة ، فأهلها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز ، واليمن ، ومثل الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان ، فإن هؤلاء لا يفقدون الحبوب والأدم جملة وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان وقليل من اللحوم ، ومثل العرب أيضاً الجائلون في القفار ، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول ، إلا أن ذلك في الأحايين وعلى الإقلال ، لقلة وجدهم ، فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها ، فضلاً عن الرغد والخصب . وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان ، وتعوضهم عن الحنطة أحسن معاض ، وتجد - مع ذلك - هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالة في جسومهم وأخلاقهم من المنغمسين في العيش : فألوانهم أصفى ، وأشكالهم أتم وأحسن . وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم .

والسبب في ذلك ، والله أعلم أن أكثر الأغذية ورطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة ، ينشأ عنها بعد إفطاره في غير نسبة ، وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ، ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة الغذاء كما قلنا . وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجيء البلادة والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال بالجملة . واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب : من الغزال والنعام والمهام والزرافة والحمر الوحشية والبقر ، مع أمثالها من حيوان الأرياف والمراعي الخصبة ، حيث تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء أديمها ، وحسن رونقها وأشكالها ، وتناسب أعضائها ، ووحدة مداركها . فالغزال أخو المعز ، والزرافة أخو البعير ، والحمار أخو البقر . والبون بينهما ما رأيت . وما ذلك إلا لأن الخصب في الأودية فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة ، والأخلاط الفاسدة ، ما ظهر عليها أثره . والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء .

واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً ، فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم ، وعدم التناسب في أجسامهم ، على عكس المتقشفين في عيشهم ، المقتصرين على الشعير أو الذرة . فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم .

واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله، يظهر حتى في حال الدين والعبادة، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب، بل تجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار، لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر، ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي. وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون، وأخذتهم المجاعات، يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم، مثل أهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات، فلا تنال منهم ما تنال من أولئك، ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر.

وما يتوهمه بعض الناس من أن الجوع مهلك، فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، وقطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حينئذ ينحسم المعاء، ويناله المرض الذي يخشى منه الهلاك. وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً، كما يفعله المتصوفة، فهو بمعزل عن الهلاك.

وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة، فإنه إذا رجع إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك، وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج.

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه. وأن له أثراً في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلنا، انتهى. على كل حال الدنيا لا قيمة لها، وما هي إلا قنطرة للآخرة وسلم إلى الدرجات العلى "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

ومما يناسب هذا المقام، ما جاء في صحيح البخاري في كتاب النكاح، في باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، حديث طويل نذكر منه ما نحن في احتياج إليه هنا للاستشهاد: عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصا على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ حتى حج وحججت معه، وعدل وعدلت معه، بأداوة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ، فقلت له يا أمير المؤمنين... إلى آخر الكلام أي إلى أن قال عمر، فجئت الغلام فقلت:

استأذن لِعمر ، فدخل ثم رجع إلي فقال : قد ذكرتك فصمت ، فلما وليت منصرفاً قال : إذا الغلام يدعوني فقال : قد أذن لك النبي ﷺ ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف ، فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرجع إلي بصره فقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، ثم قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله ، لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم النبي ﷺ ثم قلت : يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها : لا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ يريد عائشة ، فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى ، فجلست حين رأيته تبسم ، فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة ، فقلت : يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله ، فجلس النبي ﷺ ، وكان متكئاً فقال: أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب ، وإن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : يا رسول الله استغفر لي ... إلى آخر الحديث الذي تركنا نقله لعدم الحاجة إليه هنا .

دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأهل مكة بالرزق

قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ وقال في سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

وجاء في تاريخ الأزرقي : عن محمد بن السائب الكلبي قال : قال إبراهيم عليه السلام : ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ فاستجاب الله عز وجل له ، فجعله بلداً آمناً وأمن فيه الخائف

ورزق أهله من الثمرات تحمل إليهم من الأفق، وقال مجاهد : جعل ا لله هذا البلد آمناً لا يخاف فيه من دخله .

قال ابن حيان : إنما اختص إبراهيم في مسألته في الرزق الذين آمنوا ، فقال تعالى : والذين كفروا سأرزقهم مع الذين آمنوا ولكني أمتعهم قليلاً في الدنيا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

نقول ، وصريح الآية المتقدمة الدالة على هذا المعنى التي أولها : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله ... الخ﴾ دليل على سعة فضل ا لله تعالى ، وإحسانه العميم ، ورحمته العظيمة ، فلو اختصت الرحمة والرزق بالمؤمنين فقط ، فمن ذا الذي يرزق الكفرة والمشركين وعبدة الأصنام ، وا لله عز شأنه ، قد خلق هذا الكون على نظام بديع وسنن لا تتبدل ، فالدنيا دار لهو وعمار ، والآخرة دار جزاء وقرار . وقال سعيد بن السائب بن يسار : سمعت بعض ولد نافع بن جبير ، بن مطعم وغيره يذكرون أنهم سمعوا أنه لما دعا إبراهيم لمكة أن يرزق أهله من الثمرات نقل ا لله عز وجل أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك رزقاً للحرم .

وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام ، فوجده غائباً ووجد امرأته الآخرة وهي السيدة بنت مضاض ابن عمرو الجرهمي ، فوقف فسلم فردت عليه السلام واستنزلته وعرضت عليه الطعام والشراب ، فقال : ما طعامكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماء ، قال : هل من حب أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك ا لله لكم في اللحم والماء ، قال ابن عباس رضوان ا لله عليه : يقول رسول ا لله ﷺ لو وجد عندها يومئذ حباً لدعا لهم بالبركة فيه فكانت تكون أرضاً ذات زرع .

قال سعيد بن جبير : ولا يخلي أحد على اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه ، وإن أخلى عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى .

وعن ابن عباس رضي ا لله عنهما ، قال : وجد في المقام كتاب : "هذا بيت ا لله الحرام بمكة توكل ا لله برزق أهله من ثلاثة سبل مبارك لأهله في اللحم والماء واللبن لا يحله أول من أهله" اهـ. ووجد في حجر في الحجر كتاب من خلقة الحجر : "أنا ا لله ذو بكة الحرام وضعتها يوم صنعت الشمس والقمر بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها مبارك لأهلها في اللحم والماء ".

وعنه أيضاً رضي الله عنهما قال : "لما هدموا الكعبة البيت وبلغوا أساس إبراهيم وجدوا في حجر من الأساس كتاباً فدعوا له رجلاً من أهل اليمن وآخر من الرهبان ، فإذا فيه : "أنا الله ذو بكة حرّمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر ويوم صنعت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك حنفاء" .

وعن ابن إسحاق ، أن قريشاً وجدت في الركن كتاباً بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود قال فإذا هو : "أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها مبارك لأهلها في الماء واللبن" .

وعن مجاهد أنه قال : وجد في الزبور "أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها من ثلاثة سبل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طرق من أعلا الوادي وأسفله وكدا وباركت لأهلها في اللحم والماء" .

انتهى كل ذلك من تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى .

نقول : تقدم أن إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، لما دعا لأهل مكة بالرزق من الثمرات ، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك ليأتي منها الثمرات لأهل الحرم . فنحن نرى ، أن نقل الطائف من الشام ليس على حقيقته الواقعية وإنما هو مبالغة وتشبيه حيث إن أرض الطائف وهواءها ليس مثل مكة في درجة حرارتها ، وإنما الطائف بالنسبة لمكة وما حولها كأنها قطعة من الشام في جودة تربتها وصلاحيتها للزروع والثمار ، وبرودة هوائها برودة شديدة ، بل هي المصيف الوحيد لأهل مكة وما جاورها من المواضع من قديم الزمان .

فالطائف قطعة من نفس أرض الحجاز من أصل الخلقة ، بدليل أن الإنسان كلما ارتفع وبعد عن الطائف نحو الحجاز ، كالمواضع الشهيرة بلاد بني سعد وثقيف وناصرة ، وبلاد غامد وزهران ، وبلاد عسير ، وبلاد قحطان ، وجد البرد شديداً والماء عذباً ، ووجد ثماراً كثيرة رخيصة ، وأرضاً طيبة زراعية .

هذا رأينا الخاص والله أعلم بالغيب.

وما تقدم في بعض الروايات : "مبارك لأهلها في اللحم والماء" ، وفي بعضها "في الماء واللبن" ليس فيهما اختلاف في المعنى ، فحيث وجد اللحم وجد اللبن ، وحيث وجد اللبن وجد اللحم .

والحقيقة أن أهل بادية الحجاز والبدو الرحل الذين ينتجعون الكلاء ، لا يعيشون إلا على اللبن واللحم ، فالحب عندهم قليل لا يأكلونه إلا إذا كانوا في المدن .

وهنا نحب أن نشير إلى حكمة دقيقة تتعلق بهذا الفضل وهي: أنه لا يخفى على المسلمين جميعاً ، أن الله تعالى لما فرض الحج خامس أركان الإسلام ، فرض على من ترك واجباً من واجباته الدم ، وهو الفدية من الإبل والبقر والغنم ، ومثل واجبات الحج قطع شجر الحرم أو الصيد فيه ، ففي كل ذلك الفدية أيضاً حسب ما هو مذكور في كتب الفقه . ثم إن من وجب عليه الدم "الفدية" يجب عليه ذبحها في الحرم وتفرقة لحمها على المستحقين فيه أيضاً ، فلا يجوز ذبح الدم الواجب في غير الحرم ، فمن ذبح الفدية بجدة أو غيرها من بلاد الحجاز أو ذبح بمصر أو بالشام أو غيرهما ، لا تسقط عنه الفدية ، وإن كان يجوز أكلها.

فمن أمعن النظر في هذه المسألة ، علم أنها عناية خاصة من الله تعالى بأهل مكة وأهل حرمه ، ورحمة تامة بهم وإحسان عظيم عليهم ، على الدوام في كل عام بدون انقطاع إلى يوم القيامة .

فيجب عليهم معرفة هذه النعمة الكبرى والميزة الخاصة وأن يحافظوا عليها بالحمد والشكر والطاعة لله جل جلاله الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

ومن هنا بارك الله في اللحم والماء . فاللحم لا ينقطع عن مكة مطلقاً ويكثر كثرة زائدة في أيام الحج إلى درجة أن غالب الناس يكرهون اللحم ولا يحبون رائحته ، وهذه الحال لا تكون إلا في مكة المشرفة فقط دون جميع بلدان العالم . وأن أطراف مكة وجبالها إلى مسافات بعيدة ممتلئة من الأنعام يرعون الكلاء والحشيش على الدوام ، وبذلك يكثر اللبن والجبن والسمن والزبدة.

وأما الأرزاق والثمار ففي مكة أضعاف أضعاف ما يتصوره العقل على صغر رقعتها وكثرة وفود الحجاج إليها كل عام ، بل إن فيها من الأقمشة والأمتعة

ولوازم الإنسان الضرورية والكمالية ما يجعل الغريب الوارد إليها في دهشة وتعجب وهذا الحجيج الأعظم يحمل منها في كل سنة من الهدايا ما لا يدخل في حساب .

وأما البركة في الماء : فهذا أمر مشاهد ملموس لا يحتاج إلى دليل ، فإن قيل أن سيدنا إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، دعا بالبركة في اللحم والماء باعتبار زمانه ، قلنا إن دعوته منسحبة إلى يوم القيامة ، ثم إنه كان الماء في زمانه من بئر زمزم ، التي أخرجها الله تعالى لابنه إسماعيل عليه السلام ، ولم تكن بمكة غيرها ، فبسبب دعائه ، عليه الصلاة والسلام ، جعل الله البركة في بئر زمزم ، فهي عامرة بالماء الشافي من زمانه ﷺ إلى اليوم بل إلى يوم القيامة . وببركة هذا الدعاء المستجاب ، الماء في مكة وأطرافها متوفرة والآبار بها كثيرة ، وهذه عين زبيدة ، والعين العزيزية ، والعيون الأخرى ، تمد مكة ومن قصد مكة من الآلاف المؤلفة من الحجيج الذين يأتون إليها من كل فج عميق في كل سنة وكل عام ، وهل اهتمام الملوك والسلاطين والأمراء السابقين واللاحقين في ماء مكة وتقوية العيون والآبار ، إلا من بركة دعاء أبي الأنبياء إبراهيم الخليل ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآلهم أجمعين .

فمن سرح نظره بعيداً إلى زمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أي إلى نحو أربعة آلاف سنة ، يرى أن مكة كانت وادياً حل غير ذي زرع ، ولم يكن بها غير نفر من قبيلة جرهم . ثم نظر إليها في هذا العصر الحديث ، الذي نحن فيه ، يرى بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً ، كما بين السماء والأرض.

اللهم ارزقنا رزقاً حلالاً بدون تعب ولا نصب ، وأنزل علينا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض ، وألهمنا الرشد والصواب ، ووفقنا لحمدك وشكرك وحسن عبادتك ، حتى تحفظ لنا ما أنعمت به علينا ، وحتى تميتنا على الإسلام وأنت راض بفضلك ورحمتك ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مكة وما فيها من الخيرات

قال ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة ، يصف ما في مكة المكرمة من الخيرات والبركات . ما يأتي:

هذه البلدة المباركة، سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية وذلك أن الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله ﷺ: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾، وقال عز وجل: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾. فبرهان ذلك ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كل مكان فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومتاجر، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه يجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة، كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمنية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط مما لو فرق على البلاد كلها، لأقام لها الأسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها الشريفة التي خصها الله بها.

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار، إلى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة. وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ، لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره. ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، العجب من ذلك يطول، ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل العجيب وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليه فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل

اللباب . ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض الغلو ، كلا لعمر الله ، إنه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت . وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل ، يعرف عندهم بالمسعودي . وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب وكلما يصنع منها من السمن فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ، ويجلب إليها قوم من اليمن يعرفون (بالسرو) نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر في نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيراً . وبها قصب السكر أيضاً كثيراً ، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها ، والسكر بها كثير مجلوب ، وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله .

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ، وفي الأشهر الثلاثة ، رجب وشعبان ورمضان ، يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظر منها لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وجليت في منصات كأنها العرائس ، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزهار حسناً ، فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار . وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب على نواحي الأقطار إنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا ، وما ذاك والله أعلم إلا لبركة مراعيها ، هذا على إفراط سمنه ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن ، للفظته الأفواه ودكا ، ولعافته وتجنبته ، والأمر في هذا بالضد كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة ، والنفس له قبولاً ، فتجده هنيئاً رخيصاً يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغاً ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً . وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة ، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه ، والخبر عنه يضيق عن الخبر له ، والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام ، وتمنى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الكرام ، بعزته وقدرته .

وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف ، وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة ، ومن قرى حولها ، وأقرب هذه المواضيع يعرف بالهدى ، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلاً ، وهو من بطن الطائف ويحتوي على قرى كثيرة ، ومن بطن مر وهو على مسيرة يوم أو أقل من نخلة ، وهي على مثل هذه المسافة ، ومن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها ، قد جلب الله إليها من

المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة ، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات ، وذلك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم ، وبلده الأمين . ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ، ولا سيما لكوننا لم نعهده الرطب ، وهو الذي عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجرة يجنى ويؤكل ، وهو في نهاية من الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به ، وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ، ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع ... إلى آخر كلامه . انتهى من رحلة ابن جبير.

ما يزرع في الحجاز

يزرع بالحجاز جميع الحبوب والفواكه والخضار ، ويأتي كل ذلك إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، بواسطة الجمال والحمير والسيارات ، فمما يزرع بالحجاز :

الحنطة ، والشعير ، والذرة بنوعيها ، والنخل ، والعنب ، والرمان ، والتوت ، والتفاح ، والموز ، والكمثرى ، والتين ، والجوافة ، والسفرجل ، والليمون الحامض ، والليمون الحلو ، والترنج ، والبرتقال ، واليوسفي ، والخوخ ، والبطيخ الأخضر ، والبطيخ الأصفر ، والعناب ، واللوز ، والخيار ، والقثاء ، والبامية ، والدباء ، والكوسة ، والقرع الكبير الحلو ، والملوخية ، والبرسيم ، والرجلة ، والسبانخ ، والجزر ، والبطاطا ، والباذنجان الأسود ، والباذنجان الأحمر ، "القوطة" ، والبصل ، والثوم ، واللفت ، والفاصولية الخضراء ، والفجل ، والكراث ، والبقدونس ، والكزبرة الخضراء ، والشبت ، والكرفس ، والفول الأخضر بنوعيه ، والكرنب ، والفلفل بجميع أنواعه ، وغير ذلك .

كما يزرع أيضاً: السنامكي ، والحناء ، والبلسان ويستخرج منه الزيت ، وزهرة الضرم ، وشيع البقر ، والنعناع البري والبستاني ، والبردقوش ، والورد ، والكادي ، والياسمين ، وأنواع الرياحين والمشمومات ، وأشجار الظلال كالنبق ، والنيم ، والتمر هندي ، وأشجار الزينات بأشكالها المختلفة وتزرع في حدائق المنازل والبيوت .

وبالحجاز أيضاً جميع أنواع الطيور والدواجن . كالدجاج ، والأوز ، والبط ، والحمام ، واليمام ، والعصافير ، والأرانب ، والطيور المختلفة الأشكال ، والغراب ، والنسر ، والصقر ، والحداء ، والنحل ويؤخذ منه أنواع العسل ، والجراد ، وغير ذلك . ويؤكل الجراد في الحجاز بكثرة جداً .

وبالحجاز أيضاً من الحيوانات : الخيل ، والبغال ، والحمير ، والجمال ، والبقر ، والغنم بنوعيه الماعز والخرفان ، والغزلان ، والقرود بشتى الأنواع ، والقطط ، والكلاب بنوعيها كلاب الصيد وكلاب الشوارع .

ويوجد بالحجاز من الحيوانات الكاسرة : الأسد ، والفهد ، والنمر ، والجعير وهو الذي يفترس الحمير ، والذئب ، وابن آوى "أبو الحصين" ولا يوجد بالحجاز الفيل ، والجاموس ، والكركدن ، ونحوها وهذه الحيوانات المفترسة تعيش في البراري والجبال بعيداً عن المدن .

والحيوانات التي يؤكل لحمها : ترعى مما ينبت في الأرض من الأعشاب والحشائش ، ومن العجيب أن الجمال ترعى في الفلاة من أشجار الشوك ولا تضره ، فلا تنغرز الأشواك في فمها وألسنتها مطلقاً ، بل تكون كقطعة العجين في فمها وهي تحبها حباً جماً ، وتفيدها فائدة كبيرة ويكون للبنها ولحمها طعماً لذيذاً ، والعرب تعتز بخيلها وإبلها وتعدها من كرائم الأموال . ويحبونها حباً جماً ويتفننون في تربيتها وتدليلها ، وهم أعرف الناس بطباعها وأخلاقها ، ولا يزال العرب على ذلك إلى اليوم .

لماذا لم تكن مكة من أجمل البلدان وأغناها

وضع الله مكة المشرفة في وسط الجبال تحيط بها من جميع جهاتها ، وجعل تربتها غير صالحة للزرع والنبات ، وبهذا صرح إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كما حكى الله تعالى عنه في سورة إبراهيم : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ .

ورب قائل يقول : لماذا لم يجعل الله بلده الأمين ، تحف به الجنان والبساتين ، وتكون فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين . كالشام ومصر وغيرهما من البلدان ، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

فنقول : لم يجعله كذلك ، ليكون قاصده مخلصاً في عبادة الله ، لا يشرك فيها التنزه والتفسح وغيرهما ، وأيضاً أن الدنيا كلها ، لا قيمة لها عند الله تعالى ، ولو كانت لها قيمة عنده ، لما سقى الكافر منها شربة ماء كما جاء في الأثر ، وفي الحقيقة أن الكفار يتمتعون في الدنيا أكثر من المؤمنين . فلماذا يزينه الله بشيء حقير لا قيمة له .

ومن يطلع على أحوال أنبياء الله ورسله ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى أحوال الصحابة والعلماء العاملين والأتقياء الصالحين ، يجد أنهم في شظف من العيش وضيق من الدنيا ، ولقد خرج رسول الله ﷺ منها و لم يشبع من خبز الشعير .

دخل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه على رسول الله ﷺ يوماً فوجده مضطجعاً على حصير وقد أثر في جنبه الشريف ، قال : فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة ، وإذا أفيق معلق . قال : فابتدرت عيناي ، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قلت : يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك ، فقال رسول الله ﷺ : "يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا - يعني الروم والفرس - قال عمر : قلت بلى" .

فهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في أربعة مواضع ، وأخرجه مسلم أيضاً في صحيحه عن عمر بأربع روايات معناها واحد ، وإن اختلفت ألفاظها غالباً . والأفيق بفتح الهمزة وكسر الفاء الجلد الذي لم يتم دباغه ، والقرظ ورق السلم يدبغ به .

فانظر رحمك الله تعالى إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين الأخيار ، ما كانوا ينظرون إلى الدنيا أبداً ، وما كانوا يتبلغون منها إلا بقدر ضرورة الحياة ، لأنها عرض زائل والآخرة خير وأبقى .

فمن هنا تعلم أن الله تعالى ، لم يجعل الأمين الذي فيه بيته المطهر ، وسط الجنان والأنهار ، تحف به الزروع والثمار ، على أنه سبحانه وتعالى ، قد خص مكة بأنواع الشرف وفضلها على جميع البلدان وجعل من دخلها في أمن وأمان ، وجعل خليله إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، يدعو لها بالأمن والرزق والخير ، وجعلها

بلدة أكرم أنبيائه محمد ﷺ ، كما جعلها مهبط الملائكة والأنبياء ، ومنبع الدين الحنيف ، ومكان نزول القرآن الشريف ، ومقر الأتقياء والصالحين والعلماء المختبين ، وجعل خامس أركان الإسلام ، وهو الحج ، لا يكون ولا يتم إلا فيها ، ولا يدخلها القادمون والحجاج إلا محرمين ومجردين .

هذه الميزات الخاصة والشرف الرفيع ، رفعت منزلة "مكة" إلى أعلا درجة في قلوب المؤمنين ، لذلك تراهم ينجذبون إليها من كل فج عميق ، وإن كانت واقعة وسط الصحراء والجبال ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وما بقي لأهلها الصالحين الأتقياء ، المستمسكين بالشريعة الغراء ، كان أعظم وأجل يستوفونه إن شاء الله تعالى يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله العفو والعافية ، والتوفيق والرضا ، والختم على الإيمان الكامل ، إنه سميع مجيب ، وبعباده لطيف خبير ، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

نشأة عبادة الأصنام بمكة

جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ابن إسحاق أن بني إسماعيل وجرهم من ساكني مكة ، ضاقت عليهم مكة فتفسحوا في البلاد والتمسوا المعاش ، فيزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة ، حيث ما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم ، إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ، وانتحوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي منهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل ، يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة ، وهدي البدن ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه ،

وكان أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل ونصب الأوثان، وسيب السائبة، وبحر البحيرة ووصل الوصيلة، وحمى الحام: عمرو بن لحي.

حدثنا جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرني ابن جريج قال: قال عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه - يعني أمعاءه - في النار، على رأسه فروة، فقال له رسول الله ﷺ: من في النار، قال: من بيني وبينك من الأمم. وقال رسول الله ﷺ: هو أول من جعل البحيرة والسائبة والوصيلة، والحام، ونصب الأوثان حول الكعبة وغيّر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. انتهى من الأزرقي.

ومعنى السائبة: قيل كان الرجل إذا قدم من سفر أو شفي من مرض يسيب بعيراً يرعى ويرد الماء ولا يركبه أحد، والبحيرة بنت السائبة، وقيل البحيرة هي الناقة التي تنتج خمسة أبطن في آخرها ذكر، فتشق أذنها وتترك فلا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن مرعى ولا ماء، وإذا لقيها الضعيف لم يركبها.

والوصيلة هي الشاة إذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم.

والحام الفحل يولد لولد ولده فيقولون قد حمي ظهره فلا يركب ولا يستعمل ولا يطرد عن مرعى ولا ماء.

وقد اختلف أهل اللغة في معنى هذه الأشياء عند العرب اختلافاً كثيراً فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع كتب التفسير.

وأن هذه الأشياء من وضع الجاهلية وليس من الله تعالى كما هو صريح قوله في سورة المائدة: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾.

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بأخرى ليس بينهما ذكر، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شيء وسموه الحامي. انتهى.

قال الأزرقي : عمرو بن لحي : هو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعي ، وهو الذي غيّر دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، كان فيهم شريفاً سيداً مطاعاً ، يطعم الطعام ويحمل المغرم ، وكان ما قال لهم فهو دين متبع لا يعصى ، وكان إبليس يلقي على لسانه الشيء الذي يغير به الإسلام فيستحسنه فيعمل به فيعمله أهل الجاهلية وهو الذي جاء بهبل من أرض الجزيرة فجعله في الكعبة ، وجعل عنده سبعة قداح يستقسمون بها ، في كل قدح منها كتاب يعملون بما يخرج فيه فإذا أراد الرجل أمراً أو سفراً أخرج منها قدحين في أحدهما مكتوب أمرني ربي ، وفي الآخر نهاني . ثم يضرب بهما ، ومعهما قدح غفل فإن خرج الناهي جلس ، وإن خرج الآمر مضى ، وإن خرج الغفل أعاد الضرب حتى يخرج إما الناهي وإما الآمر .

ثم قال بعد بضعة أسطر : وكان عمرو بن لحي غيّر تلبية إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . بينما هو يسير على راحلته في بعض مواسم الحج وهو يلبي إذ مثل له إبليس في صورة شيخ نجدي على بعير أصهب ، فسايره ساعة ثم لبى إبليس ، فقال : لبيك اللهم لبيك ، فقال عمرو بن لحي مثل ذلك ، فقال إبليس : لبيك لا شريك لك ، فقال عمرو : مثل ذلك فقال إبليس : إلا شريك هو لك ، فقال عمرو : وما هذا ؟ قال إبليس لعنه الله : إن بعد هذا ما يصلحه إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فقال عمرو بن لحي : ما أرى بهذا بأساً ، فلباها . فلبى الناس على ذلك . وكانوا يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا هو لك ، تملكه وما ملك . فلم تزل تلك تلبيتهم حتى جاء الله بالإسلام ، ولبى رسول الله ﷺ تلبية إبراهيم الصحيحة لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك فلباها المسلمون. انتهى من الأزرقي .

وجاء في تاريخ الخميس ما نصه : وفي سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق ، ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى اشتهر ذلك فيهم ، إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم

وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم السابقة من الضلالات ، ومنهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، بقول الله تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ . وقد كان لقوم نوح أصنام قد عكفوا عليها قال الله تعالى : ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾.

فكأن الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم ، وسموا بأسمائها حين فارقوا دين إسماعيل : هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، اتخذوا سواعاً فكان لهم برهاط ، وكلب ابن وبرة من قضاعة اتخذوا وداً بدومة الجندل ، وأنعم من طيء وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش ، وحيوان - بطن من همدان - اتخذوا يعوق بأرض همدان من اليمن ، وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسراً بأرض حمير . وكانت قريش قد اتخذوا صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل واتخذوا إسافاً ونائلة في موضع زمزم ، ينحرون عندهما . وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم ، هو إساف بن بغي ونائلة بنت ديك . فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجابها بني معتب من ثقيف ، وكانت مناة للأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب على البحر من ناحية المعتلل بقديد ، هذا ما في سيرة ابن هشام . وفي أنوار التنزيل والمدارك : العزى سمرة وأصلها تأنيث الأعز .

وفي المنتقى : العزى كانت بنخلة لقريش وجميع بني كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم ، وسدنتها بنو شيبان . وقد اختلفوا في العزى على ثلاثة أقوال : أحدها أنها كانت شجرة لغطفان يعبدونها قاله مجاهد ، والثانى أنها صنم قاله الضحاك ، والثالث أنها بيت في الطائف كانت تعبده ثقيف قاله ابن زيد.

وفي معالم التنزيل : العزى صنم اشتقوا لهما اسماً من العزيز . فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ليقطعها ، فجعل خالد يضربها بالفأس ويقول : يا عزى كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك . فخرجت منها شيطانة ناشرة

شعرها داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها . ويقال إن خالداً رجع إلى النبي ﷺ وقال له : قد قلعتها . قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : ما قلعت .

وفي رواية قال : إنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها . فعاد إليها خالد متغيظاً ومعه المعول ، فقلعها واستأصلها ، فخرجت منها امرأة عجوز عريانة سوداء ثائرة الرأس ، فجعل السادن يصيح ، فسلّ خالد سيفه فضربها فقتلها ، وجزها باثنتين ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك ، فقال : نعم تلك العزى ولن تعبد أبداً .

وفي رواية : وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً . وقال الضحاك : كان أصل وضع العزى لغطفان أن سعد بن ظالم الغطفاني قدم مكة ورأى الصفا والمروة ، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما ، فعاد إلى بطن نخلة وقال لقومه : إن لأهل مكة الصفا والمروة ، وليسا لكم . ولهم إله يعبدونه وليس لكم . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أنا أضع لكم كذلك . فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، ونقلهما إلى نخلة ، فوضع الذي أخذ من الصفا فقال : هذا الصفا ، ووضع الذي أخذ من المروة فقال : هذه المروة . ثم أخذ أحجار فأسندها إلى شجرة فقال : هذا ربكم . فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة الثلاثة ، وسموها العزى ، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها .

وفي رمضان هذه السنة بعث عمرو بن العاص إلى تخريب سواع ، هو صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة ، قال عمرو : فانتهيت إليه وعنده السادن . فقال : ما تريد ؟ فقلت : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه . قال : لا تقدر . قلت : لم ؟ قال : تمنع . قلت : ويحك هل يسمع أو يبصر ؟ فكسرته فأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت و لله رب العالمين .

وفي مزيل الخفا روي أنه كان لآدم عليه السلام خمس بنين يسمون نسراً ووداً وسواعاً ويغوث ويعوق ، وكانوا عباداً فماتوا ، فحزن أهل عصرهم عليهم ، فصور لهم إبليس أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم ، فجعلوها في مؤخر المسجد . فلما هلك أهل ذلك العصر قال إبليس لأولادهم : هذه آلهة آبائكم فعبدوها بعدهم ، ثم إن الطوفان دفنها فأخرجها اللعين للعرب ، فكانت ود لكلب بدومة الجندل ، وسواع لهذيل بساحل البحر ، ويغوث لغطفان من مراد ثم لبني غطيف

بالحوف ، وفي القاموس غطيف كزبير حي من العرب أو قوم بالشام ، والحوف موضع بأرض مراد ، ويعوق لهمدان ، ونسر لذى الكلاع وحمير .

وفي المدارك : ود صنم على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . ويروى أن سواعاً لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد . كذا في معالم التنزيل وأنوار التنزيل والمدارك .

وفي معالم التنزيل كانت للعرب أصنام أخر : فاللات كانت لثقيف اشتقوا لها اسماً من أسماء الله تعالى ، قال قتادة : كانت اللات بالطائف ، وقال ابن زيد: بيت بنخلة لقريش تعبده . قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح : بتشديد التاء . وقالوا كان رجلاً يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، وكان ببطن نخلة .

وفي القاموس سمي بالذي يلت السويق للحاج بالسمن ثم خفف . والعزى لسليم وغطفان وجشم ، ومناة لخزاعة وكانت بقديد ، قاله قتادة .

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها في أنصار من كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد . وقال ابن زيد : بيت بالمشلل يعبده بنو بكر . وقال الضحاك : مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة . وقال بعضهم اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة ، وكانت في جوف الكعبة يعبدونها ، وأساف ونائلة وهبل لأهل مكة .

وفي رمضان من هذه السنة حين فتح مكة بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة صنم للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على البحر من المشلل بقديد ، كذا في سيرة ابن هشام . وفي القاموس مشلل كمعظم جبل يهبط منه إلى قديد . وفي خلاصة الوفا ثنية تشرف على قديد كان بها مناة الطاغية . وفي أنوار التنزيل هي صخرة كانت لهذيل وخزاعة وثقيف وهي فعلة من مناة إذا قطعة فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين ومنه منى فخرج سعد في عشرين فارساً حتى انتهى إليها قال السادن : ما تريد؟ قال : هدمها . قال : أنت وذاك . فأقبل سعد يمشي إليها ، فخرجت منه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فضربها سعد بن زيد فقتلها وانتقل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه وانصرفوا راجعين إلى النبي ﷺ . انتهى من تاريخ الخميس .

مسخ إساف ونائلة في الكعبة وعبادتهما

قال الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : حدثني محمد بن إسحاق : أن جرهم لما طغت في الحرم دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ، ففجر بها ، ويقال إنما قبلها فيها فمسخا حجرين ، اسم الرجل إساف بن بغاء ، واسم المرأة نائلة بنت ذئب فأخرجا من الكعبة فنصب أحدهما على الصفا، والآخر على المروة ، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التي صارا إليها ، فلم يزل الأمر يدرس ويتقادم حتى صار بمسحان يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ثم صارا وثنين يعبدان.

فلما كان عمرو بن لحي أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما وقال للناس : إنّ من كان قبلكم كان يعبدهما ، فكانا كذلك حتى كان قصي بن كلاب ، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة ، فحولهما ، من الصفا والمروة ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم . ويقال : جعلهما جميعاً في موضع زمزم ، وكان ينحر عندهما . وكان أهل الجاهلية يمرون بإساف ونائلة ويتمسحون بهما ، وكان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بإساف فيستلمه ، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح فكسرها رسول الله ﷺ مع ما كسر من الأصنام .

حدثني محمد بن يحيى المديني عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى ، عن ابن حزم عن عمرة أنها قالت: كان إساف ونائلة رجلاً وامرأة ، فمسخا حجرين ، فأخرجا من جوف الكعبة ، وعليهما ثيابهما ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر عند زمزم ، وكان يطرح بينهما ما يهدي للكعبة ، ويقال أن ذلك الموضع كان يسمى (الحطيم) وإنما نصبا هنالك لعتبر بهما الناس . فلم يزل أمرهما يدرس حتى جعلا وثنين يعبدان ، وكانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهما ثياباً ، ثم أخذ الذي بلصق الكعبة ، فجعل مع الذي عند زمزم ، وكانوا يذبحون عندهما ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث ، ففي ذلك يقول الشاعر بشر بن أبي حازم الأسدي أسد خزيمة :

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إساف

حدثني جدي قال حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال أخبرني ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر ، عن علي بن عبدالله بن عباس قال : لقد دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وإن بها ثلاثمائة وستين صنماً قد شدها إبليس بالرصاص . وكان بيد رسول الله ﷺ قضيب ، فكان يطوف عليها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . ثم يشير إليها بقضيبه فتتساقط على ظهورها .

حدثني جدي ، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر ، عن عبدالله ابن مسعود قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد. حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عبد العزيز بن عمران عن محمد بن عبد العزيز عن ابن شهاب عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، منها ما قد شد بالرصاص فطاف على راحلته وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . ويشير إليها فما منها صنم أشار إلى وجهه إلا وقع على دبره ، ولا أشار إلى دبره إلا وقع على وجهه ، حتى وقعت كلها .

وقال ابن إسحاق : لما صلى النبي ﷺ الظهر يوم الفتح أمر الأصنام التي كانت حول الكعبة كلها فجمعت ثم حرقت بالنار وكسرت ، وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثي في ذكر يوم الفتح :

إذا ما رأيت محمداً وجنوده ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أصبح بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

حدثني جدي عن محمد بن إدريس عن الواقدي عن ابن أبي سبرة عن حسين بن عبدالله بن عباس عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ما يزيد رسول الله ﷺ على أن يشير بالقضيب إلى الصنم فيقع لوجهه . فطاف رسول الله ﷺ سبعاً على راحلته ، يستلم الركن الأسود بمحجنه ، فلما فرغ من سبعة نزل عن راحلته ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام ، وجاءه معمر بن عبدالله بن فضلة فأخرج راحلته والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه ، فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً . فنزع له

العباس بن عبدالمطلب دلواً فشرب ، وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك . فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا بن العوام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

حدثني جدي ، عن محمد بن إدريس عن الواقدي ، عن أشياخه : قالوا كان إساف ونائلة رجلاً وامرأة ، الرجل إساف بن عمرو ، والمرأة نائلة بنت سهيل من جرهم . فزنيا في جوف الكعبة ، فمسخا حجرين فاتخذوهما يعبدونهما . وكانوا يذبحون عندهما ويحلقون رؤوسهم عندهما إذا نكسوا ، فلما كسرت الأصنام كسرا . فخرجت من أحدهما امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها ، عريانة ناشرة الشعر ، تدعو بالويل . فقيل لرسول الله ﷺ في ذلك . فقال : تلك نائلة قد أيست أن تعبد ببلادكم أبدا . ويقال : رن إبليس ثلاث رنات ، رنة حين لعن فتغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنة حين رأى رسول الله ﷺ قائماً بمكة يصلي ، ورنة حين افتتح رسول الله ﷺ مكة . فاجتمعت إليه ذريته ، فقال إبليس : ايئسوا أن تردوا أمة محمد على الشرك بعد يومهم هذا أبداً ، ولكن أفشوا فيهم النوح والشعر .

وذكر الواقدي عن أشياخه قال : نادى منادي رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة : من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن في بيته صنماً إلا كسره . فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام.

قال : وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره ، وكان أبو تجارة يعملها ويبيعها ، ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم .

وقال الواقدي : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن سليمان بن سحيم عن بعض آل جبير بن مطعم ، عن جبير بن مطعم قال : لما كان يوم الفتح نادى منادي رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يتركن في بيته صنماً إلا كسره وأحرقه ، وثمنه حرام . قال جبير : وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يطاف بها مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم ، وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم ، إذا دخل يمسحه ، وإذا خرج يمسحه تبركاً به .

وقال الواقدي : وأخبرنا عبدالرحمن بن أبي الزناد ، عن عبد الحميد بن سهيل قال : لما أسلمت هند بنت عتبة جعلت تضرب صنماً في بيتها بالقدوم فلذة فلذة وهي تقول : كنا منك في غرور . انتهى من الأزرقي .

أول من نصب الأصنام في الكعبة

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي أحمد بن محمد قال حدثنا سعيد بن سالم القداح عن عثمان بن ساج قال : أخبرني محمد بن إسحاق قال : إن البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها ، وكان عمقها ثلاثة أذرع ، يقال إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ليكون فيها ما يهدى للكعبة . فلم تزل كذلك حتى كان عمرو بن لحي ، فقدم بصنم يقال له : هبل من هيت من أرض الجزيرة ، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها ، فنصب على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده ، وهبل الذي يقول له أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل -أي أظهر دينك- فقال النبي ﷺ : الله أعلى وأجل .

وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة (الأخسف)، وكانت العرب تسميها (الأخشف).

قال محمد بن إسحاق : كان عند هبل في الكعبة سبعة قداح كل قدح منها فيه كتاب . قدح فيه (العقل) إذا اختلفوا في العقل من يحمله ضربوا بالقداح السبعة عليهم ، فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله . وقدح فيه (نعم) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القداح ، فإن خرج قدح فيه نعم عملوا به . وقدح فيه (لا) فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر ، وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيث ما خرج به عملوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب

القداح : اضرب . فإن خرج عليه منكم كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه من غيركم كان حليفاً ، وإن خرج عليه (ملصق) كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف ، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعلمون به (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القداح ، وبذلك فعل عبد المطلب بابنه حين أراد أن يذبحه .

وقال محمد بن إسحاق : كان هبل من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فرجعت له يداً من ذهب ، وكانت له خزانة للقربان ، وكانت له سبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح ، وكان قربانه مائة بعير ، وكان له حاجب ، وكانوا إذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا :

إنا اختلفنا فهب السراحا ثلاثة يا هبل فصاحا

الميت والعذرة والنكاحا والبرء في المرضى والصحاحا

إن لم تقله فمر القداحا.

انتهى من الأزرقي:

الكلام على أصنام قريش التي كانت حول الكعبة

لقد بسطنا القول فيما تقدم عن أصنام قريش التي كانت حول الكعبة المشرفة بما فيه الكفاية ، وهنا نحب إعادة ذكر الأصنام على صورة الحكاية صاغه بقلمه البليغ نابغة العصر وأديب مصر "الدكتور طه حسين" في الجزء الثاني من كتاب "على هامش السيرة" عند الكلام على مناقشة شباب قريش مع صاحب الحان الخمار الرومي ، فقد قال بعد أن ذكر ما دار بينهم من المناقشات الأولية ما يأتي:

قال الخمار الرومي لأصدقائه من شباب قريش : "عزيز عليّ أن ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور ، وقد عودتكم أن أكون لكم مكرماً ، وبكم حفياً . وعزيز عليّ أن أقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التي كنت أسابقكم إليها فأسبقكم ، وأنازعكم استمتاع بها فأكون أوفركم منه حظاً وأعظمكم منه نصيباً . وعزيز علي أن يعديكم هذا الفتور ويبلغكم هذا القصور ، فتصدون عما تحبون

وتصرفون عما تألفون . ولكن ثقوا أني لم أقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفعت إليه مكرهاً عليه" .

قال صفوان بن أمية :" فإنا ما نشك في أنك لم تلقنا بهذا الإعراض والفتور إلا وقد عرض لك من الأمر ما اضطرك إلى ذلك . وقد عودناك أن نفضي إليك بأسرارنا وجلية أمورنا ، لا نخفي عليك منها شيئاً . فأفض إلينا بدخيلة نفسك وجلية أمرك ، فلعلنا أن نكون عندما تحب من المعونة لك والترفيه عليك" .

قال صاحب الحان : "فإني أخشى أشد الخشية ألا تملكوا لي من هذا الأمر الطارئ شيئاً" .

قال صفوان : "إنك ضيفنا وجارنا وصديقنا ، وصاحب لذتنا وشريكنا في هذه اللذة . فلسنا لقريش إذا أن بخلنا عليك بالمعونة ، أو آثرنا أنفسنا بالأمن والراحة والنعيم من دونك. وإنك لتعرف من قريش قراها للضيف ، ووفاءها للجار ، وبرها بالصديق ، وأداءها للحقوق" .

قال صاحب الحان : "فإن هذا الأمر الطارئ ليس مما تظنون في شيء ، وإني لا أدري كيف أباديكم به وأتحدث إليكم فيه . ولو أن الذي عرض لي كان مما تعودتم أن تردوه عن الضيف والجار والصديق لما أبطأت في أنبائكم به وإظهاركم عليه. ولكنه لون آخر من الأمر لم تتعودوا أن تروه ، وضرب آخر من الخطب لم تتعودوا أن تشهدوه . وما أدري أتفهمون علي إن تحدثت إليكم بما عرض لي ! وما أدري أترضون إن فهمتم ما ألقي إليكم من الحديث أم تسخطون ! فإنه أمر غريب حقاً ! غريبا حقاً !" ثم أطرق الرومي وترك هؤلاء الفتيان من شباب قريش وقد أخذهم شيء يسير من الوجوم بهذا الحديث الغريب ، وجعلوا يتقارضون فيما بينهم ألحاظاً قصاراً سراعاً . ثم رفع الرومي إليهم رأسه ، فلما رآهم على هذه الحال ابتسم لهم رفيقاً بهم ، وقال في صوت هادئ بعيد : "ما أحب لكم أن تصرفوا عن أمر لذتكم إلى هذا الأمر الذي ما آراه يعنيكم من قريب أو بعيد ، فعودوا إلى ما كنتم فيه موفورين . ولو استطعت لشاركتكم في اللهو ، ولأعنتكم عليه ، ولكن نفسي محزونة منذ الليلة حقاً".

قال صفوان : "فإنا لن نتحول عنك إلى لذتنا ، ولن ننصرف عنك إلى بيوتنا حتى نعلم علمك ، وحتى نرى أقادرون نحن على أن نعينك أم عاجزون عن أن

نبلغ من ذلك بعض ما نريد . فاقصص علينا أمرك ولا تبطئ ، فإنك قد شوقتنا إلى حديثك هذا الذي تخفيه فتمعن في إخفائه ، وتلتوي به علينا أشد الالتواء" .

قال الرومي :"إني لا أخفي عليكم شيئاً ، ولا ألتوي عليكم بشيء ، ولكني أدير هذا الأمر في نفسي ولا أعرف كيف أباديكم به" .

قال صفوان وهو يتكلف الضحك: "فبادنا به كيف شئت وعلى أي وجه أحببت ، فإني أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشق عن صدرك لنرى ما يضطرب فيه من عاطفة ، ونشج رأسك لنظهر على ما تدير فيه من رأي وما تجيل فيه من حديث" .

قال الرومي وهو يبتسم :"ما أوفاكم إذاً للجار ، وأرعاكم إذاً للصديق !" .

قال صفوان :"فإنك مظهرنا على أمرك طائعاً أو كارهاً ، فقد طال منكم الصمت ، وطال منا الإلحاح ، وقد تقدم الليل ، وإنا خليقون أن نبقى حولك حتى يدركنا الصبح نسألك ونلح عليك ، فأرح نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح" .

قال الرومي وهو يظهر تردداً شديداً ، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يقدم على أمر عظيم : "فإن الأمر الذي أهمني لا يتصل بي وإنما يتصل بكم" .

قال صفوان : "فذلك أجدى أن تبادينا به وتظهرنا عليه !".

قال الرومي :"فإنه لا يتصل بحياتكم حين تأوون إلى بيوتكم ، أو تهرعون إلى هذا الحانوت أو تضطربون في الأرض ، وإنما يتصل بآلهتكم" .

ولم يكد هؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل ، ثم سكت عنهم الضحك بعد حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، في شيء غريب من الفرح والمرح ، وفي إشارة إلى الغلام أن يملأ أقداحهم . ثم نظر صفوان إلى صديقه الرومي نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال : "قد كنا نحسب أن التفكير في الآلهة والحديث عنهم أمر مقصور على نفر من قريش تقدمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة ، وفرغوا لهذا العبث ، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس ان يخوضوا فيه . ولكن الأمر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش إلى جيراننا من الروم . أو مستك العدوى إذاً؟ أو جعلت تصبوا إلى ما يصبو إليه هؤلاء النفر من شيوخنا ، وتحرص على أن تمتاز بما يمتازون به من التحرج والتكلف ، وإنفاق الجهد فيما لا ينبغي أن ينفق فيه

الجهد؟ ! لقد جفت حلوقنا يا غلام ، فأسرع إلى هذه الأقداح فاملأها ، وأسرع إلى مولاك بشيء من شراب ، فما نرى إلا أن نفسه قد ظمئت ، وما نرى إلا أن ظمأ نفسه قد اضطرها إلى هذا الحديث" .

قال الرومي : "أما إنك قد قلت الحق وأنت لا تدري ! فإن نفسي لظمئة ، وإن ظمأها لأشد مما تظن" .

قال صفوان : "تظمأ وعندك أكرم ما جادت به بيسان من نبيذ!" .

قال الرومي : "ما صدفت نفسي قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن . إني لشديد الظمأ ولكن إلى شيء آخر ما أرى أنكم تفقهونه أو تفطنون له" .

قال صفوان وهو مغرق في الضحك : "إنك لظمئ إلى ما كانت تظمأ إليه نفس زيد بن عمرو ، فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به ، ولم ترو ظمأها باليقين ، وإنما روته بهذا الدم الزكي الذي لم تثأر له بعد ، والذي لا بد من الثأر له . وإنك لظمئ إلى ما كانت تظمأ له نفس ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ، فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحول إليه واستمع له ، فقد يروي نفسك بما وعى من علم النصارى ، وما حفظ من سخف الروم . ولكن لا تنس أن تخلي بيننا وبين مابقي لك من خمر ، وأن تحكمنا فيما ستقدم عليك به العير بعد أيام" . ثم تضاحك القوم ورفعوا الأقداح إلى أفواههم ، ثم ردوها ولم يذروا فيها شيئاً .

قال الرومي : "فأما وأنتم تفقهون أمر هؤلاء النفر من قريش ، فما أشك في أنكم ستفهمون عني إن حدثتكم بما يضطرب في نفسي من الأمر . ولقد أسأت بكم الظن فمعذرة إليكم . لقد رأيتكم لا تحفلون إلا بما يحفل به أترابكم من اللهو ، ولا تقبلون إلا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة والنعيم" .

قال صفوان : "فإن لنا على ذلك عقولاً تستطيع أن ترقى إلى حكمتك العليا . ولكن ما رأيك في أنها زاهدة في هذه الحكمة ، راغبة عنها !! فإنا لم نأتك لتتحدث إلينا عن الآلهة ، وما ينبغي لغير قريش أن تتحدث عن آلهة قريش . ولقد أطلت فينا المقام ، فكنت خليقاً أن تعرف من أمرنا أكثر مما عرفت . وما نظنك إلا أدركت شيئاً مما لقي زيد بن عمرو ، وقد كان أوسطنا نسباً ، وأرفعنا حسباً . فخذ في حديث آخر غير حديث الآلهة ، فما كنا لنكره ذلك من شيخ قرشي ثم نرضاه من رومي غريب أقبل علينا ليسقينا الخمر ويسمعنا الغناء" .

قال الرومي وقد ظهر عليه بعض الحزن :" ألم أقل لكم إنـي كنـت مشـفقاً أن يسؤكم حديثي ، وإني كنت راغباً عن أن أؤذيكم!" .

قال فتى من القوم : "فإنك لم تؤذنا وإن حديثك لم يسؤنا ، وإنـك لم تظهرنـا بعد على هذا الحديث . ولكن في صفوان حدة وسرعة إلى الغضـب وسـيما حين يثقل عليه الشراب ، فامض في حديثك راشداً ، وأشـركنا في هـذا الهـم الـذي غـير سيرتك منذ الليلة" .

قال صفوان : "ما أدري ماذا عرض لي ! فإن حديثك لم يسـؤني و لم يؤذنـي ، وإنما أخذت في الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة ، فما أسرع مـا استحالت الدعابة إلى جد مر ، فامض في حديثك وخلاك ذم" .

قال الرومي : "أقبلوا على شأنكم ، وخذوا في لهوكـم ، أو تفرقـوا إلى بيوتكـم فقد تقدم الليل".

وأحس القوم أن نفس الرومي مقسمة بين الغضب والخوف ، فعادوا إلى الرفق بـه والتلطـف لـه ، حتـى ردوه الأمـن والهـدوء ، ثـم مضـوا يسـألونه عـن حديثـه ، ويلحون عليه في أن يتمه .

قال الرومي : "أتعرفون أني نصراني ؟" .

قال صفوان : "نعرف أنك نصراني كغيرك من الـروم ، لكنـا لم نـر منـك قـط إقبالاً على الدين ، ولا إمعاناً في النسك" .

قال الرومي: "فاعلموا أني لست نصرانياً ، أو اعلموا أني لم أخلـص للنصرانيـة قط ، وأني لم أقدم على بلدكم هذا النائي البعيد مـن بـلاد الـروم لأسقيكم الخمـر وأسمعكم الغناء ، وإنمـا أقبلـت إليكـم مهـاجراً بهـذه الوثنيـة الـتي كنـت أخفيهـا في بلادي من أرض الروم ، وأجد في إخفائها جهداً لا يحتمل ، وعناء لا يطاق" . فلما سمع القوم من حديث الرومي عجبوا له ، وشـغفت نفوسـهم بالقصـة فـأصغوا إليـه أشد الإصغاء .

قال الرومي : "إنكم لا تعرفـون مـن أمرنـا نحـن الـروم أقلـه وأيسـره . وإنكـم لتجهلون وثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثـة . ولـو قـد علمتـم مـن أمرنـا أكثر مما تعلمون لكان فهمكم عني أعمـق وأصـدق إن وثنيتنـا القديمـة ليسـت مـن اليسر والسذاجة بحيث ترون ما ترون ما أنتم عليـه مـن ديـن ، فـإن لآلهتنـا القدمـاء

أخباراً طوالاً، وأنباء غريبة، تكلف بها النفوس، وتألفها القلوب، وتصبوا إليها الطباع. وقد كان آلهتنا القدماء أشد اختلاطاً بنا، ومعاشرة لنا، واشتراكاً معنا في جد الحياة وهزلها من آلهتكم. فلا جرم تمكن حبها في قلوبنا، واختلط بنفوسنا، وجرى مع دمائنا، وكانت حاجتنا إليهم كحاجتنا إلى الهواء الذي نتنفسه، وإلى الطعام الذي نقيم به أودنا، وإلى الشراب الذي ننقع به الغلة ونبل الصدى، وإلى المعرفة التي نغذو بها عقولنا، ونرقي بها قلوبنا، وننقي بها طباعنا من الأوضار والآثام. فلما جاء الدين الجديد، ضقنا به أشد الضيق، ونفرنا منه أشد النفور، وقاومناه أعنف المقاومة وأقساها، وضحينا في سبيل آلهتنا القدماء بكثير جداً من النفوس والدماء والأموال أكثر مما تستطيعون أن تتصوروا. ولكن الإله الجديد كان أقوى من آلهتنا وأعظم سلطاناً، فلم تثبت له الآلهة، وإنما انهزمت أمامه وفرت من معابدها وهياكلها، وأذعن أكثرها لهذا الإله الجديد، ووفى أقلنا لأولئك الآلهة المشردين. وقد نشأت في أسرة من هذه الأسر التي توارثت الوفاء لأولئك الآلهة، والتي كانت تؤدي النصرانية لقيصر كما تؤدي له الضريبة التي يفرضها على الأموال، فإذا خلت إلى نفسها وفت لآلهتها، وأخلصت لها الدين محتاطة متحرجة، بالغة من التحرج والاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل. ولكن قيصر قد اشتد في دينه. ولم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة، وإنما أراد أن يخلص إلى دخائل النفوس وضمائر القلوب، وأن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم. فلقينا من ذلك جهداً أشد الجهد، وعنتاً أعظم العنت، حتى تحول كثير منا عما كان يضمر من حب آلهتنا. وإنا لفي ذلك العناء وإذا أنا أسمع حديثاً عن بلدكم هذا يغريني به ويدفعني إليه، ويخيل إلي أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم إلى العرب، فأقاموا فيها، وفرغوا لأهلها يسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يسطونه على الروم".

قال صفوان: "وما ذاك الحديث؟".

قال الرومي: "حديث ذلك الجيش النصراني الحبشي الذي أقبل على بلدكم هذا ليهدمه ويدمره، مقدماً بين يديه فيله العظيم. فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رد عنه أقبح الرد وأشنعه، وحتى سلطت عليه تلك الطير التي مزقته تمزيقاً".

قال صفوان: "فإن رب الحرم قد ذاد العدو عن الحرم، ما نجد في ذلك غرابة وعجباً".

قال الرومي : "أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب ، وأولناه ألواناً من التأويل . فأما رهباننا وأحبارنا فقد فهموا منه شيئاً آخر . ظن الأحبار والرهبان أن هذه آية قدمتها السماء بين يدي آيات أخرى أكبر منها وأعظم خطراً . وظن الأحبار والرهبان أن أمور الناس ستتغير وتتبدل، وأن ما أنزل على اليهود والنصارى من الدين سيتم في هذا البلد الذي رد عنه الفيل . وظننا نحن كما قلت لكم أن آلهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد ، وأنهم قد ردوا جيش الحبشة والروم عنه ، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون . وتمتلئ نفسي بحب الآلهة ، وتطمئن نفسي إلى هذا التأويل ، وتحدثني نفسي بالهجرة إلى بلادكم لألقي فيها آلهتنا ، ولأرى فيها تماثيلهم ، ولأعبدهم حراً ، وأتقرب إليهم ، مظهراً ذلك لا مستخيفاً به ولا محتاطاً فيه . وأفكر في الرحلة إلى هذه الأرض ، وفي الحياة التي سأحياها في هذا البلد ، وفي رزقي كيف أكسبه . فأتصل بالذين كانوا يفدون على بلادنا من تجاركم ، فأعلم منهم علم هذه البلاد ومن يعيش فيها من الناس . وأقدم مع بعض قوافلكم تاجراً أسقيكم خمر الروم ، وأسمعكم غناء الروم . وإن لي في بلادكم لأرباً غير هذا وذاك . وما أخفي عليكم أني لم أبلغ بلادكم ولم أستقر في أرضكم حتى أدركتني خيبة الأمل ، وحتى جعلت نفسي تحدثني بأن الأحبار والرهبان ربما كانوا أدنى مني إلى الحق ، وأقرب مني إلى الصواب ، فقد رأيت تماثيل آلهتكم ، ورأيت سيرتهم فيكم وسيرتكم فيهم ، فلم أعرف من هذا كله شيء ، ولم تعطف نفسي على صنم من هذه الأصنام القائمة ، ولم يمل قلبي إلى وثن من هذه الأوثان المنصوبة ، ولم يرتب ضميري في أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا في بلاد العرب ، ولكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه ولا نهتدي إليه.

هنالكم أخفيت أمري في مكة كما كنت أخفيه في طرسوس ، وأظهرت لكم نصرانيتي هذه الرقيقة كما كنت أظهرها في أرض قيصر ، وفرغت للتجارة وتثمير المال ، فجعلت أسقيكم الخمر ، وأسمعكم الغناء ، وأفيد منكم مالاً كثيراً . ولكنكم أخذتم منذ حين في هدم بيتكم هذا وتجديد بنائه ، فكان ذلكم مصدر ما أنا فيه من الاضطراب" .

قال صفوان : "وما ذاك ؟" .

قال الرومي : "ألم تفكروا في أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت والمسندة إليه ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم والبناء؟ !" .

هنالك نظر بعض القوم إلى بعض نظرة لا تخلو من معنى . وقال صفوان : "وماذا كنت تريد أن نصنع بها غير ما صنعنا؟ ! " .

قال الرومي : " لم أكن أريد شيئاً وإنما كنت أنتظر" .

قال صفوان : "كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها ، وأن تبهرنا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين . ولكن الآلهة لم تتحول فحولناها ، ولم تنتقل فنقلناها . وإذا تم البناء فسنرد ما نقلناها منها إلى أماكنها الأولى فماذا تنكر من ذلك؟ إنا لم ننكر منه شيئاً" .

قال الرومي : "فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر ؟" .

قال صفوان ضاحكاً: "ولكن الآلهة لم تحقق آمالنا ، ولم تفعل ما كنا ننتظر منها . أفنكره الآلهة على ما لا تريد ! يا غلام ! قد جفت حلوقنا فاملأ الأقداح".

ثم التفت إلى الرومي وهو يقول : "إنك لتعني نفسك بأيسر الأمر وأهونه . إن أخص ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم لا ما نريد نحن" .

قال الرومي : " ولكنهم لم يفعلوا شيئاً " .

قال صفوان : "فمن حقهم ألا يفعلوا ، كما أن من حقهم أن يفعلوا" .

قال الرومي : "فإذا أتممتم بناءكم وبدا لكم ألا تردوا آلهتكم إلى أماكنها أتراها ترتد إليها على رغمكم؟".

قال صفوان : "ما أدري وما يعنيني من ذلك شيء أنتظر حتى يتم البناء ، فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها إلى أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر . وإن رأيتنا نحن نردها إلى أماكنها كما حولناها عنها فاعلم أنها قد أخذتنا بذلك وأرادتنا عليه . وإن رأيتها قائمة حيث وضعناها ورأيتنا نتركها حيث هي فاعلم أنها تريد ذلك ، وتطمئن إلى أماكنها الجديدة . وأرح نفسك كما نريح أنفسنا من التفكير في الآلهة ، وأشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن أمور الآلهة بأمور الناس ، وعن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء الثلاث اللاتي يوقعن ويغنين فيكلفننا من أمرنا شططاً" .

وتفرق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومي آخر الليل ، وإن بعضهم ليقول لبعض: ويلكم! لقد فطن هذا الرومي لما فطنتم لـه . ولئن جاز لنا نحن أن نشك في آلهتنا أو نسخر منها ، فما ينبغي أن يجوز ذلك لرومي يسقينا الخمر ويسمعنا الغناء . ويلكم ! ارفعوا ذلك إلى الملأ من قريش ! ليدبروا أمرهم وأمر الآلهة ، فإنه في حاجة إلى التدبير ، وليحتاطوا أن يشيع هذا الشك في عامة الناس وضعفائهم ، وفي هؤلاء الأجانب الذين يملئون مكة من الفرس والحبش والروم .

ولكنهم راحوا على صاحبهم الرومي من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم ولذتهم ، فلم يجدوه ولم يجدوا إماءه الثلاث ، وإنما وجدوا حانوتاً خالياً إلا من دنان وزقاق كان فيها فضل من شراب .

واستقر حديث الرومي في نفوس هؤلاء الفتيان ، وما أدري أتحدثوا به إلى الملأ من قريش أم اخفوه عليهم ، ولكنهم لم ينسوه على كل حال ، وإنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت ، ويتساءلون إذا التقوا - كما يسأل كل واحد منهم منفرداً - : ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم ؟ أيسعون إلى هذه الأماكن ليستقروا فيها ، أم ينقلون إلى هذه الأماكن محمولين على الأيدي والأعناق كما حولوا عنها محمولين على الأيدي والأعناق حين أخذت قريش في هدم البيت ؟.

وليس من شك في أن الملأ من قريش قد فكروا في هذا الأمر كما فكر فيه الشباب ، وانتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب . ولكن شيوخ قريش كان أمكر وأمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئاً . وكانوا أضبط لأمورهم وأملك لعواطفهم من أن يظهروا الشباب وضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب ، وشاع في نفوسهم من شك ، حين رأوا آلهتهم ينقلون كما ينقل المتاع، ويرصون في أماكنهم الجديدة كما يرص الأثاث . ومهما يكن من شيء فقد أتمت قريش بناء البيت ، وانتظرت بالآلهة يوماً ويوماً ، فلما لم تجد منها إرادة ولا حركة ولا تحولاً إلى أماكنها ردتها إلى تلك الأماكن رداً، وحملتها إليها حملاً . واستقر في نفوس الشيوخ والشباب شك عظيم . وربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ والشباب إلى ما هو أبعد من الشك والريب، وأدنى إلى الجحود والإنكار .

ولكن محنة قريش في آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذي قد يفطن له أذكياء القلوب ، وأصحاب العقول النافذة والأحلام الراجحة ، ولكنه يخفى عادة على

الدهماء ويجل عن أن تعرفه عامة الناس، وإنما جاوزته إلى شيء خطير رأت فيه قريش خطباً عظيماً وافتضاحاً منكراً لما لم يكن ينبغي أن يفتضح من أمر الآلهة. فقد أسندت قريش من آلهتها إلى البيت ما أسندت، وأقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت، وخيل إليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق، وخلصت من هذا العناء الثقيل. ثم اجتهد الأشراف والسادة في أن شغلوا عامة الناس ودهماءهم عن التفكير في جمود الآلهة وقصورهم، فأقاموا الأعياد، وأكثروا من التقريب للآلهة، وأسرفوا في أموالهم ليطعموا الفقراء والبائسين، وألحوا في ذلك وأقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة إلى من كان يضرب حولها من الأعراب الذين جعلوا يقدمون على مكة، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل والشاء التي كانت تقرب إلى الآلهة في غير انقطاع. ولكن قريشاً تصبح ذات يوم فتغدو على البيت فترى، ويا هول ما ترى! ترى آلهتها مجدلين قد صرعوا حول البيت تصريعاً، منهم المستلقي على ظهره، ومنهم المنكب على وجهه، ومنهم المضطجع على أحد جنبيه. وما أصف لك شيئاً مما ملأ قلوب قريش من الروع والهلع، فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدرت إعظام العامة لآلهتها، وحرص الخاصة على ما ينبغي لهؤلاء الآلهة من جلال ووقار.

وتقبل قريش على آلهتها فتردهم إلى أماكنهم، وتقرهم في مواضعهم، ثم تستشير وتستخير وتدير بينها ألوان الرأي، ثم يستقر الأمر بينها على أن الآلهة لم يرضوا بعد عما نحر لهم من ضحايا وما سفك حولهم من دماء. فتستأنف قريش ما كانت قد أخذت تعرض عنه من التضحية والتقريب. وهذه الإبل تنحر، وهذه الشاء تذبح، وهؤلاء الفقراء ينعمون بعيش رغد وسعة متصلة. ولكن قريشاً تصبح من الغد فإذا آلهتها مجدلون حول البيت، قد فعلت بهم الأفاعيل!.

ويعظم لذلك هم قريش، وتمتلئ لذلك قلوب قريش حزناً وأسى، منهم الصادق المخلص، ومنهم المشفق الماكر، ولكنهم على كل حال يقيمون الأصنام، ويجددون التضحية، ويستشيرون الكهان ويجدون في البحث والاستقصاء، لعل في مكة قوماً يمكرون بالآلهة، ويدبرون للحرم وأهله كيداً. وقد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار، فلم ير الحراس شيئاً ينكرونه. وأقاموا الحراس حول البيت آناء الليل، فقاموا حذرين أيقاظاً ينتظرون، ولكن انتظارهم لم يطل وإنما هو انتصاف الليل وتقدمه بعد ذلك شيئاً، وإذا بضجيج يسمع، وأصوات تقرع الآذان. وينظر

الحراس - ويا هول ما يرون ! - الآلهة وقد صرعوا حول البيت تصريعاً ، فيفرون وقد ملكهم الخوف واستأثر بهم الفزع.

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما تخفق ، وجمدت له الدماء فما تجري ، ووجمت له النفوس فما تستطيع رؤية ولا تفكيراً ، وهلعت له النساء في البيوت ، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً ، فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاء ودماء الإبل والشاء ما كانت لترضي الآلهة بعد أن حولت عن أماكنها ، وبعد أن هدم بيتها وأعيد بناؤه . ولا بد من أن يقرب إلى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا يجودون عليهم بالأموال وحدها ، وإنما يتقربون إليهم بالأنفس أيضاً . وقال الكاهن لقريش : يجب أن تقربوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة رجلا وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت ، وفتى وفتاة في نضرة الشباب ، وصبياً وصبية من الإحداث . فإن لم تفعلوا فما ندري ماذا يصنع الآلهة ، فإنهم لم يفعلوا إلى الآن أكثر من أن قدموا إليكم النذر ، فأسرعوا إلى إرضائهم ، فإنا نخشى أن تسوء العاقبة ، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم ، وألا تمضي بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسلط عليكم شر عظيم . ولو استمع الملأ من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء وعامة الناس لأطاعوا أمر الكهان ، ولتقربوا إلى آلهتهم بهذا الإثم المنكر . ولكن الملأ من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهر ، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم ، فقد خلصوا نجياً ذات ليلة في دار ندوتهم ، وجعلوا يتشاورون ويديرون أمرهم بينهم ، وليس من شك في أنهم قد تلاوموا وتلاحوا ، وألقى بعضهم على بعض تبعة ما كان من هدم البيت وتجديد البناء . ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يذعنوا لما يأخذهم به الكهان ، ولا يقدموا إلى آلهتهم أبناءهم وبناتهم ، وأن أمر الآلهة في نفوس هؤلاء الشيوخ الذين عركتهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر . ولكن الملأ من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه ، ثم لا يلبثون أن يعرفوه ، شيخ قد تقدمت به السن ، واتخذ زي النجديين ، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة ، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو يدنو منه أحد . ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدي ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم ، وحين وضع الأمين الركن الأسود في موضعه من البيت . رأوه يريد أن يشارك في البناء فيرد عن ذلك رداً عنيفاً ، فيظهر السخط ويعلن النذير ، ثم يستخفي فلا يظهرون له على أثر .

فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا عليه يسألونه من أين جاء، ومن عسى أن يكون؟ فلا يرد على سؤالهم هذا جواباً، وإنما يقول لهم في صوت نحيف بعيد: " لقد أخذت النذر تتحقق يا معشر قريش. ألم أنهكم عن أن تحكموا بينكم رجلاً كان أصغركم سناً، وأقلكم مالاً، وأشدكم إعراضاً عن آلهتكم، وأبعدكم من الاحتفاء بهم والإكرام لهم، فقد أبيتم إلا أن تفعلوا، وغضبت الآلهة مما فعلتم وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا نقضتم بناءكم شيئاً، فأخرجتم الركن من موضعه، ثم رددتموه إليه بعد أن تضحوا لآلهتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة، لا قبل لكم بها ولا قدرة لكم عليها. والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين، فإنكم إن أبقيتم عليه لم يبق عليكم، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً".

ويسمع الملأ من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له، حتى إذا انقطع الصوت وهموا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدث إليهم.

هنالك تمتلىء قلوب القوم حيرة، ويكادون يصرفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ: من أين جاء؟ ومن عسى أن يكون؟ ولكن الوليد بن المغيرة يقول في صوت هادئ مطمئن: "ويحكم يا معشر قريش، ما أرى إلا أن الشيطان يريد أن يعبث بكم، ويصرفكم عما ألفتم وعما ألف الناس فيكم من الحزم والعزم، ومن الأناة والوقار. إنه الشيطان يا معشر قريش، ما أشك في ذلك، إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم. وإنه قد أنذركم بالشر، ودعاكم إلى أمر فظيع. أرأيتكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف، وتستيقظ فيكم الفتنة، وينصب بعضكم لبعض الحرب، ويدعو بعضكم بعضاً إلى القتال؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمعتم لهذا المشير الخائن، والنصيح الغاش، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به، إلا مضيعون للحق، مهدرون للرحمة قاطعون للرحم، تجزون الخير بالشر، والمعروف بالمنكر! فقد حقن الأمين دماءكم، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه. وقد أقر الأمين فيكم السلم، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب. لا والله ما دلكم هذا الشيطان إلا على الغي، ولا دعاكم إلا إلى الإثم. ردوا عليكم فضل أحلامكم، ولا تكبروا من أمر هذه

الأحجار غير كبير . إني وا لله مـا أراهـا كلهـا تعـدل قطـرة مـن هـذه الدمـاء الـتي ترادون على أن تسـفكوها. أي أسـرة قريـش تريـدون أن تفجعوهـا في كبيرهـا أو صغيرها ؟ أيكم تطيق نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنتـه ، وبأبيـه أو أمه ؟ إنكم لم تنسوا بعد قصة عبد المطلب وابنه عبدا لله ، لقد كدتم تبطشون به، لأنه كان يأبى أن يضحـي بابنـه للآلهة . فـإنكم لا تـرادون الآن علـى أن تضحـوا بواحد من قريش ، وإنما ترادون على أن تضحوا بستة من خيركم ، لا تسمعوا لهـذا اللغو ! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون في نفوسكم مما تظنون ، وممـا يخيـل إليكم الشيطان". قال أمية بن خلف : "مهلاً يا وليد! إنك لتقول الحـق وتدعـو إلى الرشد . ولكن خفض من صوتك ، ولتكتم على الناس هذا الحديث ، فإنــه إذا ذاع لم ينتج إلا شراً، والأمر بعد ذلك في حاجة إلى التدبير . فما ينبغي أن يـروح النـاس عن آلهتهم وهم قائمون ، ثم يغدو عليهم وهـم مجلدون" .

قال الوليد : "ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعبث بنا وبهذه الأحجار ، يتخذهـا أسباباً ووسائل لكيد يدبره ، وشر يقـدره . يقيمهـا أثنـاء النهـار ، وينيمهـا إذا جـن الليل" .

قال أمية : "فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان ، ونكره بها الآلهة على أن يظلوا يبيتوا كما عرفهم الناس قائمين ، غير نائمين ولا مجدلين" .

قال الوليد: "كلوا إليَّ أمر هؤلاء الآلهة ، فعلي أن أجد لكم منه مخرجاً" .

وتفرق الملأ من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع. ولكن الوليـد غدا على ذلك البناء القبطي الذي أقام لهم البيت ، فاستشاره في ذلك ، وأفضى إليه برأيه جلياً صريحاً في هذه الأحجار . فلما سمع منه "باخوم" أطـرق شيئاً ، ثـم قـال مبتسماً : "هلا صنعتم بآلهتكم ما نصنع نحن بما نريد تثبيته من البناء!" .

قال الوليد : "وما ذاك ؟" .

قال باخوم وهو لا يملك نفسـه مـن الضحـك : "شـدوا آلهتكـم بأسباب مـن الرصاص" .

قال الوليد : "هو ذاك! ".

والغريب أن أصنام قريش ثبتت في أماكنها واستقرت في مواضعها بعد هذه الحيلة ، وعجزت عن أن تخلص من قيودها الرصاصية تلك فلم تراها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها ، حتى كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد تحطمت تحطيماً .

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب الزهري ، عن عبيد الله بن عبدالله ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً" . فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع إلى قفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك :

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

انتهى من هامش السيرة .

عبادة الأصنام وبيوتها لدى بعض الأمم

ولقد ذكر العلامة المسعودي في تاريخه المسمى "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" تفصيلات وافية عن البيوت المعظمة والهياكل وبيوت النيران والأصنام ، التي كانت عند بعض الأمم كاليونانيين والروم والصقالبة والصائبة والفرس .

نذكر منها ما يناسب مبحثنا هذا فقط ، فلو نقلنا عنه جميع ما ذكره لطال بنا الكلام . وإليك ما جاء فيه :

كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف ، يعتقدون أن الله عز وجل جسم وأن الملائكة أجسام لها أقدار ، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري عز وجل ، وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور ، يعبدونها وقربوا لها القرابين ونذروا لها النذور ، لشبهها عندهم بالباري تعالى وقربها منه ، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار ، حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة ، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين

ا لله ، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب على أمر ا لله ، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم .

فمكثوا على ذلك دهراً ، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر ، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها ، فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة ، وكل صنف منهم يعظم كوكباً منها ويقرب لها نوعاً من القربان ، خلاف ما للآخر ، على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون ، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب .

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام على مرور الدهور معظم في سائر الأعصار لأنه بيت زحل ، وأن زحل تولاه ، ولأن زحل من شأنه البقاء والثبوت ، فما كان له فغير زائل ولا داثر وعن التعظيم غير خامل ، وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها ، ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى ا لله ، وألغوا عبادة الكواكب .

فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر يوداسف بأرض الهند ، وكان هندياً خرج من أرض الهند إلى السند ، ثم سار إلى بلاد ساجستان وبلاد زابلستان ، وهي بلاد فيروز بن كبك ، ثم دخل السند إلى كرمان فتنبأ وزعم أنه رسول ا لله وأنه واسطة بين ا لله وبين خلقه ، وأتى أرض فارس وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس ، وقيل ذلك في جم شيد ، وهو أول من أظهر مذاهب الصائبة على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب .

وقد كان يوداسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم ، والاشتغال بما علا من العوالم ، إذ كان من هنالك بدو النفوس وإليها يقع الصدر من هذا العالم ، (وجدد يوداسف) عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها ، لشبه ذكرها ، وقرب إلى عقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع .

وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم ، أنه أول من عظم النار ودعا الناس إلى تعظيمها ، وقال أنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ، لأن النور عنده أفضل من الظلمة وجعل للنور مراتب .

(ثم تنازع هؤلاء) بعده فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء تقرباً إلى الله بذلك ، ثم تنازعوا برهة من الزمان (ونشأ عمرو بن لحي) فساد قومه بمكة ، واستولى على أمر البيت ، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب نتخذها ، نستنصر بها فننصر ، ونستسقي بها فنسقى ، وكل من سألها يعطى ، فطلب منهم صنماً يدعونه "هبل" فسار به إلى مكة ونصبه على الكعبة ، ومعه "إساف ونائلة" ، ودعا الناس إلى تعظيمها وعبادتها ، ففعلوا ذلك ، إلى أن أظهر الله الإسلام ، وبعث محمداً عليه السلام فطهر البلاد وأنقذ العباد .

(وقد قال هؤلاء) إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة .

(وبيت ثان) معظم على رأس جبل بأصبهان يقال له "مارس" وكانت فيه أصنام ، إلى أن أخرجها منه بستاسف الملك لما تمجس ، وجعله بيت ناره وذلك على ثلاثة فراسخ من أصبهان ، وهذا البيت معظم عند المجوس إلى هذه الغاية .

(والبيت الثالث) يدعى "سندوساب" ببلاد الهند ، وله قرابين تقرب ، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والرافعة والمنفردة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها ، فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث فإنه بيت مشهور ببلاد الهند .

(والبيت الرابع) هو "النوبهار" الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر ، وكان من يلي سدانته تعظمه الملوك في ذلك الصقع ، وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه وتحمل إليه الأموال ، وكانت عليه وقوف ، وكان الموكل بسدانته يدعى "البرمك" وهو سمة عامة لكل سدنته ، ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت ، وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييداً ، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر ، طول الشقة مائة ذراع فما دونها ، قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير .

فيقال والله أعلم: أن الريح خطفت يوماً من بعض تلك الشقاق ورمت به ، فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً ، وقيل : أكثر من تلك المسافة ، وهذا يدل على زيادته في الجو وتشييد بنيانه ، وكانت مسافة البحر المحيط بهذا البنيان أميالاً لم نذكرها إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علو السور وعرضه .

(قال المسعودي) : وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على النوبهار ببلخ كتاباً بالفارسية ترجمته ، قال يوداسف : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال : عقل ، وصبر ، ومال ، وإذا تحته بالعربية : كذب يوداسف الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان .

(والبيت الخامس) بيت "غمدان" الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن ، وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة ، وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فهو في وقتنا هذا خراب قد هدم فصار تلاً عظيماً ، وقد كان الوزير علي بن موسى الجراح حين نفي إلى اليمن وصار إلى صنعاء بنى فيه سقاية وحفر فيه بئراً .

(ورأيت غمدان) ردماً وتلاً عظيماً قد انهدم بنيانه وصار جبل تراب كأنه لم يكن ، وقد كان "أسعد بن جعفر" صاحب قلعة كحلان المنازل بها وصاحب مخاليف اليمن في هذا الوقت وهو المعظم في اليمن ، أراد أن يبني غمدان ، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني أن لا يتعرض لشيء من ذلك ، إذ كان بناؤه على يدي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر في صقع هذا العالم تأثيراً عظيماً ، وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبي الصلت أخو أمية واسمه ربيعة في مدحه لسيف بن ذي يزن ، وقيل بل الممدوح بهذا الشعر معد يكرب بن سيف حيث يقول :

اشرب هنياً عليك التاج مرتفعا   برأس غمدان داراً منك محلالا

وكان أبو أمية جاهلياً وهو القائل في أصحاب الفيل :

إن آيات ربنا بينات   ما يماري بهن إلا كفور

غلب الفيل بالمغمس حتى   ظل يحفو كأنه مسحور

حوله من شباب كندة فتيان   ملاويت في الحروب صقور

واضعاً خلفه الجرار كما   قطر صخر من جلنب محرور

وقيل: إن ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا في البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام كثيرة .

(والبيت السادس) "كاوسان" بناه كاوس الملك بناء عجيباً على الاسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية ، وهو الشمس ، بمدينة فرغانة من مدائن خراسان ،

وخربه المعتصم با لله ، ولهدمه هذا البيت خبر ظريف قد أتينا على ذكره في كتاب أخبار الزمان .

(والبيت السابع) بأعالي بلاد الصين بناه "ولد عامور بن بعويل بن يافث بن نوح" وأفرده للعلة الأولى ، إذ كان منشأ هذا الملك ومده وباعث الأمور إليه ، وقيل : إنما بناه بعض ملوك الترك من قديم الزمان وجعله سبعة أبيات في كل بيت منها سبع كوى ، يقابل كل كوة صورة منصوبة على صورة من الخمسة والنيرين ، من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت أو زمرد على اختلاف ألوان الجواهر ، ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين ، بما قد زخرف لهم فيه القول وزينه لهم الشيطان ، ولهم في هذا الهيكل علوم في اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذي تحدثه ، وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية ، وقد قرب ذلك إلى عقولهم بأن جعل لهم مثالاً من الشاهد يدل على ما غاب عنهم من فعل الأجسام السماوية في هذا العالم ، وهو على خشب الديباج الذي ينسج فيه ، فبضرب من حركات الصانع بتلك الخشب والخيوط الإبريسم تحدث ضروب من الحركات ، فإذا اتصلت أفعاله وتواترت حركاته من النسج للثوب الديباج تمت الصورة فيه ، فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر ، وبآخر رأسه ، وبآخر رجلاه ، فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع ، فجعلوا هذا المثال واتصال الإبريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع في ذلك من الأفعال ، مثالاً لما ذكرنا من الكواكب العلوية وهي الأجسام السماوية ، فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر فرخ وكذلك سائر وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ، ويوجد ويعدم ويتصل وينفصل ، ويجتمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد ونبات أو حيوان ناطق أو غير ناطق ، فإنما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ما وصفنا من نسج الديباج وغيره من الصانع ، وأهل صناعة النجوم لا يتناكرون أن يقولوا أعطته الزهرة كذا أو أعطاه المريخ كذا ، كالشقرة وصهوبة الشعر ، وأعطاه عطارد دقة الصنعة ، وأعطاه المشتري الحياء والعلم والدين ، وأعطته الشمس كذا ، وأعطاه القمر كذا ، وهذا باب يكثر القول فيه ويتسع وصف مذاهب الناس فيه وما قالوه في بابه . انتهى من تاريخ المسعودي .

انتهى بعون الله تعالى الجزء الأول

ويتلوه الجزء الثاني ، وأوله :

مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام

المحتويات